



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي



كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

العمل المعجمي عند أبي علي القالي من خلال كتابه البارع في اللغة - دراسة وصفية تحليلية -

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي
تخصّص: لسانيات عامة

إشراف الأستاذ الدكتور:
أحمد الشايب عرباوي

إعداد الطالب:
العربي طريل

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	المؤسسة الأصلية	الصفة
العزوزي حرزولي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	رئيسًا
أحمد الشايب عرباوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	مشرقًا ومقرّرًا
علي زيتونة مسعود	أستاذ محاضر - أ -	جامعة الوادي	مناقشًا
عبد القادر بقادر	أستاذ التعليم العالي	جامعة ورقلة	مناقشًا
عبد الناصر مشري	أستاذ التعليم العالي	جامعة ورقلة	مناقشًا
نبيل هغيلي	أستاذ محاضر - أ -	جامعة قلمة	مناقشًا

السنة الجامعية

1443-1444 هـ / 2022-2023م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ج

إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

[سورة البقرة، الآية: 115]

للإهداء

أهدي هذا العمل البحثي المتواضع
إلى الوالدين الكريمين
وإلى كل أفراد العائلة

سُكْرٌ وعرفاء

ولم يكفر العُرف إلا شقيّ ولم يشكر الله إلا سعيدُ

فالحمد والشكر لله من قبلُ ومن بعدُ

الشكر موصول لكلّ من ساعد على إتمام هذا البحث

على الوجه الأحسن

انطلاقاً من المشرف الأستاذ الدكتور: أحمد الشايب عريّاي

كما لا يفوتنا أن نتقدّم بجزيل الشكر إلى الأصدقاء والزملاء دون

استثناء، ممن صاحبنا ويصاحبنا هنا في قسم اللغة العربية وآدابها

بجامعة حمّة لخضر – الوادي.

إلى كافة أصدقاء الدراسة والتدريس في قطاع التربية سابقا

موفور الشكر وأسمى عبارات التحية والتقدير والاحترام.

وكل من ساعد على إتمام هذا البحث من قريب أو بعيد.

شكراً

مقدمة

مقدمة

الله - سبحانه وتعالى - أجرى سنّته الكونيّة على البشريّة جمعاء في اختلاف الألسنة والألوان، إذ يقول جلّ وعلا في محكم التنزيل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَلَدِكُمْ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾¹. فالبشر وان اجتمعوا واشتركوا وتشابهوا في استعمال اللّغة في تواصلهم، وقضاء حوائجهم المختلفة إلّا أنّ لغاتهم تعدّدت بتعدّد الأجناس والأعراق.

ولا يختلف اثنان في وصف اللّغة بالظاهرة الاجتماعية التي تنشأ في ظلّ كيان اجتماعي لا تنفك عنه أبداً في مجال التأثير، حيث تنمو بنموّه وتتسع باتّساعه، ولم تحدّ اللّغة العربيّة عن هذا الأمر، إذ هي المنحدرة من الأصل السّامي، وجذورها ضاربة في القدم حقاً، والدّارس للّغة العربيّة يدرك تماماً القيمة العلميّة للبحث في هذا المجال، فهو يرى فيها من الميزات والخصائص ما يؤهلها لئلا تكون ميداناً خصباً للدراسة والبحث.

تعتبر اللّغة العربيّة لغة اشتقاقية، فهي مرنة طيّعة يصيرها العالم والعارف بها كيفما شاء نثراً وشعراً، وتراث الأولين هو خير دليل على ذلك، وأحد المظاهر التي تنمّ على خصوصيّة هذه اللّغة وأربابها الذين أبدعوا فيها، ومما يلفت الانتباه حقاً، ويعي ذلك كلّ باحث ومحقّق هو أنّ هذه اللّغة بقيت صامدة على مرّ الدّهور بحيث لم تتأثّر بالظّروف الخارجيّة عنها التّأثّر الكبير الذي من شأنه أن يُميّتها أو أن يذهب بأهمّ خصائصها حتّى.

والسرّ في هذا كلّهُ أنّ المولى - سبحانه وتعالى - له الحكمة البالغة فيما يشاء ويفعل، فقد فضّلها على غيرها من اللّغات، واختارها لشرعه إذ أنزل بها أحسن كتبه "القرآن الكريم" - كلام الله - قال - جلّ وعلا: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾². وعلّق معاني الوحيين "القرآن الكريم" والحديث النبوي الشريف" على ما تقتضيه، وكفى بهذا تفضيلاً وتشريفاً.

فالعرب الأول وعوا المسؤولية الملقاة على عاتقهم حقّ الوعي، فسعوا إلى الحفاظ على لغتهم التي هي عماد دينهم، ووسيلة تبليغ الشّرع تعلّماً وتعليماً، ومعلوم أنّ الدّراية بالكتاب والسّنّة موقوفة على سعة الاطّلاع بها، فعملوا على جمعها وتدوينها بعد أن كانت محفوظة في الصّدور، ولا يتأتّى أخذها أو تناقلها إلّا عن طريق الرواية والمشافهة.

إنّ من أهمّ مظاهر النيات الحسنة في الحفاظ على اللّغة العربيّة جهود العلماء اللّغويين في تأليف الكتب والمعاجم، وهذه الأخيرة في الحقيقة هي من الأهميّة بمكان، إذ تحتضن بين دفتيها مفردات اللّغة موضّحة لمعانيها، وشارحة ومفسّرة لكلماتها، ومميّزة للأصيل منها والدّخيل.

¹ سورة الروم، الآية 22.

² سورة الشعراء، الآية 195.

هذا، ولا يمارى اثنان في مهارة اللّغويين العرب الأوّل في فنّ الصّناعة المعجميّة، ونتاجهم خير دليل على ذلك استهلالا بباكورة المعاجم العربيّة معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ)، ومثل هذا لا يتأتّى إلّا من أشخاص واعين قيمة هذه اللّغة، وكم عزّ أقوام بعزّ لغات.

إنّ من بديع القول أن نفيض الكلام في الصّناعة المعجميّة في الغرب الإسلامي (المغرب العربي والأندلس)، فالتّطوّر الحاصل شرقا في المجال اللّغوي عموما والصّناعة المعجميّة خصوصا كان له الأثر الكبير غربا. فهم أبناء أمة واحدة ولسان واحد، وأسباب الاتّصال المختلفة متوقّرة. فالمغرب العربي وإن تأخّرت فيه مظاهر الصّناعة المعجميّة المتمثّلة في الكتب اللّغوية والمعاجم بأنواعها إلّا أنّه حجز لنفسه مكانا مرموقا بدءا بعمل أبي علي القالي (356 هـ) اللّغوي والمعجمي.

وإذا كان بروز معجم العين للخليل في المشرق يعدّ المظهر الأسمى في الصّناعة المعجميّة العربيّة فإنّ المغرب قد احتفى بمعجم البارع في اللّغة لأبي علي القالي، وقد اتّخذ مثالا يحتذى وبه يقتدى في التّأليف اللّغوي والمعجمي.

ومهما يكن من أمر فإنّ الأوّل وتاليه يرسمان طريقا لأهل اللّغة العربيّة في كنيّة الحفاظ على اللّغة من الضّياع، فالمشرق مهد الدّراسات المعجميّة العربيّة والمغرب والأندلس تلقّفها من بعد فظهر فيه من المعجميين من ألف وصنّف، وأبدع وأمتع.

ومن هذا المنطلق جاء بحثنا موسوما بالعمل المعجمي عند أبي علي القالي من خلال كتابه "البارع في اللّغة" دراسة وصفية تحليليّة.

لقد اكتسبت اللّغة العربيّة صبغة القدسيّة منذ ظهور الإسلام شريعة، فالعرب الأوّل لم يدّخروا جهدا في الحفاظ عليها لكونها عماد دينهم الجديد (الإسلام)، فالأمر المقدّس هو الذي دفع أبناء العربيّة إلى الحفاظ على لغتهم، ثمّ إنّهم كانوا موقنين بأنّ تقدّم الأمم والبلدان في جميع المجالات منوط بالعلم، والعلم وسيلته اللّغة، ومن ثمّة كانت العربيّة لغة العلم عند العرب.

لما وقعت أهمية اللّغة العربيّة في أذهان العلماء اللّغويين موقعها الصّحيح وأحسّوا بخطورة ضياعها سعوا إلى جمعها من منابعها في البوادي ومضارب الفصاحة، حيث كانوا يتتبّعون مواطن العرب الأعراب الأقحاح الفصحاء قصد أخذ وتحصيل اللّغة عنهم مشافهة، وما عجزوا عن تحصيله بالطّريق الأسمى وجدوه رواية.

ومهما كانت طريقة جمع اللغة مشافهة أو رواية نقلية فإن ذلك أمر مطلوب محمود، ذلك أن هؤلاء العلماء الحفظة كلّ منهم يسعى للهدف النبيل، ألا وهو جمع وتدوين اللغة العربية بأخذها من مظاهرها ومصادرها الأصلية، ذلك أنهم يريدون تحقيق الأمر الديني من جهة، ومن جهة أخرى تحصيل مادة يعتمد عليها في الدرس اللغوي العربي، وكفيلة له بتوقّر أسباب التطوّر والبروز.

فالعلماء والزوّاة يجمعون اللغة العربية ووسيلتهم في تخزينها الحفظ ولا سبيل لهم غيره، ولما كان الإنسان معرض تقصير وتفریط ونسيان، والعقل البشري اقتضت سنّة المولى -عزّ وجلّ- أن يكون محدوداً أدرك أهل اللغة حينئذ أنهم في حاجة ماسّة إلى ما يحفظ ثروتهم اللغوية، ويضمن بقاءها والإفادة ممّا حفظ في الصّدور قبل. ولقد وجدوا غايتهم في الكتابة والتدوين، والكلام عن الكتابة يسوقنا حتماً إلى الحديث عن الألفباء العربية، فهذه الأخيرة كانت بدورها قد شهدت تطوّراً في ضوء الصنّاعة المعجميّة، وما كان لها أن تستقرّ على هذه الحالة التي نراها اليوم إلاّ بجهود وجهود من علماء اللغة العربية بدءاً بأبي الأسود الدؤلي (69هـ) ونصر بن عاصم الليثي (89هـ) وغيرهما، وانتهاءً بالخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) -رحمه الله.

فالعلماء والزوّاة وطلّاب العربية لما استقرّت الألفباء العربية، وعرفت الكتابة وتوقّرت وسائلها قفzوا على مرحلة الحفظ في الصّدور إلى التدوين في الطّروس والسّطور، وانبرى لهذا الأمر علماء من مثل الكسائي (189هـ) والأصمعي (216هـ) راوية العرب الأكبر، فكلّا الرّجلين قد عملا على تحصيل اللغة وتدوينها عن العرب الفصحاء وقد أنفدا عدّة محابر في سبيل جمع تراث الأمّة العربية مصوناً عن كلّ شائبة ودخيل، ليتوارثه الخلف جيلاً فجيلاً.

هذا، وفي مرحلة متأخرة من التدوين والكتابة ظهر ما يسمى بالرسائل الإفرادية، وهي رسائل لغوية ويطلق عليها لما جمع بعضها إلى بعض كتب الموضوعات، وطريقة الجمع فيها تعتمد جمع كلمات اللغة ومفرداتها التي تنتمي إلى حقل دلالي واحد، نحو: رسالة في الخيل، اللبن، الكرم...

ولم يلبث اللغويون من ذوي التّأليف على هذه الحالة إلا قليلاً حتى بزغ فجر جديد في التّأليف عند العرب، حيث ظهرت المعاجم اللفظية التي تجمع بين دفتيها مفردات اللغة العربية تحت ترتيب معين. وقد اعتبرت مرحلة المعاجم اللفظية هذه مرحلة النضج في الدرس اللغوي المعجمي العربي، خاصة وأن المعاجم تطورت سواء أكان ذلك في الترتيب الخارجي أو الداخلي.

أما من حيث القيمة العلمية فالمعاجم اللغوية تمثل المصادر الأساسية للغة العربية، فهي ملاذ الباحث ومريد اللغة وقضاياها المختلفة، فعلم المعجمية لم يخالف السنن حيث بدأ صغيراً ثم نما وتطور، حتى أحدث فيه الباحثون عدة مواضيع وطرقوا فيه عديد القضايا لينبئوا عن خصوبته، وأنه مجال للإبداع لكل من أوتي حظاً من اللغة وعلومها.

ولقد حوت هذه المعاجم اللغوية ألفاظ العربية مرتبة بطرائق مبدعة وطرق كثيرة في معالجة المادة المعجمية، حتى إنك لتشكّ من كثرتها في بلوغها جلّ الاحتمالات الممكنة لذلك إن لم نقل كلّها. ولقد ولع كثير من المعجميين بعمل الخليل بن أحمد المعجمي والمتمثل في كتابه الفريد "العين"، حيث أسّس بصنيعه هذا للمدرسة الصوتية في الصناعة المعجمية، ولما نذكر مصطلح مدرسة فهذا يوحي بالضرورة إلى رائد في الصنعة والقرن، وله أتباع في هذه الطريقة وهذا المنهج.

فكان ممن اقتفى أثره في ذلك الأزهري (370هـ) في تهذيبه، والصاحب بن عباد (385هـ) في محيطه، وابن سيده الأندلسي (458هـ) في محكمه، والقيالي (356هـ) في بارعه "البارع في اللغة".

وهذا الأخير "البارع في اللغة" لأبي علي القالي هو موضوع بحثنا، حيث اختير للدراسة التطبيقية الكاشفة عن القضايا النظرية والخطوات الإجرائية التي تضمنتها المعاجم اللفظية الخاصة بهذه المدرسة من جهة، ومن جهة أخرى خصوصية عمل أبي علي القالي في معجم "البارع في اللغة".

رفعنا القلم في هذا المجال اعتزازاً باللغة العربية التي هي عماد ديننا، ناوين وساعين لطلب علوم العربية والاستزادة منها، كما أن الرغبة الشديدة تسوقنا نحو التوغل في علم المعجمية بصفة خاصة وإبراز خباياه، والكشف عن الظواهر اللغوية فيه، عسى أن نصل إلى نتائج من شأنها أن تساهم في تطوير الدرس اللغوي العربي، ودفع عجلته إلى الأمام حتى يضاهي الدراسات اللغوية عند الأمم الأخرى في الشق المعجمي على الأقل. كما أننا ننتابنا شعور خاص نحو علم المعجمية حيث نراه كالمظلوم بين العلوم والفنون الأخرى لأسباب عديدة، وأهمها عدم الربط بين المعجمية واللسانيات في عديد الدراسات.

وارتكزت الدراسة على المعاجم العربية اللفظية أكثر من قرائنها "معاجم المعاني"، ذلك أن معاجم الألفاظ غنية بالقضايا اللغوية القابلة للدراسة والبحث، فهي مجال خصب للدراسة والتحقيق، وغاية الباحث متوفرة.

كما أن دراسة مثل هذه المواضيع في مجال المعجمية يعتبر تمشيناً لجهود أولئك العلماء الذين لم يدخروا جهداً في السعي لحفظ اللغة العربية بشتى الوسائل والطرق.

ثم إن حُُمي الشغف في التطلع إلى تراث الأوّلين في الصناعة المعجمية ازدادت لما فُتحت الأندلس، وامتزجت ثقافة المشرق بالمغرب، فأهل الأندلس ظهرت لديهم الرغبة في الاطلاع على تراث الأمة الإسلامية عن طريق الرحلات، والحجّ، فكان الاتّباع بادئ الأمر ثم الإبداع.

فنحن في هذا البحث نظراً لقلّة الدراسات حوله، وإن وجدت فلا تعدو أن تكون سطحية، وهذا مرّدّه إلى الوهم الحاصل لدى البعض في أنه لا يصلح للدراسة، والتشكيك في نسبته أصلاً إلى هذه الشخصية الفدّة، وهذا مدفوع عند أهل الفن بقرائن عديدة، وأما شبهة ما اعتراه من نقص فهذا حال كثير من كتب القدماء، ولم يثن ذلك من عزائم الدارسين والشرّاح المستدرّكين، بل نرى أن مثل هذه الكتب من باب أولى أن تُعنى بالدراسة لدفع الوهم حولها وتعجيل المنفعة بها عند طالبيها.

واختيار هذه المدونة "البارع في اللغة" مقصود بدافع معرفة نتاج علمي لغوي تشبّع صاحبه بثقافتى المشرق والمغرب في عصور متقدمة في تاريخ الأمة العربية، وبيان ما ستحدثه الرجل في علم المعجمية من خلال كتابه "البارع".

فدراسة "البارع" تكشف لنا عن بعض خصائص الدرس اللغوي عموماً في الأندلس والعمل المعجمي منه على وجه الخصوص، وشيء آخر فكتاب البارع لا تجد له طبعات كثيرة، فهو لا يزال نادراً، وقلّ من يهتم به من المحققين، فالمدرسة الصوتية كثيرة هي الدراسات حولها لكن لو بحثت عن دراسات حول البارع وهو أحد أهم كتبها لما ظفرت إلا بيسير.

ومن الدراسات القليلة التي سبقت هذا البحث والتي أعدّت حول كتاب أبي علي القالي "البارع في اللغة" نجد:

- جهود أبي علي القالي البغدادي اللغوية من خلال كتابه "البارع في اللغة" - دراسة وصفية دلالية - وهو بحث ماجستير في اللغة العربية من إعداد الطالبة: بثينة خوجلي عبد القادر هباني 1426هـ - 2005م - جامعة أم درمان الإسلامية - السودان.

وهذا البحث فضلاً على أنّه مقتضب جدّاً، قد اختلفت طبيعة دراستنا عنه من حيث نوع الدراسة، وكذا حصر الموضوع في المعجمية وما يتعلق بها.

- اللهجات العربية القديمة في معجم "البارع في اللغة" لأبي علي القالي - دراسة وصفية تحليلية - وهو بحث ماجستير في اللغة العربية من إعداد الطالب: يوسف ماجد صالح السعود لسنة 2016م - جامعة مؤتة - الأردن.

وهي دراسة خاصة في مجال اللهجات العربية القديمة فقط.

ولقد عمل بحثنا على التوسّع أكثر في دراسة "البارع في اللغة" لأبي علي القالي بما يتجاوز البحثين السابقين كمّا وكيفاً.

وما من عمل إلا وله أهداف، وعليه فإننا ما تناولنا العمل المعجمي عند أبي علي القالي من خلال كتابه البارع في اللغة إلا ونحن نأمل أن نصل إلى العمل المعجمي في الأندلس، ونعرف ما تميز به عن غيره في هذا المجال، ثم التعرض لأعلامه المساهمين في بناء المعجم الأندلسي عموماً مثل الزبيدي وابن سيدة وغيرهما، ومن ثمة نسلط الضوء على البارع في اللغة فنخوض من خلاله غمار هذه الرحلة بتبيان الخطوط الواصلة بين المشرق والمغرب وقتذاك، والآن نحن بصدد دراسته بغية إبراز الإرهاصات الأولية للعمل المعجمي في الأندلس، ومنها إلى تطور الدرس المعجمي ونقده وتقييمه.

كما أننا نسعى إلى التعريف بهذه الشخصية الفدّة (القالي) من خلال ترجمة مختصرة كفيلة ببيان صفحة من صفحات التاريخ المشرق نتعرض فيها لجوانب هامة من حياة القالي، والظروف الفاعلة في بناء هاته الشخصية العلمية؛ لأننا نوقن أن ذلك الأمر له علاقة مباشرة بنتاج الرجل العلمي.

هذا، ولا نريد في دراستنا هذه عمن سبقنا في بيان منهج أبي علي القالي في التأليف عموماً وفي كتابه "البارع في اللغة" على وجه الخصوص، فقد ضمن الرجل هذا الكتاب أشياء مستحدثة في العمل المعجمي، حري بنا أن نحدداه فضلاً عن اتباعه نهج الخليل في الترتيب الصوتي والتقاليب، ويسعى البحث إلى إظهار الفروق الاستثنائية بين أصحاب المدرسة الواحدة (المبدع والمتبع)، كما يهدف إلى بيان التأثير والتأثر وإظهارهما من خلال البارع.

كما أن للبحث غاية علمية متمثلة في بيان وكشف طريقة أبي علي القالي في معالجة المادة المعجمية من خلال كتابه البارع استهلالاً بالترتيب الخارجي ثم الداخلي، وهذا الأخير سيحظى بمزيد من العناية والتفصيل حيث يتم فيه عرض لقضية التعريف المعجمي، وشرح المعنى، وآليات التفسير، وذكر الاستشهاد وأنواعه بشيء من التحليل والتفصيل معززا بنماذج تطبيقية على مدونة الدراسة "البارع في اللغة".

هذا، وإن البحث عموماً يهدف إلى بيان مستجدات العمل المعجمي في البلاد الجديدة (الأندلس) انطلاقاً من بارع أبي علي القالي.

معلوم أن عمل الخليل كان قد راج في المشرق كون الرجل مبتكراً، وقد ألّف على غير مثال سابق، ولم يقتصر هذا الرواج في المشرق وإنما تعداه إلى المغرب والأندلس، وقد ظهرت حركة معجمية في الأندلس ناتجة عن تطور الدرس اللغوي عموماً آنذاك، فهؤلاء المعجميون الأندلسيون وعلى رأسهم أبو علي القالي كانوا قد تأثروا بالنشاط المعجمي في المشرق، كيف لا وخطوط الاتصال موجودة، فهم مسلمون أصحاب دين واحد، لهم شعائر واحدة تحقق لهم الاجتماع والالتقاء وتضمن التأثير والتأثر، كما أن اتساع رقعة الخلافة

الإسلامية في ذلك الزمن كان من شأنه أن يساهم في تلاقح الأفكار بتوفر مواطن الالتقاء في الحج والرحلات مثلاً أو الحروب. وفي هذه الظروف الصعبة قد رحل كثير من أهل العلم واللغة إلى الأندلس بحثاً عن العلم والمعرفة وسعياً للدعوة والإرشاد.

هذا، وقد تأثر القالي بمنهج الخليل كثير من معجمي المغرب والأندلس مثل الزبيدي (379هـ)، وابن سيده (458هـ) وإن كانوا لم يلتزموا بأسسه كلها، لكن يبقى عمل القالي هو الحلقة الهامة في الدرس المعجمي الأندلسي.

وبحثنا هذا قد جاءت إشكاليته العامة على النحو التالي: هل يمكن اعتبار عمل القالي المعجمي المتمثل في كتابه "البارع في اللغة" امتداداً طبيعياً لعمل الخليل المعجمي بالمشرق؟ أم أن الأخير المتبع قد شق لنفسه طريقاً خاصة مستوحاة من ثقافات متعددة؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية العامة تساؤلات حاول البحث الإجابة عنها نوردتها على النحو التالي: ما مدى مساهمة العمل المعجمي في الأندلس والمغرب للعمل المعجمي في المشرق؟ وهل من خصائص للتراث المعجمي الأندلسي كونه نشأ بعيداً متأثراً بثقافات غريبة عن العرب في شتى المجالات؟

لو سلمنا باتباع القالي لل خليل في العمل المعجمي وموافقته له، ألا يسوغ أن يكون المتأخر قد حمل علم الأول وزيادة، وإذا كان ذلك كذلك فما هي استحداثات القالي في الصناعة المعجمية عموماً؟ وما تميز به عن أصحاب المدرسة الواحدة خصوصاً؟

هذا، وقد قسم البحث إلى أربعة فصول وخاتمة.

لقد استهل البحث بالفصل الأول المعنون بالتأليف المعجمي العربي بين المشرق والمغرب حتى عصر القالي، وافتتح بدوره ببدايات التأليف المعجمي العربي عموماً، ثم الاتجاه نحو التخصيص شيئاً فشيئاً حيث تمّ الانتقال إلى التأليف المعجمي في المشرق، ومنه إلى المغرب والأندلس ليختم الفصل بالكلام عن ملامح التأثير والتأثر.

أما الفصل الثاني فقد وسم بأبي علي القالي وجهوده اللغوية، وقد ابتدئ هذا الفصل بترجمة مختصرة لأبي علي القالي حيث عرض البحث إلى صفحة مشرقة من حياة العالم اللغوي الكبير أبي علي القالي البغدادي الأندلسي، ومن نبذة عن حياة العالم إلى تأليفه اللغوي، مع تسليط الضوء على التأليف المعجمي والتركيز عليه كونه الهدف الأساسي.

وقدم ختم هذا الفصل بدور أبي علي القالي البغدادي الأندلسي في بعث الحركة اللغوية والأدبية بالأندلس، وفيه قد تطرق البحث إلى مساهمات القالي في نشر العلم في البلاد الجديدة (الأندلس) سواء أكان ذلك عن طريق الدروس المباشرة أو التأليف اللغوية والأدبية.

وأما الفصل الثالث فقد أخذ منهج أبي علي القالي في كتابه "البارع في اللغة" عنواناً له، حيث كانت بدايته بالتعريف ببارع القالي من تسمية وسببها، ونسبة، وهدف مخطط له قبل، وأقوال العلماء فيه، ومنه إلى الترتيب الخارجي للبارع، وقد تمت فيه الإشارة إلى مبدعه الأول الخليل بن أحمد الفراهيدي، وإلى ما خالفه القالي فيه ومحاولة تبرير ذلك، ثم انتهى البحث إلى قضية التأثير والتأثير التي تتعلق بالبارع، وسواء التأثير أو التأثير غالباً ما تشمل الدراسة فيها أعلاماً وكتبا؛ لأنهما يمثلان الملامح البارزة في هذه القضية.

وقد كان رابع الفصول وآخرها موسوماً بمعالجة المادة المعجمية في "البارع في اللغة"، واستُهل بقضية الترتيب الداخلي للبارع فكان المنطلق من المدخلات ووصفها ومحاولة تحليلها، ومنها إلى التحليل الدلالي في البارع وفيه تطرق البحث إلى التعريف المعجمي وأنواعه، وآليات ووسائل تفسير المعنى ليلي ذلك قضية هامة لهي من أبرز القضايا المعجمية خاصة في المعاجم العربية القديمة، ألا وهي قضية الاستشهاد لكن هنا حددت بما استشهد به البارع من أنواع مثل القرآن والقراءات، والحديث، وكلام العرب النظم والنثر، ليختم الفصل بعد ذلك بنقد وتقييم للبارع حيث عرض البحث الإيجابيات مضمّنة مساهمة القالي في إثراء اللغة العربية، والملاحظات قصد تنبيه مستعمل المعجم وطالب العربية على ذلك.

وقد أتم البحث بخاتمة سُطرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة على شكل نقاط. ولقد اتبعنا في بحثنا هذا المنهج الوصفي المطعم بشيء من التاريخي والمقارن، وذلك أننا نراه يتلاءم وطبيعة الموضوع من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يكفل لنا إبراز القضايا والظواهر اللغوية في هذا الكتاب وتوضيح ما يكتنفه من غموض.

فالوصف مناسب لعرض أنواع المعاجم اللغوية العربية، وذكر ما تضمنته من قضايا وظواهر مشتركة وغيرها، كما أننا في حاجة لذكر التطور الحاصل في المجال المعجمي بين المشرق والمغرب، والتركيز على المستجدات وما أحدث في الصناعة المعجمية خاصة عند المغاربة والأندلسيين.

كما أن البحث تضمن عدة أحكام لغوية وغيرها تلمس المعاجم عموماً، وعليه فإن حاجة اللغوي الذي طرق هذا الباب ماسةً للتحليل قصد تبرير الأحكام، وتعليل وتفسير بعض الظواهر التي تعترض طريقه، وقد اعتمد البحث على منهجين ثانويين هما التاريخي والمقارن أيضاً.

وما كان لهذا البحث أن يتم على الوجه الأفضل إلا بتذليل الصعوبات التي كادت أن تحول دون إكماله، والفضل في ذلك لله وحده، ثم إنا قد استعنا ببعض المصادر والمراجع مثل: المعجم العربي نشأته وتطوره لحسن نصار، وكذا النشاط المعجمي في الأندلس ليوسف عيد، والمعجم العربي بالأندلس لعبد العلي الودغيري، ومختصر كتاب العين للزبيدي، ومدونة البحث البارع في اللغة لأبي علي القالي بتحقيق هاشم الطعان.

فهذا البحث الذي بين أيدينا والموسوم بالعمل المعجمي عند أبي علي القالي من خلال كتابه "البارع في اللغة" قد اعترضته عدة صعوبات كادت أن توقف إتمامه لولا فضل الله عز وجل، ثم جهود عديد الأطراف المساهمة في إنجاز هذا البحث، وأول تلك الصعوبات الحصول على البارع (الكتاب) مدونة البحث والدراسة، فقد كلفنا ذلك سفرًا إلى العراق في زمن فتن قلّ من ينجو منها، وهذا راجع لقلّة طباعات الكتاب، وربما ضعف الرواج في المكتبات العربية، وسوق اللغة والأدب لدى العرب، ثم إنا نحن في الجزائر لنا ظروفنا الخاصة مع الكتاب التي قد تختلف عمّا هو واقع في الدول العربية الأخرى المجاورة منها والبعيدة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى النسخة المتحصل عليها من الكتاب الورقي "البارع"، وهي الوحيدة المنشورة كان قد أشرف على تحقيقها هاشم الطعان، وهي تعاني معاناة شديدة لكثرة الأخطاء، وأُخرجت في حُلّة سيئة للغاية، الأخطاء التي لا نعلم سببها أو أسبابها، فهي أخطاء كثيرة جدا تدعو للشك أحيانا، والفرضيات مطروحة أمطعية هي؟ أم وقع تصحيف سابق وقد استمر؟ أم اجتمعنا الاثنين معا؟

فهذا البحث في فترة النشاط لم يجر على الوجه الأحسن، ذلك أنه تزامن مع جائحة كورونا - عافانا الله والمسلمين منها، وأثرها على الحركة العلمية عموما معروف لدى القاصي والداني.

هذا عن الظروف الخارجية الملامسة لسير البحث، وإذا نظرنا إلى ما بين الباحث والكتاب أو المصدر الذي ينهل منه فإننا نعلم قلّة المراجع حول هذا البحث مسبقا ومع هذه القلّة فإن الباحث عند وقوع الجدل والتعارض في بعض القضايا العلمية لا يسعفه قليل المصادر والمراجع بَبْنِي رأي صواب، ذلك أن المعجميين أصحاب الرؤى المختلفة لكل حجّته، وقد تكون المسائل اجتهادية لا دليل يدلّ عليها ولا أثارة من علم ترشد إليها، فيقف الباحث مختارا يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى، وربما يضطرّ لاتخاذ موقف مع معجمي غير مطمئنّ له إلا أنه يراه هو الأقرب منطقيا.

وشيء آخر هو قلّة انعقاد الملتقيات الدولية والوطنية في هذا المجال اللغوي المعجمي خاصة هنا في الجزائر، ولا ندري ما سبب العزوف عن مثل هذه الدراسات، وهي مفيدة جدًا خاصة وأنها ذات الصلة الوثيقة بالقضايا التعليمية، وانعكاسها عظيم النفع على الواقع التعليمي هنا في بلدنا إذا أخذت نتائج الأبحاث بعين الاعتبار.

فهذا قليل من كثير وإلا لا يسعنا مقام ولا وقت لبسط جُلّ العوائق حتى لا نقول كلّها.
هذا آخر ما خطّ القلم، وأعيد الشكر والتقدير للمشرف الأستاذ الدكتور أحمد الشايب عرابوي،
وأسأل الله أن يوفقنا وإياه لما يحب ويرضى.

النخلة المحروسة - الوادي في:

09 ذي الحجة 1443 هـ الموافق لـ: 08 جويلية 2022م

الفصل الأول

التأليف المعجمي بين المشرق والمغرب حتى عصر القالي

المبحث الأول: بدايات التأليف المعجمي العربي

المبحث الثاني: التأليف المعجمي في المشرق

المبحث الثالث: التأليف المعجمي في المغرب والأندلس

المبحث الرابع: ملامح التأثير والتأثير بين المشرق والمغرب حتى عصر القالي

المبحث الأول: بدايات التأليف المعجمي العربي

لقد هيا الله - سبحانه وتعالى - لهذه الأمة العربية أسباب حفظ لغتها، فبعد أن عمل الرواة والعلماء على حفظها في الصدور إلى أزمان ليست بالقليلة دعت الحاجة إلى وسائل أكثر جدوى من ذلك، فكانت المعاجم اللغوية، وهي على اختلاف أنواعها تمثل الوعاء الحافظ لمفردات اللغة العربية.

أولاً - جمع المادة المعجمية (المعايير والآليات) :

لا أحد ينكر أن البشر استعملوا اللغة أوّل ما استعملوها مشافهة، ولا يعرفون في ذلك شيئاً يقال له كتابة وتدوين، بل عاشت شعوب وشعوب على هذه الحال تتواصل فيما بينها محققة في ذلك منافعتها وحاجاتها الضرورية، الأمر الذي يبرز الجانب الاجتماعي النفعي للغة. والذي عليه كثير من المحققين أن بعض اللغات استعملت ما استعملت ثم اندثرت وما يعرف لها حقيقة ولا خصائص تميزها عن غيرها نتيجة عدم وجود أدلة كتابية تثبت شيئاً من ذلك.

وإذا فالكتابة قد ظهرت متأخرة عن المشافهة، فالكتابة مثلاً مظهر من مظاهر تقدّم الإنسان وتحضّره، وعبره من مرحلة إلى أخرى في حياته الثقافية. وإذا تأمل الإنسان فيما هو عليه من تواصل مع أفراد جنسه أدرك نعمة اللغة التي أنعم الله بها عليه، هذا الأخير الذي كوّن منها موضوعاً للدراسة والبحث.

فالمسلمون كانوا يسعون إلى فهم الكتاب والسنة، ذلك أنهما مصدر التشريع الإسلامي، فالتعبّد والعمل بما فيهما منوط بفهم النصوص الواردة فيهما، فهذا الهدف جرّهم بالضرورة إلى تتبع الألفاظ المكونة للنصوص الشرعية، والتنقيب عن معانيها. ولما علموا أنّ اللغة هي الوسيلة الوحيدة المؤدية إلى ذلك المرمى وإلى تلك الغاية اجتهدوا في جمعها عن العرب الأقحاح سكان البوادي البعيدة الذين لم يشب لغتهم العجمة ولا الاختلاط بمن يظنّ فيه التأثير على لغتهم فساداً، وبذلوا في ذلك وسعهم حتى لا تضع لغتهم حاملة شرعهم وما وراء شرعهم من مظاهر حياتهم الثقافية الكثيرة والمتنوعة مجسّدة في لغتهم العربية.

معلوم أنّ العرب خدموا اللغة في الجاهلية قبل الإسلام إذ كانوا يتفاخرون بالفصاحة والبيان في خطبهم وأشعارهم، لكن مع مجيء الإسلام ازداد هذا الأمر واكتسى حُلّة الدين، فأصبح تعلّم اللغة العربية وحفظها أمراً مطلوباً شرعاً.

لقد ثمن المعجميون عمل العلماء الرواة في جمعهم اللغة العربية؛ ذلك أنّ جمع اللغة يعتبر مرحلة موطئة لجمع المادة المعجمية وترتيبها، وما جمع اللغة وحفظها من الضياع إلا دليل على وعي هذه الفئة من الناس، حيث أدركوا أنّ خدمة القرآن الكريم - كلام الله - تكون بخدمة اللسان الذي أنزل به، فقد كانت عنايتهم

بجمع اللغة استجابة لما توجهه المحافظة على القرآن الكريم وتفهم معانيه من حفظ مادته اللغوية، وما ترمي إليه من دقيق الدلالة والمغزى وصحيح المبنى والمعنى.¹

لقد حرص العرب على جمع مادتهم اللغوية لكنهم أولوا الأمر للغريب، والغربة التي نتحدث عنها في هذا المقام إنما هي الغربة المحمودة، أي أنّ القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف يحويان كلمات غريبة يصعب على القارئ معرفة معانيها فهؤلاء العلماء كابدوا المشاق وتحينوا الفرص للحصول على معاني ما هو غريب عندهم في كلام الله جلّ وعلا، وكلام رسوله المصطفى ﷺ، ويعدّ سوق "المريد" بالبصرة أول محطة رأى فيها العلماء الرواة وطلاب العربية تحقيق تلك الغاية، حيث كانت هذه السوق يقصدها الأعراب سكان البوادي البعيدة مضارب الفصاحة، ومن أفوا الحل والترحال، وقد يحضرها أناسٌ كثير لا همّ لهم في بيع ولا شراء، وإنما استماع الأخبار، وإنشاد الأشعار ولعلهم يظفرون بطرائف ونوادر لغتهم الآتية مع أهل البوادي البعيدة هؤلاء.

ومن الذين أموا السوق بقصد أخذ اللغة عن الأعراب أهل الفصاحة نجد راوية العرب الأكبر الأصمعي (216هـ)، إذ يقول: "جئت إلى أبي عمرو بن العلاء فقال: من أين جئت يا أصمعي؟ قلت من مريد. قال: هات ما عندك، فقرأت عليه ما كتبت في ألواحي، ومرّت به ستّة أحرف لم يعرفها فأخذ يعدو في الدرجة قائلاً: شمرت في الغريب يا أصمعي".²

إنّ طلاب العربية والجماعين للغريب لما علموا قيمة ما هم عليه تحمّلوا الصعاب والمشاق من أجل هذه الغاية النبيلة طلب العلم الذي يكفل حفظ اللغة العربية لغة القرآن الكريم يقول ابن الوردي:

وَاهْجُرْ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ يَعْرِفَ الْمَطْلُوبَ يَحْتَزُّ مَا بَدَلُ³

لقد ازدادت رغبة طالبي العربية في جمع اللغة، وأصبح لا يكفيهم ما يروج في الأسواق والنوادي، لذا كان لزاماً عليهم أن يبحثوا عنها في مصادرها، والبحث عن اللغة من المصادر فيه ما فيه من المزية، فالعلم تسعى إليه ولا تنتظر أن يأتيك، ثم إنّ بعض الأعراب المعتمدين في الأخذ عنهم لا يأتون إلى الأسواق بل تجبرهم ظروف بيئتهم أن يبقوا هناك، كما أنّ الذين يفدون إلى الأسواق هم كثير التثقل والاختلاط بأهل الحضر فضغفت الثقة بهم في الأخذ عنهم، وإذا كانت الحال هذه فلا بدّ من الرحيل إلى مضارب الفصاحة، وتجاوز المفاوز وتحمل المشاق علّهم يظفرون ببعض ما أمّلوا تحصيله، فلقد حمل العلماء الرواة وطلابو اللغة على عاتقهم مسؤولية جمع اللغة، فمن هؤلاء: الخليل بن أحمد الفراهيدي، وخلف الأحمر

¹ مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت. لبنان، ط3، 1404هـ - 1984، ص35.

² رواية اللغة، عبد الحميد الشلقاني، دار المعارف بمصر، كورنيش النيل، القاهرة. مصر، (دط)، (دت)، ص70.

³ فتح الرحيم الرحمان شرح لامية ابن الوردي، السيد الشريف مسعود بن حسن بن أبي بكر القناوي الشافعي، دار الفكر، بيروت - لبنان، (دط)، (دت)، ص106.

(180هـ)، ويونس بن حبيب الضبي (182هـ)، والكسائي (189هـ)، والنضر بن شميل (204هـ)، والأصمعي (216هـ)، وأبي زيد الأنصاري (215هـ)، وابن دريد (321هـ)، والأزهري (370هـ)، والجوهري (395هـ). وغيرهم من علماء اللغة المعبرين.¹

فهؤلاء الرواة كانوا يختلفون إلى البوادي طلباً للفصحى، وأخذها ممن لم تفسد ألسنتهم وسلاتقهم، ومن أعظم هؤلاء الفصحاء: الخثعمي، وأبو خيرة وأبو الدقيش. وكان من أفصح العرب وأبو مهدية الأعرابي، وأبو المنتجع، وأبو البيداء الرياحي، وأبو طفيلة، وأبو فقعس وأبو دثار، وأبو الجراح. وهؤلاء الأربعة هم الذين حكموا بين سيبويه والكسائي... وأبو العميثل، وعوسجة، وأبو مسهر الأعرابي، وأبو المضرحي، والحرمازي، وأبو الهيثم، وأبو المجيب الربيعي، وأبو صاعد الكلابي، وأبو الصّعيق العدوي، والمفصل العنبري، ويزيد بن كثة، وناهض بن ثومة الكلابي، وأبو السمع الطائي،² وغيرهم.

والبحث في رواية اللغة يقوم على هاته الدعائم الأساسية وهي الراوي، والمروي عنه، والنص المروي، وهذا الأخير إنما هو المقصود. فالرواية حتى تقبل لابد أن يكون المروي عنه من أهل الفصاحة، والراوي ثقة مشهود له عند أهل الفن والاصطلاح. إن العلماء والرواة الأول لم يدخروا جهداً في جمع اللغة وتحصيلها، فهم أصحاب فضل ومزية على من أتى بعدهم؛ ذلك أنهم عادوا عليهم بثروة لغوية لا يستهان بها دارت وتدور على ألسنة الناس من ذاك الزمن حتى الآن، ولرحيلهم إلى مضارب الفصاحة متجاوزين المفاوز والصعوبات والعقبات هو أكبر دليل على الصدق في النية تجاه اللغة العربية التي شرفها الله عزو جل بأن أنزل بها أحسن كتبه على أفضل رسله ﷺ.

وإذاً فهذه اللغة لغة الشرع، ولا يفهم نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف إلاّ باللغة العربية ابتداءً، ولما كانت اللغة العربية بهذا المقام وهذه المكانة، فلا غرابة حينئذ أن يعتني بها العلماء والرواة العناية الشديدة، وأن يحرصوا على جمع ما أمكنهم منها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (728هـ) - رحمه الله تعالى -: "إنّ نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإنّ فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلاّ بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب."

ثمّ منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية.³

¹ انظر: مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ص 29.

² المرجع نفسه، ص 30.

³ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق وتعليق: ناصر بن عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض، (دط)، (دت)، (469/1).

فهؤلاء العلماء في جمعهم للغة العربية وحفظها من الضياع جعلوا لرواية اللغة شروطا وضوابط ومعايير دقيقة حتى تقبل الرواية وما جمع الرواة على اختلاف طبقاتهم .

إن المحققين اللغويين الأول متفقون على أنّ ضبط وتحديد الرواية مداره على معيارين فأحدهما مكاني والآخر زماني.

1- المعايير:

أ- المعيار المكاني

إنّ تحديد أمكنة الفصاحة في حقل القبائل العربية لأمر جدّ هام، ذلك أن القبائل العربية لم تكن على مستوى واحد في استعمال الفصحى، وهي تتفاوت في ما بينها التفاوت الشديد، فاللغة تابعة للظروف والحياة التي يحياها مستعملوها، والمفارقة واضحة بين البدوي والحضريّ، إذ الأخير معرّض أكثر من الأول لفساد اللسان نتيجة الاحتكاك مع أناس غير فصحاء، فهو وإن كان غير مريد لهذا الاختلاط لكن ظروف الحياة القاسية تجبره على ذلك كحاجته إلى الأسواق، والنوادي، والحروب أيضا والرحلات.

فاللغويّ مضطرّ لأخذ هذا الضابط بعين الاعتبار حتى تسهل عليه عملية التمييز والانتقاء، "فجعلوا المدوّن في البدو دون الحضرة وسكان أطراف الجزيرة، فخصوا التدوين في قبائل قيس عيلان، وتميم، وهذيل، وقريش، وبعض كنانة، وبعض الطائيين".¹

ومنعوا الأخذ من سكان البوادي ممن كانت مساكنهم مجاورة للأمم غير العربية كلخم، وجذام، جيران مصر والقبط، وقضاة وغسان وإياد جيران أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية، وتغلب اليمن الذين كانوا بالجزيرة لمجاورتهم اليونان، وبكر جيران النبط والفرس، وعبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين وكانوا يختلطون بالهند والفرس، وأهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة، وبني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم التجار المقيمين بينهم.²

فالنقاد كانوا قد قسموا الشعراء إلى طبقات والقبائل إلى درجات، وأعلى هذه القبائل درجة قريش، يقول أحمد بن فارس (395هـ): "أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالمهم: أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة... وكانت قريش - مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة

¹ المعاجم اللغوية العربية بداءتها وتطورها، إميل يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت . لبنان، (دط)، (دت)، ص 27.

² انظر: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، تح: أحمد جاد المولى بله وآخرون، د التراث. القاهرة مصر، ط3، (دت)، 222/1.

ألسنتها- إذا أتتهم الوفود من العرب تحيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تحيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلاتقهم التي طبعوا عليها. فصاروا بذلك أفصح العرب"¹.

إنّ الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية حفظ اللغة العربية لم يأخذوا كلّ ما يدور من كلام على ألسنة أهل هذه القبائل وإن كانت تحويها دائرة الفصاحة المكانية، ولم تخلطها العجمة، فقد اكتفوا بنقل المشهور من هذه اللغات والجمع عليه وتركوا الشاذّ والضعيف فلم يقيسوا عليه، وقد أطلق العلماء على هذه الظواهر اللغوية الشاذة التي لا تتفق مع المشهور اسم اللغات الرديئة أو الضعيفة أو المذمومة، وقد تتبعوا هذه الظواهر اللغوية الشاذة في لغات العرب وحددوها على غرار ما فعل ونقل السيوطي في باب "معرفة الرديء المذموم من اللغات" وهنا سأذكر بعضاً منها:²

أ. الكسكسة: وهي في ربيعة ومضر؛ يجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر سينا، وقصدوا بذلك الفرق بينهما. نحو: إليك ← إليس.

ب. الكشكشة: وهي زيادة شين بعد كاف الخطاب في المؤنث في الوقف نحو: رأيته. رأيته. وهي في لهجة ربيعة ومضر.

ج. العنينة: وهي إبدال الهمزة المبدوء بها عينا. نحو: أدلج ← عدلج. وهي في قيس وتميم.

د. الفحفحة: وهي جعل الحاء عينا. نحو: حلّ ← علّ. وهي في هذيل.

هـ. الشنشنة: وهي إبدال الكاف شينا مطلقاً. نحو: لك ← لش. وهي في اليمن.

و. العجعة: وهي إبدال ياء الإضافة والسين المشددة في الأخير جيما. نحو: كراسي ← كُراسج.

ز. الاستنطاء: وهو إبدال العين الساكنة نونا نحو: أعلم ← أنلم، وهي في سعد بن بكر، وهذيل،

والأزد، وقيس، والأنصار.

ب- المعيار الزمني

لا يقلّ شرط الزمان أهمية عن قرينه المكاني في رواية اللغة وقبولها، فاللغويون حصروا التدوين في أدب الجاهلية وصدر الإسلام، فقد حددوه زمانياً إلى غاية منتصف القرن الثاني الهجري، وهو ما أجمع عليه اللغويون (قرن ونصف بعد الهجرة في الحضر، وإلى غاية القرن الرابع الهجري في البادية)³.

إنّ الثروة اللغوية الكبيرة التي تحصل عليها العرب جرّاء جهود الرواة. لم تكن سهلة المنال، بل إنهم تحمّلوا العناء الكبير في الوصول إلى القليل من مطلوبهم اللغوي، ولا يتيهأ هذا الأمر إلاّ لأناس واعين قيمة

¹ الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، مكتبة المعارف، بيروت - لبنان، ط1، 1414هـ - 1993م، ص55.

² انظر: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، 221/1-222.

³ انظر: المعاجم اللغوية العربية بدهاء وتطورها، إميل يعقوب، ص27.

اللغة العربية ودورها في توضيح النصوص الشرعية وعلى رأسها النص القرآني والنص الحديثي؛ ذلك أن الدراية بهما واستنباط الأحكام منهما منوط بمعرفة اللغة العربية وأسرارها. ولا يعتقد أحد أن اللغويين قد غالوا في وضع الحدود الزمانية والمكانية لرواية اللغة استناداً لما عليه لغات الأمم الأخرى غير العربية، فهذا الاعتقاد باطل؛ ذلك أن اللغة العربية لا تقاس باللغات الأخرى، فلها خصائصها التي تميزها عن غيرها من جهة، ومن جهة أخرى فهي مرتبطة بالمقدس والتدقيق والتمحيص مهم في هذا المجال.¹

2- الآليات (مصادر الجمع) :

إنّ جماع اللغة العربية يدركون تمامًا قيمة ما هم عليه، لذا حرصوا على الثبوت والتمحيص فيما أخذ عن العرب الأقحاح من لغة، وهم في ذلك متفقون على أن المصادر الأساسية لجمع اللغة إنما هما السماع، والرواية النقلية.

أ- السماع والمشافهة عن العرب وهذا المصدر هو الأصل وعندما نثير هذه القضية فإنّ الكلام يجزّنا إلى ما ذكر سابقا في جمع اللغة والرحلة إلى البادية لطلبها في مظانّها. فرحل جمع من العلماء الغيورين على لغتهم عندما عزّت اللغة في الحضر. وأخذوا اللغة وتحملوها من أفواه الأعراب سماعا مباشرا دون أي واسطة.

ومن سمع عن الأعراب مشافهة نجد أبا مالك عمرو بن كركرة الأعرابي اللغوي صاحب النوادر، وأبا سعيد عبد الملك من قريب الأصمعي، والخليل بن أحمد الفراهيدي، فقد سمع الخليل عن بعض أعراب الحجاز ونجد وتهمامة. وقد ذكر الليث بن المظفر كاتب الخليل وصاحبه " أنّه كان يملّي عليه ما يحفظ، وما شكّ فيه يقول له: سل عنه.

ب- الرواية النقلية ويقصد بها أن يروي اللغوي والمعجمي اللغة عن سمعها وتحملها عن الأعراب، لا أن ينقل هو عن العرب، وهو ما يعبر عنه بالنقل بالتبعية، أي أن يروي المتأخّر عن المتقدم، وسلسلة السند قد تختلف طولا وقصراً كأسانيد الأحاديث النبوية الشريفة، وهكذا ففي الرواية النقلية حاجة التالي ماسة للأول؛ لأنّ أي انقطاع في هذه الأسانيد يعرض الرواية للضعف والترك.²

وزمن السماع عن العرب مشافهة لازال ممتدا حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ومن لم يحصل له السماع في بعض مواده التي بنى عليها معجمه تشدّد في القيود والشروط في أخذ اللغة، فبعضهم عدل عن بعض الكلمات الفصيحة التي لم تصل إليه مصادقها من الفصحح، ولم ير ما يؤيد ذلك ويعضده، وإذا

¹ انظر: تاريخ المعجم العربي بين النشأة والتطور، ابن حويلي الأخضر سيدي، دار هومة، عين مليلة-الجزائر، (دط)، 2001، ص45.

² معالجة المادة المعجمية في المعاجم اللفظية القديمة، محمد بن سعيد الشبيبي، المكتبة الشاملة الحديثة، ص 08.

أخذوا بعض الكلمات احتاطوا لأنفسهم فربطوها بمن رواها، أو سطرها في كتابه. يقول الأزهري (370هـ) صاحب كتاب (تهذيب اللغة) في مقدمته: "ولو أئني أودعت كتابي هذا ما حوته دفاتري وقرأته من كتب غيري، ووجدتها في الصحف التي كتبها الوراقون وأفسدها المصحفون لطلال كتابي؛ ثم كنت أحد الجانين على لغة العرب ولسانها، ولقليل لا يخزي صاحبه خير من كثير يفضحه، ولم أودع كتابي هذا إلا ماصح لي سماعاً منهم، أو رواية عن ثقة؛ أو حكاية عن خطّ ذي معرفة ثاقبة اقترنت إليها معرفتي، اللهم إلا حروفاً وجدتها لابن دريد، وابن المظفر في كتابيهما؛ فبينت شكّي فيها وارتيابي بها.¹

ولم يتوقف السماع عن الأعراب وتحمّل اللغة مشافهة عند الأزهري فقط، بل تعداه إلى من بعده، والأخبار تثبت أنّ الجوهرى (393هـ) صاحب "تاج اللغة وصحاح العربية. أيضاً كانت له عناية بالسماع المباشر.²

لاشك أن كتاب العين للخليل بن أحمد (175هـ) له المقام الكبير بين المعجمات العربية إذ يعدّ الأصل الذي تتفرع عنه تلك المعجمات، فصاحبه بنى معجمه بموادّ أخذها وتحمّلها عن الفصحاء مباشرة، هذا الأمر جعل اللغويين يثقون به وبلغته، فنجد مثلاً: ابن دريد (321هـ) في كتابه "جمهرة اللغة" اعتمد الرواية النقلية عن الخليل فيما سطره في كتاب "العين" فأكثر منها حتى شكّ بعض اللغويين في عمل ابن دريد جزاء النقل المنسوب وغير المنسوب، ورأى بعضهم أنّه كتاب العين نفسه وانظر إلى نبطويه لما رأى المشابهة الكبيرة بين الكتابين ماذا قال:³

ابن دريد بقـرة	وفيه عي وشـره
ويدعي من حمقه	وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا	أنّه قد غـيره*

لكنّ تبرير هذا العمل من ابن دريد يكمن في أنّه كان يرى أنّ الخليل حجّة في اللغة وثقة في الرواية، وما على اللاحق إلا الاقتداء، فمن هذا الباب يظهر التوسع في الأخذ عنه، وعلى ذلك أخذ عليه من أخذ.

¹ تهذيب اللغة، الأزهري، تح: عبد السلام هارون ومحمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (دط)، (دت)، 40/1.

² انظر: الصحاح الجوهري، مقدمة المصنف، تح: أحمد عبد العقور عطار، (د.د)، ط4، 1990، 33/1.

³ المزهر، السيوطي، 93 - 94.

* يقول محقق كتاب الجمهرة: "وهذا الكلام لا يمكن حمله إلا على المنافرة بين الرجلين فلا بن دريد فيه هجاء إذ يقول:

لو أنزل الوحي على نبطويه	لكان ذاك الوحي سخطا عليه
وشاعر يدعي بنصف اسمه	مستأهل للصفع في أخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه	وصير الباقي صرائحاً عليه

وقد نبه السيوطي على أنه قد تقرّر في علم الحديث أنّ كلام الأقران في بعضهم لا يقدح. انظر: مقدمة جمهرة اللغة، ص20.

ومن المعجميين الذين اعتمدوا على الرواية النقلية أبو علي القالي (356هـ) في كتابه "البارع"، حيث نُقِلَ عن الخليل في "العين" حتى تشابه الكتابان إلى حدّ كبير، وقد جرى الأمر مع عدة معجميين آخرين في كتبهم، إذ يروي اللاحق عن السابق، فقد ظهرت الرواية النقلية عند صاحب المقاييس، واللسان، والتاج، وغيرهم.

وهذا كلام عن رواية القالي لابن دريد وتأثره به:

واختص بابن دريد صاحب الجهرة فأخذ عنه كتبه، وكتب أشياخه، وحضر مجالسه وسأله وسمعه. قال القالي: قال لي مرة وقد سألته عن بيت شعر. لئن طفئت شحمتا عيني لم تجد من يشفيك من العلم¹. وقال محقق كتاب البارع: "وما زال لدينا جهرة ابن دريد برواية القالي على أننا نلمس في آمالي القالي آثار ابن دريد، ونجد ظله منحسراً عليه"².

ولا غرابة في الأمر، فشخص سمع من شيخه وسأله أي تتلمذ على يديه، ثم حفظ ما قد قال ورواه طبعي أن يتأثر به ويخرج كلامه كلام شيخه، فالمتعلّم مولع بتقليد المعلّم سيما وإن كان الأخير ضابطاً في روايته وثقة في كلامه وما ينقله.

لا ريب أن المصدر الأول متين عن الثاني؛ ذلك أنّ السماع المباشر أو المشافهة إنّما هي الأصل، وهي رأس السند، ومعلوم أنّ المروي كلما قلت رجاله كان أقوى من حيث الصحة، والحجة تقع به ويقدم في هذا المجال على غيره.

وإذا تأملنا الرواية بنوعيتها يمكن ملاحظة الآتي³:

- السماع المباشر عن الأعراب خاصة ما كان منه قبيل التدوين حينما كان الاعتماد على الحفظ في الأذهان، جاء مردوده ضعيفاً، فقد ضاع نصيب كبير من الثروة اللغوية العربية بسبب النسيان من جهة، ومن جهة أخرى فقد مات خلق كثير ممن حفظوا اللغة قبل أن تكتب، فماتت لغتهم بموتهم، والله المستعان!

- الانقطاع الكبير في سلسلة الأسانيد عند من تحملوا اللغة التالي عن الأول، وما نتج عنه من عدم الثقة بالمنقول، وناهيك عن الرواية عن المجاهيل، صحيح أنّ اللغة ليست كحديث النبي ﷺ قداسة، لكن عدم العناية بصحة الإسناد الناقل وتواصله هذا من شأنه يعرض الرواية للضعف والترك.

¹ البارع في اللغة، القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم، تح: هاشم الطقّان، مكتبة النهضة. بغداد، دار الحضارة العربية بيروت، ط1، 1975، ص58.

² انظر: معالجة المادة المعجمية في القاموس المحيط للفيروز آبادي، العربي طريلي، ص23-24.

³ انظر: المرجع نفسه، ص23-24.

- السماع عن العرب ظهرت فيه بعض القيود على المادة اللغوية بسبب قضية الفصاحة المتجادل حولها أصلاً، وكذا قضية الثقة عند من تحمل مشافهة عن العرب هذان الأمران من شأنهما أن يؤثرتا على مردود النتاج اللغوي من حيث الكمية.
- الاختلافات المنقولة عن الثقافات في المعاني والوحدة المعجمية الواحدة نظراً لخصائص اللغة من ناحية واستعمالاتها من ناحية أخرى، فراو أخذها بمعناها الأصلي المعجمي، وآخر تلقفها بمعناها السياقي الذي فرضه مقام ما فحكمه.
- انتشار التصحيف عند أصحاب الرواية النقلية من اللغويين والمعجميين، ذلك أن طرق ووسائل التدوين لم تسعفهم في نقل الكلام نقلاً أميناً، وبقائه على صحته سالماً من الخطأ، فمكافحة التصحيف قد ظهرت في الأزمنة المتأخرة عند بعض المعجميين من بينهم أبو علي القالي.
- الخلط بين الفصحى والعامية، وهو وارد عن الاستعمال الخاطئ للغة، والخلط بين المستويات، ولعل بعض اللغويين تفتن لهذه الظاهرة في وقت مبكر وتم تأليف كتب عن اللحن مثل: لحن العوام للزبيدي، وغيره.

ثانياً- تدوين المادة المعجمية

1- مراحل جمع اللغة :

فال شائع عند أهل اللغة في هذا الأمر ما سطره أحمد أمين في مراحل جمع اللغة فهو يرى أنها ثلاث مراحل، ونورد تفصيلها على النحو التالي:

المرحلة الأولى: جمع الكلمات حيثما اتفق، فالعالم يرحل إلى البادية فيسمع كلمة في المطر، ويسمع كلمة في السيف، وأخرى في الزرع والنبات، وغيرها في وصف الفتى أو الشيخ إلى غير ذلك فيدون ذلك كله حسبما سمعه من غير ترتيب إلا ترتيب السماع، كالحديث كان يسمع حديثاً في الموضوع، وحديثاً في الميراث، فيجمع ذلك كله على ما سمع من غير ترتيب؛ ودليل ذلك ما روي عن العلماء الأولين في روايتهم وعن صحفهم من تفسير كلمات متفرقة لا يربطها رابط.¹

لقد كان جُماع اللغة في هذه المرحلة بالذات لا يسيرون وفق منهج محدد المعالم، وإنما كان هدفهم الجمع والحصول على أكبر قدر ممكن من المادة اللغوية التي تؤخذ من أفواه مختلف فئات المجتمع العربي البدوي، لا يتشبهون في ذلك إلا بمعيار واحد أساسي ألا وهو الفصاحة، تلك التي كثر الجدل في حدودها، وتقدير أبعادها الشرطية، فإذا ما تحقّق هذا الأساس فإنّه يباح لجامع اللغة الأخذ بمن صادفه بغض النظر عن الجنس والسنّ والمكانة الاجتماعية، لكن كل ذلك لا يمنع أن يضعوا بعض الإجراءات خلال عملية

¹ ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي: بيروت. لبنان، (دط)، (دت)، 263/2 - 264.

أخذ اللغة من مثل: التنصت الحر، والاستنطاق، والمحاور، ولم يكونوا يميزون بين من يحاورون، حتى إنهم قد يأخذون بكلام عقلاء المجانين ومجانين العقلاء دون قيد.¹

المرحلة الثانية: تدوين الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد كالمحدث يجمع أحاديث الصلاة، ويسمئها كتاب الصلاة، وأحاديث البيع، ويسمئها كتاب البيع، كما فعل مالك في الموطأ، والذي دعا إلى هذا في اللغة - على ما يظهر - أنهم رأوا كلمات متقاربة المعنى فأرادوا تحديد معانيها، فدعاهم ذلك إلى جمعها في موضع واحد، مثل ذلك: ماروي الأصمعي (215هـ): "من أصوات الخيل الشَّخِيرُ، والنَّخِيرُ والكَرِيرُ: فالأول من الفم؛ والثاني من المنخرين؛ والثالث: من الصدر" ومثل قوله: "الهْتَل من المطر أصغر من الهَطْل"، أو رأوا كلمات متقاربة اللفظ متقاربة المعنى فأرادوا تحديد معانيها في دقة، مثال ذلك ما قاله الكسائي: "الْقَضْمُ لِلْفَرَسِ وَالْحَضْمُ لِلْإِنْسَانِ"، ومثل: "الْقَبْضُ: الأخذ بأطراف الأنامل، والقَبْضُ الأخذ بالكفِّ كلّها"، و"الْقُدُّ طولاً، والقَطُّ عَرْضاً" إلخ. أو رأوا كلمة واحدة وضعت لمعان مختلفة ففسروها، كالذي قال الأصمعي: "والعين: النقد من الدراهم والدنانير وليس بعرض، والعَيْنُ مَطَرٌ أيام لا يُقْلَعُ، والعَيْنُ عَيْنُ الْإِنْسَانِ، الْعَيْنُ عَيْنُ الْبُئْرِ، والعَيْنُ عَيْنُ الْمِيزَانِ، والعَيْنُ عَيْنُ النَّفْسِ أن يعين الرجل الرجلَ ينظر إليه فيصبيه بعين الخ" ولكن هذه المحاولة الأولى لم تكن مستقصية ولا وافية، بل كانت خطرات وأمثلة منثورة.² وقد توجت هذه المرحلة بكتب تؤلف في الموضوع الواحد، فألف أبو زيد كتابا في المطر، وكتابا في اللبن. وألف الأصمعي كتابا كثيرة صغيرة كل كتاب في موضوع، فكتاب في النخل والكرم وكتاب في الشاء، وكتاب في الإبل، وكتاب في أسماء الوحوش، وكتاب في الخيل، وكتاب النبات والشجر إلخ.³

كان طبيعياً حين جمع الرواة ما جمعوا أن يكتبوه ويدونوه، فقد دعت الحاجة إلى تقييد التراث اللغوي بالكتابة، ولعلهم في ذلك أخذوا بنصيحة الخليفة الراشد عمرو بن الخطاب رضي الله عنه حيث أثر عنه "قيدوا العلم بالكتابة".⁴

إن تقييد المعلومات بالكتابة يعود على الباحث وغيره بالفوائد العظيمة، وسأجمل ما تيسر منها فيما يلي:

- بتدوين الموضوع تحصل المتعة النفسية المتعلقة بتكرار القراءة للمدونة المفضلة، والعودة إليه عند الحاجة وما أكثرها خاصة في الأزمنة المتأخرة أزمنة الضعف، ولا يتيسر للإنسان دوماً أن يراجع الرواية شفويا ففيها تعب كبير، والإنسان معرض تقصير وتقريط ونسيان، وإليك هذه الأخيرة مثلاً النسيان هو

¹ انظر: تاريخ المعجم العربي بين النشأة والتطور، ابن حويلي الأخضر ميدني، ص 37.

² ضحى الإسلام، أحمد أمين، 2/ 264.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ أثر موقوف على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (23هـ). والحديث موجود في سنن الدارمي رقم: (42) في كتاب المقدمة وموضوعه الإذن بكتابة العلم.

أحد أكبر المتاعب فتجد تعدّد الرواية عن الراوي الواحد، وقد يدخل الشك في بعض المرويات لعدم الموافقة اللغوية، وأيضاً التعب الفكري والجسمي من مرض وكبر قد يحولان دون استذكار المعلومة.¹

- عملية القيد في الدراسة اللغوية كفيّلة بإعطاء نتائج طيبة حين الرجوع بالاضطرار إلى ما هو مدون في الأحكام العلمية الصارمة، تلك التي توفّر للباحث مقياساً لاستحضار القضايا ومعانيها، بل يمكن أن تكون فاعلاً حيويّاً في فض كثير من النزاعات اللغوية التي قد تندلع جراء تأويل خاطئ أو سوء فهم ناتج عن إيهام وغموض في معاني الألفاظ ودلالات العبارات بسبب ما يطرأ عليها أثناء السماع من خلل.²

إنّ توفر مادة لغويّة معجمية مقيدة ومضبوطة يضمن الحصانة تجاه أي سوء تأويل مما قد ينتج عنه فساد الأحكام المطلقة اللغوية وغيرها من قبل المتأولين أصحاب الفهم السقيمة، ومع هذا التحفظ الشديد ممن حرصوا على حفظ اللغة العربية إلا أن بعض الظواهر التي تسم المجموع اللغوي بالفساد قد تسللت إليه من مثل ظاهرة التضعيف واللحن والتحريف، وللعلماء جهود طيبة في مكافحة ذلك والحدّ منه.

إنّ الرائي إلى ماصنعه العلماء الرواة في مرحلة متأخرة عن الرواية، وتقييدهم لبعض المروي في الرسائل كل منها موسوم بموضوع مستقل ليدرك عظيم ما صنعوه من التهيئة إلى نشوء معجم عربي يختلف عن المعجم الأول (العين للخليل) ألا وهو معجم المعاني أو الموضوعات.

ومن هنا يمكن القول إن الرسائل الإفرادية ذات الموضوع الواحد، خدمت بعض الأغراض العلمية كتزويد الباحث بعدد الألفاظ والتراكيب المتباينة في نظمها المتفقة في المعنى أو البانية لمعنى واحد، هذا في استقلاليتها، وإلاّ عندما تركّب مع بعضها البعض وترتّب ترتيباً منطقيّاً ينشأ بهذا العمل معجم المعاني.

المرحلة الثالثة: وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص ليرجع إليه من أراد البحث عن معنى كلمة.³ وهذه هي مرحلة النضج في المجال المعجمي، حيث ظهر فيها أول عمل معجمي علمي دقيق ممنهج على نمط خاص من الترتيب، فلا مجال للغوية بعده في طريقة الجمع وإحصاء المفردات. فمن أراد الحصول على معنى كلمة فطريقة البحث يسيرة وبلوغ الغاية ممكن في ما بناه الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) في كتاب العين، فهذا الكتاب يعدّ باكورة المعاجم العربية اللفظية، وبعضهم يرى أنه الأول على الإطلاق بين معاجم المعاني ومعاجم الألفاظ، خاصة إذا استثنينا الرسائل الإفرادية المبنية على الحقول الدلالية. ثم تلتها معاجم أخرى لمؤلفين شتى نحو: الجمهرة لابن دريد (321هـ)، والبارع لأبي على القالي (356هـ)، وتهذيب اللغة للأزهري (370هـ)، ومقاييس اللغة لابن فارس (355هـ)، وتاج اللغة

¹ انظر: تاريخ المعجم العربي، ابن حويّلي الأخضر ميدني، ص 39 - 40.

² انظر: المرجع نفسه، ص 40.

³ ضحى الإسلام، أحمد أمين، 265/2 - 266.

وصحاح العربية للجوهري (393هـ)، وأساس البلاغة للزمخشري (538هـ)، ولسان العرب لابن منظور (711هـ)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (817هـ) وغيرها.

2- طرق تدوين المادة المعجمية:

جهد العلماء والرواة في تحصيل اللغة لم يضع سدىً، فقد حصل لهم ما أمّلوا وحصل لغيرهم ما لم يتوقعوا توفره، ذلك أنّ طلب اللغة والحرص على أخذها وتحملها من مصادرها الموثوقة ليس بالأمر السهل، ناهيك عن الرحلة إلى البوادي البعيدة مضارب الفصاحة وما يحقّها من مخاطر وصعاب، لكنّ نبل الغاية يهوّن المشاقّ، قال صفى الدين الحلبي:

لا يَمْتَنِي المَجْدَ مَنْ لم يركب الحَطَرَا ولا يَنَالُ العُلَا مَنْ قَدَّمَ الحَذَرَا

ثم إنّ المعجميين - وهم المستفيدون الأول - بعد ذلك سعوا إلى حفظ هذه الثروة اللغوية بجمعها وتخزينها، هذا الجمع أخذ أشكالاً مبدعة متنوعة نتيجة اختلاف غايات أصحابه، في الجمع والترتيب، والدراسة الوصفية لما كان عليه هؤلاء العلماء في تواليفهم تُظهِرُ طريقتين شائعتين في الجمع والترتيب والتبويب.

أولاً: طريقة الإحصاء التام أو الجمع التام، وهدف أصحابها هو تتبع وحصر كل كلمات اللغة العربية نظرياً غير آبهين بوقوعهم في ماهو مهمل من اللغة والذي لا مناص منه، فالوقوع في المهمل لا يعيق عمل المعجمي، حيث يمكن للمعجمي أن يشير إليه فقط، ويقتصر في الشرح والتفسير على المستعمل، والجمع التام هذا يسير وفق نظام دقيق جدّاً، وأوّل من أبدعه الخليل بن أحمد (175هـ) ذلك هو نظام التقليلات، وهو مستوحى من علم الرياضيات، فمبدعه حقاً كان ذا عقل رياضيّ متميز، وهذا الذي يكفل الجمع التام لمفردات اللغة، والطريقة واضحة من خلال معجمه (العين)، والتي يعتقد أغلب اللغويين أنّها من إبداع الخليل نفسه.¹

لقد رأى الخليل أن الكلمة العربية إمّا أن تكون مركبة من حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة، ولا تزيد الكلمة العربية عن ذلك باعتبار أصولها، ثم رأى أنّ الكلمات الثنائية - عقلاً - يمكن حصرها بأن يفرض أنّ الحرف الأول مثلاً (أ) فالحرف الثاني قد يكون باءً أو تاءً أو ثاءً...، فإذا ضربنا 1×27 (وهي عدد حروف الهجاء) أمكن أن تحصر الكلمات الثنائية المبدوءة بالألف.

ثم نأخذ الباء ونضربها في 26، والتاء ونضربها في 25، وهكذا، ومجموع كل هذا نضربه في (2) ليكون معنا مقلوب الحروف، لأنّ التقديم والتأخير معتبر في التركيب فيكون مجموع ذلك جميع الكلمات المركبة من حرفين.

¹ معالجة المادة المعجمية في القاموس المحيط للفيروزآبادي، العربي طريلي، ص 20.

ويلاحظ بهذا أنه ترك الكلمات المركبة من حرفين متماثلين مثل: أأ، بب، ثم عمل كذلك في الثلاثيات، ففرض أن كل ثنائي مما تقدّم يعتبر كأنه حرف واحد.

فتضرب عدد الثنائيات في (26) وما بعده في (25) وهكذا، ومجموع ذلك يضرب في (6) جملة المقلوب، وفعل مثل ذلك في الرباعي والخماسي.

وبذلك يحصل حصر جميع الكلمات التي يمكن أن توجد - نظرياً - ثم بين منها المهمل والمستعمل، ويعني بالمهمل الكلمة التي لم تقلها العرب ولم تسمعها في معنى خاص ك: عضخ فإنها استعملت خضع ولم تستعمل عضخ (دوال دون مدلولات في مصطلح علم اللغة الحديث) فكان الخليل إذا وصل إلى مادة مهملة نبه على أنها مهملة، وإذا وصل إلى مادة مستعملة أبان معناها فشرح وفسّر¹.

رغم جدّة هذه الطريقة في الجمع . جمع اللغة . أي طريقة الإحصاء التام إلا أنّها لاقت رواجاً كبيراً عند أصحاب المعجمات ومن ساهم في بنائها من بعد الخليل، ونظام التقليليات هذا هو الذي طبعها بالدقة والإحاطة والشمولية، وهذه أوصاف للعمل العلمي المنهج، ومن تحلى بالموضوعية في هذه القضايا يدرك أن صاحبها مبدع وقد منّ الله سبحانه وتعالى عليه بهذا العلم في زمن مبكر جداً من مسار الدراسات اللغوية العربية.

إنّ الخليل بن أحمد كان قد مهّد لما أبدعه بفكر طويل وتأمل بعيد حتى أقبل على بناء معجم لفظي عربي بمنهج ونظام لم يسبق إليه، ولم يعرف في لغة العرب، وقد جاءت رواية عن الليث بن المظفر (180هـ) ورد فيها "كنت أسير إلى الخليل بن أحمد فقال لي يوماً لو أنّ إنساناً قصد وألف حروف ألف، وباء، وتاء، وثاء على أمثلة لا ستوعب في ذلك جميع كلام العرب فتهياً له أصل لا يخرج عنه شيء منه بته، قال: فقلت: كيف يكون ذلك؟ قال: يؤلفه على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وإنه ليس يعرف للعرب كلام أكثر منه"².

وجملة القول: إنّ الخليل سعى إلى حصر كلام العرب مستعملاً ومهملاً، وهذه النية الحسنة قد تحقّقت له بأن منّ الله جلّ وعلا عليه بعلم تفرد به وأبدع في جمع لغة العرب، فتقليب المفردة حسب عدد حروفها كفيل بحصر مفردات اللغة وقد تحقّق له ما كان ينشده .

ثانياً: طريقة الإحصاء الناقص أو الجمع الناقص، ومدلول النقصان هنا ليس التخلي عن أشياء مهمة في عملية الجمع والإحصاء، وإنّما مدلولها يكمن في أن هذه الطريقة التي سلكها كثير من المعجميين ينتج عنها عدد من المفردات ناقص كما إذا ما قورن بالطريقة الأولى (الإحصاء التام)، ذلك أنّ من سار على هذا

¹ انظر: ضحى الإسلام، أحمد أمين، 266/2.

² الفهرست، ابن النديم، تح: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، (دط)، 1430هـ-2009م، 115/1.

المنهج في الجمع كان هدفه شرح ما هو مستعمل في اللغة؛ لأنّ الفائدة حاصلة في هذا النوع، وأمّا الأمور المجردة النظرية وغير الممكن وقوعها فحريّ بالباحث أن ينأى عنها، فليس له فسحة من وقته ليوغل فيها من جهة، ومن جهة أخرى فهي لا تخلو من أحد أمرين: إمّا لا فائدة فيها وإمّا أن تكون الفائدة فيها بعيدة المنال، فالعكوف العكوف على ما هو دائر ويمكن أن يدور على ألسنة العرب ففيه تقع الإفادة والاستفادة.¹ ومما سبق يتبيّن أنّ مصطلح النقصان ينصرم إلى النقصان الكميّ في المادة المعجمية التي تحويها معاجم من سلك هذه الطريقة واتخذها منهجاً يسير عليه، ناوياً الاقتصاد على ما هو مستعمل، فالاقتصاد في اللغة لا ينكره أحد خاصة إذا كان في محله، بل هو أمر مطلوب محمود؛ لأنّه في هذا الأمر يحقّق مصلحة كبيرة ألا وهي رفع المشقّة عن الباحث وطالب اللغة العربية.

وعلى هذه الطريقة سار كثير من المعجميين في تأليف معاجمهم، بل أغلب معاجم الألفاظ العربية رأت أن هذه الطريقة الأمثل لعرض موادها اللغوية وشرحها، ونستهل الكلام. على بعض هذه المعاجم بذكر معجم كثيراً ما دار حوله جدل كبير حول المنهج الذي اتبعه صاحبه فيه، ألا وهو معجم "جمهرة اللغة" لابن دريد الأزدي (321هـ) ذلك أن ابن دريد اتبع الخليل في بعض ما أتى به وأهمّل البعض، فصحيح أنّه تمسك بنظام التقليل الذي أبدعه الخليل فبنى عليه معجمه، لكنّه أهمّل المهمّل، فلم يصحّح به ولم يتعرّض إلا لما هو مستعمل، فهذا دليل على أنّه خالف الخليل في طريقة الجمع والإحصاء حيث قال في مقدمته: "وإنّما أعرضنا هذا الاسم لأنّا اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشي والمستنكر، والله المرشد للصواب".²

وقد توالى المعاجم المتبعة للجمهرة في الإحصاء الناقص، فعلى سبيل المثال نجد: تاج اللغة وصحاح العربية لإمام الجوهري (393هـ)، إذ يقول الجوهري عن نفسه في مقدمته: "أما بعد فإنّي أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها، وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها".³ فقول الجوهري: "ما صحّ عندي" يعني به إنّما أتعرّض لما هو مستعمل في هذه اللغة وأضرب عن غيره الذكر صفحاً ولا أبالي، فليس لي ولا لطالب العلم فيه حاجة.

إنّ المعجميين العرب يتفقون في الغاية الكبرى والمتمثلة في حفظ اللغة العربية من الضياع، ومعلوم أنّ الاتفاق في الغاية لا يعني بالضرورة الاتفاق في الوسيلة والمسالك المنتهجة أيضاً، بل حصل اختلاف في الطرائق والمناهج بما لا يدع شكاً لتأمل في طريقة جمع مادة هذه المعاجم، لكنّ الاختلاف الحاصل مازاد

¹ انظر: معالجة المادة المعجمية في القاموس المحيط للفيروزآبادي، العربي طريلي، ص 21.

² جمهرة اللغة، ابن دريد، تح: رمز منير بعلبكي، دار العلم للملايين: بيروت. لبنان، ط1، 1987، 26/1 - 27.

³ الصحاح، الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين: بيروت. لبنان، ط4، 1990، 33/1.

الدرس اللغوي إلا إفادة، وفتحاً لآفاق تعود بالنفع على طالب العربية ودارسها، وجعل الدرس اللغوي العربي ذا قيمة.

إن الاختلاف بين الطريقتين الأولى والثانية (الإحصاء التام والإحصاء الناقص) يدور حول قضية "المهمل" في اللغة العربية، ففريق من المعجميين أجبرته قضية التقاليد . بغية الحصر. على التعرض له ولم يسلم منهم إلا ابن دريد فيما نعلم، وإنكار التعرض للمهمل من قبل المعجميين مبني على عدم التكلف ورفع الحرج والمشقة والعناء على المعجمي وعلى من يقرأ له، والاقتصاد في اللغة. أمّا الفريق الآخر فآثر أن لا يشرح ويفسر إلا ما هو مستعمل، ويعود بالنفع على طالب العربية .

المبحث الثاني: التأليف المعجمي في المشرق

ويمكن أن نقسم المعاجم العربية في المشرق إلى قسمين كبيرين نوردتهما على النحو التالي:

أولاً - معاجم الألفاظ:

ويدعوها ابن سيده (بالكتب المعجمة) أو (المعجمات المجتصة)، ويطلق عليها أيضاً المعجمات العامة¹ أو الشاملة، ومهما يكن من أمر فإن هذه الكتب مبنية على ترتيب معين للألفاظ مصحوبة بشرحها وتختلف فيما بينها فمنها المختصر ومنها المطول حسب غاية المعجمي المؤلف للكتاب.

قال محمد جابر فياض العلواني: "أطلق لفظ المعجم على الكتاب الذي أورد الألفاظ اللغوية ومعانيها مرتبة بحسب حروفها"².

ويراد بها المعاجم التي تعالج الألفاظ، فتضبطها، وتظهر أصولها وتصاريقها ومعانيها، ويكون لها نمط خاص في ترتيب الألفاظ مبني على أحرف الهجاء، سواء من حيث مخارجها الصوتية، أم من حيث حرفها الأخير، كما هي الحال في كتابي الصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور، أم من حيث حرفها الأول، كما هي الحال في "أساس البلاغة" للزمخشري و"أقرب الموارد" للشتوني³.

لقد اختلفت المعجمات اللفظية العربية في بنائها ومعالجتها للمواد المعجمية، وهذا راجع لفكر مبدعيها ومناهجهم التي اعتمدها، وعلى هذا الاختلاف الواقع بينها ظهرت مدارس معجمية⁴ وإن لم يصرح بها أصحابها وروادها، فهناك من اعتمد النظام الصوتي والتقاليد، وثان رأى النظام الألفبائي الخاص، وثالث ركّز على النظام الألفبائي على أواخر الأصول، وآخر أثر النظام الألفبائي على أوائل الأصول، وعلى إثر هذه المدارس المعجمية ألفت كتب كثيرة زادت المكتبة العربية غنى، أما عن حال هذه المعجمات من حيث الكمية فهي بين موجز، ومتوسط، ومطول، وغاية المؤلف هي الحاكم في ذلك، وسنعرض هذه المدارس فيما يلي:

¹ المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، دار الهدى، عين مليلة - الجزائر، ط2، 2006، ص41.

² مجلة البحوث الإسلامية، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد - الرياض، العدد: 11، ذو القعدة ذو الحجة 1404هـ - محرم صفر 1405هـ، المعاجم العربية، محمد جابر فياض العلواني، ص 229.

³ نشأة المعاجم العربية وتطورها (معاجم المعاني - معاجم الألفاظ)، ديزيرة سقال، دار الصداقة العربية، بيروت - لبنان، ط1، 1995، ص37.

⁴ مدارس: جمع مدرسة، والمدرسة: لغة هي المكان أو الموضع الذي يتعلم فيه الطلبة أما اصطلاحاً هنا يراد به ذلك (المذهب) القائم على أركان ومبادئ محددة وخصائص مميزة ومنهج محدد يعتنقه جماعة من المفكرين أو العلماء أو الفنانين ملتزمين بخطة، فيكونون بالضرورة في وجهة واحدة، فيسمون حينئذ بأتباع هذه المدرسة وتلاميذها... وانظر: تاريخ المعجم العربي بين النشأة والتطور، ابن حويلي الأخضر ميدني، ص 129.

1- مدرسة النظام الصوتي والتقاليب:

إنّ الخليل* بن أحمد الفراهيدي (175هـ) هو من أبدع هذا النظام، هذا الرجل كان قد امتاز بعقلية رياضية، وحسّ مرهف مكنّه من البراعة في الموسيقى والنغم (الصوت)، وهو ذو خبرة واسعة باللغة ومشكلاتها، وقد ظهرت ثمار هذا الخبرات مجسدة في معجمه "العين" الذي يعدّ أول معجم عربي لفظي تحقّق فيه النضج الفني.

معجم العين رأس مدرسة نظام المخارج التقليدية، وإن دارت حوله رحي الريبة في النسبة، فإنّ ذلك من غيض مطبق في الصدور، وحسد مرهق للنفوس، ولسنا بصدد توثيق النسبة، حيث عاجلها كثيرون، ومستشرقون، قدماء ومحدثون، وإنّما لتدور في مسالك ثلاث، أولها إخلاص النسبة للخليل، وثانيها إنكار أن يصدر من أصغر أتباع الخليل، لما احتواه من بعض الخلل والاضطراب في المنهج؛ وثالثها إنّه علم الخليل وإملاء تلميذه الليث بن المظفر، حين أخذه عنه أثناء زيارته اليتيمة إلى خراسان، ولسنا بصدد ردّ التهم، التي انطوت على غرض كيدي وشخصي يمتّ بتوثيق صلة إلى تخريج النهب والسلب لمحتواه، وإقامة مصنفات من أبوابه، دون إشارة وإقرار بعلم هذا الرجل البصري¹.

ومنهج الخليل في (العين) منهج هداه إليه الله— سبحانه وتعالى— ومن أسباب ذلك عنايته بالإيقاع والموسيقى العروضية، كما ساعده كثيراً ذهنه الرياضي، وعقله الكبير وعبقريته التي لم تشهد لها العربية مثيلاً إلا نادراً².

لقد اعتمد الخليل في بناء معجمه (العين) على أسس ثلاثة هي: الترتيب المخرجي للحروف، والأبنية والتقاليب، ويحسب للخليل فضل سبق والتفرد في هذا الأمر، وخاصة في الترتيب المخرجي والتقاليب.

الأساس الأول: الترتيب المخرجي للحروف

من المقطوع به عند المحققين من أهل اللغة العربية أنّ الخليل نشأ في بيئة قد كان شائعاً فيها ترتيب نصر بن عاصم الليثي (89هـ) للحروف الهجائية، (أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ي)، فالرجل وهو يبني معجمه عدل عن هذا الترتيب الهجائي ورأى في الترتيب

* جاء في البلغة: الخليل بن أحمد بن عمرو بن نعيم، أبو عبد الرحمن البصري، الفراهيدي، الأزدي، النحوي، اللغوي الزاهد، له المصنفات المشهورة منها: كتاب العين ولم يكمله... وهو أول من اخترع العروض والقوافي، ومات سنة سبعين ومائة أو خمس وسبعين. وانظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تح: محمد المصري، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1421هـ - 2000م، ص133 - 134.

¹ المدارس المعجمية دراسة في البنية التركيبية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء، عمان، الأردن، ط1، 1420هـ - 1999م، ص110.

² مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ص55.

الصوتي حسب المخارج غايات علمية تستوفي المطلوب فاعتمده على النحو التالي: ع ح ه خ غ، ق ك، ج ش ض، ص س ز، ط د ت، ظ ذ ث، ر ل ن، ف ب م، و ا ي همزة. وقد أشار الخليل في مقدمته (العين) إلى اهتدائه إلى عمله الكبير، وهو في هذا العمل يضع البداية الأولى لعلم الأصوات في العربية، وإنّ ما أتى به سيئويه من بعده من فوائد في المباحث الصوتية في (الكتاب) كان قد أفادها من الخليل شيخه الأول¹.

كان الخليل في ترتيبه الصوتي قد سمّى المجموعة التي تبدأ بالعين حلقية (ع ح ه خ غ)؛ لأنّ مبدأها الحلق، والمجموعة الثانية التي تبدأ بالقاف لهوية (ق ك)؛ لأنّ مبدأها من اللهاة، والمجموعة الثالثة التي تبدأ بالجيم شجرية (ج ش ض)؛ لأنّ مبدأها من شجر الفم. أي مخرج الفم، والمجموعة الرابعة التي تبدأ بالصاد (ص س ز) أسلية؛ لأنّ مبدأها أسلة اللسان، وهي مسترق طرف اللسان، والمجموعة الخامسة التي تبدأ بالطاء (ط د ت) نطعية؛ لأنّ مبدأها نطع الغار الأعلى، والمجموعة السادسة التي تبدأ بالظاء (ظ ذ ث) لثوية؛ لأنّ مبدأها من اللثة، والمجموعة السابعة التي تبدأ بالراء (ر ل ن) ذلقية؛ لأنّ مبدأها من ذلق اللسان، وهو تحديد طرفي ذلق اللسان، والمجموعة الثامنة التي تبدأ بالفاء (ف ب م) شفوية؛ لأنّ مبدأها من الشفة، وآخر المجموعات هي حروف العلة (و ا ي) ثم الهمزة، فهي هوائية؛ لأنّها لا يتعلق بها شيء².

هذا الترتيب الصوتي المخرجي بدءًا بالأبعد مخرجًا والأعمق فما دونه لم يكن معهودًا عند العرب من قبل، ولما أرادت طوائف المتعلّمين والباحثين الإفادة من معجم العين رجوعًا إلى موادّه ومعالجتها وشرحها عسّر عليهم الأمر، وتفتّن لذلك من تفتّن من المعلمين المربين، فأراد تذليل بعض ما يكتنف هذا المعجم من صعوبات، فنظم ترتيب حروف معجم العين كما أوردها الخليل أولاً بأول³:

يا سائلي عن حروف العين دونكها	في رتبة ضمّها وزن وإحصاء
العينُ والحاء ثم الهاء والخاء	والغين والقاف ثم الكاف أكفاء
والجيم والشين ثم الضاد يتبعها	صاد وسين وزاي بعدها طاء
والدال والتاء ثم الطاء متصل	بالظاء ذال وثناء وبعدها راء
واللام والنون ثم الفاء والباء	والميم والواو والمهموز والياء

أما سبب تسمية معجمه بالعين، فلأنّها أول الحروف الحلقية نصاعة وثباتًا، والهمزة عنده هي أول الحروف مخرجًا؛ لأنّها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد على حد تعبيره في الكتاب، ولم يبدأ بها؛ لأنّها حرف

¹ انظر: العين، الخليل بن أحمد، نح: مهدي المخزومي وإبراهيم السمراي، المقدمة، ص 9-10.

² انظر: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، دار النهضة العربية، بيروت. لبنان، ط1، 1997، ص134، وانظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي العالم العبقرى، محمد بن صالح ناصر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1426هـ - 2005م، ص 75-76.

³ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، 1/ 89-90، وصاحب النظم هو أبو الفرج سلمة بن عبد الله بن لادن المعافري الجزيري.

مضغوط مهتوت إذا رقه عنه انقلب ألفا أو واوا أو ياء، ولم يجعل البدء بالألف ؛ لأنها ساكنة أبداً، ولا بالهاء لهنّتها وخفائها فهي كالألف، ولكنّها أقوى منها في التأليف؛ لأنّها تقبل الحركة ويبدأ بها، ومن أجل ذلك أخرها عن العين؛ لأنّ العين عنده أنصع الحروف¹.

واستهلّ الخليل معجمه بالعين وانتهى بالهمزة، وقد أسماه العين من باب تسمية الكلّ بالجزء، فهو قد قسّم المعجم إلى كتب: كتاب العين، كتاب الحاء، كتاب الهاء...

وضمّن كل كتاب جميع الألفاظ التي تضمّنّت الحرف الذي عنون به الكتاب إلّا ما قد تقدّم ذكره في كتاب سبقه، فكلمة (عرب) مثلاً أوردها في كتاب العين لكون العين هي أول الحروف في ترتيبه الصوتي الخاص بهذه الكلمة (عرب) ثم إنّه لا يكرر كلمة (عرب) في كتاب الرّاء أو كتاب الباء².

الأساس الثاني: الأبنية

لقد حدّد الخليل بن أحمد بناء الكلمة العربية في أربعة مبان رئيسية هي: ثنائي، وثلاثي، ورباعي، وخماسي، حسب عدد أحرف اللفظ العربي، ثم فرّع عن الثلاثي نوعين آخرين هما: الثلاثي المعتلّ، والثلاثي اللفيف ونوردها على النحو التالي³:

- **الثنائي الصحيح:** وهو ما وقع على حرفين صحيحين مثل: (قد)، وما شدّد حرفه الثاني مثل (عزّ)، وما كرّر حرفه الأول والثاني مثل: (زلزل)، والثنائي متماثل الفاء واللام مثل: (قلق)، وما كان ثنائياً مضّعفاً معتلّ أحد الحرفين مثل: (ودّ) .

- **الثلاثي الصحيح:** وهو المؤلّف من ثلاثة أحرف مختلفة صحيحة مثل: (كتب) .

- **الثلاثي المعتل:** ويشمل ما يُعرف بالمثال، والأجوف، والناقص، ومثال الأول: (وعدّ)، والثاني: (قال)، والثالث: (رمى)، وأضاف إليه المهموز مثل: (قرأ) .

- **الثلاثي اللفيف:** أي ما كان محتوياً على حرفي علة في أي موضع منه مثل: (شوى، هوى) وهو اللفيف المقرون، وفي مثل: (وعى، وقى) وهو اللفيف المفروق.

- **الرباعي الصحيح:** أي ما وقع أربعة أحرف صحيحة مثل: (دحرج، غربل) .

- **الخماسي الصحيح:** أي المؤلّف من خمسة أحرف صحيحة مثل: (سفرجل، شمردل)، وجعل

الرباعي والخماسي في باب واحد لقلة ورود ألفاظهما، وأنهى كل بحث بالمعتلّ، مدخلاً المهموز بمعينه.

¹ انظر: العين، 17/1.

² انظر: مجلة البحوث الإسلامية، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد - الرياض، العدد: 11، ذو القعدة ذو الحجة 1404هـ - محرم صفر 1405هـ، المعاجم العربية، محمد جابر فياض العلواني، ص 239.

³ انظر: المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 120-121، وانظر: المعاجم العربية، محمد جابر فياض العلواني، مقال، مجلة البحوث الإسلامية، ص 240.

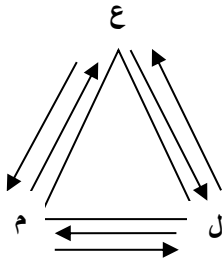
وهذا ما وصل إليه الخليل في تحديد أبنية الكلمات العربية، لكن ما لاحظته المحققون من اللغويين على عمله هذا أنه أقام تصنيفه على عدّ الصوامت الصحاح دون الصوائت أو الحركات؛ لأنه كان يرى أنّ الصوائت القصيرة مثل: الفتحة والكسرة والضمة، زوائد على البناء يتوصل بها إلى النطق فقط، وأنّ الأصل في البناء هو الصوامت أو الصحاح.

ولعل فكرة زيادة الصوائت غير دقيقة من الناحية اللغوية؛ لأنّ وظيفتها أحيانا تتعدّى عملية النطق التي لم يُشر الخليل إلّا إليها، إذ تشترك مع الصوامت في صناعة كلمات ذات صيغ ودلالات تتوقف أحيانا على هذه الصوائت مثل: اسم الفاعل من غير الثلاثي والفرق بينه وبين اسم المفعول وغيرها كثير¹.

الأساس الثالث: التقاليب

إنّ الخليل لما أكثر من التأمل في الأصوات الممثلة بالحروف الهجائية، وأبنية الكلام العربي اهتدى إلى فكرة الحصر والإحصاء، وهو العالم الرياضي اللغوي الفذّ الذي يدرك تماماً ما هو عليه من أمر عظيم، فقد عاش ردحاً غير قليل من الزمن يسمع من أعراب البوادي مشافهة ضمن أعلى مصادر الرواية، لكنّه أراد أن يشقّ طريقاً غير مألوف نابع من فكر رياضي بحث فكانت التقاليب.

والتقاليب سبب إبداعها هو ولوع الرجل بالمباحث الصوتية، فرأى أنّ كل الكلمات الثنائية لها احتمالان مثل: (قد ـ دق)، وأنّ كل الكلمات الثلاثية لها ستة احتمالات .



انظر الشكل الموالي: مع عقارب الساعة يحصل لديك
(علم، ملع، معل) وعكس عقارب الساعة يكون لديك
(عمل، ملمع، لعم). فمجموعها هو ستة وجوه .

أما الكلمة الرباعية مثل بعثر فلها أربعة وعشرون احتمالاً. والخماسية مثل سفرجل مائة وعشرون احتمالاً

– الثنائي: $2 = 1 \times 2$.

– الثلاثي: $3 = 1 \times 2 \times 3$.

– الرباعي: $4 = 1 \times 2 \times 3 \times 4$.

– الخماسي: $5 = 1 \times 2 \times 3 \times 4 \times 5$.

¹ مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 137.

والذي دفع الخليل إلى أن يُقدم على هذا العمل هو فكرة الإحصاء التام للرصيد اللغوي العربي بصفتيه: الكائن بالقوة، والكائن بالفعل، فكانت النتيجة محصول كميّ لفظي هائل، وتحسب كمية الألفاظ نظريًا كما يلي¹:

– عدد الأبنية الثنائية: $28 \times (1-28) = 756$.

– عدد الأبنية الثلاثية: $756 \times (2-28) = 19656$.

– عدد الأبنية الرباعية: $19656 \times (3-28) = 491400$.

– عدد الأبنية الخماسية: $491400 \times (4-28) = 11793600$.

والمحصول الإجمالي للرصيد اللغوي العام للغة العربية: 412، 305، 12 بناءً أو كلمة. لكن هذا الأمر انجرّ عنه وجود عدد لا يستهان به من الألفاظ غير المستعملة مما اضطرّ الخليل إلى إحداث مصطلح المهمل يطلقه على كلمات وجدت نظريًا وغير مستعملة، فهي دوال دون مدلولات في لغة العرب.

ومن المعجميين الذين سلكوا منهج الخليل في النظام الصوتي والتقاليب نجد أبا منصور الأزهري² (370هـ) في معجمه "تهذيب اللغة".

أ- الأزهري ومعجمه تهذيب اللغة:

فالأزهري في معجمه "تهذيب اللغة" قد وافق الخليل في المنهج الذي سار عليه والمتمثل في النظام الصوتي والتقاليب، وهو أحد المعجميين البارزين في هذه المدرسة، فجاء ترتيبه للحروف ترتيب الخليل نفسه، وكذلك الأبنية والتقاليب، لكن ما امتاز به الأزهري عن سابقه هو أنه قد قسّم معجمه إلى أبواب على عدد حروف الهجاء، فسَمّى كلّ حرف بابًا، وكل بناء كتابًا. وليس المقصود أن الخليل قصّر في قضية الأبنية والتبويب، لكن الملفت للانتباه هو قضية صناعة المصطلح المناسب، فالخليل سمّى كل حرف كتابًا، وقد قابله الأزهري بباب وهذا المصطلح الذي أتى به الأزهري جيّد في الصناعة؛ لأنّه يضمن عدم الخلط بين المصطلحات، فالتراث اللغوي العربي القديم بما فيه المعجمي يعاني خلطًا وتداخلًا كبيرًا في المصطلحات أو لنقل "أزمة مصطلح"!

وهذه بعض خصائص الأزهري في "تهذيب اللغة" مسجلة كما يلي³:

– لقد سمع الأزهريّ عن الأعراب مشافهة، فجاء بعض موادّه ولغته من المصدر العالي في الرواية، وبعضها الآخر اعتمادًا على الرواية النقلية عن الثقات مع التمهيص.

¹ تاريخ المعجم العربي بين النشأة والتطور، ابن الحويّلي الأخضر ميدي، ص 71.

² واسمه: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري بن طلحة بن نوح الأزهري، (282هـ - 370هـ). وانظر: البلغة، الفيروزآبادي، ص 252.

³ انظر: المدارس المعجمية عبد القادر عبد الجليل، ط2، ص 155 - 156.

- نبّه الأزهريّ على المهمل في معجمه مثل ما فعل الخليل؛ لأنّ الإحصاء التام يوجب ذلك، لكنّ الأزهري وضّح المهمل الذي استخدمته العرب في كلامها وأهمله العلماء.
- أولى الأزهري عناية فائقة في نسبة مروياته وشروحاتها إلى أصحابها الذين اغترفها منهم. وهو متجه العالم الذي يريد لمعجمه أن يكون مهذباً واضح المصدر، موفور الثقة.
- اهتّم الأزهريّ بتوثيق نصوص كتابه، باعتماده الشواهد القرآنية وأحاديث النبي ﷺ وتراث الأمة الأدبي، الذي توزّع بين الشعر، والأقوال، والحكم، والأمثال. ويبدو أن النصيب الأوفر من الشواهد كان للقرآن الكريم والحديث، وعلة ذلك رغبته القصديّة بربط القرآن والدين باللغة العربية. ولا عجب فالرجل فقيه، والفقهاء يستدلون لتثبيت الحكم.
- ظهور شخصيته في ثنايا معجمه، فهو لم يكن ناقلاً فحسب، إنّما معلّلاً ومرجحاً، وغالباً ما يستخدم عبارة: (وقلت) أو (ولم أسمع ذلك من الأعراب) وسواهما.

ب- الصاحب بن عبّاد¹ ومعجمه المحيط في اللغة:

يعتبر معجم "المحيط في اللغة" للصاحب بن عبّاد (385هـ) الكتاب الثالث في مدرسة النظام الصوتي والتقاليب، وهو آخر ما ألّف على هذا المنهج في المشرق العربي، وقد ظلّ هذا المعجم في زوايا النسيان حتى قام الشيخ محمد حسن آل ياسين بتحقيق بعض أجزاء منه بالرجوع إلى نسختين اثنتين إحداهما نسخة المتحف البريطاني والأخرى نسخة كربلاء، وتوجد من الكتاب أجزاء متناثرة في مكاتب أخرى من العالم².

ولقد صرّح حسين نصّار بضياغ بعض أجزاء الكتاب، بل ضاعت المقدمة التي هي في غاية الأهمية كما أن هدف الصاحب من التأليف على هذا النحو³، وبعض ما تفرّد به في معجمه بقي مخبوءاً، لا يُعلم، وكلّ ماناب عنه فيه المحققون من أهل اللغة إنّما هو خبّط في عماية، وتخمينات انطلقوا فيها مما هو موجود، ومن مقدمات علمية لها دراية بهذه المناهج.

فالصاحب بن عبّاد في "معجمه المحيط في اللغة" اتبع آثار الخليل، فهو كان يرى فيه القدوة الحسنة في الإحاطة والشمول، وجاء معجمه مرسوماً وفق نظام المخارج التقليدية⁴.

¹ هو أبو القاسم الصاحب بن عباد إسماعيل بن عباد بن عباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقاني، الوزير، الأدبي، (385هـ)، وانظر: شذرات الذهب في أخبار من الذهب، ابن العباد الحنبلي، دار ابن كثير، دمشق - سوريا، ط1، 1406هـ - 1987م، 4/ 449.

² البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، دار عالم الكتب، القاهرة مصر، ط1، 1997هـ، ص199.

³ انظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، حسن نصار، مكتبة دار مصر، مصر، (دط)، (دت)، 1/ 360.

⁴ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص171.

رتّب الصاحب حروفه ترتيب الخليل حسب المخارج بدءًا بالأعمق وصولاً إلى الأدنى، كما هو موضح على النحو التالي: ع ح ه خ غ، ق ك ج، ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م واي الهمزة.

ثم إنّ اتبع الأزهري وحده في تقسيم الأبواب على النحو التالي: الثنائي المضاعف، الثلاثي الصحيح، الثلاثي المعتل، اللفيف، الرباعي، الخماسي، ووافقهما في نظام التقاليد¹.

والباحث في المعاجم العربية القديمة عمومًا والمحيط على وجه الخصوص يدرك أنّ الصاحب قد استمد مادته من الخليل، وابن شميل، وأبي سعيد، والفراء. لكن الأمر الغريب أنّه لم يشر إلى ذلك! هذا، ولقد تفرّد الصاحب بن عباد عن غيره من المعجميين. أصحاب المدرسة الواحدة بأشياء كثيرة نسجّل أهمها فيما يلي²:

- عنايته بالعبارات المجازية، وغالبًا ما يحتّم بها شرح مادته.
- لا يُعنى بالأقوال المختلفة للغويين إلّا في النادر، ولا بالشواهد الشعرية أو الأعلام الكثيرة التي ذكرها سابقوه على غرار ابن دريد (321هـ)، والأزهري (370هـ).
- إيراد أقوال الخليل والليث مختصرة، وإهماله الإشارة إلى من يقتبس منهم، ويظهر النقص جليًا في عدم شرحه لبعض الألفاظ والعبارات.
- ظاهر في معجمه عدم الاستقصاء والاختصار إلى أبعد حدّ، يتوقف عند تفسير واحد أو شرح واحد. ولو كان يقصد جعله متنا ليحفظه الطلاب لأمكن، لكن هذا الأمر غير مصرح به، والوصول إليه من خلال مادته اللغوية المشروحة يتعدّر.
- إسقاط أسماء اللغويين من معجمه، أمر لا ينقضي منه عجب، إذا التصريح بأسماء اللغويين في المعجم يعكس اتصال حلقات الدرس والبحث اللغوي العربي وعلاقة اللاحق بالسابق.
- ندرة الاستشهاد، وإن وجد فقد يكتفي بأقلّه، فمثلاً نصف بيت، ولعلّه يكون له فيه حجة أن يقتصر على ما تقوم به الحاجة.
- انفراده ببعض الألفاظ بالنظر إلى من سبقه في هذا العلم، وهذه الظاهرة قد لفتت أنظار القدماء حتى قال قائلهم: "صنّف ابن عباد كتاباً في اللغة العربية كثر فيه الألفاظ، وقَلل الشواهد فاشتمل من اللغة على جزء متوفر" فهو بذلك أشبه أن يكون استدراكاً على العين والتهذيب³.

¹ انظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، 1/ 364.

² انظر: المرجع نفسه، 1/ 364-370.

³ الإنباه للقفطي، 210/1. نقلاً عن: المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، 1/ 369.

2- مدرسة نظام الأبنية والتدوير الألفبائية:

تندرج تحت هذه المدرسة ثلاثة معاجم هي: "جمهرة اللغة" لابن دريد (321هـ)، و "المقاييس"، و "المجمل" لابن فارس (395هـ)، وهذه المدرسة ضم معاجمها كان اجتهداها، فقد كثر الجدل حولها، وحول المعايير والخصائص المنهجية التي تتوافق فيها هذه الكتب الثلاثة حتى يضم بعضها إلى بعض ضمن مدرسة واحدة، ثم إن تم تجاوز هذا الأمر فإننا ندخل في نقاش وجدل آخر حول تسمية هذه المدرسة، فبعضهم ينسبها للكتاب الأول فيها، فيطلق عليها مدرسة الجمهرة، وآخر رأى أن تكون مدرسة الترتيب الألفبائي الخاص، وثالث اختار الترتيب الألفبائي مع الأبنية، ورابع اختار لها مدرسة نظام الأبنية والتدوير الألفبائية. وسبب هذه الاختلافات راجع للأسس المنهجية المتبعة في هذه المعاجم فهي تتوافق في بعض القضايا مثل: الترتيب الألفبائي على أوائل الأصول-الحروف-، واعتماد أبنية الكلام العربي، لكن وقع اختلاف في أمر منهجي مهم هو أن ابن فارس اعتمد التدوير مع الألفباء، وابن دريد أثر التقليب. أما عن بحثنا هذا فقد اعتمدنا فيه مصطلح الأبنية والتدوير الألفبائية؛ ذلك أن الأبنية مشتركة بين الكتب الثلاثة، والتدوير خاصية مميزة لأهم كتابين في المدرسة هما المقاييس والمجمل.

أ- "جمهرة اللغة" لابن دريد الأزدي¹

لقد اختار ابن دريد لمعجمه عنوان "جمهرة اللغة" معللا ذلك بقوله: (وإنما أعرناه هذا الاسم لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب، وأرجأنا الوحشي والمستنكر)².

وابن دريد في معجمه هذا اعتمد على أسس نبينها على النحو التالي:

- لقد عدل ابن دريد عن الترتيب الصوتي للحروف الهجائية الذي كانت سوقه رائجة آنذاك، واستبدله بالترتيب الهجائي العادي المؤلف؛ ترتيب نصر بن عاصم الليثي، والرجل اختياريه هذا مبني على التيسير على طالب العربية والباحث عن معاني الألفاظ، وما يعضد هذا الكلام قول ابن دريد نفسه: (وأجربناه على تأليف الحروف المعجمة، إذ كانت بالقلوب أعبق، وفي الأسماع أنفذ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة، وطالبها من هذه الجهة بعيد عن الحيرة، مشفيا على المراد)³. وفي آخر المقولة نرى إيماء ابن

¹ واسمه أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (223-321هـ) البصري، وقد كان ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء. وانظر: إنباه الرواة على أنباء النحاة، القفطي، الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1406هـ - 1986م، 93/3-94.

² جمهرة اللغة، ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين: بيروت - لبنان ط1، تشرين الثاني (نوفمبر) 1987، 41/1، المقدمة.

³ المرجع نفسه، المقدمة، ص40.

دريد إلى صعوبة ترتيب الخليل الذي كان سائدا، وبسببه فاتت الطلاب الإفادة، وعُسّر عليهم التحصيل مما أُلّف بتلك الطريقة.

- مخالفته للخليل في عرض أبنية الكلام العربي، فقد بدأ بالثنائي غير المضاعف (قَدْ) . ثم الثنائي المشدد الآخر أو ما يسميه الصرفيون الثلاثي المضاعف (شدّ) . ثم الثنائي المكرر نحو: لجلج، ثم الثنائي المعتل وهو اللفيف عند الصرفيين.

أما الثلاثي فتعرّض فيه إلى: المضاعف نحو: بَلَل، لبب.

والمعتل العين . والمعتل اللام.

وأما الرباعي فأتى به صحيحا، وألحق به المعتل.

وختم أبنيته بالخماسي وما ألحق به. وقد عاجله ابن دريد في مواضع مختلفة.¹

- رتب مواد معجمه على أوائل الأصول، لكن ما لم يستطع التخلص منه وهو أمر ضروري في طريقة الإحصاء التام إنما هو التقاليد التي أبدعها الخليل. فمادة (عرب) هي على وضعها اللغوي هذا حسب الألفباء العادية: الباء أولا، والراء ثانيا والعين أخيرا، وعليه نجدها في (برع) ومقلوباتها عند ابن دريد في الجهمرة، بخلاف الخليل فإنها على وضعها اللغوي موافقة لترتيبه الصوتي فالعين أولا، ثم الراء ثانيا ثم الباء أخيرا، وعليه توجد في كتاب العين أي باب العين جذر (عرب) ومقلوباتها.

- لقد شرح ابن دريد منهجه في الجهمرة في مقدمته فقال: (فمن نظر في كتابنا هذا، فآثر التماس حرف أي لفظ ثنائي، فليبدأ بالهمزة والباء، وإن كان الثنائي بَاءً ثقيلا (أي مشددة)، أو الهمزة والتاء... إلى آخر الحروف، وأما الثلاثي فإتّأ بدأنا بالسالم منه، فمن أحبّ أن يعرف حرفا من أبنيته... فليبلغ ذلك في جمهور أبواب الثلاثي السالم، ومن أراد بناء يلحق بالثلاثي بحرف من حروف الزوائد، فإننا قد أفردنا له بابا في آخر الثلاثي تقف عليه مع المعتل إن شاء الله. فأما الرباعي فإن أبوابه مجمّرة على حدتها... ثم جعلنا الرباعي بحرف من حروف الزوائد أبوابا مثل: فوعَل نحو: كوثر، وفُعُول نحو جهُور، وفيعِل نحو حيعِل وبيطر، وفيعِل نحو حذيم، فهذا سبيل الرباعي في الأسماء والصفات، وأما الخماسي فبوب له أبوابا لم نخرج فيها إلى طلب لقرب تناولها . وكذلك الملحق بالخماسي بحرف من الزوائد، فإن عُسّر مطلب حرف من هذا فليطلب في اللفيف، فإنه يوجد إن شاء الله تعالى. وجمعنا النوادر في باب فسميناه (النوادر) لقلة ما جاء على وزن ألفاظها نحو: قَهْوَاه، وطوبالة، وقرعبلانة، وما أشبه ذلك)².

¹ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 209 - 210.

² المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص 69 - 70.

ومن استحداثات ابن دريد في العمل المعجمي:

- بناء المعجم على أساس الترتيب الهجائي للحروف، أي ترتيب المشاركة ترتيب الأشباه والنظائر لنصر بن عاصم الليثي، وهو الترتيب السهل الشائع.
- اهتمامه بالنوادر وعقد لها فصلا سماه "النوادر في الهمز".
- إحكام ضبطه لأبواب المعتل من الأبنية، واضح أنّ الرجل له الباع الطويل في ذلك و متمرس فيما تنقلب عليه الحروف المعتلة، ولعلّ تأليفه المقصورة في هذا الباب يؤيد ما رمينا إليه.
- عنايته بالألفاظ المعرّبة والدخيلة من الحبشية أو الرومية، أو السريانية أو العبرية أو النبطية أو الفارسية، وعقد لهذا الدخيل فصلا سماه "باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغة". وهذا من بديع التفاتات الرجل التأصيلية.¹
- جدد في المواد نفسها، فزاد الأبواب اللغوية الأخيرة، وكثيرا من الصيغ والمواد التي أهملها الخليل.²
- اعتماده في غالبية مداخلاته اللغوية على حشد كبير من المرويات اللغوية للهجات القبائل، دون التقيد بما أملاه السلف من حصر الاحتجاج بقبائل معينة، كقبائل الكتلة الشرقية، والكتلة الغربية.³
- الشجاعة اللغوية عنده تبرز في كسره لما كان مألّوفا من ذي قبل سواء ما كان عند الخليل أو غيره من اللغويين ككسره لقاعدة حصر الاحتجاج في قبائل دون أخرى دون مبررات علمية ترقى إلى الإقناع.
- إكثاره من الشواهد، والشروح، وإيراد مرويات اللغويين السابقين، فرغم ضخامة معجم العين إلا أن ابن دريد فاق الخليل في هذه الأمور السالفة الذكر.⁴

أنموذج من جمهرة اللغة لابن دريد حرف الجيم وما بعده الشائي المضاعف ج ه ج هـ:

جهجَتهُ بالسَّبع، وهَجَّهْتُ به، إذا زجرته. قال الراجز هو رؤية:

جهجَته فآرتدّ ارتدادَ الأكمه.

قال الشاعر - مالك بن الرّيب (بسيط) :

جَرَدْتُ سَيْفِي فَمَا أَدْرِي أَذَا لَيْدٍ يُغْشَى الْمُجْهَجَةَ حَدُّ السَّيْفِ أَمْ رَجُلًا

ويوم جُهِجُّوه: يوم لبني تميم معروف.

والهَجْهَاجُ: اسم رجل.

والجَهْجَاهُ: اسم رجل أيضا.

¹ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 210.

² المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص 70.

³ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 211.

⁴ انظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، 427/2.

ومن معكوسه ظليم هجهاج: كثير الصياح.¹
ومن المعجميين الذين سلكوا مسلك ابن دريد خاصة في الترتيب الألفبائي على أوائل الأصول، واعتماد الأبنية نجد أحمد بن فارس (395هـ)² حيث تبرز هذه الأمور المنهجية في كتابه "المقاييس"، "والجمل".

وابن فارس في الحقيقة قد أتى بأمر غريب جداً في بناء معجمه، ألا وهو فكرة التدوير في حروف الهجاء، ومن المسلم به عند اللغويين من أهل المعاجم التقاليد للخليل، والتدوير لابن فارس، هذان الاثنان أبدعا على غير مثال سابق.

ب- مقاييس اللغة:

معجم المقاييس أشهر من نار على علم، من معاجم القرن الرابع الهجري، وهو المعجم الاشتقاقي التأصيلي الوحيد في اللغة العربية الذي يعنى بالدلالة المركزية لجذور الكلام العربي، فألفه صاحبه وهو يهدف إلى إثبات نظريتين:

الأولى: أنَّ للغة العرب مقاييس صحيحة، وأصولاً تتفرع منها فروع.

وأما الثانية: فهي أنَّ الكلمات الرباعية والخماسية أكثرها منحوت.³

ولعل السبب في تسمية المعجم بـ "مقاييس اللغة" هو تركيزه وإثباته لهذه المقاييس في لغة العرب.

يقول ابن فارس -رحمه الله- في مقدمة المقاييس: "إنَّ للغة العرب مقاييس صحيحة، وأصولاً تتفرع منها فروع. وقد أَلَّفَ الناس في جوامع اللغة ما ألفوا، ولم يعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس، ولا أصل من الأصول. والذي أومأنا إليه باب من العلم جليل، وله خطر عظيم. وقد صدرنا كل فصل بأصله الذي يتفرع منه مسائله، حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتفصيل، ويكون المحيب عما يُسأل عنه مجيباً عن الباب المبسوط بأوجز لفظ وأقربه"⁴.

وابن فارس في هذا الكلام يبين قضية الاشتقاق أي أنَّ هناك أصولاً في الكلام العربي، تتفرع عنها عدة فروع، فللجذر دلالة أصلية مركزية تتفرع عنها دلالات أخرى وليدة الاشتقاق في الألفاظ.

¹ جبهة اللغة، ابن دريد، 185/1.

² واسمه أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين من أئمة اللغة والأدب (395/329هـ) وانظر: الأعلام، الزركلي، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، أيار - مايو 2002، 193/1.

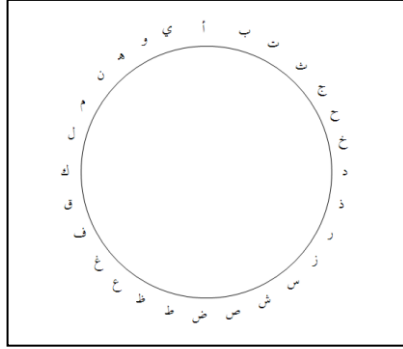
³ انظر: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص200.

⁴ المقاييس، 1/1.

ومن منهج ابن فارس في مقاييس اللغة ما يلي:

- اتباع الترتيب الألفبائي الهجائي العادي (على أوائل الأصول)، واستعمل في تركيب الحرف الثاني الذي يلي حرف الباب التدوير على الألفباء، أي أنه يثبت حرف الباب ويبدأ الفصول من الحرف الذي يلي حرف الباب لا من أول الحروف الهجائية بداية فمثلاً: الثنائي من أول باب: الذال هو (ذر) حتى يصل (ذي) بعده يدور من جديد (ذأ) (ذب) ... (دذ) . هذا آخر الثنائي عنده. وكذلك الأمر بالنسبة للثلاثي فنظريته تقوم على الحرف مع الذي يليه من ترتيب حروف الهجاء.

وقد نقل أحمد مختار عمر عن عبد الله درويش قوله: " وإذا تصوّرنا أنّ الأبجدية منتظمة في شكل دائرة فإن الترتيب يبدأ من الحرف المعين مبتدئاً بتأليفه مع ما يليه في الدائرة ثم ينتقل إلى الحرف الثاني وهكذا حتى تعود الدائرة من حيث بدأت وهكذا.¹



والضبط بهذه الفكرة المعجمية المبتكرة لم يتعد الثنائي والثلاثي من الألفاظ حيث يقول: " هذا مذهبا في أنّ الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف، فأكثرها منحوت"² .

- تقسيم مواد معجمه إلى كتب بحسب عدد حروف الهجاء فأول الكتب كتاب الهمزة وآخرها كتاب الياء، فهو بهذا الصنيع يرجع إلى مصطلح الخليل في التبويب؛ وكلمة باب أجود في صناعة المصطلح.

- ثم قسّم كل كتاب منها إلى ثلاثة أبواب:³

الباب الأول: باب الثنائي المضاعف والمطابق.

الباب الثاني: أبواب الثلاثي الأصول من المواد.

الباب الثالث: باب ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية.

¹ البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 212-213.

² الصاحبي، ابن فارس، ص 271.

³ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 234-235.

- اهتم بفكرة الأصول أو الاشتقاق الكبير، فأدار المادة كلها على أصل واحد، أو أصليين معاً، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، وإذا لم يجد لبعض المواد أصولاً حكم عليها بالتباين أو التباعد أو الانفراد، أو عدم الانقياس.¹

- ربط المعاني الجزئية للمعاني بمعنى عام يجمعها أو معان عامة، وخير مثال على ذلك مادة (جن) التي ردها إلى معنى الستر والتستر، وقرع على ذلك: الجنة؛ لأنه ثواب مستور عنهم اليوم، والجنة بمعنى البستان؛ لأنّ الشجر بورقه يستتر، والجنين الولد في بطن أمه، والجنان القلب، والجن الترس، وكل ما استتر به من السلاح فهو جنة. والجنة الجنون وذلك أنّه يغطي العقل، وجنان الليل سواده ستره الأشياء، والجنّ سمّوا بذلك؛ لأنهم مستترون...²

- اعتمد الاختصار فلم يذكر أسماء بعض اللغويين الذين اقتبس منهم وبخاصة الخليل وابن دريد وابن السكيت وأبي عبيد، ولم يشرح بعض الصيغ التي ذكرها مثل الآدر، والدسيس، والزغبد... وكان يشرح الكلمة أحياناً دون ذكرها يقول: مثلاً "الدال والثاء كلمة واحدة وهو العطر الخفيف" وهو يقصد (الدث).³

- الكلمات المنحوتة⁴ أو ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف كما يقول، فيؤخره إلى أواخر الأبواب ويرتبه حسب أوائل الحروف، فهو يفصل بين نوعين من الرباعي أولهما الرباعي المنحوت من كلمتين، وثانيهما الرباعي المزيد بحرف واحد ويضعه تحت عنوان مستقل مثل: "باب من الرباعي آخر" أو كما يقول: "وهذا الباب ما يجيء على الرباعي وهو من الثلاثي على ما ذكرناه ولكنهم يزيدون فيه حرفاً لمعنى يريدونه من المبالغة".⁵

- تحرى الألفاظ الصحيحة وتجنب المشوبة، ونص على كل أصل من أصوله التي يرتضيها بالصحة، وعلى ما لا يرتضيه بالضعف أو الشذوذ. كما نصّ على المعرب، والمبدل الحروف وغيرهما، وردّ اللغات الضعيفة.

¹ المعاجم اللغوية العربية بداءتها وتطورها، إميل يعقوب، ص 88-89.

² البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 213.

³ المعاجم اللغوية العربية بداءتها وتطورها، إميل يعقوب، ص 89.

⁴ المنحوت عند ابن فارس على نوعين: الأول ما ركب من لفظين كقول الشاعر:

وتضحكُ مني شيخَةٌ عيشميَّةٌ كأن لم ترَ قبلي أسيراً يمانياً

الشاهد في: عيشمية. فهذا موضوع متواضع عليه، والثاني كما قال الخليل: حيل من حي على الصلاة وهو قياسي.

انظر: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 204.

⁵ انظر: المرجع نفسه، ص 210.

أنموذج من مقاييس اللغة لابن فارس:

"رقن" الرء والقاف والنون باب يقرب من الباب الذي قبله. يقال: رَقَنْتُ الكتابة: قاربت بين سطوره، وترقنت المرأة: تلطّخت بالزعفران. والرّقون والرّقان: الزعفران. والمرقون المنقوش. ويقال للمرأة الحسنة اللون الناعمة راقنة.¹

وقال في موضوع آخر: (باب الرء وما بعدها ممّا هو أكثر من ثلاثة أحرف) وهذا شيء يقلّ في كتاب الرء، والذي جاء منه فمنحوت أو مزيد فيه ومن ذلك: رَعْبَلْتُ اللحم رَعْبَلَةً: إذا قطّعت. قال: ترى الملوك حوله مرعبل.

فهذا مما يزيد فيه الباء، وأصله رعل، وقد مضى. يقال لما يقع من أذن الشاة ويترك معلقا ينوس كأنه زنمة: رَعْلَة. فالرعبل من هذا.

ومن ذلك (الرهبل): مشي بثقل. وهذا منحوت من رهل وريل، وهو التجمع والاسترخاء، فكأنها مشية بثقل.

ومن ذلك (المرجحن) وهو المائل، فالنون فيه زائدة، لأنها من رجح. وليس أكثر من هذا الباب. والله أعلم بالصواب.²

3- مدرسة نظام التقفية³:

إنّ نظام التقفية مقترن عند أغلب الدارسين بالإمام الجوهري (393هـ)، هذا من حيث الشيوخ، لكن الحقيقة غير ذلك، فمبتكر هذا النظام إنّما هو الإمام البندنجي أبو البشر اليمان بن أبي اليمان (284هـ)، وبين الرجلين أكثر من مائة عام، ولا أدلّ على ما يقول المحققون في هذا الأمر من كتاب التقفية للبندنجي.

ولعل إغفال الدارسين القدامى في علم المعجمة لهذا الكتاب هو السبب في شيوع الصّحاح للإمام الجوهري، ومن ثمة الاعتلاء إلى ريادة هذه المدرسة.

هذا، والجدل مستمرّ حول هذه المدرسة في قضية الابتكار والإبداع لنظام التقفية، فكثير ممن يسجلون الريادة للجوهري يعتقدون أنّ خاله الفارابي (350هـ) أبا إبراهيم هو المبتكر والمبدع الأول، وإنّما تقلّد الجوهري الريادة؛ لأنّه قدّم عملا علميا ممنهجًا ومكتملاً.

¹ المقاييس، 426/2.

² المرجع نفسه، 509/2-510.

³ التقفية أو القافية: هذه مصطلحات علم العروض في الأصل وإنما أوتي بها هنا للمشابهة ذلك أنّ القافية تكون آخر البيت الشعري: مجموع الساكنين الأخيرين مع المتحرك السابق للسكان الأول. وهؤلاء المعجميون يقصدون بالقافية الترتيب الألفبائي على أواخر الأصول. وبعضهم يقول: مدرسة الباب والفصل. وبعضهم ينسب المدرسة للرائد الجوهري، وبعضهم ينسبها للمعجم الأول فيها وهو الصّحاح.

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الأئمة المذكورين في جدل الإبداع والابتكار كلّ منهم قد ساهم في بناء المعجم العربي وتنوع طرائق ترتيبه، أما رواج الأعمال العلمية فأمرها موكل إلى الله سبحانه وتعالى أولاً وأخيراً.

ومن الكتب التي سارت على هذا النظام ما يلي:

أ- معجم التقفية في اللغة للبندنجي:

ومن المعاجم التي اتبعت القافية في ترتيبها الخارجي معجم "التقفية في اللغة" للبندنجي¹ (284هـ)، فالبندنجي من أعيان القرن الثالث الهجري وهو متقدم عن الجوهري (393هـ) رائد المدرسة، وهذا الأمر التاريخي هو منشأ الجدل الحاصل في الرجل الأول الذي أبدع هذا النظام نظام التقفية، لأنّ تحرير الأمر والتحقيق في المسألة هو أنّ الريادة لا تكون بإبداع النظام فقط، وإنما تحصل بعمل علمي متكامل ممنهج، ولا ريب أنّ هذا يتحقق في شخصية الجوهري على حساب البندنجي وغيره.

فالبندنجي في كتابه "التقفية في اللغة" من أول كلامه في المقدمة المختزلة تدرك أنّه غير راغب في اتباع النظام السابق نظام الترتيب الصوتي والتقاليب، فهو يتطلع لترتيب جديد، وقد حصل له الأمر فأنشأ معجماً تعليمياً لطلاب العربية من الشعراء، والأدباء، وغيرهم.

جاء في مقدمة الكتاب: "هذا كتاب التقفية إملاء أبي بشر وسماه بذلك؛ لأنّه مؤلف على القوافي، والقافية البيت من الشعر.

ونظر في الكلام فوجده دائراً على الحروف الثمانية والعشرين الموسومة ب: ألف با تا ثا عليها بناء الكلام كلّ: غريبه وفصيحه فهي محيطة بالكلام، لأنّه ما من كلمة إلّا ولها نهاية إلى حرف من هذه الثمانية والعشرين حرفاً..."².

- وكلامه هذا يبين منهجه، إذ أنّه ألّف مرتبا الكلمات على أواخرها بعد التجريد.

- وجمع كلّ الكلمات المنتهية بالحرف نفسه في باب واحد، ابتداءً من الألف إلى الياء.

ويقول: "ونظرنا في نهاية الكلام فجمعنا إلى كل كلمة ما يشاكلها، ما نهايتها كنهاية الأول قبلها من حروف الثمانية والعشرين، ثمّ جعل ذلك أبواباً على عدد حروف الهجاء، فإذا جاءت الكلمة مما يحتاج إلى معرفتها من الكتاب نظرت إلى آخرها ما هومن هذه الحروف فطلبتة في ذلك الباب الذي هي منه فإنّه يسهل معرفتها إن شاء الله"³.

¹ واسمه اليمان بن أبي اليمان البندنجي، أبو بشر، وكان ضريراً شاعراً عارفاً باللغة، لقي ابن السكيت وغيره من العلماء البصريين والكوفيين، وله كتاب التقفية، وانظر: الفهرست، ابن النديم، تح: رضا تجدد، (دد)، (دط)، (دت)، 90/1.

² التقفية في اللغة، البندنجي، اليمان بن أبي اليمان، تح: خليل إبراهيم العطية، مطبعة العاني، بغداد، العراق، (دط)، 1976، ص 36.

³ المرجع نفسه، ص 37.

- أغفل المؤلف ترتيب الألفاظ داخل الباب ونشرها بشكل لا يخضع إلى نظام معين، مما يجعل الملتبس، يبدأ الباب كلّ باحثاً عن أصول اللفظة ودلالاتها¹.

- حاول البندنجي جهده أن يودع معجمه التقفية في اللغة الفصح من كلام العرب مبتعداً عن الشاذ والغريب ناوياً أن يجعله معجماً تعليمياً مضمّناً الألفاظ السلسلة متمسكاً بالسهولة واليسر في عرض مادته. يقول العطية -محقق المعجم-: يبدو أنه أراد معجماً للجمهور، أعدّه خصيصاً "لأهل الأدب والمعرفة" ولم يرد به العامة، ولكنّه أراد به أنصاف المتعلمين، أو لعله أراد الشعراء الخاصة من ذوي الأصول غير العربية.²

ب- الصحاح للجوهري:³

وهذا الكتاب يعد الأول في هذه المدرسة من حيث الشهرة، والدقة، والشمولية، ولعل أعيان القرن الرابع الهجري من المعجميين مولعون بكسر ما هو مألوف، فعدلوا عن ترتيب الخليل وابن دريد، وابن فارس ورسوموا لأنفسهم طريقاً خاصاً بهم، وفيه مزية التيسير على مرید اللغة.

فالجوهري سمى معجمه "تاج اللغة وصحاح العربية"، لكنّه اشتهر بكلمة واحدة هي "الصحاح"، ونقل حسين نصّار عن أبي زكريا الخطيب التبريزي أنه شرح هذا الاسم شرحاً جميلاً حيث قال: "يقال: كتاب الصحاح بالكسر وهو المشهور، وهو جمع صحيح كظريف وظراف. ويقال الصّحاح بالفتح، وهو مفرد نعت كصحيح. وقد جاء فعّال بفتح الفاء لغة في فعيل، كصحيح وصحيح وشحيح وشّاح وبريء، وبراء"⁴. إنّ معجمي القرن الرابع الهجري تتضح عندهم نيّة الشمولية لمعاجمهم بتحفظ كبير، فقد استفادوا من تجربة سابقيهم حين تورطوا في كم كبير من الألفاظ، وطالب اللغة في غنى عن ذلك، وحاولوا تدارك الأمر بإبداع مصطلح المهمل لكن اتسع الرقع على المرقّع!

فالجوهري ممن آثروا انتقاء الصحيح من كلام العرب، إذ قال في مقدمة كتابه: "أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها"⁵.

وقد قال السيوطي: "وأول من التزم الصحيح مقتصرًا عليه الإمام أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري، ولهذا سُمّي كتابه الصحاح"⁶.

¹ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 293.

² التقفية في اللغة، البندنجي، تح: العطية، ص 25.

³ واسمه: إسماعيل بن حماد الجوهري، كنيته أبو نصر، وهو من أعاجيب الدنيا، إمام في علم اللغة توفي في سنة (400هـ). وانظر: إنباه الرواة، القفطي، 229/1-231.

⁴ المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصّار، 484/2.

⁵ الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري إسماعيل بن حماد أبو نصر، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط2، 1399هـ-1979م، 35/1.

⁶ المزهر، السيوطي، 97/1.

إنَّ الصحاح يعتبر المدونة الزاخرة بأنواع فنون اللغة والأدب أيضاً، فشيوعه على هذا النحو ليس من عدم، فحرص الطلاب على تدارسه ولا تزال طائفة تدرسه الآن، يقول أبو محمد إسماعيل بن محمد النيسابوري. وكان عنده الكتاب بخط مؤلفه:¹

هذا كتابُ الصحاح سيّد ما
صُنّفَ قبلَ الصّحاح في الأدب
يَشْمَلُ أنواعه ويَجْمَعُ ما
فُرّقَ في غيره مِنَ الكُتُبِ

إنَّ الذي قيل ويقال فيه مثل هذا الكلام لذو شأن كبير، وترى العمل المعجمي للرجل الإمام الفذّ الجوهري في صفحات كتابه المبسوط اليوم على مختلف طلاب العلم والباحثين، ولا يعدم فائدة كلّ من اطّلع على ما سوّد في ورقه.

أما عن منهج الجوهري في الصحاح فنخلصه فيما يلي:

- ترتيبه معجم الصحاح على حروف الهجاء، واعتبار آخر حرف في الكلمة بدلاً من الأوّل، إذّ اصطلاح بالباب للحرف الأخير، والفصل للأوّل مثل: شرف: يبحث عنها في باب الفاء فصل الشين، ويذكر في الباب كل كلمة في اللغة وصلت إليه وصحّت لديه عروبتها الصحيحة على أن تكون منتهية بحرفه، ويوزع الكلمات على الفصول؛ وهي ثمانية وعشرون فصلاً بعدد حروف المعجم كالأبواب، إلّا أنّ بعض الأبواب تقلّ فصولها عن ثمانية وعشرين، وهو الأكثر، فباب الراء مثلاً: ينقص منه فصل اللام؛ لأنّه ليس في العربية كلمة أولها لام وآخرها راء، وأقلّ الأبواب فصولاً باب الظاء فإنّ فصوله ستة عشر.²

- الجوهري بنى صحاحه على مصدري الرواية؛ فقد شافه الأعراب حتى إنّه من أواخر المعجميين أصحاب القرن الرابع الهجري الذين عُنوا بالمشافهة، كما استقى بقيّة مادته عن طريق الرواية النقلية عن العلماء، ومن أخذ عنه نجد أبا علي الفارسي، والسيрани وغيرهما ممن لم تفصح عنهم طيات الصحاح.³

- بغية استكمال المنهج في الصحاح قيد الجوهري عملية الضبط للألفاظ بالحروف، خشية التصحيف والتحريف، المتأتية من عدم ضبط الوحدة بالشكل. فإذا أراد ضبط اسم قال: "الكُداذ" بالضم، و"الكرديدة" بالكسر، ومراده ضبط الحرف الأوّل من الكلمة.

وأحياناً يقول: بالتحريك في مثل "الجَحْدُ"، وإنما يقصد الضبط للحرفين الأوّل، والثاني، أمّا الحرف الأخير فقد ترك للإعراب. وأحياناً يقول: بالتشديد في مثل "حَلّاب" فالمعروف لغة وضرورة "اللام". وفي ضبط صيغة الزمن الماضي جُحِد بالكسر، ذُوب بالضم، فإنّما مراده عين الفعل الماضي.¹

¹ إنباه الرواة، القفطي، 230/1.

² مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ص 120-121.

³ انظر: المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 304.

من حيث ترتيب المشتقات، تراه أحيانا يبدأ بالأسماء والصفات حتى ينتهي منها مع التنبيه على المفرد والمثنى والجمع، كما فعل في (ع ج م)، وأحيانا يبدأ بالأفعال وينبه أيضا على الماضي والمضارع والمصدر، أو يكتفي بالتنبيه على المضارع وحده دون المصدر إذا كان أحدهما يُغني عن الآخر، كما ينبه كثيرا على المتعدي واللازم، وفي الأسماء قد يذكر أحيانا صيغ الجمع المختلفة.

وسواء بدأ بالأسماء أو الأفعال، فإن ترتيب المشتقات في الصحاح يميل إلى الانتظام بحيث إذا بدأ بالأسماء والصفات، انتهى منها إلى أن يضطرّ إلى شرح المعنى فيستخدم الفعل، مثل قوله في (ع ج م): والإبل العجم: التي تعجم العضاة.

ومثل ذلك في الأفعال حيث يذكر المجرد والمزيد واللازم والمتعدي وهكذا.²

- عنايته باللهجات والألفاظ المعربة والمولدة، كما أنّه يشير إلى الضعيف والمنكر والمتروك والرديء المذموم من اللغات وإلى العامي، وإلى الأضداد أيضا.³

- سار الجوهري في معجمه على مبدأ الجذرية، واستغنى بشكل نهائي عن التسلسل الإنتاجي للمفردات، الذي اتبعته مدرسة النظام الصوتي والتقاليب، ومدرسة نظام الأبنية والتدوير الألفبائية الذي استمرّ في رحلة المعجم العربي قرابة ثلاثة قرون.⁴

- اهتم بالأمثال العربية الجارية كمصدر من مصادر الاحتجاج والبلاغة في القول، وإلى جانبها العبارات المكنية، والتجاوز اللفظي.⁵

- يميل الجوهري إلى الاختصار والوضوح في شرح المعنى المعجمي إذا ما قورن بالمعاجم السابقة عليه، وساعده على ذلك اقتصاره على الصحيح من كلام العرب، ولا يعني ذلك أنّ المعاجم السابقة عليه خلت من الصحيح بل على العكس لعله استقى الصحيح منها، غير أنّ السابقين عليه كانوا يقفون أمام غير الصحيح ينقدونه أو يشرحونه، أمّا هو فلم يكن بحاجة إلى ذلك؛ لأنه طرح من معجمه ما تصوره أنه غير صحيح.⁶

¹ انظر: المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 307. وقد سبق الجوهري قطرب (206هـ) في ضبط الأسماء في أولها وأتى بما يسمى التثليث، أو مثلثات الكلام، ومنها أخذ المتأخرون هذا المصطلح في الكلمة التي تقرأ بالوجه الثلاثة ضما وفتحاً وكسراً، فيقال تنطق مثلثة.

² مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 238.

³ المعجمات العربية دراسة منهجية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص 83.

⁴ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 307.

⁵ المرجع نفسه، ص 309.

⁶ مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 243.

- عني الجوهري بذكر كثير من مسائل النحو والصرف، وهي مبثوثة في كل أبواب الكتاب، كما عني بفقهاء اللغة، وبالشقاق الكبير.¹

- يبدو أنه في شرحه لبعض المفردات، إنما يتوخى مبدأ الإيصال السريع باعتماد عنصر الدلالة، ووضوحه في ذهن العامة من الناس، بالإضافة إلى الخاصة منهم. حيث يذكر في شروحه لبعض المفردات دلالاتها بالفارسية. ويبدو هذا مذهبا شخصيا لبيان القدرة والتمكن.²

قال: "الزمج" مثل "الجرذ" طائر يقال له بالفارسية "ده برادران".

- اهتم بالألفاظ الإسلامية المولدة، والتنبيه على مواقع دلالاتها، وبأعلام الأشخاص، والقبائل، والأماكن.³

لقد توج عمل الجوهري المعجمي بأهم المزايا على طالبي العربية، وهي طريقته المبدعة في اتباعه نظام القافية في الترتيب الهجائي، فخلصهم من صعوبة ترتيب الخليل وابن دريد وابن فارس، وأضاء لهم بداية مرحلة جديدة مثمرة في علم المعجمة.

وعلى درب التيسير قد أشار بعضهم في شعر تعليمي يبين فيه طريقة الكشف عن معاني الكلمات في الصحاح قائلا:⁴

إذا رُمتَ كشفاً في الصحاح للفظه
ولا تعتمد في بدئها وأخيرها
فأخرها للباب والبدء للفصل
مزيّداً، ولكن اعتمادك للأصل

أنموذج من الصحاح "تاج اللغة وصحاح العربية":

قال الجوهري رحمه الله . : "[أد] أدّت الناقة تَوَدُّ أدّا، إذا رجعت الحنين في جوفها. والأديد: الجلبة، وشديد أديد، اتباع له. والإد بالكسر والإدّة: الداهية، والأمر الفظيع. ومنه قوله تعالى: (لقد جئتم شيئا إدّا)، وكذلك الإدّ مثل فاعل، وجمع الإدّة إددّ.

وأدّت فلانا داهيةً تؤدّه أدّا، بالفتح. والأدّ أيضا: القوّة: قال الراجز:

نَصَبْتُ عَنى شِرّةً وأدّا
من بعد ما كنت صُملاً مُهْدّا

وأدّ: أبو قبيلة، بالضمّ؛ وهو أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر.

¹ المعاجم اللغوية العربية، إميل يعقوب، ص 110.

² المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 308.

³ المرجع نفسه، ص 308 - 309 .

⁴ مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ص 113. الهامش.

وأدَدُ: أبو قبيلة من اليمن، وهو أدَدُ بن زيد بن كهلان بن سبأ بن حمير والعرب تصرفُ أدَدًا، جعلوه بمنزلة ثَقَبٍ، ولم يجعلوه بمنزلة عُمَرَ".¹

إنَّ صنيع الجوهرى هذا قد فتح باباً أمام الدراسات اللغوية المعجمية القديمة، والحديثة، فقد فُتِنَ بعمله هذا من فُتِن، حتَّى إنَّكَ لترى من حاول اختصاره²، ومَن استدرك عليه³، وحشَّاه⁴ أيضاً. وما إحاطة هذه الأعمال به إلا لقيمته في مجال المعجمية.

ج- معجم العباب للصاغانى:

الصاغانى (650هـ) ألَّف كتاب العباب وهو معجم مستقلٌّ عن الصحاح بخلاف كتابه الأول الذي سماه التكملة، فهو تابع للصحاح فيما استدركه عليه، أمَّا العباب فيقول أحمد مختار عمر: قد ألَّفَه فيما بين سنتي (643 و 650 هـ)، ومات المؤلف دون أن يُتَمَّه إذْ وصل إلى مادة "بكم" فقط⁵.

ولقد حقق من العباب الشيخ محمد حسن آل ياسين ثلاث قطع أولاهما تجمع حرف الهمزة، والثانية تضم حرف الطاء، والثالثة تتضمن حرف العين، وكان طبع هذه القطع الثلاث ببغداد ما بين سنتي (1977 و 1980م)⁶.

كان الصاغانى يرمى في كتابه إلى الجمع والتصحيح، كما كان هدف معجمي القرن الرابع. ويظهر هذا الهدف واضحاً في قوله في المقدمة: "أولَّف كتاباً في لغة العرب، يكون إن شاء الله تعالى... جامعاً شتاتها وشواردها، حاوياً مشاهير لغاتها وأوابدها، يشتمل على أداني التراكيب وأقاصيها، ولا يغادر منها. سوى المهملة. صغيرة ولا كبيرة إلا وهو يُحْصِيها"⁷.

يقول السيوطي: "وأعظم كتاب ألَّف في اللغة بعد عصر الصحاح كتاب المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن سيده الأندلسي الضمير، ثم كتاب العباب للرضي الصغاني، ووصل فيه إلى فصل بكم" حتى قال القائل:

إنَّ الصَّغَانِي الَّذِي
كَانَ قُصَارَى أَمْرِهِ
حَازَ الْعُلُومَ وَالْحِكْمَ
أَنْ انْتَهَى إِلَى بَكَمِ

¹ الصحاح، الجوهرى، 2/ 440.

² مثل: مختار الصحاح للرازي.

³ مثل: تاج العروس للزبيدي.

⁴ مثل: حواشي ابن بري على الصحاح.

⁵ انظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 253.

⁶ المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص 89.

⁷ المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، 2/ 530.

ثم كتاب القاموس للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي¹.

ومن أهم الخصائص التي جعلت العُباب يحظى بمكانة مرموقة بين المعاجم العربية عامة ومعاجم التفقية خاصة نجد:²

- تنظيم المادة المراد شرحها فيبدأ بالمجرد ثم المزيد.

- في أغلب موادّه يبين الدلالة الأصلية للجذر، يحاكي ما صنع ابن فارس.

- زيادة بعض المواد على معاجم سابقه.

ومما يلاحظ على الصاغانى أثناء تأليفه لمعجمه وترتيب موادّه التي اختارها وشروحها قد غلبت عليه الصبغة الأدبية، والعناية بالشواهد الشعرية³.

د- لسان العرب لابن منظور⁴:

ومن الكتب التي اتخذت القافية منهجاً، واستحسنّت طريقة الصحاح في الترتيب الخارجي كتاب "لسان العرب" لابن منظور الإفريقي (711هـ)، من أعيان القرن السابع وطلّائع الثامن الهجري. ولعل القارئ والباحث انطلاقاً من عنوانه يدرك ما يهدف إليه مؤلفه لسان العرب واسع جدّاً، فلن نستطيع حصره، وإذا ظفرت منه فإمّا تظفر بقليل.

ولسان العرب من أوسع معاجم العربية عموماً والقافية خصوصاً وأغزرها مادة، وأدقها تحريراً وتفسيراً، ويحتوي على زهاء ثمانين ألف مادة، وهو عدد لم يجتمع لمعجم عربي آخر من قبل.⁵

وهذا الكم الهائل من المواد لم يكن ليتوفر لمعجمي حتى يتمسك بأمرين يكفلان له ذلك هما: الاستقصاء لكلام العرب، والترتيب الذي يقي المعجمي من الخلط في المواد فيكرر هنا وينقص هناك.

هذا، وقد استقى ابن منظور مادة معجمه من المعاجم السابقة فصّرّح بها ومنها تهذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سيده، والصحاح للجوهري، وحواشي ابن بري على الصحاح، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير، وقال بكل تواضع "وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمتّ بها، ولا وسيلة أتمسك بسببها سوى أيّ جمعت ما تفرّق في تلك الكتب من العلوم وبسطت القول فيه"⁶. وأضاف قائلاً: "فليعتد من ينقل عني كتابي هذا أنّه ينقل عن هذه الأصول الخمسة"⁷.

¹ المزهر، السيوطي، 100/1.

² انظر: المعجم العربي، حسين نصار، 2/ 537 - 539.

³ انظر: المعاجم العربية موضوعات وألفاظاً، فوزي يوسف الهابط، الولاء للطبع والتوزيع، ط1، 1413هـ - 1993م، ص138.

⁴ واسمه: جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، الرويفعي ابن منظور، وانظر: الشذرات، 49/8.

⁵ انظر: المعاجم العربية، مدارسها ومنهجها، عبد الحميد محمد أبو السكين، الفاروق الحرفية للطباعة والنشر، ط2، 1402هـ - 1993م، ص101.

⁶ لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف. كورنيش النيل. القاهرة، مصر، دط، دت، 12/1، المقدمة.

⁷ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

أما منهجه فهو منهج الجوهري في الصحاح ولم يختلف عنه إلا من حيث الكم في المواد، فقد وصلت موادّه إلى ثمانين ألف مادة، فهو بذلك موسوعة لغوية عربية أدبية.

وهذه بعض ميزاته نوردّها على النحو الآتي:

- العمل الموسوعي في المجال اللغوي وغيره، ضمّن الكتاب فوائد، ونقولات، واستطرادات، كثيرة في شتى العلوم والمعارف.

- كثرة الشواهد الشعرية والنثرية التي يحتج بها من قرآن، وحديث، وحكم، وأمثال، ومأثور كلام العرب وأشعارهم¹.

- تفرّده من بين المعجميين في كلامه عن الحرف المعقود له الباب وما يتعلق به².

- العناية بالقراءات القرآنية التي أغفلت المعاجم الأخرى الكثير من جوانبها المفصلة، وسجلها بعناية فائقة، مما يفيد في كثير من الدراسات الصوتية الحديثة، وجوانب علم الدلالة واللهجات³.

- استهلّ كتابه بباين الأول في تفسير الحروف المقطعة في أوائل بعض سور القرآن الكريم مثل ألم، كهيعص، ص، ق...

والباب الثاني في ألقاب حروف المعجم وطبائعها وخواصها⁴.

معجم لسان العرب موسوعة عربية ضخمة ميزه صاحبه بالإسهاب وكثرة الإطناب، فمن كان قبله لربما استشهد بنصف بيت، أما هو فقد يأتي على القصيدة كلها أو أغلبها.

هـ- القاموس المحيط للفيروزآبادي⁵ (817هـ) :

وهذا معجم آخر أثر نظام القافية منهجا له في ترتيبه الخارجي، وما يلاحظ على هذا المعجم هو عنوانه غير المؤلف، فالفيروزآبادي أحدث اصطلاحا جديدا لما أطلق كلمة "قاموس" على المعجم.

ويقول الفيروزآبادي مبينا سبب التأليف والتسمية على هذا النحو: "وكنّت برهة من الدهر ألتمس كتابا جامعا بسيطا ومصنّفا على الفصيح والشوارد محيطا، ولما أعياني الطلاب شرعت في كتابي الموسوم بـ"اللامع المعلم العجّاب الجامع بين المحكم والعباب" فهما غرّة الكتب المصنّفة في هذا الباب...ضمنت إليها زيادات امتلأت بها الوضاب...غير أنّي خننته في ستين سفرا يعجز عن تحصيله الطلاب، وسئلت

¹ المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص93.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص324.

⁴ المعاجم العربية مدارسها ومناهجها، عبد الحميد محمد أبو سكين، ص102.

⁵ واسمه: أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروزآبادي اللغوي الشافعي العلامة (729-817هـ)، وانظر الشذرات،

تقديم كتاب وجيز على هذا النظام، وعمل مفرغ في قالب الإيجاز والإحكام مع التزام وإتمام المعاني، وإبرام المباني، وصرفت صوب هذا القصد عناني، وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد، مطروح الزوائد معربا عن الفصح والشوارد، وجعلته بتوفيق الله سفرا في زفر، وأسميته القاموس المحيط؛ لأنه البحر الأعظم¹.

ونظم بعضهم معلقا على شهرة القاموس المحيط على حساب الصحاح:²

مُدَّ مَدَّ مَجْدُ الدِّينِ فِي أَيَّامِهِ مِنْ بَعْضِ أَجْحَرِ عِلْمِهِ الْقَامُوسَا
ذهبت صحاح الجوهري كأثما سحر المدائن حين ألقى موسى

أما عن المنهج الذي سلكه الفيروزآبادي في بناء القاموس المحيط فهو منهج الصحاح المتقدم لكن يبدو أنَّ الفيروزآبادي أحدث بعض التحديد في هذا الفن واصطلاحاته، منها:

- إثراء اللغة العربية بكلمات كانت مهمة في الاستعمال انطلاقا من عنوانه القاموس.

- اختار رموزا تغني عن تكرار كلمات كثيرة الترداد³. مثل: م: معروف، ع: موضع، ه: قرية، د: بلدة، ج: الجمع، جج: جمع الجمع، ججج: جمع جمع الجمع.

ونظمها في قوله:⁴

وما فيه من رمزٍ فخمسةً أخرف فميمٌ معروفٌ وعينٌ لموضع
وجيمٌ لجمعٍ ثم هاءٌ لقرينة وللبلد الدال التي أهملت فع
وزاد بعضهم:⁵

وفي آخر الأبواب واوٌ ويأؤها إشارةً واويٍّ ويأئها اسمع

- ندرة الاستشهاد إذا ما قورن بمواد القاموس، فالقاموس يحوي ستين ألف مادة في حين عدد الشواهد الإجمالي على مختلف أنواعها ألف وثلاثمائة وتسعون (1390) شاهداً. أي بنسبة 2,31% من مواد القاموس⁶.

ولقد أبدع الفيروزآبادي القاموس المحيط معجما عني بالاختصار وتجنب التكرار، وإضفاء مسحة الجدة على هذا العلم، وهو يعتبر متنا لغويا يحفظه الطلاب ليستعينوا به على تذليل صعوبات الألفاظ، فولع من ولع بهذا العمل المعجمي، فكم من شارح له ومختصر، ومستدرك عليه منتصر.

¹ القاموس المحيط، الفيروزآبادي، تح: الهوري، ص33-35، المقدمة.

² المرجع نفسه، ص36، المقدمة.

³ المعاجم العربية دراسة تحليلية، عبد السميع محمد أحمد، دار الفكر العربي، ط2، 1974م، ص118.

⁴ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ نفسه، نفسها.

⁶ انظر: معالجة المادة المعجمية في القاموس المحيط للفيروزآبادي، العربي طريلي، ص87.

و- تاج العروس للزبيدي:¹

وهذا المعجم من المعاجم المتأخرة التي جرت على نظام القافية، فصاحبه أسماه "تاج العروس من جواهر القاموس"؛ لأنه شرح فيه القاموس المحيط للفيروزآبادي المتقدم لكن الرجل أضاف عليه إضافات، وهذا المعجم من أوسع المعاجم العربية التي ألفت في القدم والحديث، وأكثرها شمولاً، وتأليفه قد استغرق زمناً غير قليل مكث يكتبه حوالي أربعة عشر عاماً.

يقول الزبيدي: "ومّا منّ الله تعالى عليّ أيّ كتبت على القاموس شرحاً غريباً في عشر مجلدات كوامل، جمعتها خمسمائة كراس، مكثت مشغلاً به أربعة عشر عاماً وشهرين، واشتهر أمره جداً، حتّى استكتبه ملك الروم نسخة، وسلطان دارفو نسخة، وملك المغرب نسخة، ونسخة منها موجودة في وقف أمير اللواء محمد بيك مصر، وبذل في تحصيله ألف ريال، وإلى الآن الطلب من ملوك الأطراف غير متناه"².

ورغم أنّ تاج العروس شرح للقاموس إلّا أنّ شخصية الزبيدي ظهرت فيه إلى حدّ جعله يفوق مجرد شرح أو تعليق، لذا فإنّ اللغويين يعتبرونه كتاباً مستقلاً ومعجماً قائماً بذاته، وقد ختم الزبيدي بهذا المعجم عهد المعجمات المطولة، ورجع في تأليفه إلى حوالي خمسمائة مرجع من أهمها: العباب، والمحكم وغيرهما.³ ولما كان مقام الزبيدي مقام الشارح للقاموس المحيط فإنّه في شرحه وتعليقه على مواد الماتن حتماً سيأتي بما فات الأول، وهذه بعض إضافاته⁴:

- ذكر الشواهد التي أغفلها في القاموس.
- ردّ بعض الاقتباسات إلى أصولها أو مصادرها الأولى.
- الاستدراك على الفيروزآبادي فيما أغفله من مواد أو كلمات أو معان. وكان من عادة المؤلف أن يختم المادة بما استدركه قائلاً: ومما يستدرك عليه.
- أمّا منهج الزبيدي في تاج العروس في الترتيب الخارجي فهو منهج الفيروزآبادي والجوهري من قبله، اتبع نظام القافية. ولكونه شارحاً للقاموس فقد حرص على ضبط عبارة القاموس وجعلها بين قوسين ثم يعلق على كلامه فيها.

وهذه بعض خصائص التاج نوردها على النحو الآتي:

- النظام العام: الاستقصاء لكلام العرب، وكثرة المواد حتى إنّّه قد وصل إلى مائة وعشرين ألف مادة أو ما يزيد على ذلك.

¹ واسمه الزبيدي (مرتضى) محمد بن محمد الحسيني، يكنى أبا الفيض (1205هـ) وانظر: الأعلام، 42/3.

² المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص244. نقلاً عن مقدمة التاج، ص (ط) .

³ انظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص267.

⁴ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

- العناية بالأعلام، وخاصة المحدثين والفقهاء منهم، والتوسع في إيراد أسماء الأماكن فلقد زاد في هذه الأمور الزبيدي زيادة كبيرة، وخاصة الأماكن المصرية، وظهرت في المعجم أسماء معظم القرى المصرية لا المدن المشهورة وحدها.¹

- التنبيه على المعنى العام أو الدلالة المركزية أو الأصل الذي تدل عليه المادة، وهذه الظاهرة أغفلها الفيروزآبادي لاختصاره، وإيجازه.²

- ينسب الزبيدي الكثير من البيان اللغوي إلى قائله، وإرجاع ما ورد في متن القاموس إلى مراجعه الأولية.³

إنّ الزبيدي قد تهيأ له في عمله المعجمي ما لم يتهيأ لأحد من المعجميين قبله، ذلك أنّه متأخر بل هناك الكثير ممن يعتبرون تاجه خاتمة المعاجم اللفظية القديمة، فهو عاش في زمان قد انكشفت فيه جميع الأنظمة والمدارس المعجمية، وطرائق المعالجة في تحليل وشرح المواد، لذا ليس من الغريب، أن يبدع عالم لغوي أديب أريب تاجا من بحر عمله مرصعا من طالبه قريب. وجملة القول:

إنّ نظام التقفية قد طالت حقا مدة التأليف على نحوه، فقد بدأ في القرن الرابع الهجري وصولا إلى القرن الثاني عشر عند الزبيدي، فالرواج مستمر طيلة تسعة (9) قرون، ولا تفسير لهذه الظاهرة إلا أنّ هذا النظام قد استحسنه المؤلفون في هذا العلم، ووجدوا فيه بغيتهم، وقد أخذه اللاحق عن السابق من غير مناقشة له، ذلك أنّ المعجميين اطمأنوا له وأدركوا أنّه كفيّل بتحقيق ما يرمون إليه في أعمالهم المعجمية.

4- مدرسة الترتيب الألفبائي حسب أوائل الأصول:

في الصناعة المعجمية أوّل ما وصلنا من عمل اتبع صاحبه نظام الألفباء العادية⁴، إنّما هو معجم الجيم لأبي عمرو الشيباني⁵ (206هـ)، وتذكر كتب المصادر أنّ الإمام البخاري (256هـ) رحمه الله ألف على هذا النسق في ترتيب أسماء الرواة مراعيًا الحرف الأول، وعمل مثله ابن قتيبة الدينوري (276هـ) في كتابه غريب الحديث، حيث رتب غريبه حسب الألفباء العادية وباعتبار الحرف الأوّل من الكلمة، هذا عن القرن الثالث الهجري، ثم إنّّه قد ظهر معجميّ في القرن الرابع الهجري كان قد فتن بصحاح الجوهرى، وأراد

¹ المعاجم العربية مدارسها ومناهجها، عبد الحميد أبو سكينة، ص 112.

² المرجع نفسه، ص 113.

³ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 347.

⁴ هناك اصطلاحات كثيرة لتسمية هذه المدرسة بعضهم يقول: الترتيب الألفبائي العادي، وثان يرى: مدرسة نظام الألفبائية الأصولية، وآخر اعتمد الترتيب الألفبائي حسب أوائل الأصول وغيرها.

⁵ واسمه إسحاق بن مرار أبو عمرو الشيباني اللغوي، صاحب العربية على خلاف في تاريخ وفاته بين (210هـ) و(206هـ)، وانظر إنباه الرواة، 256/1.

تيسيره للطلاب بوضعه على الألفباء العادية فكان له ذلك. والرجل هو أبو المعالي محمد بن تميم البرمكي¹ (411هـ)، ثم أتى بعد البرمكي الزمخشري² (538هـ)، وألف كتابه "أساس البلاغة" متبعا لترتيب الألفبائي على أوائل الأصول، وهو العمل المعجمي الأول المكتمل في هذا النظام.

والجدل كبير حول ريادة هذه المدرسة، لكن كما أسلفت الذكر في تتبع التاريخي لظهور هذا النظام أو الترتيب الألفبائي على أوائل الأصول فإنّ إبداع الترتيب لغويًا ظهر عند أبي عمرو الشيباني (206هـ)، أمّا الرواج والشيوع لمثل هذه المدرسة فقد كتب للزمخشري صاحب الأساس، ورغم أنّ البرمكي سابقه في وضع كتابه "المنتهى في اللغة" وبينهما أكثر من قرن من الزمان إلا أنّ الريادة كتبت لصاحب الأساس؛ لأنّ البرمكي لم يبدع إلا في الترتيب فقط فقد كانت مادة المنتهى هي مادة صحاح الجوهري، وأمّا الزمخشري فقد أبدع في أساسه جمعًا ووضعًا، وصنع معجمًا مكتملاً خالف فيه ترتيب الصحاح الذي كان سائدًا وقتذاك.

ومن الكتب التي اعتمدت الترتيب الألفبائي على أوائل الأصول كتاب "الجيم" لأبي عمرو الشيباني (206هـ)، فهذا الترتيب الهجائي كان معروفًا من قبله فقد أبدعه نصر بن عاصم الليثي (89هـ) وهو ما يسمّى بترتيب الأشباه والنظائر، إلا أنّ الشيباني استثمر صنيع الليثي في بناء معجمه "الجيم" اعتمده في الترتيب الخارجي، كان ذلك في زمن قد شاع فيه الترتيب المخرجي للخليل بن أحمد.

أ- معجم "الجيم" لأبي عمرو الشيباني (206هـ) :

كان أبو عمرو من أعلم الناس باللغة، موثقًا فيما يحكيه، جمع أشعار العرب ودوّنها. قال عمرو بن أبي عمرو: ولما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفا وثمانين قبيلة، فكان كلّما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفًا، وجعله في مسجد الكوفة، حتى كتب نيفا وثمانين مصحفًا بخطّه.

وقال أبو العباس ثعلب: كان مع أبي عمرو من العلم والسماع عشرة أضعاف ما كان مع أبي عبيدة، ولم يكن من أهل البصرة مثل أبي عبيدة في السماع والعلم.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: كان أبي يلزم مجالس أبي عمرو ويكتب أماليه³.

وكتاب "الجيم" هو الكتاب الثاني في الصناعة المعجمية العربية بعد العين للخليل وسبب تسمية أبي عمرو لكتابه بالجيم أمر يخفى على كثير من أهل التحقيق فضلًا عن أفراد الناس من الدارسين والباحثين،

¹ واسمه محمد بن تميم البرمكي أبو المعالي اللغوي المتوفى سنة 411هـ صنف المنتهى في اللغة منقول من الصحاح، وانظر: بغية الوعاة، السيوطي، 68/1.

² واسمه محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي أبو القاسم الزمخشري (538هـ)، النحوي اللغوي المفسر المعتزلي، صاحب الكشف، والمفصل، وأساس البلاغة، وانظر: الشذرات، 6/ 194-195.

³ إنباه الرواة، القفطي، 257-256/1.

وكلّ ما سطر في هذا الباب إنّما هو خبط في عماية، فلا دليل عليه، ولا أثارة من علم ترشد إليه، وإنّما مقاربات ومحاولة إيجاد تبرير عقلي منطقي مقنع؛ ذلك أنّ المؤلّف نفسه لم يصرّح بذلك، وقد قال القفطي حين ترجم لأبي عمرو الشيباني في الإنباه أنّه لم يذكر لم سمّاه "الجيم"، "ولا علم أحد من العلماء ذلك"¹. أمّا ما شاع عند المتأخرين لما بحثوا عن علّة الأمر فمعتمدتهم في ذلك هو قول الزبيدي في "تاج العروس" الذي بدوره اعتمد على قول الشيباني نفسه من أنّ الجيم في لغة العرب تعني الديقاج، فعقّب وقال: "وله كتاب في اللغة سماه الجيم، كأنّه شبهه بالديقاج لحسنه"² لما سمع هذا المحدثون وقد ولعوا بالبحث عن علة التسمية ارتضوه.

أمّا عن منهج أبي عمرو الشيباني في الجيم فإنّه يغلب عليه الاضطراب والتداخل وعدم الوضوح، وربّما يتضح الأمر إذا علمنا أنّ النسخ التي لملم منها كتاب "الجيم" بعضهم يرى أنّها مأخوذة من كتب له أخرى؛ ذلك أنّه قد كتب في الموضوعات مثل: كتاب الإبل، كتاب أشعار القبائل، والنوادر... ومهما يكن من أمر فإنّ بعض الدارسين يسجّل الخطوات المنهجية لأبي عمرو في كتابه الجيم فيما يلي:

- أول من أبدع واتبع الترتيب الأبجائي على الأوائل الأصول في الصناعة المعجميّة بعد معاجم الحديث، فهي خطوة بكر تشيع فيها روح الخلط والاضطراب، وعدم الإحكام، فشأنها شأن الأعمال الوليدة الأولى في احتوائها على كثير من النقص، والتخليط وعدم وضوح المنهج³.
- لا يمثل "الجيم" نظرية لغوية معجميّة محدّدة المعالم، واضحة المنهج، كما برزت في معجم "العين" سابقه، فالأول أجاد في النظام والترتيب والمعالجة، والتالي أخلّ واضطرب⁴.
- أبو عمرو في كتابه الجيم ضبط حرف الباب (الأول) وترك ما بعده للاضطراب فهو يذكر في باب الهمزة كل حرف مبدوء بها دون أن يراعي ما بعدها من الحروف في ترتيب المواد، فيذكر ماجاء في باب الهمزة بهذا الترتيب: الأوق - الألب - المأفول - الأفق - الأزوح - المأموم... وآخر كلمة ذكرها في هذا الباب هي "الإدّة" مع أنّ حقّها أن تذكر قبل أول كلمة ذكرها في معجمه⁵.

¹ إنباه الرواة، القفطي، 259/1.

² انظر: المعجم العربي، حسين نصار، 78/1.

³ انظر: المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 247.

⁴ انظر: المرجع نفسه، الصحيفة نفسها.

⁵ انظر: مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ص 104.

- وفي ترتيبه الخارجي الهجائي قدّم أبو عمرو باب الواو على باب الهاء، وهو خلاف المشهور في ترتيب الحروف الذي أثر عن نصر بن عاصم الليثي¹.
- لأبي عمرو عناية بليغة بأشعار القبائل ولغاتها، وقد توسع في هذا الأمر كثيراً فقد كان يعنى بالنوادر، والغريب، وحفظ أراجيز العرب².
- لم يلتزم الشيباني بنظام الجذور، وإنما جاءت المدخلات بصيغها المتباينة، ولكنّ الرجل كان يعامل اللفظة في فكرة مجردة دون ذكر ذلك في المعجم، فيدخل لمعالجة مادته مرّة بالفعل الماضي، وتارة بالمضارع، وأخرى بالمصدر³.
- لم يكن شرحه للألفاظ على نسق واحد، فقد يورد اللفظة دون شرح ألبتة، وعُني أبو عمرو في شرحه لمعاني الألفاظ بذكر صيغ كثير من هذه الألفاظ ومشتقاتها، فإذا كانت المادة فعلاً مثلاً نراه يورد أبنيته الأخرى، دون انتظام إذا كرّر الأمر⁴.
- ندرة استشهاد بالقرآن والحديث؛ لأنّ الغالب عليهما لغة قريش أو الحجاز عامة وتلك لغة معروفة مشهورة، فلا غريب فيها ولا نادر، وربما اتصل بذلك قلة الأمثلة عنده أيضاً⁵.
- الاضطراب في الاستشهاد عند أبي عمرو من جميع النواحي: منها أنّه قد يقدّم الشاهد على أصل المادة المراد شرحها، ومنها أنه قد يستشهد لا لأصل المادة وإنما لمعنى من المعاني العارضة له في شرح الألفاظ نظراً لاستطراداته الكثيرة.
- يولي أبو عمر عناية واضحة بالفروق اللغوية، ووحدة المعنى في أفعل وفعل نحو: "أجهد في حاجتي وجهد لي سواء"⁶.
- يظهر أغلب نتاج أبي عمرو في الرسائل الإفرادية ذات الموضوع والمعنى الواحد، فمنهج التأليف في هذه الكتب يختلف عن التأليف حسب الألفاظ، والتوفيق بين مواد النوعين ليس بالأمر الميسور.
- الحشو الكبير في المعجم اللغوي بالأخبار والقصص الصغيرة وكأنّما هو أحد كتب الأمالي التي تعنى بتلك القصص عناية كبيرة لتفسير الغريب من ألفاظها⁷.

¹ انظر: المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص113.

² انظر: المعجم العربي، حسين نصار، 79/1.

³ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص250.

⁴ المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص112.

⁵ المعجم العربي، حسين نصار، 82/1.

⁶ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص253.

⁷ المعجم العربي، 82/1.

- مما يلاحظ على أبي عمرو في معجمه "الجيم" قلة العناية بالأعلام خاصة منها الأشخاص، وأما ما ورد ذكره من أسماء نحو: السعدي، والعذري، والباهلي، والأكوعي، والخزاعي، والحارثي وغيرهم، فهو لا يعني بهم شخصاً معيناً إنما النسبة للقبيلة، وتبيان صفاتها اللهجية المتعددة¹.

ب- البرمكي وكتابه "المنتهى في اللغة":

لقد نقل السيوطي عن ياقوت قوله: "له كتاب في اللغة سَمَّاهُ المنتهى، منقول من الصحاح، وزاد فيه أشياء قليلة، وأغرب في ترتيبه. ذكرَّأته صنفه سنة سبع وتسعين وثلاثمائة"².

والمتتبع للمعاجم العربية والدراسات التي أُقيمت حولها يرى عدم حفول الباحثين بعمل البرمكي المعجمي، فعمله يحتاج إلى دراسة وبحث حقاً. ولعلَّ السبب في ذلك عند كثير منهم هو خُلُوه من الإبداع من ناحية؛ ذلك أنَّ أبا المعالي البرمكي (411هـ) أغرب في ترتيب الصحاح فقط حينما قلب صحاح الجوهري على أوائل الأصول، ولم يكن هذا الترتيب في ذاك الزمن معروفاً ولا رائجاً، ثم إنه قد صنّفه سنة (397هـ) وكأنَّه ينتظر وفاة الجوهري حتى يصدر مؤلّفه هذا.

و"المنتهى في اللغة" للبرمكي غير شائع عند طلاب العلم وأهل الفنّ، وهو غير مطبوع في نسخة مكتملة، وهذا الأمر أثر سلّياً، إذ لم يلق حظّه الكافي من الدراسة والتحقيق. وبين طيات الكتب المتخصصة لا تكاد تجد معلومات على هذا المؤلّف.

يقول أحمد عبد الغفور عطار: "وطريقة البرمكي أنّه أخذ من الصحاح من كل باب وفصل الحرف الذي يريده، ففي باب الهمزة أخذ منه فصل الهمزة، ومن باب الباء والتاء والثاء والجيم حتى الياء فصل الهمزة، ورتبها على أوائل الحروف مراعيًا الحرف الثاني والثالث، ثم انتقل إلى باب الباء، وصنع فيه ما صنع في الهمزة حتى انتهى إلى آخر حرف في حروف الهجاء. مثلاً: ا-آ-اب-ابت-ابث-ابح-ابر-ابرز-ابس-ابض-ابط-ابغ-ابق-ابل-ابن-ابه-ابو-ابي"³.

فبالنظر إلى ما قدّمه البرمكي من ترتيبه لمعجمه "المنتهى في اللغة" حسب الألفباء العادية المألوفة، ومراعاته للحرف الثاني والثالث من أصول الكلمة يكون قد فاق أبا عمرو الشيباني في جودة الترتيب، والبعد عن الخلط والاضطراب في شرح المواد.

¹ انظر: المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 253-254.

² بغية الوعاة، السيوطي، 68/1.

³ مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ص 105.

ج- الزمخشري ومعجمه "أساس البلاغة":

هذا المعجم "أساس البلاغة" كتب له الرواج والشيوع أكثر من سابقه، ويحسب هذا الكتاب مع معاجم القرن السادس؛ ذلك أنّ مؤلفه توفي سنة (538هـ) فالزمخشري لم يسلك فيه النظام الصوتي والتقاليب، ولا القافية، وإمّا رتبته وفق الألفباء العادية المألوفة الماثورة عن نصر بن عاصم الليثي، ولعلّ السبب في الإقبال عليه دون سابقه في هذه المدرسة راجع إلى أنّ الزمخشري قد ألّف بهذا النظام معجماً مكتملاً بخلاف من سبقه.

وخالف الزمخشري بمعجمه جميع من سبقه في الصناعة المعجميّة انطلاقاً من التسمية، فالمعجميون، الأول يسمّون الكتب بـ الجمهرة، المحيط، البارع... وهو نحا منحى غربياً فقال: "أساس البلاغة"، وبهذه التسمية يدرك الدارس أنّ الكتب اللغوية السابقة لما عنونت بـ المحيط، الجمهرة كانت تُعنى بالألفاظ إحصاءً وشرحاً، أمّا الزمخشريّ فهو يرمي إلى التراكيب لا الألفاظ استقلالاً، وإمّا تعالج اللفظة داخل التراكيب، والتعرّض لدلالاتها المختلفة التي تتولّد عن السياقات المتعدّدة.

فالزمخشري انتقل بالتأليف المعجمي من اللغة إلى البلاغة، والناظر في معجم أساس البلاغة قد يتوهّم أنّه يؤسس لهذا العلم علم البلاغة، فهو قد أكثر من المباحث البلاغية فيه، لكنه تطرّق إلى البلاغة التطبيقية لكلام العرب، وسبب التحول هذا إمّا هو القرآن الكريم. أجلّ الكتب في اللغة العربية. كلام الله، أعلى مقامات الفصاحة والبيان.

حيث قال في مقدمة الأساس: "هذا، ولما أنزل الله تعالى كتابه مختصّاً من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التي تقطعت عليها أعناق العتاق السُّبُق، ووُنت عنها الجياد الفُرَح، كان الموقّف من العلماء الأعلام، أنصار ملّة الإسلام؛ الذابّين عن بيضة الحنيفية البيضاء، المبرهنين على ما كان من العرب العرباء حين تُحدّوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم... والنظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الإعجاز أوقف، وبأسراره ولطائفه أعرف؛ حتى يكون صدر يقينه أنلج، وسهم احتجاجه أفلج؛ وحتى يقال: هو من علم البيان حظي، وفهمه فيه جاحظي"¹.

فالمتتبع لمقدمة الأساس يدرك أنّ الرجل يُعلي من شأن البلاغة ارتكازاً على الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ولعلّ. والله أعلم. العصر الذي عاش فيه الزمخشري هو عصر استواء عود البلاغة، وإذا ذكر الجرجاني. مؤسس نظرية النظم في البلاغة. يتضح مانرمي إليه من معان، ولعلّ الزمخشري أفاد من الأول أو من علمه.

¹ أساس البلاغة، الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 1419هـ - 1998، 15/1.

وغاية الزمخشريّ من تأليفه "أساس البلاغة" نجملها في بعض الأهداف المستفادة من مقدمته، وطريقة معالجته في معجمه، وهي على النحو التالي:

الهدف الأول: ديني

ويتمثل في توضيح وجوه الأعجاز البلاغي وذلك من تبين مراسم البلاغة في أقوال العرب ليسموا منها إلى مراسمها في القرآن الذي نزل بلغتهم وعلى سننهم في التعبير. وهذا الأمر له علاقة باعتقاد مَنْ درى كنه ذلك في القرآن كلام الله جلّ وعلا وصفته¹.

الهدف الثاني: علمي

يقول حسين نصّار: يضاف إلى ذلك أي الهدف الديني هدف علمي؛ لأنّ من تبوأ من هذا العلم مكانة سيقال فيه: "هو من علم البيان حظي، وفهمه فيه جاحظي"².

الهدف الثالث:

وهو ثمرة الجمع بين الهدفين السابقين، وهو هدف علمي تطبيقيّ يتمثل في تخريج الأدباء الفحول؛ لأنّ مَنْ تعلّم وأدرك غاية البلاغة ووجوه الإعجاز سيكون مؤهلاً إلى الممارسة وهي الهدف الرئيس³. أمّا عن منهج الزمخشري في "أساس البلاغة" فنوضحه اعتماداً على كتب من درس هذا المعجم في النقاط التالية:

- ترتيبه ألفاظ المعجم حسب الألفباء المألوفة مراعاة للسهولة والتيسير حيث قال وقد رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداول، وأسهله متداولاً، يهجم فيه الطالب على طلبته موضوعة على طرف الثمام وحبل الذراع، من غير أن يحتاج في التنقير عنها إلى الإيجاف والإيضاح، وإلى النظر فيما لا يوصل إلا بإعمال الفكر إليه، وفيما دقّ النظر فيه الخليل وسيبويه⁴. وقد سبق الزمخشري لهذا الترتيب من قبل حيث ظهر ابتداءً عند أبي عمرو الشيباني في معجمه الجيم، ثم عند البرمكي أبي المعالي في كتابه "المنتهى في اللغة" لكن أخذ عن الأول أنّه مسودة غير مكتمل، والثاني ليس للرجل فيه مزية؛ لأنّه مادة صحاح الجوهري قد قلبها على الأوائل.

فالزمخشري قسم كتابه إلى ثمانية وعشرين باباً بعدد حروف الهجاء، كما أنّه يراعي أصول الكلمة انطلاقاً من الحرف المعقود له الباب فالتالي فالذي يليه، وقد قدّم باب الواو على الهاء.

¹ المعجم العربي، حسين نصّار، 691/2.

² المرجع نفسه، 691/2. وأساس البلاغة، الزمخشري، 15/1.

³ انظر: المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص 115.

⁴ أساس البلاغة، الزمخشري، 16/1.

- تميز الزمخشري في أساس البلاغة بالجرأة، وتجاوز بشجاعة فائقة متجه القوم، ونظرية عصر الاحتجاج، وعالج مدخلاته على وفق منظوري الحقيقة والجاز، وهي تتوالى في سياقات لغوية متناسقة، تحكمها ضوابط المنهج، ومرسلات الفكر المعجمي للزمخشري¹، وهذا الأمر ليس مستلاً من معجمه لما ألمح، وإنما مبسوط حيث صرح، لكن الرجل في معالجته المعجمية للمواد يأتي بالمعاني الحقيقية أولاً ثم يختتم الكلام بالمعاني المجازية، وقد أثرت عنه عبارة "ومن المجاز".

- لقد صرح الزمخشري بأنه استقى مادته في "أساس البلاغة" من روافد معرفية وعلمية مختلفة، فيها ما تحصّل له عن طريق التلقّي المباشر، وفيها ما جاء عن الطرق النقلية غير المباشرة، من المصنفات العربية الكثيرة والشهيرة حيث يقول: "قُلِّيتَ له العربية وما فصّح من لغاتها، ومُلِحَ من بلاغاتها، وما سُمِعَ من الأعراب في بواديها، ومن خطباء الحلل في نواديها، ومن قراضبة نجد في أكلاّتها ومراتعها، ومن سماءة تهامة في أسواقها ومجامعها، وما تراجزت به السقاة على أفواه قُلْبُها، وتساجعت به الرعاة على شفاه علبها، وما تقارضته شعراء قيس وتميم في ساعات المماننة، وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل في أيام المفاتنة، وما طولع في بطون الكتب ومتون الدفاتر من روائع ألفاظ مُفْتَنَّة، وجوامع كَلِمٍ في أحشائها مجتَنَّة"².

- لم يُعْنِ باللفظة المفردة، ولكنّه عُنِيَ بالجملة المركبة التي استوفت شروط البلاغة والفصاحة، وتميزت على غيرها من العبارات³.

- منهج الزمخشري يعتمد السياق، وهو مما اعتنى به علم اللسانيات الحديثة، ووظفه في بيان الدلالة على مساحة واسعة من اللغة في ميدان الدلالات التركيبية، وكأنّ الزمخشري كان يستشعر أنّ الوحدة اللغوية مفردة لا تحمل إلّا بعض أجزاء المعنى. وإنّ دلالتها المكتملة وتبايناتها لاتظهر إلّا داخل السياق اللغوي. وهو عينه ما أشار إليه الجرجاني في نظرية النظم⁴.

- الإكثار من الشواهد التي توزعت بين القرآن، والحديث، والحكم، والأمثال، والشعر الذي احتلّ مرتبة متقدمة حيث بلغت شواهد قرابة خمسة آلاف (5000) شاهد، اعتنى بنسبة الأبيات إلى قائلها إلّا ما ندر⁵.

¹ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 264.

² أساس البلاغة، الزمخشري، 15/1، المقدمة.

³ المعاجم العربية موضوعات وألفاظاً، ص 175.

⁴ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 267.

⁵ المرجع نفسه، ص 268.

نموذج من "أساس البلاغة" للزمخشري. (باب العين/ع) :

• عَبَأَ: عَبَأْتُ الطَّيْبَ إِذَا عَمَلْتَهُ وَهَيَّأْتَهُ، وَعَبَّأْتَهُ. وَعَبَأَ الْخَيْلَ وَعَبَّأَهَا، وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ حَمَالٌ أَعْبَاءٌ، وَالْعَبُّ: الْحَمْلُ الثَّقِيلُ؛ قَالَ تَابُطُ شَرًّا: {من المديد} قَذَفَ الْعَبَّاءَ عَلَيَّ وَوَلَّى أَنَا بِالْعَبِّ لَهُ مُسْتَقَلٌّ وَمَا أَعْبَأُ بِهِ ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ رَيْيَ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾¹.

• عَبَبَ: فِي الْحَدِيثِ: "اشْرَبُوا الْمَاءَ مَصًّا وَلَا تَعْبُوهُ عَبًّا فَإِنَّ الْكُبَادَ مِنَ الْعَبِّ"².

وتركته يتعَبَّبُ النِّبَذُ أَيِ يَتَجَرَّعُهُ بكَثْرَةٍ، وَعَبَّ الْعَرَبُ عَبًّا: صَوَّتَ عِنْدَ الْعَرَفِ. وَعَبَّ الْبَحْرُ عُبابًا. وَتَقُولُ: دِمَّةٌ أَغْدَقَ رِيَابُهَا وَأَغْرَقَ عُبابُهَا، وَيُقَالُ لِلْفَرَسِ الْعَدَّاءِ: يَعْجَبُ، وَأَصْلُهُ: الْجَدُولُ الْيَعْجَبُ وَهُوَ الشَّدِيدُ الْجَرِيَّةُ، يَفْعُولُ مِنَ الْعَبَابِ؛ قَالَ: [من الرجز]

لَا تَسْقِهِ مَاءً وَلَا حَلِييَا إِنْ لَمْ تَجِدْهُ سَابِحًا يَعْجَبُوا
وَمِنَ الْمُسْتَعَارِ: قَوْلُهُمْ لِمَنْ مَرَّ فِي كَلَامِهِ فَأَكْثَرَ: قَدْ عَبَّ عُبابُهُ.

• عَبَثَ: يُقَالُ: تَعَالَى بِالسُّفْرَةِ نَعَبَثَ بِهَا، وَعَبَثَتْ بِهِمُ أَيْدِي النَّوَى"³.

إِنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ فِي أُسَاسِهِ يَسِيرُ وَرَاءَ أَهْدَافِهِ الْمُرْسُومَةِ مُسَبِّقًا. فِي عَصْرِ رَاجَتْ فِيهِ سَوْقُ الْبَلَاغَةِ، فَهُوَ يَعالِجُ مَادَتَهُ مُسْتَهْلًا بِالْمَعَانِي الْحَقِيقِيَّةِ مُسْتَشْهِدًا لَهَا مَا أَمَكْنَ ثُمَّ يورِدُ الْمَجَازَ إِنْ وَجَدَ، وَعِنْدَمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ يَقْدَمُ بِعِبَارَةٍ وَمِنَ الْمَجَازِ...

أَوْ وَمِنَ الْمُسْتَعَارِ... وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْعِبَارَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَجَاوُزِ الْحَقِيقَةِ.

وَمَا كَتَبَتْ رِيَادَةُ الْمَدْرَسَةِ لِلزَّمَخْشَرِيَّ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْبَاحِثِينَ وَالدَّارِسِينَ إِلَّا لِتَفْرِدِهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ، فَالرَّجُلُ ذُو ثِقَافَةٍ وَاسِعَةٍ، فَارْسِيَّةٌ وَعَرَبِيَّةٌ، أَفَادَ مِنْ عُلَمَاءِ عَصْرِهِ وَمِنْ سَبْقِهِمْ، كَمَا أَفَادَ مِنَ التَّحَوُّلاتِ الْكَبِيرَةِ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْمِجْرِي، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ كِتَابَهُ أُسَاسُ الْبَلَاغَةِ أَوَّلَ مَعْجَمٍ مِنَ الْمَعْجَمِ الْعَامَةِ يَتَّبِعُ التَّرْتِيبَ الْأَلْفَبَائِيَّ عَلَى أَوَائِلِ الْأَصُولِ، أَوْ الْمَأَلُوفِ الْعَادِي فِي عَمَلِ مَعْجَمِيٍّ عِلْمِيٍّ مُمْتَنِعٍ.

د- المصباح المنير للفيومي⁴:

معجم "المصباح المنير" هذه التسمية اشتهر بها اختصاراً، أمّا عنوانه فيما هو مطبوع ف"المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي"، والشرح الكبير هذا هو كتاب في فقه الشافعية اسمه "فتح العزيز في شرح

¹ سورة الفرقان، الآية 77.

² النهاية في غريب الحديث، 3/168.

³ أساس البلاغة، الزمخشري، 1/630.

⁴ واسمه: أحمد بن محمد الفيومي ثم الحموي، قال في الدُّرَرِ، اشتغل ومهر وتميز في العربية عند أبي حيان ثم قطن حماة، وخطب بجامع الدهشة، وكان فاضلاً عارفاً بالفقه واللغة، صَنَّفَ الْمَصْبَاحَ الْمُنِيرَ فِي غَرِيبِ الشَّرْحِ الْكَبِيرِ، تَوَفَّى سَنَةَ نِيفَ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةً. انظر: بغية الوعاة، السيوطي، 1/389.

الوجيز لعبد الكريم بن محمد الرافعي المتوفى عام (623هـ). والوجيز الذي شرحه الرافعي، كتاب في فروع الشافعية للإمام أبي حامد الغزالي المتوفى في عام (505هـ). وهو أحد أكبر كتبه الثلاثة: الوجيز، والوسيط، والبسيط¹.

أما عن سبب التسمية والتأليف فقد قال الفيومي في مقدمة المصباح: «فإني كنت جمعت كتابا في غريب شرح الوجيز للإمام الرافعي، وأوسعت فيه من تصاريف الكلمة، وأضفت إليه زيادات من لغة غيره ومن الألفاظ المشتبهات والمتماثلات ومن إعراب الشواهد وبيان معانيها، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجة الأديب الماهر»².

ألف الفيومي "المصباح المنير" متبعا لخطوات المنهجية الآتية:

- رتب ألفاظ معجمه حسب أوائل الألفاظ، ويلاحظ أنه عدّ حروف الهجاء تسعة وعشرون (29) حرفاً؛ لأنه عقد باباً خاصاً للحرف "لا" بين الواو والياء³.
- جرد الكلمات من الزوائد متبعا منهج الجذرية، مصنفة وفق نظام الألفباء العادية الأصولية، مراعي الحرف الأول والثاني وما يثلثهما⁴.
- ووضع الكلمة الزائدة على ثلاثة أصول بعد المادة الثلاثية المشتركة معها في الحرف الثالث إن وجدت فكلمة (برقع) وضعها بعد كلمة (برق)، وكلمة (عسلوج) وضعها بعد مادة (عسل).
فإذا لم تشترك الكلمة الزائدة على الأصول الثلاثية مع المادة الثلاثية الأصول في الحرف الثالث لهما، التزم في ترتيبها الحرف الأول فالثاني ووضعها في صدر الفصل، مثل المواد: (أذريجان) وضعها في صدر فصل "الألف مع الذال" قبل كلمة (إذ)، و (اصطبل) وضعها في صدر فصل "الألف مع الصاد"، وكلمة (بوشنج) وضعها في صدر فصل "الباء مع الواو"، وكلمة (بؤس) وضعها في فصل "الباء مع الواو"، وكذلك الكلمة المهموزة العين المفتوح ما قبلها⁵.
- عنايته بضبط الكلمة بلفظ مشهور، وكثيرا ما يكون الضبط بالنص على نوعه فيقول لفظ كذا بضمين أو بفتحتين أو بفتح وكسر⁶...

¹ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 275.

² المصباح المنير، الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، مكتبة لبنان، بيروت. لبنان، (دط)، 1987م، ص 7. المقدمة.

³ المعاجم العربية مدارسها ومناهجها، عبد الحميد محمد أبو سكين، ص 118، وزيادة (لا) في بعض المغاربة خاصة أصحاب الكتابات التعليمية يدرسون ويعلمون الصبية حروف الهجاء على هذه الطريقة، لكن باتباع ترتيب المغاربة لا المشاركة كما فعل الفيومي.

⁴ انظر: المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 278.

⁵ المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص 121.

⁶ المعاجم العربية مدارسها ومناهجها، عبد الحميد محمد أبو سكين، ص 118-119.

- عنايته بالمصطلحات الفقهية والمعاني الشرعية إلى جانب اللغوية، وليس هذا غريبا عن الرجل؛ لأنّ مصباحه ألفه اختصارا لمطول ألفه في غريب الشرح الكبير للرافعي، والذي يعدّ شرحًا لكتاب "الوجيز" في الفقه الشافعي¹.

- كثرة الاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة².

- عنايته بالمتواليات الاشتقاقية لمدخلات الأصول³.

كتاب المصباح المنير لم يك في سعة مؤلفات عصره مثل "لسان العرب" لابن منظور وغيره، ولكن هذا المعجم على اختصاره إلّا أنّ له قيمته بين المعاجم الأخرى، وذلك بفضل الله ثم ثقافة الفيومي الواسعة حيث كان منطلق الرجل فقهياً إلا أنه استطاع أن يمزج بين الفقه واللغة وأخرج المصباح المنير لا يستغني عنه طالب فقه خاصة من كان شافعيًا، ولا يريد لغة يبحث عن معنى لفظ استغلق عليه.

ولعله بداية عصر الاختصار والإيجاز فإنّ الهمم قد حطّت رحالها آنذاك، وما يعزز هذا الكلام أنّ الفيروزآبادي وهو متأخر عن الفيومي ورغم الخلاف معه في الترتيب. قد ألّف القاموس واختصره أيضا لغايات علمية والله تعالى أعلم.

إنّ مدرسة الترتيب الألفبائي على أوائل الأصول هذه ربطت بين قديم المعاجم اللفظية العامة وحديثها؛ ذلك أنّ المعجمات اللفظية العربية الحديثة سواء ألفها جانب تنظيمي رسمي كالمجامع اللغوية أو ألفها أفراد المعجميين أغلبها اتخذ من الألفباء الأصولية العادية منهجا له في الترتيب، وهو حقيقة الأيسر في إيجاد الألفاظ قبل المعاني التي يسعى إليها الباحث.

ومن هذه المعاجم نذكر ما يلي⁴:

• المعجمات الصادرة عن المجامع اللغوية:

- **المعجم الكبير**: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى: 1421هـ/ 2000م، وقد طبع منقوصا في ثمانية أجزاء حتى حرف الذال، والناشر له مطابع روزر يوسف-القاهرة⁵، وهو الذي هدف إلى تدوين الثروة اللغوية دون التقيد بعصر الاحتجاج اللغوي، مع إبراز التطور التاريخي للغة عبر العصور.

¹ انظر: المرجع السابق، ص 119.

² المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص 119.

³ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 279.

⁴ المعاجم العربية موضوعات وألفاظا، فوزي يوسف الهابط، ص 183.

⁵ انظر: المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (دد)، ط 1، 1421هـ-2000م، ص 2.

- **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الرابعة: 1425هـ/2004، وقد طبع عدة مرات، والناشر له: مكتبة الشروق الدولية.¹ والذي هدف إلى السهولة، وإحكام الترتيب، مع جمع المصطلحات العلمية الصحيحة، والتنبيه على الدخيل على اللغة والمعرّب والمولد والمجمعي (الذي أقرّه مجمع اللغة العربية) .

- **المعجم الوجيز**: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، جمهورية مصر العربية، دون طبعة، 1989م، وقد نشرته مطابع شركة الإعلانات الشرقية، دار التحرير للطبع والنشر²، والذي هدف إلى تلبية حاجة الطلاب في وجود معجم مدرسي وجيز، مكتوب بروح العصر ولغته.

• المعجمات الصادرة عن أفراد المعجميين المحدثين:

- **محيط المحيط**: (قاموس مطول للغة العربية) لبطرس البستاني (1882م)، لبنان، وقد طبع أكثر من مرة، ومنها سنة 1987م، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت.³

- **المنجد في اللغة**: للويس المعلوف اليسوعي (1946م)، لبنان، وقد طبع عدة مرات، ومنها الطبعة السابعة عشر ولم تؤرخ، وقد نشر عن المطبعة الكاثولوكية، بيروت.⁴

• وهناك من يجعل هذه المعجمات تحت المدرسة المعجمية الحديثة، فهذه التقسيمات اجتهادية والتقدير فيها نسبي، فكل دارس له اعتباراته في التقسيم والتصنيف، والمعاجم الحديثة فيها من اعتمد الترتيب الألفبائي الأصولي العادي، وفيها من اعتمد هذا الترتيب لكن دون تجريد، ترتيب الألفاظ ألفبائياً مثلما نُطِّقَتْ، فتأثير اللسانيات قد بدا واضحاً .

ثانياً: معاجم المعاني

إذا كانت المعجمات الأولى العامة مثل: العين، والصحاح، والجمهرة، تحكّم اللفظ، وتقيم عليه ترتيبها الخاص، فإن معجمات آخر سارت وفق نظام معاكس لهذه المعجمات اللفظية؛ ذلك أنّها حكّمت المعنى، وجمعت الألفاظ فيها والعبارات المناسبة للمعنى المراد الواحد.

يقول محمد علي عبد الكريم الرديني معرّفًا معجمات المعاني هي "معجمات جامعة لمادة اللغة مرتبة بحسب الموضوعات، حيث تحصى المفردات الموضوعية لمختلف المعاني بعد ترتيبها بطريقة خاصة، وتحت كل معنى منها تندرج الألفاظ التي تستعمل للتعبير عن هذا المعنى"⁵.

¹ انظر: المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ-2004م، ص2.

² انظر: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار التحرير للطبع والنشر، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، (دط)، 1989م، ص2-3.

³ انظر: محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان، (دط)، 1987م، ص2.

⁴ انظر: المنجد في اللغة والأدب والعلوم، لويس المعلوف، المطبعة الكاثولوكية، بيروت - لبنان، ط17، (دت)، ص2-3.

⁵ المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص138.

ويعرفها أحمد فرج الربيعي بقوله: "هو المعجم الذي ترتّب ألفاظه على معانيه وموضوعاتها، وذلك بوضع الألفاظ التي تدور في فلك واحد، وحول موضوع واحد في كتب أو أبواب أو فصول واحدة، فمهمة معجم المعاني تقديم اللفظ المناسب للمعنى الذي نريده¹."

وتسمّى هذه المعاجم بمعاجم الموضوعات، ويسمّيها ابن سيده بالمعاجم المبوّبة، وتسمّى كتب الصفات، وسمّاها عبد الحفيظ العريان المعاجم الخاصة على أساس أنّ مؤلّفي هذه المعاجم لم يجمعوا اللغة قصد حصر ألفاظها، بل كان همّهم جمع بعض المفردات لغرض خاص باختلاف المصنّفات.

ومعجمات المعاني لا تفيد من عشر على كلمة وأراد ضبطها أو شرحها، ولكّنها تفيد من يدور في ذهنه معنى من المعاني، أو يفكر في موضوع ما، ويريد أن يجمع الألفاظ المتعلقة بذلك الموضوع، أو ذلك المعنى.

كما أنّ هذا النوع من المعاجم يفيد الشاعر والكاتب والمترجم في إيجاد اللفظ العربي الفصيح للمعنى الذي يريده.

وأكثر الناس انتفاعاً بهذه الكتب أولئك الذين يعنون بالترجمة إلى العربية، والتأليف في العلوم العصرية؛ لأنّهم يجدون أمامهم من المعاني ما يحتاج إلى قوالب من الألفاظ لا تحضرهم، فيرجعون إلى هذه الكتب فيهدّون بها إلى بغيتهم².

إنّ المعاجم التي رتبت بحسب الموضوعات كانت بداياتها تعود إلى مراحل التدوين وجمع اللغة، وما عمله الرواة في ما يسمّى بالرسائل الإفرادية، أو الكتب ذات الموضوع الواحد، وقد بسطنا القول فيها سابقاً، ومنه أنّها آلت في مرحلة متأخرة إلى ما يسمّى بمعاجم المعاني، وكونت لنفسها مدرسة تدعى المدرسة الموضوعية، أو مدرسة الغريب المصنّف...

ومن أشهر معاجم المدرسة الموضوعية نجد:

¹ مناهج معجمات المعاني إلى نهاية القرن السادس الهجري، أحمد فرج الربيعي، تح: عبده الراجحي، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر، (دط)، (دت)، ص24-25.

² المرجع نفسه، ص25.

1- الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام¹ (224هـ) :

يعدّ أبو عبيد بحق رائداً للتأليف في معاجم المعاني، فكتابه الغريب المصنف أول كتاب وصل إلينا منها. والكتاب من أجلّ مؤلفات أبي عبيد، وقد نال شهرة واسعة، وعناية عظيمة منذ ظهوره. ويكفي في ذلك قول شمر بن حمدويه (225هـ) : "ما للعرب كتاب أحسن من مصنف أبي عبيد"².

ذكر ابن النديم لأبي عبيد نيفا وعشرين كتاباً لا يزال أغلبها مخطوطاً. لعلّ أبقاها أثراً وأكثرها ذكرًا كتبه الثلاثة في فنّ الغريب وهي: غريب القرآن، وغريب الحديث، والغريب المصنف. ولا يخفى ما لهذه الكتب من الدور في تطوير فنّ المعجميّة عامة والمعجميّة القائمة على الغريب بصفة خاصة. وقد أجمع الدارسون من قدامى ومحدثين على صحّة عناوين الكتابين الأولين، واختلفوا في عنوان الكتاب الثالث، فقد ذكرت له ثلاثة عناوين وهي: الغريب المصنف، وغريب المصنف، والغريب* المؤلّف³.

والكتب التي تحمل اسم الغريب المصنف أو الغريب أو المصنف كثيرة، وقد يقع الخلط في نسبتها إلى أصحابها عند بعض الدارسين في مجال المعاجم العربية. ونورد بعضها على النحو التالي⁴:

- الغريب المصنف، لأبي عبد الله القاسم بن عبد الرحمن المسعودي (175هـ) .
- الغريب المصنف لأبي عمرو الشيباني (206هـ) .
- الغريب المصنف في اللغة لمحمد بن المستنير قطرب (206هـ) .
- المصنف لأبي عبيدة معمر بن المثنى (210هـ) .
- الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ) .
- كتاب الغريب لأبي مسحل الأعرابي من أهل القرن الثاني الهجري.
- تفسير الغريب لأبي محمد بزرغ بن محمد العروضي الكوفي من القرن الثاني.
- التقريب في كشف الغريب لأبي بكر أحمد بن كامل بن شجرة (350هـ) .

¹ واسمه: أبو عبيد القاسم بن سلام وقيل ابن سلام بن مسكين بن زيد، وكان ذا فضل ودين وستر ومذهب حسن، وروى عن ابن الأعرابي، وأبي زياد الكلابي، والأموي، وأبي عمرو الشيباني، والكسائي، والفراء، ومن البصريين عن الأصمعي، وأبي عبيدة، وأبي زيد، توفي (224هـ) . وانظر: الفهرست، ابن النديم، 79/1.

² انظر: مناهج معجمات المعاني إلى نهاية القرن السادس الهجري، أحمد فرج الربيعي، ص 87.

* والغريب في اللغة يطلق على الخوشي والوخشي من الكلام وما ينفر منه السامع مخالف للفصاحة، وهناك غرابة محمودة وهي التي تطلق على ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف التي يكتنفها الغموض.

³ الغريب المصنف، أبو عبيد القاسم بن سلام، تح: محمد المختار العبيدي، دار سحنون للنشر والتوزيع - المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، ط2، 1416هـ - 1996، 15/1.

⁴ مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 304.

- تقريب الغريب المصنف لابن سيده (458هـ) .

وريادة هذا الاتجاه أو المدرسة في المعاجم العربية نسبت إلى أبي عبيد وكتابه الغريب المصنف، رغم أنّ هناك مَنْ تقدّمه في هذا المجال تاريخيًا، وهو أبو عمرو الشيباني (206هـ)، وكتابه يحمل الاسم نفسه، لكن ما يشفع لأبي عبيد (224هـ) هو أنّه أول معجم معاني ظهر فيه عمل معجمي علمي مُمَنّهج مكتمل، ولا يخفى أن أغلب كتب المتقدمين من أصحاب القرن الثاني والثالث كانت ناقصة غير مكتملة وتنضوي تحت ما يسمى بالرسائل الإفرادية. ذات الموضوع الواحد، بالإضافة إلى أنّ هذا الرجل في نتاجه العلمي قد ظهرت خصائص من شأنها ترفع قيمته العلمية، فهو قد سمع من الأعراب مشافهة أولاً، ونقل لما احتاج إلى النقل في الرواية فروى عن كثير ممن رحلوا إلى البادية وتلقّفوا اللغة من الأعراب الأقحاح، وقد ذكر كثيرًا منهم في معالجته لمواد كتابه الغريب المصنف.

وكتب الغريب هذه تقسّم إلى ثلاثة أقسام بارزة:

أولها: غريب القرآن.

ثانيها: غريب الحديث.

ثالثها: غريب اللغة.

وأهل المعاجم أغلب درساتهم حول هذا القسم الأخير، لكنهم قد يدرسون القسمين الأول والثاني استقلالاً أو تبعاً؛ لأنّ اللغة العربية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

ومعاجم المعاني لم تقتصر تسمياتها ولا حقائقها على الغريب فقط، فقد ذكرت المصادر كتباً كثيرة بمسميات مختلفة، فمثلاً: "الألفاظ" للمفضل الضبيّ (168هـ)، و"الألفاظ" للأصمعي (216هـ)، و"الألفاظ الكتابية" للهمداني (320هـ) "فقه اللغة وسر العربية" للثعالبي وغيرها .

أمّا الرسائل الإفرادية ذات الموضوع الواحد، فبعضهم يجعلها كتب معان، وبعضهم يقصدها ويعدها في المراحل التمهيدية لجمع اللغة والموطئة لنشوء المعاجم المكتملة، وهي بدورها تنقسم إلى أقسام: فمنها ما هو خاص بفنون اللغة مثل "فَعَلْتُ وأَفْعَلْتُ" ومنها ما هو على الحقول الدلالية المختلفة: الإنسان، الخيل، الكرم... إلخ.

أمّا منهج أبي عبيد في كتابه الغريب المصنف نجمله في ما يلي:

- لم يقدم أبو عبيد بمقدمة تبين منهجه أو المصادر التي اعتمد عليها في كتابة مادته.

- قسّم أبو عبيد "الغريب المصنف" إلى خمسة وعشرين كتاباً تمثل الموضوعات الرئيسة والمعاني العامة الشاملة وهي: خلق الإنسان، النساء، اللباس، الأطعمة، والأمراض، الدور والأرضين، الخيل، السلاح، الطيور والحوام، الأواني والقدور، الجبال، الشجر والنبات، المياه والقنى، النخل، السحاب والأمطار، والأزمنة

والرياح، أمثلة الأسماء، أمثلة الأفعال، الأضداد، الأسماء المختلفة للشيء الواحد، الإبل، الغنم، الوحوش، السباع، الأجناس.

وتقسّم هذه الكتب بدورها إلى فروع أصغر منها، أطلق عليها اسم (أبواب) وهي تسعمائة باب تقريبا¹.

- يلاحظ في كتاب خلق الإنسان أنّ تتابع الأبواب فيه لم يكن وفق أساس موضوعي معين، وإنّما جاء كيفما اتفق، وهذا ما نجده في جميع كتب الغريب المصنف، إذّ لا منهج في ترتيب الأبواب، وهو ما صدق على جميع معجمات المعاني التي سارت على نظامه².
 - التزم أبو عبيد في معجمه بنسبة الآراء والأقوال إلى أصحابها اللغويين والأعراب³.
 - استشهد بالشعر وأكثر منه، فاشتمل على ألف ومائتي بيت⁴.
 - دارت مباحث الغريب المصنف الدلالية حول محاور ثلاثة كبرى هي: الإنسان وما يتعلّق به، وما يصاب به حيث صدرّ به الكتاب، وثقّى بالحيوان وما يتعلّق به، وختم بالنبات والجماد والأشياء⁵.
- فأبو عبيد بهذا الصنيع حاول إيجاد فكرة منطقية عقلية ترتب بها المعاني والحقول الدلالية المتمثلة في الكتب والأبواب، رغم صعوبة الأمر فترتيب المعاني ليس بالأمر الميسور مقارنة بالألفاظ، فخطته قائمة على البدء بالمعقولات «الإنسان» ثم الحيوان ثم النبات والجماد، وإن كان قد اضطرب في ترتيب ذلك إلا أنّه يحمّد على الفكرة كما لا ننسى أن هذا العمل المعجمي يمثل باكورة معاجم المعاني فهو يضاهي كتاب العين للخليل بن أحمد في معاجم الألفاظ المذكورة سلفا.

نموذج من الغريب المصنّف لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ) :

بابُ نَعَوَتِ الطَّوَالِ مِنَ النَّاسِ

«الأصمعي: يقال للطويل: الشَّوْقَبُ والصلَّهْبُ والشَّوْدَبُ والشرَّحْبُ والسلَّهْبُ والجسْرَبُ والسلْبُ والعشْنَطُ والعشْطُ والعشْنَقُ/ظ8/و العنْطَنُطُ والنُّعْنُوعُ والشرْمُخُ والشَّعْشَعُ والشَّعْشَعَانُ والصَّقْعُ والشَّيْظُ والأثْلَعُ، {قال أبو عبيد: وأكثرُما يُرادُ بالأنثَلَعِ طولُ عنقه}. وقال أبو عمرو: والشُّمُخُوطُ الشَّنَاحِي يُقال: هو شَنَاحٌ كما ترى. والأشَقُّ والأَمَقُّ والخِيقُ والبَيْعُ والمَمَاحِلُ والمَخْنُ واليَمْخُورُ والهَجْرُ والحَرْجُلُ والأسْقَفُ والقاق والطَّاطُ والطُّوط. عن الفراء: والجُعْشُوشُ. عن الأصمعي: {وقال} أبو عمرو والسَّهْوُ والشرْطُ والمِسْعَرُ

¹ مناهج معجمات المعاني، أحمد فرج الربيعي، ص 89.

² المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص 140 - 145.

³ المرجع نفسه، ص 145.

⁴ المعاجم العربية موضوعات وألفاظ، فوزي يوسف الهابط، ص 66.

⁵ انظر: مناهج معجمات المعاني، أحمد فرج الربيعي، ص 95.

والعَبَابُ مثله {والأَعْيُطُ الطويلَ عن أبي عمرو: والشَّيْحَانُ الطَّوِيلُ} الأموي: والسَّرْعَرُغُ مثله {والقَسِيْبُ}. الكسائي: والمَجْمَهُكُ والمَجْمَعُطُ مثله. الفراء: الشَّلْعُ مثله. غيره: الشَّرْعَبُ الطويل. والخَلْجَمُ والسُرْخُوبُ والشَّرَوَاطُ {والسَّلْجَمُ} والسوْحَقُ {والأَسْقَفُ} {والسَّهْوَقُ} والشغاميِم الطَّوَالِ الحسان والواحد شُعْمُوم {والعَمَرْدُ الطويلُ} والنِّيَافُ الطويل.¹»

2- "فقه اللغة وسرّ العربية" للثعالبي (429هـ):

وكتاب الثعالبي هذا أشهر من نار على علم في المعاجم العربية، فلا يستغني عنه الباحث، ولا الكاتب، ولا الأديب، فالرجل أبدع في تصنيفه، وهو من معجمات القرن الخامس الهجري. والثعالبي قَسَم كتابه إلى قسمين: الأول سماه فقه اللغة وعالج فيه المباحث الدلالية، وهو أكبر القسمين فقد بلغت صفحاته أربع عشرة وثلاثمائة، والثاني سَمَّاه سرّ العربية، وعالج فيه المباحث النحوية والصرفية واللغوية والبلاغية، وبلغت صفحاته ستاً وتسعين. يقول الثعالبي في مقدمته: "وقد اخترت لترجمته وما أجعله عنوان معرفته، ما اختاره أدام الله توفيقه من «فقه اللغة» وشفّعته «سرّ العربية» ليكون اسماً يوافق مسمّاه، ولفظاً يطابق معناه".² أمّا منهجه فيظهر فيما يلي:

القسم الأول: «فقه اللغة» وهو عبارة عن المعجم الموضوعي.

وقد قَسَمه الثعالبي إلى ثلاثين باباً ضمت المعاني العامة والشاملة، وقَسَم هذه الأبواب بدورها إلى خمسة وسبعين وخمسمائة فصل ضمت ما تفرّج من هذه المعاني حيث قال في مقدمته: "فبلغت بها الثلاثين على مهل ورويّة، وضمنتها من الفصول ما يناهز الستمائة".³ ومن أمثلة أبواب هذا القسم ما يلي:

باب في ذكر أحوال وأفعال الإنسان وغيره من الحيوان، ومن فصوله ما كان في ترتيب النوم، وترتيب الجوع، وترتيب العطش، وترتيب السرور، وترتيب أحوال الغضب. باب في الكليات: وهو الباب الأول في الكتاب وطابعه عام، ومن فصوله ما كان في ضروب الحيوان، والنبات والشجر، وفي الأمكنة والشياب...

واستهله ب: «كلّ ما علاك فأظلك فهو سماء، كلّ أرض مستوية فهي صعيد⁴...»

¹ الغريب المصنف، أبو عبيد القاسم بن سلام، تح: محمد المختار العبيدي، ص 58-59.

² مناهج معجمات المعاني، أحمد فرج الربيعي، ص 222.

³ المرجع نفسه، الصفحة السابقة.

⁴ المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، ص 147-148.

القسم الثاني: «سرّ العربية»

وجاء في بيان مجاري كلام العرب وسننها، والاستشهاد بالقرآن على أكثرها.

وقد قسمه إلى تسع وتسعين فصلاً، وتختلف هذه الفصول طولاً وقصراً حسب غزارة أو قدرة المادة اللفظية المتعلقة بتلك المعاني الواردة تحت الفصول، والثعالبي في هذا القسم من الكتاب اعتنى بالتراكيب والأساليب العربية مشقّعا كلامه وأحكامه بالاستشهاد، فقد تطرّق فيه لمباحث بلاغية مثل: التقديم والتأخير، والمجاز بأنواعه، ثم إنّه تحدث عن مباحث الصرف والنحو وغيرها من فنون اللغة.

وهذا مثال على ما تقدّم ذكره، فقد قال:

الفصل الخامس (5): فصل في الاختصاص بعد العموم

العربُ تفعل ذلك فتذكر الشيء على العموم ثم تخص منه الأفضل فالأفضل، فتقول: جاء القوم والرئيس والقاضي. وفي القرآن: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَلِيلًا﴾¹. وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَكْهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾²، وإنّما أفرد الله الصلاة الوسطى من الصلاة وهي داخلة في جملتها، وأفرد التمر والرمان من جملة الفاكهة وهما منها للاختصاص والتفضيل، كما أفرد جبريل وميكائيل من الملائكة فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾³.

الفصل السادس (6): فصل في ضدّ ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾⁴.

فخصّ السبع ثم أتى بالقرآن العام بعده ذكره إيّاه⁵.

ونُجمل خصائص "فقه اللغة وسرّ العربية" فيما يلي:

- شق الكتاب الأول (فقه اللغة) يدخل تحت متن اللغة، والثاني تحت البلاغة والنحو.
- استشهد لتحليلاته وأحكامه في الكتاب، وجعل القرآن الكريم في المقام الأول من الاستشهاد.
- ذكره لمن أفاد منهم من أئمة اللغة المتقدمين، وقد اعتمد النقل عن كتب من تقدّمه.
- الطابع المميز لمادة الكتاب اللغوية يقوم على توخي الدقة في المدلول والتخصيص في المعنى مما يكشف بوضوح عن غنى اللغة العربية بالألفاظ واتساعها وشمولها لأدق الفروق في المسميات، هذا ما دعا

¹ سورة البقرة، الآية 238.

² سورة الرحمن، الآية 68.

³ سورة البقرة، الآية 98.

⁴ سورة الحجر، الآية 87.

⁵ فقه اللغة وسرّ العربية، الثعالبي الإمام منصور بن عبد الملك، دار ابن الجوزي، القاهرة: جمهورية مصر العربية، ط1، 1436هـ - 2015م، ص240-241.

الثعالبي إلى أن يردف عنوان كتابه (فقه اللغة) بعنوان ملحق ذي مغزى في خصائص هذه اللغة وهو (سرّ العربية)¹.

- رواجه بين طبقات المثقفين المختلفة، ولعلّ ما يؤيد الذي نرمي إليه هو طبعاته الكثيرة والمختلفة، والتحقيق فيه أيضاً متكرر مستمرّ لم يتوقف في عصر مضى، وقد طبع سنة 1954م ثم 1959م ثم 1985... و2015م وغيرها.

إنّ المعاجم الموضوعيّة أو معاجم المعاني التي ألفها المتقدّمون لكثيرة جدّاً سيما وإن ضمت إليها الرسائل الإفرادية أو كتب الصفات، فهي أكثر من أن يعدّها عادّ أو أن يقف وراءها واقف، ونحن هنا يضيق بنا المقام للتعرض لأكثرها، فاجتزأنا باثنين منها، الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ)، صاحب ريادة المدرسة، وقفة اللغة وسر العربية للثعالبي (429هـ) من أعيان القرن الخامس الهجري.

وجدير بالذكر أنه لما كان بحثنا هذا خاصاً بكتاب من كتب معاجم الألفاظ - البارع في اللغة - رأينا أنه ليس من الضروري الإطالة في الشق الثاني من لمعاجم العربية، أعني معاجم المعاني لذا اقتصرنا على معجمين: أما الأول منها فلصاحب ريادة هذه المدرسة وهو كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ)، وهو من أعيان القرن الثاني والثالث الهجريين، وأما الثاني فهو فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي (429هـ)، وهو من أعيان القرن الرابع والخامس الهجريين، وكلا المعجمين يمثل مدونة هامة في التراث اللغوي العربي.

¹ مصادر التراث العربية في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، عمر الدقاق، بيروت . لبنان، ط3، 1972، ص 160.

المبحث الثالث: التأليف المعجمي في المغرب والأندلس

أولاً: الواقع اللغوي الأندلسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري:

لما فتحت الأندلس لم يكن غريباً أن تتزعم لغة الفاتح نتيجة الغلبة والأمر الواقع، ورغم وجود الأجناس الكثيرة المختلفة التي تتكلم السنة عدّة إلا أنّ اللغة العربية وقتذاك هي الأكثر شيوعاً، وهي اللغة الرسمية للإمارة والخلافة الأموية وملوك الطوائف في البلاد الجديدة الأندلس، ولقد كتبت بها كثير من الأعمال الدينية الإسلامية والفكرية والمسيحية واليهودية في ايبيريا، وبقيت اللغة العربية لغة السياسة والعلم والأدب لقرون طويلة، وبالضرورة أن تؤثر اللغة العربية في اللغات الأخرى التي تشاركها أهلها الوطن مثل الأمازيغية والإسبانية وغيرها.

1- أجناس المجتمع الأندلسي بعد الفتح العربي الإسلامي

لقد حفلت ايبيريا (الأندلس) بأجناس بشرية مختلفة اختلافاً شديداً، فالفاتحون لها أقلية عربية وأغلبية أمازيغية هم الذين هبّوا مع المسلمين من الشمال الإفريقي، وسكان الأندلس الأصليون وهم الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام فيما بعد، وكذلك أصناف أخرى الصقالبة، واليهود وغيرهم.

وفيما يلي نعرض التركيب الاجتماعي لأهل الأندلس بعد الفتح الإسلامي:

أ- العرب: انقسموا إلى عدنانيين وقيسييين وقحطانيين يمينيين، وكانوا يمثلون النخبة الارستقراطية بالمدن ويبدعهم سدة الحكم، فتقلّدوا مراتب الوزارة والكتابة والقضاء والشرطة والحسبة وبيت المال وضرب السكة. أمّا عامتهم فكانوا في حرف أخرى مثل الزراعة، ونسيج الحرير، والغزل والنسيج والتجارة فيها، وبيع العطر والفاكهة والخضر وغيرها.¹

ب- الأمازيغ: كانوا يمثلون غالبية سكان الأندلس، وتقلّدوا المناصب العسكرية والقضائية وتفرّغوا إلى العلم، وكانوا يشكلون معظم جيش الأندلس، وقد نشط عامة الأمازيغ في الحواضر في عديد من الحرف اليدوية والبناء والتجارة.²

فالأمازيغ في المراحل الأولى من فتح الأندلس لم يكونوا يجيدون النطق باللغة العربية رغم تقاربهم الشديد من العرب الفاتحين، ولقد اعتنقوا الإسلام ديناً، ورابطة الدين لها أثر كبير في تعلّم اللغة العربية والإقبال عليها، ومن ثمة دخولهم ديوان الإنشاء والكتابة هذا من ناحية رسمية في الدولة، ومن ناحية أخرى التأليف بها في شتى الفنون.

¹ تاريخ دولة الأندلس، إيناس حسني البهيجي، مركز الكتاب الأكاديمي، ط1، 2017، ص51.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ج- القوط: كثير من المؤرخين يتفقون على أنّ أصل القوط قبائل جرمانية شرقية وافدة من اسكندنافيا إلى قارة أوروبا وتحديدًا إلى وسطها وشرقها وجنوبها.

وقال قاضي ابن خلدون الحضرمي في تاريخه الكبير: "كان هذا القطر الأندلسي من الغدوة الشمالية من عدوتي البحر الرومي وبالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الأندلوش، وتسكنه أمم من إفرنجة المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالة، وكان القوط قد تملّكوه وغلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الإسلام، بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها روما ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط إلى الأندلس، فصاروا إليها وملكوها، ولما أخذ الروم اللطينيون بملة النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب من أمم الفرنجة والقوط عليها فدانوا بها، وكان ملوك القوط ينزلون طليطلة، وكانت دار ملكهم، وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة واشبيلية وماردة، وأقاموا كذلك نحو من أربعمئة سنة إلى أن جاء الإسلام والفتح، وكان ملكهم لذلك العهد يُسمّى لُذريق، وهو سمة لملوكهم، كما هو جرجير سمة لملوك صقلية"¹.

د- الموالي أو الصقالبة: هم الخدم والمماليك الذين جلبهم النخاسون الجرمان واليهود من أسرى حروب الجرمان مع الصقالبة، وباعوهم في الأندلس، وكثر عدد الصقالبة الموالي أيام الخلافة، حيث كانوا يستخدمون كخدم وجنود، وصار لهم تأثير كبير، خصوصاً وأنهم كانوا في خدمة أصحاب القرار، وقادة الجيوش، وكان لهم قول مسموع في نساء القصر ولدى أهل السلطة واستخدموا أحياناً في قمع الثورات، كما اشتغلوا في المصانع اليدوية والتجارة.²

هـ- المستعربون: هم المسيحيون الذين بقوا بعد فتح الأندلس في المدن المفتوحة، وخلال الحكم الأموي كلّ، اعتمد عليهم الأمويون في إدارة شؤون البلاد الاقتصادية وتنظيم الدولة، أما عوامهم فقد امتنوا الزراعة وتربية الماشية والصيد. وقد تأثروا بالعرب حتى إنهم تكلموا لغة منطوقة مزجت بين اللغة العربية واللاتينية القديمة، والتي ظلت تستخدم كلغة منطوقة حتى القرن الرابع عشر.³

و- المولّدون: هم سكان الأندلس الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام وأبناء العرب والأمازيغ من أمهات إسبانيات، ومع مرور الوقت استطاع هؤلاء المولدون أن يشغلوا مناصب كبرى كانت وقفا على الاستقراطية العربية، كما عملوا بالتجارة.⁴

¹ نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد محمد المقرئ التلمساني، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان، (دط)، (دت)، 147/1.

² تاريخ دولة الأندلس، إيناس حسني البهيجي، ص 51.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ نفسه، ص 52.

ز- اليهود: كان يهود الجزيرة كتلة كبيرة عاملة، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل، يعانون أشنع أنواع الجور والاضطهاد. وكانت الكنيسة منذ اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود، وتسعى لتحقيق غاياتها بالعنف والمطاردة.

ففي عصر الملك سربوت فرض التنصر على اليهود أو النفي أو المصادرة. فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء سنة 616م ثم توالى عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والخن، فركنوا إلى التآمر وتدمير الثورة، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون، ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها سنة 694م. وكان ذلك في عهد الملك إجيكا، فقرّر أن يشتدّ في معاقبتهم، واجتمع مؤتمر الأحرار في طليطلة للنظر في ذلك، وأجاب الملك إلى ما طلبه، وقدرّ معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج عن الدولة يأتمرون بسلامتها؛ ولأنهم ارتدوا عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل، وهكذا تم اضطهادهم بعد بغض كبير. فقد كانوا قبل الفتح الإسلامي ضحية ظلم لا يطاق، والفاتحون هم الذين حرروهم من هذا الرق مقابل ثمن زهيد جزية.¹

ح- النورمان: إن هذه الأجناس البشرية المختلفة قد تعايشت مع بعضها البعض في ظلّ الحكم الإسلامي خاصة في العصر الأول من الفتح، لكن ذلك يتمّ بالالتزام بالواجب مع التمتع بالحقوق، فمبادئ الإسلام وتعاليمه تأبى البغض والحقد لغير المسلمين، بل شيدت حضارة في الغرب الإسلامي شاركت فيها كثير من الأجناس المتباعدة عرقياً، وقد اتّحت الفوارق في سبيل بناء قوة اقتصادية، فالحضارة مظاهرها كثيرة ابتداء من العلوم والمعارف وصولاً إلى الخدمات والزراعة والصناعة وتربية الحيوانات.

فالمسلمون لما حكموا الجزيرة (الأندلس) لم يفعلوا مثل ما فعل النصارى الأول بأن يجبروا الناس أو أي جنس من الأجناس المتعايشة معهم لسنين على اعتناق دينهم، بل تركوا لهم الحرية في المعتقد مع دفع الجزية مقابل الحماية، هذا الأمر من شأنه أن ييسر دخول غير المسلمين في الإسلام، والاطمئنان لحكم المسلمين حيث لم يروا خديعة ولا غدراً ولا مكرًا.

ط- النورمان (الفايكنج): وهذا عنصر آخر فرض نفسه على الأندلس منذ عهد عبد الرحمان الأوسط بغاراته البحرية على شواطئها في فترات عديدة من العصر الأموي، ويسمى هذا العنصر الاجتماعي في المصادر العربية باسم (النورمانيين) والأردمانيين، والمجوس، وهو تحريف للكلمة الانجليزية Norsemen أو الإسبانية Normandes وتطلق على أهل الشمال من الدول الإسكندنافية أو سكان اسكندناوه.²

¹ انظر: دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول، محمد عبد الله غنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مصر، ط 4، 1417هـ-1997م، 31/1-32.

² المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين يوسف دويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، ط 1، 1414هـ-1994م، ص 61.

2- مظاهر العناية باللغة العربية عند الأندلسيين

فالمغرب الإسلامي والأندلس على نسق المشرق ظهرت فيه الحركة العلمية الثقافية، وأولى العلوم بالاهتمام هناك كانت العلوم الدينية مثل: القرآن والقراءات والتفسير والحديث والفقه، لكن هذه العلوم تتوقف على اللغة وسيلة لها في تعلّمها وتعليمها، لذا كان من الضروري العناية بها أكثر من غيرها. هذا، وقد وفد كثير من عرب المشرق إلى المغرب والأندلس ومعهم لغتهم، وأشعارهم وأخبارهم وأيامهم وأدبهم الذي يعكس ثقافتهم، هذا الأمر من شأنه أن غير الصورة الثقافية للبلاد الجديدة (الأندلس)، لكنه لم يكن كافيا من الناحية الكمية، وشيء آخر هو أنّ نتاج هؤلاء لم يكن علما منظما، ولقد كان للخلافة الأموية وقتذاك اليد الطولى في النهوض بالحركة العلمية عموما واللغوية منها على وجه الخصوص، فدعوا كثيرا من العلماء للتدريس والتأليف، فلبّ كثير من العلماء الدعوة، واستجابوا لهذا الأمر العظيم، ومن العلماء من قدم بنفسه بغية نشر العلم.

ومن وفد إلى الأندلس أبو علي القالي (356هـ) إسماعيل بن القاسم بن عبدون الذي كان أبوه مولى لعبد الملك بن مروان، واستدعاه الخليفة عبد الرحمن الناصر فقدم إلى الأندلس سنة (330هـ)، فسمع الناس منه وقرأوا عليه كتب اللغة والأخبار والأماشي، وعظمت استفادتهم منه.¹

ومن الأسباب الحقيقية التي دفعت عجلة الحركة العلمية اللغوية بالأندلس تتلمذ الحكم بن عبد الناصر على يد أبي علي القالي؛ فالقالي طلابه كثر، لكن الحكم من أشهرهم، فهو من أدبه وعلمه، وزرع فيه حب العلم والمعرفة والتعلّق بذلك، فجمع الكتب حرصا على طلب العلم وأسس بذلك أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس.²

قال ابن حزم: "كتاب نواذر أبي علي وهو (ذيل الأماشي) مبار لكتاب (الكامل) الذي جمعه المبرّد. ولئن كان كتاب المبرّد أكثر نحوا وخبرا، فإنّ كتاب أبي علي أكثر لغة وشعرا".³

لقد كان لجهود أبي علي اللغوية في الأندلس ثمرة تمثلت في تأليفه لكتب لا يستهان بها خاصة وهو في زمن تأليف مبكر جدّا بالنسبة للبلاد الجديدة (الأندلس)، حيث ألف كتاب (البارع) أثبت فيه براعته اللغوية وهو معجم لفظي شامل، ثم برع الرجل في تصنيف كتب أخرى منها (الأماشي) المذكور سابقا، وكتاب الممدود والمقصود، وكتاب (فعلت وأفعلت)، وغيرها.

¹ انظر: المرجع السابق، ص 417-418.

² المرجع نفسه، ص 418.

³ ظهر الإسلام، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، (د ط)، 2013م، 532/1.

فالرجل علميًا لم يعدم خلفا إذ ظهرت طائفة من العلماء الذين تتلمذوا عليه، مثل أبي بكر الزبيدي الذي اختصر كتاب العين، وألف كتاب طبقات النحويين واللغويين، وكتاب لحن العوام، وغيرها، وكان مؤدبا للأمير هشام بن الحكم المستنصر¹.

ومن الأندلسيين المولّدين الذين اشتهروا بالدراسات اللغوية ابن القوطية (367هـ)، وقد أتقن الرجل فنونا شتى إلى جانب اللغة العربية مثل الفقه، التاريخ... أمّا عن العربية فيقول الحميدي عنه: (كان إماما في العربية، وله كتاب الأفعال لم يؤلف مثله)، وقد وضع الرجل كتاب (المقصور والممدود)، إلى جانب كتاب (تصارييف الأفعال) وغيرها، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه، وتؤخذ عنه².

ومن اللغويين الذين برعوا في هذا المجال أيضا صاعد البغدادي - وهو صاعد بن الحسن الربيعي اللغوي أبو العلاء - ورد من المشرق إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم المؤيد، وولاية المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، في حدود الثمانين وثلاث مائة (380هـ)، فأكرمه المنصور ولهم في ذلك سابقة مع أبي علي القالي، وكان صاعد عالما باللغة والآداب والأخبار سريع الجواب، حسن الشعر، طيب المعاشرة، فكه المجالسة ممتعا، بارع الارتجال محبا للتجوز والمزاح حتى اتهم بالكذب. فالرجل كانت له أفضال علمية على الناس وخاصة من أخذ عنه، وله إجابات على أسئلة المنصور في المجال اللغوي، كما أنّ لمناظراته ومحاوراته اللغوية الأثر الكبير في تنشيط الحركة اللغوية والأدبية. وقد ألف كتاب (الفصوص) على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي، وكتاب آخر على مثال كتاب الخرجي أبي السري سهل بن أبي غالب سماه كتاب المهجفجف بن غدقان بن يشري مع الخنوت بنت مخزومة بن أنيف، وكتابا آخر سماه (الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء). ولقد شغف به المنصور حتى رتب له من يخرج به أمامه كل ليلة³.

وفي أهم فنّ من فنون اللغة علم النحو مقيم الألسن كان للأندلسيين حظهم منه، ففي الزمن الأول من الفتح العربي الإسلامي إبان الخلافة الأموية، كانت قد ظهرت طائفة من العلماء تحمل على عاتقها مسؤولية تعليم الناس وخاصة الشباب بتدريسهم الفنون التي يحتاجونها إلى إقامة دينهم، فدرسوهم فنون اللغة المختلفة، والأشعار، والدافع الرئيس في ذلك كله إنما هو حفاظهم على القرآن الكريم وسلامة لغته وتلاوته، ثم إنّ كثيرا من طالبي العلم في القراءات قاموا برحلات عكسية من الأندلس إلى المشرق ليطلبوا على هذا العلم والتفطن لأسراره ودقائقه عند العلماء المنظرين لهذا الفنّ، وقد حصل لهم مأمولهم.

¹ انظر: تاريخ علماء الأندلس، ابن القرطي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1429هـ - 2008م، 120/2-121.

² انظر: المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين يوسف دويدار، ص 419.

³ انظر: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، الحميدي، تح: بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1429هـ - 2008م، ص 345-346.

وهؤلاء العلماء الذين يعتنون بالشباب بتدريسهم ما ينفعهم من علوم اللغة والشرع، كان يطلق عليهم لفظ (المؤدّبون)، وتشير المصادر إلى أنّ أبا موسى الهواري من الأوائل الذين عرفوا بذلك، وقد كانت له عناية بالقراءات وهو كما يقول الزبيدي: (أول من جمع الفقه في الدين وعلم العرب بالأندلس، رحل في أول إمارة عبد الرحمان الداخل (138هـ-172هـ) فلقي مالكا ونظراءه من الأئمة ولقي الأصمعي وأبا زيد ونظراءهما، وداخل الأعراب في محالها، وله كتاب في القراءات.¹

ومن أوائل النحاة في الأندلس جودي النحوي (198هـ)، وهو جودي بن عثمان مولى لآل طلحة العنبيسين من أهل مورور، ورحل إلى المشرق، فلقي الكسائي والفراء وغيرهما، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي، وله تأليف في النحو، وسكن قرطبة بعد قدومه من المشرق وفي حلقته أنكر على عباس بن ناصح قوله:

يَشْهَدُ بِالْإِخْلَاصِ نَوْتِيهَا اللَّهُ فِيهَا وَهُوَ نَصْرَانِي

فُلْحَنَ حِينَ لَمْ يَشْدُدْ يَاءَ النَّسَبِ، وكان بالحضرة رجل من أصحاب عباس بن ناصح فسأه ذلك، فقصد إلى عباس - وكان مسكنه الجزيرة - فلما طلع على عباس قال له: ما أقدمك أعزّك الله في هذا الأوان قال: أقدمني لحنك؛ قال عباس: وكيف ذلك؟ فأعلمه بما جرى من القول في البيت، قال: فهلاً أنشدتهم بيت عمران :

يَوْمًا يَمَانٍ إِذَا لَاقَيْتَ ذَا يَمَنِ وَإِنْ لَقَيْتَ مَعَدِيًّا فَعَدْنَانِي

قال: فلما سمع البيت كرّر راجعاً - فقال له عباس: لو نزلت فأقمت عندنا فقال: ما بي إلى ذلك من حاجة - ثم قدم قرطبة، فاجتمع بجودي وأصحابه فأعلمهم. وتوفي جودي سنة ثمان وتسعين ومائة (198هـ).²

ومنهم عبد الملك بن حبيب السلمي (238هـ): كان عبد الملك قد جمع إلى علم الحديث والفقه علم الإعراب واللغة والتصريف في فنون الأدب، وله أوضاع جمّة في أكثر الفنون منها كتابه في إعراب القرآن، وفي شرح الحديث، إلى غير ذلك من دواوين الفقه والحديث والأخبار. وروي عن سحنون بن سعيد أنه قيل له، مات عبد الملك بن حبيب الأندلسي فقال: مات عالم الأندلس بل والله عالم الدنيا. قال محمد بن عمر بن لبانة: (فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك بن حبيب، وعاقلها يحيى بن يحيى).

¹ انظر: المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط7، (دت)، ص288.

² طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، 1984م، ص 256-257.

وكان عبد الملك ممن يقرض الشعر. وكتب عبد الملك إلى محمد بن سعيد الزجالي رسالة وصلها بهذه الأبيات¹:

إذا قرضت الشعر أوزمته حَالَتْ هُمُومِي دُونَهُ فَانْقَلَقْ
الشعرُ لا يَسْلُسُ إِلَّا عَلَى فَرَاغِ قَلْبٍ وَاتِّسَاعِ الْخُلُقِ

وقال ابن الفرضي: كان نحويًا عروضيًا شاعرًا حافظًا للأخبار والأنساب والأشعار، متصرفًا في فنون العلم، حافظًا للفقه، ولم يكن له علم بالحديث، ولا يعرف صحيحه من سقيميه، روى عنه عبد الملك بن الماجشون وأصبغ بن الفرّج، وعنه بقي بن مخلد وابن وضاح، مات سنة ثمان وقيل تسع وثلاثين ومائتين عن أربع وستين سنة.²

ومنهم أبو الحسن مفرّج بن مالك النحوي البعلّ توفي بعد المائتين، وأبو بكر بن خابط الكفوف، وأحمد بن يوسف بن حجاج بن عمير بن حبيب بن عمير توفي سنة (336هـ).

ومن الحلقات الهامة في سلسلة النحاة الأندلسيين نجد أبا علي القالي (356هـ)، وأبا بكر الزبيدي (379هـ)، فهذان النحويان يمثلان مدرستين حقا والأولى صاحبة الريادة؛ ذلك أنّ القالي أتى من المشرق يحمل منهجا علميا ومستصحبا نية نشر العلم والصبر على ذلك ما أمكن، فحقّق المولى عزّ وجلّ الأمان، فأبدع هو البارع والأماي، وفقّ في عمله وغايته النبيلة، فكان له تلاميذ درسوا عليه وتخرجوا وأهلّوا إلى الدعوة والتدريس.

أمّا الزبيدي فهو تلميذ لأبي علي القالي، وهو نحوي بارز، ويعتبر عمله امتدادا طبيعيا لعمل أبي علي القالي، ألّف في التراجم والنحو واللغة منها مختصر العين، أبنية سيبويه، وطبقات النحويين واللغويين وغيرها، فالرجل خلف أستاذه القالي وشيخه الأول في مهمّة نشر العلم والتدريس، فكان له الحظ الأوفر من ذلك.

ثانيا- معاجم الألفاظ:

لم تظهر الحركة المعجمية في بلاد المغرب والأندلس في نطاق واسع كما برزت في المشرق؛ ذلك أن المدارس والأعمال المعجمية الكبرى وما يتعلق بها إنما ظهرت في المشرق إبداعًا وابتداءً ثم انتقلت عبر فترات ومراحل زمنية معتبرة، فحاجة الإنسان لطلب العلم، وللتجارة والعمل، وللحروب في الفتوحات الإسلامية تجعله يلتقي بمن يأخذ عنهم علومهم ومعارفهم وثقافتهم حتى، هذا الأمر قد يحدث قصداً أو اتفاقاً .

¹ النحو والنحاة المدارس والخصائص، خضر موسى محمد محمود، عالم الكتب بيروت- لبنان، ط1، 1423هـ-2003م، ص169-170.

² المرجع نفسه، ص الصفحة نفسها.

أما المعاجم في المغرب والأندلس وفي هذا الزمن خصوصاً حتى نهاية القرن الرابع الهجري فإنها قد وجدت، لكن النتائج لم يكن غزيراً بالإضافة إلى أنه ظل يتبع بعض الاتجاهات والمدارس والنظريات المعجمية دون الأخرى، فمثلاً معاجم الألفاظ في المغرب والأندلس الملاحظ عليها أنها تابعة في كثير من قضاياها للمدرسة الصوتية، ونظرية الخليل بن أحمد المعجمية، وغير التابع لها نزر يسير.

1- البارع لأبي علي القالي (356هـ) :

لا يُعلم عند أهل الفن (الصناعة المعجمية) في بلاد الأندلس، من أَلَف قبل أبي علي القالي في معاجم الألفاظ أو المعاجم المبوبة، ومعجمه فيها صاحب الريادة والشهرة، سماه البارع، وقد برع في ذلك فعلاً قيل إنه أحد الكتب الضخمة في الأندلس والتي رُتبت على حروف المعجم، فأبو علي جمع فيه ما حصله من اللغة من فيّ مشايخه أو من كتب مَنْ سبقه أو من سمعهم مشافهة، قال الشيخ الإمام أبو محمد العربي: "كتاب لأبي علي يحتوي على مائة مجلد لم يصنف مثله في الإحاطة والاستيعاب"¹.

والبارع قد أَلَفه أبو علي على نسق مدرسة النظام الصوتي والتقاليب، وهذه هي المدرسة التي أضاء إشعاعها في هذه البلاد الجديدة في وقت مبكر جداً، وما يميّز هذه (الأندلس) أن أهلها يتكلمون ألسنة مختلفة كثيرة بعيدة كل البعد عن اللغة العربية.

وقد شابه كتاب البارع لأبي علي في الأندلس كتاب العين للخليل في المشرق، من حيث الظهور والإبداع، فالبارع أول معجم لفظي عام ظهر في الأندلس، والقالي أظهر علماً جديداً معه، علم المعجمية، الذي من شأنه أن يفتح باب التأليف في هذا المجال.

وأبو علي القالي صاحب كتاب البارع له قدم راسخة في مجال اللغة، فهو قد أَلَف كتباً عديدة غير البارع فيها ما وصلنا وطبع، وفيها ما لم يصل إلينا²، لكن الرجل اشتهر بكتابين اثنين، وقد طبعا، هما البارع، والأمال.

والبارع يعتبر أحد المعاجم الصوتية التابعة لعين الخليل بن أحمد، والتبعية تكمن في موافقته لمنهج الخليل في معجم العين، إذ رتب أبو علي البارع ترتيباً صوتياً مخرجياً مع اعتبار الأبنية والتقاليب، حتى إن بعض الدارسين شككوا في أنّ البارع إنما هو نسخة من نسخ العين التي وصلت إلى الأندلس، والحقيقة أنّ كتاب البارع تابع لمدرسة الخليل الصوتية، لكنه كتاب مستقل تظهر فيه شخصية القالي العلمية علماً أن هناك دقائق في عرض المادة ومعالجتها تختلف عن معالجة الخليل يدرك ذلك من درس المعجمين، ومن له علم بمصطلحات هذا الفن ودقائق أموره.

¹ النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، دار الجليل، بيروت-لبنان، ط1، 1412هـ-1992م، ص80.

² أَلَف أبو علي القالي كتاب "النوادر"، وكذا "المقصود والممدود والمهموز"، وانظر: المعاجم اللغوية، إميل يعقوب، ص61.

إنّ القالي بتأليفه اللغوي عمومًا والمعجمي خصوصًا والمتمثل في معجم البار، كان بهذا الصنيع قد ساهم في دفع عجلة الحركة اللغوية المعجمية في الأندلس، فهذا العالم الجديد كان لا يعرف عن المعاجم شيئًا قبل تأليف أبي علي، وقد كانوا يعتمدون على المشرق وما أبدع فيه هناك، ومن ثمة نقل هذه التجربة إلى الأندلس.

والشيء اللافت للانتباه حقًا، هو أهلية أهل الأندلس، واستعداداتهم الفطرية للإبداع والتأليف على المنوال خاصة في الإفادة من التجربة المشرقية، ولا أدلّ على ذلك من إبداع تأليف الكتب في شتى فنون اللغة، وفي علم المعجمية عمل القالي في البار، وعمل الزبيدي في (مختصر العين) .

2- مختصر العين للزبيدي¹ (379هـ) :

إنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) لما ألف معجمه العين وقد كان إبداعًا على غير مثال، وإظهارًا لعلم لم يكن معروفًا لذا قد فُتّن بهذا العمل من قِبل من أهل اللغة، وكثيرة هي المعاجم وكتب اللغة التي ظهر فيها علم الخليل خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فهذا الزبيدي واحد من أولئك المهتمين والدارسين لما قدمه الخليل، وقد ألف معجمًا في الأندلس بعنوان "مختصر العين"، فهو لا يدّعي شيئًا لنفسه في ذلك، وإنما صرّح بفضل السابق فعنون هكذا.

وهذا المعجم "مختصر العين" يعدّ المعجم الثاني بعد بارع أبي علي القالي في الأندلس، وقد وضعه الزبيدي في نسختين، الأولى للخليفة وهي كبيرة، والثانية للعامة وهي صغيرة².

فالزبيدي قد طلب منه الحكم المستنصر أن يختصر له كتاب "العين" للخليل فلبّى له طلبه، ووقف عند رغبته لكنّ هذا الأمر لم يكن الدافع الوحيد للقيام بهذا العمل، بل كان ما رآه في العين من الاضطراب والخلل هو الحافز الأول، لاسيما أنّ له في الكتاب ذلك الرأي المشهور، والنفس الاستدراكي من صفته، فقد أحبّ الرجل أن يصلح فيه ما ألفه منتحلاً، ويضعه في مواضعه، ويلخص لفظه، ويحذف حشوه

¹ وهو أبو بكر الزبيدي -بضم الزاي وفتح الموحدة- وبدل مهملته بعد الباء نسبة إلى زُبَيْد، واسمه منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج -محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج - بضم الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملته وبعدها جيم، اسم أكمة حمراء باليمن، ولد عليها مالك بن أدد فسمي باسمها، كان صاحب الترجمة شيخ الأندلس بل وغيرها في العربية. قال ابن خلكان هو نزيل قرطبة، كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر، أي علم السير والأخبار، ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه، وله كتب تدل على وفور علمه، منها "مختصر كتاب العين"، وكتاب "طبقات النحويين واللغويين" بالمشرق والأندلس، من زمن أبي الأسود إلى زمن شيخه أبي عبد الله النحوي الرياحي، وله كتاب "هتاك مستور الملحددين"، وكتاب "لحن العامة"، وكتاب "الواضح في العربية" وهو مفيد جدًّا، وكتاب "الأبنية في النحو" ليس لأحد مثله. وانظر: الشذرات، 418/4.

² انظر: النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص136.

وفضوله وتكراره، وينظم أبوابه ويرتب أبنيته، وأخرج كتاب العين مختصراً موجزاً بأقلام أندلسية في القرن الرابع الهجري¹.

وكان رمضان عبد التواب -محقق كتاب "لحن العوام" للزبيدي نفسه، قد نقل نقولات كثيرة منسوبة لأصحابها وصف فيها كتاب "مختصر العين" وحسن صنيع الزبيدي فيه حيث قال²:

"إنّه اختصر كتاب العين اختصاراً حسناً"، وقال عنه في مطمح الأنفس "وهو معدوم النظير والمثيل"، وقال في إشارة التعيين: "وهو مع صغره محيط بجمل من اللغة". كما قال عنه في النفع: "وكان كتاب العين للخليل، مختل القواعد، فامتعض له هذا الإمام، وصقل صدأه، كما يصقل الحسام، وأبرزه في أجمل منزع، حتى قيل هذا مما أبدع واخترع".

قال الزبيدي في مقدمته الموجزة على "مختصر العين":

"هذا كتاب أمر بجمعه وتأليفه أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله -أطال الله بقاءه- عناية منه بالعلم، وتهماً به ورغبة في نشره والانتفاع بفائدته. وذهب فيه إلى اختصار الكتاب المعروف بكتاب "العين" المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، بأن تؤخذ عيونه ويلخص لفظه، ويحذف حشوّه، وتُسقط فضول الكلام المتكررة فيه، لتقرب بذلك فائدته، وليسهل حفظه، يخفّ على الطالب جمعه. فبدأنا في ذلك -بعون الله وتأنيده- على الشريطة المذكورة، ومذهبنا أن نُصلح ما ألفيناه مختلاً في الكتاب، وأن نوقع كل شيء منه مواقعه، ونضعه في بابه إن شاء الله"³.

هذا، وقد أظهر الزبيدي التأدّب مع العلماء السابقين وعدّ فضلهم حين قال: "ونحن نربأ بالخليل عن نسبة هذا الخلل إليه، أو التعرض للمقاومة له والردّ عليه"⁴.

فهو ذهب إلى أبعد من ذلك في تبرئته كليّة من الأخطاء والأوهام التي وقعت في كتاب العين الأصلي، إذ مذهبه أنه لا ينسب كتاب العين المبسوط والمطبوع الآن للخليل حيث قال: "إنّ الكتاب لا يصحّ له، ولا يثبت عنه، فقد كان جلّة البصريين الذين أخذوا عن أصحابه، وحملوا علمه عن رواته ينكرون هذا الكتاب ويدفعونه، إذ لم يرد إلّا عن رجل واحد غير مشهور في أصحابه وأكبر الظن فيه الخليل سبب أصله ورام تثقيف كلام العرب فيه، ثم هلك عنه قبل كماله فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه، فكان ذلك سبب الخلل الواقع به، والخطأ الموجود فيه والله أعلم"⁵.

¹ انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

² لحن العوام، الزبيدي أبو بكر محمد بن حسن بن مذجح، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1420هـ - 2000م، ص30.

³ مختصر العين، الزبيدي، تح: غلال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي، المكتبة المغربية، (دط)، (دت)، ص7.

⁴ المرجع نفسه، ص8.

⁵ نفسه، الصفحة نفسها.

ولمّا فرغ الزبيدي من اختصار كتاب العين استدعاه الحكم واستقبله أحسن استقبال وناظره في مجلسه وبين يديه، في ذلك الوزير الكاتب أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي.

أمّا منهج الزبيدي في "مختصر العين" فترتيبه ترتيب "العين"؛ ذلك أنه فرع عنه فجرى الفرع مجرى الأصل في الترتيب الخارجي الذي يطبع الكتاب ويلحقه بمدرسة النظام الصوتي والتقاليب. وأمّا ما أحدثه الزبيدي فيتلخص فيما يلي:

- التنظيم والتبويب: وقد شمل ذلك زيادة باب للشئائي المضاعف المعتل، وهو عند الخليل مدمج في باب "اللفيف"، كما شمل فصل أحرف العلة والهمزة وعدم دمجها كما فعل الخليل، وقد بدأ الزبيدي بالهمزة يليها الياء فالواو¹.

- تصحيح ما ورد من خلل أو تصحيف في العين مثل: جاء في العين: رجل عقيم ورجال عقماء. فصوب الزبيدي هذا الجمع بقوله: ورجال عقمى. ومثل إيراد الزبيدي كلمة "الفقاعي" وهو الأحمر يخالطه بياض في مادة "فقع" وكانت في كتاب العين في مادة "فقع" لتصحيحها.

- نسخ الزبيدي بعض أحكام الخليل بالإهمال على كلمات رأى أنها مستعملة، ومن ثمة شقّعها بشروحاتها، كما أنه أضاف كلمات لم يذكرها الخليل أصلاً.

- الاختصار، والإيجاز في العبارة، فالاختصار إنّما هو الهدف الأسمى والعام من تأليف هذا المعجم، فحذف الشواهد الكثيرة خاصة منها الشعرية، فالرجل ظهر عليه من خلال كتابه بعض التحفظ إزاء الشاهد القرآني والحديثي. جاء في مقدمة لحن العوام للمحقق - رمضان عبد التواب - في ما نقله عن ابن خلدون في المقدمة "وجاء أبو بكر الزبيدي، وكتب لهاشم المؤيد بالأندلس، في المائة الرابعة، فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب، وحذف منه المهمل كلّ، وكثيراً من شواهد المستعمل، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص"².

- إنّ الزبيدي كان يهدف من اختصاره كتاب العين إلى غايات تعليمية، وهي جعل هذا الكتاب متناً علمياً يسير الحفظ؛ ذلك أنّ كتاب العين الأصلي مثقل بالشواهد الكثيرة المتنوعة، بالإضافة إلى الكلمات المهمة التي ليست مقصودة لذاتها، فهو عند ما رأى أنّ هذا الأمر قد يكون عائقاً حائلاً بين الطلاب والاستفادة من كتاب العين أبدع "مختصر العين".

¹ البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 198.

² المرجع نفسه، ص 198-199.

الزبيدي في "مختصر العين" مع ما يطبعه من النفس الاستدراكي إلا أنه يرسم فيه القيم الخلقية، والشخصية العلمية التي تحفظ لأهل الفضل فضلهم، لذا استدرك على الخليل بتأدب، وصورة تظهر أخلاق العلماء.

نموذج من مختصر العين: (العين والقاف والميم)

حرب عَقَام، وعَقَمَا، وعَقِيم: أي شديدة. وعَقِمَتِ الرَّجْمُ عَقْمًا، وعَقِمَتِ الْمَرْأَةُ عَقْمًا فهي عَقِيم ومَعْقُومَة ورجل عَقِيم، ورجال عَقَمَى، وريح عَقِيم: لا تَلْقَحُ شَجَرًا. والاعتقَام: أن يحفروا البئر، حتى إذا دنوا من الماء حفروا بئرا صَغِيرَةً. والعَقْمُ المَرْطُ الأحمر. والمعاقم: رؤوس العظام، واحدها مَعَقِمٌ. (مقلوبه):

بئر عميقة ومعيقة. وقد عَمُقَتِ عَمَقًا، ومُعِقَتِ مَعَاقَةً، وأَعَمَّقْتُهَا وَأَمْعَقْتُهَا. والمُعَقُّ، والعُمُقُ: البعد، والعَمَقُ والمُعَقُّ لغة.

وفجَّ عميق، وقلمًا يقولون: فجَّ معيق.

والأماعق: أطراف المفازة، وكذلك الأمعاق.

(مقلوبه):

القَعَمُ: بَشْرَةٌ تَخْرُجُ بِالرَّجُلِ فَيَمُوتُ مِنْ سَاعَتِهِ، وَقَدْ أَقْعَمَ الرَّجُلُ، وَأَقْعَمَتِ الْحَيَّةُ لَدَغَتَهُ فَمَاتَ.

والقَعَمُ: رَدَّةٌ فِي الْأَنْفِ أَيْ مِيلٌ.

وَحُفُّ أَقْعَمٍ: إِذَا تَطَامَنَ وَسَطُهُ وَارْتَفَعَ أَنْفُهُ.

(مقلوبه):

قَمَعَتِ فَلَانًا: أَيْ ذَلَّلَتْهُ فَاثْمَع. والقَمْعَةُ: السَّنام، والقِمْعُ: مَا يُوضَعُ فِي فَمِ السَّقَاءِ يُحْقِنُ بِهِ الشَّرَابَ،

والجمع: الأقماع.

والقَمْعُ: مَا التَّرَقُّ بِأَسْفَلِ الْعِنَبِ وَالتَّمْرِ وَنَحْوِهَا. والقَمْعُ: ذَبَابٌ أَزْرَقٌ عَظِيمٌ، وَاحِدَتُهُ: قَمْعَةٌ. والقَمْعُ:

عَيْبٌ فِي الدُّوَابِّ. والقَمْعُ: عَيْبٌ فِي الْعَيْنِ. والمَقْمَعَةُ: خَشَبَةٌ يُقْمَعُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَلَى رَأْسِهِ، وَهِيَ الْجَزْرَةُ مِنْ

الحديد. وقَمْعَةٌ: اسْمُ رَجُلٍ.

(مقلوبه):

المَقْعُ: شِدَّةُ الشُّرْبِ. وَالْفَصِيلُ يَمْقَعُ أُمَّةً: إِذَا رَضِعَهَا بِشِدَّةٍ. وَامْتَقَعَ لَوْنُهُ: إِذَا تَغَيَّرَ.

وَمَقَعَ فَلَانٌ بِسُوءَةٍ: إِذَا زُمِيَ بِهَا¹.

¹ مختصر العين، الزبيدي، ص52، مادة (عقم).

تحليل مادة (عقم) في (مختصر العين) :

الرأي إلى ما فعله الزبيدي في هذه المادة (عقم) يدرك أنه اختصر ما أمكنه وأبقى على ما تقوم به الحاجة فقط.

مظاهر الاختصار:

- "عقم" هذه المادة مقلوباتها ستة: (عقم، قمع، معق، عمق، مقع، قعم) فالزبيدي ذكر كل صيغة مقلوب على حده، إلا أنه أدمج بين (عمق ومعق) للترادف الغالب بينهما في المعنى¹، وهذا أمر مطلوب محمود لمتن غايته الاختصار، والإيجاز.

- استغنى عن الشواهد بمختلف أنواعها، وإن كان قد ذكر فج عميق اتفاقاً لا قصداً في (عمق)، لكنّه لم يصرح بالآية والنقل. فالخليل في هذه المادة كان قد استأنس بالشواهد المختلفة والمتعددة، فمن الحديث النبوي الشريف تارة وتارة أخرى من الشعر².

- عدم التصريح بأصحاب الأقوال ممن سلف، فالخليل نقل عن الأصمعي (216هـ) قوله - لما عالج مادة (عقم) -: قال الأصمعي: يقال: عقم الله رحمها عقمًا ولا يقال أعقمها. ويقال: عُقت المرأة عُقمًا³.

كما أنه صوّب قول الخليل في المادة نفسها: رجال عقماء⁴ فقال: رجال عقمى⁵.
كما أنّ الخليل أتى بجمع المؤنث السالم نحو: معقومات من معقومة، والزبيدي اجتزأ عن ذلك بذكر المفرد منه معقومة والأصل في القياس: معقومات.

- بعض الصيغ الصرفية للمادة والجذر لم يذكرها الزبيدي، وكان سابقه قد أدرجها من مثل كلمة "عَمَقَى" وتعني النبت، وبغير عامق، وابل عامقه تأكل العَمَقَى⁶.

إنّ الزبيدي في الأندلس تتضح عليه ملامح الشخصية اللغوية الفذة، ومعجمه مختصر العين الذي أبدع فيه الاختصار، تيسيراً لطلب العلم خيراً دليل على ذلك، لكن الرجل لم يتوقف عند هذا، بل أبدع كتاباً آخر لا يزال مخطوطاً⁷ سمّاه المستدرك من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي البغدادي على كتاب العين

¹ المرجع السابق، ص52.

² العين، الخليل، 185/1-189.

³ المرجع نفسه، 185/1.

⁴ نفسه، الصفحة السابقة.

⁵ مختصر العين، الزبيدي، ص52.

⁶ العين، 186/1.

⁷ نسخة مخطوطة في جامع القرويين بفاس 64 (تاريخ التراث العربي 2/8 ص490). وانظر: لحن العوام، الزبيدي، ص30.

للخليل بن أحمد¹. ثم إنّه اختصر هذا العنوان الطويل في "المستدرك في اللغة"². و"زيادة كتاب العين"³، و"غلط صاحب العين"⁴.

كان الحكم المستنصر بالله- أمير المؤمنين - قد أمر بجمعه حتى ظهر في نسخة عدد صفحاتها مائتان وثلاثة صفحات ناقصة ومبتورة في غير موضع⁵.

ونجمل ما حاول الزبيدي تسطيره من ملحوظات على العين والبارع فيما يلي⁶:

- أخطاء الإهمال وأكثرها منسوب إلى الخليل بحكم الإبداع، والتجربة الأولى، وذلك بأن يهمل ذكر باب أو مادة موجودة في كلام العرب وهي مستعملة عند القالي في البارع. مثلاً: مادة (فلح)، من العين- الثلاثي الصحيح: قال محمد: أهمل هذا الخليل، وذكره إسماعيل، فقال: فكّح مثل عنك. وبالرجوع إلى "العين" نجد أنّ الخليل لم يذكر من تقاليب المادة العين والكاف والفاء سوى (عكف وعفك)، وأهمل (فكع) وغيرها مما أتى به القالي.

- أخطاء الترتيب والتنظيم.

- أخطاء التصحيف.

- اتّباع القالي الخليل في بعض أخطائه.

- التكرار.

- ذكر القالي لمواد منسوبة إلى الخليل وهي غير موجودة في "العين".

- استعماله لكلمات مولدة. قال في مادة (العين والشين والذال المعجمة) : "شعر: قال محمد: ذكر

إسماعيل في هذا الباب كلمة اخترعها المولدون، وليست تصحّ عن العرب.

ثالثاً- معاجم المعاني في المغرب والأندلس:

لقد ارتبط التأليف المعجمي الأول في الأندلس بمدرسة "العين" ارتباطاً وثيقاً، ثم إنّ "البارع" ارتقى إلى مصافّ المدارس من بعده أيضاً، فأبو علي القالي (356هـ) كان قد منّ الله عليه بالأوصاف العلمية التي تكفل لعمله اللغوي عموماً والمعجمي خصوصاً القبول، وأصبحت الأعمال المعجمية مطبوعة بهذا

¹ فهرسة ابن خير، ابن خير، تح: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2009، ص431.

² النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص137-138.

³ الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب، ابن فرحون المالكي، تح: محمد الأحدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة- جمهورية مصر العربية، (دط)، (دت)، 220/2.

⁴ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص138.

⁶ المرجع نفسه، ص138-139.

المنهج من بعده لردح غير قليل من الزمن، وإذا ذكر الإنتاج المعجمي في الأندلس صرفت الأذهان لما ألفه القالي من (البارع) ومن سلك مسلكه .

لكن التأليف المعجمي في الأندلس ظهرت فيه صنوف أخرى حادت عن هذا المنهج المؤلف مثل ما حدث في المشرق، فظهرت معاجم المعاني أو معاجم الموضوعات أو الكتب المبوبة، وهذا النوع من المعجمات يمتاز بصعوبة البحث عن الألفاظ فيه؛ فهو عند البعض ليس بمعجم، فكلمة معجم توشي بالترتيب، وهذا الترتيب لألفاظه ؛ لأن موضوعه "المعنى" لا اللفظ، فهو قد جمعت فيه الرسائل ذات الموضوع الواحد مثل النبات، الحيوان... كما أنه موجه لفئة خاصة من المتعلمين والأدباء والشعراء.

وهنا سنذكر أهم كتب المعاني أو معاجم الموضوعات الأندلسية مع بعض التفصيل:

1- معجم "السماء والعالم" لابن سيد القرطبي¹:

تضاربت الآراء حول صاحب معجم (السماء والعالم في اللغة)، فأكثر أهل التراجم والأخبار نسبوه إلى أحمد بن أبان بن سيد القرطبي (382هـ)، وآخرون نسبوه إلى علي بن سيده المرسى صاحب (الحكم والمخصص)، ونسبه إلى محمد بن أبان بن سيد أبو جعفر اللبلي في كتابه: "بغية الآمال"، حيث نقل عنه وقال: "ووجدت أنا حرفاً آخر وهو: حبيب الرجل إحيه (بكسر الهمزة) . حكاه الإمام أبو عبد الله محمد بن أبان بن سيد القرطبي في كتابه الكبير المسمى: "السماء والعالم"، أما نسبته إلى أبي الحسين بن سيده فاحتمال بعيد، إذ لا يعقل أن يضع الرجل معجمين كبيرين في موضوع واحد وعلى طريقة واحدة أحدهما يسمى المخصص، والثاني يسمى "السماء والعالم"².

إذا كان "البارع" لأبي علي القالي (356هـ) هو أول المعاجم اللفظية التي ظهرت في الأندلس فإن "السماء والعالم" لابن سيد (354 أو 382هـ) أول المعاجم الموضوعية في تلك البلاد الجديدة في القرن الرابع الهجري، وقد أشار بعضهم أن ابن سيد قد سبق القالي في تأليف البارع وإذا ثبت الخبر فإنه بذلك يحتل صدارة التأليف المعجمي بغض النظر عن الاختلاف الحاصل بين المعجمين "البارع" و"السماء والعالم" في المضمون والمنهج.

وهذا الاختلاف إنما نجم عن الاختلاف في الغاية والهدف من تأليفهما. فالأول موضوعه اللفظ العربي وترتيبه وإحصاؤه، والثاني موضوعه المعنى، وما يُعبر به عنه من ألفاظ وعبارات...

¹ واسمه أحمد بن أبان بن سيد اللغوي صاحب الشرطة بقرطبة، يكنى أبا القاسم، عالم فاضل، لغوي روى عن أبي علي البغدادي، وسعيد بن جابر الإشبيلي وغيرهما، وحدث بكتاب الكامل، وأخذ عن أبي علي كتاب النوادر وغير ذلك، وكان مطلق القلم بالتصنيف، فمن تصنيفه كتاب "العالم"، في اللغة مائة مجلد على الأجناس... وانظر: إنباه الرواة، القفطي، 66-65/1.

² انظر: النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص 156-157.

لكن المقارنة حاصلة بين صاحبي المنهج الواحد الموضوعاتي وهما ابن سيد في "السماء والعالم"، وابن سيده في "المخصص": ذلك أنّ التشابه واقع بينهما إلى حدّ كبير يصل إلى التطابق في المادة والعبارة¹.

فكتاب "السماء والعالم" ذو موضوع كبير تناول فيه صاحبه "خلق الإنسان" وصفاته، وما يتعلق به فهو قد أدرج فيه كل الألفاظ والعبارات التي لها ارتباط دلالي بهذا الحقل².

هذا، وقد ذهب بعضهم إلى أن ابن سيده لما ألف عمل (المخصص) مشابها للسماء والعالم المتقدم عنه، كان قد اطلع عليه، ونقل وأفاد منه وإن لم يصرح بذلك على عكس سابقه ابن سيد فإنه لما نقل عن القالي كان يصرح غالبا ويوثق وينسب الكلام إلى صاحبه³.

وابن سيد لم يصل من كتابه (السماء والعالم) إلا مجلد واحد. والذي يظهر من هذا المجلد والدراسات التي أُثِّرت حول هذا الكتاب أن ابن سيد قسم المعجم إلى أبواب فقط، وربما أدرج تحت الباب بعض العناوين القليلة المتعلقة به.

وأول ما بدأ به الرجل باب ما يقال في وسط الإنسان - النعوت المستحسنة في البطون - وما يوصف به من الاستقباح، وتمتاز طريقته في عرض المادة بأنه بعد ذكر العنوان يأتي مباشرة بالألفاظ اللغوية التي يشملها الموضوع مجملة دون شرح ثم ينتقل في الخطوة الثانية إلى شرحها واحدة فواحدة، فهو بهذا الصنيع يتبع الإجمال الذي يعقبه التفصيل⁴.

وابن سيد يميل إلى بسط العبارة أحيانا، لذلك ألغى من حسابه تلك الفصول الطويلة التي ليست لها صلة مباشرة بالمعجم وموضوعه كالقصص والأخبار والروايات مع اعتناء خاص بالتصارييف والأبنية والمصطلحات المنطقية⁵.

نموذج من كتاب "السماء والعالم" لمحمد بن أبان:

قال محمد بن أبان في فصل بعنوان: (ومن صفات الركب) "... ومن صفات الركب: الصكّا، والقسطاء، والطرقاء، والصدفاء، والفتحاء، والطفحاء.

قال: الصكّا هي التي تصكّ صاحبها عند المشي، يقال: رجل أصك: بين الصكك، وقد صكّ الرجل يصكّ صككا، وقد صككت يارجل.

¹ انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، مكتبة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، 1404هـ - 1984م، ص82.

² النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، 157.

³ المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

⁴ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري. ص82.

⁵ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ومنها القسطاء: وهي التي ييست وغلظت حتى لا تكاد تنقبض من يُسها. يقال: الرجل أقسط فهو مُقسط: بين القسط، وأكثر ما يقال في البهائم، يقال: فرس أقسط، والاسم القسط.

ومنها الطرقاء وهي التي لان مأبضها، وانفتحت حتى كادت ركبتها تغيب في مفصلها واسترخى لذلك خطوها، يقال: رجل أطرق: بين الطرق.

والفتخ: يكون في مأبض الركبة ومأبض الذراع، وهو لين المفاصل، وخروج بطنها إذا قام الإنسان، وكذلك هو المرفق.

ومنها الصدفاء: وهو إقبال إحدى الركبتين على الأخرى حتى تكادا تماسا. يقال: رجل أصدف وامرأة صدفاء.

ومنها الطفحاء: يقال: ركبة الرجل طافحة أي يابسة لا يقدر صاحبها أن يقبضها، وقد طفحت أي: ييست والأركب: العظيم الركبة¹.

ومن هذا الفصل الموجز يمكن أن نسجل عليه الملحوظات التالية:

- التمسك بالحق الدلالي المعقود له الفصل والتعبير عن المعاني المرتبطة به بالألفاظ المناسبة لذلك.
- الاختصار ما أمكن، والاقتصار على ماله صلة بالمعاني المراد التعبير عنها.
- ندرة الاستشهاد بأنواعه.
- قد اضطرب في ترتيب وتفصيل ما أجمله؛ إذ قدم الصدفاء على الفتحاء في الإجمال وعكس الأمر في التفصيل.

وبعد عرض كتاب (السماء العالم) لمحمد بن أبان بن سيد، والجدل الذي أثير حوله مع المخصص لابن سيده (458هـ)، جدير بنا أن نقر بأن كتاب السماء والعالم هو أول كتاب وضع على الموضوعات أو المعاني في الغرب الإسلامي، أو في الأندلس متقدما بذلك على مخصص ابن سيده بزمان معتبر قد يصل إلى قرن (مائة سنة).

وهذا التقدم التاريخي في الظهور "للسماء والعالم" على حساب المخصص في الحقيقة لم يشفع له في الريادة عند كثير من الباحثين والدارسين المعجميين العرب، والذي حملهم على اتخاذ هذا الموقف عدة أسباب منها:

- التشابه الكبير الذي يصل إلى حد التطابق في بعض الأحيان بين الكتابين، وهذا ما يسوغ للباحثين احتمال أنهما كتاب واحد، تناقلته الأنباء بعنوانين مختلفين لفظا، ومن ثمة قد يكون الأول مسودة للتالي، وما جعل الاحتمال قويا أيضا تشابههما في الاسم، فالسماء والعالم لمحمد بن أبان يطلق عليه ابن سيد،

¹ "السماء والعالم" ص 14، نقلا عن: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 83.

والمخصص لابن سيده وإن كان الأول أقل شهرة من التالي في الدرس اللغوي العربي عموماً والمعجمي خصوصاً.

- كتاب المخصص كتب له الرواج على حساب (السماء والعالم) بسبب قوة شخصية مؤلفه العلمية، وأنّ له قدماً سابقة في العمل المعجمي، فهو صاحب المحكم والمحيط الأعظم، وأنه ألف في فنون شتى.
- الباحثون المتأخرون يؤمنون كثيراً بما هو واقع، وما يمكن أن يحقق منفعة عاجلة، فالمخصص كان قد طبع وحقق، ولقي حظاً وافراً من الدراسة والعناية، أما السماء والعالم فما زال لم يطبع، فهو مخطوط ينتظر جهوداً تيسر الانتفاع به .

ومن الكتب القريبة من منهج التأليف في كتب المعاني نجد ما يسمى بكتب الغريبين، والنوادر وكتب التسلسل، وكتب الأبنية وغيرها، لكن الأندلسيين وأهل الغرب الإسلامي لم يعرفوا كل هذه الأنواع من التواليف، فقد ظهرت عندهم أنواع دون أخرى خاصة ونحن ندرس ما ألف في هذا المجال إلى غاية القرن الرابع الهجري.

2- كتب الغريبين:

هي مؤلفات تقوم على توضيح الغريب في القرآن أو الحديث النبوي الشريف مثل غريب القرآن لابن قتيبة (276هـ)، وغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ) . وهناك من جمع بينهما في مؤلف واحد فقال: (كتاب الغريبين غريب القرآن والحديث)، و(المجموع المغني في غريب القرآن والحديث)¹ . ويرى آخر أنها تلك المدونات اللغوية المتخصصة في ألفاظ القرآن والحديث، ولا سيما الغريب منها، فتورده على ترتيب معين، يكون ألفبائياً أو حسب السور القرآنية ومواضيع السنة النبوية وأبوابها، وتشرحه شرحاً لغوياً ممزوجاً بالأخبار الأدبية والشواهد الشعرية أحياناً² . ومعلوم أن بدايات التأليف في هذا النوع كانت بالمشرق، ثم امتد الأمر إلى الغرب الإسلامي والأندلسي.

فالأندلسيون قد بدأوا التأليف في هذا النوع منذ القرن الثالث الهجري، فكان منها كتاب لعبد الملك بن حبيب السلمي (239هـ) وآخر لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام الحشني (286هـ) . وثالث لقاسم بن ثابت السرقسطي (302هـ) وقد ضاع الكتابان الأولان وبقي الكتاب الثالث.

¹ معاجم الغريبين في العربية، هيثم زينهم مرسى، تعلّم: خالد فهمي، دار النشر للجامعات، مصر، ط1، 2017، ص27.

² انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص110-111.

قال ابن خير الإشبيلي: "كتاب غريب الحديث، لمحمد بن عبد السلام الخشني، نيف على عشرين جزءاً، شرح حديث النبي عليه السلام في أحد عشر جزءاً، وحديث الصحابة في ستة أجزاء والتابعين في خمس أجزاء"¹.

وفي الحقيقة هذا وصف مقتضب جداً، ومنه يعلم أن الخشني لم يرتب كتابه على الحروف كما فعلت المعاجم اللفظية، ولا يتضح أنه سلك به طريقة جديدة بل يظهر أنه بناه على نسق أبي عبيد وابن قتيبة في غريبهما المتقدمين.

وعلى الدرب سار مؤلفاً كتاب الدلائل قاسم بن ثابت السرقسطي، والذي ألفه بالأندلس سنة (299هـ). فقد بوب قاسم كتابه حسب رجال الحديث وأصحابه بادئاً بأحاديث الرسول ﷺ التي استغرقت الجزء الأول كله، وطرفاً من الجزء الثاني، ثم أتبعها بما روي عن أبي بكر، ثم ما روي عن عمر، فعثمان فعلي، فبقية الصحابة رضي الله عنهم، بادئاً بالزبير بن العوام ومنتها بالتابعين وتابعي التابعين. وهو في ذلك كله، يورد نص الحديث أو الفقرة المتضمنة منه لألفاظ غريبة، يشرح ما قصد إليه من ذلك، مستشهداً بالأشعار، وناقلاً من الرواة². وهذا مثال يوضح طريقته في الشرح³:

قال في حديث الرسول ﷺ الذي نصه: "إنّ هبار بن الأسود أصابته نقلة إلى المدينة، وكان رجلاً سبّاً، فأتي به النبي ﷺ، فقليل له: هذا هبار يسبّ ولا يُسبّ. فأتاه النبي ﷺ، فقال: يا هبار، سبّ من سبّك" شارحاً: "أخبرنا إبراهيم قال: نا محمد بن إدريس قال: نا الحميدي قال: نا سفيان: نا ابن أبي نجح: السبّ: الكثير السباب، وسبّ الرجل أيضاً الذي يشابهه. قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

لا تَسبَّنِي فَلَسْتُ بِسَبِّي إِنَّ سَبِّي مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيمِ

فقاسم في كتابه الدلائل قد أتى بحديث النبي ﷺ، وعالج منه اللفظ المقصود بإيضاحه وإزالة الغموض عنه، فهو استعمل المرويات في شرحه؛ لأنّه قد يشرح الحديث بالحديث الآخر، وإذا لم يتيسر فيشرح من كلام العرب، ويستشهد له بما يحتج به من الشعر.

ولم يتوقف التأليف في هذا النوع من المعاجم في الأندلس عند السرقسطي، فقد جاء القاضي منذر بن سعيد البلوطي (355هـ). قال الزبيدي مستهلاً أعلام الطبقة السادسة: "منذر بن سعيد القاضي هو المعروف بالبلوطي مصنف الغريب يكنى أبا الحكم، وكان متفنناً في ضروب العلوم..."⁴

¹ فهرسة ابن خير، ابن خير الإشبيلي، ص245.

² انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص111. والحديث مرسل وفيه وهم، وانظر: الإصابة، ابن حجر العسقلاني، 597/3.

³ المرجع نفسه، ص112.

⁴ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص295.

3- كتاب النوادر لأبي علي القالي:

ذكر السيوطي فائدة لغوية في حديثه عن الحواشي والغرائب والشواذ والنوادر من شأنها أن توضح لنا ما نرمي إليه فقال: "اعلم أنهم يستعملون غالباً وكثيراً ونادراً وقليلًا ومطرّدًا، فالطرّد لا يتخلف، والغالب أكثر الأشياء، ولكنه يتخلف، والكثير دونه، والقليل دون الكثير، والنادر أقل من القليل..."¹ والذي يفرق بين الكلمة الفصيحة والكلمة النادرة عند ابن هشام هو أن النوادر تطلق على ما خالف القياس، وخرج عليه من الألفاظ.²

وكتب النوادر هذه أقرب ما تكون من كتب اللغات، بل لا يمكن التفرقة بينهما في أكثر الأحوال، إذ عالج مؤلفوها بعض اللغات غير المعروفة.³

وفي طليعة ما وصل إلينا من تلك المحاولات الرائدة خلال المرحلة الأولى من حركة جمع اللغة زمرة من الكتب تحمل اسم النوادر. وقد شاع التأليف في النوادر على الأيام واستمرّ في ازدياد واطراد طوال قرن من الزمان، أي إلى أواسط القرن الثالث من الهجرة. ولا نكاد نجد عالماً من علماء اللغة ورواتها في تلك الفترة لم يضع كتاباً في النوادر، من مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي زيد الأنصاري، وأبي مسحل الأعرابي، وقطرب، وأبي عمرو الشيباني، والكسائي، والفراء، والأصمعي، وابن دريد، وأبي علي القالي... حتى إنّ عدد هذه الكتب يقدر بأكثر من أربعين.⁴

وكلّ هؤلاء العلماء المتقدم ذكرهم علماء المشرق الإسلامي غير أبي علي القالي، فالقالي أندلسي كتب في النوادر في زمن مبكر جداً، لكن نوادره جاءت بعنوان "الأمالي" وهو كتاب أشهر من نار على علم، كان قد ذيله بذيل ونوادر، لكن كثيراً من الباحثين يرون كتاب (الأمالي) بأكمله هو (كتاب نوادر). وقد اخترنا نموذجاً منه فيما يلي :

قال: والنهار عند العرب من طلوع الشمس إلى غروبها، وما عدا ذلك فهو عندهم ليل مما تقدم أو تأخر.⁵

¹ المزهر، السيوطي، 234/1.

² انظر: كتاب النوادر في اللغة، أبو زيد الأنصاري، تح: محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، بيروت - لبنان، ط1، 1401هـ - 1981م، ص49، مقدمة المحقق.

³ انظر: المعجم العربي، حسين نصار، 137/1.

⁴ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص137 - 138.

⁵ الأمالي، القالي، إسماعيل بن القاسم أبو علي، تح: صلاح بن فتحى هلال وسيد بن عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط1، 1422هـ - 2001م، ص706 - 707.

4- كتب التسلسل أو المسلسلات:

فهذا النوع من المعاجم محدث على غير مثال سابق، فهو لا يخضع لأي مدرسة من المدارس المعجمية المعروفة، والطريقة التي ينفرد بها هذا النوع، هي عدم إخضاع (المادة اللغوية) مفردات اللغة لأي ترتيب سوى ما يدعو إليه التسلسل بين معاني الألفاظ أو (التشاجر) و(التداخل) يعني أن يجر ذكر الكلمة الأولى إلى ذكر الثانية، والثانية إلى الثالثة، والثالثة إلى الرابعة... وهكذا تنتظم الألفاظ في سلسلة متشابكة متشجرة يأخذ بعضها بعنق بعض¹.

لكن هذا النوع من المعجمات لم تعرفه الأندلس والغرب الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، وأول ما ظهر منه كان على يد أبي طاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي السرقسطي (538هـ) وهو من أحسن الصنعة في هذا المجال، أما المشرق فقد ظهر فيه كتابان من المسلسلات أولهما كتاب (المُداخل) بفتح الخاء وضم الميم لأبي عمر المطرز (345هـ)، المعروف بغلام ثعلب، وهو من أساتذة القالي في اللغة والأدب. وثانيهما (كتاب شجر الدر) لأبي الطيب اللغوي، والكتابان مطبوعان معاً².

5- كتاب الأبنية وتصاريدها لابن القوطية:

هذا النوع من التأليف المعجمي ينقسم إلى قسمين قسم موضوعه أبنية الأفعال وقسم صيغ وأبنية الأسماء.

القسم الأول: كتب الأفعال

ذكر حاجي خليفة أن باكورة هذا النوع من المعاجم قد ألفه أبو بكر محمد بن عمر القرطبي المعروف بابن القوطية النحوي المتوفى سنة سبع وستين وثلاثمائة، فهو قد أسماه الأفعال وتصاريدها³، وبعضهم قد أثبت له تسمية أخرى هي الأفعال الثلاثية والرابعة⁴.

وقد قسم ابن القوطية المادة التي جمعها وهي خاصة بصيغتي (فعل وأفعل) إلى ثلاثة أقسام أساسية وهي: فَعَلَ وأفْعَلَ - أفْعَلَ وحدها - فعل وحدها، وكل قسم فرعه بدوره إلى فروع، ثم عمد إلى المواد التي بداخله فرتبها ترتيباً صوتياً خاصاً⁵.

¹ انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 91.

² انظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ كشف الظنون، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (دط)، (دت)، 1/133.

⁴ النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص 183.

⁵ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 100.

وهذا ترتيبه: الهمزة، الهاء، العين، الغين، الخاء، الحاء، الجيم، القاف، الكاف، السين، الشين، الصاد، الضاد، اللام، الراء، النون، الطاء، الظاء، الذال، الدال، الباء، التاء، الزاي، الفاء، الميم، الواو، الياء¹.

وقد لاحظ بعض الباحثين أن منهجه يقوم على الإجراءات التالية²:

- مزج بين النظام الصوتي والأشباه والنظائر لنصر بن عاصم الليثي.
- قسم كل حرف إلى فصلين أولهما: ما جاء على "فعل وأفعل" والمعنى متفق وثانيهما: ما جاء على "فعل وأفعل" والمعنى مختلف.

- قسم الأفعال إلى مضاعف وصحيح ومهموز ومعتل من دون النظر في الحرف الأول المعقود باسمه الباب- لهذا، هو يقسم باب الهمزة من "الثلاثي على فعل وأفعل باختلاف معنى" إلى صحيح ومعتل، وباب الواو من "الثلاثي على فعل وأفعل بمعنى واحد" إلى صحيح ومهموز ومعتل، وباب الواو من "الأفعال الثلاثية الخاصة" إلى مضاعف وثلاثي صحيح ومهموز ومعتل.

- حرص على إفراد كل نوع من الأفعال الثلاثية على حده أيا كان ضبطه سواء ضبط بحركة واحدة أو أكثر. فهناك عنوان لـ "فَعَلَ" وآخر لـ "فَعَلَ وَقَعَلَ" وثالث لـ "فَعَلَ" ورابع لـ "فَعَلَ وَقَعَلَ وَقَعَلَ..."
- يفصل بين الأفعال المعتلة الواوية واليائية وبين ما كان حرف علة فيه العين أو اللام وبين ما اعتل وما بقي من دون إعلال.

- أمّا الأفعال الرباعية فقد اتبع في ترتيبه لها ما اتبع من خطوات للثلاثي ما عدا القسمين الثالث (حيث قسم فيه كل حرف إلى فصلين) والخامس (حيث حرص على إفراد كل نوع من الأفعال...).
كان ابن القوطية قد حذف أسانيد الرواية وأسماء المصادر والشواهد إلا في القليل، فجاء كتابه مختصراً.

وبعد ابن القوطية (367هـ) وجدت طائفة من الأندلسيين تؤلف في الأفعال، وإن ضاع بعضها. فقد ألف فيها كل من أبي عثمان سعيد بن محمد السرقسطي المعروف بابن الحداد المتوفى سنة (400هـ)، وأبي مروان عبد الملك بن طريف (400هـ)، وكلاهما من تلاميذ ابن القوطية، فعملا في كتابيهما على تهذيب وإكمال ما صنعه أستاذهما³.

¹ النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص184-185.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص100.

القسم الثاني: كتب الأسماء

ولقد عُرف التأليف في هذا النوع من المعاجم في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري، فهي تهتم بجميع الأسماء والصفات التي تتفق في طريقة رسمها وهي كتب المقصور والممدود والمهموز، وأول من صنف في مثل هذا بالأندلس أبو علي القالي حيث رتب صيغ هذا الكتاب حسب الأبجدية الصوتية مثل ما حصل معه في البارع مع مراعاة تقسيمات داخلية معقدة ومتشابكة. ثم تلاه في ذلك ابن القوطية الذي ألف كتابا لكنه ضاع.

هذا ما عرف عن الكتب اللغوية التي ألفت على المعاني أو ما يجعلها قريبة من مناهج معجمات المعاني حتى نهاية القرن الرابع الهجري، وهذه الدراسة في الحقيقة تهدف إلى التركيز على التأليف المعجمي الأندلسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري.

والموضوع يحتاج إلى بسط أكثر لكن يضيق بنا المقام هنا أن نتعرض لكل الأنواع التي ألفت في مجال المعجمية، لا ندعي في هذا إحصاءً تاماً، لكن من باب ما لا يدرك كله لا يترك جله.

المبحث الرابع: ملامح التأثير والتأثير بين المشرق والمغرب والأندلس

إن الكلام عن قضية التأثير والتأثير في الدرس اللغوي المعجمي العربي بين الشرق والغرب الإسلامي ليسوقنا نحو إبراز أسباب هذا الأمر، وتحديد مظاهره، لكن قبل التعرض لهذه القضايا حريّ بنا أن نحدّد نقطة أو نقاط بداية هذه الحركة العلمية اللغوية. فمعلوم أن المشرق هو مهد الحضارة العربية، وهو منبع العلوم التي عرفها العرب، لكنّ المسلمين استجابوا لما يوجبه عليهم دينهم الإسلامي بضرورة الدعوة إلى هذا الدين الإسلامي العظيم عن طريق الجهاد وفتح البلدان البعيدة، فلما تمكّنوا من فتح المغرب تهيّأ لهم فتح الأندلس بإسبانيا.

ولقد كان لخلفاء بني أمية فضل كبير في تفعيل الحركة العلمية اللغوية بين المشرق والمغرب، ذلك أنّهم استقطبوا بعض العلماء وطلبة العلم المشرقيين إلى الأندلس وإن كان لهم في بعض الأحيان حاجات خاصة في ذلك كحصولهم على مؤدّبين لأبنائهم من ذوي الكفاءات، لكن الأمر قد تعدّى ذلك ووصل إلى عامة المسلمين هناك، لأنّ هؤلاء العلماء يعرفون حكم نشر العلم لمن له أهليّة لذلك. ثمّ لما ازداد الإقبال على هذه اللغة الجديدة في الجزيرة، وازدادت رغبة المتعلمين في تحصيل العلم أصبح لا يكفيهم من يستقطبهم الخلفاء والأمراء، ولا يكفيهم من أتى بنفسه لغرض علمي أو غيره، فكان لزاما عليهم الرحلة في طلب العلم إلى المشرق.

ومن هنا ظهرت حركة لغوية نشطة متزايدة بين المشرق والمغرب، ووقع تبادل للأفكار، والإفادة من المبدع، ومحاولة المحاكاة والنسج على المنوال، والمشرقيون أنفسهم ازدادت رحلاتهم نحو الأندلس فالدين الإسلامي الذي كان سببا في فتحها فهو السبب أيضا في نشر العلم بين أهاليها.

أولا- أسباب التأثير والتأثير:

لقد تهيّأت أسباب عديدة حتى اتصل المشرق بالمغرب اتصالا نجم عنه التأثير والتأثير بينهما في المجال اللغوي المعجمي، ومنها مايلي:

1- الهجرة

وهي الانتقال من مكان إلى آخر، ونقصد هنا هجرة المشاركة إلى المغرب وهجرة المغاربة إلى المشرق.

أ- رحلة المغاربة إلى العلماء المشاركة: فالمؤدّبون لم يكن تحصيلهم مقصورا على ما يتيسر لهم من طلب العلم في المدن الأندلسية، واعتمادا على الرحلة الداخلية، بل دعت الحاجة إلى الاستزادة من العلم، وأصبح من الضروري البحث عن حلول أخرى، خارجية، فالمسلمون المغاربة في رحلاتهم لأداء فريضة الحج كانوا يلتقون بالعلماء ويتعلّمون منهم قبل وأثناء المناسك وبعدها، كما أنّهم يطلّعون على أحوالهم وأخبارهم وأماكن تواجدهم، وأين يدرّسون. ثم إن هؤلاء العائدين من فريضة الحج كانوا ينقلون بعض ما تعلموه عن

العلماء في شتى الفنون في اللغة وغيرها، هذا الأمر من شأنه أن حفّز من لم يرحل وألقى التشويق في نفسه للقاء العلماء والأخذ عنهم.

ولما بلغ طلب العلم مبلغاً عظيماً في نفوس هؤلاء تعدّت رحلاتهم أمر الحجّ، وأصبحت الرحلة العلمية في حدّ ذاتها هدفاً نبيلًا مرسومًا، خاصة عند أولئك الذين لهم القدرة على تحمّل أعباء السفر، فالطريق طويلة وشاقة والرحلة غالباً مخوفة بأنواع المخاطر، وقد تكون الرحلة برية أو بحرية، فالأندلسيون في ذلك الوقت قبلتهم إمّا القيروان وإمّا المشرق.

وما إن حلّ القرن الثالث الهجري حتى غدت الرحلة إلى طلب العلم أمراً ضرورياً لاغنى عنه لمن تحدّوه هذه الرغبة، وأصبحت بمثابة الفريضة الثقافية وعليهم أن يؤدوها، وقد تطول وتقصّر حسب حاجة المتعلّم والظروف التي تنهياً له في ذلك، فبعضهم يرحل إلى العالم ويثني الركب عنده حتى يتمّ تحصيل قدر كافٍ في فن من الفنون، وبعضهم يمكث طويلاً حتى يحصل أكثر من فنّ على شيخه.¹

ومن الطبيعي أن تتعدد الغايات العلمية لهؤلاء الذين رحلوا إلى طلب العلم في البلاد البعيدة، فمنهم من يرغب في تحصيل علم الحديث، ومنهم من يطلب الفقه، ومنهم من يريد لقاء الشعراء المشاركة لتحصيل اللغة الفصيحة والشعر والأدب ومنهم من يرحل إلى تحصيل اللغة والنحو، وبعضهم كما أسلفت القول يجمع بين عدّة فنون.

وما يهّمنا في هذا الفصل هو رحلة أولئك الذين سعوا إلى تعلم اللغة والنحو، وأخذت اللغة منهم أكثر جهودهم، وآثروا التأديب بها، ولقد عادوا من رحلاتهم محمّلين بعلوم اللغة وفروعها التي يحفظونها، وبعضهم أتى بكتب لغوية معه من المشرق قصد مطالعتها، والتعليم بها، وربّما النسج على المنوال في مرحلة تأليف أولى.

إن طلاب العلم الذين رحلوا إلى المشرق سعياً في طلب اللغة قد تحيّنوا الفرص للالتقاء بمن يظنون منه الإفادة، فقد التقوا بعض مشاهير اللغويين في البصرة والكوفة من أمثال: الأصمعي والسجستاني والكسائي وغيرهم، وتوغلت طائفة أخرى من الذين رحلوا حتى التقوا بأعراب البوادي، وأخذوا عنهم اللغة مشافهة. فالذين رحلوا إلى المشرق قصد طلب العلوم المختلفة كُثُر، والتقوا بعلماء وحصلوا على أيديهم، لكن لا تكاد تظفر بمن كتب ووثّق وحقق في هذا الأمر من العرب إلا قليلاً.

وتشير بعض المصادر القليلة إلى الأساتذة والشيخوخ الذين درس عندهم أولئك الذين رحلوا من مؤدّبين وغير مؤدّبين، وهنا نبين نقاط الالتقاء للطالب مع الشيخ فيما يلي:

¹ انظر: النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص33.

أ-1- جودي النحوي (198هـ): قال الزبيدي في ترجمته: «ورحل إلى المشرق، فلقي الكسائي والفراء وغيرهما... وله تأليف في النحو، وسكن قرطبة بعد قدومه من المشرق»¹.

أ-2- الغازي بن قيس (199هـ): قال الزبيدي في ترجمته المختصرة: «رحل إلى المشرق، وشهد تأليف مالك للموطأ... وأدرك نافع بن أبي نعيم، وقرأ عليه، وأدرك من رجال اللغة الأصمعي ونظرائه»².

أ-3- محمد بن عبد الله بن سوار (302هـ): قال الزبيدي في ترجمة أبيه عبد الله بن سوارين طارق (275هـ). "ورحل محمد ابنه إلى المشرق، ولقي أبا حاتم والرياشي وغيرهما"³.

أ-4- قاسم بن أصبغ (244-340هـ): قال ابن الفرضي في ترجمته: "ورحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن زكريا بن أبي عبد الأعلى سنة (274هـ) في إمارة المنذر - رحمه الله-.

فسمع بمكة من محمد بن إسماعيل الصائغ... ودخل العراق فلقي من أهل الكوفة: إبراهيم بن أبي العنبر... ودخل بغداد وسمع من كثيرين منهم أحمد بن زهير بن أبي خيثمة، كتب عنه تاريخه، ومحمد بن إسماعيل الترمذي، وعبد الله بن أحمد بن حنبل... وزكريا بن يحيى الناقد، ومضر بن محمد بن الأسدي الكوفي، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة، سمع منه كثيرا من كتبه. وسمع من محمد بن يزيد المبرّد، وأحمد بن يحيى بن يزيد بن ثعلب، ومحمد بن الجهم السُّمري، في آخرين كثير من أئمة المسلمين ومشاهير الرواة.

وسمع بمصر من محمد بن عبد الله العُمري، ومطلّب بن شعيب، ومحمد بن سلمان المهري، وغيرهم. كما أنه سمع بالقيروان عن عدد من علمائها.

ثم رجع قاسم بن أصبغ إلى الأندلس محملاً بعلم غزير، ومال الناس إليه في تاريخ أحمد بن زهير وغيره"⁴.

أ-5- محمد بن عبد الله الغازي (296هـ): قال الزبيدي في ترجمته المختصرة: "رحل إلى المشرق، فلقي الرياشي وأبا حاتم وإبراهيم بن خدّاش، ولقي جماعة من أصحاب الحديث، من أصحاب ابن عيينة وغيرهم..."⁵.

أ-6- محمد بن عبد السلام الخشني: قال الزبيدي في ترجمته: "هو محمد بن عبد السلام، من أهل كورة جيان، وانتقل إلى قرطبة فسكنها إلى أن توفي بها، وكان فصيح اللسان، بصيرا بكلام العرب،

¹ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص256.

² المرجع نفسه، ص254-255.

³ نفسه، ص260.

⁴ تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 1/467-468.

⁵ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص267.

ورحل إلى المشرق فلقي المازني، وأبا حاتم والرياشي، وكتب عن أهل الحديث أبي موسى الزمن، وبندار، وعبيدة ويوسف بن عدي وغيرهم من العراقيين...¹.

أ-7- الأقيشتين أو الأفتيق (307هـ): قال الزبيدي في ترجمته: "هو محمد بن موسى بن هاشم بن زيد، مولى المنذر-رضي الله عنه- وكان متصرفاً في علم الأدب والخبر، ورحل إلى المشرق، فلقي أبا جعفر الدينوري، وانتسخ كتاب سيبويه من نسخته، وأخذ عنه رواية، وأخذ عن المازني، وروى كتب ابن قتيبة عن إبراهيم بن جميل الأندلسي، أخذها عنه بمصر، وله كتب مؤلفة في الأدب، ومنها شواهد الحكم، وكتاب طبقات الكتاب"².

أ-8- منذر بن سعيد البلوطي: قال الزبيدي في ترجمته: "هو المعروف بالبلوطي، مصنف الغريب، يكنى أبا الحكم، وكان متفناً في ضروب العلوم، وكانت له رحلة لقي فيها جماعة من علماء اللغة والفقه، مثل محمد بن المنذر، وابن ولاد"³.

أ-9- عثمان بن المشي (273هـ): قال الزبيدي "يكنى أبا عبد الملك، رحل إلى المشرق، فلقي حبيب بن أوس، فقرأ عليه شعره... ولقي جماعة هناك منهم ابن الأعرابي"⁴.

أ-10- ثابت بن عبد العزيز السرقسطي وابنه قاسم: قال الزبيدي: "كانا من أهل العلم بالعربية والحفظ للغة، والتفنن في ضروب العلم، من علم الدين وغيره، ورحلا إلى المشرق، فلقي رجال الحديث ورجال اللغة، وجمعا علماً كثيراً..."⁵.

هذا، وينقسم العلماء الذين رحل إليهم إلى قسمين بارزين في الدرس النحوي العربي إذا استثنينا ابن ولاد المحسوب على المدرسة المصرية، وتصنيف العلماء على النحو التالي⁶:

القسم الأول: العلماء البصريون، ومنهم عبد الملك بن قريب الأصمعي، سيبويه، المازني، أبو حاتم السجستاني، الرياشي، المبرد، أبو اسحاق الزجاج، ابن قتيبة، ابن دريد.

القسم الثاني: العلماء الكوفيون، ومنهم علي بن حمزة الكسائي، والفراء، محمد بن زياد بن الأعرابي، أبو عبيد القاسم بن سلام، يعقوب بن السكيت.

¹ المرجع السابق، ص 267.

² المرجع نفسه، ص 282.

³ نفسه، ص 295.

⁴ نفسه، ص 266.

⁵ نفسه، ص 284.

⁶ اعتمدنا في التصنيف على طبقات الزبيدي.

والناظر المتأمل في حال حملة اللغة والنحوي الأندلس يدرك أنهم كانوا في جملتهم تلامذة الطبقة الأولى من النحاة واللغويين المشاركة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على حرص هذه الطائفة التي رحلت إلى العلم، فالفتح الإسلامي كان بداية القرن الثاني، لكن هؤلاء ما إن علموا قيمة العلم لم يتوانوا أو يدّخروا جهداً في الالتحاق بالركب العلمي غير مباليين بالمسافة البعيدة بين المغرب والمشرق.

أمّا حفاظ اللغة منهم وجماعوها فلهم في ذلك مزية؛ ذلك أن هؤلاء العلماء أصحاب الطبقة الأولى بخاصة، هم قد شافهوا العرب في الصحاري البعيدة مضارب الفصاحة، والأندلسيون يأخذون عليهم رواية نقلية لكن دون واسطة فمن المشافهة إلى الراوي.

ب- رحلة لغويين مشاركة إلى الأندلس:

إنّ رحلة الطلبة من الأندلس إلى المشرق قوبلت برحلة معاكسة من المشرق إلى الأندلس، لكنّ الثانية أقل عدداً من الأولى، وهذا أمر طبيعي، فالطلاب لا سبيل لهم إلا الهجرة من الأندلس، فالعلم يؤتى إليه، وهو أمر اضطراري ليس منه بدّ، أمّا المشاركة فرحيلهم إلى الأندلس لم يكن لطلب العلم، وإنما للتجارة، والتكسب، وبعضهم قد يضيق به الشرق من الفقر فيرحل إلى الأندلس علّه يجد فسحة من أمره . ومن أبرز هؤلاء الراحلين نجد:

ب-1- أبا جعفر أحمد بن محمد بن هارون البغدادي: قال ابن الفرضي: "أدخل إلى الأندلس بعض كتب أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، رواية عن ابنه أبي جعفر، وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ رواية. سمع منه رجال الأندلس أحمد بن عبد الله القرشي الحبيبي وغيره. وسمع منه محمد بن عمر بن عبد العزيز فيما كان يزعم، وانصرف إلى المشرق بعدما تردّد في الأندلس أعواماً. واستوزر بعد ذلك هناك. أخبرني بذلك خطاب بن مسلمة بن بُتري. وأخبرني سليمان بن أيوب أن أبا جعفر البغدادي إنما دخل الأندلس متجسّساً"¹.

وهو من ذلك الفريق الذي كان يظنّ أن الأندلس قطر متأخر في الجانب الحضاري العلمي، لكنّه لما عاين الأمر بدا له ما لم يكن يتوقع، وصار إلى عكس ما توهم.

ب-2- ومن المهاجرين من المشرق إلى الأندلس رجل يعرف بالعجليّ وقد أخبر ابن الفرضي أنه انصرف إلى الأندلس فسمع الناس منه، حدّث عنه محمد بن عبد الله ابن أبي دُلَيْم وغيره، ورأيت أنا بعض أصول سماعاته من علي والصائغ وابن أبي مسرة².

وقيل إن الناس قدفتنوا به وبعلمه حتى إن تلامذة الخشني فرّوا إليه وتركوا الخشني.

¹ تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 110/1. ذكره ابن الفرضي في باب (ومن الغريباء القادمين من المشرق ممن اسمه أحمد) .

² المرجع نفسه، 459/1.

وقد أحدثت هجرة ذوي العلم من المشاركة إلى الأندلس منافسة كبيرة، وعندنا صورة من ذلك مع أبي محمد الأعرابي. قدم هذا الأعرابي من الحجاز ونزل بإشبيلية على رئيسها إبراهيم بن حجاج. وقد كان فصيح اللهجة ذا قطع من الشعر مستحسنة، لما عظمت منزلته عند ابن حجاج فبعض المشتغلين باللغة هناك من ناصبوه العداوة وتتبعوا سقطاته¹.

ب-3- ومن الذين هاجروا من المشرق إلى الأندلس أبو علي القالي (356هـ)، هذا العالم النحرير كان رحيله إلى الأندلس يكتسي الطابع الرسمي؛ لأنه جاء بطلب من الخليفة الناصر. فالقالي نفسه مدرسة لغوية نحوية، وفد إلى الأندلس عام (330هـ)²، وقد ألف كتابه البارع في علم المعاجم، فهو بهذا أسس لهذا العلم في هذه البلاد الجديدة (الأندلس). كما ألف كتابه الآخر "الأماشي"، و"فعلت وأفعلت" وغيرها من الكتب الأخرى.

والقالي صاحب فضل كبير على الأندلسيين في تطور الحركة العلمية اللغوية، فهو زيادة على تأليفه فقد كان مؤدباً ومدرّساً له تلاميذ يأخذون عنه العلم بصفة منتظمة. بل إن بعض تلامذته مثل الزبيدي صاحب الطبقات خلف أستاذه أبا علي في التدريس من بعده سائراً على دربه.

ج- هجرة الكتب: والقصد من هذا أن العلماء الذين رحلوا إلى الأندلس كثير منهم حافظ لما ألف، ومستحضر للفنون التي يجيدها، وبعضهم أخذ كتبه معه وكتب علماء آخرون، فمجيئ الكتب فيه مافيه من الفوائد، فبعض المتعلمين لا يستطيعون المداومة على تلقي العلوم في الدروس المنتظمة والحلقات الراتبية في المساجد، ومن هنا تأتي قيمة الكتاب.

وفي سبيل طلب العلم من لم يتيسر له ثني الركب عند الشيخ، وملازمة الدروس فلا أقل من حصوله على الكتاب كي يدرس فيه ما أمكنه.

ومن الكتب التي أدخلت إلى الأندلس من المشرق نجد كتاب موطأ الإمام مالك رضي الله عنه وكان أول من أدخله الغازي بن قيس (199هـ)³ هذا في الفقه، وفي اللغة كتاب الكسائي أدخله جودي النحوي (198هـ)⁴، وكتاب سيبويه أتى الأقتشين بنسخة منه عن أبي جعفر الدينوري، وقد أتى غير واحد بكتب ابن قتيبة (276هـ)، وكتب الجاحظ (255هـ) وغيرها.

¹ انظر: الحركة اللغوية في الأندلس، ألبر حبيب مطلق، رسالة أكاديمية - أستاذ في الآداب، الجامعة الأمريكية - بيروت لبنان، أيار 1965، ص 36.

² النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص 75.

³ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 254.

⁴ المرجع نفسه، ص 256.

هذا قبل القرن الرابع الهجري، ثم بعد دخول القرن الرابع عرفت الحركة العلمية بالأندلس وجهها جديدا متمثلا في جهود أبي علي القالي في نشر العلم في الأندلس والدعوة إليه، وقد حمل هو أيضا كتباً معه من تأليفه أو تأليف غيره .

ومن أبرز الكتب التي دخلت الأندلس آنذاك كتاب العين للخليل بن أحمد، وقد درّس هذا الكتاب في تلك الأرض المباركة، وحصل به نفع كبير، هنا بدأ يظهر شيئاً فشيئاً التأسيس للمدرسة الصوتية في علم المعاجم، ذلك أن كتاب العين للخليل من الكتب الأولى التي دخلت الأندلس، والقالي بعده أبدع البارع وهو على نهج الخليل قد ألفه، أي اتبع فيه النظام الصوتي، ثم إن كتاب سيويوه رائج أيضاً هناك يتلقفه اللاحق عن السابق تدريساً ورواية.

هذا وقد تفاوتت هذه الكتب من حيث الرواج والقبول، فمثلاً كتب المعاجم الصوتية لم يظهر أثرها بوضوح إلا بعد زمن معتبر، لكن الذي أسس له أبو عبيد القاسم بن سلام (224هـ) وابن قتيبة (276هـ) في الغريب، سطع نوره مباشرة ظهرت كتب الغريب على المنوال.

وذكر بعض الرواة أن وهب بن نافع (273هـ) أخذ كتب أبي عبيد عن علي بن ثابت، وأبي جعفر محمد بن وهب المسعري، وهو أول من أدخلها الأندلس، وأول من أخذت عنه ثم أدخلها الخشني بعده¹. واهتم الأندلسيون بكتاب العين للخليل، وإنّ قاسم بن ثابت وأباه أول من أدخله الأندلس². وقد دخلت نسخ أخرى بعد ذلك.

د- هجرة التجار والجنود الذين يُرسلون إلى الأندلس للفتوحات الإسلامية أو لتأمين البلاد، فهؤلاء أيضاً لهم نصيب من الحركة العلمية، ذلك أنّ هؤلاء الجنود مثلاً ليسوا على مستوى واحد من الناحية الثقافية، ففيهم المثقف والذي يحفظ القرآن والحديث، وبعض الفنون الأخرى. وكذلك الحال بالنسبة للتجار الوافدين، فقد يبيع بعضهم النسخ النادرة للمؤلفات المشرقية الأولى بأثمان مربحة، لأنهم يعرفون قيمة هذه الكتب، والأندلسيون متعطشون للعلم وفنونه والاستزادة منه.

هـ- مساندة الخلفاء ودعمهم لمن يتولون نشر العلم والدعوة إليه، وفي بعض الأحيان تجدد الخلفاء والأمراء بحاجة ماسة لاختيار مؤدبين لأولادهم، وكذلك الاستئناس ببعض العلماء في مجالس الحكم والقضاء.

و- الاختلاط والقراءة عن طريق المصاهرة، فالوافدون من المشرق إلى الأندلس بعد قطعهم لهذه المسافات الطويلة، لا بد أن يتخذوا سكناً يأوون إليه في هذه البلاد الجديدة ومن ثمة تكون المصاهرة،

¹ انظر: تاريخ علماء الأندلس، ابن الفريسي، ص 23-24.

² طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 284.

وكذلك الحال للمغاربة الذين ذهبوا إلى المشرق، فمدة التحصيل قد تطول ويلزم الطالب أن يتخذ أهلاً من تلك المنطقة.

ز- **فريضة الحج وأداء العمرة:** هذه من أكبر الفرص التي يلتقي فيها الطلاب وغيرهم بالعلماء الذين يقطنون أقاليم مترامية قد لا يفكر الإنسان في الوصول إليها، لكن هذه الفريضة تجمع المسلمين من شرق وغرب ومن شتى أصقاع العالم.

ح- **الاستنساخ:** ونقصد به استنساخ الكتب، فهذا الأمر لا يحدث إلا بعد تقييم هذه الكتب المؤلفة، ورغم انعدام الوسائل المساعدة في ذلك، إلا أنّ النساخ تحدوا كل الظروف المعيقة، وحاولوا وضع نسخ للكتب الهامة والقريبة النفع.

ط- في هذه القرون الأولى للفتح الإسلامي، كان بعض العلماء حفاظاً لفنون شتى من العلوم، وهنالك من الطلبة الرواة أيضاً من لديه ملكة حفظ فهو راوٍ فقط، ويقولون: ربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، فهم درجات: عالم حافظ، وعالم، وطالب علم، راوٍ فقط، وفي كلّ خير.

والأسباب التي أدت إلى عملية التأثير والتأثير بين المشرقيين والمغربيين في مجال اللغة عموماً والمعاجم منها على وجه الخصوص كثيرة جداً، ولا يستطيع أن يُحصيها مُحصٍ، وقد ذكرنا بعضها منها، لكن اللافت للانتباه حقاً هو أنّ قبل مرحلة أبي علي القالي (356هـ) في الأندلس، كانت هناك صورة مشرقة منعكسة لما أبدعه المشارقة هناك إلا أنّ التأثير قد ظهر في بعض المجالات دون الأخرى، أمّا في مرحلة القالي وما بعده ظهر التأثير جلياً في مجالات أخرى، ثم إنّ التعليم للفنون أصبح أكثر تنظيماً، وأوسع انتشاراً، حتى إنه ليشمل عامة الناس في المساجد، ودور العلم، وغيرها بدل اقتصره على التأديب لذوي السلطان والشأن ومن حرص على تعليم أبنائه يسعفه الجانب المادي في ذلك، وهذا الأمر كان لا يتوفر إلا لفئات قليلة من الناس.

ثانياً- مظاهر التأثير والتأثير بين المشرق والمغرب في المجال المعجمي:

في المشرق أول ما ظهرت المعاجم ظهرت معاجم الموضوعات باعتبار الرسائل الإفرادية ذات الموضوع الواحد، وقد كان نوع من هذا التأليف أو أشبه ما يكون به أطلق عليه العلماء لاحقاً مصطلح كتب الغريبين، وهم في الحقيقة يقصدون غريب القرآن الكريم، وغريب الحديث النبوي الشريف، وهذا الأمر مسير لكتب غريب اللغة المبنية على الموضوعات، ومن أول ما ألف فيها "الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ).

ولقد ذكرنا سابقاً أنّ تأثير الأندلسيين بكتب الغريب لأبي عبيد، وابن قتيبة كان أسرع من الكتب الأخرى، ومن أوائل ما ظهر في البلاد الجديدة الأندلس كتاب الدلائل لقاسم بن ثابت (302هـ). ثم توالى بعده الكتب في هذا المجال وغيره لعلنا نتعرض لشيء منها على النحو التالي:

1- "الدلائل" لقاسم بن ثابت (302هـ)

رحل إلى المشرق مع أبيه، وعني بجمع الحديث واللغة. وبلغ من جودته أن نال عليه ثناء العلماء... وروى الخريدي عن القالي أنه قال: "لم يؤلف بالأندلس كتاب أكمل من كتاب ثابت في شرح الحديث..."¹.

لقد تبوأ قاسم بن ثابت مكانة علمية مرموقة، فهو محدث لغوي فقيه جمع بين عديد الفنون وأجاد فيها، فقد شهد له مترجموه بالقدم في العلم ومعرفة الغريب والنحو والشعر والإمامة في الحديث والفقه مع الورع والزهد والذكاء المفرط².

أما عن الكتاب فيسوق المؤلف فيه الأحداث والآثار في الغالب مسندة. وإسناد المؤلف على قدر من العلو، فقد رحل إلى المشرق هو وأبوه، فسمع بمصر من الإمام أحمد بن شعيب النسائي، وأحمد بن عمرو البزار ومحمد بن جعفر الرافقي أبو بكر بن الإمام، وسمع بمكة من عبد الله بن علي الجارود، ومحمد بن علي الصائغ، وموسى بن هارون الحمال، وغيرهم³.

فقاسم بن ثابت في الدلائل يأتي بالأحاديث مسندة غالبا ثم يفرد اللفظ الغريب والمراد شرحه فيشرحه ويستشهد له من كلام العرب وفي مقدمتها الأشعار، إن التأليف اللغوي الأندلسي قبل بداية التأليف المعجمي كان يسيرا، ثم إنه على قلته لم يكن له وجود واقعي في أغلب الأحيان، ذلك أن الكتب منسوبة لأصحابها تذكرها المصادر غالبا دون عنوان، فتنسبها إلى مجالها العلمي فقط.

ومن الكتب التي علمت في ذلك مايلي:

- تأليف في النحو لجودي النحوي .
 - كتاب في العربية ألفه ابن غزالة .
 - كتاب مصنف في اللغة على نهج أبي عبيد ألفه حصيب الكلبي .
 - تأليف في النحو لأبي بكر بن خابط المكفوف .
 - كتاب في شرح كتاب الكسائي لأبي الحسن مفرج بن مالك النحوي الملقب بالبغل.
- ويلاحظ على صنيع قاسم بن ثابت في هذا الكتاب أنه لا يرتب الألفاظ الغريبة، إنما يأتي بالحديث ومتى اعترضته كلمة غريبة سعى في شرحها.

¹ النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص 35.

² كتاب الدلائل، قاسم بن ثابت، تح: محمد بن عبد الله القناص، مكتبة العبكان، الرياض، ط1، 1422هـ - 2001م، 2/1، مقدمة المحقق، ص2.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وقاسم بن ثابت أثناء معالجته للفظة الغريبة، وفي الاستشهاد لها قد يكون في الشاهد أيضا لفظ غريب، فيشرحه، وهذا ربما السبب في ضخامة كتابه بالإضافة إلى غزارة المادة المتعلقة به. وإليك ما استهل به قاسم بن ثابت "الدلائل"¹:

وقال في حديث النبي ﷺ أنه أتى بعُلالَة شاة، فأكل منها ثم صلى، ولم يتوضأ*: يرويه سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن جابر.

قوله: بعُلالَة شاة يريد بشيء يسير كان قد فضل منها
وقال الراجز: أَجْمَلُ أُمِّي وَهِيَ الْحَمَالَة
تُرْضِعُنِي الدَّرَّةَ وَالْعُلالَة
ولا يُجَازِي والدَ فَعَالَة

قال أبو زيد: العلالة: اللبن بعد حلب الدرة تنزله الناقة. والأم تُعَلِّل صبيها بشيء من المرق واللبن وأنشد:

وقال الذي يَرْجُو الْعُلالَة ورعوا
عن الماء لا يُطْرَقُ، وَهِنْ طَوَارِقُهُ
فَمَا زِلْنِ حَتَّى عَادَ طَرَقًا وَشَبْنَهُ
بَأَصْفَرِ تَدْرِيبِهِ سَجَالًا أَيَانُفُهُ
وأخبرنا أبو الحسين، عن أحمد بن يحيى، عن ابن الأعرابي قال: التعللة والتعلل واللهم واحد، وأنشد:
غَنِينَا فَأَفْنَيْنَا النَّهَارَ تَعْلَةً
بِإِرْقَاصِ مِرْقَالٍ تَحَبُّ وَتَعْنُقُ
لَهَا مِنْ رَدِيفٍ كَانَ لِدُنَّا رِدَافُهُ
وَدُو رُقْعٍ مِنْ خَمْرِ عَانَهُ مُتَاقُ
"لها" أي: من اللهم، و"ذو رقع" يريد رزقا. وألهاه ذو رقع أيضا.

وقال الأسود بن يعفر:

أَلَا هَلْ لِهَذَا الدَّهْرِ مِنْ مُتَعَلِّلٍ
على الناسِ مهما شاءَ بالناسِ يَفْعَلُ
وهذا رِدَائِي عِنْدَهُ يَسْتَعِيرُهُ
لِيَسْلُبَنِي نَفْسِي، أَمَالُ بْنُ حَنْظَلٍ
وكتاب الدلائل كان قد سبقه كتابان فيما تذكره المصادر إلا أنهما فقدوا، الأول كتاب عبد الملك بن حبيب السلمي (239هـ)، والثاني لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني (286هـ).

¹ المرجع السابق، ص 1-5.

* والحديث: حسن لغیره، وللحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحيح لغيره. قاله المحقق في الحاشية، ص 2.

2- كتب الأفعال

وقد كان أقدمها ظهوراً بالأندلس هو كتاب "فعلت وأفعلت" للقالي لكنه ضاع، ثم يليه كتاب ابن القوطية (367هـ)، ومن المحتمل أن يكون ابن القوطية تلميذاً للقالي فأفاد منه، في وضع كتابه المسمى (كتاب الأفعال)، ثم ظهر التأليف في هذا النوع على يد أبي عثمان سعيد بن محمد السرقسطي المعروف بابن الحداد المتوفى سنة (400هـ)، وأبي مروان عبد الملك بن طريف (400هـ)، وكلاهما من تلاميذ ابن القوطية، فعملما في كتابيهما على تهذيب وإكمال ما صنعه أستاذهما¹، وهنا نعرض مثالا على هذا النوع من التأليف:

- (كتاب الأفعال) لابن الحداد:

معلوم أن ابن الحداد تلميذ لابن القوطية، وكتابه هذا فيه نية إكمال ما جاد به الأستاذ، وترتيب مواده، وزيادة ما فاتته، حيث ملأه بالشواهد من القرآن والحديث والشعر وكلام العرب، فهكذا توسع حيث أوجز ابن القوطية.

قال ابن الحداد ملخصاً صنيعة بكتاب أستاذه:

وأيضاً فإنه إنما كان غرضه - رحمه الله - في هذا الكتاب: (فعلت وأفعلت) خاصة وترك ما جاوز ذلك من الأفعال الرباعية الأصلية مثل: دحرج وسلهب وما جاوزها بالزيادة مثل: اقشعرّ واحرنجم ومثل احماز واشهاب.

فلما رأيت الكتاب قد اختل من هذه الجهة، مع ما رأيت من فضله، وأنه قد بدّ فيه الأولين والآخرين أفردت له عنايتي، وجعلت له حظاً من نظري بعد تصحيح روايتي إياه على مؤلفه - رحمه الله - فتلا فیت ما اختل منه بإلحاقه وتردد ذكره، وبسط تفسيره، وألحقت به الأفعال التي ترك ذكرها من الرباعية وما جاوزها. وألحقت في كل باب منه ما لم يذكره. إذ الإحاطة ممتنعة عن البشر. ولخصت ما وقع منها في غير موضعه بنقله إلى الموضع الذي هو أحقّ به ليخفّ على الدارس ويسهل فيه وجدان لفظه على الطالب وليكون الكتاب كاملاً مقتضياً للمعنى الذي قصد به إليه².

ولمّا كان كتاب الأفعال لابن الحداد السرقسطي أهم كتاب أندلسي للأفعال وصل إلينا لشموله سائر أنواع الأفعال، وترتيب مواده. وقد رأينا التوقف عنده وبسط إجراءاته المنهجية فيما يلي:

- رتب ابن الحداد كتابه على مخارج الحروف على النحو الذي اختاره "سيبويه"³ فجاء ترتيبه على الوجه الآتي: هـ ع ح خ غ ق ك ض ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م وي.

¹ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص100.

² انظر: المرجع نفسه، ص101.

³ كتاب الأفعال، السرقسطي، تح: حسين محمد محمد شرف ومحمد مهدي علام، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (دط)، 1395هـ - 1975م، ص25، مقدمة المحقق.

نموذج من كتاب الأفعال للسرقسطي (ابن الحداد) :

الهمزة (فَعَلَ وَأَفْعَلَ بمعنى) .

(أَجَرَ): قال أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أَجَرَهُ اللهُ أَجْرًا، آجَرَهُ، وكذلك أَجَرْتُ المملوك، والأجير، وآجَرْتُهُمَا أعطيتُهُمَا أَجْرَهُمَا.
(أَدَمَ): وأدم الله بينهما أدمًا، وأدم حُبب بعضهما إلى بعض، وكذلك: أدمت بين القوم، وأدمت: أصلحت، وأدَمْتُ الطعام، وأدمته، جعلت فيه إدامًا.
وأنشد أبو عثمان:

إِذَا مَا الْخَبْرُ تَأْدُمُهُ بِلَحْمٍ فَذَاكَ أَمَانُهُ اللهُ الشَّرِيدُ
(أَمَرَ): وأمر الله الشيء أمرًا، وأمره: كثره.
(أَدَبَ): وأدبت القوم أدبًا وأدبة وآدبتهم: صنعت لهم طعامًا، واسمه المأدبة.
وأنشد أبو عثمان:

فَأَدَّبْتَنَا الْجَوَافِلُ كُلَّ يَوْمٍ وَبَعْضُ النَّاسِ أَدَّبَتْهُ انْتِقَارُ
وقال طرفة:

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ
قال أبو عثمان: هي المأدبة والمأدبة: لغتان.

وفي الحديث: "القرآن مأدبة الله، فَتَعَلَّمُوا مَا دُبَّتْهُ"¹. يروى بفتح الدال وضمها (رجع)².

3- معاجم الألفاظ الأندلسية المتأثرة بالمعاجم المشرقية:

وإذا ذكر الدارس معاجم الألفاظ فإن أول ما يستهل به كلامه في كتب الشرق والغرب الإسلامي كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ)، فهو أولها تأليفًا، وصاحبه رائد المدرسة الصوتية في المعاجم، ومما لا شك فيه -ونحن بصدد ذكر قضية التأثر والتأثير- أن الطلاب الذين رحلوا من المغرب والأندلس إلى المشرق قبل القرن الرابع الهجري، كانوا قد اتصلوا به، وتعرفوا عليه، بسبب شهرته الواسعة، والرواج الذي حققه في ذلك الزمن، وإملاءات الشيوخ، ذلك أنه مرجع في اللغة بالنسبة لهم كيف لا، وقد تلقى اللغة عن العرب في البوادي البعيدة مشافهة في أعلى درجات التَّحَمُّل.

¹ هذا حديث موقوف، صححه الشيخ عبد الله بن يوسف الجديع، قال: ولم يثبت مرفوعًا، وانظر: المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف بن جديع، مؤسسة الريان، مركز البحوث الإسلامية ليدز - بريطانيا، ط1، 1422هـ - 2001م، ص460.

² كتاب الأفعال، السرقسطي، ص65-66.

لقد أضاءت إشعاعات المدرسية الصوتية في الأندلس، ولعلّ أوّل معرفة لكتاب العين لهم كانت أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الهجري، هذا على التحقيق عند أصحاب المصادر التاريخية والتي ترجمت لكثير من علماء الأندلس نحاة ولغويين، فقد قال أبوبكر محمد بن حسن الزبيدي: (379هـ) في ترجمة ثابت بن عبد العزيز السرقسطي وابنه قاسم "...وهما أول من أدخل كتاب العين بالأندلس..."¹. وقد كانت رحلة هذين الرجلين إلى المشرق للسمع من علمائه سنة (288هـ)، ثم عادا بعد مدة، فتوفي قاسم سنة (302هـ)، وأعقبه والده ثابت سنة (314هـ)، ويحدثنا الزبيدي في طبقاته بعد ذلك فيقول: إن أحمد بن بشر بن الأغبس (326هـ) وعبد الملك بن شهيد (جد أبي عامر الشاعر) قد تمالآ على عفير بن مسعود (317هـ) واستخرجا من كتاب العين حروفاً مهمة، ونسخاً من ذلك دفترًا خاصًا، ولقباه بالكتاب، وأغريا به عليه، ولسنا ندري هل النسخة التي عاد إليها الرجلان هي نفسها نسخة قاسم وأبيه ثابت المذكورة، أم أنهما كانا يتوفران على نسخة ثانية، والاحتمال الأول أقوى لقرب العهد بالنسخة الأولى².

ويعر على هذه الفترة زمن طويل ويتولى الحكم أمر الخلافة، وهو من أقطاب الثقافة الإسلامية وأعلامها في القرن الرابع، محبًا للعلم شغوفًا به مكرما لأهله، وخطه وتعليقاته حجة عند العلماء، فيحدثنا التاريخ أن خزانته العظيمة كانت تتوفر من هذا المعجم على نسخ عديدة، ولكننا لا نعرف منها سوى نسختين: أولاهما نسخة ثابت التي مر ذكرها، وهي مستنسخة بمكة، وقد آل أمرها إلى هذه الخزانة. وثانيتهما نسخة القاضي منذر بن سعيد البلوطي (355هـ) التي كان قد قرأها وكتبها بالقيروان وحين دخل إلى مصر قابلها بنسخة ابن ولاد (332هـ)، يقول الزبيدي: "فهذا كتاب منذر بن سعيد الذي كتبه بالقيروان وقابله بمصر بكتاب ابن ولاد وكتاب ثابت المستنسخ بمكة. قد طالعتها في خزانة أمير المؤمنين..."³. ولما كانت نسخ خزانة المستنصر تكتنفها الأخطاء والتصحيقات، وأحب أن يستخرج منها نسخة مصححة ومعتمدة، عمد إلى تكوين لجنة رباعية، وعهد إلى القالي برئاستها، وإلى ثلاثة من أشهر تلاميذه بالاشتغال في عضويتها، هؤلاء الثلاثة هم: أبو بكر محمد بن الحسين الفهري، ومحمد بن أبان بن سيد، وأخوه أحمد بن أبان بن سيد اللخميان. وجعل مقر هذه اللجنة دار الملك بقرطبة، وكان الحكم نفسه يتردد عليها بين الحين والآخر ويتفقد أعمالها³.

¹ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 584.

² المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 13-14.

³ المرجع نفسه، ص 14.

لقد يسر الله مهمة هذه اللجنة، وتحقق مأمول الحكم بأن أخرجت له نسخة مقابلة عن عدة نسخ سعوا فيها إلى التحقيق في الأمر العلمي ما أمكن .

لقد ظهر أثر الخليل في معاجم الأندلس بشقيها المعاني والألفاظ، لكن الأخيرة أكثر تأثراً في المادة والمنهج، ذلك أن معاجم الألفاظ الأندلسية الأولى بداية من القرن الرابع الهجري واستهلاً بصنيع القالي (356هـ) كانت تحكم النظام الصوتي المخرجي في ترتيب المواد. وهنا نسوق بعض المعاجم الأندلسية اللفظية التي بدا فيها التأثير بالمعاجم المشرقية واضحاً.

أ- البارع لأبي علي القالي (356هـ) :

إذا كان عين الخليل الأول شرقاً فإن بارع القالي الأول غرباً، لكن مع فارق يحسب للخليل؛ ذلك أنه مبدع هذا النظام الذي حكم فيه القوانين الصوتية، وأتى بالتقاليب على غير مثال سابق، فالقالي وإن خالفه، في ترتيب الحروف إلا أنه لم يخرج عن النظام العام لهذه المدرسة، بل إن الرجل تتحقق فيه الصفات العلمية بما يؤهله إلى أن يكمل ما نقص في كتاب العين، وله من سمت وأخلاق العلماء ما يكفل له تحقيق التواضع، والتأدب مع أهل العلم والعلماء السابقين بالفضل، وفعلاً قد كان القالي السفير والممثل لهذه المدرسة المعجمية المشرقية في المغرب والأندلس، حتى إنه لما تصدر للتدريس ونفع أبناء الأمة الإسلامية لم يختلفوا عنه، وما من أحد سمع به وبخبره سعى إلى طلب العلم عنده مجازفاً بما يتركه خلفه من أهل وعيال ومال.

فالقالي كما أسلفت الذكر قد حافظ على أسس المدرسة الصوتية، فتمسك بالترتيب حسب المخارج الصوتية، واستهل معجمه ب (ه ع ق ح ط د ت)، كما أنه حكم الأبنية والتقاليب في بناء معجمه "البارع"، وقد جاء معجمه ضخماً، وصورة عاكسة لعمل الخليل المعجمي في هذه البلاد الجديدة الأندلس، والقالي يمثل حلقة هامة في الدرس اللغوي عمومًا في الأندلس، فهو عمل على نشر العلم والدعوة إليه وأقדרه الله على هذه المهمة ويسر الأمر في ذلك، فلقي الرجل لدعوته القبول.

وكان قد تتلمذ على أبي علي القالي طلاب كثر منهم من سمع خبره، ومنهم من لم يسمع، وأثر القالي فيمن تتلمذ عليه لغزارة علمه، ومن هؤلاء:

- محمد بن إبراهيم بن معاوية القرشي اللغوي الأندلسي: صحب أبا علي القالي وورق تصانيفه، ولد سنة (319هـ) ومات سنة (373هـ)¹.

- محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية القرطبي أبو بكر النحوي: مولى عمر بن عبد العزيز، والقوطية نسبة إلى القوط، وهم ينتسبون إلى قوط بن حام بن نوح؛

¹ النحو والنحاة - المدارس والخصائص - خضر موسى محمد محمود، ص172.

كانوا بالأندلس قبل الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام. قال ابن الفرضي: أصله من إشبيلية، وكان إماماً في اللغة العربية، حافظاً لها، مقدماً فيها على أهل عصره، لا يشق غباره، ولا يلحق شأوه، سمع من ابن الأغبس، وقاسم بن أصبغ، وأبي الوليد الأعرج، وخلائق. وكان حافظاً لأخبار الأندلس، ولم يكن ضابطاً للحديث ولا للفقه، ولا له أصول يرجع إليها، وطال عمره فسمع من طبقة بعد طبقة، وصنف تصارييف الأفعال، المقصور والممدود، تاريخ الأندلس، شرح رسالة أدب الكاتب، مات سنة (367هـ).

- محمد بن الحسن الزبيدي بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر أبو بكر الزبيدي الإشبيلي: صاحب طبقات النحويين، قال ابن الفرضي: "كان واحد عصره في علم النحو، وحفظ اللغة، أخذ العربية عن أبي علي القالي، وأبي عبد الله الرياحي، وأدب ولد المستنصر بالله، وولي قضاء قرطبة. وتوفي يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة سنة (379هـ)¹.

لقد كان البارع إذن، هو شارع باب التأليف المعجمي بالأندلس على مصراعيه، ولما كان لهذا المعجم صلة وثيقة بكتاب العين، فقد قامت حولهما معاً حركة خاصة من الدراسات، نهض بها تلاميذ القالي، وامتد صداها وتأثيرها إلى غيرهم وكانت هذه الحركة تنصب تارة على العين وحده، وأخرى على البارع وحده، وفي أحيان ثالثة تربط بينهما وتقارن²، وتستدرك وتقارب.

لقد أجاد القالي في عمله المعجمي المتمثل في "البارع" واحتفى به الأندلسيون احتفاء لا نظير له، وفي مقدمتهم تلاميذه، فهم حرصوا على التعلم على يديه، ومن ثمة نشر علمه، فتشير المصادر إلى أن الناس تناقلوه قبل أن تخرج مسوداته، وذلك عن طريق الرواية عن تلاميذه الحفظة، وأثبت ابن خير في فهرسته سنيين لرواية البارع ينتهيان لأكثر تلاميذه حفظاً وضبطاً هما أبو القاسم أحمد بن أبان بن سيد اللخمي، وأبو بكر الزبيدي³.

وهذا مظهر آخر يتجلى لنا فيه اهتمام الأندلسيين بالعلم والعلماء في القرن الرابع الهجري، حيث جعلت مؤلفات القالي منطلق الدراسات اللغوية. وقد دارت حول معجم البارع بصفة خاصة دراسات أذكر منها "جوامع كتاب البارع".

و"جوامع كتاب البارع" منسوب لتلميذ القالي أبي بكر محمد بن محمد بن الحسين الفهري نسبة إليه المراكشي في الذيل، وقال إنه وقف عليه ونقل منه في ترجمته لمؤلفه.

¹ تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 120/2-121.

² المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 41.

³ انظر: فهرسة ابن خير، ابن خير الإشبيلي، ص 434-435.

وهذا نص عبارته في ذلك: "روى عن أبي علي البغدادي واختص به، وكان وراقه ومنتسبه. روى عنه أبو خالد هاشم بن محمد التراس وأبو القاسم ابن الإفيلي.

وكان متقدمًا في حفظ اللغات والآداب وهو الذي تولى مع صاحبه في لزوم أبي علي البغدادي محمد بن معمر تخلص ما تخلّفه أبو علي غير مهذب من كتابه "البارع في اللغة" فاستخرجاه من أصوله التي بخطه وخطهما مما كانا قد كتباه بين يديه، وذلك ما عدا كتاب الحمزة وكتاب العين من الكتاب "البارع" فلمّا كُمّل رفعاه إلى الأمر به الحكم المستنصر بالله، وأراد أن يقف على ما فيه من الزيادة على النسخة المجتمع عليها من كتاب "العين" فبلغ ذلك ثلاثًا وثمانين وست مائة وخمسة آلاف كلمة. ذكر ذلك محمد بن الحسين الفهري المذكور في كتابه الذي سماه "جوامع كتاب البارع"¹.

ثم يواصل كلامه بقوله: "وقفت على ذلك الكتاب المذكور بخط كاتبه للحكم محمد بن علي بن محمد الأشعري المصري الورّاق؛ وقال في هذا الكتاب قال لنا أبو علي إسماعيل بن القاسم غير مرّة: قال لنا أبو بكر بن دريد وابن الأنباري: كتاب الألفاظ ليعقوب بضاعة، وكتاب "إصلاح المنطق" له أيضًا بضاعة... وقد قرأت بخط أبي علي الغساني على ظهر كتابي من الإصلاح بخط الغساني أيضًا ما نصه: ذكر أبو عبد الله محمد بن الحسين الفهري ورّاق أبي علي البغدادي في مقدمة كتاب "البارع" من تأليفه: قال لنا أبو علي إسماعيل بن القاسم غير مرّة: قال لنا أبو بكر بن دريد وابن الأنباري فذكر الكلام إلى آخره"².

ويرى بعض اللغويين المتأخرين في مجال المعجمية أن كلّ ما قاله المراكشي إن صحّ فسيكون معناه أن الفهري وضع أولًا كتابًا خاصًا سماه "جوامع كتاب البارع"، ولا نعرف ما فحواه³، سوى أن يكون تكملة أو حواشي على كتاب القالي، ثم وضع للبارع ثانيًا - بعد أن نقّحه وهذّبه مع زميله الجياني - مقدمة نقل منها الغساني ما رواه القالي عن شيخه: ابن دريد وابن الأنباري، ولم يصل إلينا على كل حال شيء من هذا أو ذاك. هذا إذا لم تكن العبارة الواردة في نص المراكشي، وهي قوله: "في مقدمة البارع من تأليفه" مصحفة وأن أصلها هو: "في مقدمة جوامع البارع من تأليفه" فلا يكون للفهري بناء عليه إلا عمل واحد⁴.

¹ الذيل والتكملة، المراكشي، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي، تح: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012، 191/4.

² المرجع نفسه، ص191-192.

³ وقد ذكر رمزي منير البعلبكي في مؤلفه التراث المعجمي العربي (من القرن الثاني إلى القرن الثاني عشر) حكمه على هذا الكتاب بقوله: "أما كتاب جوامع البارع، فلا نكاد نعرف عنه شيئًا إلا أن مصنفه هو محمد بن الحسين الفهري، وهو تلميذ أبي علي".

لكن يبقى هذا رأيه الخاص، وإلا فإنه مثبت.

⁴ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص46-47.

ومهما يكن من أمر فإن عمل الفهري المعجمي الثابت لا يخرج عن رسم صورة التأثير بالعمل المعجمي للمدرسة الصوتية في المعاجم العربية، تلك التي ظهرت في المشرق على يد الخليل ابتداءً، ووصل الحبل بين المشرق والمغرب القالي خليل الأندلس.

هذا منطلق الدراسات التي بنيت على بارع أبي علي القالي وقد توالى بعده الكتب في هذا المجال من مختصر ومطول، عبر الأزمنة المتعاقبة.

معلوم أن عمل القالي المعجمي خاصة في شق معاجم الألفاظ يمثل امتداداً لمدرسة الخليل، (الترتيب الصوتي والتقاليب)، والذي يتوغل من الباحثين والدارسين في دراسة قضاياها ومنهجها حتماً سيتعرض لما بناه الخليل، كيف لا وكتابه عمدة كتب المدرسة، فلقي حظه من الدراسة والتحليل.

ولقد اعتنى بكتاب العين للخليل أبرز تلاميذ أبي علي القالي، وهو الزبيدي (379هـ) صاحب "طبقات النحويين واللغويين"، حيث يظهر اهتمامه به في ما ألفه من "مختصر العين" و"استدراك الغلط الواقع في كتاب العين".

يقول الودغيري متحدثاً عن كتاب استدراك الغلط الواقع في كتاب العين: "وهو رسالة الزبيدي... وتوجد منها ثلاث قطع صغيرة لم يكن معروفاً منها سوى قطعة واحدة هي تلك التي احتفظ بها السيوطي في كتابه "المزهر" إذ نقل بالجزء الأول (ص79 وما بعدها) أغلب ما ورد بمقدمتها، ونقل بالجزء الثاني (ص381 وما بعدها) أبواباً من غير المقدمة. ولكن السيوطي كعادته قد تصرف في هذه النقول بالاختصار والانتقاء من النص الطويل أو المواد الكثيرة ما يقتضيه غرضه، وتتطلبه حاجته حتى إن الأمر ليصل إلى حد التشويه أحياناً.

أما القطعة الثانية -وهي أكبر القطع- فتقع في (34) صفحة وردت موزعة في ثنايا المخطوط الوحيد الموجود من كتاب "المستدرك في اللغة"، وهو نسخة القرويين رقم 64.

والقطعة الثالثة توجد أيضاً بالقرويين تحت رقم 118 ضمن مخطوط يضم 27 صفحة ولكن ما يتعلق بكتابتنا هذا لا يزيد عن خمسة عشر صفحة¹.

وهذا شيء مما ورد في استدراك الزبيدي والذي نقله السيوطي حيث قال: "ذكر بعض ما أخذ على كتاب العين من التصحيف. قال أبو بكر الزبيدي في استدراكه: ذكر في باب هَمَعَ: الهميع: الموت فصَحَّفَه؛ والصواب الهميع (بالغين المعجمة) .

¹ المرجع السابق، ص50-51.

وذكر في باب فقح: الفقاعي من الرجال: الأحمر، وهو غلط والصواب فُقاعي، يقال: هو أحمر فقاعي الذي يخالط حمرة بياض¹.

وذكر في باب عنك عرق عانق: أصفر، والصواب: عاتك.

وذكر في باب زعل:

الزُعْلُول: الخفيف من الرجال، وإنما هو الزُعْلُول (بالغين المعجمة) عن أبي عمرو الشيباني.

وذكر في باب معط:

المُعْط: الطويل، والصواب المُمْعَط (بالغين المعجمة).

وذكر في باب ذعر:

اندعر القوم: تفرّقوا، والمعروف ابْدَعَرَّ (بالباء)، والذي ذكر تصحيف.

وذكر في باب عفر:

معافر العرفط: شيء يخرج منها ماء مثل الصمغ، وإنما هي المغاير (بالغين المعجمة).²

فالزبيدي في كتابه هذا وإن كان مستدرّكاً فإنه لا يعدو أن يكون خادماً للكتاب وعاكساً لولوع بهذا العمل المعجمي الذي فتن به خلق كثير من شرق وغرب، وأوضح عن صورة تأثر بما قدمه الخليل في كتاب "العين".

يقول الودغيري: "إن كتاب "استدراك الغلط" ألف جواباً على طلب أحد الأصدقاء، للرد على خصوم الزبيدي في رأيه حول كتاب العين. فبعد أن يورد بالمقدمة سائر الأدلة العقلية والمنطقية التي استند إليها في ذلك الرأي، يقدم حججه النصية، بأن يستخرج من العين كل المواد التي وقع فيها الخطأ، ويرتبها ترتيباً معجمياً على طريقة الخليل نفسها، ثم يذكر إلى جانب كل مادة ما يراه صواباً، وينبّه على ما وجده عكس ذلك"³.

وسبب الجدل القائم بين الباحثين والدارسين حول هذا الكتاب هو أن المصادر التي تناولته، وفصلت القول في موضوعه وقضاياها ذكرته بأسماء متعددة ومختلفة، ولما لم يطبع الكتاب استقلالاً، ولم يلق عناية من مجمع أو هيئة لغوية فاعلة ذهب كل دارس يطرح القول فيه انطلاقاً مما وصله من عنوان ومعلومات ترجحت عنده بسبب أو بآخر.

¹ المزهر، السيوطي، 382-381/2.

² المرجع نفسه، 382/2.

³ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 51.

وبعضهم يرى أن الكتاب قد ظهر مجزأ، صفحات في هذا المؤلف وأخرى في ذاك وهكذا، ونظراً لتقارب عناوين كتب الزبيدي الخاصة بدراسة كتاب العين يعسر الجزم بأن هذه القطعة مثلاً مكتملة لهذا الكتاب.

ويذكر محقق كتاب لحن العوام للزبيدي - رمضان عبد التواب - مؤلفات الزبيدي، فعّد منها: استدراك الغلط الواقع في كتاب العين: وقال ذكره السيوطي في المزهري 79/1. ونقل منه مقدمته، كما اقتبس نصوصاً أخرى في المزهري؛ 34/1، 278/2، 77/2، 381/2، تحت اسم: "الاستدراك على العين" ويسمى في هدية العارفين 51/2، وجذوة المقتبس ص 9، الاستدراك على كتاب العين للخليل في اللغة، كما سماه صاحب الديباج المذهب 220/2: "غلط صاحب العين". ويسمى "المستدرك من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي البغدادي على كتاب العين للخليل بن أحمد" في فهرسة ابن خير، وفي كشف الظنون سماه "الاستدراك على كتاب العين"¹.

ويواصل رمضان عبد التواب ذكر مؤلفات الزبيدي فقال: "وله الانتصار على من أخذ عليه في مختصر العين" وهذا الكتاب ذكر في إنباه: 109/3، وتاريخ التراث العربي (2/8) 490. كما أن له رسالة أخرى بعنوان: رسالة الانتصار للخليل فيما ردّ عليه في العين، ذكره في إنباه الرواة: 109/3. وتاريخ التراث العربي (2/8) 490.

وله "مختصر كتاب العين" وهو مطبوع - أشهر من نار على علم - وهو عند الثعالبي في يتيمة الدهر 409/1. والديباج المذهب: 220/2...

وله "المستدرك من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي البغدادي على كتاب العين للخليل بن أحمد" ذكر ذلك ابن خير في فهرسته ص 350. والديباج المذهب: 220/2. "زيادة كتاب العين". ومنه نسخة مخطوطة في جامع القرويين بفاس 64 تاريخ التراث العربي (2/8) 490².

والمتتبع المعدد لكتب الزبيدي يرى أنه خصّ كثيراً منها بدراسة كتاب العين، وما جاءت به المدرسة الصوتية في المعاجم العربية، ثم إنه قد تسبب في مشكلة حين أورد تقارباً في عناوين كتبه من جهة، ومن جهة أخرى تعدد المسميات للمؤلف الواحد كما مر معنا في "استدراك الغلط الواقع في كتاب العين". وقد ظهر في القرن الرابع الهجري كتاب للزبيدي سماه اختصاراً "المستدرك في اللغة" وقد عرّج فيه على قضايا تمس الكتابين "العين" و"البارع".

¹ لحن العوام، الزبيدي، تج: رمضان عبد التواب، ص 26-27. مقدمة المحقق.

² المرجع نفسه، ص 27-30. مقدمة المحقق.

ووعده الزبيدي في صدر هذا الكتاب أن يحسن الاختصار، فلم يف بما وعد بل كرّر وطول حتى صار هذا الكتاب أكبر من كتاب الخليل. فدعت الضرورة إلى إعادة اختصاره ثانية، وتجرّد ألفاظه الزائدة. وليوقف على ما أغفله الخليل بغاية الإيجاز وليخف نسخه وحمله على الباحث عنه إن شاء الله.

والكتاب الذي بين أيدينا هو عبارة عن استدراك على "العين" من الزيادة الموجودة في بارع القالي وليس استدراكاً على مختصر الزبيدي كما يفهم من عنوان الغلاف الذي نصه (كتاب المستدرك في اللغة على مختصر العين وما لم يقع في كتابه استدرك هنا واستخرج من كتاب البارع ومن كتاب العين). ومما يؤيد ذلك أيضاً أن مضمون الكتاب إذ هو مختلف تماماً عن مضمون المختصر.

ونستخلص أمراً ثانياً هو أن شخصاً مجهولاً قد عمد إلى كتاب المستدرك بعد أن أتمه مؤلفه فشذب طوله، وحذف مكرره، واختصره، ولكنه، لم يصف إلى ما صنعه المؤلف شيئاً ولم يظهر فيه أي أثر لشخصيته، فنحن إذن أمام اختصار ولسنا أمام كتاب أصلي، أو قل نحن أمام النسخة الصغرى لا الكبرى¹.

وبالوصول إلى "المستدرك في اللغة" للزبيدي نكون قد قدمنا إضاءة حول المدرسة الصوتية في المعاجم العربية الأندلسية والتي ظهرت خلال القرن الرابع الهجري، عصر أبي علي القالي، وطيات كتب هذه المرحلة الزمنية تنضح بآثار مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليب والتي مثلها الخليل شرقاً والقالي غرباً.

ب- كتاب "الموعب في اللغة" لابن التياني² (436هـ) :

هذا الكتاب ثابت لابن التياني، لكن الأمر المشكّل المتعلق به في منهجه الذي رُتبت به مواد الكتاب، فالدارسون أثاروا حوله جدلاً كبيراً مردّه -والله أعلم- إلى تعدد عناوينه، فبعضهم يقول: "الموعب" وآخرون "الموعب في اللغة"، وآخرون: "تلقيح العين" و"تنقيح العين"، وآخرون قالوا: "فتح العين".

يقول حسين نصّار: "...والسبب في ذلك أن ابن حيان قال في صدد الترجمة له فيما يخيل إلي: "وله كتاب جامع في اللغة سمّاه "الموعب" بفتح العين. وسقط من العبارة لفظ (الموعب) فصارت تقرأ سماه بفتح العين، ثم حرّف إلى هذه الصور. وقد يجعلنا نظمنا إلى هذا العرض قول المؤرخين بأنه كتاب مشهور جمعه

¹ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 52-53.

² واسمه تمام بن غالب المعروف بابن التياني، أبو غالب المرسي، كان إماماً في اللغة، ثقة في إيراده، مذكوراً بالديانة والعفة والورع، وله كتاب مشهور جمعه في اللغة، لم يؤلف مثله اختصاراً أو إكتشافاً. قال ابن بشكوال في الصلة: كان بقية شيوخ اللغة الضابطيين لحروفها الحاذقين بمقاييسها، مات بالمريّة بأحد الجمادين سنة ثلاثة وثلاثين وأربعمائة (433هـ). وانظر: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، الحميدي، ص 260، وانظر: بغية الوعاة، السيوطي 479/1. وفهرسة ابن خير، ابن خير، ص 441-442.

في اللغة، ولم يذكر أحد أن له كتابين فيما عدا الاختلال في الاسم. ووصف الكتاب بأنه جم الفائدة... لم يؤلف مثله اختصاراً أو إكثاراً¹.

لما تناقلت الأنباء أن الزبيدي في "مختصر العين" قد أحل بكتاب العين كثيراً لحذفه شواهد القرآن والحديث وصحيح أشعار العرب منه.

يقول السيوطي: "ولما علم ذلك من مختصر العين الإمام تمام بن غالب المعروف بابن التياتي عمل كتابه العظيم الفائدة، الذي سَمَّاهُ بفتح العين، وأتى فيه بما في العين من صحيح اللغة الذي لا اختلاف فيه على وجهه، دون إخلال بشيء من شواهد القرآن، والحديث، وصحيح أشعار العرب، وطرح ما فيه من الشواهد المختلفة، والحروف المصحفة والأبنية المختلة، ثم زاد فيه ما زاده ابن دريد في الجمهرة؛ فصار هذا الديوان محتوياً على الكتابين جميعاً، وكانت الفائدة فيه فصل كتاب العين من الجمهرة، وسياقه بلفظه لينسب ما يحكى منه إلى الخليل، إلا أن هذا الديوان قليل الوجود..."².

وعوداً إلى قضية الجدل في ضبط عنوان مؤلف ابن التياتي هذا الجامع في اللغة كما قد مر معنا. فيقول يوسف عيد "لا شك في أن تسمية معجم ابن التياتي كانت بالتلقيح مرة وبالموعب مرة أخرى؛ لأنه فعلاً لفتح ونقح كتاب العين، وقد استوعب أيضاً الشواهد التي حذفها الزبيدي، كما اشتمل على الدقة والبراعة في التأليف والترتيب والتنقيح، على أن بعضهم كان يصفه أحياناً بالجامع"³.

وقال الشاري فيما نقله عنه السيوطي متأسفاً على عدم احتفاء الناس بالبارع والموعب فقال: "...لم يعرج الناس إلى نسخه بل مالوا إلى جمهرة ابن دريد ومحكم ابن سيده وجامع ابن القزاز، وصحاح الجوهري، ومجمل ابن فارس، وأفعال ابن القوطية، وابن طريف، ولم يعرجوا أيضاً على بارع أبي علي البغدادي، وموعب أبي غالب بن التياتي المذكور وهما أصح ما ألف في اللغة على حروف المعجم. والكتب التي مالوا إلى الاعتناء بها قد تكلم العلماء فيها"⁴.

وقال بعضهم: "إنه من أحسن الكتب المؤلفة على الحروف وأصحها لغة، وقد آخذه أبو علي الفارسي النحوي وأبو علي البغدادي القالي، وأبو سعيد السيرافي النحوي وغيرهم من الأئمة"⁵.

أمّا الباحث عبد العلي الودغيري فله رأي في "الموعب" انفرد به على أغلب الآراء المعروفة من أن "الموعب" كتاب من معاجم الألفاظ المرتبة على منهج الخليل الصوتي، فهو أقرّ أيضاً هذا الأمر سابقاً،

¹ المعجم العربي، حسين نصار، 301/1-302.

² المزهر، السيوطي، 88/1.

³ النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص141.

⁴ المزهر، السيوطي، 88/1-89.

⁵ المرجع نفسه، 89/1.

والآن تراجع عنه، واقتنع أنّ ابن التيازي قد رتب معجمه حسب مدرسة القافية، أو التقفية على نهج صحاح الجوهري.

فالدغيري يعتقد أن سبب توهم الباحثين - وهو منهم - أن الموعب سار على نهج الخليل والقالي في كتابيهما "العين" و"البارع" هو ما سقناه آنفاً من كلام السيوطي حوله، فذاك الكلام يوحي بأنه تهذيب لكتاب العين أو مختصر الزبيدي، وأنّ هذا التهذيب لم يتناول منهج الترتيب والتبويب، وإنما اقتصر على تحقيق مادة الكتاب، والتثبت من صحة الألفاظ والشواهد¹.

وسبب عدوله عن هذا الموقف واعتقاد بأنه فعلاً سار به صاحبه على منهج القافية هو أنه اطلع كما يقول على مقال كان للأب انستاس الكرملي وقد نشره بمجلته: (لغة العرب) المجلد 4، ج 1، تموز 1914) تحت عنوان: (الموعب معجم فُقد فُوجد)، ويقول وقد أطلعني زميلي عبد الجبار جعفر القزاز العراقي على ما كتبه هو عن هذا الاكتشاف الذي تم، فوجب بذلك العدول إلى الصواب والحق أحقّ بأن يتبع².

ومجمل ما ذكره الكرملي عن الكتاب حسب ما جاء به الدكتور القزاز نوره فيما يلي:

- عشر الكرملي على نسخة تامة من "الموعب" عند السيد حسن صدر الدين الكاظمي أحد علماء الكاظمية تقع في (124) ورقة من القطع المتوسط، وأعلن عن نيته في نشره حال حصوله على نسخة ثانية منه. ولم يتحقق هذا الأمل، بل لقد مات الرجل وأصبح الكتاب مرة أخرى من المفقودات³.

- وأشار الأب إلى خصائص نادرة وجدها في ضبط حروف هذه النسخة، واصطلاحات خاصة بنسخ الكتاب في رسم الحروف والحركات، ولا تخلو بعض الأوراق من انخرام وانثلام ذهب ببعض الألفاظ، لكن يسهل الاهتداء إلى معرفتها بمراجعة أمهات الكتب اللغوية⁴.

- كان المؤلف قد اتخذ طريقة خاصة في تبويب كتابه، وذلك أنه كان يأخذ كل وزن من أوزان الأفعال والأسماء، ثم يسرد جميع ما جاء في اللغة على ذلك الوزن مرتباً تلك الألفاظ مراعيّاً فيها آخر حرف من الكلمة ثم يورد الواحدة بعد الواحدة، ناظرًا إلى أولها بعد أن يكون قد حفظ في نفسه الحرف الأخير . وإذا تم فصل من الفصول ينتقل إلى فصل آخر، وكذلك ينتقل من باب إلى باب حتى يأتي إلى آخر ألفاظ الوزن فيتقدّم إلى وزن آخر، وهكذا يفعل إلى أن تتم جميع الأوزان.

¹ انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الدغيري، ص 63.

² المرجع نفسه، ص 63-64.

³ نفسه، ص 64.

⁴ الدراسات اللغوية في العراق، عبد الجبار جعفر القزاز، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، شوال 1399هـ - أيلول 1979م، ص 26-27.

- ويرى الأب أنستاس أنّ هذا المعجم من أغرب المعاجم؛ لأنه نحوي ولغوي، وعلى مثال لا نظيره إلى الآن فضلاً على أنه يحوي ألفاظاً وأبياتاً شعرية لا وجود لها في أكثر المعجمات التي بين أيدينا، وختم الأب مقاله بقوله: "وعسى أن نظفر بأخ له لمقابلته وطبعه وليس الأمر من المحال¹.

ووصل البحث فيه على نسخة من الكتاب الأصلي "الموعب" إلى طريق مسدود! حتى جاء المستشرق الألماني "فيشر" وقد ذكره في معجمه اللغوي التاريخي، وأشار إلى أن عددًا كبيرًا من المعجمات العربية القديمة التي صنفها العرب لا يزال موجودًا إلى اليوم، وأنّ المستشرق الانكليزي ادوارد وليم لين (صاحب معجم مد القاموس) عدّد في مقدمة معجمه العربي الانكليزي أسماء كثير منها، وذكر من جملة ما ذكر موعب ابن التياي، ولا ندري أكان اطلع على هذا المعجم أم لم يطلع².

ويرى الودغيري معزّزًا ببحث القزاز ومقالات الأب أنستاس، ومقدمة فيشر في المعجم التاريخي أنّ ابن التياي في "الموعب" لم يختلف عن طريقة الصحاح في ترتيب المداخل داخل كل وزن من الأوزان، وإن كان يختلف عنه التبويب، فالصحاح مبوّب حسب حروف الأبجدية والموعب مبوّب حسب الأوزان والأبنية، شأنه في ذلك شأن ديوان الأدب للفارابي³.

وهذا نموذج من "الموعب" من باب فعل يفعل بفتح العين من الماضي وكسرهما في المستقبل، يقول فيه⁴:

تَبَّ: إذا هلك تَبَابًا وتَبًّا.

وحبيته: حُبًا بمعنى أحبيته، وهذا شاذ لا يأتي يَفْعَل (بالكسر) في المضارع، وهو واقع، إلا أن يشركه يفعل (بالكسر).

ودبّ: الشيخ ديبًا إذا مشى رويدًا.

وزنّت: الشمس زوبًا إذا دنت للغروب.

وشبّ: الغلام شابًا.

وشبّ: الفرس أي قمص.

وضبّ: الماء ضبيًا: أي سال ويقال للرجل إذا اشتد حرصه على الشيء: تَضِبُّ لثأته. قال بشر بن أبي حازم:

وبني تميم قد لقينا منهم خيلا تَضِبُّ لثأتها للمغم

¹ المرجع السابق، ص 29-30.

² المرجع نفسه، ص 30.

³ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 64.

⁴ المرجع نفسه، ص 65.

وغبَّ: عندنا أي بات، ومنه سمي اللحم البائت: الغاب.

وعلى هذه النقول والتحقيقات التي قام بها الودغيري في شأن معجم ابن التياني "الموعَب" فلا غرابة إذن في خطأ من أدرجه ضمن مدرسة العين الصوتية.

فهو من المثال الذي بين أيدينا يتضح أنه من مدرسة القافية، أي الترتيب الألفبائي على أواخر الأصول، وإن كان قد أغرب في تحكيم الأوزان والأبنية.

ج- " الجامع في اللغة" للقزاز¹:

هذا الكتاب معجم عربي مغربي مفقود ولا تزال البحوث جارية عساها أن تظفر به أو ببعض قطعه، ولا تتوفر لحد الآن إلا قطعة واحدة، وصاحبه القزاز القيرواني سلك به منهج الترتيب الألفبائي على أوائل الأصول، فبعد أن كان الباحثون يتنقل ظنهم بين الشيباني والزخشي والبرمكي والهروي، كرائد ومبدع لهذه المدرسة، فتح عليهم باب آخر أشرف عليه القزاز القيرواني، بمعجمه "الجامع في اللغة"، وهو بهذا العمل المعجمي المنهج حتمًا ينازع السابقين الريادة إن لم نضعه على رأس المدرسة الألفبائية العادية في المعاجم العربية.

وقال الفيروزآبادي في ترجمة المؤلف: "صاحب كتاب الجامع، العديم النظير"².

وقال ابن خير الإشبيلي في حق كتاب "الجامع في اللغة": "هو كتاب لمحمد بن جعفر التميمي النحوي المعروف بالقزاز -رحمه الله- حدثني به الشيخ أبو محمد بن عتاب رحمه الله عن الشيخ أبي عمرو عثمان بن أبي بكر السفاقسي عبد الرحمان بن محمد بن جعفر النحوي عن أبيه عن مؤلفه"³. وهو كتاب كبير، يقال: إنه ما صنف في اللغة أكبر منه⁴.

قال القفطي: "...وله من التصانيف كتاب "الجامع في اللغة"، وهو أكبر كتاب صُنّف في هذا النوع. ومنه نسخة في وقف الفاضل عبد الرحيم بن علي بالقاهرة المَغْرِبِيَّة"⁵.

¹ واسمه محمد بن جعفر أبو عبد الله التميمي النحوي القيرواني المعروف بالقزاز، وقطع ألسنة المتأخرين، وكان مهيبًا عند الملوك والعلماء وخاصة الناس، محبوبًا عند العامة، قليل الخوض إلا في علم دين أو دنيا، يملك لسانه ملكًا شديدًا، وكان له شعر جيد مطبوع مصنوع ربما جاء به مفاكهة ومخالحة من غير تحفز له ولا تحفل، يبلغ بالرفق والدعة، على الرحب والسعة أقصى ما يحاول أهل القدرة على الشعر من توليد المعاني، وتوكيد المباني، بمفاصل الكلام، وفواصل النظام. وألف كتابًا في النحو بأمر من متولي إفريقية عسلوج بن الحسن الدخاوي، وهذا الكتاب مؤلف في الحرف الذي جاء لمعنى في النحو، ورتبه على حروف المعجم وأجاد فيه حتى استحق الثناء توفي سنة 412هـ. وانظر: إنباه الرواة، القفطي، 84/3-86.

² البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، تح: محمد المصري، ص 259.

³ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 444.

⁴ المرجع نفسه، الصفحة نفسها، الهامش.

⁵ إنباه الرواة، القفطي، 86/3.

والنقول الكثيرة التي جاءت عن كتاب "الجامع في اللغة" تؤكد أنه معجم لغوي بل ذهب بعضهم إلى موازنته بمعاجم أخرى، يقول ياقوت الحموي: "كتاب (الجامع في اللغة) وهو كتاب كبير حسن متقن يقارب كتاب (التهذيب) لأبي منصور الأزهري رتبته على حروف المعجم"، وضمّه السيوطي إلى كتب اللغة الأخرى، كالصاح للجوهري والتهذيب للأزهري، والمحكم لابن سيده¹.

هذا، وتكشف القطعة الوحيدة المتوفرة من "الجامع في اللغة" مع قرائن عديدة، عن ريادة القزاز في نضوج ترتيب أوائل الأصول ألفبائياً، في المعجم العربي.

والقطعة المخطوطة اشتملت على بعض كتاب الباء، وجاءت أصول الكلمات (الجزور) المستعملة كالاتي: [ب ي ت] / ب ي ج / ب ي د / ب ي ر / ب ي ز / ب ي ظ / ب ي ن / ب ي ص / ب ي ض / ب ي ع / ب ي غ / ب ي س / ب ي ش / ب ي ي.²

لكن ترتيبه لجزور ومواد معجمه كان قد اتبع فيه ترتيب المغاربة لا المشاركة، وقد أسلفنا الذكر في الاختلاف بين الترتيبين، ويكمن فيما بعد حرف الزاي في الترتيب الألفبائي الهجائي.

يقول محقق المخطوط أنور صباح محمد: إن القزاز ألف "الجامع في اللغة" قبل سنة (368هـ) بالنظر لما جاء في خاتمة المخطوط³. وهذا مما يقوى به حظه في ريادة المدرسة الألفبائية المألوفة في المعاجم العربية التي يحكمها الجدل قديماً وحديثاً.

والمحقق اعتمد على قطعة وحيدة فريدة، وهي مخطوطة في مكتبة جامعة هارفرد في الولايات المتحدة الأمريكية (برقم Ms Arab 438)⁴.

ينقل المحقق أنور صباح محمد عن القزاز في قطعته المخطوطة من كتاب "الجامع في اللغة" حيث يقول:

[ب ي ت]:

" وأبيات العرب ألا تراهم سَمُوا في أجزاءه الأوتاد والأسباب تشبهاً بأوتاد الخيمة وأسبابها، وهي الحبال، وقيل سمي بيتاً؛ لضمه الكلام والحروف كما يضم البيت من فيه.

وامرأه الرجل: بيته، ومنه قول الشاعر:

أَكْبَرُ قَدِ عَالِنِي أَمْ بَيْتُ

¹ الجامع في اللغة -قطعة من معجم مفقود، القزاز أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني، تح: أنور صباح محمد، معهد المخطوطات العربية، 21ش المدينة المنورة- المهندسين- القاهرة- جمهورية مصر العربية، ط1 (نشرة أولى)، 1441هـ-2019م، ص15-16.

² انظر: المرجع نفسه، ص16.

³ نفسه، ص18.

⁴ المرجع السابق، ص21.

ويسمون القبر: بيتًا، ولذلك قال الشاعر:

وعند الرِّدَاعِ بَيْتٌ آخَرَ كَوَثِرُ

يعني: قبره .

ومن هذا ما روي عن النبي ﷺ، أنه قال لأبي ذر: " ما تصنع إذا مات الناس حتى يكون البيت بالوصيف"¹.

فلم يُرد بالبيت مساكن الناس، وإنما أراد القبر، يريد: أن مواضع القبور تضيق فيبتاعون لموتاهم القبور، كُلُّ قبرٍ بوصيف.

وسمعت بعض البصريين يقول إلى هذا قصد أبو نواس في قوله:

أَجَارَةً بَيْتِنَا أَبُوكَ غَيُورٌ وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ

قال: كان سكناه بالقرب من المقبرة فجعلها أحد بيته، يريد: بيت الحياة وبيت الممات. وقيل: أراد بيت النسب وبيت السكنى، يقول كانت قريبة له في النسب، وكانت قرية المسكن فجعلها جارة البيت. وقال بعض الخذاق: إنما أراد بقوله: بيتنا، تعمية أمرها؛ لأنه لو قصد ناحية من جواره لعُرفت بذلك القصد، فعمى بقوله: بيتنا، على موضعها من الجوار.

وقد سمى الله - عز وجل - ما تصنعه العنكبوت بيتًا...².

ثم واصل القزاز شرح مادة (ب ي ت) حتى أكمله، وأعقبه بـ (ب ي ث) - أهملت، ثم (ب ي ج) استعمل منه:

انباجت على بني فلان بائجة أي: انفتق عليهم أمر، وهو من ذوات الواو، والجمع بوائج: وهي الدواهي، ومنه قول الشاعر:

قَضَيْتُ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِجٌ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفْتَقِ

يريد: بالبوائج ها هنا: الدواهي³.

وما يلاحظ على القزاز القيرواني في معالجته لمواده اللفظية أنه متأثر باصطلاح الخليل في ثنائية (المهمل والمستعمل)، لكن التالي أبدع حين ذكر المستعمل فقط ونص على ذلك، فهو كما ترى في أول مواده (ب ي ت) لما استعملت العرب في كلامها هذا الجذر بمعانيه المتعددة باختلاف السياقات التي

¹ انظر: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (293/13 برقم 5960) والتعليقات الحسان (364/8 برقم 5929) بلفظ: "كيف تصنع إذا..."، وانظر: تهذيب اللغة (248/12 و334/14). ومعالم السنن للخطابي (313/3).

² الجامع في اللغة - قطعة من معجم مفقود- القزاز القيرواني، تح: أنور صباح محمد، ص26.

³ انظر: المرجع نفسه، ص27-28.

تنتظم فيها الكلمات وشاع استعماله، دخل في المعالجة مباشرة قال: "وأبيات العرب..."، وأما في جذر (ب ي ج) لما كانت نسبة استعماله قليلة صدرّ المادة بقوله: "استعمل منه..." كما مرّ.

والرجل ذو حافظة لا يستهان بها، وحضرة بديهة تظهر في أنواع شواهد التي استأنس بها لتشفع لمعانيه المذكورة في شرح الألفاظ، فهذا القدر يسير لكنه حمل الشعر والحديث وإيماءً للقرآن الكريم في بيت العنكبوت. والله أعلم.

إن المعاجم العربية المغربية والأندلسية ظهر فيها التأثير بالمعجمات المشرقية بشكل واسع، فبعد المسافة والظروف المعيقة خاصة الحروب لم توقف حركة التأثير والتأثير اللغوية بين المشرق والمغرب، بل إنّ الرحلات وهي الأسباب الكبرى لهذا الأمر بقيت مستمرة لأزمنة متأخرة، ومظاهر وصور التأثير مختلفة بين المعجمات، فهناك من اعتمد مدرسة معجمية معينة يسير وفق نهجها المرسوم مسبقاً في المشرق، وهناك من تأثر ببعض المصطلحات فقط دون المنهج بل أبدع منهجاً خاصاً مثل الذي فعله القزاز القيرواني.

هذا وإنّ مما يتحسر عليه المرء هو أنّ كثيراً من المؤلفات في المعاجم العربية قد فقدت وضاعت بسبب أو بآخر سواء أكان في المشرق أو المغرب أو الأندلس.

الفصل الثاني

أبو علي القالي وجهوده اللغوية

المبحث الأول: ترجمة لأبي علي القالي

المبحث الثاني: أبو علي والتأليف اللغوي

المبحث الثالث: دور أبي علي القالي البغدادي في بعث الحركة اللغوية والأدبية
بالأندلس

المبحث الأول: ترجمة لأبي علي القالي:

لقد احتفل أهل التراجم والسير من قدامى ومحدثين بشخصية معجمية بارزة من أعيان القرن الرابع الهجري، هذه الشخصية تعتبر عند كثير من الباحثين جسراً واصلاً بين الشرق والغرب في علم اللغة بخاصة، إنه أبو علي القالي البغدادي اللغوي.

أولاً- المولد والنشأة

هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون - بعين مهملة وياء آخر الحروف ساكنة ثم ذال معجمه بعدها واو ساكنة ثم نون - بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان، مولى الخليفة عبد الملك بن مروان، أبو علي البغدادي المعروف بالقالي - بالقاف - نسبة إلى قالي قلا، بلد من أعمال أرمينية.¹ وقد ولد القالي عام (280 هـ) في " ملازجرد " التابعة إلى أرمينية،² وهي بلدة كردية ألحقت إدارياً بأرمينية، وهي الآن تابعة لتركيا.

وتقع على رافد من روافد نهر "صو" والتي ينسب ياقوت الحموي أهلها إلى الروم والأرمن.³ ولم نقف على شيء من أخبار هذه البلدة التي ولد بها القالي غير ما تشير إليه بعض المصادر من أنه غادرها في رفقة من أهل قالي قلا (ارزن الروم - ارضروم) أحد الثغور فغلب اسم هؤلاء الرفقة عليه، ومنهم أخذ لقبه،⁴ وكانت مغادرته " ملازجرد " من ديار بكر عام (303 هـ).⁵ ولا يُعرف عن نسب القالي شيء سوى سلسلة هذه الأسماء المذكورة سلفاً، وولائها لبني أمية على اختلاف أكان الولاء لعبد الملك بن مروان أم لابنه محمد،⁶ والراجح أن يكون الولاء لعبد الملك، هذا إن ثبتت قضية الولاء أصلاً.⁷

¹ بغية الوعاة، السيوطي، 1/453. وقد اختلف في نهاية نسبه عند جده المذكور أخيراً أهو سلمان أم سليمان ؟ وانظر: طبقات الزبيدي، ص 186، وبغية الوعاة المتقدم ذكره، ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص 729. فهؤلاء كلهم أثبتوا (سليمان)، وأما الأنساب، السمعاني، 4/435، وتاريخ علماء الأندلس، ابن الفريسي، 1/120 فقد أثبتا (سلمان).

² طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 186، وملازجرد و" ملازجرد " لها صيغتان باللام، والنون، وقد أثبت ياقوت الأخيرة، إذ قال: ملازجرد: بعد الألف زاي ثم جيم مكسورة، وراء ساكنة، ودال، وأهله يقولون: " ملازکرد " بالكاف، بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم، يعد في أرمينية. وانظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، 5/202.

³ انظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ بغية المتلمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، الضبي، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1410هـ - 1989م، 1/284.

⁵ تاريخ علماء الأندلس، ابن الفريسي، 1/120.

⁶ نعم، هناك من يثبت الولاء لمحمد بن عبد الملك - ابن الخليفة مثل: الأنساب للسمعاني 4/435، لكن أغلب المصادر تثبت ولاء جده (سلمان / سليمان) للخليفة عبد الملك نفسه، وانظر: البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت لبنان، (د.ط)، 1412هـ - 1991م، 11/264. ووفيات الأعيان، ابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1398هـ - 1978م، 1/226، وغيرها.

⁷ انظر: البارغ في اللغة، القالي، تح: هاشم الطعان، مكتبة النهضة، بغداد - دار الحضارة العربية، بيروت، ط1، 1975م، ص 11. المحقق.

والقالي روابطه ببلدته ضعيفة، حتى إنه لم يذكرها إلا قليلاً وعندما طلب منه ذلك، والظاهر أنه غادر مع أسرته ولم يترك في بلده الأصلي شيئاً ذا قيمة يحن إليه، أو تحدثه نفسه بالعودة إليه. إن رغبة القالي في العلم وأهله كانت بدافع ديني، إذ أن بيئته الأولى كانت بيئة حرب، ولا تساعد على إعمال الفكر وتنميته لذلك غادرها عجباً، وشيء آخر يميز هذه المنطقة فإنك لو نقبت على من ينسب إليها من العلماء لما ظفرت إلا بأقل من القليل، وتشير المصادر إلى أنه بعد أكثر من قرن وقف ابن بلدة القالي "أبو نصر المنازي" كتباً كثيرة على جامع ميفارقين وجامع آمد، وهي إلى الآن موجودة بخزائن الجامعين، ومعروفة بكتب المنازي، فبقيت تحمل اسمه، وتذكر على مدى قرنين على الأقل.¹

وقد كان القالي أحفظ أهل زمانه للغة - ووصف بها وإليها نسب، إذ يقال: أبو علي القالي اللغوي - وأرواهم للشعر الجاهلي، وأحفظهم له، وأعلمهم بعلم النحو على مذهب البصريين، وأكثرهم تدقيقاً له.²

ثانياً - رحلاته وحياته العلمية

إن المتتبع لسيرة العالم اللغوي أبي علي القالي يقف على حقيقة هي أنه مرّ بثلاث مراحل في حياته يبدو أنها متقاربة زمنياً إلى حد ما، استهلالاً بما مكث فيه بمسقط رأسه (ملازجرد / منازجرد) بتركيا، وكانت تلك المنطقة تعاني ندرة العلماء، ولم يستفد الرجل منها شيئاً يذكر، وقد تولدت لديه الرغبة في طلب العلم فعجل بمغادرة البلد الأول قاصداً البلد الثاني "بغداد" عساه أن يظفر بما كان قد أمله قبل من طلب العلم، فحقق - الله سبحانه وتعالى - أمانيه في ذلك وتعلم على كثير لردح غير قليل من الزمن، ثم إنه انتقل لما حصل العلم من بغداد إلى البلد الثالث ألا وهو الأندلس، ولئن كان الرجل قد خرج في سبيل الله ويسر الله له طلب العلم وتحصيله فإنه قد أنفقه تعليماً لأبناء المسلمين في البلاد الجديدة الأندلس.

1- الرحلة إلى بغداد:

كانت قبلة القالي العلمية -بغداد- لكنه لم يذهب إليها مباشرة، وإنما حطّ الرحال هو والنفر الذين انحدر معهم بالموصل أولاً حيث لقي أبا يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلية محدث الموصل،³

¹ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، 143/1.

² انظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 185.

³ جذوة المقتبس، الحميدي، ص 232.

وأبو يعلى هذا ليس هو أول مشايخه، إذ تذكر المصادر أن له شيخاً ب (منازجرد/ ملازجرد) في صباه، تعلم على يديه مبادئ التعليم الأولى، وفيما أخذه عليه المثل العربي الجاري: (إن البغاث بأرضنا يستنسر)، هذا الشيخ يدعى أبا المياس، وقد صحفت المياس إلى العباس. وانظر: الزهر، السيوطي، 491/1. والأماي، القالي، ص 180، والبارع، القالي، تح: هاشم الطعان، ص 11، المحقق.

فأخذ عنه - وكان أبو يعلى قد جاوز التسعين - وعن غيره، ثم بداله فتوجه إلى بغداد كان ذلك سنة (305 هـ).

أقام القالي في بغداد حوالي ربع قرن، والملاحظ على هذا الرجل أنه كان كلما تحرك إلى بلد تحركت معه أوصافه ونسبته، فقد قيل: القالي نسبة إلى قالي قلا، ومنها إلى البغدادي نسبة إلى بغداد، إلى أن استقر على الأندلسي نسبة للأندلس بلد القرار إلى الموت. فيقال إجمالاً: أبو علي القالي البغدادي الأندلسي. وقد يضيف بعضهم وصف اللغوي تمييزاً له عن أبي علي الفارسي الذي يوصف بالنحوي.¹

لقد وفد القالي من البدو إلى الحضر، فحياة المدينة تختلف عن البادية لكنه استطاع التكيف مع البلد الجديد، والأمر الذي ساعده على ذلك أنه لم يكن يأبه لهاته الظروف الخارجة عن المجال العلمي، وإن كان لها تأثير، فقد قال ابن فارس رحمه الله²:

إذا كان يؤذيك حرُّ المصيفِ وكربُ الخريفِ وبرُّ الشتاءِ
ويُلهيك حُسْنُ زمانِ الربيعِ فأخذك للعلمِ قُلٌّ لي متى

وهذه الحاضرة التي عاش فيها القالي خمساً وعشرين سنة يطلب العلم كانت تمثل عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك (بغداد)، وكانت الخلافة بيد العباسيين، ببغداد كأنها مرجل يغلي لكثرة فتنها، ولقد تقلد الحكم مدة بقاء القالي ثلاثة خلفاء، وهم: المقتدر بالله أبو الفضل (إلى 320 هـ) وقد توفي مقتولاً، ثم القاهر بالله أبو منصور (إلى 322 هـ) وقد خلع وسمت عيناه، ثم بويع الراضي بالله أبو العباس³، فهذه المرحلة من التاريخ الإسلامي تطبعها الفتن التي تموج كقطع الليل المظلم، وصراع على الزعامة والخلافة، حتى إنه ليقتل الأخ أخاه أو أباه ولا يبالي، ومثل هذا يذوب القلب من كمد، وهذا الاضطراب السياسي بدوره قد انعكس سلباً على الحياة الاجتماعية للرعية، فقد ظهر الفقر، وغلاء الأسعار، وتأخر في دفع الأجور، وظلم رجال الشرطة للعامة، وأحداث الشغب بين الحين والآخر، ثم إن الساحة الدينية أيضاً عرفت بعض الاضطرابات، فمعلوم ما حصل بين المعتزلة وأهل السنة في قضية خلق القرآن، ثم ما جاء به الحلاج مما يقدح في العقيدة الإسلامية الصحيحة وكان سبباً في قتله سنة (307 هـ)، وكذا فتنة أخرى بين الحنابلة وسواهم في تفسير آية، وغيرها.

هذا، ورغم الاحتلال في البنية التحتية للدولة الإسلامية طيلة بقاء القالي في بغداد (305-328 هـ)، إلا أن البنية الفوقية والتي تمثلها العلوم والثقافات بقيت مستمرة، والطلاب يفتدون إلى بلاد العلماء محتسبين

¹ انظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 186.

² مجمل اللغة ابن فارس، ص 29، مقدمة المحقق.

³ انظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي، دار الفكر، بيروت - لبنان، (د.ط)، 1424 هـ - 2004 م، ص (350 - 362). والبارع، القالي، تح: هاشم الطعان، ص 12 - 15، المحقق.

غير مبالين بما يحصل من هذه الفتن، وربما يرى بعضهم أن أكبر الفتن الجهل ولا نجزم بعدم تأثيرها بل قد أثرت ومات بعض العلماء، وربما حيل بين المتعلم والمعلم بسجن أحدهما، لكن من عرف قيمة العلم فإنه يبذل الغالي والرخيص من أجله وهكذا كان القالي فلم تزعزعه هذه الاضطرابات، ويسر الله له أمره في طلب العلم.

إن الله - سبحانه وتعالى - قد منّ على القالي بأن هياً له أسباب تحصيل العلم، فقد التقى القالي بعلماء كثر ذوي اختصاصات شتى، وقلماً يتسنى لطالب العلم مثل ما حظي به القالي، لذا جاءت علومه غزيرة ومعارفه كثيرة، ترجمت في تخرج طلاب ذوي كفاءات خاصة في الأندلس، ثم إنه حفظ ما حصله من علوم في كتب لا تعبر في الحقيقة عن سعة اطلاع هذا الرجل، فشخصيته العلمية أكبر من ذلك بكثير، ولكنه أجاد حين دَوّن ما تعلمه حتى يسر الله به النفع.

— شيوخه:

تلقى القالي تعليمه الأولي على يد شيخ ينصرم أغلب الظن على أنه منازي أي ينسب إلى "منازجرد" بلد القالي الأول، وعلى عادة الطلاب أنهم يتلقون تعلمهم الأول من حفظ القرآن خاصة بالكتاتيب وإن كانت قليلة في كثير من الأحيان في تلك البلاد البعيدة "أرمينية"، هذا الشيخ يسمى "أبا المياس" وقد صُحّف كما أسلفت فورد في بعض المصادر على أنه "أبو العباس" وهو ليس كذلك على الصحيح.

ثم إن القالي لما غادر "منازجرد" من "ديار بكر" متيمماً "بغداد" في حاجة ماسة للاستزادة من طلب العلم، كان قد حط الرحال مع رفقة له بالموصل ابتداءً، فلقي هناك محدث الموصل أبا يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلية¹. ولا ندري أوقع ذلك الأمر اتفاقاً أم قصداً وإلى الأخير نميل.

فبدايات طلب العلم للقالي في العراق كانت في مجال الحديث النبوي الشريف، لكنه أخذ ما أخذ عن شيخه الأول في الحديث أبي يعلى الموصلية وسرعان ما توغل قاصداً بغداد، ذلك أن الأخبار توحى بوفرة العلماء فيها، وأن تلقي العلوم هناك شبه منتظم، فكانت الحلقة الراتبة في مساجد بغداد، ودور العلم، فالعلماء أنفسهم يقصدون هذه الحواضر الأهلة بالسكان ليعم النفع بالعلم لجميع المسلمين، فهم يعون المسؤولية الملقاة على عاتقهم في نشر الدعوة بالعلم النافع والعمل الصالح، وإذا كانت الحال هذه عند العلماء فما على الطلاب إلا أن يرحلوا إلى ديار العلم والعلماء، وإنّ من لم يحصل علماً فلا يعدم أجراً وخلقاً وسمتاً.

فالقالي أصاب ما كان يبحث عنه منذ زمن هناك فشمر على مساعد الجد في التحصيل، فكانت بدايته مع علم الحديث.

¹ انظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 186.

ومن أخذ عنهم القالي الحديث كما هو في رواية تلميذه البارز الزبيدي: - صاحب الطبقات - لما سأل شيخه القالي عن نسبه. حيث ذكر نسبه ومولده ثم قال: "... ورحلت إلى بغداد سنة ثلاث وثلاثمائة فأقمت بالموصل وكتبت عن أبي يعلى¹ الموصلي وغيره، ثم دخلت بغداد سنة خمس وثلاثمائة، فأقمت بها إلى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة أكتب الحديث، فممن كتب عنه أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، وأبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب القاضي، وأبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي المعروف بابن بنت منيع، وإبراهيم بن عبد الصمد بن موسى الهاشمي من ولد الإمام، وأحمد بن إسحاق بن البهلول القاضي، وأبو عبد الله الحسين القاضي، وأبو عبيد وأخوه القاسم، أبا إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الضبي المعروف بابن المحاملي، وأبو بكر محمد بن يوسف بن يعقوب بن بهلول الأزرق الكاتب، وأبو بكر أحمد بن محمد البستنبان²، وابن قطن الإسكافي، وأبو سعيد الحمر بن علي بن زكريا بن يحيى العدوي³."

وإنما أردنا هنا هذا العدد الكبير من المحدثين لنبين قيمة دراسة علم الحديث عند أبي علي القالي، وأن مصادره في ذلك كثيرة ومختلفة، وأن الأمر كان منه قصداً.

فعلم الحديث النبوي الشريف يتطلب التحصيل فيه إلى حافظة، وحضرة بديهة، ولغة فصيحة تسعف طالب العلم لإدراك غايته، والحقيقة أن كل العلوم تتوقف على الدراية باللغة أولاً ثم تحصيل الفن الذي يرغب فيه طالب العلم، فاللغة هي وسيلة العلوم بمختلف أنواعها، لكن العلوم الشرعية حاجتها أكثر إلى سعة اطلاع في اللغة، كيف لا وأنت حينئذ ستنقل عن رسول الله ﷺ كلامه، وقد قال بعض النحاة يخشى على من يلحن في النحو ويتعلم الحديث بزعمه أن يدخل في عموم قوله ﷺ⁴: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»⁵.

وقد قال بعضهم فيمن أراد طلب الحديث وليس له من علم الآلة أي اللغة شيء:

مِثْلُ طَالِبِ الْحَدِيثِ وَلَيْسَ لَهُ آلَاتُ
كَمِثْلِ بَغْلٍ عُلِقَتْ لَهُ مَا مِنْ شَعِيرٍ فِيهَا مِخْلَافَةٌ

ولما كانت اللغة العربية بهذه الأهمية في طلب الحديث النبوي، عكف القالي على تعلمها وطلبها آخذاً بأسباب تحصيلها، ومن درس عليه علم العربية كما يذكر تلميذه الزبيدي عنه لما سأل، قال:

¹ انظر: دول الإسلام، الذهبي، تح: حسن إسماعيل مروة، تقلم: محمود الأرناؤوط، دار صاد، بيروت - لبنان، ط1، 1999 م، 277/1.

² « هذه الكلمة تقال: البستان بان، يعني الذي يحفظ البستان والكرم »، وانظر: الأنساب، 347/1.

³ انظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 186-187.

⁴ انظر: في أصول النحو، سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي، بيروت، (دط)، 1407هـ-1987م، ص 52-53.

⁵ رواه البخاري (1229، 107)، ومسلم (3004)، وانظر: معالم البيان في الحديث النبوي، عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، ص 90.

«وسمعت الأخبار واللغة من أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري، وأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، وأبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه، ومن أبي بكر محمد بن السري السراج النحوي، ومن أبي بكر محمد بن شقير النحوي، ومن أبي إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج النحوي، ومن أبي الحسن علي بن سليمان بن الفضل الأحفش، ومن أبي بكر محمد بن أبي الأزهر، ومن أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستوية¹، أخذت منه كتاب سيويه عن المبرد، ومن أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة أخذت منه كتب أبيه، ومن أبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد المقرئ، قرأت عليه القرآن بحرف أبي عمرو بن العلاء غير مرة، وأخذت كتابه في القراءات السبع وغير ذلك، ومن أبي عمر محمد بن عبد الواحد المطرز غلام ثعلب، حدثنا عن ثعلب، ومن أبي بكر محمد بن عبد الملك التاريخي، ومن أحمد بن يحيى المنجم النديم، أخذت منه كتب أبيه وغير ذلك، ومن الطوسي أبي علي الحسن بن علي بن نصر، أخذت منه كتاب الزبير بن بكار في النسب، ومن الدمشقي أحمد بن سعيد، ذكر لي أنه سمع منه»². هذا، ويذكر ابن خير الإشيلي خبراً تفرد به، وهو أن القالي قد رحل إلى سامراء، وقرأ هناك كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ) على الأنباري أبي بكر محمد بن القاسم حيث قال: "ابتدأت بقراءة هذا الكتاب على أبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري سنة سبع عشرة وثلاث مئة يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة في مسجده على باب داره في درب البقر بسر من رأى، وأكملته يوم الثلاثاء لحمس مضمين من ذي القعدة سنة إحدى وعشرين، وكانت قراءتي عليه في الثلاثاوات، وكانت مدة قراءتي إياه عليه أربعة أعوام وأربعة أشهر وسبعة عشر يوماً"³.

ثم إن القالي لما أنهى قراءة «الغريب المصنف» شرع في قراءة «الألفاظ» لابن السكيت على الشيخ نفسه «الأنباري» في أول ثلاثاء بعد إتمام الغريب المصنف قراءة⁴.

2- الرحلة إلى الأندلس:

بدأت رحلة القالي من بغداد إلى الأندلس سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة، والدواعي التي جعلته يقرر الرحيل من بغداد والتي تعد آنذاك حاضرة العلم والعلماء إلى بلاد جديدة على المسلمين (الأندلس) مختلف فيها، لكن يحتمل أن تكون قد اجتمعت أسباب عدة لذلك فكان لزاماً عليه أن يرحل، فمثلاً الحاجة إلى

¹ وأخير القفطي أنه قرأ على ابن درستويه كتاب سيويه أجمع، واستفسره جمعه، وناظره فيه، ودقق النظر، وكتب عنه تفسيره، وعلل العلة، وأقام عليها الحجة، وأظهر فضل البصريين على الكوفيين، ونصر مذهبه على من خالفه من البصريين أيضاً، وأقام الحجة. قال أبو علي: وقرأ معي الكتاب أجمع أبو جعفر بن أبي محمد بن درستويه تعليماً ورواية. وانظر: إنباه الرواة، 240/1.

² انظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 187.

³ فهرسة ابن خير، ابن خير، ص 406.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص 408.

ما يصلح شأنه من قوت وعيال وغيرها، وإن كنا نراها أمراً مرجوحاً، فقد عاش الرجل ظروفًا أصعب من ذلك في أوائل الطلب خاصة لما يختل الأمن بالبلاد وتقع الفوضى والفتن.

وبعضهم يرى بأن الرجل رحل إلى الأندلس بغية التفرد هناك وحصول الشهرة¹، وقال آخرون يرجع الأمر لحالة نفسية اعترته لما توفي شيخه ابن دريد (321 هـ). فقد نسب إليه قوله: لا أرجو أن أقيم بعده في بغداد².

وكل ما تقدم ذكره في تحديد أسباب هجرة القالي إلى الأندلس يعتبر خبط في عماية فلا دليل يدل عليه، ولا أثارة من علم ترشد إليه، فهو في مقام الاحتمال والظن والتخريص.

لكن ما يدور في أذهاننا ونحن نستصحب النية الحسنة تجاه عالم لغوي هو عله اعتقد أنه لما ثنى الركب عند العلماء في المشرق طلباً للعلم، وبه حقا قد سما رأى أنه يلزمه أن ينفقه على من يحتاجه في الغرب الإسلامي فقصد الأندلس.

وشيء آخر يحس به العالم هو أن الإنسان إذا أراد طلب العلم فحتمًا تكون نيته رفع الجهل عن نفسه وعن إخوانه من المسلمين، حتى يوفقه الله سبحانه وتعالى في تلك الغاية النبيلة، ولما كان عمر الإنسان محدوداً وليس بيده، ربما خاف أن يضيع عناء السنين في التحصيل ولا يتسنى له أن ينفع المسلمين بعلمه فكانت الأندلس قبلته.

ولا ننفي أن يكون للأسباب السياسية دور في ذلك، فمن المعلوم عند المؤرخين أن الفترة التي رحل فيها القالي إلى الأندلس فترة حكم، عبد الرحمان الناصر، وكان ابنه الأمير أبو العاص الحكم بن عبد الرحمان محبا للعلم وأهله، فهو من تشير المصادر إلى أنه قد طلب منه الإتيان إلى الأندلس، بل ألح عليه فحصل المقصود. وقد أشار الحميدي إلى ذلك إذ قال: "ووصل إلى الأندلس سنة ثلاثين وثلاث مئة في أيام عبد الرحمان الناصر، وكان ابنه الأمير أبو العاص الحكم بن عبد الرحمان من أحب ملوك الأندلس للعلم، وأكثرهم اشتغالا به، وحرصاً عليه، فتلقاه بالجميل، وحظي عنده، وقرب منه، وبالع في إكرامه، ويقال إنه هو كان قد كتب إليه ورغبه في الوفود عليه"³.

¹ البارع، القالي، ص 22. المحقق، نقلا عن: الحركة اللغوية في الأندلس، ص 199.

² انظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلا عن الأمالي للدقاق، ص 09.

³ جذوة المقتبس، الحميدي، ص 232.

ولما انطلق القالي في رحلته التي دامت ثلاث سنوات تقريباً، وإن كنا لا نملك وافر معلومات تبين تفاصيلها غير بعض الإشارات القليلة التي تحيل إليها بعض المصادر، وأغلب المعلومات يتوصل إليها استنتاجاً، فهو في قصيدته التي مدح بها الناصر كان قد ذكر في طريق الرحلة هيت، وتدمر، وبردى¹، ويغلب الظن على أنه لم يتوقف في الشام، حيث كانت الأخيرة عدا الرملة بيد محمد بن رائق، كما أنه يمكن أن يعزز هذا التخمين بعدم ترجمة ابن عساكر له، وقد ترجم لأقل منه شأناً ممن أُم بالشم.

ولا شك أن القالي في رحلته هذه نحو الغرب الإسلامي كلما مر ببلدة وكانت له فيها حاجة علمية استوففته حتى يقضيها، فقد نزل بمصر، وهذا الخبر كان قد أثبتته القفطي مع شيء من مبالغة فقد وصفه بنزيل مصر²، ولربما توهم السامع في هذه العبارة أنه مكث طويلاً ولم يكن الأمر كذلك.

والتدريس بمصر وقت دخول القالي كان بيد عالمين مشهورين تلمّذاً على بعض شيوخه ولعله التقى بهما في بغداد أيام الطلب أو بأحدهما: فأولهما أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المعروف بابن النحاس³ وثانيهما أبو العباس أحمد بن محمد بن ولّاد⁴، وقد ذكر في طريق رحلته سرت، وقابس، والقيروان، وهذه الأخيرة كانت حاضرة علم وعلماء وقتذاك.

ولما غادر القالي مصر — أرض الكنانة — مر بسرت، وقابس، ووقعت له حادثة غريبة غامضة أثناء توقفه في القيروان فقد على إثرها شيئاً من كتبه⁵.

ثم خرج من القيروان متحسراً على ما فقدته من علم بتلك الكتب التي فقدت، وتوجه غرباً نحو الساحل حيث دخل بجاية في رجب سنة ثلاثين وثلاث مائة⁶ وفي هذه المرة تغيرت رحلته فكانت عبر البحر قاصداً الأندلس، وما إن وصل إلى بر البلاد الجديدة حتى وجد ابن رماحس عامل الأمويين على تلك الديار في استقباله بأمر من الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر في وفد من وجوه رعيته⁷، وكان دخول القالي إلى قرطبة — وهي العاصمة للخلافة كما أنها دار الحديث والعلوم — سنة ثلاثين وثلاثمائة لثلاث ليال بقين من شعبان، واستقبل الرجل بحفاوة وألقى في أول دخوله على الناصر قصيدة مدحه بها⁸.

¹ انظر: البار، القالي، تح: هاشم الطعان، ص 22. المحقق. وهي طريق رحلة أبي نواس إلى الخصب الذي فصل فيها في قصيدته التي مطلعها:

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

² إنباه الرواة، القفطي، 239/1. وإنما التوهم مكمنه في صيغة نزيل على وزن فعيل، أي صيغة مبالغة.

³ انظر: بغية الوعاة، السيوطي، 362/1.

⁴ المرجع نفسه، 386/1.

⁵ عنون ابن خير ب تسمية كتب الشعر وأسماء الشعراء التي وصل بها أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي إلى الأندلس، سوى ما تزايل عنه وأخذ بالقيروان منه. وانظر: فهرسة ابن خير، ابن خير الإشبيلي، ص 483.

⁶ إنباه الرواة، 244/1.

⁷ نفع الطيب، المقرئ، 70/3.

⁸ انظر: تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، ص 121.

ويتحدث القالي عن رحلته بقوله: لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمر به من أهل فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم بحسب تفاوتهم منها بالقرب والبعد كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاصة ومقايضة فقلت: إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في إفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم فسأحتاج إلى ترجمان في هذه الأوطان¹.

قال ابن بسام: "فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذكائهم"².

استقر المقام بالقالي في قرطبة دار العلوم³ في عهد هو من أفضل عهود الأندلس إن لم يكن أفضلها، كيف لا وأهم معايير التحضر هو العلم، وهذا السبب متوفر، ثم إن الخليفة ومن بعده ولي عهده الحكم يريعيان العلم والعلماء من خلال المتابعة للأمر العلمية، والعناية بالعلماء وما يصلح أحوالهم⁴، لإدراكهما لقيمة العلم في حياة الأمم وعمرانها، مستلهمين ذلك كله ممن سبق في هذا المجال .

والقالي على درب من تقدمه من العلماء يسير، فهو لما استقر بقرطبة شرع في نشر العلم والتدريس، وتصدره هذا لم يأت من فراغ وإن كانت له عناية خاصة من الساسة إلا أن الرجل محمود السيرة العلمية، فهو معروف حين كان في المشرق قبل أن يفد إلى الأندلس ونزوله بقرطبة، وبداية التدريس عنده كانت في جامع الزهراء بقرطبة على بني الملوك وغيرهم في الأخمسة حيث أملى كتابه الممتع المسمى «الأمالى»⁵.

ولقد كان إقبال التلاميذ عليه منقطع النظير لعلمهم بأهمية العلم ومحاوره العلماء يقول القائل في هذا:

كَذَا إِذَا مَا جَاوَرَ الْعُلَمَاءَ طِفْلاً
يَكُونُ إِذَا نَشَأَ عَالِماً أَدِيباً

¹ البارع، القالي، تح: هاشم الطعان، ص 24. المحقق.

² الذخيرة، ابن بسام، 15/1.

³ هذا الوصف العلمي لقرطبة مغلد في الذاكرة الأندلسية، ويحسن الاستئناس هنا بما قاله أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس مفقودة المسلمين:

وَأَيْنَ قُرْطُبَةَ دَارِ الْعُلُومِ فَكَمْ مِنْ عَالَمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانٌ

وانظر: رثاء الأندلس، أبو البقاء الرندي، جمع: أبو عبد الله عيسى بن محمد بن إبراهيم الشامي، كنوز الأندلس، (دط)، (دت)، ص 30.

وقال بعده ابن طعمه في نفس الغرض بحرقة:

هَلْ تَرْجِعُنَ لَنَا يَا عَهْدَ قُرْطُبَةَ فَكَيْفَ نَبْكِي وَقَدْ جَفَتْ مَاقِينَا

وانظر: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، دار مكتبة الحياة، (دط)، (دت)، 551/3.

⁴ لقد كان القالي يحضر بلاط الناصر في المناسبات المرموقة، وقد دعي سنة ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة لإلقاء خطبة بمحضر وفد صاحب القسطنطينية فارتج

عليه. وانظر: نفع الطيب، المقرئ، 364/1.

⁵ فهرسة ابن خير، ابن خير الإشبيلي، ص 403.

ومعلوم أن العلم بالتعلم، ولا يتأتى التحصيل فيه إلا بالأخذ بأسبابه، وأهمها حضور مجالس العلماء، والأخذ عنهم مباشرة دون واسطة، لذا كان إقبال طلاب الأندلس على العلم لما سمعوا أبا علي تصدر للتدريس بقرطبة، إقبال من أحب شيئاً ويرى أنه لا يثني عزمه على إدراكه أي ظرف من الظروف المعيقة لطلبه، فكان لهم ما أملوا بين مقلّ ومستكثر.

يقول ابن الفرضي مشيراً إلى تدريس القالي بقرطبة للطلاب وغيرهم ومبيناً مدى استفادتهم: «ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلاثمائة، فسمع الناس منه، وقرأوا عليه اللغة والأخبار، والأمالى. وعظمت استفادتهم منه إلى أن توفي رحمه الله»¹.

— تلاميذه:

وقد أخذ عنه العلم تلاميذ كثر، منهم من ذكر في المصادر ومنهم من سقط اسمه، وفي طليعة من أخذ عن القالي هارون بن موسى بن جندل القيسي النحوي الأديب، يقول ابن بشكوال: في خبره: "يكنى أبا نصر، سمع من أبي عيسى الليثي، وأبي علي البغدادي، وغيرهما..."².

وأخبر ابن بشكوال فقال: "قرأت بخط أبي علي الغساني رحمه الله قال لي الفقيه أبو الخرم بن عليم، قال لي أبو بكر محمد بن موسى البطليوسي، المعروف بابن الغراب: قال لي أبو نصر هارون بن موسى بن جندل النحوي: كنا نختلف إلى أبي علي البغدادي — رحمه الله — وقت إملائه «بجامع الزهراء» ونحن في فصل الربيع، فبينما أنا ذات يوم في بعض الطريق، إذ أخذتني سحابة، فما وصلت إلى مجلسه — رحمه الله — إلا وقد ابتلت ثيابي كلها، وحوالي أبي علي أعلام أهل قرطبة، فأمرني بالدنو منه . وقال لي: مهلاً يا أبا نصر، لا تأسف على ما عرض لك، فهذا شيء يضمحل عنك بسرعة، عليك بثياب غيرها تبدلها..."³. فما أصبر هؤلاء على التحمل في سبيل الطلب.

وأشهر تلاميذه الذين ثبت لهم التحصيل على يديه أبو بكر الزبيدي. قال ابن خلكان: "وأخذ عنه أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي صاحب مختصر العين"⁴.

¹ تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 1/121.

² الصلة، ابن بشكوال، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة — دار الكتاب اللبناني — بيروت، ط1، 1410 هـ — 1989 م، مجلد 11، 2/982.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/226.

ومن أخذ عنه أيضاً: أبو عبد الله بن الربيع بن عبد الله التميمي، وأحمد بن أبان بن سيد. يقول الضبي في ذلك: "سمع عنه جماعة، وحدثوا عنه، منهم: أبو عبد الله بن الربيع بن عبد الله التميمي، ولعله آخر من حدث عنه، وأحمد بن أبان بن سيد"¹.

وقد أخذ عنه سعيد بن عثمان بن سعيد البربري، قال ابن بشكوال: "يعرف بابن القزاز، ويلقب بلحية الذبل، روى عن قاسم بن أصبغ، ومحمد بن عبد الله بن أبي دُلَيْم ... وأبي علي البغدادي، وأبي محمد بن عثمان، وخالد بن سعد، وأجاز له جميعهم ما روه"². بل أقرّ بأنه كان من أجل أصحاب أبي علي البغدادي³.

ويعتبر أبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب النحوي أكثر تلاميذه رواية لكتبه والغريب المصنف لأبي عبيد، وقد أتى به القالي من المشرق⁴.

وهو أحد الثلاثة الذين صحت من طريقتهم اللغة في الأندلس بعد القالي، إذ يقول القفطي بعدما ترجم لأبي عثمان اللغوي البربري سعيد بن عثمان بن سعيد المتقدم ذكره: "وكان ثقة من أجل أصحاب أبي علي القالي، ومن طريقته صحت اللغة بالأندلس بعد أبي علي، ومن طريق أبي علي بن أبي الحباب وأبي بكر الزبيدي"⁵.

وهنا أذكر شخصيتين خاصتين بأبي علي وكتابه «البارع».

فأولاهما: محمد بن معمر مستملي أبي علي (377 هـ)، وهو الذي أسهم في إخراج كتاب «البارع» من المسودة⁶.

وثانيهما: أبو عبد الله محمد بن الحسين الفهري غلام أبي علي، حيث لازم أبا علي حتى نسب إليه لطول ملازمته له وانتفاعه به، وقد أسهم أيضاً في إخراج كتاب البارع من المسودة⁷.

ومن درس عليه النحو عبد الله بن حمود، أبو محمد الزبيدي من أهل إشبيلية، من مشاهير أصحاب أبي علي، وهو من الذين رحلوا إلى المشرق للاستزادة من طلب العلم بعد ما حصل النحو من أبي علي، ولم

¹ بغية المتلمس، الضبي، 283/1.

² الصلة، ابن بشكوال، 328/1/11.

³ المرجع نفسه، 329/1/11.

⁴ انظر: فهرسة ابن خير، ابن خير الإشبيلي، ص 406، والصلة، ابن بشكوال، 255/1/11.

⁵ إنباه الرواة، القفطي، 46/2.

⁶ التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2011، 28/2.

⁷ جذوة المقتبس، الحميدي، ص 78.

يعد إلى الأندلس¹. وقد سمع منه إبراهيم بن عبد الرحمان التنسي، دخل الأندلس وسكن مدينة الزهراء قال ابن الفرضي: "يكنى أبا إسحاق، سمع من وهب بن مسرة الحجاري، وأبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، وكان يُفتي بجامع الزهراء، وقد حدث بحكايات من أمالي أبي علي القالي"².
وقد أخذ عنه محمد بن خشخاش صاحب الشرطة من أهل قرطبة³، كما أخذ عنه أبو سعيد أحمد بن محمد بن سليمان الأصبحي⁴.

وأخذ عنه أبو عمر أحمد بن سعيد بن إبراهيم المعروف بابن الهندي، فقد ذكره ابن الفرضي فيمن روى كتاب «الأمالي» عن أبي علي القالي إذ قال: "وروى هذا الكتاب عن أبي علي البغدادي جماعة من العلماء منهم ... وأبو عمر أحمد بن سعيد بن إبراهيم يعرف بابن الهندي ..."⁵.
وأورد ابن خير أنّ أبا علي الحسن بن أيوب الفقيه الحداد فيمن روى أيضاً عن أبي علي القالي كتاب «الأمالي»⁶.

وأثبتت المصادر في تراجم الرجال أن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمان بن معاوية المنذري القرشي (373هـ) قد أخذ عنه، لكن كان الغالب عليه علم اللغة، وكان من ثقات أصحابه أكثر الملازمة له، وورق تصانيفه⁷.

كما نجد فيمن أخذ عنه محمد بن أبان بن سيد اللحمي (354هـ) أخو أحمد بن أبان المتقدم ذكره، قرأ كتاب "المقصود والممدود" على القالي⁸.

وكذلك أخذ عنه أحمد بن عبد العزيز بن الفرّج أبو علي القرطبي النحوي (400هـ).
قال السيوطي مترجماً له: "أحمد بن عبد العزيز بن الفرّج أبو علي القرطبي النحوي صاحب القالي . كان متقد الذهن، وفيه غفلة زائدة، ولكنه حافظ ثبت، بصير بالعربية، وهو مؤدب الملك المظفر بن أبي عامر، مات سنة أربع مائة"⁹.

¹ إنباه الرواة، القفطي، 118/2.

² تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 53/1 - 54.

³ التكملة، ابن الأبار، تح: بشار عواد معروف، 42/2.

⁴ الصلة، ابن بشكوال، 44/1.

⁵ فهرسة ابن خير، ابن خير الإشبيلي، ص 403.

⁶ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁷ تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 114/2.

⁸ المرجع نفسه، 91/2.

⁹ بغية الوعاة، السيوطي، 325/1.

وهنا نحمل بعض التلاميذ الذين ثبتت لهم الرواية عن أبي علي القالي، وهذا الأمر سطرناه استناداً لعمل محقق كتاب البارع نفسه، وهؤلاء هم¹:

- أبو الحجاج يوسف بن فضالة. روى عنه كتاب (أفعل من كذا)، و(فعلت وأفعلت).
- محمد بن خطاب الأزدي أبو عبد الله (397 هـ)، روى عنه، وعن ابن القوطية.
- عبد الله بن حسين بن إبراهيم، أبو بكر بن الغريالي (403 هـ)، من أهالي قرطبة وقد روى عنه.
- أبو عبد الله الحسن بن أحمد. له رواية في (أدب الكاتب) عن أبي علي، ولم يعرفه ابن الأبار في أصحاب أبي علي.
- أبو مروان عبيد الله بن فرج الطوطاقي (386 هـ)، روى عنه «النوادر» له، وكتاب «خلق الإنسان» لثابت، و«الأشعار الستة الجاهلية» و«شعر الخطيئة».
- سليمان بن خلف بن سليمان بن غمرون المعروف بابن بقل (408 هـ) ابن السابق، روى عن أبي علي. وسمع كتاب (النوادر) من تأليفه وغير ذلك وأجاز له.
- عبد الله بن أصبغ القرطبي المعروف بابن الصناع (373 هـ). روى عن أبي علي كثيراً من كتب اللغة.

- محمد بن سعيد بن أبي عتبة القشيري القرطبي (379 هـ)، حدث عن أبي علي.
- يوسف بن هارون الكندي الرمادي (403 هـ) الشاعر، وقد مدحه بقصيدة طويلة، وروى عنه كتاب «النوادر».

ثالثاً- ظروف وفاته

لقد علم أبو علي ثم عمل منذ قدومه إلى الأندلس، وهو الذي ألف حياة التنقل من بيئة علمية إلى أخرى، لكن ما يميز رحلته هذه هو اتجاهه غرباً وليس للطلب وإنما للعمل بما علم، والدعوة إليه، ونشره في هذه البلاد التي يسارع أهلها إلى الاحتفاء بالعلم والعلماء، وتيسير مهامهم، عسى أن ينفع الله بهم. والأمر المثير للانتباه حقاً في الأندلس هو تقدير الخليفة الناصر وولي عهده الحكم للعلماء، والعناية بهم، فقد أخذ القالي حظه الوافر من ذلك، فالساسة من الحكمة أن يكون بقرهم العلماء كي يقوموهم إذا جاروا أو أخطأوا، وهم أنفسهم يستفيدون من علومهم ومعارفهم، كما أنهم يجعلونهم مؤدبين لأولادهم الصغار، حتى ينشأوا على حب العلم والعلماء، والاقتداء بهم في أخلاقهم وآدابهم وسمتهم.

¹ البارع، القالي، تح: هاشم الطعان، ص 48-53. المحقق.

فالقالي أبو علي لم يكن بدعاً من العلماء، فهو لما حصل العلم حمل على عاتقه مسؤولية نشره، والدعوة إليه، وتتجلى مظاهر دعوته هذه في أمرين:

الأول: هو الحرص على تعليم الطلاب، والجد والاجتهاد في إلقاء الدروس بشكل راتب، وتذكيرهم بما يقويهم ويستنهض همهم، ويشحذ عزائمهم خلال الفتور والضعف.

والثاني: الحرص على التأليف أي تدوين ما يسر الله له تحصيله من العلم؛ لأن تأليف الكتاب له قيمته العلمية والنفعية المتعدية عبر الأزمنة، ومن لم يتسن له حضور مجالس الشيخ العلمية لسبب من الأسباب، فإنه متاح له أن يشتري نسخة من الكتاب ويحصل المقصود، وإن كان هناك فرق بين الحالين، لكن من لم يتوفر له الأول فلا أقل من الثاني.

وفي هذا الزمن نحن نستفيد من كتب أبي علي القالي المختلفة، وإن كنا لا نستوي نحن ومن حضر لدرس الشيخ وله سمع ونظر، إلا أن التأليف، يبقى أثر صاحبه، ويعطي صورة عن شخصية العالم العلمية والثقافية، كما أنه أهم الوثائق العلمية المثبتة لعلم الرجل.

لقد عاش القالي زهاء خمس وسبعين سنة آخر القرن الثالث الهجري وإلى منتصف القرن الرابع، متنقلاً بين البلدان الإسلامية في رحلتين عظيمتين أولاهما: الرحلة إلى بغداد قصد طلب العلم، وثانيتها: الرحلة إلى الأندلس قصد تعليم الناس العلم، وفي طيات الرحلتين كان قد ألف بعض الكتب التي أظهرت أثره العلمي.

وأغلب المصادر وكتب التراجم تثبت أن سنة ست وخمسين وثلاثمائة هي سنة وفاة الإمام أبي علي القالي البغدادي صاحب التصانيف اللغوية الماتعة.

توفي رحمه الله إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن سليمان البغدادي ليلة السبت لسبع خلون من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلاث مائة¹.

وجاء في تاريخ علماء الأندلس من نصه: "وكانت وفاته فيما أخبرني به غير واحد من أصحابه ليلة السبت لسبع خلون من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلاث مائة. ودفن بمقبرة متعة، وصلى عليه أبو عبيد القاسم بن خلف الحسني الفقيه"².

والظاهر أن أغلب المصادر التي ترجمت لأبي علي القالي تتفق في مكان موته وسنة وفاته، حيث جاء في معجم الأدباء الآتي: "مات بقرطبة في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاث مائة"³.

¹ إنباه الرواة، القفطي، 244/1.

² تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 121/1.

³ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 729/2.

وقد وافقه في ذلك ابن خلكان والفيروز آبادي حيث ورد في وفيات الأعيان ما يلي: "وتوفي القالي بقرطبة في شهر ربيع الآخر، وقيل جمادى الأولى، سنة ست وخمسين وثلاث مائة ليلة السبت لسبع خلون من الشهر المذكور، وصلى عليه أبو عبد الله الجبيري، ودفن بمقبرة متعة ظاهر قرطبة"¹. وجاء في البلغة وصاحبها من متأخري المترجمين للقالي ما نصه: "مات سنة 356 هـ ..."².

¹ وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 227.

² البلغة، الفيروز آبادي، ص 91.

المبحث الثاني: أبو علي والتأليف اللغوي

رغم أن القالي قد تسنت له فرص التحصيل في كثير من الفنون إلا أنه برزت مظاهر تمكنه وتضلعه في علم اللغة بشكل فاق فيه كثيرا من أقرانه، فهو أخذ حظه من النحو على مشايخ معتبرين في طبقاتهم وعلومهم من أمثال الزجاج والأخفش الصغير، وابن السراج، وابن درستويه، وقرأ كتاب سيبويه على هذا الأخير برواية المبرد¹، وقرأ البهي في النحو للفرء على أبي بكر بن الأنباري²، لكن هذا الأمر أوصل القالي إلى درجة معلم نحو فقط .

ثم إن القالي ضمن كتابه «البارع» إشارات عروضية منقولة عن الخليل، وهذا مما يقوي اعتقاد أن القالي حصلت له دراسة العروض أيضا في المشرق أيام الطلب الأولى. واحتمال تعلم علوم ومعارف أخرى يقوى لشهود الرجل عصر ازدهار العلوم في الخلافة الإسلامية وقتذاك.

ودرس القراءات كما ثبت في ترجمته وأسلفنا الذكر في أخذه هذا العلم عن أبي بكر بن مجاهد³، واهتمامه بقراءة أبي عمرو بن العلاء.

وفي الرواية أيضا للقالي شؤون أخرى فقد روى اللغة، وبعض الكتب، وهناك قصائد رواها للبحثري في كتابه الأمالي.

ونظم الشعر، ورويت له مقطعات شعرية، إضافة إلى القصيدة المشهورة الطويلة التي قالها في مدح الناصر أول دخوله الأندلس.

كما أنه لم يفته علم الحديث، فقد أخذ هذا العلم عن أصحابه المعتبرين في هذا المجال⁴، لكنه لم يُعرف مُحدثاً.

كل هذه العلوم التي ذكرناها قد أخذ القالي منها حظه الوافر، إلا أن الرجل كتب له النبوغ في علم اللغة، فقد خصه بمزيد عناية رغم الظروف الصعبة التي عاشها في تحصيله، وكتب له الرواج لعلمه في الغرب الإسلامي (الأندلس) حيث درس وتخرج على يديه طلاب وطلاب، وهو بدوره قد غرس في هؤلاء حب اللغة العربية، وبين لهم فضل تعلمها وتعليمها، ومن هنا ظهر الاهتمام بها فجاءت تواليف الشيخ أبي علي القالي ثم تلتها تواليف تلاميذه مثل أبي بكر الزبيدي صاحب الطبقات.

لقد تقدم أن شخصية أبي علي القالي العلمية قد ساهم في تكوينها وبنائها علوم شتى، لكن المظهر البارز عنده كان في الدرس اللغوي، فالرجل استطاع أن يستثمر ما حصله من لغة وغيرها، في النهوض

¹ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 187.

² فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 406.

³ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 187.

⁴ المرجع نفسه، ص 186.

بالدرس اللغوي في بلاد لم تعرف هذا الأمر من قبل، ففترة وجود القالي في الأندلس أهم حلقة من حلقات تطور الدرس اللغوي هناك.

أولاً- الكتب المشرقية التي أتى بها القالي:

إننا عندما نذكر الكتب التي أتى بها أبو علي القالي إلى الأندلس نقصد بذلك وصول المادة العلمية إلى الأندلس مهما كانت صفة الإتيان، فلا يتوهم متوهم أن المقصود بالكتاب ما تضمن الورق، وتكلف في حمله وتوصيله فقط، بل إن أغلب الكتب قد تحملت تحملاً وأتت رواية، وإذاً فالكتاب إما أن يأتي على شكل نسخة ورقية، أو رواية عن طريق العلماء والرواة الحفظة الثقات باتصال السند.

والكتب التي أتى بها إلى الأندلس عن طريق القالي بالصفين السابقتين كثيرة جداً، ولا نستطيع حصرها، ولكن نذكر هنا بعض ما ثبت عنه رواية.

1- كتاب البهي في النحو للفراء (207 هـ)

يروى ابن خير الإشبيلي فيقول: «حدثني به الشيخ أبو الحسن عبد الملك بن محمد بن هشام القيسي عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي، عن أخيه أبي الحسن علي بن محمد، عن الأستاذ أبي عبد الله محمد بن يونس الحجاري، عن أبي القاسم أحمد بن أبان بن سيد، عن أبي علي البغدادي، عن أبي بكر بن الأنباري، قراءة عليه، قال: قرأ علينا أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، عن أبي محمد سلمة بن عاصم، عن يحيى بن زياد الفراء مؤلفه»¹.

ولعله من الكتب النحوية القليلة التي رويت عن أبي علي القالي حينما وفد إلى الأندلس، فالقالي ثبت أنه درس النحو في المشرق كتاب سيبويه² مثلاً، وغيره لكن ما يظهر على شخصية القالي الميل إلى متن اللغة، فقد كان تركيزه منصباً على ما يعرف الآن بالمعاجم بأنواعها.

2- كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (224 هـ)

يقول ابن خير الإشبيلي: "حدثني به الوزير الأديب أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكي بن أبي طالب، شيخنا، رحمه الله، قراءة عليه في منزله، قال: حدثني به الوزير أبو مروان عبد الملك بن سراج - رحمه الله - سماعاً عليه مراراً، قال: حدثني به الوزير أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا بن الإفليلي، قراءة، قال: حدثني به صاحب الشرطة الكاتب أبو القاسم أحمد بن أبان بن سيد عن أبي علي البغدادي"³.

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 386.

² انظر: إنباه الرواة، القفطي، 240/1.

³ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 405 - 406.

وقد ساق ابن خير لكتاب الغريب المصنف سنداً آخر ينتهي إلى أبي علي البغدادي وتحمله عنه تلميذه الثقة المعروف بـ «أبي الحباب». حيث قال: "حدثني به أيضاً الشيخ الخطيب أبو القاسم عبد الرحمان بن أحمد بن رضا المقرئ - رحمه الله - قراءة مني عليه أيضاً في مسجده... حدثني به الشيخ أبو عمران أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب النحوي قراءة مني عليه سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة، قال: حدثني به أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي...".¹

وساق له سدين آخرين لا ينتهيان عند أبي علي القالي البغدادي. قال أبو علي البغدادي: "وقرأته أيضاً على أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي، قال: حدثني به علي بن عبد العزيز، عن أبي عبيد رحمه الله".²

لقد وصل إلى الأندلس الكتاب النحوي الأول من حيث الأهمية وهو كتاب سيبويه، ثم تلاه الكتاب الأول فيما يسمى بمعاجم المعاني أو الموضوعات هذا الكتاب الذي نذكر خبره «الغريب المصنف» لأبي عبيد. فهو يمثل المرحلة المتطورة عن الرسائل الإفرادية ذات الموضوع الواحد. قال السلفي³ بإسناد له: أخبرنا القاضي أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي قال: كتبت إلى أبي علي البغدادي القالي أستعير منه كتاباً من «الغريب» وقلت⁴:

وَصَدَّغَهُ الْمُتَعَطِّفَ	بِحَقِّ رَيْمٍ مُهْفَهَفَ
مِنْ «الْغَرِيبِ الْمَصْنُفِ»	إِبْعَثْ إِلَيَّ بِجَزْءٍ
	قال، فأجابني وقضى حاجتي:
بِفَيْكِ أَيَّ تَأْلَفَ	وَحَقِّ دُرٍّ تَأْلَفَ
حَوَى «الْغَرِيبِ الْمَصْنُفِ»	لِأَبْعَثَ بِمَا قَدْ
إِلَيْكَ مَا كُنْتُ أُسْرِفُ	وَلَوْ بَعَثْتُ بِنَفْسِي

¹ انظر: المرجع السابق، ص 406.

² المرجع نفسه، نفسها.

³ وهو أبو طاهر السلفي الحافظ العلامة الكبير، معمر الحفاظ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني الجرواني - وجرو الآن محلة بأصبهان. وسلفه، بكسر المهملة لقب جده أحمد، معناه غليظ الشفة سمع من أبي عبد الله الثقفي وغيره... خرج عنهم في معجم السفر، وحدث بأصبهان في سنة اثنتين وتسعين (492 هـ) قال: وكنت ابن سبع عشرة سنة أكثر أو أقل... قال الذهبي: لا أعلم أحداً مثله في هذا، وقال ابن عساكر: سمع السلفي ممن لا يحصى...، وقال ابن السمعاني: هو ثقة ورع متقن مثبت حافظ فهم، له حظ من العربية توفي سنة (576 هـ) وانظر: الشذرات، 420/6 - 421.

⁴ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 731 - 732.

فهذا خبر عن هذا الكتاب وقيمته عند العلماء، فالأول عندما سمع به عند أبي علي البغدادي حرص على الحصول عليه، والثاني بمجرد ما طلب منه الكتاب أجاب إجابة تحقيق الأمانة، وانظر إلى العلماء وأخلاقهم فهم لا يدخرون جهداً في نشر العلم بشتى الطرق.

وعوداً على كتاب «الغريب المصنف» وعلاقة أبي علي البغدادي به. قلنا قد أسلفنا الذكر حول رواية تفرد بها ابن خير مفادها أن أبا علي القالي البغدادي قد قرأ «الغريب المصنف» في سامراء على شيخه ابن الأنباري¹، واستغرب بعض المحققين هذه الرواية، لكن بعد ثبوت خبر أبي طاهر السلفي هذا فإنه يقوي تلك الرواية، ولا يدع مجالاً للشك فيها.

إن المطلع على الكتب المشرقية الآتية إلى الأندلس يدرك قيمتها العلمية من حيث كثرتها وطرق إسنادها، صحيح أن بعض الكتب لا تكاد تجد لها إثباتاً إلا في رواية بسند واحد، وقد يصيبه ما يصيبه مما يضعفه، لكن بالمقابل سائر الكتب الأخرى يظهر عليها قوة الإسناد، وكثرة الطرق التي ذكرت فيها، وهذا الأمر الأخير هو الذي ينطبق على كتاب «الغريب المصنف» لأبي عبيد القاسم بن سلام، لذا فقد لاقى الكتاب رواجاً لا نظير له غرباً مثل ما كانت العناية به والاحتفاء شرقاً أو يزيد عن ذلك.

3- كتاب الألفاظ لابن السكيت²

ويسوق ابن خير خبره حيث يقول: "حدثني به الشيخ أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكّي، رحمه الله، سمعاً عليه في منزله، قال: حدثني به الشيخ أبو مروان عبد الملك بن سراج، رحمه الله، قراءة مني عليه وسماعاً بقراءة غيري مراراً، قال: حدثني به الوزير أبو القاسم بن الإفليلي، رحمه الله، قراءة مني عليه، قال: حدثني به صاحب الشرطة الكاتب أبو القاسم أحمد بن أبان بن سيد، عن أبي علي البغدادي"³.

وساق سنداً آخر ينتهي إلى التلميذ الثقة أبي الحباب والذي تحمل بدوره عن أبي علي البغدادي القالي. وساق ثالثاً جمع فيه بين التلميذين أحمد بن أبان بن سيد وأبي الحباب وينتهي عند الأول متحملاً عن أبي علي البغدادي القالي⁴.

قال أبو علي: وقرأته على أبي عمر المطرز، وأخبرني به عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب.

¹ انظر: فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 406.

² يعقوب بن السكيت النحوي أبو يوسف البغدادي صاحب كتاب إصلاح المنطق، وتفسير دواوين الشعراء، توفي سنة (244 هـ). انظر: الشذرات، ابن العماد الخبلي، 203/3.

³ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 407.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص 407 - 408.

قال أبو علي: وناولني هذا الكتاب أبو جعفر الغالي، واسمه محمد بن نصر بن غالب، وقال لي: استمليت هذا الكتاب على ابن كيسان مجلساً مجلساً، قال ابن كيسان: قرأت هذا الكتاب على أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، وسمعت ابن بكير يقرؤه عليه¹.

فالظاهر أن أبا علي البغدادي القالي قد تحمل كتاب الألفاظ لابن السكيت من طريقين الأول: عن أبي عمر المطرز عن ثعلب، والثاني: عن ابن كيسان عن ثعلب أيضاً لكن زاد فيه سماعه ابن بكير يقرؤه عليه.

وهذا الكتاب كتاب الألفاظ لابن السكيت سار به صاحبه على نهج معاجم الموضوعات أو المعاني، ويعتبره كثير من الباحثين والدارسين من أقدم المعاجم الموضوعاتية إن لم يكن أقدمها، والأمر الشائع في الحقيقة يرجح كفة الغريب المصنف لأبي عبيد (224 هـ).

4- كتاب أدب الكتاب لابن قتيبة الدينوري²

يبدو أن كتاب «أدب الكتاب» أو «دب الكاتب» لابن قتيبة واسع الانتشار نظراً للأسانيد الكثيرة التي ساقها ابن خير الإشبيلي في خبره سواء ما انتهى منها إلى أبي علي البغدادي أو إلى غيره من الرواة. وهذا أحد الأسانيد التي تنتهي إلى أبي علي البغدادي حيث يقول فيه: "وحدثني به أيضاً الشيخان الوزير أبو الوليد إسماعيل بن عيسى بن حجاج اللخمي، إذنا ومشافهة، والأستاذ الخطيب أبو بكر محمد بن إبراهيم بن غالب القرشي إجازة فيما كتب به إلي بخطه من مدينة شلب، قالوا: حدثنا الأستاذ أبو الحجاج الأعلم، رحمه الله، قال: حدثني به الشيوخ الجللة: الوزير الأديب أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن الإفيلي سماعاً مني عليه، والوزير الأديب أبو سهل يونس بن أحمد الحراني، قراءة مني عليه، والأستاذ الأديب النحوي أبو بكر مسلم بن أحمد بن عبد العزيز، قراءة مني عليه لبعضه وإجازة لجميعه، قالوا كلهم: حدثنا به الشيخ أبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب، عن أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، عن القاضي أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عن أبيه أبي محمد مؤلفه، رحمه الله"³.

هذه الشهرة المنقطعة النظير لكتاب أدب الكتاب لابن قتيبة الدينوري لم تأت عفويًا، وإنما حقق هذا الرواج لعظيم نفع المسائل العلمية التي تضمنها هذا الكتاب، وهذه المسائل قد وضعها المصنف في المجال اللغوي، من قواعد الإملاء وغيرها مما يزود الكاتب والأديب بالوسيلة اللغوية المناسبة حتى يعبر بها عن مقاصده.

¹ انظر: المرجع السابق، ص 408.

² هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي اللغوي الكاتب نزيل بغداد، له مصنفات عديدة منها إعراب القرآن، معاني القرآن، غريب القرآن... توفي (276 هـ). وانظر: بغية الوعاة، السيوطي، 63/2.

³ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 412 - 413.

والرجل له كتب أخرى مثل عيون الأخبار، الشعر والشعراء، بلغت شهرتها الآفاق من شرق البلاد الإسلامية إلى غربها، لكن مع «أدب الكاتب» أو «أدب الكتاب» الأمر مختلف فهو من أوائل الكتب التي وصلت إلى الأندلس.

إن مؤلف ابن قتيبة «أدب الكتاب» وإلى زماننا هذا لا يستغني عنه طالب علم، ولا تخلو مكتبة من مثله.

5- كتاب اختيار فصيح الكلام لثعلب¹

وقد جاء خبره عند ابن خير الإشبيلي على النحو التالي إذ قال: "حدثني به الشيخ الأديب أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد النفري، رحمه الله، سماعاً عليه في منزله بأشبيلية حين قدومه علينا سنة ثمان عشرة وخمس مائة، قال: حدثني به خالي الأديب أبو محمد غانم بن وليد بن عمر المخزومي، قال: حدثني به أبو عمر يوسف بن عبد الله بن خيرون السهمي، عن صاحب الشرطة أبي القاسم أحمد بن أبان بن سيد، عن أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، عن شيوخه الثلاثة أبي عمر المطرز وأبي عبد الله نفطويه وأبي بكر بن الأنباري، قالوا كلهم: حدثنا به أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، رحمه الله".²

قال أبو بكر المصحفي كان كتاب أبي الفتوح الجرجاني بخط ابن خالويه، وفي صدره: قال أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن حمدان بن خالويه النحوي اللغوي: قرأت هذا الكتاب، وهو «الفصيح» لثعلب. على أربعة من أصحابه: إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه أبي عبد الله، وأبي عمر الزاهد، وأبي بكر بن الأنباري، وأبي القاسم بن حبان، كلهم قالوا: أخبرنا أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، قال: هذا اختيار فصيح الكلام.

قال المصحفي: وقال لي أبو الفتوح: قابلت كتابي هذا من «الفصيح» بخط ابن الكوفي، وكان نسخ كتابه من خط ابن الأنباري، وقابله به³.

هذا، وقد ساق الرجل أسانيد كثيرة أخرى ليس فيها أبو علي البغدادي، فهو يسعى لإثبات وصول الكتاب إلى الأندلس بسلسلة الأسانيد المتصلة بصاحب الكتاب أو بمن هو أول السامعين له. وهذا من عنوانه يظهر أن ثعلب - رحمه الله - اختار في هذا الكتاب ما فصح من كلام العرب، فهو قد يأتي بالصيغ المستعملة في كلام العرب، ثم يرجح ما هو أفصح في هذه الصيغ.

¹ هو أبو العباس ثعلب، أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني مولا هم العباسي البغدادي، شيخ اللغة العربية توفي (291 هـ). وانظر: الشذرات، ابن العماد الحنبلي، 283/3.

² فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 415.

³ المرجع نفسه، ص 417.

6- كتاب فائت الفصيح لأبي عمر المطرز¹

يقول ابن خير مثبتا وصول الكتاب إلى الأندلس تحملاً بسلسلة الإسناد التالية إذ قال: "حدثني به أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكّي، رحمه الله، عن أبي مروان عبد الملك بن سراج، عن أبي القاسم بن الإفيلي، عن أبي عمر بن أبي الحباب، عن أبي علي البغدادي، عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد المطرز، رحمه الله"².

وهذا الكتاب «فائت الفصيح» إنما هو استدراك على كتاب «اختيار فصيح الكلام» لثعلب، فصاحب الفائت وهو المعروف بـ غلام ثعلب ملازمته لشيخه، أراد أن يحسن إليه بعد موته، فاستدرك بعض النقص في كتاب شيخه، حيث قال في مستهل كتابه: «... قرأته على أبي موسى الحامض، بعد موت ثعلب حين جمعته وألفته.

ومنه: حدّق الصبي يحذّق، وحذّق يحذّق لغة³...».

7- كتاب الأمثال لأبي عبيد

ساق ابن خير الإشيلي خبر وصول الكتاب إلى الأندلس بالسند التالي: قال: "وحدثني به أيضا الشيوخ الحلة: الوزير أبو بكر محمد بن عبد الغني بن عمر بن قندلة، والوزير أبو الوليد إسماعيل بن عيسى بن حجاج اللخمي، رحمهما الله، مشافهة وإذنا، والأستاذ الخطيب أبو بكر محمد بن إبراهيم بن غالب القرشي العامري، رحمه الله، إجازة فيما كتب لي بخطه، قالوا كلهم: حدثنا أبو الحجاج يوسف بن سليمان النحوي الأعلّم، قال: حدثني به الوزير أبو سهل يونس بن أحمد الحراني، رحمه الله، قراءة عليه، قال: حدثني به أبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب، عن أبي علي إسماعيل ابن القاسم البغدادي، عن أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه، عن علي بن عبد العزيز المكي، عن مؤلفه أبي عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله"⁴.

ذكر ابن خير هذا الإسناد بعد أن ساق أسانيد كثيرة، وقد بناه أبو عبيد على منهج معجمات المعاني أو الموضوعات.

¹ وهو أبو عمر الزاهد، صاحب ثعلب، واسمه محمد بن عبد الواحد المطرز البغدادي اللغوي توفي (245 هـ). قيل إنه أملى ثلاثين ألف ورقة من حفظه، وكان ثقة إماماً... قال ابن الأهدل استدرك على فصيح شيخه ثعلب في جزء لطيف. وانظر: الشذرات، ابن العماد الحنبلي، 241/4.

² فهرسة ابن خير الإشيلي، ابن خير، ص 418.

³ فائت الفصيح، أبو عمر الزاهد، تح: عبد العزيز مطر، مطبعة جامعة عين شمس، (دط)، 1976 م، ص 15.

⁴ فهرسة ابن خير الإشيلي، ابن خير، ص 419.

8- كتاب الأمثال للأصمعي¹

يخبر ابن خيّر الإشبيلي عنه بالسند المتصل إلى أبي علي القالي البغدادي فمن فوقه، إذ يقول: "حدثني به الشيخ أبو محمد بن عتاب، عن أبيه، رحمه الله عن القاضي أبي أيوب سليمان بن خلف بن غمرون، عن أبي علي البغدادي، عن أبي بكر بن دريد.

قال أبو محمد بن عتاب: وحدثني به أيضاً أبو عمر بن البر النمري الحافظ عن أبي الوليد عبد الله بن يوسف ابن الفرضي، عن أبي زكريا يحيى بن مالك العائذي، عن أبي بكر محمد بن الحسن بن زكريا المعروف بالباذنجاني، عن أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، عن أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني، عن عبد الملك بن قريب الأصمعي مؤلفه، رحمه الله².

وقد سلك الأصمعي - راوية العرب الأكبر - بكتاب الأمثال هذا مسلك معاجم الموضوعات أو هو للرسائل الإفرادية أقرب. قال الأصمعي في مستهل نشر مادة الكتاب العلمية قوله: قولهم: «آخرها أقلها شرباً».

قال الأصمعي: ومن أمثالهم في تمام الحاجة قولهم: «آخرها أقلها شرباً»، يقال: إن أقل الحاجة ما بقي منها³.

وكان كتاب الأصمعي هذا مشابهاً لكتاب أبي عبيد المتقدم ذكره بالعنوان نفسه، حتى إنهما ليتفقان في بعض الأمثال، وذلك في أحيان كثيرة، ومنها هذا المثل: «آخرها أقلها شرباً»⁴.

9- كتاب الزاهر لابن الأنباري⁵

أخبر عنه ابن خيّر الإشبيلي بسلسلة سند تنتهي عند أبي علي البغدادي القالي الذي يرفعه إلى شيخه بدوره أبي بكر بن الأنباري إذ يقول: "حدثني به الشيخ أبو محمد بن عتاب، رحمه الله، عن أبيه، عن القاضي أبي أيوب سليمان بن خلف بن غمرون، عن أبي علي البغدادي، عن أبي بكر بن الأنباري مؤلفه، رحمه الله⁶.

وابن الأنباري - رحمه الله - قد سلك في كتابه الزاهر منهج معاجم المعاني وقسمه إلى موضوعات أو حقول دلالية مستهلاً بأنواع من التراكيب التي مؤداها إلى معان دينية إسلامية فمثلاً يقول:

¹ وهو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي البصري الأصمعي اللغوي الأخباري توفي (216 هـ)، قال ابن الأهدل تصانيفه تزيد على ثلاثين، وانظر: الشذرات، 76/3.

² فهرسة ابن خيّر الإشبيلي، ابن خيّر، ص 420.

³ الأمثال، الأصمعي، تح: ناصر توفيق الجباعي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، بيروت، (د.ط)، 2010، ص 32.

⁴ الأمثال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تح: عبد المجيد قطماش، دار المأمون للتراث، ط 1، 1980، ص 239.

⁵ وهو أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري النحوي اللغوي صاحب المصنفات توفي (328 هـ) وانظر: الشذرات، 152/4.

⁶ فهرسة ابن خيّر الإشبيلي، ابن خيّر، ص 421.

فأول ما أبدأ به من ذلك قول الناس في ثنائهم على ربه: «حسبنا الله ونعم الوكيل». قال أبو بكر: "فمعنى قولهم: حسبنا الله: كافينا الله. من ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾¹

ومن ذلك قول الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحك سيف مهند

معناه: يكفيك ويكفي الضحك. ومعنى الآية يأيها النبي كافيك الله ومن اتبعك من المؤمنين. ومن ذلك قول امرئ القيس:

فتملاً بيتنا أقطاً وسمنا وحسبك من غنى شبع وري

أي: يكفيك الشبع والري. ومنها قوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾²

معناه: عطاء كافياً. يقال: أحسبني الطعام يحسبني إحساباً إذا كفاني.

قال الشاعر:

وإذا لا ترى في الناس حسناً يفوقها وفيهن حسن كاف. وقال الآخر:

ونقفي وليد الحي إن كان جائعاً ونحسبه إن كان ليس بجائع

ومعناه: ونعطيه ما يكفيه. وقالت الخنساء:

ونحسبه إن كان ليس بجائع إذا لم تحسب المائة الوليد

معناه: إذا لم تكف المائة³.

10- كتاب التذكير والتأنيث لأبي حاتم السجستاني⁴

يقول ابن خير الإشبيلي في خبر هذا الكتاب مبيناً سنده: "حدثني به شيخنا الوزير أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكّي، رحمه الله، قراءة عليه في منزله، قال: حدثني به الوزير أبو مروان عبد الملك بن سراج، عن أبي سهل يونس بن أحمد الحراني، عن أبي الحجاج يوسف بن فضالة، عن أبي علي البغدادي، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم مؤلفه، رحمه الله⁵."

¹ سورة الأنفال: الآية 64.

² سورة النبأ: الآية 36.

³ الزاهر في معاني كلام الناس، ابن الأنباري، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط1، 1412 هـ - 1992 م، 4/1 - 5.

⁴ هو سهيل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشمي السجستاني: توفي سنة (255 هـ)، وانظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 94 - 96.

⁵ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 428.

فابن خير قد ساق هذا السند الوحيد الذي ينتهي عند القالي ثم هو يرفعه إلى شيخه ابن دريد ومن شيخه إلى مؤلفه السجستاني.

– اختصار التذكير والتأنيث.

قال أبو حاتم: "الشخص مذكر – النفس مؤنثة على قدر اللفظ، ومذكرة على قدر الرجال في قولك ثلاث أنفُس، وثلاثة أنفُس، الروح: مذكر، وعلى مذهب النفس مؤنث – والروح جبريل: مذكر، والروح عيسى: مذكر..."¹.

11- كتاب التذكير والتأنيث لأبي بكر بن الأنباري

وجاء في خبره عند ابن خير بالسند المتصل إلى أبي علي البغدادي إذ يقول: "حدثني به الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد النفري، عن خاله الأديب أبي محمد غانم بن وليد المخزومي، عن أبي عمر يوسف بن عبد الله بن خير بن السهمي، عن صاحب الشرطة أبي القاسم أحمد بن أبان بن سيد، عن أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، عن أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري مؤلفه، رحمه الله"².

فابن خير – رحمه الله – قد ساق رواية وسندا واحدا في خبر هذا الكتاب، وقد انتهى عند أبي علي البغدادي الذي تحمله عن شيخه ومؤلفه ابن الأنباري، رحمه الله.

هذا، ولقد استهل المصنف – رحمه الله – كتابه بمقدمة موجزة، لكنه بلغ فيها الغاية حيث تعرض لبيان أهمية هذا الموضوع (التذكير والتأنيث) لدارس العربية.

وهذه مقدمة كتابه «التذكير والتأنيث»: «قال أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري: اعلم أن من تمام معرفة النحو والإعراب معرفة المذكر والمؤنث، لأن من ذكر مؤنثاً أو أنث مذكراً كان العيب لازماً له كلزوم من نصب مرفوعاً أو خفض منصوباً، وأنا مفسر في كتابي هذا – إن شاء الله – التأنيث والتذكير، ومبين ذلك باباً باباً، وأصلاً أصلاً، وفرعاً فرعاً، ومحتج على التأنيث والتذكير بأشعار العرب ولغاتها، وذاكراً اتفاق أهل اللغة والنحو فيما اتفقوا فيه، واختلافهم فيما اختلفوا فيه، ومسند كل قول إلى قائله، ليكون الناظر في كتابنا هذا والعارف له خارجاً من جملة اللاحنين، ومبائنا جماعة المعيين. أسأل الله المعونة على ذلك، والتوفيق للصواب»³.

¹ رسائل ونصوص في اللغة والأدب والتاريخ، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1، 1408 هـ – 1988 م، ص 101.

² فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 28 – 429.

³ المذكر والمؤنث، ابن الأنباري، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، (دد)، القاهرة جمهورية مصر العربية، (دط)، 1401 هـ – 1981 م، ص 51/1.

ومن مادته العلمية انتقينا هذا النموذج التالي:

قال ابن الأنباري - رحمه الله -¹: «العُقَابُ»: يقع على المذكر والمؤنث. يقال: عُقَابُ ذَكَرٍ، وَعُقَابُ أُنْثَى، ويقال للأُنْثَى: «لِقْوَةٌ».

و«البرذون»: يقع على المذكر والمؤنث. يُقال: برذون ذكر، وبرذون أنثى، وربما بنوا الأنثى على الذكر، فقالوا: برذونة. قال النابغة الجعدي:

أَلَا حَيًّا لَيْلَى، وَقُولَا لَهَا: هَلَا

وبرذونة بلّ البراذين تُغْرِهَا

«الأيل»: جمعه أيائل، وألبان الأيائل تُهَيِّج طاعمها، و«الأيل»: تيس من تيس الجبل، وأنشد هشام

ابن معاوية:

أَرَيْتَ إِذَا جَالَتْ بِكَ الْخَيْلُ جَوْلَةً

وَأَنْتَ عَلَى بَرْدَوْنَةٍ غَيْرُ طَائِلٍ

فكتاب المذكر والمؤنث للأنباري هذا قد بناه صاحبه على منهج كتب الموضوعات، فهو أخذ مما استقرئ عن العرب في كلامهم قواعد وضوابط للتذكير والتأنيث محكماً السماع بالدرجة الأولى في ذلك، وفي الحقيقة كل كتب التذكير والتأنيث تتقارب في المنهج، والتفاوت غالباً يحصل في الكم من الحفظ، والدراية، مع حضرة البديهة التي تسعف صاحبها في حسن استغلال الشاهد في الموضوع المناسب، وما يظهر على هذا الكتاب الاستشهاد الكثير للمعنى الواحد، وإن كان في هذا الموضوع المنوط بقضية السماع فهو أحوج ما يكون لأشعار العرب الذين يحتج بشعرهم.

12- كتاب الجماهرة في اللغة لابن دُرَيْد²

لقد ساق ابن خير الإشبيلي في خبر هذا الكتاب ثلاث روايات، ونحن في هذا العرض ما يهمنا ويعيننا منها الرواية التي تنتهي إلى أبي علي البغدادي القالي، حتى نصل إلى إثبات وصول كتاب شيخه ابن دريد «الجماهرة» إلى الأندلس على يديه، وقد قال ابن خير في ذلك: "حدثني به الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد النفري، رحمه الله، عن خاله الأديب أبي محمد غانم بن وليد المخزومي، عن أبي عمر يوسف بن عبد الله بن خيرون السهمي، عن أبي القاسم أحمد بن أبان بن سيد، عن أبي علي البغدادي، عن أبي بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْد بن عتاهية الأزدي البصري مؤلفه، رحمه الله"³.

ولقد أسلفنا ذكر هذا الكتاب في طيات البحث السابقة حين الكلام عن المدارس المعجمية العربية.

¹ المرجع السابق، ص 62 - 63.

² وهو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي البصري اللغوي العلامة صاحب التصانيف، توفي سنة (321 هـ)، وانظر: الشذرات، 106/4.

³ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 429.

13- كتاب فعلت وأفعلت للزجاج¹

يقول ابن خير الإشبيلي في خبر هذا الكتاب: "حدثني به الشيخ الخطيب أبو القاسم عبد الرحمان بن أحمد ابن رضا المقرئ، رحمه الله، قراءة مني عليه في مسجده، قال: حدثني به الأستاذ أبو الوليد مالك بن عبد الله العتي، قراءة عليه وأنا أسمع، قال: حدثني به الشيخ الوزير أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله التميمي الطنبلي، قراءة عليه، قال: حدثني به أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الإفيللي، عن أبي عمر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب، عن أبي علي البغدادي، عن أبي إسحاق الزجاج مؤلفه، رحمه الله"².

هذا الكتاب له طرق أخرى في هذه الرواية خاصة عند أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله التميمي الطنبلي، كما أن له رواية أخرى تنتهي إلى أبي علي الفارسي وليس هناك التباس بين الفارسي والبغدادي، وإنما وقع الأمر إثباتاً وتمحيصاً للفارسي.

وتعدد الرواية وكثرة الطرق في الخبر تزيده قوة وتوثيقاً وإثباتاً، وشيء آخر فيه دلالة على مدى انتشار هذا الكتاب ورواجه لما له من أهمية تبينها المادة العلمية التي حواها الكتاب.

قال الزجاج - رحمه الله -: «باب التاء من فعلت وأفعلت والمعنى واحد».

«يقال تم الله عليه النعمة، وأتم عليه النعمة إذا أسبغها، وتبع الرجل الشيء وأتبعه بمعنى واحد. قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ تَبِعْ هَذَا﴾³، وقال: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُودِهِ﴾⁴ وترت الكتاب وأترته جعلت عليه التراب، وتعسه الله وأتعسه⁵».

ثم قال في «باب التاء من فعلت وأفعلت والمعنى مختلف».

«يقال ترب الرجل إذا افتقر، وأترب إذا استغنى، وتبلى فؤاده أذهبت حزنًا وولها، وأتبلى فلاناً ألقيته فيما يفسده. ويقال تاع الشيء إذا ذاب، وأتاع الرجل إذا قاء. ويقال تلح النهار إذا ارتفع، وأتلح الظبي عنقه إذا نصبها⁶».

¹ هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، أدرجه الزبيدي على رأس الطبقة التاسعة من أصحاب المبرد، وتوفي ببغداد سنة (310 هـ)، وانظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 111 - 112.

² فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 433.

³ سورة البقرة، الآية 38.

⁴ سورة طه، الآية 78.

⁵ كتاب فعلت وأفعلت، الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل، تح: ماجد حسن الذهبي، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق - سوريا، (دط)، (دت)، ص 12.

⁶ المرجع نفسه، ص 13.

فالكتب التي ألفت حول صيغتي «فعلت وأفعلت» كثيرة جداً، وأوصلها ماجد الذهبي محقق هذا الكتاب إلى ثمانية عشر كتاباً مستقلاً ابتداءً من مطلع القرن الثالث إلى منتصف القرن السابع الهجري، هذا فضلاً عن البحوث الخاصة بهذا الموضوع والمنشورة في الكتب اللغوية المختلفة¹.

فالملاحظ على الزجاج أنه بنى كتابه هذا على حروف المعجم وفق الترتيب الأببائي على أوائل الأصول أو الترتيب الأببائي المألوف المعروف، لكن موضوعه أقرب إلى معاجم المعاني أو بالأحرى الرسائل الإفرادية ذات الموضوع الواحد.

فالحقل الدلالي هنا ما تحمله صيغتا (فعلت وأفعلت) من معان، فهي كما تعرض لها المؤلف تلتقي تارة وتارة تختلف، وهو في إثبات المعاني المتفقة للصيغتين والمختلفة يعزز ما حكم به بما توفر لديه من الاستشهاد حتى يطمئن القارئ للمعنى المثبت والذي استؤنس له بالشاهد أياً كان نوعه.

والمانع والصارف في عدم إدراجه من المعاجم اللفظية المرتبة على أوائل الأصول هو كونه ليس معجماً لفظياً في حقيقته، وإنما هو معجم معان، وما صيغة «فعل وأفعل» إلا قالب لتثبيت المعنى عليه، وشيء آخر فهو ليس معجماً شاملاً بدليل أنه مبوب فقط، ولا يحوي فصولاً مرتبة أيضاً.

ثانياً- الكتب التي ألفها القالي في الأندلس:

إن كثيراً من الدارسين يرجحون أن بداية التأليف عند أبي علي القالي البغدادي كانت في الأندلس، فهو رجل طلب العلم وتحمله في الشرق، وأخذ حظه من ثقافات المنطقة ثم أتى إلى الأندلس ليستثمر ما كان قد حصله أيام الطلب في بغداد، إذ تصدر للتدريس انطلاقاً من قرطبة، ووفد عليه طلاب كثر، وهذه الحال من الاستقرار التي آل إليها أبو علي البغدادي بعد طول سفر وترحال كانت قد ساعدته وهيات له مناخ التأليف، ولما أتحت الفرصة لم يدخر الرجل مجهوداً في ذلك فجاء نتاجه غزيراً لكنه تغلب عليه اللغة، فهم يصفونه باللغوي، يقولون: أبو علي البغدادي اللغوي.

ونستأنس بكلام ابن خلكان فيما تعرضنا له من ترجيح التأليف في الأندلس عند أبي علي البغدادي حيث يقول: "ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلاثمائة واستوطنها، وأملى كتابه «الأمالى» بها، وأكثر كتبه بها وضعها، ولم يزل بها..."².

وهذا السيوطي يعبر عن رحيل القالي من بغداد متجها صوب الأندلس إذ يقول: "وخرج من بغداد سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، فدخل قرطبة سنة ثلاثين، فأكرمه صاحبها إكراماً جزيلاً، وقرأ عليه الناس كتب

¹ المرجع السابق، ص (ز - ح)، مقدمة التحقيق.

² وفيات الأعيان، ابن خلكان، 227/1.

اللغة والأخبار. وصنف بها: الأمالي، النوادر، المقصور، والممدود، شرح المعلقات، الإبل، الخيل، البارغ في اللغة لم يتم، مقاتل العرب، حلي الإنسان، فعلت وأفعلت، وغير ذلك¹.

وقال ياقوت الحموي في ترجمة أبي علي البغدادي: «فوفد القالي إلى الغرب في سنة ثلاثين وثلاثمائة، فأكرمه صاحب الغرب وأفضل عليه إفضالاً عمه، وانقطع هناك بقية عمره، وهناك أملى كتبه أكثرها على ظهر قلب، منها كتاب الأمالي...»².

وقال الحميدي بعد أن ذكر استقراره بقرطبة: «وقد ألف في علمه الذي اختص به تواليف مشهورة، تدل على سعة روايته، وكثرة إشرافه، وأملى كتاباً سماه «النوادر» يشتمل على أخبار وأشعار ولغة»³.

وإذا ثبت أن حركة التأليف عند أبي علي القالي البغدادي بدأت في قرطبة بالأندلس التي ذكرناها للمرجحات، والاستثناس الذي سقناه عند علماء التراجم، والدعم والتشجيع الذي وجهه ولاية الأمور أعني الخليفة الناصر وابنه الحكم للعلم والعلماء عامة ولأبي علي البغدادي خاصة إيماناً منهما أن إعمار هذه البلاد الجديدة على المسلمين يتوقف على العلم والعلماء.

والكتب التي ألفها أبو علي البغدادي يأتي في طليعتها الأمالي، البارغ، والمقصود والممدود، وكتاب الإبل ونتاجها وما تصرف منها ومعها، الخيل وشياتها، وكتاب أفعل من كذا، ومقاتل الفرسان، حلي الإنسان، فعلت وأفعلت، وتفسير القصائد، والمعلقات وتفسير إعرابها ومعانيها⁴.

1- الأمالي:

هذا الكتاب العظيم في مادته وحجمه، وهو عبارة عن إملاءات أبي علي البغدادي على طلابه في مواضيع ومجالس مختلفة؛ لأن الرجل بنى الكتاب، وفق ما تطلبه الحاجة في المجلس العلمي، أو وفق ما يستحضره، لا يتقيد في ذلك بترتيب ولا تبويب، وقد طارت شهرة الكتاب فبلغت الآفاق، وأصبحت كلمة الأمالي لصيقة بأبي علي البغدادي، ولعله أول من سمى مؤلفاً بهذه التسمية، فهناك آمال للشجري، وأخرى للسهيلي، ولكن عند الإطلاق ينصرف الذهن إلى أمالي أبي علي البغدادي القالي.

وكتاب الأمالي هذا بعض المصادر تطلق عليه تسمية النوادر، وهو في الحقيقة على شكل ومنهج كتب النوادر، وربما وقع الاختلاف في التسمية، وهو راجع لأمرين: الأول: أن الرجل أبا علي البغدادي كان يملئ على طلابه ويدرس في جامع الزهراء بقرطبة على الناس فينتقل من موضوع إلى آخر كيفما اتفق له وحسب الغاية، وهو في ذلك نشاطه يمثل فنا قولياً موجهاً له آلياته ووسائله التي تختلف عن فن الكتابة

¹ بغية الوعاة، السيوطي، 453/1.

² معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 730/1.

³ جذوة المقتبس، الحميدي، ص 232.

⁴ انظر: البارغ، القالي، تح: هاشم الطعان، ص 48-53. المحقق.

والإنشاء، وبقيت المادة العلمية هكذا وجاءت التسمية من غير أبي علي، والأمر الثاني: أن كلمة «الأمال» في حد ذاتها فيها من العموم ما فيها، وهذان الأمران جعلاً وقوع الاختلاف في تسمية الكتاب في المصادر القديمة.

يذكر ابن خير الإشبيلي في خبر كتاب النوادر لأبي علي البغدادي عديد الروايات المثبتة له، وقد اخترنا منها أكثرها دقة وضبطاً؛ لأنه أي ابن خير قد حدثه بها الشيوخ الجلة ليس واحداً ثم إنها مروية عن أحد المشهود لهم بالثقة والحفظ والضبط، وهو أبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب.

يقول ابن خير: "وحدثني به أيضاً الشيوخ الجلة: الوزير أبو الوليد إسماعيل بن عيسى بن حجاج اللخمي، رحمه الله، مناوله وإذنا ومشافهة، والوزير أبو بكر محمد بن عبد الغني بن فندلة، رحمه الله، مناوله وإذنا ومشافهة، والخطيب الأستاذ أبو بكر محمد بن إبراهيم بن غالب القرشي العامري، إجازة فيما كتب به إلي بخط يده من شلب، حرسها الله، قالوا ثلاثتهم: حدثنا به الأستاذ أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الأعلم، رحمه الله، قراءة منهم عليه، قال: حدثني به أبو سهل يونس بن أحمد الجذامي الحراني قراءة مني عليه، وأبو القاسم الإفليلي، سمعاً عليه بقراءة غيري له، قال ابن الإفليلي: حدثني به أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي، عن أبي علي مؤلفه. قال ابن الحراني: حدثني به أبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب وأبو مروان عبيد الله بن فرج الطوطاقي، قالاً: حدثنا به أبو علي مؤلفه"¹.

فتعدد الروايات في خبر هذا الكتاب هو دليل على انتشاره بين طلاب العلم، ورواجه في الأندلس أولاً ثم كتب له الرواج في المشرق أيضاً، وحظ منه لما بين المغرب والمشرق.

ثم يعرف ابن خير الإشبيلي بكتاب الأمالي فيقول: "وهذا الكتاب أمل أحلى حبله أبو علي، رحمه الله، في الأخمسة بالزهراء على بني الملول وغيرهم من أهل قرطبة، ثم زاد فيه فبلغه ستة عشر جزءاً للعامه، ثم زاد فيه فبلغه عشرين جزءاً لأمير المؤمنين، أبقاه الله، وهو كتاب حسن، يشتمل على أنواع من العلم لا نظير له"².

وقبل ظهور أمالي أبي علي البغدادي كانت الشهرة والذيع لـ «الكامل» للمبرد³، ذلك أن الأمالي والكامل يتشابهان في المادة والمنهج، لكن لما سطع نور الأمالي انطفأ إشعاع الكامل.

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 402.

² المرجع نفسه، ص 403.

³ هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولد سنة (210 هـ)، وتوفي سنة (286 هـ). وانظر: طبقات الزبيدي، 101 _ 110.

يقول الحميدي: "قال لنا أبو محمد علي بن أحمد، وقد ذكر كتاب أبي علي، المسمى بـ «النوادر» في الأخبار والأشعار، فقال: وهذا الكتاب مبار للكتاب «الكامل» الذي جمعه أبو العباس المبرد، ولئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً، فإن كتاب أبي علي لأكثر لغة وشعراً"¹.

أما عن سبب تأليفه فقد نجد شيئاً مما يوضح الباعث على تأليف هذا الكتاب في مقدمته حيث قال: "فإني لما رأيت العلم أنفس بضاعة، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة، فاغتربت للرواية، ولزمت العلماء للدراية، ثم أعملت نفسي في جمعه، وشغلت ذهني بحفظه، حتى حوت خطيره، وأحرزت رفيعه، ورويت جليله، وعرفت دقيقه، وعقلت شارده، ورويت نادره، وعملت غامضه، ووعيت واضحه ثم صنته بالكتمان عمن لا يعرف مقداره، ونزهته عن الإذاعة عند من يجهل مكانه، وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه، وأبديه لمن يعلم فضله، وأجلبه إلى من يعرف محله، وأنشره عند من يشرفه، وأقصد به من يعظمه..."².

ومن كلام أبي علي القالي البغدادي -رحمه الله- يتضح لنا أنه لما علم أهمية العلم في حياة الإنسان سعى لتحصيله رواية ودراية، ومن ثمة تبليغه إلى غيره رجاء حصول النفع به في الدنيا والآخرة. وقد تحققت نوايا أبي علي في ذلك بأن درس وحصل ثم درّس وأملى على الطلاب في الأندلس، وهذا الكتاب شيء من أماليه.

ويقول تلميذه البارز أبو بكر الزبيدي متحدثاً مخبراً عن شيخه وأماليه: "وله أوضاع كثيرة أملاها عن ظهر قلبه، منها كتابه في الأخبار والحكايات المعروف «بالنوادر والأمالي» أملاها ظاهراً من قلبه في الأخمسة بجامع الزهراء بقرطبة، وارتجل تفسير ما فيه، وهذا الكتاب غاية في معناه، وهو أنفع الكتب، لأن فيه الخبر الحسن، والمثل المتصرف، والشعر المنتقى في كل معنى، وفيه أبواب من اللغة مستقصاة، وليست توجد في شيء من كتب اللغة مستقصاة مثل ماهي في هذا الكتاب، وفيه القلب والإبدال مستقصى، وفيه تفسير الإتياع، وهو مما لا يستيقظ إليه أحد، إلى فوائد كثيرة"³.

وكتاب الأمالي أوكتاب النوادر أو الأمالي والنوادر كما يسمى: يحوي فنونا من الأخبار وضروبا من الأشعار وأنواعاً من الأمثال وغرائب من اللغات، وهذه الأبواب مشبعة ومختارة ومنتحلة، ثم إن الكتاب لم يخل من غريب القرآن وحديث الرسول، وقسم للإبدال، وآخر للإتياع⁴.

¹ جذوة المقتبس، الحميدي، ص 233.

² كتاب الأمالي، القالي، ص 14. مقدمة المصنف.

³ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 240 _ 241.

⁴ «كتاب المقصور والممدود لأبي علي القالي» أحمد عبد المجيد هريدي، مجلة معهد المخطوطات العربية، (د ع)، (ذو الحجة 1394 هـ - نوفمبر 1974 م)، المجلد: 20، الجزء: 02، ص 85. وانظر: جذوة المقتبس، الحميدي، ص 232.

ويقول عبد الرحمان بن خلدون في فضل علم الأدب منوها فيه بكتاب الأمالي والنوادر لأبي علي القالي البغدادي: "وسمنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي «أدب الكاتب» لابن قتيبة، وكتاب «الكامل» للمبرد، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «النوادر» لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها"¹.

وهنا إشارة يذكرها أحمد عبد المجيد هريدي في رحلة الكتاب الأندلسي إلى المشرق حيث قال: «وقد عاد كتاب الأمالي لأبي علي القالي البغدادي إلى المشرق مع المبارك بن سعيد بن محمد الحسن الأسدي (المتوفى بعد 490 هـ)، والذي سمعه بقرطبة من أبي مروان ابن موافى، وقد ذهب المبارك إلى بغداد وعاش بها إلى أن توفي»².

ويظهر من كلامه هو أو من نقل الأخبار ببغداد وذلك إماماً منه إلى أصل ثقافة وتعلم أبي علي القالي البغدادي المشرقية، حيث مكث في بغداد نحواً من ربع قرن أيام الطلب حتى إنه نسب إليها لاشتهاره وطول مكثه فيها.

وأما منهجه في الأمالي فغير واضح، ويكتنفه الغموض، ولعل السبب في ذلك أن الرجل أملاه على شكل مواضيع مختلفة لا تربط بينها وشائج، وإنما الإملاء حسب المقام والحال، لذا جاء الكتاب بعيداً عن مناهج معجمات الألفاظ، والمعاني أيضاً، فمثلاً يبدأ بنص قرآني: آية أو آيات ثم يفسرها ويستنبط منها الفوائد ثم يأتي على قصيدة ويشرحها، ثم يخالف ما قد بدأ به أي يأتي بالشعر أولاً ثم القرآن وهكذا، فالقالي البغدادي - رحمه الله - ألف الأمالي مراعيماً ما يلي³:

- سرد الأخبار والحكايات بأسانيدها، والتمييز بينها عند التعدد، واختيار الأصح والأرجح.

- تشفيح اختياراته وأحكامه بالأدلة من كلام العرب وأشعارها.

- شرح الغريب من كلام العرب الذي يتعرض إليه مستشهداً له.

- إيراد لطائفة من أمثال العرب وأقوالها ومستملحاتها، فهو حريص على تنوع مادة كتابه.

وهذا نموذج من أمالي أبي علي القالي البغدادي حيث يقول: [مادة حسيس] «وقال الأصمعي: يقال: «جاء به من حسك وبسك»، أي من حيث كان ولم يكن، وروى أبو نصر: من حيث شئت، والمعنى واحد، والحس والحسيس: الصوت، قال الله - عز وجل -: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾⁴ والحس: وجع يأخذ المرأة بعد الولادة. والحس: برد يحرق الكلاً.

¹ مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمان بن خلدون، ص 505.

² كتاب المقصور والممدود لأبي علي القالي، أحمد عبد المجيد هريدي، ص 86 - 87 نقلاً عن: النكلمة، 634/2.

³ انظر: كتاب الأمالي، القالي، ص 8. مقدمة التحقيق.

ويقال: أصابتنا حاسة، ويقال: البرد محسة للنبت، أي: يحرقه، ويقال: ضربه فما قال: حسن مكسور، وهي كلمة تقال عند الجزع، قال الراجز: [الرجز].

عطف البَلَايا المسَّ بعد المسَّ فما أَرَاهُم جزعاً يحسُّ

ويقال: اشتر لي محسة للدابة، والحساس سمك صغار يجفف يكون بالبحرين. وقال اللحياني: الحساس: الشؤم والنكد، وأنشدنا أبو زيد: [الرجز].

رُبَّ شَرِيبٍ لَكَ ذِي حُسَاسٍ أَقْعَى يَمْشِي مَشْيَةَ النُّفَاسِ

ليس بريان ولا مواسي.

ويقال: انخست أسنانه إذا تكسرت وتحاتت، قال العجاج: [الرجز].

في معدن الملك القديم الكرسي ليس بمقلوع ولا منحس¹

وقال أبو علي البغدادي في موضع آخر: "والرمض: أن يحمى الحصى والحجارة من شدة الحر، يقول: فليس هناك رمض، لأن النبات قد غطى الأرض. والعازب: الذي يعزب بإبله، أي: يبعد بها في المرعى. وينكع يمنع، يقول: الذي يردها لا يمنع"².

[شعر في الندم]:

قال أبو علي: «وحدثنا أبو بكر - رحمه الله - أن أبا عثمان أنشداهم عن التوزي عن أبي عبيدة لأعرابي طلق امرأته ثم ندم فقال: [الطويل]

ندمت وما تُغني النَّدامَةُ بعدما
خرجن ثلاثَ مالهنَّ رُجوعُ
ثلاثٌ يُحَرِّمْنَ الحلالَ على الفتي
ويصدعنَّ شعبَ الدارِ وهو جميع³»

فمن خلال معالجة المادة عند أبي علي البغدادي في كتابه الأمالي يتضح أنه يفسر ويشرح اللفظ مستأنساً في ذلك بكلام العرب، ويعضد كلامه بأنواع الاستشهاد الممكنة فتارة الشاهد القرآني، وأخرى الشعري، كما أنه يروي اللغة عن مشايخه ومن تقدمهم بالسند المتصل. ولفعله هذا دليل على صفة الضبط والدقة في توثيق النصوص.

إن مما يلفت الانتباه أن أبا علي البغدادي قد ذيل هذا الكتاب المسمى بالأمالي ذيله بكتاب أطلق عليه " ذيل الأمالي "، وبعضهم يقول: ذيل النوادر، وهذا راجع للاختلاف في تسمية الكتاب الأصلي بين

¹ المرجع السابق، ص 172.

² المرجع نفسه، ص 178.

³ نفسه، ص 302.

(الأمالي والنوادر)، لكن ما يذهب إليه كثير من المحققين وهو الراجح أن التسمية كانت بالأمالي ثم يأتي بعدها ذيل الأمالي.

والناس في هذا الأمر بين الارتباط بين الكتابين وبين الاستقلالية كل على حدة، فالمتقدمون يجعلونه كتاباً مستقلاً، ومنهم ابن خير الإشبيلي¹، والمحدثون فهموا من إضافته للأمالي إنما هو تكمله، وبالتالي ألحقوا الجزء المكمل بالأصل، لذا نجد في كتاب واحد، أعني بذلك في طبعه عند المتأخرين.

وابن خير الإشبيلي - رحمه الله - لما ساق خبره قال: كتاب ذيل النوادر* لأبي علي البغدادي، وهو أربعة أجزاء وصل بها النوادر. يقول: "حدثني به شيوخ المتقدم ذكرهم، رحمهم الله، بالأسانيد المسطورة في «النوادر» قبل إلا أنني لم أقرأ عليهم ولا سمعته، وإنما أرويه عنهم إجازة"².

ومن كتاب ذيل الأمالي والنوادر اخترنا مايلي: [حديث أم الهيثم مع أبي عبيدة]

«قال التميمي أخبرني عمر بن خالد العثماني قال: قدمت علينا عجوز من بني منقر تسمى أم الهيثم، فغابت عنا، فسأل عنها أبو عبيدة فقالوا: إنها عليلة، فقال: هل لكم أن نعوّدها؟ فحجنا فاستأذنا، فقالت: لجوا فسلمنا عليها فإذا عليها أهدام وبجد وقد طرحتها عليها، فقلنا: يا أم الهيثم كيف تجد ينك؟ قالت: كنت وحى بالدكة، فشهدت مأدبة، فأكلت جبجة، من صفيف هلعة، فاعترتني زلخة. فقلنا: يا أم الهيثم، أي شيء تقولين؟ فقالت: أو للناس كلامان! والله ما كلمتكم إلا بالعربي الفصيح³».

والملاحظ على الذيل أنه يشبه المتن إلى حد ما، فالأمالي يفوقه من حيث الشرح والتحليل، فالمعنى الغريب يشرح ويفسر ويستشهد له من كلام العرب وأشعارهم.

وهذا الذي يفتقد في الذيل وكأني به سار على غير طريقته السابقة في الأمالي، فهو يحشد فيه الأخبار الكثيرة التي تختلف من حيث الطول والقصر، وكذا المرويات الكثيرة مع مراعاة الأسانيد والضبط.

2- المقصور والممدود:

قال الحميدي في ترجمة أبي علي البغدادي مثبناً هذا الكتاب له: "... وكتابه في «المقصور والممدود والمهموز»⁴ ولم يؤلف في بابه مثله"⁵.

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 403.

* ابن خير ممن اختار اسم النوادر مكان الأمالي، ومع الخلاف الشكلي المتقدم ذكره، فهناك من يجمع بين الأمرين وهو حسن ولا صارف له، إذ يقولون: «ذيل الأمالي والنوادر».

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ ذيل الأمالي والنوادر، القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط)، 1976، ص 78 _ 79.

⁴ هذا العنوان الذي أقره الحميدي، وانظر: جذوة المقتبس، الحميدي، ص 233.

⁵ المرجع نفسه، ص 11.

ويقول ابن خيبر الإشبيلي في خبر هذا الكتاب: كتاب المقصور والممدود لأبي علي البغدادي، في عشرة أجزاء¹.

وله في ذلك رواية إذ يقول: "حدثني به شيخنا الوزير أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكّي، رحمه الله، قراءة مني عليه في منزله، قال: حدثني به الوزير أبو مروان عبد الملك بن سراج، رحمه الله، سماعاً عليه، قال: حدثني به الوزير الأديب أبو سهل يونس بن أحمد الحراني، رحمه الله، قراءة عليه، قال: حدثني أبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب، عن أبي علي البغدادي مؤلفه"².

هذا، ويرجح بعض المحققين أن كتاب «المقصور والممدود» لأبي علي القالي البغدادي الأقدم في التأليف عند الرجل، وقد سبق تأليفه تأليف الأمازي ذلك أن القالي البغدادي ذكره في الأمازي على حد تعبير هاشم الطعان محقق كتاب «البارع»³.

وما يميز هذا الكتاب أن صاحبه قد رتبته وفق رغبة الحكم ولي عهد الأندلس. حيث يقول: "فوجب أن نصنعه على الأمثلة ونؤلفه على الحروف... ولا نعتمد في ذلك إلا على أوائل الكلم دون حشوها وأواخرها، ليكون الأديب والمتأدب والعالم والمتعلم، إذا أراد طلب كلمة طلبها بمثلها على النسق الذي نأتي به في أول هذا الكتاب، أو بأول حرف في الكلمة على ما رتبته في صدر هذا الديوان..."⁴.

ويقصد أبو علي البغدادي بالأساسين الأمثلة والمخارج:

الأساس الأول: الأمثلة، ويقصد بها التشابه بين الكلمتين من حيث البنية والصوت.

الأساس الثاني: المخارج، ويقصد به الترتيب الصوتي، ويحكم هذا الضابط في الحرف الأول من الكلمة فقط دون الحشو والأواخر.

ويقول: "ورأينا أن نستأنف بأقصى الحروف مخرجاً ثم الذي يليه ثم الذي يليه على مدرج المخارج إلى أن تنتهي إلى أذناها وهي الواو، فأقصاها همزة، ثم الهاء، ثم العين، ثم الحاء، ثم الغين، ثم الخاء، ثم القاف، ثم الكاف، ثم الضاد، ثم الجيم، ثم الشين، ثم الياء، ثم اللام، ثم الراء، ثم النون، ثم الطاء، ثم الدال، ثم التاء، ثم الصاد، ثم الزاي، ثم السين، ثم الظاد، ثم الذال، ثم التاء، ثم الفاء، ثم الباء، ثم الميم، ثم الواو"⁵.

وهذا نموذج من كتاب المقصور والممدود لأبي علي البغدادي:

¹ فهرسة ابن خيبر الإشبيلي، ابن خيبر، ص 434.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ انظر: البارع في اللغة، القالي، ص 46. مقدمة المحقق.

⁴ مجلة معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، كتاب المقصور والممدود لأبي علي القالي، تح: أحمد عبد المجيد هريدي، (دع)، ذو الحجة 1394 هـ - نوفمبر 1974 م، المجلد: 20، الجزء: 02، ص 49.

⁵ المرجع السابق، ص 11.

«والغنى ضد الفقر مقصور يكتب بالياء، ويقال قد غني الرجل يَغْنَى غِنًى على وزن رَضِيَ يَرْضَى رِضًى، قال الشاعر:

خُلُقَان لَا أَرْضَا هُمَا لِفَنِّي بطَّرَ الغِنَى ومَدَّلَ الفَقْرَ
فَإِذَا غَنِيَتْ فَلَا تَكُنْ بِطَرًّا وإذا افتقرت فَنَهْ عَلَى الدَّهْرِ
وَاصْبِرْ فَلَسْتَ بِوَاجِدٍ خُلُقًا أدنى إِلَى كَرَمٍ مِنَ الصَّبْرِ

وأنشد أحمد بن يحيى:

ذَرِنِي لِلْغِنَى أَسْعَى فِلَائِي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرَّهْمُ الْفَقِيرُ
وَأَهْوُهُمْ وَأَحْمَلُهُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخَيْرُ

فأما قول الشاعر:

سُيْغِنِي الَّذِي أَغْنَاكَ عَنِّي فَلَا فَقْرٌ يَدُومُ وَلَا غِنَاءُ

فإنما مده للضرورة، وهو رديء ليس بمنزلة قصر الممدود. وأخبرني أبو بكر بن الأنباري قال: أنشدني بعض الناس:

فَلَا فَقْرٌ يَدُومُ وَلَا غِنَاءُ.

وقال: الغناء الاستغناء، ممدود، قال: وقوله عندنا خطأ من وجهين، وذلك أنه لم يرو أحد من الأئمة هذا بفتح الغين، والشعر سبيله أن يحكى عن الأئمة كما تحكى اللغة، ولا تبطل رواية الأئمة بالظن والحدس والحجة الأخرى أن الغناء المدافعة، يقال: ما عند فلان غناء، أي مدافعة، ولا يقال نسأل الله الغناء على معنى الغنى، فهذا يبين لك غلطه ومخالفته للجمهور.

وقال أبو زيد: غَنَى الْقَوْمُ بِالْدارِ زَمَانًا يَغْنُونَ بِهَا غِنًى مَقْصُور، إِذَا أَقَامُوا بِهَا حِينًا¹.

لقد سار أبو علي القالي البغدادي في كتابه «المقصود والممدود» على نهج القدامى الذين سبقوه للتأليف في هذا الفن.

فهو يورد المادة اللغوية ويفسر ويشرح معناها، ثم بيدي حكمه عليها، وينبه على أغلاط الناس فيها محتجا لذلك بحجج نصية أو عقلية، والأمر يلتبس كثيراً على الكتاب والشعراء والأدباء للتقارب الشديد بين ما يمد وما يقصر من الكلمات خاصة في العصور الأولى — عهد المرويات — والتي تعتمد على السماع. فالرجل ينقل كلام الأئمة القدامى المعتبرين في القضايا التي يعالجها، ويناقش الوجوه المحتملة بكل موضوعية، وروح علمية، ويرد على من ضعف حجة، ويرجح من رأى صواب قوله ومطابقته لكلام العرب الفصحاء.

¹ المرجع السابق، ص 177-178.

3- كتاب «أفعل من كذا»:

هذا الكتاب خبره محصور عند ابن خير الأشبيلي - والله أعلم - ولم ينتشر انتشار الكتب الأخرى. يقول ابن خير مثبتا الكتاب منسوباً إلى صاحبه في رواية وحيدة يتيمة: "حدثني به شيخنا أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكي، رحمه الله، عن الوزير أبي مروان عبد الملك بن سراج، عن أبي سهل يونس بن أحمد الحراني عن أبي الحجاج يوسف بن فضالة النحوي، عن أبي علي البغدادي مؤلفه، رحمه الله" ¹. لقد خلت كتب المصادر اللغوية القديمة والتراجم من ذكر هذا الكتاب مع أنه قد يسر الله سبحانه وتعالى طبعه وتحقيقه، وهو الآن منشور.

ونجمل ما قرره المحقق - علي إبراهيم كردي - من خطوات منهجه فيما يلي ²:

- جمع الأمثال التي وافقت صيغة أفعل التفضيل عند العرب، فيقال: أفعل من كذا.
- خلو الكتاب من الخطبة، أو المقدمة، وجاء في أول دخول المؤلف إلى المادة العلمية: كتاب أفعل من كذا، رواية أبي علي إسماعيل بن القاسم رحمه الله وغفر له...
- جمع الكتاب بين الأمثال العربية والمولدة، لكنه يقدم الأولى في المادة الواحدة، ويميز الثانية بقوله: «ومن كلام أهل الحضر» أو «ويقول أهل الحضر».
- لم يرتب المصنف كتابه هذا أي ترتيب معجمي باعتماد الحروف، وإنما حكم التناسب المعنوي والذوق فكانت صفة الوضع الغالبة على بناء الكتاب هي التضاد في إيراد المواد، فيتبع المادة بضدها مثل: (أحسن، أقبح).

وهذا نموذج من كتاب «أفعل من كذا» باب «أسمع»
يقال:

- أسمع من دُلْدُل، وهو القنفذ العظيم.
- وأسمع من فرس.
- وأسمع من قراد.
- وأسمع من حية.
- وأسمع من السَّمْعِ الأزل. السَّمْعُ: أبوه ذئبٌ وأمه ضَبْعٌ ³.

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 433.

² انظر: أفعل من كذا، القالي، تح: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، عين الكرش، دمشق - سوريا، ط1، 1421 هـ - 2000 م، ص(ث-ج)، مقدمة المحقق.

³ المرجع نفسه، ص 14.

فأبو علي القالي البغدادي بعد أن ساق الأمثال في باب ومادة (أسمع) أعقبها بالمادة المضادة لها وهي (أصم) حيث قال: "قال محمد بن حبيب: تقول العرب هو: - أصم من ضب"¹.

ثم ساق بعد هذه المادة مادة «أصلب» حيث قال: يقال:

- أصلب من الحديد.

- أصلب من الأنضر. والنضار: الذهب.

- أصلب من صخرة.

ويقال أيضا:

أشد من الحديد. قال الشاعر:

فلو كنت الحديد كسرتوني ولكي أشد من الحديد²

ثم أتى بعدها بمادة «أصبر»، فهو هنا انتقل من ضابط التضاد السابق بين (أسمع وأصم) إلى شيء آخر وهو مراعاة الجناس اللفظي (أصم وأصلب وأصبر).

4- كتاب فعلت وأفعلت:

لم تذكر المصادر العربية اللغوية وكتب التراجم الشيء الكثير عن هذا الكتاب وإثبات نسبته لصاحبه سوى ما تحدث عنه ابن خبير الإشبيلي في فهرسته، وبعض الإشارات في الكتب القليلة الأخرى. وقد مر معنا كتاب بهذا العنوان للزجاج، ومثله مثبت لأبي حاتم السجستاني، وهناك ثالث لأبي زيد، وآخرهم لشيخه ابن دريد الذي ألف في هذا الموضوع، ومن هنا قد يقوى اللبس في أن أبا علي البغدادي القالي لم يؤلف وإنما روى عن شيخه أو من تقدمه.

ونقل يوسف عيد عن المصادر القديمة إثبات وصول كتاب فعلت وأفعلت للخليفة في قوله: «وصل لأمير المؤمنين يعني الناصر، حتى جعله ثلاثة أمثال ما كان للزجاج³» والذي يظهر من هذا الكلام أن الكتاب «فعلت وأفعلت» أصله للزجاج، وقد زاد عليه أبو علي القالي البغدادي⁴.

¹ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

² المرجع نفسه، ص 15.

³ لقد وهم الدكتور يوسف عيد في عزوه المقولة لمصادر مثل طبقات الزبيدي، وإنباه الرواة، وليس الأمر كذلك، وإنما هي عند ابن خبير حيث يقول: "كتاب فعلت وأفعلت لأبي علي البغدادي، وصله لأمير المؤمنين، أبواه الله، حتى جعله ثلاثة أمثال ما كان للزجاج" وانظر: فهرسة ابن خبير الإشبيلي، ابن خبير، ص 432.

⁴ النشاط العجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص 78.

ولقد ساق ابن خير في خبره روايتين من طريق شيخه: الأولى عن الوزير أبي عبد الله جعفر بن محمد بن مكّي، والثانية عن الخطيب أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني المقرئ. إذ قال في سند الأولى: "حدثني به شيخنا الوزير أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكّي، رحمه الله، قراءة مني عليه في منزله، قال: حدثني به الوزير أبو مروان عبد الملك بن سراج، ابن عبد الله بن سراج، عن الوزير أبي سهل يونس بن أحمد الحراني، قال: حدثنا به أبو الحجاج يوسف بن فضالة النحوي، عن أبي علي البغدادى مؤلفه، رحمه الله" ¹.

فالكتاب «فعلت وأفعلت» ثابت أنه روي وصدر عن أبي علي القالي البغدادى، لكن الجدل واقع في مدى استقلاليتة بالكتاب، لأن الرأي الذي يقول بأن الكتاب للزجاج أصالة ثم زاد هو عليه قوي للمرجحات التي ذكرنا سابقاً.

5- حلي الإنسان:

لقد أجمعت المصادر الموثوقة على هذه التسمية للكتاب ². وربما رأى بعضهم أن الكلمة وقع لها تصحيف، والأصل فيها حقيقة «خلق الإنسان» ³. لكن ما هو معلوم ومسطر عند أهل المصادر أن أبا علي البغدادى القالي كان له علم مسبق بكتب «خلق الإنسان» عن الأئمة السابقين، وجزم ابن خير الأشبيلي بروايته لكتاب «خلق الإنسان» لثابت ⁴، والأصمعي ⁵ وإذا، فالرجل لديه علم واطلاع بمواد هذه الأنواع من التواليف، حتى إنه نقل من بعضها خاصة في كتابيه المشهورين «الأمالي» و«البارع». فكتيرة هي المطالب التي تظهر فيها أشياء من هذا الحقل الدلالي في الكتابين الأخيرين وخاصة الأمالي.

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 432.

² المرجع نفسه، ص 435، وإنباه الرواة، القفطي، 241/1، بغية الوعاة، السيوطي، 453/1.

معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 730.

³ الكنى والألقاب، عباس القمي، 57/3.

⁴ قال ابن خير بعد أن ساق عديد الروايات للكتاب والتي تنتهي عند أبي علي البغدادى: "وحدثني به أيضا الوزير أبو بكر محمد بن عبد الغني بن عمر بن قندلة، رحمه الله، سمعاً مني عليه في منزله، قال: حدثني به الشيخان أبو الفتح سعدون بن المرادي المالقي، قراءة عليه بمدينة شلب، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري ويعرف بابن رمادة الأشبوني، قراءة عليه أيضا، حدثني به سعدون، عن أبي سهل يونس بن أحمد الحراني، قراءة منه عليه، عن أبي عمر بن أبي الحباب، عن أبي علي البغدادى". وانظر: فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 446.

⁵ أثبت له ابن خير الإشبيلي رواية واحدة مع جمع من كتب الأصمعي حيث قال فيها: "حدثني بذلك كله الأديب أبو عبد الله محمد بن سليمان النفري، عن خاله الأديب أبي محمد غانم بن وليد بن عمر المخزومي، عن أبي عمر يوسف بن عبد الله بن خيرون السهمي، عن أبي القاسم أحمد بن أبان بن سيد، عن أبي علي البغدادى، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم السجستاني، عن الأصمعي". وانظر: المرجع نفسه، ص 459.

6- كتاب الإبل ونتاجها وجميع أحوالها¹:

وبعضهم يرى تسمية أخرى، وهي كتاب في الإبل ونتاجها وما تصرف معها². لكن ما هو مركزي الدلالة هنا ويجمع بينهما هو حقل الإبل وما يتعلق بها. والمعلومات عن هذا الكتاب في المصادر قليلة جداً، وقد أثبت ابن خير الإشبيلي أن هذا الكتاب يقع في خمسة أجزاء³.

وصحيح أنه ثبت أن أبا علي القالي البغدادي قد روى كتاب الإبل للأصمعي رواه مع مجموعة من الكتب مع خلق الإنسان السابق. لكن الذي يظهر - والله أعلم - أن هذا كتاب آخر مستقل لأبي علي القالي البغدادي، ربما أفاد من كتاب الأصمعي وغيره من الأئمة اللغويين أيضاً في بناء كتبه خاصة منها الأمالي والبارع.

7- كتاب الخيل وشياتها:

لقد كان التأليف في الخيل معروفاً قبل أبي علي القالي البغدادي، ويرجع الأمر إلى المراحل الأولى من جمع اللغة حيث ظهر التأليف في ما يسمى بالرسائل الإفرادية ذات الموضوع الواحد، لذا أُلّف في موضوع الخيل غير واحد من الأئمة ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى (210 هـ). وصحيح قد ثبت أن أبا علي البغدادي قد روى كتاب الخيل لأبي عبيدة، ولعله أفاد منه الشيء الكثير خاصة في غياب كتاب «الخيّل» لأبي علي البغدادي أعني كتاباً مستقلاً، فهذا الأمر من شأنه أن يقوي احتمال النقل عن أبي عبيدة. هذا، ويقول ابن خير الإشبيلي في ذلك: "حدثني به الشيخ أبو الحسين عبد الملك بن محمد ابن هشام، رحمه الله، عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد، عن أخيه أبي الحسن علي بن محمد، عن الأستاذ أبي عبد الله محمد بن يونس الحجاري، عن أبي محمد بن الأسلمية، عن محمد بن أبان ابن سيد عن أبي علي البغدادي، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة"⁴.

8- كتاب مقاتل الفرسان:

وقد وجدت تسمية أخرى عند السيوطي⁵ وهي «مقاتل العرب»، ومن بعده الذين نقلوا عنه. وورد في هدية العارفين «فضائل الفرسان»⁶، لكن التصحيف عمل عمله.

¹ هذه التسمية عند ابن خير، وقد جمعه مع كتاب حلي الإنسان، وانظر: فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 435.

² هذه التسمية عند القفطي، وانظر: إنباه الرواة، القفطي، 241/1.

³ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 435.

⁴ المرجع نفسه، ص 469.

⁵ بغية الوعاة، السيوطي، 453/1.

⁶ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، مؤسسة التاريخ العربي، ط وكالة المعارف الجلييلة، اسطنبول - تركيا، (دط)، 208/1، 1951.

9- كتاب تفسير القصائد والمعلقات وتفسير إعرابها ومعانيها:

أثبت ابن خير الإشبيلي¹ هذه التسمية، ووافقه على ذلك جماعة معتبرة من علماء تراجم الأعيان من الرجال².

لقد ساق ابن خير خبر الكتب الخمسة لأبي علي البغدادي والمذكورة أخيراً مجموعة، وأثبتها برواية واحدة تنتهي عند مؤلفها إذ قال: "حدثني بذلك كله أبو عبد الله محمد بن سليمان النفزي، عن خاله أبي محمد غانم بن وليد، عن أبي بكر عبادة بن ماء السماء، عن أبي بكر الزبيدي، عن أبي علي مؤلفها، رحمه الله"³.

10- فهرسته وأخباره وتسمية كتبه وتوليفه:

وهذا الكتاب أيضاً يلاحظ عليه شح المعلومات التي تبينه مادة ومنهجاً، بل إن المصادر لم تذكره إلا ابن خير في فهرسته.

يقول ابن خير: "حدثني بها أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد النفزي، رحمه الله، عن خاله الأديب أبي محمد غانم بن وليد بن عمر المخزومي، عن أبي عمر يوسف بن عبد الله بن خيرون السهمي، عن أبي القاسم أحمد بن أبان بن سيد، عن أبي علي البغدادي"⁴.

11- البارع في اللغة:

وهذا كتاب قد طارت شهرته في الآفاق، ويعرفه العرب والعجم من غرب ومن شرق، وقد صنّفه أبو علي القالي البغدادي فيما يسمى اليوم بالصناعة المعجمية، وهو أحد أبرز معاجم الألفاظ الأولى التي عرفها الغرب الإسلامي، والأندلس بصفة خاصة، وضمنه أبو علي عصارة تحصيله اللغوي طيلة عقود وعقود من الزمن.

وأخرنا هذا الكتاب في ذكر مؤلفات أبي علي البغدادي رغم أنه قرين الأمالي في الشهرة. إن لم يكن أولى منه لأمر علمية اختص بها على حسابه. ذلك أن البارع في اللغة موضوع دراستنا، وآثرنا التفصيل فيه في الفصل التالي والمخصص له.

وإذا كانت هذه كتب ومؤلفات أبي علي القالي البغدادي التي وردت في مختلف المصادر العربية القديمة مع التتبع والتدقيق والتمحيص قصد الوصول إلى غايات البحث العلمية.

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 436.

² طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 186، إنباه الرواة، القفطي، 241/1.

³ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 436.

⁴ المرجع نفسه، ص 532.

- وهذه الكتب التي مرت معنا أسماؤها وتراجها تتفاوت من حيث الذبوع والشبوع عند الباحتين والدارسين والقراء، وهذا راجع لأسباب لعلنا نحملها فيما يلي:
- مدى النفع والجدى الذي يتحقق في الكتاب المؤلف نفسه، فبعض الكتب لا يستغني عنها الأديب، والشاعر، والباحث والدارس، وبعضها تختص بما طائفة دون أخرى فالأولى تتمثل في معاجم الألفاظ مثل: البارع، والتالية تتمثل في معاجم الموضوعات أو الرسائل الإفرادية مثل كتاب «أفعل من كذا».
 - التشابه الكبير بين المؤلفات، فمثلا قد تؤلف رسالة، أو كتاب في الخيل وشياتها ثم تجد منه القسط الكبير في الأمالي أو البارع.
 - التشابه بين المؤلفات عند المتقدمين، فرسالة «أفعل من كذا» وموضوعها الأمثال العربية فقد يكتب الرواج لأمثال الأصمعي أو غيره على حسابه.
 - ضياع الكم الهائل من المخطوطات العربية خاصة منها الأندلسية بعد الاضطرابات السياسية وسقوط الأندلس، الأمر الذي حال دون وصول المحقق للمخطوط.
 - بعض الكتب والمؤلفات لم يصلنا في الحقيقة والواقع إلا أسماؤها، وقد يختلف فيها أصلاً.
 - قضية طبع الكتب لها دور كبير في نشر المؤلفات والترويج لها، وهل يعقل ترك ما ألفه أبو علي البغدادى وغيره من نفائس علومهم في تراثنا العربي، ونسعى لأمر أخرى قد لا تزيد لهويتنا إلا طمساً.

المبحث الثالث: دور أبي علي القالي البغدادي في بعث الحركة اللغوية والأدبية بالأندلس

إن أبا علي القالي البغدادي لمن الشخصيات العلمية النادرة الوجود، فهو لما انتقل من بلده الأصلي "منازجرد" إلى "بغداد" حاضرة العلم والعلماء، كان ناوياً قبل ثني الركب عند العلماء وتحصيل العلم غير آبه بالعوائق الكثيرة التي تعترضه في طريقه، ثم إنه لما مكث في بغداد خمسا وعشرين سنة، كان قد حصل بعض الفنون من العلوم المختلفة وعلى رأسها اللغة العربية، وقد أخذها عمن رحلوا ورووا وشافهوا الأعراب الأقحاح أهل الفصاحة والبيان، ولما بلغ أبو علي القالي البغدادي الأهلية في التعليم والتدريس، نوى الرحيل عن بغداد متجها صوب المغرب الإسلامي، فجاب أقطار المغرب الإسلامي آنذاك فيما يقارب ثلاث سنوات متنقلا من بلد إلى آخر دخل أرض الكنانة، ومنها إلى طبرق ثم القيروان ثم بجاية، ومن هذه الأخيرة ركب البحر وعبر المياه إلى الجانب الآخر، فالرجل كان لديه عرض من الخليفة عبد الرحمان الناصر وابنه ووليه عهده الحكم بالفود إلى البلاد الجديدة (الأندلس) قصد التأديب، ونشر العلم هناك، فأهل البلاد في شغف وتطلع لما سيأتي به الحكم العربي في الأندلس من جميع النواحي، وهذا من فطنة الخليفة، فضروري تعزيز السياسة بأهل العلم والعلماء، فكان لهم ما أملوا وهياً الله سبحانه وتعالى أسباب النفع بالعلم.

ولما نزل أبو علي القالي البغدادي بأرض الجزيرة الخضراء¹ استقبل استقبالاً يليق بمقام العلماء وذوي المكانة الرفيعة، إذ بأمر من الخليفة نفسه أن يستقبل أبو علي، ويقوم بعض من استعملهم على شأنه²، فأكرمه وبالع في ذلك، ثم أنشد الشعراء قصائدهم في هذا الحفل الذي حظي بحضور عالم لغوي بارز وخليفة البلد والمسلمين، ومن عيون الشعر العربي الأندلسي الذي ألقى يومئذ قصيدة للشاعر المشهور يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي حيث قال فيها³:

روضُ تعاهدَه السحابُ كأنه	مُتعاهدٌ من عهدِ «إسماعيل»
قسنه إلى الأعرابِ تعلم أنه	أولى من الأعرابِ بالتفضيل
حازت قبائلهم لغاتٍ فرقت	فيهم وحاز لغاتٍ كل قبيل
فالشرق خالٍ بعده فكأنما	نزل الخراب برضه المأهول
وكأنه شمسٌ بدت في غربنا	وتغييت عن شرقهم بأفول
يا سيدي هذا ثنائي لم أقل	زوراً ولا عرضت بالتنويل
من كان يأمل نائلاً فأنا امرؤ	لم أرج غير القرب في تأميلي

¹ كان نزوله بقرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلاثمائة. وانظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، 227/1.

² استقبله عاملهم ابن رماحس أن يجيء مع أبي علي إلى قرطبة، ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكريماً لأبي علي، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل. وانظر: نفح الطيب، المقرئ، 70/3.

³ النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص 76.

وانظر كيف جادت قريحة الشاعر الرمادي، واترك اللغة لأهل اللغة، استقر أبو علي القالي البغدادي بقرطبة ينشر العلم محتسباً أمره لله سبحانه وتعالى، وقد أفاد منه خلق كثير طلاب ملازمون لدروسه، وغير الطلاب ممن حضر الدرس الذي عادة يلقيه في جامع الزهراء بقرطبة على بني الملوك وغيرهم¹.

فبمجيء أبي علي القالي البغدادي إلى قرطبة دار العلوم تغيرت الحالة الثقافية والعلمية في الأندلس، وقد كان أبو علي سبباً كبيراً في ذلك، فالرجل أتاهم بما كانوا يفتقرون إليه: اللغة والأدب والأخبار، وسعى في تبليغ ما كان قد أخذه شرقاً، وتذكر المصادر أنه كان ذا حافظة قل نظيرها عند بني البشر، وما يثبت ذلك إملاءاته الكثيرة، في المواضيع المختلفة²، وارتجالاته التي تصيب الغاية في مقامات شتى.

هذا، وقد صرف أبو علي القالي البغدادي أكثر جهده في تعليم اللغة إيماناً منه أنها وسيلة العلم، فهي علم الآلة، وإتقان أي فن من الفنون يتوقف على تحصيل وسيلته أولاً، ثم كان له قسط من الأدب والأشعار والأخبار لكنه بدرجة أقل من الأولى.

وكان كل من سمع به في مختلف المدن الأندلسية قصده، وجاور بمكان تدريسه، عسى أن ينتفع بعلمه، فالرحلة إلى المشرق في ذلك الوقت ليست بالأمر اليسير، ضف إلى ذلك ارتباط البعض بالتزامات تجبرهم على البقاء في الأندلس، ومن لم تتييسر له الرحلة في طلب العلم، فلا أقل من الاستماع لأبي علي القالي البغدادي وغيره من الذين وفدوا من المشرق وحصلوا علماً وأرادوا تبليغه في الأندلس.

أولاً- جهود أبي علي القالي اللغوية:

لقد تقدم معنا أن أبا علي القالي البغدادي كانت اللغة طاغية على حياته العلمية في المشرق والمغرب تعلماً وتعليماً، هذا الأمر بالضرورة كان له انعكاسه في الطور الثالث من حياته، والخاص بالحياة الأندلسية، حتى إنه نسب إلى اللغة فيقال: أبو علي القالي البغدادي اللغوي³.

1- النحو:

لقد أثبتت المصادر أن أبا علي القالي البغدادي كان قد درس النحو في بغداد، يقول تلميذه الزبيدي في ترجمته: "... وأعلمهم بعلل النحو على مذهب البصريين، وأكثرهم تدقيقاً فيه. وعمل كتاب سيبويه على عبد الله بن جعفر بن درستويه، وسأله عنه حرفاً حرفاً وعن علله"⁴.

¹ انظر: فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 403.

² إشارة إلى كتابه المانع «الأمالي أو النوادر». فقد قال تلميذه أبو بكر الزبيدي: وله أوضاع كثيرة أملاها على ظهر قلب منها كتابه في الخير، المعروف بالنوادر، أملاه ظاهراً، وارتجل تفسير ما فيه. وانظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 185 - 186.

³ لقد ترجم له تلميذه الزبيدي في الطبقات، وأدرجه في الطبقة العاشرة من المدرسة النحوية البصرية من أصحاب درستويه، وأدرجه أيضاً في أصحاب ابن دريد في الطبقة السابعة من اللغويين البصريين، لكن غلب عليه وصف اللغوي. وانظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 121، 185.

⁴ المرجع نفسه، ص 185.

وقد مر معنا أنه روى كتاب البهي في النحو للفراء¹.
ومعلوم أن سيبويه بصري والفراء كوفي، وهذا محمول على أن من النحاة من خلط بين المذهبين،
وهذه صفة من صفات نحاة بغداد والرجل تعلم هناك.
لكن تلميذه البارز الزبيدي في موضع آخر من ترجمته يصرح بأنه أظهر فضل مذهب البصريين على
مذهب الكوفيين، ونصر مذهب سيبويه على من خالفه من البصريين أيضاً، وأقام الحجة له².
ومهما يكن من أمر فإن أبا علي القالي البغدادي في الأندلس لم يذكر له بروز في النحو وما يتعلق
به، فربما في التأديب للصغار كان له شأن وعناية.
وفي تدريسه فقد يتعرض لمسائل متفرقة من النحو، وأما تخصيص دروس نحوية منتظمة، أو تأليف
كتاب مستقل في فن النحو فهذا مما لم يعرف عنه.

2- الأخبار:

والأخبار³ جمع خبر، ويقصد بها ما يروى من أحداث سمعت أو شوهدت أو نقلت في أي مجال.
فأبو علي القالي البغدادي ليس هو بالأخباري الذي يترجم للأعيان والوجهاء من الرجال والنساء،
ويذكر أخبارهم، وإنما هو صاحب مرويات وأخبار في فنون من العلوم شتى، يخبر ويروي ما حصله أيام
الطلب وسمعه من أفواه شيوخه.
وقد جاء في ترجمته التي سطرها تلميذه البارز في الطبقات ما يلي: "قال: يعني أبا علي القالي
البغدادي-: وسمعت الأخبار واللغة عن أبي بكر محمد بن الحسن ابن دريد... [إلى أن قال] ومن أبي بكر
أحمد بن موسى..."⁴.

وبعد تلميذه يأتي الحميدي ليثبت النفس اللغوي والأخباري عند أبي علي القالي البغدادي حيث
يقول: "وقد ألف في علمه الذي اختص به تواليف مشهورة، تدل على سعة روايته، وكثرة إشرافه، وأملى
كتاباً سماه النوادر يشتمل على أخبار، وأشعار ولغة"⁵.

وهذا نموذج من الأخبار الواردة في كتاب «الأمالى» أو «النوادر»:
[دعاء أعرابي عشية عرفة، والدعاء بالصلاح والمعافة، ودوام النعم].

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 386.

² طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 121.

³ والخبر قد يكون عن شخص، أو بلاد، أو أوصاف غريبة في بعض الناس، أو أمر فيه طرافة وندوة وغيرها.

⁴ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 187.

⁵ جذوة المقتبس، الحميدي، ص 232.

قال أبو علي -رحمه الله- «وحدثنا أبو بكر بن البستبان، قال: حدثنا أبو يعلي، عن الأصمعي، قال: شهدت أعربيا عشية عرفة بالموقف فسمعتة يقول: اللهم إن هذه العشية من عشايا منحتك، وأحد أيام زلفيك فيها يعرض إليك بالهمم، بكل لسان تدعى، وكل خيرك فيها يبغى، أتنك الضوامر من الفج العميق، وجابت إليك المهارق من شعب المضيق، ترجو مالا خلف له من وعدك، ولا مترك له من عظيم أجرك، أبرزت إليك وجوهها المصونة، صابرة على لفح السمائم وبرد ليل التمام، ليدركوا بذلك رضوانك، ثم انتحب وبكى، ورفع يديه وطرفه إلى السماء، ثم أنشأ يقول: إلهي إن كنت مددت يدي إليك داعيا، فطالما كفيتني ساهيا، نعمتك تظاهرها علي عند القفلة، فكيف أياأس منها عند الرجعة، ولا أترك رجاءك لما قدمت من اقتراف آثامك، وإن كنت لا أصل إليك إلا بك، فهب لي يا رب الصلاح في الولد، والأمن في البلد، وعافني من شر الحسد، ومن شر الدهر النكد¹».

فهذا نموذج من كتاب «الأمالي» أو «النوادر». الذي يعج بالأخبار التي يرويها أبو علي القالي البغدادي.

وقد يتضمن الخبر بعض الأشعار، والقصص، والطرف، والمستملحات وتفسير بعض الآيات، ورواية بعض الأحاديث النبوية الشريفة، وأول ما بدأ أبو علي التدريس بدأ بهذا الكتاب، ولعله من حكمته أن استهل مجاله التدريسي بأمور عامه تناسب مختلف مقامات السامعين والمستمعين له.

ثم إن أبا علي القالي البغدادي لما كانت مادة لغته وأخباره غزيرة احتاج إلى وصل كتابه هذا «الأمالي» أو «النوادر» بذيل وسمي بذيل الأمالي يقول المحدثون وهكذا يروج له تداولاً وتسويقاً، وبذيل النوادر عند القدامى تمحيصاً وتحقيقاً.

وبينهما رأي حسن جامع قال: ذيل «الأمالي» و«النوادر»، ويقول المحدثون إذا أمكن الجمع فلم نلجأ إلى النسخ، فهذا أمر طيب.

هذا ما وصل إلينا من أخبار أبي علي القالي البغدادي بالتوثيق في صورة ومظهر كتاب «الأمالي والنوادر»، وإلا فإملاءاته كثيرة جداً، وارتجالاته أيضاً لا حصر لها، فهي وليدة الصدفة، والمقام، ونحن نعلم أنه في بدايات تصدره للتدريس ونشر العلم، كان نشاطه الدعوي والتعليمي على شكل مجالس، والمادة التي تعرض فيها محسوبة على الفنون القولية الموجهة إلى مستمعين، وربما لم يحتسب لها حساب التأليف أصلاً، فهذا الإجراء جاء متأخراً، ولنا فيه فائدة علمية هي التوثيق، والإفادة من مادته اللغوية والإخبارية.

¹ الأمالي، القالي، ص 556.

إن أبا علي القالي البغدادي حين استقر بقرطبة وبدعم ذوي السلطة له كان يمهّد لنشوء حركة علمية لغوية في الأندلس انطلاقاً من قرطبة، وهذه الحركة تعتمد على ثقافة مشرقية، ذلك أن الفاعلين فيها وعلى رأسهم أبو علي القالي البغدادي من الذين حصلوا العلوم بالمشرق وتثقفوا بثقافته لردح غير قليل من الزمن. وتجدر بنا الإشارة هنا إلى ما كان قد سطره ابن خير الإشبيلي في فهرسته حيث عنوان بـ: "وما جلبه أبو علي القالي البغدادي من الأخبار"، وساق تحته أخباراً كثيرة موثقة بالروايات المتصلة السند إلى جامعها وناقلاً - رحمه الله -.

ونبسطها بترتيب ابن خير لها على النحو التالي¹:

- ثمانية وعشرون جزءاً من أخبار نفطويه مجموعة، قال أبو علي: سمعتها منه.
- وخمسة أجزاء من أخبار ابن الأنباري، سماع.
- وسبعة أجزاء عن ابن أبي الأزهري، سماع.
- وثمانية وخمسون جزءاً من أخبار ابن دريد، سماع.
- وجزءان من الأخبار والإنشادات، سماع.
- وجزءان من أخبار وإنشادات، عن الأخفش.
- والمدخل للمبرد في جزء تام.
- والمهذب، تام في جزأين للدينوري.
- وكتاب الأحباس في جزأين لأبي نصر، سمعته من ابن الأنباري.
- ومقاتل الفرسان²، نسخة غير مرضية ولا مسموعة.
- وجزء فيه عدة من أيام العرب ومعاني الشعر للباهلي، تام، وقد كنت اشتريت هذه النسخة على أن أقابلها فقطعني عن ذلك الشغل.
- وكتاب البهي للفراء، مسموع، وفيه قصائد شتى مما قرأته على ابن دريد.
- وإنشادات قرأتها من خط إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وقرأتها على ابن دريد في جزء.
- ومراثي الأعلام، غير مسموعة، في جزء.
- وكتاب الألف واللام، في جزء للمازني.
- وكذلك التصريف له في جزء.

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 488 - 489.

² هذا الكتاب ليس من تأليفه، أبين ليرتفع اللبس، لأن كتب المصادر ذكرت كتاباً من تأليفه هو بهذا العنوان، أما هذا الكتاب فهو لأبي عبيدة معمر ابن المثنى (210 هـ)، وانظر: المرجع نفسه، ص 469.

- وكتاب الإكليل، غير مسموع في جزأين.
- والضيفان لثعلب، مسموع.
- والعروض لابن درستويه، تام، سبعة أجزاء.
- لغة مجموعة، تأليف، ولم أتممه.
- وكتاب السرج واللجام، لابن دريد، تام، قرأته.

ثم قال ابن خبير بعدما أتم سردها: "حدثني بهذه الجملة المتقدم ذكرها عن أبي علي القالي البغدادي، رحمه الله، شيخنا الأديب أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد النفزي، رحمه الله، عن خاله الأديب أبي محمد غانم بن وليد المخزومي، عن أبي عمر يوسف بن عبد الله بن خيرون السهمي، عن أبي القاسم أحمد بن أبان بن سيد، عن أبي علي القالي البغدادي، رحمه الله" ¹.

إن هذا الكم الهائل من الكتب والأخبار الذي تحمّله أبو علي القالي البغدادي لكفيل بصناعة شخصية علمية لغوية أخبارية وأدبية، يضيء إشعاعها بلاد الأندلس والتي هي في شغف لتعلم اللغة العربية ومختلف فنونها، ثم إن هذا الأمر الذي جعل أبا علي القالي البغدادي رائداً للحركة اللغوية في بلاد الأندلس في القرن الرابع الهجري.

3- اللغة والمعاجم:

ريادة أبي علي القالي البغدادي في اللغة بالأندلس لم تأت من فراغ، فالرجل له جهود معتبرة في الدرس اللغوي عموماً انطلاقاً من بداية تدريسه في قرطبة والذي كان في زمن مبكر جداً بالنسبة لهذه البلاد، ذلك أن مثل هذه الأنشطة كانت محصورة في التأديب للصغار، وما عداها فشيء قليل. ومن عموم اللغة نذهب إلى فرع من فروعها وهو علم المعاجم والذي تعنيه دراستنا في هذا المقام والمعجم الأندلسي على وجه الخصوص.

وإذاً فإن الحركة المعجمية في الأندلس بدأت مع ظهور باكورة المعاجم العربية معجم «العين» للخيل بن أحمد الفراهيدي في الأندلس، وصاحبه المنظر الأول لهذا الفن عند العرب شرقاً وغرباً، وأفاد منه من اتبع نهجه ومن خالفه في ذلك أيضاً، ولا يخفى على دارس وباحث في هذا المجال التأثير البالغ لمعجم العين على التواليف المعجمية الأندلسية من بعد ما عرفوه مع بداية القرن الرابع الهجري.

ولقد مر معنا في مباحث سابقة أن كتاب «العين» قد دخل الأندلس عن طريق الطلاب الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق طلباً للعلم، وأولى النسخ الداخلة إلى الأندلس فيما يذكر أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي (379هـ) وكان مؤرخاً أندلسياً اشتغل بدراسة كتاب العين طويلاً إذ يقول في ترجمته لثابت بن عبد

¹ المرجع السابق، ص 489.

العزير السرقسطي وابنه قاسم: «... وهما أول من أدخل كتاب العين بالأندلس...»¹. وقد رحلا إلى المشرق للسمع من علمائه سنة (288 هـ)، ثم عادا بعد مدة، فتوفي قاسم سنة (302 هـ)، وأعقبه والده ثابت سنة (314 هـ)².

ومضت السنون حتى ولي الحكم أمر الخلافة، وهو أحد أقطاب الثقافة الأندلسية عرف بحبه للعلم وأهله، وتذكر المصادر التاريخية أن خزانته العظيمة كانت تتوفر على نسخ عديدة من كتاب «العين»، ولكننا لا نعرف إلا نسختين أولاهما: نسخة ثابت، والثانية: نسخة القاضي منذر بن سعيد البلوطي (355 هـ) التي كان قد قرأها وكتبها بالقيروان، وقابلها على نسخة ابن ولاد سنة (332 هـ) بمصر³.

لقد شغلت الأخطاء والتصحيفات في النسخ الحكم، فسعى إلى استخراج نسخة صحيحة معتمدة. وعمد إلى القالي أبي علي البغدادي أن يشكل لجنة رباعية هو رئيسها، وأشرف عليها الحكم بنفسه في متابعة الأعمال، وكان الأعضاء الثلاثة المختارين من أبرز تلاميذ أبي علي البغدادي وهم: أبو بكر محمد بن الحسين الفهري، ومحمد بن أبان بن سيد وأخوه أحمد بن أبان بن سيد اللخميان، وكان مقر هذه اللجنة دار الملك بقرطبة⁴.

ولا شك أن الأخطاء والتصحيفات الموجودة بنسخ الحكم آتية من النقلة إبان النسخ، ومثل هذه الأمور قد تحدث قصداً أو اتفاقاً.

ولو لم يكن أبو علي القالي البغدادي بهذه المكانة في علم اللغة ما كان الحكم ليؤكله على أمر عظيم كهذا، فمهمة التحقيق في الكتب والمصادر لا يقدر عليها إلا من بلغ الغاية في هذا المجال، وشهد له الأقران بأن له قدماً في ذلك.

وواضح أن أبا علي القالي البغدادي قد أعجب بعمل الخليل بن أحمد المعجمي في نسخ كتاب العين التي اطلع عليها، خلال المهمة المؤكدة إليه من طرف الحكم، لكنه كان يتحفظ في نسبة الكتاب إلى الخليل عندما ينقل عنه، كما فعل في كتابه المعروف بـ "المقصود والممدود" فهو عندما نقل منه قال: قال صاحب كتاب العين⁵ لتيقنه أن كثير الأخطاء الموجودة بالنسخ الخليل بريء منها، ذلك أنه يعرف منزلة الخليل بن

¹ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 284.

² انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الود غيري، ص 13.

³ انظر: المرجع نفسه، ص 14.

⁴ انظر: إنباه الرواة، القفطي، 71/3.

⁵ قال أبو علي القالي البغدادي في كتابه المقصود والممدود في معالجة اللفظة: (العزاء) بعدما ساق أنواعاً من الاستشهاد: القرآن، والشعر، وكلام العرب، ولما أراد أن ينقل عن كتاب العين قال: قال صاحب كتاب العين: «القراء: الأرض الفضاء التي لا يستتر فيها شيء...» وانظر: المقصود والممدود، أبو علي القالي، تح: أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط 1، 1419 هـ - 1999 م، ص 324.

أحمد العلمية خاصة في المجال اللغوي، كيف لا وهو الذي شافه الأعراب بنفسه، وأبدع نظرية المعجم اللفظي العربي وأصولها على غير مثال سابق.

لقد رأينا صورة من احتفاء أهل الأندلس بكتاب «العين» على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم، فالأمر الذي يشد انتباه الساسة، والعلماء، وطلاب العلم لا تشك في أنه أمر ذوبال، فما حظي به كتاب «العين» عند الأندلسيين في الميدان المعجمي لم يحظ به غيره من الكتب خاصة في أوائل هذا القرن.

هذه الجهود التي بذلت من طرف الخليفة، وأبي علي البغدادي وطلابه حول كتاب العين، هي التي كانت سببا في الترويج والتأليف على منهج كتاب «العين» أي مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليب، وكانت أول ما عرف الأندلسيون في الصناعة المعجمية.

وبعد كتاب العين للخليل، ظهر كتاب «البارع في اللغة» لأبي علي القالي البغدادي في الساحة الأندلسية كنتيجة مباشرة لبيان التأثير الشديد بصنيع الخليل بن أحمد، حيث سار فيه أبو علي البغدادي على أسس بناء كتاب العين من ترتيب حسب مخارج الحروف، وتقاليب، وأبنية.

وسنة الله جارية على الخلق في إفادة التالي من الأول، فقد ظهر أبو بكر الزبيدي -وهو من حسنات القالي في الاندلس- مؤلفا لغويا بارزا، وقد عني بما ألفه الخليل والقالي من بعده من كتب المدرسة الصوتية والتقاليب.

وعلى خطى الشيخ سار التلميذ أعني صنيع أبي بكر الزبيدي اللغوي المؤرخ تلميذ أبي علي القالي البغدادي البارز، حيث ولع هذا الرجل أيضا بعمل الخليل المعجمي ومكث طويلا يدرسه حتى إنهم يقولون عن الكتب البارزة والتي حققت رواجاً وتداولاً وطارت شهرتها كم من شارح له ومختصر، ومستدرك عليه منتصر، فالزبيدي تحقق فيه جمع الصفات المتقدمة إزاء كتاب العين للخليل، فهو له «مختصر العين»، و«المستدرك في اللغة» وهو استدراك على «العين» للخليل. بل إن الرجل لم يتوقف عند هذا الحد وجمع العاملين من الأول والتالي كليهما فحظيا بعناية منه، وما ذاك إلا رد جميل للتالي بر الأستاذية -فإنه كان جد مقرب من أبي علي البغدادي، وتفرد منه بكثير من المعلومات عن غيره - وهو في الوقت نفسه سعى بشيوع وذيوع عمل الخليل كونه الرجل المبدع والمنظر الأول لهذه المدرسة المعجمية التي عرفت شرقا وطارت شهرتها غربا.

ثم إنه من غريب الأندلسيين، والغرائب جمة، أنهم ربما ألفوا كتباً ليست بمعاجم ألفاظ، ولكنهم سعوا لإقحام منهج مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليب فيها لشدة التأثير بكتاب «العين» فالسوق رائجة وقتذاك. فهذا أبو علي القالي البغدادي الرائد الأول للمعجمية الأندلسية عامة، ولمدرسة العين بصفة خاصة كان قد ألف كتاباً أسماه المقصور والممدود في الظواهر اللغوية المتعلقة ببنية الكلمة وأحوالها ومعانيها فأجراه على

مخارج الحروف لا على الألفباء المألوفة، لكن هذه المخارج خاصة به، فهو يخالف ترتيب الخليل في بعض الحروف.

وهذا كتاب «الأفعال» للسرقسطي المعروف بابن الحداد (400 هـ) وإن كان أصله عند أستاذه ابن القوطية «الأفعال» أيضا سار به على مخارج الحروف، لكنه أثر ترتيب سيبويه مع مخالفة بسيطة ليرز مدى التأثير بالمدرسة الصوتية في المعاجم الأندلسية، ومهما يكن من أمر فإن الحركة العلمية اللغوية التي أشعل فتيلها أبو علي القالي البغدادي قد توجت بمعاجم على رأسها «البارع» لأبي علي البغدادي ثم «مختصر العين» لتلميذه الزبيدي، هذان كتابان بارزان في القرن الرابع الهجري، وبعدها جاءت كتب أخرى لآخرين لتدل على استمرارية التأليف في المعاجم والتأثر بالمدرسة الصوتية في المعجمية العربية.

ثانياً- جهود أبي علي القالي البغدادي الأدبية في الأندلس:

إن الدارس في التراث اللغوي العربي نهاية القرن الرابع الهجري من شرق وغرب، يدرك تماماً المنزلة التي يتمتع بها أبو علي القالي البغدادي في هذا المجال، ويصدق عليه قول الشاعر:

إذا ما جاور العلماء طفلاً
يكون إذا نشأ علماً أديباً

فأبو علي البغدادي جاور العلماء لأكثر من عقدين ونصف من الزمن في بغداد أوائل القرن الثالث الهجري، وكانت وقتذاك بغداد قبلة العلماء والطلاب، فهي عاصمة الخلافة السياسية، وعاصمة العلم أيضاً، وقد وفد إليها الطلاب من كل حذب وصوب، فساهمت كل هذه الظروف في صقل شخصية أبي علي القالي البغدادي العلمية اللغوية والأدبية.

وعندما نذكر الجهود العلمية لأبي علي القالي البغدادي فإن الأسماع والأنظار تنصرف نحو اللغة، وهو بما حقيق، لكننا في هذا المقام رأينا أن نلفت النظر إلى زاوية أخرى تخص أبا علي القالي البغدادي ألا وهي الأدب، فهل له من أدب قد تعلمه؟ كما تعلم اللغة، وهل أبدع فيه نظماً ونثراً، أم أنه اقتصر في دوره على الذوق والرواية؟

معلوم أن الرجل لغوي بآتم معنى الكلمة، بل إنه يوصف باللغة وينسب إليها فيقال أبو علي البغدادي اللغوي، وبما أن اللغة وسيلة الأدب فقد كان للرجل حظ من ذلك بقدر ما أوصلته لغته إليه، وهو في الحقيقة لا يقصد هذا الأمر، أي أن يصل إلى الأدبية، والمقامات الرفيعة في هذا المجال، بل إن أكثر ما جاء عنه إنما حصل اتفاقاً، والرواية عملت عملها؛ لأن الرجل قد أسعفته حافظته لذلك حتى إنه يوصف بأنه من أحفظ أهل زمانه، وأرواهم شعراً.

إن المادة العلمية المكونة لكتاب «الأمالي والنوادر» لأبي علي البغدادي لتمثل أكبر مظهر ثقافة وأدبية هذا الرجل، ولتعكس صورة عصر ذهبي تتحسر العرب على فواته لعدة أمور منها:

- ثراء ذلك القرن بالمواد اللغوية، وأنواع الأدبيات المختلفة نظماً ونثراً.
- كثرة العلماء البارزين في فنون من العلوم شتى.
- نبوغ الطلاب الذين أفادوا من شيوخهم، ووصلوا إلى مصافهم في وقت وجيز بالجد والاجتهاد.
- الإحساس بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم علماء وطلاباً إزاء العلم، والدعوة إليه.
- سعة الحافظة لدى كثير من الطلاب، وصفاء الأذهان ساعد على تحمل المرويات فالشيخ الذي تسمع منه مرة قد لا تجده ثانية تحت أي ظرف من الظروف.
- سوق العلم رائجة وقتذاك والسلعة فيها مثمينة.
- ولما نتحدث عن المظاهر الأدبية عند أبي علي القالي البغدادي، فإننا نقصد ما أنتجه هو ذاته، أو ما تحمله رواية له أو عن غيره ممن أخذ عنهم أيام الطلب ببغداد وغيرها من البلاد العربية من الشرق إلى الغرب (الأندلس).

1- النشر¹:

إنّ المقام لا يسعنا أن نذكر كل الأنواع الأدبية النثرية التي أتى بها أبو علي القالي البغدادي في كتبه المبسوط، وإنما نحاول ذكر بعضها وبإيجاز فيما يلي:

أ- **الخطابة:** وهو أحد الفنون النثرية الهامة، فأبو علي لا نشك في أنه قد خطب خطباً في مقامات مختلفة، كيف لا وهو الذي ارتحل وأملى كتابه الماتع المسمى «بالأُمالي والنوادر»، وعلى ذكر الكتاب فإننا نشير إلى إحدى الخطب التي وردت فيه خطبة عمرو بن يزيد في تولية يزيد بن معاوية.

وحدثنا أبو بكر -رحمه الله - "قال: حدثني أبو حاتم، عن العتيبي، قال: لما عقد البيعة معاوية رحمه الله لإبنه يزيد قام الناس يخطبون، فقال معاوية لعمر بن سعيد: قم يا أبا أمية، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن يزيد بن معاوية أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، إن استضفتكم إلى حلمه وسعكم، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم، جذع قارة سوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع قفاز سهمه، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه، فقال معاوية: أوسعت يا أبا أمية فأجلس²."

¹ النثر: والمنثور هو الكلام المرسل بلا وزن ولا قافية، وهو خلاف المنظوم. وانظر: المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط4، 1425 هـ - 2004 م، ص 900، مادة [نثر]. ونقصد به الأجناس الأدبية النثرية مثل: الخطبة، والقصة، والمثل، والمسرحية، وغيرها.

² الأُمالي، القالي، 333/2.

ب- الموعظة: «موعظة عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا»

وحدثنا قال: "أخبرنا عبد الله بن محمد عن المدائني، عن علي بن حماد، قال: كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى رجل: اتق الدنيا فإنّ مسها لئّن، وارفض نعيمها لقلة ما يتبعك منه، واترك ما يعجبك منها لسرعة مفارقتها"¹.

ج- المثل: «من أمثال العرب».

قال الأصمعي: من أمثال العرب: «لا يعدم شقيّ مُهرًا» أي: لا يعدم شقيّ عناءً. ويقال: «لا تعدم الحسناء ذاتًا» يراد: لا يخلو الرجل من أن يكون به ما يعاب، ويقال: «ليس عليك نسجه فاسحب وجر» يضرب مثلاً للرجل يفسد ما لم يتعن فيه، ويقال: «الليل أخفى للويل» أي: الستّر أسترّ من المكاشفة، ويقال: «قبل الرماء، تملأ الكنائن» يراد به: قبل وقوع الأمر يعد له².

د- الوصية: [وصية عمير بن حبيب لبنه حول مخالطة السفهاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

«وحدثنا أبو بكر بن الأنباري -رحمه الله- قال: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، قال: حدثنا مسلم، قال: حدثنا حماد بن سلمة، قال: أخبرنا أبو جعفر الخطمي أن جده عمير بن حبيب -وكان بايع النبي -ﷺ- أوصى بنيه فقال: يا بني، إياكم ومخالطة السفهاء، فإن مجالستهم داء، وإنه من يحلم عن السفه يسر بحلمه ومن يحبه يندم، ومن لا يقر بقليل ما يأتي به السفه يقر بالكثير، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر فليوطن قبل ذلك على الأذى وليوقن بالثواب من الله -عز وجل- إنه من يوقن بالثواب من الله عز وجل لا يجد مس الأذى»³.

إن أبا علي البغدادي قد أتى على أغلب أجناس النثر الأدبي في كتابه الممتع «الأمالي والنوادر»، وله فيه مرويات كثيرة جداً، فهو يسند الكلام إلى من أخذ عنهم من مشايخه مثل: ابن دريد، وابن الأنباري...، وقد تعدى شيوخه لينقل عن الأصمعي (216هـ) أخباراً ليست بالقليلة، وهو في الحقيقة لم يحضر للأصمعي، فالأصمعي توفي (216هـ)، وأبو علي البغدادي ولد (280/288هـ) على خلاف في ذلك والأول أرجح، وعليه جمهور المترجمين له.

فيعتبر الأصمعي - راوية العرب الأكبر - شيخ شيوخه، أما نقله عنه مباشرة دون واسطة فهذا لعله محمول على الاختصار، وهو أمر معروف عند العلماء والطلاب.

¹ المرجع السابق، 310/1.

² المرجع نفسه، 203/1.

³ نفسه، 321/2.

وهذه الفنون النثرية الأدبية المضمنة في كتاب «الأمالى والنوادر» كانت سوقها قائمة في «بغداد» والمشرق عموماً، فأبو علي البغدادي منها ما سمعه هو بنفسه لا نقلاً عن غيره - وهو أعلى مقامات مروياته- ومنها ما سبيله عنده النقل عن مشايخه وهو أكثر مروياته.

إن الباحث والدارس في كتاب «الأمالى والنوادر» ليقف عند حقيقة هي أن الرجل بتأليفه هذا الكتاب قد وثق فعلاً لعصر بلغ فيه أهله الغاية في فنون شتى.

لقد نص أبو علي البغدادي على مطالب كثيرة وسمها بكلمة خبر، وهذه الأخبار قد تكون موافقة ومطابقة لعدة أجناس نثرية أدبية معروفة قديماً أو حديثاً، فمثلاً يكون الخبر خبراً فعلاً أي ما يشبه المقالة - كما يسمى في العصر الحديث-، وقد يكون قصة قصيرة أو ما يسمى بالأقصوصة، وقد يكون نادرة أو ما يطلق عليه بالطرف والمستملحات.

إن الخلط بين المواضيع المتعددة واقع عند أبي علي البغدادي في أمالية فمن اللغة إلى الأخبار ومنها إلى الأدب، أو أن يأتي بالمثل العربي الجاري، ثم يذهب إلى معالجة لفظة وشرح معانيها المتعددة ثم يعود للمثل.

والرائي والمتبع لمواد الكتاب، وطريقة التصنيف عند العلماء القدامى والمحدثين يشعر بالخلل في المنهجية، فهو مثلاً ثابت عليه أنه ألف كتاباً أسماه «أفعل من كذا» وهو في الأمثال (انضبط مع الحقل الدلالي الخاص) لماذا التزم هنا وأخلط هناك؟ الجواب الحقيقي عند صاحبه -وهو قد مات رحمه الله- وهنا نمثل ما نقله بن حمدون في حاشيته على شرح المكودي للألفية في خبر ابن مالك لما أراد الاعتلاء على ابن معطي فقال في مقدمة الألفية:

«فائقة لها بألف بيت»

.....

وذهب إلى النوم فهتف له هاتف: ألسنت القائل كذا وكذا، وعجزت عن إكمال العجز أكمل لك ذلك؟ قال: نعم. فأكمل له العجز بـ:

فائقةً لها بألف بيتٍ

والحيُّ قد يغلب ألف ميثٍ¹

وإذا، نقول - والله أعلم- إن كتاب الأمثال هذا متأخر في التأليف، وقد كان في مرحلة نضج، وشيء آخر هو أن «الأمالى والنوادر» هي أول ما بدأ به أبو علي القالي البغدادي التدريس، وكانت على شكل مجالس فيها ارتجالات كثيرة والذي يرتجل - رغم قوة الذاكرة وسعة الحافظة - إلا أنه قد يخلط أشياء، وقد يقدم ويؤخر، فالأمر مرهون بظروف حدوثه، ومتطلبات المقامات مادام أنه فن عملي قولي موجه للمستمعين.

¹ انظر: حاشية ابن حمدون على شرح المكودي، ابن الحاج، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط2، 1421هـ-2001م، 23/1.

2- الشعر:

إن الشعر لمن أكبر المظاهر الجمالية اللغوية والأدبية في التراث العربي، فالعرب جاء نتاجهم فيه غزيراً، وغاية في الإبداع كماً وكيفاً، وقد ساعدتهم في ذلك اللغة العربية الطيبة، إذ يعبرون بها عن الألوان والأغراض الأدبية المختلفة فيوفون أغراضهم المرومة.

والعرب في أشعارها المنظومة حسب المناسبات والمقامات والمواقف أتت بألوان بديعة يعجز المرء عن وصفها، هذه الجمالية المتحققة كانت السبب الأكبر في حفظ المدونة الشعرية العربية وتناقلها من جيل إلى جيل.

فأبو علي القالي البغدادي لم يعرف في الحقيقة بالشعر ولا يوصف بالشاعرية، لكنه لما نظم أبدع، ولعل ما أسعفه في ذلك اللغة، فمزلته فيها من أعظم المنازل، فهو اللغوي المعروف الشهير شرقاً وغرباً. ونحن عندما نتكلم عن أبي علي القالي البغدادي وعلاقته بالشعر فإنه من جميل القول أن نقف عند عصر أبي علي القالي البغدادي، فنحن على مشارف القرن الرابع الهجري، وهذا كما يوصف بعصر انفجار العلوم المختلفة عند العرب، وقد شمل الأمر اللغة والأدب أيضاً كمظهر للثقافة والتحضر، وقد ظهرت فيه أجناس أدبية لم تكن معروفة قبل، ومنها ما نظم فيه أشعار وأشعار قد يطيب للبعض تمثيلها عبر المراحل الزمنية المختلفة، ولولا أن من الله - سبحانه وتعالى - على هذه الأمة بالحفظة من العلماء والرواة وطلبة العلم لما وصلت هذه الأنواع الأدبية المختلفة إلى أهل العصور اللاحقة.

لقد ثبت أن أبا علي القالي البغدادي قد حمل وتحمل كثيراً من القصائد والأشعار المختلفة المستقلة والمضمنة في الكتب الكثيرة، ولما رحل إلى الأندلس كان يستشهد بها ويستأنس في تطعيم دروسه الموجهة للطلاب، وهم الذين أثبتوا هذا الأمر عن طريق الرواية عن الشيخ، هذا بالإضافة إلى كتاب «الأمالي والنوادر» فهو يمثل الصورة الأدبية التي تميز ذلك العصر، والمظاهر الأدبية التي يثنها أبو علي القالي البغدادي فيه جاء فيها قسط كبير على شكل أشعار تتقاسمها أغراض بلاغية أدبية متنوعة كان قد رواها أبو علي القالي البغدادي بنفسه أو عن شيوخه مثل ابن دريد، وابن الأنباري، وربما لسان حاله في ذلك يقول: إن لم أكن شاعراً فلا أقل من راوٍ، ومهما يكن من أمر لا بد من إيصال الرسالة الأدبية الشرقية إلى الغرب.

وأبو علي القالي البغدادي قد أخذ حظه الوافر من رواية الأشعار في المجال الأدبي، فهو وإن لم يكن ناقداً فإن اختياراته والأشعار التي ينتقيها من عيون الشعر العربي لتدل دلالة واضحة مما لا يدع للشك فيه مجالا على نفسه الأدبي النقدي، وهنا ننقل بعض ما أتى به من أشعار مختلفة حسب الأغراض المتعددة.

أ- المدح: لقد مدح أبو علي القالي البغدادي الخليفة الناصر بقرطبة حال مجيئه إليها والتقاءه به سنة (330هـ) مر تجلا قال فيها¹:

قَالَتْ وَقَدْ قَرَّبُوا لِلْبَيْنِ أَيْنُفُهُمْ	وَأَسْبَلَتْ عَبْرَةً مَمْزُوجَةً بِسَدَمٍ
أَمْشَرِقَ الشَّمْسِ عَشَتْ فِي دَعَا	أَمْ مَشْرِقَ الْجُودِ وَالْأَفْضَالِ وَالنَّعَمِ
قُلْتُ الْمَنَى وَالَّذِي أَنْوِيهِ يَا سَكْنِي	إِنْ اسْتَطَعْتَ وَصُولًا مَطْلَعِ الْكَرَمِ
إِنِّي أَخَافُ الرَّدَى مِنْ قَائِدِ حَنْقٍ	عَلَى السَّبِيلِ وَبَحْرِ مَزِيدِ حُطَمٍ
قَالَتْ فَلَنْ يَبْلُغَ الْعَلِيَاءُ ذُو خَطَرٍ	حَتَّى يَخْوَضَ الْمَنَايَا حَنْدَسَ الظُّلَمِ
أَوْ يَكْشِفُ اللَّيْثُ يَوْمًا عَنْ فَرِيستِهِ	أَوْ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَ الضَّيْعِ الرُّزْمِ
فَيَمِّمُ الْغَرْبَ وَاعْبُرْ بَحْرَ أَنْدَلَسٍ	تَرَى الْإِمَامَ الرَّفِيعَ الْمَجْدِ وَالْهَمَمِ

وختمها بقوله²:

وَقَدْ أَتَيْتُكَ أَبْغِي الْوَقْرَ مِنْ بَعْدِ	وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَمْدُوحٍ وَمَعْتَصَمِ
فَأَقْلَلُ شَبَابَ ظَفَرِهِ يَا خَيْرَ مُنْتَجِعِ	فَقَدْ بَرَّانِي حَتَّى صُرْتُ كَالزَّلَمِ
وَأَنْعِمَ وَعِشْ سَالِمًا مَا عَجَّ مُعْتَمِرٌ	وَحَنَّتِ النَّيْبُ فِي حِلٍّ وَفِي حَرَمِ

وقد قال محقق كتاب المقصور والممدود: ولا يؤثر عن القالي غير هذه الأبيات³ والقصيدة التي مدح بها أمير المؤمنين الناصر حين وفد عليه في قرطبة عام (330 هـ).

يقول محقق كتاب المقصور والممدود لأبي علي القالي البغدادي: هو في هذه القصيدة يكاد يعارض معاني المتنبي في مدائحه. ويغلب على القصيدة جزالة اللفظ ورقة المعنى اللذان يناسبان المدحة⁴. فهو يعتبر في عداد شعر العلماء، والعلماء قد لا تكون لديهم ملكة قرض الشعر، وإنما يحسنون المعارضة والنسج على المنوال، والإبداع في أحيان قليلة.

¹ المقصور والممدود، أبو علي القالي، تح: أحمد عبد المجيد هريدي، ص 8. مقدمة المحقق. وانظر: فهرسة ابن خير الإشيلي، ابن خير، ص 517.

² المرجع نفسه، ص 11 - 12.

³ أبيات رد فيها أبو علي على البلوطي حين كتب إليه يستعير كتاب الغريب المصنف إذ كان الجواب:

وَحَقُّ دَر تَأَلَّفَ	بَفِيكَ أَيْ تَأَلَّفَ
لَأَبْعَثَنَّ بِمَا قَدْ	حَوَى الْغَرِيبَ الْمَصْنَفَ
وَلَوْ بَعَثْتُ بِنَفْسِي	إِلَيْكَ مَا كُنْتُ أَسْرِفُ

وانظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص 731 - 732.

⁴ المقصور والممدود، أبو علي القالي، تح: أحمد عبد المجيد هريدي، ص 8.

هذا عن مدحه هو، وقد روى مدائح من غيره لغيرهم، لعلنا نذكر منها نموذجاً فيما يلي: «قول تأبط شراً في مدح شمس بن مالك¹»:

وقرأت على أبي بكر لتأبط شراً: [الطويل]

وإني لمُهَدٍّ من ثنائي فقاصِدٌ
أهزُّ به ندوةَ الحَيِّ عطفه
الندوة: المجلس، والأوارك: التي ترعى الأراك.
كثير الهوى شَتَّى النوى والمسالكِ
جحيشا وَيَعْرُو ري ظهورِ المهالكِ
يَظَلُّ بمومة ويُمسي بغيرها
الجحيش: المنفرد.

وَيَسْبِقُ وفدَ الريح من حيث يَتَحَى
إذا خاطَ عَيْنِيهِ كَرَى النوم لم يَزَلْ
بمنخرق: يريد السريع الواسع. والشيخان: الحاد في كل أمر.
إذا طلعتْ أُولَى العدة فنفره
العدى: الجماعة الذين يعدون في الحرب.

إذا هَزَّه في عَظِيم قَرْن تَهَلَّلَتْ
يَرَى الوَحْشَةَ الأَنْسَ الأَنْسَ وَيَهْتَدِي
تَوَاجَدُ أفواه المنايا الضَّوْاحِكِ
بِحَيْثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النجوم الشوابِكِ

إن أبا علي القالي البغدادي لما ساق هذا المدح فإنه تخلله بشرح بعض المفردات الغريبة وفك غموضها، فالشاعر جاهلي من الصعاليك وألفاظه جزلة متينة قد يحتاج القارئ لها للكشف عن بعض الغوامض فيها.

ب- الهجاء: ولقد عرف العرب منذ القدم هذا الغرض الشعري والذي يذكر فيه الشاعر معائب ومثالب من أراد هجاءه، وهو أن يذكر المقصود بالهجاء بصفات الذم. وصورته الواضحة في التراث العربي الشعري عند شعراء النقائض الفرزدق وجريير والأخطل، والبعيث.

¹ الأماي، القالي، 392/2.

هذا، وقد ثبت عند ابن خير الإشبيلي أن أبا علي القالي البغدادي قد أتى بشيء من أشعار هذا الغرض، ومنها شعر الخطيئة¹، ونقائض الفرزدق وجري².

وقد نقل أبو علي القالي البغدادي في كتابه «الأمالي والنوادر» بعض النماذج منها³:

[ما قاله بعض العرب يهجو أخاه الشقيق]

قال: أبو علي: أخبرنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة قال أخبرنا أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابي قال قال رجل لأخيه: لأهجونك، قال: وكيف تهجوني وأبونا واحد وأمنا واحدة فقال:

غلام أتاه اللؤم من شطر نفسه ولم يأتته من نحو أم ولا أب

قال: وقال الآخر يهجو أخاه:

أبوك أبي وأنت أخي ولكن
وأُمُّك حين تُنسبُ أُمُّ صديقٍ
تفاضلتُ الطبائعُ والظروفُ
ولكن ابنها طبعٌ سخيْفُ
وقومُك يعلمون إذا التقينا
مَنْ المرجوُّ مِنَّا والمخوفُ

ج- الوصف: وقد نقل منه أبو علي القالي البغدادي عديد النماذج في كتابه «الأمالي والنوادر»، ومنها⁴:

[ما وصفت به ضباعة بنت عامر ابنها المغيرة بن سلمه وهي ترقصه]

وحدثنا أبو بكر قال حدثني عمي عن أبيه عن هشام قال قالت ضباعة بنت عامر بن قرط بن سلمه بن قشير وهي ترقص ابنها المغيرة بن سلمه:

نَمَى به إلى الدُّرَى هِشَامُ
جَحَاجِحُ خَصَارِمُ عَظَامُ
قَوِّمٌ وَأَبَاءُ لَهُ كَرَامُ
من آل مخزوم هم الأعلامُ
الهامةُ العليا والسَّامُ.

د- الرثاء: لقد كان لأبي علي القالي البغدادي نصيب من المراثي بأنواعها، وقد أتى بها من المشرق معه، وفيها ما هو مستقل، وفيها ما هو مضمن في كتابه «الأمالي والنوادر» و«الذيل»، ونحن في هذا المقام سنشير إلى نوعين بارزين من أنواع الرثاء.

¹ وهو جرجول بن أوس، والخطيئة لقب له، وهو شاعر وهجاء معروف به، هجا نفسه وامراته وأمه. كان ذا شر وسفه يتكسب بالهجاء في حين كان أقرانه يتكسبون بالمدح، وانظر: الأغاني، الأصفهاني، أبو الفرج، تح: إحسان عباس وآخرون، د صادر، بيروت - لبنان، ط3، 1429 هـ - 2008 م، 101/2.

² فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 483 - 484.

³ الأمالي، القالي، الهيئة المصرية للكتاب، جمهورية مصر العربية، (دط)، 1976 م، 92/2.

⁴ المرجع نفسه، 131/2.

النوع الأول: رثاء النفس: [قصة مالك بن الربب الشاعر وصحبته لسعيد بن عثمان بن عفان إلى خراسان وقصيدته التي ألقاها وهو مريض يذكر مرضه وغرته]¹.

قال أبو علي: وقرأت قصيدة مالك بن الربب التي أولها: «ألا ليت شعري هل أبيت ليلة» على أبي بكر ابن دريد ولها خبر أنا ذاكره، قال أبو عبيدة: لما وُلِّيَّ أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه خراسان، سار مع من معه في طريق فارس فلقي مالك بن الربب وهو في نفر مع أصحابه فقال له: ويحك يا مالك ما الذي بلغني عنك من العداء وقطع الطريق، فدعا له واحتج بالعجز عن مكافأة الإخوان، فعرض عليه أن يغنيه مقابل الجهاد معه فقبل مالك، وقال: أكف كأحسن ما كف أحد، فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينار كل شهر، وكان معه حتى قتل، وقال بعضهم بل مات في غزو سعيد، طعن فسقط وهو بآخر رمق، وقال آخرون: بل مات في خان فرثته الجان لما رأت من غرته ووحدته، ووضعت الجن الصحيفة التي فيها القصيدة تحت رأسه، والله أعلم أي ذلك كان، وهي هذه:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أْبَيْتَنَ لَيْلَةً	يَجْنُبُ الْغَضَى أَرْجِي الْقِلَاصَ النَّوَاجِيَا
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه	وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضى لو دنى العضى	مزار ولكن الغضى ليس دانيَا
ألم ترني بعت الضلالة بالهدى	وأصبحت في جيش ابن عفان غازيَا
وأصبحت في أرض الأعادي بعدما	أراني عن أرض الأعادي قاصيَا
دعاني الهوى من أهل ودي وصحبتني	بذي الطبيين فالتفت ورائيَا
أجبت الهوى لما دعاني بزفرة	تقنعت منها أن ألام ردايَا
أقول وقد حالت قرى الكرد بيننا	جزى الله عمراً خير ما كان جازيَا

ويواصل الشاعر في مرثيته حتى ختمها بقوله:

غريب بعيد الديار ثاو بقفرة	يد الدهر معروفاً بأن لا تدانيَا
أقلب طرقي حول رحلي فلا أرى	به من عيون المؤسسات مراعيَا
وبالرمل منا نسوة لو شهد نني	بكين وفدين الطبيب المداويَا
وما كان عهد الرمل عندي وأهله	ذميما ولا ودعت بالرمل قاليَا
فمنهن أُمي وابنتاها وخالتي	وباكية أخرى تهيج البواكيَا

وقد أخبر ابن خیر أن أبا علي القالي البغدادي كان قد أحضر معه أنواعاً من أشعار المراثي ومنها شعر مالك بن الربب* الذي قال قصيدة رثى فيها نفسه، ولعه أول من رثى نفسه.

¹ ذيل الأمالي والنوادر، القالي، الهيئة المصرية للكتاب، جمهورية مصر العربية، (دط)، 1976 م، 150/3 - 154.

يقول ابن خير الإشبيلي مثبتا ذلك: «وشعر مالك بن الرب المازني، قرأت شعر المثقب على ابن دريد من هذه النسخة، وقرأت شعر عروة ومالك بن الرب من غير هاتين النسختين¹». فهو قد ذكر قبل هذا الكلام: شعر عروة بن الورد، وشعر المثقب العبدى، ثم إنه أجمل الكلام عليهم جميعا كما أسلفنا نقله.

النوع الثاني: رثاء الإنسان غيره. ومما نقله أبو علي القالي البغدادي ما يلي:

[مرثية سلمة بن يزيد في أخيه لأمه قيس بن سلمة]²

وحدثنا أبو بكر بن الأنباري — رحمه الله — أن أباه أنشده عن أحمد بن عبيد عن ابن الكلبي لسلمة بن يزيد يرثي أخاه لأمه قيس بن سلمة:

أقولُ لِنَفْسِي الحَالَاءَ أَلَوْمُهَا	لَكَ الْوَيْلُ مَا هَذَا التَّجَلُّدُ وَالصَّبْرُ
أَلَا تَفْهَمِينَ الْخَبْرَ أَنْ لَسْتُ لَاقِيَا	أَخِي إِذَا أَتَى مِنْ دُونِ أَكْفَانِهِ الْقَبْرُ
وَكُنْتُ إِذَا يَنَآى بِه بَيْنَ لَيْلَةٍ	يُظَلُّ عَلَى الْأَحْشَاءِ مِنْ بَيْنِهِ الْجَمْرُ
فَهَذَا لَبِينٌ قَدْ عَلِمْنَا إِيَابَهُ	فَكَيْفَ لَبِينٌ كَانَ مَوْعِدُهُ الْحَشْرُ
وَهَوْنٌ وَجَدَى أَنِّي سَوْفَ أَغْتَدِي	عَلَى إِثْرِهِ حَقًّا وَإِنْ نَفْسُ الْعَمْرُ
فَلَا يَبْعِدُنَاكَ اللَّهُ إِمَّا تَرَكْتُنَا	حَمِيدًا وَأَوْدَى بَعْدَكَ الْمَجْدُ وَالْفَخْرُ
فَتَى كَانَ يَعْطِي السِّيفَ فِي الرُّوعِ حَقَّهُ	إِذَا ثَوَّبَ الدَّاعِي وَتَشَقَّى بِهِ الْجَزْرُ
فَتَى كَانَ يَدْنِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ	إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى وَيَبْعَدُهُ الْفَقْرُ
فَتَى لَا يَعْدُ الْمَالُ رِبًّا وَلَا يَرَى	لَهُ جَفْوَةً إِنْ نَالَ مَالًا وَلَا كِبْرُ
فَنَعَمُ مَنَاخُ الضَّيْفِ كَانَ إِذَا سَرَتْ	شَمَالٌ وَأَمْسَتْ لَا يَعْرجُهَا سِتْرُ
وَمَاوَى الْيَتَامَى الْمُحْلِينَ إِذَا انْتَهَوْا	إِلَى بَابِهِ سَغْبًا وَقَدْ قَحَطَ الْقَطْرُ

يقال: قحط الناس بكسر الحاء وأقحطوا وقحط القطر بفتح الحاء.

وجاء في الحاشية: ثوب الداعي: ردد صوته.

وهنا نشير إلى أمر مهم في المراثي التي ينقلها أبو علي القالي البغدادي، فهو لا يكتفي بالنقل فقط، وإنما يشرح ما وجد فيها من غريب الكلام ويستشهد له أيضا، بالإضافة إلى ذكر خبر أو قصة المرثية. في مستهل كلامه عليها.

* أطلق كلمة شعر المضافة إلى مالك بن الرب مع أنه شاعر مقل، أي قليل الشعر، بل لا يعرف إلا بهذه القصيدة.

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 484.

² الأمالي، القالي، 83/2.

ولقد أشرنا فيما سبق أن أبا علي قد أتى بكتب أشعار كثيرة من بغداد إلى الأندلس، وكان من بينها ما نظم في الرثاء بأنواعه، وقد أثبت له ابن خير الإشيلي ذلك في فهرسته، حيث ذكر له مرثي الأعلاق غير مسموعة، في جزء¹.

هذا ما كان من أمر أبي علي القالي البغدادي وجهوده الأدبية في الأندلس الذي أضفى على نتائجها العلمي والثقافي مسحة جمالية لا يعرف قدرها إلا ذوو الشأن في مثل هذه الأمور.

ثالثاً- الأسباب المساعدة لأبي علي البغدادي في إحداث حركة علمية لغوية بالأندلس:

إنه لمن المعلوم أن أبا علي البغدادي لما مكث ببغداد زمناً معتبراً، وقد حصل فيه من العلوم المختلفة ما شاء الله أن يحصل، وأخص منها اللغة، ذلك أن الرجل قد أخذها وتحملها عنم أدرجوا في طبقات متقدمة بالنسبة لزمهم من النحويين واللغويين البصريين والكوفيين وغيرهم، وبعضهم قد شافه الأعراب وأخذ اللغة منهم سماعاً مباشراً، ثم إنه لما رأى من نفسه أنه قادر على التدريس ونشر العلم سعى إلى هذه الغاية النبيلة، والله - سبحانه وتعالى - إذا أراد أن يتم أمراً هياً له أسبابه، فأرسل إليه الناصر بالأندلس، ورغبه بالوفود إليهم، فكان له ذلك الأمر.

ومما لا شك فيه أن الذي يطلب العلم تكون نيته الأولى رفع الجهل عن نفسه وعن غيره من المسلمين، حتى يوفقه الله - عز وجل - فأبو علي البغدادي تصدر للتدريس بمجرد وفوده إلى قرطبة، فهو يرى أن التدريس بمثابة الثمرة من حياته العلمية الطويلة والشاقة وكما يقال:

العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل²

وإيماناً منه أن اقتضاء العلم العمل، وإلا لن يفيدك كتمانك ولا تأخيرك شيئاً، بل قد يكون كتمانك وبالاً عليك، وقد جاء في الأثر: «خير العلم ما نفع، وإنما ينفع الله بالعلم من علمه ثم عمل به، ولا ينفع به من علمه ثم تركه³».

والتعجيل في العمل بالعلم وتحقيق الانتفاع به ضرورة عند بني البشر وسواء أكان هذا العلم دينياً أو دنيوياً.

وشيء آخر قد عرفه أبو علي القالي البغدادي بعد وفوده إلى الأندلس هو أن العلم عندهم مطلب عزيز، ولديهم قابلية للتعلم، واستغلال الفرص في ذلك، من كان ميسور الحال وغير ميسور، بالإضافة إلى أنهم يقدرّون أهل العلم، ويسعون لإكرامهم وإعانتهم.

¹ فهرسة ابن خير الإشيلي، ابن خير، ص 489.

² اقتضاء العلم والعمل، الخطيب البغدادي تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط5، 1404 هـ - 1984 م، ص 36.

³ المرجع نفسه، ص 33.

لقد أشرقت شمس عصر جديد على الأندلس وأهلها، وقد سطع نورها في القرن الرابع الهجري بوصول الناصر والحكم للحكم وأبي علي القالي البغدادي في مجال العلم، وتوفر هذين السببين في الأندلس انطلاقاً من قرطبة كان لها شأن كبير.

والدواعي التي مهدت إلى إحداث حركة علمية لغوية في الأندلس في عهد أبي علي القالي البغدادي كثيرة ومتنوعة، ويمكن تقسيمها على النحو التالي:

1- الأسباب السياسية:

إن هذا الخليفة قد مكن له المولى سبحانه وتعالى في الأندلس ووطد حكمه، ففي عهده حصل له التوفيق والسداد في الحكم، والصلة الكبيرة بينه وبين أهل العلم وقتذاك ما لم يوفق إليه غيره من قبل، وهذه الصلة والعلاقة لم تنشأ من عدم، فتخبرنا المصادر على المسحة العلمية للخليفة الناصر، وابنه الحكم وهي مع التالي أشد إيضاحاً.

يقول القائل في مثل هذا¹:

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفَتِيَانِ مِنَّا
على ما كان عَوْدُهُ أَبُوهُ

هذا الرجل كان يعتمد عليه والده الخليفة الناصر في شؤون الحكم، بعدما قضى على كل أنواع الفتن التي هددت أمن بلاده، وبالتالي يسر على الحكم الوصول إلى أعلى درجات الرقي الحضاري بالأندلس، وأراد أن يجمع بين السياسة والعلم، فبلغ منهما حظه حيث كانت له قدم في العلم، يقول لسان الدين الخطيب في حقه: "وكان رحمه الله عالماً، فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جامعاً للكتب، مميزاً للرجال من كل عالم وجاهل، وفي كل مصر وأوان، تجرد لذلك، وتهمم به، فكان في ذلك حجة وقُدوة وأصلاً يوقف عنده"².

وأخبار الحكم — رحمه الله — متميزة وإليه انتهت الأبهة والجلالة، والعلم والأصالة والآثار الباقية، والحسنات الراقية³.

ومرحلة الحكم إنما هي امتداد لمرحلة أبيه الناصر في هذه الخصال تجاه العلم وأهله، حيث كانت لهما عناية بهذا المجال، إذ تذكر المصادر أن أبا علي القالي البغدادي أتى الأندلس بسبب الخليفة وولي عهده، كانا قد رغبا في الوفود عليهم واتخاذ قرطبة منارة للعلم في الأندلس.

¹ القائل هو أبو علاء المعري في قصيدة مطلعها:

قد اختل الأنام بغير شك فجدوا في الزمان والعبود

وانظر: ديوان أبي علاء المعري، أبو علاء المعري، ص 758.

² أعمال الأعلام، لسان الدين بن الخطيب، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، ط 1، 1424 هـ — 2003 م، 42/2.

³ المرجع نفسه، 43/2.

والعامل الأكبر والبارز فيها هو وصول الخليفة الناصر إلى سدة الحكم بالأندلس في رأس القرن الرابع الهجري (300 هـ) ثم بويغ لابنه وولي عهده الحكم لثلاث خلون من شهر رمضان سنة خمسين وثلاثمائة¹. وكانا قد اتخذا من قرطبة مقراً وعاصمة لهما.

وينقل المقرري عن الحكم المستنصر قوله: "وكان محبا للعلوم، مكرماً لأهلها، جماعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، قال أبو محمد بن حزم: أخبرني تليد الخصي – وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان – أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفي كل فهرسة عشرون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير، وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر"².

ثم يتحدث صاحب نفح الطيب عن عناية الخليفة الناصر بالعلم وإكرام أهله، ومنهم خاصة العلماء عنده أبو علي القالي البغدادي حيث يقول في حقه: «ووفد على أبيه أبو علي القالي صاحب كتاب «الأمالي» من بغداد فأكرم مثواه، وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس علمه، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه، وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار، ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه، وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني...»³.

إن خليفة يهتم بأمر العلم، ويجزل العطاء والإنفاق في حقه واستمرارية هذا الأمر معه لمن النوادر في حيوات الخلفاء السابقين واللاحقين، وإنه لوعي من ذوي الحكم والسلطة، ذلك أن هذا الأمر أهم شيء في تشييد الحضارات، كل الحضارات قيامها كان منوطاً بالعلم بالدرجة الأولى ولعل –والله أعلم– العناية بالعلم وأهله كانت أحد الأسباب البارزة في استقرار حكمه في الأندلس لزمن غير قليل.

ولقد قرب العلماء من بلاطه حتى إنه دعا أبا علي القالي البغدادي يوماً سنة ست وثلاثين وثلاثمائة لإلقاء خطبة بمحضر وفد صاحب القسطنطينية فارتج عليه⁴.

وهذا أمر محمود من ذي سلطة، لأن قرب ومجاورة العلماء كلها خير، ومصاحبتهم تعود عليك بالنفع، إما في مشاورة، وإما في معرفة حكم من الأحكام الشرعية التي تخص الراعي والرعية.

¹ انظر: أعمال الأعلام، لسان الدين بن الخطيب، 42/2.

² نفح الطيب، المقرري، 385/1 – 386.

³ المرجع نفسه، 386 / 1.

⁴ البار، القالي، تح: هاشم الطعان، 27، مقدمة المحقق.

وتثبت كتب المصادر أن الحكم المستنصر الخليفة كان من أقطاب الثقافة الأندلسية في القرن الرابع الهجري، وخطه وتعليقاته حجة عند العلماء، ويحدثنا التاريخ أن خزانته العظيمة - المكتبة - كانت تتوفر على نسخ عديدة من كتاب العين الذي دخل الأندلس مستهل القرن الرابع الهجري¹.

ونواصل مع أعمال الحكم الجلييلة في الاهتمام بالجانب العلمي، فيحدثنا أهل التاريخ والتراجم أنه بذل وأنفق مالاً كثيراً إزاء العلم وأهله، فقد بذل ما بذل لأجل الحصول على نسخة من شرح مختصر ابن عبد الحكم للقاضي أبي بكر الأبهري المالكي، وأمثال ذلك كثير، وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء، ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة، واقتحامهم إياها عنوة².

وهذه صورة أخرى مشرقة من صفحات صنائع الخليفة الحكم المستنصر ينقلها ابن عذارى المراكشي إذ يقول: "ومن مستحسنات أفعاله وطيبات أعماله، اتخاذ المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل رضى من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح، ابتغاء وجه الله العظيم، وعدد من المكاتب سبعة وعشرون مكتبا منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كل رضى من أرباض المدينة"³. وفي ذلك يقول ابن شخمص⁴:

وساحة المسجد الأعلى مكللة
لو مكنت سور القرآن من كلم
مكاتبا لليتامى من نواحيها
نادتك يا خير تاليها وواعيها

وجملة القول: إن الجانب السياسي له الدور الكبير في هذه النهضة العلمية بالأندلس في القرن الرابع الهجري، ويمكن أن نختصر ذلك في النقاط التالية:

- السياسة الرشيدة والاهتمام بالعلم وأهله رمز التحضر والرقى.
- الجمع بين الغزو والفتح من جهة والاهتمام بالعلم والعمران من جهة أخرى كان دأب الخليفة عبد الرحمان الناصر، وابنه الحكم المستنصر الذي واصل المهمة كأحسن ما يقوم بها مستخلف.
- بناء المساجد والعناية بها، والحرص على دور العلم والحديث.
- نشر التأديب والتعليم لكل فئات المجتمع، والتركيز على الصغار.

¹ انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الود غيري، ص 14.

² تاريخ بن خلدون، عبد الرحمان بن خلدون، تح: خليل شحادة وسهيل زكاز، ار الفكر، بيروت-لبنان، (دط)، 1421هـ-2000م، 4/188.

³ البيان المغرب، المراكشي، 240/2.

⁴ المرجع نفسه، 241/2.

– الاهتمام بالجانب الاجتماعي¹ والذي له علاقة مباشرة بوضعية المتعلم وعمران البلدان، إذ بنى دوراً لتوزيع الصدقات².

– الحرص على اتخاذ ذوي الكفاءات في الحكم والقضاء ومنهم: منذر بن سعيد البلوطي قاضي الناصر، وأبو بكر محمد بن السليم. نقّشُ خاتمة: الحكم بقضاء الله راض³.

– استقطاب العلماء والطلاب البارزين قصد الإفادة منهم، والتمكين لهم في الأندلس البلاد العطشى للعلم.

– جلب الكتب المشرقية والمغربية، فهم في أقصى الغرب (الأندلس)، لكنهم على صلة بالشرق في الجانب العلمي، وربما اجتمعت عدة نسخ للكتاب الواحد في المكتبة العظيمة – بقرطبة – كما ثبت مع كتاب «العين»، ثم إن الخليفة يدرك أن العلم في الكتب ولا تساويه الدراهم، لذا لجأ للإغراء في أحيان كثيرة قصد حصول مطلوبه، وقد وفق.

– إنشاء ديوان التدوين والنسخ في عهد الحكم المستنصر خاصة كان قد فُعلّ وازداد نشاطه، حتى اجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب.

2- الأسباب الدينية:

ونحن عندما نظرق باب الحالة الدينية فإننا نأتي على أحوال الرعاية والرعية ومدى تأثير ذلك عليهم عامة، ودوره في توفيقهم وتحضرهم.

مما لاشك فيه تدين الخليفة الناصر ومن بعده الحكم المستنصر، والدين الإسلامي هو دين الدولة الرسمي في هذه البلاد الأندلس المختلطة الأعراق والأديان، فهم يحكمون أحكام وتعاليم الدين الإسلامي من غير ظلم لأصحاب الأديان الأخرى في إطار التعايش في الأرض والبلاد الواحدة.

ففي ما يخص الخلفاء في الجانب الديني أنهم يعلمون علم يقين أن في الدين الإسلامي أعمال الخير والمعروف يجازى عليها الإنسان إحساناً من غير المنفعة والمصلحة الدنيوية المتحققة له ولغيره خاصة في العناية بالعلم وأهله.

هذا، ومن مظاهر السعي وراء ما يصلح للمسلمين عباداتهم بناء المساجد والحرص عليها، يقول المراكشي يصف قرطبة في عهد الخليفة الناصر: «ومما قيل في آثار مدينة قرطبة وعظمتها حين تكامل أمرها

¹ يقول المراكشي: «وفي سنة 353 هـ كانت بقرطبة جماعة عظيمة، فتكفل الحكم بضعفائها ومساكنها بما يقيم أرواقهم، وأجرى نفقاته عليهم بكل رضى من أرباض قرطبة وبالزهاء». وانظر: البيان المغرب، المراكشي، 226/2.

² المرجع نفسه، 240/2.

³ نفسه، 223/2.

في مدة بني أمية (رحمهم الله تعالى) إن عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء، وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار، ومساجدها ثلاثة آلاف...¹

ومن ثمة يلتفت المراكشي إلى الحكم المستنصر وجهوده في خدمة الدين والعناية بآماكن العبادة والتعلم عند المسلمين فيقول عنه: "وافتح خلافته بالنظر في الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة، وهو أول عهد أنفذه، وقلد ذلك حاجبه، وسيف دولته جعفر بن عبد الرحمان الصقلي... وكان قطر قرطبة قد كثر به الناس، فضاق الجامع عن حملهم، ونالهم التعب من ازدحامهم، فسارع المستنصر إلى الزيادة فيه"².

وكانت هذه التوسعة على حساب قصر الخليفة، فقد نالت منه جزءاً، فجاءت هذه الزيادة من أحسن ما زيد فيه.

وقد وقف الحبس للجامع بقرطبة، وللرعية نصيب من ميراث أبيه من قبل أن يوزع عليهم ما حبس لهم عاماً بعد عام إلا أن تكون مجاعة، فيستمر إصلاح أحوالهم حتى يجبرهم الله³.

ورابطة الدين الإسلامي هي التي تضبط الراعي في تصرفاته وأعماله بالضوابط المشروعة، وهي تلزم الرعية أيضاً بما يجب عليهم وتضمن لهم حقوقهم.

ومن الرعية من هم في درجة العلماء، وطلبة العلم، فهؤلاء ملقاة على عواتقهم مسؤوليات نشر العلم، والدعوة إليه، والعمل به.

معلوم عند الأندلسيين أن قرطبة هي العاصمة السياسية، ومركز دور العلم وقتذاك، فهذا أبو علي القالي البغدادي كان يدرس «الأمالى» بما فيها من تفسير وحديث نبوي شريف بجامع الزهراء محتسباً الأجر عند الله سبحانه وتعالى في هذه المهمة النبيلة.

وظلاب العلم أيضاً يعلمون في سعيهم لتحصيل العلم بهجراتهم الداخلية أو الخارجية أنهم على أمر عظيم، ويتحملون المشاق في ذلك، وفراق الأهل والأحبة ويعانون ألم الغربة محتسبين الأجر عند الله.

والعامة من مسلمي الأندلس كانوا أيضاً في شغف كبير، لحضور مجالس العلم، وملاقات العلماء، والأخذ عنهم، والتأدب بأدابهم واغتنام فرص وجودهم قبل فقدانهم بالسفر أو الموت أو العجز أو غير ذلك.

وإذا كانت هذه أحوال فئات المجتمع الأندلسي الدينية فإنها قد ضمنت تهيئة للحركة العلمية التي يقودها ثلة من العلماء، وعلى رأسهم أبو علي القالي البغدادي.

ونجمل في هذه النقاط الأسباب الدينية:

¹ البيان المغرب، المراكشي، 222/2.

² المرجع نفسه، 223/2 – 224.

³ نفسه، 224/2.

- طلب العلم فريضة في الدين الإسلامي، وفيه ما هو عيني وفيه ما هو على الكفاية.
- الدين الإسلامي يلزم كل فئات المجتمع بواجباتها ومسؤولياتها دون تفرقة: العامة، والعلماء، والحكام.
- طبيعة المجتمع الأندلسي المسلم التي تميل إلى العلم والجد والاجتهاد.
- إيمان العلماء وطلاب العلم بأن طلب العلم من أجل العبادات، ذلك أن نفعه متعدد.
- الميول وحب التطلع لما عند المشاركة من علوم اللغة والشرع.
- الاستقرار النسبي بعد إخماد الثورات، ودور الدين الإسلامي في نشر الوعي عند العامة.
- التعليم القرآني المبكر والتأديب للأولاد في الصغر.

3- الأسباب العلمية والثقافية:

المجتمع الأندلسي قبل وصول أبي علي القالي البغدادي إليه لم يكن يعاني فراغاً علمياً ولا ثقافياً، فقد كانت معالم حضارة البلد موجودة، لكن الأمم لا غنى لها عن العلم وأهله، فهي دوماً تطلب الاستزادة منه، وتسعى إلى تحقيق ذلك، وتبذل قصارى الجهود لاستقطاب العلماء، والاستفادة من علومهم ومعارفهم المدونة وغير المدونة.

ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً قبيل وفود أبي علي القالي البغدادي إلى قرطبة لعلمنا بالواقع العلمي والثقافي الخاص بالأندلس، فالأندلسيون كغيرهم من الناس الآخرين، فبعضهم قد رأى الرحلة في طلب العلم إلى المشرق وقد كانت بغداد وجهتهم الأولى.

وفي الحقيقة لو بحثت عن الدواعي الحقيقية التي أدت بالأندلسيين إلى نهضة علمية لوجدت أساسها هجرة مشاركة إلى الأندلس، وهجرة كتب من المشرق إلى الأندلس.

أما المشاركة الذين قدموا إلى الأندلس فممن تذكرهم المصادر أبو جعفر أحمد بن محمد بن هارون البغدادي، وهو من ذلك الفريق المشرقي الذي كان يظن أن الأندلس قطر متأخر في الأمور العلمية، فلما رأى الواقع خلاف ما كان يظن ويسمع وأعجب بما رأى، قال لمن سألته بعد عودته منها إلى المغرب: كيف تركت الأندلس، قال: "والله لقد رأيت بها ما لم أتوهم أن أراه مع نأي دارها، لقد رأيت فقهاً وشعراً ونحويين وأدباء..."، ولقد جلب معه إلى الأندلس بعض كتب ابن قتيبة، وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ¹.

ومن المهاجرين أيضاً رجل يعرف بالعجلي، وقد هاجر إلى الأندلس من العراق، وليس لدينا عليه كثير معلومات، وقيل إنه استدعى الناس للإملاء عليهم بقرطبة وكانت اللغة موضوع إملاءاته².

¹ انظر: الحركة اللغوية في الأندلس، ألبير حبيب مطلق، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت - لبنان، (دط)، 1967، ص 58 - 59.

² انظر: المرجع نفسه، ص 59.

وقد دخلت الأندلس كتب المشاركة قبل وصول أبي علي القالي البغدادي إليها، إذ دخل كتاب العين كما أسلفنا ثم كتاب سيبويه، ثم كتب الأصمعي والكسائي والفراء والمازني وأبي عبيد¹ وابن ولاد. وفود المشاركة إلى الأندلس بعلومهم لم يكن بالقدر الكافي حتى يؤسس لنهضة علمية، ورغم أنه عزز بكتب مشرقية في مختلف علوم اللغة إلا أن هذا الأمر بقي ناقصاً يفتقد لشخصيات فاعلة، وشكك بعض المحققين في نوايا من هاجروا إلى الأندلس، يعنى كانت لهم مآرب أخرى، وقد تتقاطع مع نشر العلم والدعوة إليه.

لكن رؤية المنصف في مثل هذا الأمر العظيم، تقول: فالعلم العلم، هذه أمة تعيش أقصى الغرب ولديها شغف كبير تجاه العلم، فليأتها العلم على أي طريقة وأي شكل كان، ثم إن النفوس المسلمة تميل إلى التفاؤل والخير وحسن النية خاصة إذا ارتبط الأمر بالعلم.

ومما لا شك فيه أن هذه الأسباب المتقدم ذكرها لها أثر، ولا يغمط حق من تسبب فيها إلا منكر، فلا يتمارى اثنان في إثمارها حركة علمية أدبية لغوية غير مسبقة، حتى إنها أبهرت أبا علي القالي البغدادي، وقد أبدى إعجابه الكبير بابن القوطية²، وبكتاب الدلائل لقاسم بن ثابت³.

قال القفطي: يقول ابن خلكان مبينا مكانة ابن القوطية العلمية عندما ترجم له: "إن أبا علي القالي لما دخل الأندلس اجتمع به، وكان يبالغ في تعظيمه، قال له الحكم بن عبد الرحمان الناصر: من أنبل من رأيته ببلدنا هذا في اللغة؟ فقال: محمد بن القوطية، وكان ابن القوطية مع هذه الفضائل من العباد والنسك، وكان جيد الشعر صحيح الألفاظ حسن المطالع إلا أنه تركه ورفضه..." وهو صاحب كتاب الأفعال الذي فتح به الباب، فتلاه ابن القطاع، وله كتاب في «المقصود والممدود» جمع فيه ما لا يحصى ولا يعد، وأعجز من بعده به، وفاق من تقدمه، رحمه الله تعالى⁴.

رابعا- نتائج الحركة العلمية بالأندلس في عهد أبي علي القالي البغدادي:

لقد تضافرت جهود عديدة، وتهيأت أسباب لا حصر لها حتى ظهرت الأندلس في حلتها الثقافية والعلمية، وهاته العناصر الفاعلة فيها وإن اختلفت أصولها وأقطارها من شرق ومن غرب فإن لها جامعاً يكفل تأليفها، ويقوي وشائج الربط بينها، ذلك أنهم أبناء أمة واحدة دينها الإسلام، ولغتها العربية. ونحمل هنا بعض النتائج التي تمخضت عن عهد أبي علي القالي البغدادي في الأندلس:

¹ نفسه، نقلا عن طبقات الزبيدي، وتاريخ العلماء، وجذوة المقتبس، ص 63.

² نفح الطيب، المقرئ، 73/3. نقلا عن: وفيات الأعيان.

³ يقول ابن القرضي: "أخبرني العباس بن عمرو الوراق، قال: سمعت إسماعيل بن القاسم البغدادي يقول: كتبت كتاب الدلائل، وما أعلم وضع بالأندلس مثله فتعصب، ولو قال إسماعيل: إنه ما وضع بالمشرق مثله، ما أبعد". وانظر: تاريخ علماء الأندلس، ابن القرضي، 463/2.

⁴ نفح الطيب، المقرئ، 73/3 - 74.

– نشاط حركة التأديب والتدريس، فالتأديب للأولاد الصغار وقد عهد هذا الأمر قبل مجيء أبي علي البغدادي، لكن في عهده وما لحقه ازداد النشاط مع الوعي، ووفرة المؤدبين حتى إنه بالإمكان الاختيار والانتقاء.

وأما التدريس فهذا مظهر جديد، والذي سبق أبا علي البغدادي فهو محصور وأقل من القليل.

– ظهور النشاط الشفوي: وقد تكون العناصر الفاعلة فيه مشرقية أو ممن عرفوا ذلك في بغداد وغيرها ممن رحلوا إلى المشرق، وأما المقصود به فتلك المناظرات اللغوية، والمساجلات الشعرية، بالإضافة إلى المحاورات والمناقشات التي تنجر عن المنافسة في المستوى العالي، والاستفتاء أيضاً والمظهر الكبير هو الإملاء. فالقالي أملى كتابه «الأمالى والنوادر» في جامع الزهراء بقرطبة، وتوالت الإملاءات من بعده في المجالس العلمية.

– ظهور الدارس اللغوي المتخصص: فانظر إلى المدى الذي بلغته ثقافة الطالب اللغوي من الاتساع واتخذ محمد بن أبان بن سيد مثلاً على المثقف اللغوي حينئذ الذي مكنته ثقافته من أن يصبح عالماً مؤلفاً فنجد أنه قرأ كتباً كثيرة على أبي علي القالي أستاذة من تأليفه ومن غير تأليفه الشيء الكثير مثل كتاب البارع، والنوادر، واختيار فصيح الكلام لثعلب، ولحن العامة للسجستاني، وكتاب فعلت وأفعلت له، وكتب الأصمعي مثل: الشاء، والإبل، وخلق الفرس، وكتاب الأجناس لغلّام الأصمعي، وكتاب الفرق لثابت بن أبي ثابت، وكتب ابن السكيت المختلفة وكتب أبي عبيدة وغيرها¹.

هذا ما أثبتته المصادر من كتب قرأها أحمد بن أبان بن سيد² –وهو أوضح مثال عن الدارس المتخصص– ولعله اطلع على كتب وتوالت آخر لم يروها ولم يثبتها مصدر.

إن ما يميز القرن الرابع الهجري عن سابقه –ولنقل عصر أبي علي البغدادي عما قبله– هو أن المشتغلين بالحديث في القرن الثالث هم الذين تولوا تدريس اللغة أو التأليف فيها مثل: قاسم بن أصبغ، والخشني فكانت اللغة فرعاً من الثقافة الدينية لهم، وهي في الحقيقة لا تنفك عن هذه الرابطة، ذلك أنها وسيلة العلم، لكن منذ مجيء أبي علي البغدادي بدأت تتضح خطوط الاتجاه اللغوي عن غيره، وأصبحنا نستطيع أن نشير إلى ظهور علماء متخصصين في طبقات المؤدبين والمدرسين³.

اتساع حركة التأليف وتنوعها: إن المتتبع لحركة التأليف السابقة لعهد أبي علي البغدادي في الأندلس يقف على حقيقة وهي أن الدارس ظل في تأليفه رهين ما رآه في المشرق لما رحل أيام الطلب الأولى، لذا نرى كثرة الكتب التي على نسق الرسائل الإفرادية ذات الموضوع الواحد.

¹ انظر: الحركة اللغوية في الأندلس، ألبير حبيب مطلق، 108 – 109.

² هذا عالم لغوي متخصص وهو مع ذلك صاحب الشرطة، ولا عجب، فقد كان ثلاثة علماء لغة تتلمذوا على أبي علي البغدادي وهم أصحاب شرطة مثل: الزبيدي، وابن سيد الآخر.

³ انظر: المرجع نفسه، ص 109.

لكن وفود أبي علي البغدادي كان يشير بمرحلة جديدة في الحياة الثقافية والعلمية بالأندلس انطلاقاً من أماليه في المجالس العلمية بجامع الزهراء في قرطبة، ثم مع مرور الزمن ظهرت فئة من الطلاب المتميزين، وقد أثرت فيهم شخصية أبي علي البغدادي العلمية، واقتدوا به، وأثر تدريسه طلاباً ذوي كفاءة وأهلية علمية قد أبدعوا تواليف في فنون شتى، وإن كان المحور البارز فيها اللغة.

ولنأخذ مظهراً جديداً في التأليف عند الأندلسيين هو المعاجم اللفظية، فالأندلسيون من قبل كانوا قد عرفوا معجم «العين» للخليل - وهو مشرقى - لكن هذا القرن الرابع فتح فيه باب التأليف في المعاجم اللفظية الأندلسية استهلالاً بمعجم «البارع» لأبي علي القالي البغدادي، ثم سار التلميذ على درب الشيخ في التأليف، فظهر كتاب «مختصر العين» لأبي بكر الزبيدي، وهو أحد أبرز تلاميذ أبي علي البغدادي، وقد خص بأشياء دون غيره، ولم يتوقف عند هذا بل أضاف تواليف أخرى حول كتاب «العين» في هذا المجال. كما أنه ألف في فن التراجم كتاباً أسماه «طبقات النحويين واللغويين»¹، وله كتاب في «النحو» سماه «الواضح»، وجمع في «الأبنية»، وفي «لحن العامة»، بالإضافة إلى شاعريته، فقد كان شاعراً كثير الشعر.²

فهذا مثال على التأليف المتنوع عند شخصية علمية واحدة من حسنات أبي علي القالي البغدادي، ترى أنه قد تناول النحو والصرف والمعاجم والأخبار والأشعار وغيرها من فنون العلوم.³ ومما لا شك فيه أن هناك جهوداً أخرى غير جهود أبي علي القالي البغدادي توازيها وتتضافر معها لتذكية النهضة العلمية اللغوية في الأندلس مثل جهود ابن القوطية.⁴

فابن القوطية كان قد ألف بعض الكتب النادرة في بابها، ولا يدرك قيمة ذلك إلا أهل الفن والاختصاص، ومنها: «شرح رسالة أدب الكاتب»، و«المقصود والممدود»، و«تاريخ الأندلس»، «تصارييف

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 431.

² جذوة المقتبس، الحميدي، ص 72، ومما ذكر الحميدي من خير شعره قال: أخبرنا أبو عمر يوسف بن عبد البر، قال: كتب أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي إلى أبي مسلم بن فهد:

أبا مسلم إن الفتى بجناناته	ومقوله لا بالمراكب واللبس
وليس ثياب المرء تغني قلامه	إذا كان مقصوراً على قصر النفس
وليس يفيد العلم والحلم والحجا	أبا مسلم طول القعود على الكرسي

وانظر: المرجع نفسه، ص 72 - 73.

³ فبعضهم أوصل عدد طلاب أبي علي القالي البغدادي إلى تسعة وثلاثين طالباً، وغير المؤثقين خلق كثير، وانظر: البار، نخ: هاشم الطعان، مقدمة المحقق (39 - 45).

⁴ وهو محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية القرطبي أبو بكر النحوي مولى عمر بن عبد العزيز، والقوطية نسب إلى أمه قد كانت من القوط، وانظر: بغية الوعاة، السيوطي، 198/1.

الأفعال¹»، وبهذا الأخير طارت شهرته في الآفاق حتى إنه قد أثنى عليه أبو علي البغدادي نفسه - كما أسلفنا - وغير ابن القوطية هناك علماء ساهموا في هذه النهضة العلمية. وصفوة القول:

إن القرن الرابع الهجري في الأندلس قد تغيرت فيه الحياة العلمية والثقافية كثيرا حتى شد ذلك انتباه الدارسين والباحثين والمؤرخين، فسطروا ذلك في تواليهم المختلفة ليوثقوا حقبة زمنية لمي من أحسن عصور الأندلس.

ومجيء أبي علي البغدادي - الشخصية العلمية المكونة في المشرق - له الأثر الكبير في دفع عجلة الدرس اللغوي والأدبي، وقد مثل نقطة تحول كبيرة في الدراسات اللغوية خاصة. ويمكن اختصار بصمات أبي علي القالي البغدادي في النقاط التالية:

- ظهور ما يسمى بالأماي في العلوم المختلفة، وشيوع النشاط الشفوي عموماً من مناظرات ومحاورات، ومناقشات، ومساجلات وغيرها.

- الدروس النظامية نسبياً، (تحديد الزمان والمكان، والعلم الذي يدرس)، وظهور التخصص العلمي.

- تفعيل حركة التأديب والتدريس ومحاولة التعميم.

- دور ذوي السلطة في العناية بالعلم وأهله، وقد كان أبو علي البغدادي مقرباً من الخليفة نفسه الناصر ثم الحكم ولي عهده من بعده.

- ظهور توالي في مجالات علم اللغة لم تكن معروفة من قبل مثل المعاجم العربية واللفظية منها على وجه الخصوص، والتراجم مثل ما هو عند أبي بكر الزبيدي في الطبقات.

- انتشار الوعي العلمي عموماً وقابلية المجتمع الأندلسي - أخص منهم العرب والمسلمين - لذلك، فهناك من جمعوا بين وظائفهم والبروز في العلم مثل ابني أبان بن سيد.

- اتساع حركة التأليف لتشمل الإبداع، والاختصار، والشرح، والاستدراك وغيرها.

أبو علي القالي البغدادي حصل علوماً شتى، وبرز في المجال اللغوي مشرقياً، واستثمر ذلك في الأندلس، حيث أشعل شمعة العلوم اللغوية التي ما انطفأت بذهابه، فقد خلفه تلاميذه فأدبوا الصغار، ودرسوا الصغار والكبار، وسعوا إلى التأليف كما هو دأب شيخهم أبي علي البغدادي، فأبدعوا كتباً هي إلى اليوم تدل على آثارهم، وحسن صنيع من كان سبباً في تعليمهم وتحصيلهم.

¹ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الفصل الثالث

منهج أبي علي القالي في كتابه البارع في اللغة

المبحث الأول: التعريف بكتاب البارع لأبي علي القالي

المبحث الثاني: الترتيب الخارجي للبارع

المبحث الثالث: البارع بين التأثير والتأثير

إن الكلام عن منهج التأليف عند أي شخصية علمية لمن أهم القضايا، ذلك أن معرفة المنهج تقرب لنا ما ألف بالوقوف على الأسس التي تحكم وتضبط صناعة الصانع، ومهارة الحاذق في هذا المجال، وما من مؤلف ألف وهو ذو قيمة علمية إلا وصاحبه يتبع في ذلك منهجا معيناً اتباعاً أو إبداعاً، وبعض المؤلفين يتقيد بالمنهج العام الذي يسلكه ولا يحيد عنه قيد أنملة، وبعضهم يدخل عليه تغييرات خاصة به تطبع وتسم مؤلفه الذي رامه.

وأبو علي القالي البغدادي في تأليفه كتاب «البار في اللغة» لم يخرج عما كنا قد قدمنا —سالفاً— فالرجل متشبع بثقافة مشرقية حيث رحل من بلده "منازجرد" إلى "بغداد"، بغية طلب العلم، وقد تحقق له ما أمل بعد عقدين ونصف من الجد والاجتهاد، والصبر عند من يرجى عنده الطلب، وأخذ اللغة مشافهة عن العرب، ثم بدا له من بعد ما رأى من نفسه التحصيل أن يؤم الرحيل إلى البلاد الجديدة «الأندلس» تحت ظروف يبدو أن أكثرها مجهول، وما ذكر عنها مجرد تخمينات وتخريصات من ضروب الظن والزعم لا من كلام الثقات.

ومهما يكن من أمر فإن أبا علي القالي البغدادي قد رحل من بغداد إلى الأندلس، وهناك وجد وجداً وعطاءً وبذلاً من ذوي السلطة، وإعانة وتقديراً وتشجيعاً من ذوي العلم، وكان قد قطن قرطبة، فرفعوا فيها له شأنه بقدر ما أفادوا من علمه وأدبه.

لا شك أن العالم إذا استقر فإنه يشرع في العمل الذي نواه قبل، إذ بدأ أبو علي القالي البغدادي التدريس على شكل إملاءات وأمالي في مجالس علمية متفرقة، وهذا الفن مشرقى الصنعة، فقد عرفه المشاركة وأجادوا فيه، ولعل أبا علي القالي البغدادي قد حصل شيئاً من العلوم سمعاً لبعض الأمالي، ذلك أنها قد عرفت عن بعض شيوخه غير أهل الحديث، وقد كثر عنده الطلاب الوافدون عليه من مناطق شتى. ولما مكث في قرطبة ما يربو عن العقد من الزمن يدرس رأى أن يشرع في التأليف —وهو في ذلك كله ناو نشر العلم— وأغلب من تتبع مسيرة أبي علي القالي البغدادي العلمية في الشرق والغرب وما بينهما —وإن كانت قليلة— تعلماً وتعليماً وتأليفاً يكادون يجمعون على أن التأليف عند الرجل بدأ في الأندلس، ولا يشك بعض المحققين في أن كتابيه «الأمالي أو النوادر» و«المقصود والممدود» هما أول ما ألف أبو علي القالي البغدادي، وذلك بالنظر إلى المخطوطات العديدة، وكلام الثقات، ثم المادة العلمية التي تحويها كتبه، وشواهد أخرى تخفى عن أفراد الناس ويعلمها أهل الفن والاختصاص.

وموضوعنا كتاب «البار» لأبي علي القالي البغدادي، فالرجل قد ألفه متأخراً عن «الأمالي» و«المقصود والممدود»، إذ أخذ تجربة التأليف قبل واستثمر الخبرة في «البار» لذا جاء نتاجه ذا قيمة علمية، ولما نقول هذا الكلام فنحن لا ننقص من قيمة المؤلفين الأولين بل شهرة الأمالي تفوق البار أصلاً، ومن ناحية التحكم والضبط في المنهج وغزارة المادة «فالمقصود والممدود» يقصر عن مضاهاته فيها كتاب.

المبحث الأول: التعريف بكتاب البارع لأبي علي القالي

إن أهم الآثار التي تدل على مكانة العالم من العلم والمعرفة هي الكتب التي يؤلفها، فالكتاب يعتبر وسيلة مهمة في نشر العلم، ولا شك أن أبا علي القالي البغدادي لما ألف كان على يقين من هذا الأمر، وأن العلم يزداد عند صاحبه ببذله، يقول الألبيري حاثاً على نشر العلم:¹

يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن كفا به شددتاً

فالرجل لما استقر وتمكن في الأندلس عزم على التأليف فكان الأول (الأمالي) كتاباً موسوعياً تتجاذبه فنون مختلفة، والثاني (المقصود والممدود) في مجال محدود، لكنه أشبه ما يكون بالرسائل الإفرادية ذات الموضوع الواحد، ثم جاء التالي (البارع) وبه تم فتح عصر جديد في التأليف الأندلسي، حيث جاء في مجال المعاجم العربية اللفظية، ولم تعرف الأندلس في هذا الفن تأليفاً قبل هذا الأمر، ذلك أنهم عرفوا معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (175 هـ)، ودرسوه لكن التأليف في هذا المجال لم يحدث لا اتباعاً ولا إبداعاً حتى جاء أبو علي القالي البغدادي فبرع في التأليف لما أخرج كتاب «البارع في اللغة».

أولاً- سبب التسمية والهدف من التأليف:

إن إطلاق تسمية على مؤلف ما لمهم جداً بالنسبة للمصنفين والباحثين والدراسين، فالعناوين لا توضع غالباً عفويًا، وإنما تكون مقصودة دلالاتها القريبة والبعيدة، ونحن هنا سنتعرض لتسمية أبي علي القالي البغدادي معجمه بكتاب البارع، ونناقش هذا العنوان وما يدور حوله مستأنسين بكلام أهل الاختصاص في ذلك.

قال الفيروز آبادي رحمه الله: «بَرَعَ: وثَلَّثَ، براعةً وبروعاً: فاق أصحابه في العلم وغيره، أو تم في كل فضيلة وجمال، فهو بارع وهي بارعة، وبرع صاحبه غلبه.

وهذا أبرع منه: أضْحَمَ، وأمر بارع: جميل. والبريعة: الفائقة الجمال والعقل».²

ولعل الرجل من هذه المعاني اللغوية للجذر (ب.ر.ع) التي تدور حول المغالبة والتفوق في كل شيء حسن ومنه الجمال أخذ هذه المعاني لتعبر له عن كتابه.

¹ هذا من تائبة أبي إسحاق الإلبيري، والبيت الذي قبله:

وكنز لا تخاف عليه لصاً خفيف الحمل يوجد حيث كنتا

وانظر: منظومة أبي إسحاق الإلبيري، الإلبيري، أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي الغرناطي، أكمال بوكاستور، مقاديشو - الصومال، ط1، 1435 هـ - 2014 م، ص 5.

² القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص 722.

يقول محقق البار -هاشم الطعان-: وعنوان الكتاب كما يرد في المخطوطة نفسها¹ (الكتاب البار في اللغة). وقد وهم صاحب كشف الظنون فاعتبره (البار في غريب الحديث)، كما ترجمه حسين مؤنس عن الاسبانية بعنوان (العالم)، إذ ترجم له المعنى ولم يرجع إلى الأصول العربية.² ومعلوم أن هذه التسمية مسبوق إليها أبو علي القالي البغدادي، فقد سبقه إلى ذلك المفضل بن سلمة، حيث ألف كتابا بعنوان البار، وقدر الله جاري، فكان مؤلفه هذا في الرد على كتاب العين.³ مما لا شك فيه أنه لا يوجد نص صريح يبين هدف أبي علي القالي البغدادي من تأليفه لكتاب «البار»، ذلك أن مقدمة الكتاب والتي يفترض أن تفصح عن الغاية والمنهج كانت في جملة ما فقد. وإذا كانت الحال هذه فإن الدارسين لا يملكون إلا التخمين والتخريص، لكن أحكامهم في ذلك تبقى نسبية، ومعتمدة على مقدمات علمية وأخرى منطقية.

يقول حسين نصار عندما تعرض لدراسة كتاب «البار»: «ولكننا قد نظن أنه كان يرمي في معجمه إلى تلافي النقائص التي رآها في كتاب العين ومعجم أستاذه ابن دريد أي يرمي إلى الترتيب والصحة. وقد نظن أنه أيضا أراد أن يتيح الفرصة للأندلس للإسهام في حركة المعاجم التي ظهرت في الشرق، وأخذ تيارها في التدفق والتلاطم، حتى رأى القرن الذي عاش فيه القالي «القرن الرابع الهجري» هذا العدد العظيم منها. فهذا الوافد الشرقي على الأندلس كان يريد أن ينقل معارف المشاركة إلى تلاميذه ومحبيه من المغاربة: فألف لهم ما ألف، وما جاز الشهرة التي طبقت الآفاق كبارعه هذا وأماله. وكلها يقوم على ثقافات الشرق العربي وحدها، فأماله صورة لأماله المشاركة، وبارعه صورة لمعاجمهم».⁴

وقال البير حبيب مطلق نحو من هذا الكلام، لما عرض للكلام على هدف المؤلف من تأليف «البار» حيث قال: «... نريد أن نقول إن الهدف من تأليف الكتاب والخطة التي اتبعها المؤلف غير معروفين بدقة، إنما يمكن استنتاجهما استنتاجاً».

وقد رأينا أن القالي قام بتشجيع من الحكم المستنصر، بتأليف بارعه ليضع بين أيدي أهل الأندلس معجما يماثل معجمات المشاركة أو يتفوق عليها، وقد قصد إلى أن يستهل عمليات التفسير والشرح التي كان يقوم بها هو وأمثاله من العلماء في تلك الفترة من حياة الأندلس اللغوية والأدبية».⁵

¹ مخطوطة لندن، ص 41، ومخطوطة باريس، ق 13.

² البار في اللغة، القالي، تح: هاشم الطعان، ص 67، مقدمة المحقق.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ المعجم العربي، حسين نصار، 314/1.

⁵ الحركة اللغوية في الأندلس، البير حبيب مطلق، ص 215.

هذا الذي تقدم معنا من استنتاجات الدارسين، فلا نملك لها دفعا، في ما وصلا إليه، بل التأييد أقرب لذلك فقد أتيا باحتمالات ترقى إلى أهداف عامة إن لم تكن هي الخاصة والمقصودة بكتاب «البار» لأبي علي القالي البغدادي.

ولعلنا في هذه النقاط نرسم حدود أهداف القالي من تأليف البار:

- النية الحسنة والمقصد النبيل المتمثل في نشر العلم، فالقالي علم ثم عمل ودعا بما علم.
- الإيمان واليقين بأن من أراد التحصيل في العلم الشرعي يكون لزاما عليه تحصيل علم الآلة (اللغة) أولا باعتبارها الوسيلة المؤدية الى ذلك، لذا هو عمل على تأليف البار ليكون بمثابة المقدمة في طلب العلم لمن يريده.

- ردّ علمي على بارع المفضل بن سلمة، إذ عمل هذا الأخير في كتابه الردّ على الخليل في كتاب العين، ومعلوم مكانة الخليل وكتابه في الأندلس، لذا هم يدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة.

- تنوير هذه البلاد الجديدة (الأندلس) برّد الجميل، فالرجل قد أكرم من الخليفة والأمير هناك، فحري به أن يسدي لهم معروفاً مقابل الإكرام، لكن العلماء لهم شأنهم في صناعة المعروف وردّ الجميل، حيث عمل على سنّ التأليف في اللغة والمعاجم، فجاء البار.

- مضاهاة الدراسات اللغوية في المشرق، ففي ذلك الوقت كانوا قد قطعوا أشواطاً كبيرة في التأليف اللغوي بصفة عامة والمعجمي منه على وجه الخصوص.

ثانياً- بين البارعين¹ أو البارعات:

هذا العنوان فيه إثبات لوجود أكثر من بارع أبي علي القالي البغدادي في الساحة العلمية والأدبية، ومعلوم بالضرورة أن كلمة «بارع» قد نقلت عن الوصفية -اسم فاعل من برّع- إلى العلمية، فصارت علماً على مؤلف أبي علي القالي البغدادي في اللغة والمعاجم اللفظية لخصوصيات عديدة لكن ألفاظ اللغة ليس عليها حجر لأحد دون آخر، فقد وجد من سمى مؤلفه بهذه التسمية «البارع» وفي اللغة والمعاجم أيضاً، بل إنه لقريب من موضوع القالي، وقد قيل إنه ألفه صاحبه في الرد على كتاب «العين» للخليل بن أحمد، وهذا الأخير - صاحب البارع- المقصود يدعى المفضل بن سلمة² (291 هـ)، وهو متقدم عن أبي علي القالي البغدادي.

¹ البارعون: وصف لمن ألف وسمى «البارع»، أما البارعات فجمع لبارع (الكتاب) وهو من الجمادات غير المعقولات فجمع على المؤنث السالم.

² هو أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم الضبي اللغوي، صاحب التصانيف المشهورة في فنون الأدب ومعاني القرآن، وكان كوفي المذهب مليح الخط، لقي ابن الأعرابي وغيره من العلماء، واستدرك على الخليل في كتاب «العين»، وخطأه، وعمل في ذلك كتاباً، وله من التصانيف كتاب «البارع في علم اللغة»، وكتاب «الفاخر»، وكتاب «العود والملاهي»، وكتاب «جلاء الشبه»، وكتاب «الطيف»، وكتاب «ضياء القلوب في معاني القرآن» نيف وعشرون جزءاً، وكتاب «الاشتقاق»، وكتاب «الزروع والنبات»، وكتاب «خلق الإنسان»، وكتاب «ما يحتاج إليه الكاتب»، وكتاب «المقصود»

أ- الكتب المصنفة التي حملت تسمية «البار»¹:

لقد عدّد حاجي خليفة كتباً مصنفة أخذت تسمية البار نوردتها على النحو التالي:

- البار في إقطاع الشارع — رسالة — للسيوطي.
- البار في غريب الحديث²: للشيخ أبي علي إسماعيل بن القاسم اللغوي القالي المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة.
- البار في اللغة: للشيخ أبي طالب مفضل بن سلمة بن عاصم اللغوي، الآخذ عن ابن السكيت، وتعلب المتوفى سنة (290 هـ).
- البار المدخل إلى أحكام النجوم لأبي نصير الحسن بن علي المنجم، وهو مختصر، على خمسة مقالات وأربعة وستين فصلاً، أوله (الحمد لله الذي فطر العباد على معرفته ... الخ).
- البار في أحكام النجوم للشيخ علي بن أبي الرحال الشيباني الكاتب، وهو كتاب كبير مشهور معتبر، أوله (الحمد لله الواحد القهار ... الخ) جمع فيه معاني علم النجوم، وغرائب أسرارها من كتب علمائها. وأضاف إليه: ما انتخبته فكرته، وأتت عليه تجربته ... ثمانية أجزاء ثم لخصه الشهاب أحمد بن تمر بغا، وسماه «البرق الساطع...».

— البار في شعراء المولدين لهارون بن علي بن المنجم، المتوفى سنة (288 هـ)، جمع فيه واحدا وستين شاعراً، وافتتح بذكر بشار بن برد، وختم بمحمد بن عبد الملك، واختار فيه من شعر كل واحد عيونه فصار

=«الممدود»، وكتاب «المدخل إلى علم النحو». وروى عنه أبو بكر الصولي وزعم أنه سمع عنه سنة تسعين ومائتين. وأبوه سلمة بن عاصم صاحب الفراء وراويته، وهم أهل بيت كلهم علماء نبلاء مشاهير، رحمهم الله تعالى.

وكان المفضل المذكور متصلاً بالوزير إسماعيل بن بلبل فقليل له: إن ابن الرومي الشاعر — المقدم ذكره — قد هجاه، فشق ذلك على الوزير، وحرّم ابن الرومي عطايه، فعمل ابن الرومي في المفضل أبياتاً وهي:

لو تلففت في كساء الكسائي	وتفريت فروة الفراء
وتخللت بالخليل وأضحى	سبويه لديك رهن سباء
وتكونت من سواد أبي الأسود	شخصاً يُكنى أبا السوداء
لأبي الله أن يعدك أهلاً	العلم إلا من جملة الأغبياء

وانظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، 205/4 – 206. وقد نقل السيوطي عن ابن قاضي شهبة في طبقاته 254/1، أن وفاته كانت سنة 300، والراجح في أغلب المصادر أنها (291 هـ)، وقد قيل (290 هـ)، وانظر: بغية الوعاة، السيوطي، 297/2.

¹ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي، تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، (دط)، 2017م، 278/1.

² هذا وهم من صاحب كشف الظنون، وإنما التسمية عند أهل الفن والاختصاص من المؤثّقين والمحقّقين «البار في اللغة». وانظر: البار، القالي، ص 67. المحقق.

وانظر: المقصور والممدود، القالي، تح: أحمد عبد المجيد هريدي، ص 48، مقدمة المحقق وغيرها.

مغنيا عن دواوين الجماعة الذين ذكرهم وهو الأصل الذي نسجوا على منواله، وكتاب (اليتيمة) و(الجريدة) و(زينة الدهر) و(الدمية) فروع عليه، وذكر أنه مختصر من كتاب ألفه قبله في هذا الفن، وكان طويلاً، فحذف منه أشياء ذكره ابن خلكان.

ومن جملة الكتب التي ذكرها حاجي خليفة وغيره مما يحمل تسمية «البار» فالذي يعيننا منها، ويُعنى به أهل اللغة والمعاجم اثنان، الأول موضوع دراستنا بارع أبي علي القالي، والثاني بارع المفضل بن سلمة، أما البارعات الأخر أحوالها ما بين مجهول وهو بين الإثبات وعدمه، وبين ما يختص بفنون أخرى بعيداً عن اللغة.

وهذا البارع الأخير بارع المفضل بن سلمة هو غير مطبوع، وإن كان بارع أبي علي القالي البغدادي ناقصاً غير مكتمل، والذي طبع منه أقل القليل من الأصل إلا أنه أحسن حالاً منه.

ب- أقوال العلماء في بارع المفضل بن سلمة:

ويقول أحمد الشرقاوي إقبال ملخصاً فيه أقوال بعض الأئمة المتقدمين: «البارع في اللغة» لأبي طالب المفضل بن عاصم الضبي المتوفى سنة (290 هـ).

ذكره ابن النديم في الفهرست فقال بشأنه ما نصه: «كتاب البارع في اللغة، والذي خرج منه المهمة، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء».

يريد ابن النديم فيما يظهر أن المفضل لم يتم كتاب «البارع» هذا، ولكن الخلكاني أخبر عنه في الوفيات (ج2، ص70) وهو يترجم أبا محمد يوسف بن أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي بما يشير إلى أن البارع كان كتاباً تاماً كاملاً فقال بالحرف: «وكانت كتب اللغة تقرأ عليه (يعني يوسف السيرافي) مرة رواية ومرة دراية، وقُرئ عليه كتاب البارع للمفضل بن سلمة، وهو كتاب كبير في عدة مجلدات، هذب به كتاب العين في اللغة المنسوب للخليل بن أحمد، وأضاف إليه من اللغة طرفاً صالحاً»¹.

وذكر البارع ياقوت في الإرشاد، والسيوطي في المزهرة، وفي البغية، وخليفة في كشف الظنون.² وأضاف القفطي: لقي ابن الأعرابي، وغيره من العلماء، واستكثر من الرواية ونقل اللغة، واستدرك على الخليل في كتاب «العين»، وحكاها في كتاب كبير ألفه وسماه «البارع» ولما قرأ ابن مقلة هذا الكتاب على ابن دريد يقول في بعض ما رده: صدق أبو طالب، وفي بعض الرواة يقول: كذب أبو طالب، ومات أبو طالب قبل إتمام هذا الكتاب.³

¹ وفيات الأعيان، ابن خلكان، 79-78/2.

² معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، ص 195.

³ إنباه الرواة، القفطي، 306/3.

وأغلب من ترجم للرجل ذهبوا إلى أنه لم يُتممه، وقد مات دون إكماله، والذي يظهر -والله أعلم- أن ابن خلكان تفرد بخبر الإتمام. ومهما يكن من أمر فإنه من أهل الفن والاختصاص -لا شك في ذلك- وقد يتوفر لديه ما يوثق ذلك الأمر، فيقرره. ثم إنه من المحتمل أن علة النقصان والفقدان تتبع البارعين على السواء، فكما أصيب بها الأول أصيب بها الثاني.

ج - مقارنة بين البارعين:

وهنا نحاول عقد مقارنة بين الكتابين حتى يتضح أمرهما:

بارع المفضل بن سلمة	بارع أبي علي القالي البغدادي	
كوفي متعصب	منفتح على كل المذاهب يأخذ عن الكوفي والبصري وغيرهما، وبعضهم يرى أن هذا مذهب بغداد.	مذهب المؤلف
مفقود (وبعتره النقص) إثبات ستة أحرف فقط (ء، هـ، ع، ح، غ، خ)	مطبوع (ثمانية أحرف) فقط (هـ، غ، ع، ق، ح، د، ط، ت)	وجود الكتاب
الرد على كتاب العين واستهدافه	إنشاء معجم ألفاظ على منهج العين	الموضوع
إسقاط وتشويه صورة الكتاب (العين)	الترويج لهذا المنهج ولعلم صاحبه	الهدف
لا ينقل	ينقل عنه بكثرة	النقل عنه
العصبي المتقوقع	الموضوعي العلمي	المنهج الفكري
كوفيون	كوفيون وبصريون وبغداديون وغيرهم	شيوخه
أعماله متنوعة لغوية وغيرها	أعماله متنوعة في عدة فنون وهو من اللغة والمعاجم أقرب.	الجهود العلمية
آخر القرن الثالث في المشرق	منتصف القرن الرابع في الأندلس	التاريخ والمكان

وجدير بنا أن نشير هنا إلى حملة تشويه أريد بها إسقاط جهود أبي علي القالي البغدادي، وبصفة خاصة معجمه «البارع» في اللغة، وهي في الحقيقة القضية ذات بعد سياسي عميق جداً، جرف صاحبها بتهوره أهل العلم وعلومهم، ولا يستثني إلا من عقد الولاء للمآرب السياسية الهدامة، ولو كان الأمر على حساب الدين والقيم والمبادئ والأخلاق والأعراف.

قال صاعد بن الحسن¹: «كان مولانا المنصور بن أبي عامر -أطال الله بقاءه- أمر بقراءة «البار» وهو كتاب لأبي علي القالي -رحمه الله- واستقصى، وهو كتاب احتذى فيه بالمفضل بن سلمة صاحب الفراء، وهو كتاب بليغ يقع بخط مجموع في نحو ثلاثة آلاف ورقة وسماه البار، يرد فيه على كثير مما أورد صاحب العين ويخطئه فيه. ولا بن دريد كتاب في الرد عليه كبير، يعرف بكتاب الانتصار لصاحب العين فنقله أبو علي، وضم إليه من خزانة المستنصر -رحمه الله- زوائد كثيرة، فكان يقرأ على المنصور بحضوري، فكنت أذكر ما أخل به ولم يقع عليه، فكان يقع ما أورده مرة في حال الاستحسان، وتارة في حيز الارتياب وأخرى في حيز الرد، إذ لم يصحني من كتي التي درست منها شيء، وكان معولي على حفظي ...»².

فلا شك أن صاعداً هذا لا يوثق بأخباره فهو يخلط ويكذب أيضاً، فهو غايته إرضاء المنصور بن أبي عامر، والمنصور كان يريد استئصال الأمويين وبصماتهم، وكل ما كان له علاقة بحكمهم، فثار ثورة على جميع البنى التحتية والفوقية التي كانت سائدة.

وصاعد في هذا الخبر لبس على المنصور في أمر أبي علي القالي البغدادي وكتابه البار في اللغة تلقاه الناس بالقبول، فالقبول حظي به مؤلفه أثناء حياته التدريسية، أما وقد مات، فالله -سبحانه وتعالى- هو الذي يكتب الشهرة لمن يشاء عند التساوي. ومن جعلهما طرفي مقارنة فإنه يحق لنا أن نتمثل قول القائل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره
إن قيل إن السيف أمضى من العصا³

¹ هو صاعد بن الحسن بن عيسى الربيعي البغدادي أبو العلاء، قال في البلغة: لغوي له الفصوص كأما لي القالي وقال ابن مكنوم: كان مقدماً في اللغة ومعرفة العويص، وكان أحضر الناس شاهداً، وأرواهم لكلمة غريبة، وإنما حطه عند أهل الأدب ما غلب عليه من حب الشراب والبطالة وإيثار السخف والفكاهة، فلم يثقوا بنقله، ولا استكثروا منه. وكان من متقدمي ندامي المنصور بن أبي عامر، ونال منه دنيا عريضة، إلا أنه كان متلافاً لا يُبقي على شيء.

وقال ابن النجار: صحب السريافي والفارسي والخطابي، وروى عنهم، وأصله من الموصل، ودخل الأندلس، وكان عالماً باللغة والأخبار والآداب، سريع الجواب عما يُسأل عنه، طيب العشرة، حلو الفكاهة.

قال الصندي: كان يتهم في نقله بالكذب، فلذا رفض الناس كتابه، ولما تحقق المنصور من كذبه في النقل رمى بكتابه الفصوص في النهر فقال بعضهم:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص
وهكذا كل ثقل يغوص

فبلع صاعداً فقال:

عاد إلى عنصره، إنمــــا
تخرج من قعر البحور الفصوص

مات بصقلية سنة سبع عشرة وأربعمائة، وكان المنصور قد أثابه على كتاب الفصوص خمسة آلاف دينار.

وانظر: بغية الوعاة، السيوطي، 7/2.

² الفصوص في الملح والنوادر والعلوم والآداب، صاعد بن الحسن الربيعي البغدادي، تح: محمد السيد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (دط)، (دت)، 430/2.

³ انظر: يتيمة الدهر، الثعالبي، 299/5. ولفظه عنده هكذا يرويه عن أبي درهم البندنجي:

ألم تر أن السيف يزري به الفتى
إذا قال هذا السيف أمضى من العصا

والحقيقة أن أبا علي القالي كان يهدف إلى بناء معجم شامل في اللغة على منهج الخليل الذي أعجب بصنيعه المعجمي، وكان الرجل يتحلى بالروح العلمية إلى أبعد حد، فأخلاقه وسمته كسبا قلوب الناس، ثم إنه احترم العلماء الذين وجدهم بالأندلس، ولم يتعال عليهم قط، فقد أظهر إعجابه صراحة بابن القوطية، ودلائل ثابت وغيرهما.

وهل من خلق رجل مثال كهذا أن يرد على الخليل بغير أدب، أو أن يسرق عمل المفضل بن سلمة مع أنهما مختلفان كل الاختلاف في المنهج الفكري والمذهب اللغوي النحوي، وغاية التأليف وغيرها. فنظرة منصفة تُسكت كذب صاعد الذي به نزل، وتعلي من قيمة أبي علي القالي البغدادي صاحب البار الذي لم يزل بمكانته العلمية والخَلقية عند الأندلسيين من يوم نزل إلى يوم رحل.

وهذا دليل آخر على غيرة صاعد واستهدافه للقالي حيث أعلن أنه سيؤلف كتاباً مثل كتاب أبي علي، ومن عبارته: «إذا أراد المنصور -يعني ابن أبي عامر- أمليت على مقيدي خدمته وكُتِّب دولته كتاباً أرفع منه قدراً، وأجل خطراً، لا أدخل فيه خبراً مما أدخله أبو علي...»¹ فأذن له المنصور في ذلك. وانظر كيف اتفق هوى الرجل الأول مع الثاني لتذهب جهود أبي علي القالي البغدادي ضحية أمرٍ دبر بليل سياسي، ولا أخلاقي.

فهو عارض منهج أبي علي القالي البغدادي في تأليف الأمالي - وهي صنعة مشرقية قديمة - فألف كتابه "الفصوص" وهو مزيج بين اللغة والأدب، والأخبار.

وأمر المعارضة محمود لو سلم المعارض من لمز، وكان الأولى بصاعد أن يحمّد صنيع أبي علي في الأندلس عموماً، ويذكر فضله على أناسها، وعليه أيضاً بحكم تقدمه عليه في السن والعلم والحلم والرحلة، ليلتحق بأخلاق العلماء، وفضائلهم.

¹ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام أبو الحسن علي بن بسام الشنتري، تح: إحسان عباس، دار الثقافة بيروت - لبنان، (دط)، 1417 هـ - 1997 م، 15/1/4.

ثالثاً- سبب التأليف وزمنه:

لا يكون مثل هذه الأمور ذات القيمة العلمية عفويا وسبهاً، بل لا بد من أسباب لذلك، والدواعي للتأليف كثيرة، لكن عند المسلمين حتماً يكون تدوين العلوم بغرض نفع الناس دينياً ودنياً أبرز الأسباب العامة، ثم تأتي الدواعي الأخرى تبعاً له، ولحاجة الناس.

وأبو علي القالي في تأليفه للبار في اللغة لم يخرج عن هذا السبب العام حتماً، ويرى كثير من المحققين أن ضياع المقدمة -مقدمة البار كانت في جملة ما ضاع- كان سبباً في فتح باب التخريصات والافتراضات. فقال بعضهم: ربما يكون قد حس بالفراغ المهول في المكتبة المعجمية بالأندلس، وأراد بحسن نية أن يسده، ويضيء لهم الطريق إلى التأليف في هذا الفن، ويفترض أن يكون أول من يحس بهذا الأمر، وهو يدرس هناك.¹

وربما يكون الخليفة الناصر هو الذي أمره بذلك أو أشار إليه، وأبو علي القالي البغدادي كان ذا علاقة طيبة مع الخليفة كيف لا وهو من رغبه في الوفود إلى الأندلس، واحتفل به وأكرمه، وهياً له أسباب التأليف ونشر العلم، وهذا الأمر أو الافتراض يقوى باستصحاب شواهد يعضد بعضها بعضاً ومنها الخبر الذي ساقه القفطي مما وجد بخط ولده وجاءت فيه عبارة «ثم عاود النظر فيه -يعني البار- بأمر أمير المؤمنين، وتأكيده عليه ..»²

وربما نستأنس هنا بشيء آخر يخص كتاب «المقصود والممدود» الذي قيل إنّه لم يؤلف مثله في بابه، وهو قول محققه في بيان دوافع تأليف أبي علي القالي البغدادي لهذا الكتاب، يقول: «أحس أبو علي القالي -وشاركة ولي عهد المسلمين الحكم المستنصر بحاجة طائفة من العلماء المبرزين، والأدباء المتقدمين، والكتاب المرسلين...»³

هذا، والافتراضات والاحتمالات السالفة ممكنة لما هو معلوم من صفات الأشخاص الدائرة مع الأسباب، فلا المصنف ولا ولي الأمر يخلوان من الصفات العلمية التي تدفع إلى مثل هذا العمل الجليل في بابه، خاصة في المجال المعجمي مع العلم أن هذا البلد يفتقر لمن يملك الأهلية لفتح باب الصناعة المعجمية، ويؤلف في معاجم الألفاظ حتى يكون صنعة أندلسية، ومثالا يحتذى وإن كان بثقافة مشرقية.

¹ انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الود غيري، ص 21.

² إنباه الرواة، القفطي، 244/1.

³ المقصود والممدود، أبو علي القالي، تح: أحمد عبد المجيد هريدي، ص 79. مقدمة المحقق.

ومن كتابات أهل التراجم والأخبار يتضح أن أبا علي القالي البغدادي لم يكمل عمله المعجمي هذا، ولم يستطع تهذيبه وإخراجه، حيث عاجله المرض فحال دون حصول مأموله، ويبقى أمر الإتمام والتهذيب معلقاً على طلابه، ومن كانوا على دراية بعمله هذا في فن المعاجم العربية اللفظية.

ومن مقولاته أنه امتثل لأمر الخليفة بمعاودة العمل فيه سنة (349 هـ)، وفي هذه السنة والأمر كان قبلها حتماً للخليفة الناصر، فهو قد توفي سنة (350 هـ)، ثم إن الحكم على سيرة أبيه في الاحتفاء بالعلم وأهله وإكرامهم، وتحفيزهم وتشجيعهم، وهو من أهل العلم أيضاً، وقوله حجة عند العلماء، ومعلومة جهوده في خدمة العلم انطلاقاً من تكليفه لجنة لتحقيق كتاب العين للخليل.

وتذكر المصادر أنه قد ابتدأ الشروع في تأليفه سنة (350 هـ)، وقد نقل بعض أهل التراجم والأخبار والتوثيق شيئاً متعلقاً بهذا الأمر قد يحسن الاستئناس به، وهو أنه «قد شوهد بخط ولده ما مثاله: ابتدأ أبي — رحمه الله تعالى — بعمل كتاب «البارع» في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، ثم قطعتة علل وأشغال، ثم عاود النظر فيه بأمر أمير المؤمنين وتأكيد عليه فعمل فيه سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، فأخذه بمجد واجتهاد، وكمل له، وابتدأ بنقله فكمل لنفسه إلى شوال سنة خمس وخمسين وثلاثمائة كتاب الهمز، وكتاب الهاء، وكتاب العين، ثم اعتل في هذا الشهر»¹.

ليس من السهل الجزم بالمدة التي استغرقها كتاب «البارع» في التأليف استناداً لمثل هاته الأمور والنقول التي تكتنفها الضبابية وعدم الوضوح، وهذه الأمور قد وقع فيها الجدل، ثم التفرد بالرواية — كما هو واضح عند القفطي.

يقول بعض الباحثين: «ويصعب اعتماداً على هذا الكلام التحقق بدقة من الزمن الذي استغرقه تأليف هذا الكتاب. إنما نستطيع القول: إنه عمل فيه ستة عشر عاماً، لم يعمل فيها بصورة متواصلة وإنما قطعتة أثناء ذلك علل وأشغال»².

رابعاً - وصف الكتاب ومخطوطاته:

لقد طارت شهرة كتب أبي علي القالي البغدادي في الأندلس وغيرها من البلدان الإسلامية العربية من شرق وغرب، وأقبلوا عليها بقدر ما وفدوا عليه قصد الطلب وزيادة، لكن أمراً بارزاً في تأليفه شغل الناس لردح غير قليل من الزمن، هو كتاب البار في اللغة، ذلك أنه أول معجم عربي لفظي أندلسي، وإذا كان المشرق عرف التأليف في هذا النوع على يد الخليل بن أحمد (175 هـ) في القرن الثاني الهجري ابتداءً، فإن

¹ إنباء الرواة، القفطي، 244/1.

² الحركة اللغوية في الأندلس، البير حبيب مطلق، ص 212-213.

أهل الأندلس قد حصل لهم هذا الأمر في منتصف القرن الرابع الهجري على يد أبي علي القالي البغدادي (356هـ).

1- وصف الكتاب:

أول ما نستهل به الكلام على الكتاب ووصفه، نسوق الأخبار التي تثبت، ولنلتمس خبر الكتاب عند ابن خير الإشبيلي أحد أبرز العلماء الموثقين لأخبار الأندلسيين وكتبهم في فهرسته الشهيرة.

يقول ابن خير راويا خبر كتاب البار في اللغة لأبي علي القالي البغدادي: «حدثني به الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد النفري، رحمه الله، قال: حدثني به خالي الأديب أبو محمد غانم بن وليد بن عمر المخزومي عن أبي عمر يوسف بن عبد الله ابن خيرون السهمي، عن صاحب الشرطة أبي القاسم أحمد بن أبان ابن سيد، عن أبي علي البغدادي، قال أبو محمد غانم بن وليد: وحدثني به أيضا أبو بكر عبادة بن ماء السماء عن أبي بكر محمد بن حسن الزبيدي، عن أبي علي مؤلفه، رحمه الله»¹.

هذا عن الرواية المثبتة لخبر الكتاب بالسند المتصل، حتى ينتهي إلى مؤلفه أبي علي القالي البغدادي -رحمه الله- ثم يواصل كلامه عن الكتاب حيث يقول: قال: «وهو في اللغات كلها، زاد على كتاب الخليل نيفا وأربع مئة ورقة مما وقع في «العين» مهماً فأملاه مستعملاً، ومما قلل فيه الخليل، فأملى فيه زيادة كثيرة، ومما جاء دون شاهد فأمل الشواهد فيه، وكان ابتداء أوله من سنة تسع وثلاثين وكماله في شوال من سنة خمس وخمسين وثلاث مئة، ومات -رحمه الله- قبل إيعاب النسخة المرفوعة منه، وقبل أن ينقحه، فاستخرج بعده من الصكوك والرقاع، وخرج بخط فصيح في مئة وأربعة وستين جزءاً عدد ورقها أربع آلاف ورقة وأربع مئة ورقة وست وأربعون ورقة»².

ولا بد أن نذكر هنا وجود اختلافات في الروايات بالنسبة لعدد الأوراق التي تكون منها كتاب البار الأصلي، فهذا ابن العماد الحنبلي صاحب الشذرات لما عرض لترجمة أبي علي القالي فيما ينقله عن «العبر» قال: «... وألف كتاب «البار» في اللغة، خمسة آلاف ورقة، لكن لم يتمه»³.

وهذه الرواية في الحقيقة يمكن حملها على التغليب أو المبالغة في عد الناس، فهو تجاوز الأربعة آلاف ودخل في الألف الخامسة فقالوا: خمسة آلاف والله أعلم.

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 434 - 435.

² المرجع نفسه، ص 435.

³ الشذرات، 4 / 291.

أما الروايات الأخرى المختلفة عن هذه أيضاً مثل رواية ياقوت الحموي التي يقول فيها إنه — يعني كتاب البارع في اللغة — «يشتمل على ثلاثة آلاف ورقة».¹

فهذه لا سبيل فيها للمقاربة بينها وبين الروايات الأخرى، ولربما مرد ذلك إلى التصحيف أو الوهم عند من رَووا الخبر — والله أعلم —.

لقد أقر أهل التحقيق أن كتاب «البارع» قد ضاع منه الجزء الأكبر، ويقول بعض الدارسين: «ولكي نتصور بعبارة أوضح، مقدار ما ضاع من موسوعة القالي علينا أن نعرف أن ما تبقى منها لا يملأ جميع ما تقتضيه مادة ثمانية أحرف فقط من مجموع الأبجدية العربية التي قسم إليها الكتاب. فليس بين أيدينا منها سوى قطع مبتورة من حرف الهاء، والغين، والعين، والقاف، والخاء، والذال، والطاء، والتاء».²

وكان لا بد أن يخرج إلى الناس مثل هذا العمل، فتولاه ورّاقان ممن كان يساعد القالي في أعماله، فأحدهما: محمد بن الحسين الفهري، عمل على مساعدة القالي في نشر هذا المشروع منذ عام (350 هـ)، والآخر: محمد بن عمر الجبائي. وقد تعاون الورّاقان فاستخرجا المادة من الصكوك والرقاع، وهذبا الأصول التي هي بخط القالي، والأصول التي بخطيهما والتي كانا قد كتبها بين يديه. ولما تم الكتاب رفع إلى الحكم المستنصر، الذي رعى المشروع منذ البداية.³

2- مخطوطات «البارع» في اللغة:

والمخطوطات في الغالب ثلاثة أنواع:

- النسخة الأصلية التي خطتها يد المؤلف، وتدعى النسخة الأم.
- النسخة التي أملاها المؤلف عن شخص آخر فكتبها.
- النسخة المنسوخة أي المنقولة عن النسخة الأم، حتى لو تمت النسخة بعد سنين طويلة من كتابة الأصل.

أما مخطوطات كتاب «البارع» في اللغة لأبي علي القالي البغدادي فهي من النوع الثالث، ويخبرنا عنها عبد العلي الود غيري إذ يقول: توجد المخطوطة من الكتاب بالمتحف البريطاني، وقد نشرها المستشرق (فولتون) سنة 1933 بلندن مصورة، والثانية بالمكتبة الوطنية بباريس.

ونحن نرمز للأولى بحروف (ف)، والثانية بحرف (ب). والمخطوطتان معاً في 144 ورقة بينهما أربع ورقات مكررة.⁴

¹ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص 730.

² المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الود غيري، ص 20.

³ فهرسة ابن خير، ص 434-435، نقلاً عن: الحركة اللغوية في الأندلس، البير حبيب مطلق، ص 213.

⁴ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الود غيري، ص 20. الهامش.

هذا، وقد كتبت المخطوطتان بخط أندلسي وفي عصر يعود إلى حوالي القرن بعد زمن تأليف الكتاب.¹ والمتبقي من «البار» يقع، بحسب مخطوطة المتحف البريطاني، في مائة وثمان وأربعين صفحة،² وهو ما يقارب ثلاثة أمثال مخطوطة باريس ونصفها.

والقطعتان لا تشتركان إلا في ثماني صفحات من مصورة فلتن. وليست هذه الأوراق متتابعة على أية حال، بل هي متفرقات. وقد وجدت أوراق مختلفة كل الاختلاف، ولما رتبت تبين أن بها كثيراً من الأسقاط، وأنها تحتوي على قطع متفرقة من بعض الأبواب.³ غير أن كلتا القطعتين ليست تحتوي على مقدمة للمؤلف.⁴ والقول المشتهر عند الباحثين والدارسين والمحققين هو عدم وجود مقدمة لكتاب البار في اللغة لأبي علي القالي البغدادي على الأقل إلى زمننا هذا فيما نعلم، وهذا استناداً للمخطوطتين المشهورتين (المتحف البريطاني، والمكتبة الوطنية بباريس)، وإلى أعمال تلامذته اللغوية، ومن احتك به من أقرانه في ذلك الزمن، ومن رووا عنه بالأسانيد المتصلة من أهل الضبط والتحقيق.

نحن نعلم أن مثل هذا الأمر ليس من السهل البت فيه لذا جاء الحكم بعدم وجود مقدمة توضح ما رمى إليه أبو علي القالي البغدادي مقيداً، ذلك أن الأمل في وجود أمر كهذا يبقى قائماً، أو على الأقل ظهور مخطوطات أخرى كانت مغمورة لها علاقة بهذا الكتاب.

وعوداً على المخطوطات الخاصة بكتاب البار في اللغة، فمعلوم أنه من الناحية العلمية والتوثيقية لا يوجد سوى المخطوطتين المعروفتين (ف) و(ب) كما رمز إلى ذلك الودغيري.

لكن عبد العلي الودغيري الباحث المغربي له رأي في المسألة هو قوله: «يمكن تلفيق قطعة ثالثة من النقول الكثيرة المبنوثة في بعض الكتب الأندلسية التي حفظت من الضياع، ولا سيما ذلك الموجود منها في الحواشي التي تعزى لأبي محمد البطليموسي، وهي المكتوبة بهوامش النسخة الفاسية المحفوظة بالقرويين من مختصر العين للزبيدي ومادتها غزيرة جداً، فضلاً عما هو منقول في كتبه الأخرى من مثل (المستدرك في اللغة) و(استدراك الغلط...)، وما هو عند البكري ك (فصل المقال).»⁵

وقوله ورأيه هذا نراه يصلح في الاستئناس والشرح، ويمكن الاعتماد على أهل الرواية في ذلك، أو بعض التلاميذ الملازمين والذين لهم علاقة بهذا النتاج اللغوي المعجمي مثل ما ورد في كلام الزبيدي، وهو أوضح مثال على ذلك.

¹ مقدمة فولتن بالإنجليزية، ص 1، نقلاً عن: الحركة اللغوية في الأندلس، البير حبيب مطلق، ص 214.

² مخطوطة المتحف البريطاني رقم 98/11 Or. نقلاً عن: الحركة اللغوية في الأندلس، البير حبيب مطلق، ص 214.

³ المعجم العربي، حسين نصار، 1/ 314.

⁴ الحركة اللغوية في الأندلس، البير حبيب مطلق، ص 215.

⁵ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 20.

بالإضافة إلى ما وجد من وثائق لها صلة بالكتاب «البارع» عند الوراقين الخاصين بأبي علي القالي البغدادي في ذلك الزمن وهما محمد بن الحسين الفهري، ومحمد بن عمر الجياني، بالإضافة إلى البكري صاحب «سمط اللآلي في شرح الأمالي» ولقد عني الرجل بمؤلفات أبي علي لردح غير قليل من الزمن، وإلا لما كان يستطيع شرح كتاب الأمالي لأبي علي القالي البغدادي، ومع هذا نقرُّ من الناحية العلمية أن لا ترقى هذه الأمور إلى مخطوط يعتدّ به.

خامسا- كلام العلماء على كتاب البارع:

لقد عمل القالي حسنا في تأليفه كتاب «البارع في اللغة» في الأندلس، وهو من الناحية العلمية لا يعرف مكانته إلا أهل الفن والاختصاص، فالرجل كان قد تصدّر لأمر عظيم حقا ألا وهو بناء أول معجم عربي لفظي أندلسي، وقد اشتهر الكتاب عند أفراد الناس ومن فوقهم من باب أولى.

وهنا نرصد كلام أهل العلم في كتاب «البارع» على النحو التالي:

ولنبداً أولاً مع تلميذه البارز أبو بكر الزبيدي (379هـ) صاحب الطبقات حيث قال فيه لما تعرض لترجمة شيخه باعتباره لغويا بصريا من أصحاب ابن دريد (321هـ) (الطبقة السابعة) إذ يقول: «ولا نعلم أحداً من العلماء المتقدمين والمتأخرين ألف نظيره في الإحاطة والاستيعاب».¹

وقال ياقوت الحموي (626هـ): «قرأت بخط أبي بكر محمد بن طرخان بن الحكم قال الشيخ الإمام أبو محمد ابن العربي: كتاب البارع لأبي علي القالي يحتوي على مائة مجلد لم يصنف مثله في الإحاطة والاستيعاب».²

وهذا الإمام الحميدي لما ترجم لأبي علي القالي البغدادي وقد ذكر كتابه البارع فقال: «ومن كتبه في اللغة «البارع» كاد يحتوي على لغة العرب».³ وهو في ذلك يومئ إلى الشمول والإحاطة والاستيعاب.

وهذا ابن خير الإشيلي صاحب المرويات إذ بين ما يحمد عليه القالي في كتابه «البارع» من الصفات حيث صرح قائلاً: «... زاد على كتاب الخليل نيفا وأربع مائة ورقة مما وقع في «العين» مهملاً فأمله مستعملاً، ومما قلل فيه الخليل، فأملى فيه زيادة كثيرة، ومما جاء دون شاهد فأمل الشواهد فيه».⁴

هذا كلام بعض أهل العلم المتقدمين، ومنهم تلميذه البارز الزبيدي، في الثناء على أبي علي البغدادي ومدح كتابه «البارع» في اللغة.

¹ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 186.

² معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص 730.

³ جذوة المقتبس، الحميدي، ص 233.

⁴ فهرسة ابن خير الإشيلي، ابن خير، ص 435.

لكن رغم الشهرة المنقطعة النظير لكتاب «البار» - أول معجم ألفاظ عربي أندلسي - ورغم مدح المادحين له إلا أن الناس لم يميلوا إليه منذ زمن قدم، يقول السيوطي فيما ينقله عن أبي الحسن الشاري في فهرسته «ولم يعرجوا أيضا على بارع أبي علي القالي البغدادي»¹.

ويحاول حسين نصار كشف السبب في عدم ميول الناس إليه ويرجح أن يكون:

- عدم وصول نسخة كاملة من المعجم، لم يصل سوى المخطوطتين المعروفتين (ف) و(ب)² على حدّ ترميز الودغيري.

- ويرى ألبير حبيب مطلق أن ضيق المجال الذي انفتح أمام الكتاب واحد من الأسباب التي ساعدت على فقدانه. فمن المائة مجلد التي ورد ذكرها لم يبق لنا سوى القطعتين (ف) و(ب)³.

- فرواج العمل مهما كان وقبوله عند الناس من الأمور التي تدل على حسن الصنعة فيه، وهو شيء محمود، ولعل أبا علي القالي البغدادي أصاب شيئا من ذلك لما ألف البار في اللغة، وقد أصابته أشياء حتى نكون منصفين.

ونحن ندلي بدلونا أيضا في هذه القضية، فنرى أن عدم الميول للبارع جاء لأسباب نوردها على النحو التالي:

- عدم اكتمال الكتاب ووصوله ناقصا مما يجعل الناس والباحثين بصفة خاصة يزهّدون فيه، ويميلون إلى غيره مما يتوقعون فيه وجود ما يصبون إليه من لغة وغيرها.

- صعوبة الترتيب الصوتي حسب المخارج وإن كانت هي البضاعة الرائجة آنذاك في سوق اللغة والمعاجم اللفظية إلا أن ما أتى به الخليل في ذلك وجدت فيه صعوبة، فما بالك حين تعلم تغيير أبي علي القالي البغدادي من ترتيب الخليل الصوتي المخرجي، فالرجل انفرد بترتيب صوتي مخرجي خاص به هو من ترتيب سيبويه أقرب منه إلى الخليل.

- وشيء آخر هو أنّ كلام السيوطي (911هـ) السالف قد يقع محلّ احتمال، وإذا ثبت واقعا فقد يحمل على أنه يصف بيئة وزمانا بعيدين كل البعد عن عصر القالي.

- فعصر القالي وارد فيه بروز أعمال معجمية شرقا افتكت الشهرة والذيع فيه.

- وفي رأبي والسبب الأكبر -والله أعلم- أنه النقصان وعدم الاكتمال هذا هو الذي يصيب الإنسان بخيبة الأمل.

¹ المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، 213/1 نقلا عن: المزهري للسيوطي.

² انظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ الحركة اللغوية في الأندلس، البير حبيب مطلق، ص 214.

سادسا- تكملة كتاب البارع:

إن الكلام عن تكملة كتاب «البارع» في اللغة لأبي علي القالي البغدادي لأمر عظيم حقاً، ذلك أن المشروع العلمي لم يكتمل، ويتطلب من ذوي الشأن في هذا المجال جهوداً وجهوداً، فلعلنا نبين ما حدث للكتاب الذي لم يكتمل بعد موت مصنفه -رحمه الله-.

1- الجهود الأولى:

لما مات أبو علي القالي البغدادي -رحمه الله- تولى مهمة إخراج ما عمله المصنف وراقان هما: محمد بن الحسين الفهري ومحمد بن عمر الجياني -مستملي أبي علي القالي البغدادي.¹

وقد ترجم ابن الآبار للأول بكلامه فقال: «محمد بن الحسين الفهري وراق أبي علي القالي البغدادي ... روى عن أبي علي ولازمه، وتقدم في حفظ الآداب والعلم باللغات، وهو تولى مع محمد بن معمر الجياني نسخ ما لم يهذب أبو علي من تأليفه الذي سماه «البارع» وتهذيبه من أصوله التي بخطه وخطهما مما كتب بين يديه ... فلما كمل الكتاب وارتفع إلى الحكم المستنصر بالله أراد أن يقف على ما فيه من الزيادة على النسخة المجتمع عليها من كتاب العين، فبلغ ذلك إلى خمسة آلاف وستمئة وثلاث وثمانين كلمة.² ويواصل: قرأت هذا الخبر بخط أبي محمد بن السيد البطليوسي.³

2- الجهود الثانية:

إن الخليفة الحكم يمثل العنصر النافذ والفاعل في هذا المشروع بأكمله، فالوراقان إنما مهمتهما التي كلفهما بها، ورفع الأمر إليه، والآن في مرحلة أخرى، وأمر آخر حيث كلف تلميذ أبي علي القالي البغدادي البارز أبا بكر الزبيدي بمهمة تنقيح كتاب «البارع»، والزيادة في أبوابه.⁴

يقول الزبيدي في ذلك: «... فقد عهد إلي -أمير المؤمنين الحكم المستنصر- أعزه الله وأدام خلافته حين أمرني بتنقيح كتاب «البارع» وتهذيبه والزيادة في أبوابه -ألا أحكي فيه عن الخليل حرفاً، وأن أنسب ما وقع في الكتاب عنه مما لم يذكره غيره من العلماء إلى كتاب العين».⁵

¹ التكملة، ابن الأبار، 28/2.

² المرجع نفسه، 28/2 - 29.

³ نفسه، 29/2.

⁴ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الود غيري، ص 22.

⁵ استدراك الغلط الواقع في كتاب العين، الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن، تح: عبد العلي الود غيري، صلاح مهدي الفرطوسي، مجمع اللغة العربية دمشق، (دط)، 2003، ص 191.

يقول عبد العلي الود غيري معلقاً: وقد تجلت ثمرة هذا العمل الكبير الذي ندب له الرجل في شيئين:¹
— أولهما: ما تضمنه كتابه الذي سماه (المستدرك في اللغة من الزيادة التي في كتاب البارع على كتاب العين).

— ثانيهما: ما تضمنته القطعة الباريسية من كتاب البارع من إضافات لاحظت أنها تبدأ جميعها بصيغة واحدة: «قال محمد: قال فلان...» وهي عبارة عن مواد لغوية زيدت عن أصل الكتاب، ونقلت عن كبار اللغويين من أمثال: الأصمعي، وأبي زيد، الفراء، وأبي عبيدة، والأموي، والكسائي، واليزيدي، وأبي عبيد، وأبي بكر بن دريد² الذي نقلت عنه أغلب النصوص (في 42 موضعاً) فعوضت ما أهمله القالي من كتاب الجمهرة،³ وقد جاءت هذه الإضافات بلا استثناء في خواتم النصوص الأصلية لتكون لها بمثابة ذيل واستدراك، فبعض منها كان الغرض منه هو سد الفراغ الذي تركه القالي بإهماله بعض المواد إما لعدم اطلاعه عليها، وإما لاعتقاده أنها وردت مهملة والحقيقة أنها مستعملة، وبعضها الآخر كان وروده بغرض التوسع والزيادة في الاستيعاب.

فأمير المؤمنين وقتذاك كان على أمر علمي عظيم، وأحسن حين انتقى لمشروعه هذا أبا بكر الزبيدي الذي امتثل لما أمر به ووفى.

سابعاً- مناقشة بين كتاب «العين» وكتاب «البارع»:

لقد أسالت قضية كتاب العين عند وصوله إلى الأندلس حبرا كثيراً، ومما لاشك فيه أن «العين» الذي ألفه الخليل بن أحمد الفراهيدي (175 هـ) هو الأول شرقاً دون منازع في مجال المعاجم اللفظية، ولما وصلت إلى الأندلس منه عديد النسخ -نسختنا ثابت السرقسطي، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي تحقيقاً- وأبصر الكتاب بعيون أندلسية غربية تأثر به من تأثر، وظهرت بصمات الرجل الأول في دروسهم، ومن ثمة إلى تأليفهم.

إن أبا علي القالي البغدادي في الغرب والأندلس قد تبوأ منزلة وضعته في مصاف العلماء اللغويين البارزين، وقد ألف كتاباً في المعاجم اللفظية العامة سماه كتاب «البارع»، وإذا كان «عين» الخليل الأول شرقاً فغرباً كتاب «البارع» للقالي أولاً، والتالي قد تأثر بالأول تأثراً واضحاً، وانتهج نهجه، فقد كانت بضاعة

¹ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الود غيري، ص 22 - 23.

² هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية أبو بكر الأزدي اللغوي، ولد بعمان سنة ثلاث وعشرين ومائتين ونشأ بها، وتنقل في الجزائر البحرية ما بين البصرة وفارس، وحصل من النحو واللغة أوفر نصيب وأعظم قسم ورد بغداد بعدما أسن، وأقام بها إلى أن مات ... وكان رأس أهل الأدب، وانظر: البلغة، الفيروز آبادي، ص 260.

³ ألف في معاجم الألفاظ كتاباً سماه الجمهرة الذي أثار جدلاً كبيراً، وابن دريد شيخ أبي علي القالي البغدادي الأول في اللغة والأدب، وله مرويّات كثيرة عنه خاصة في كتابه الأمالي الذي هو نسخة عن أمالي ابن دريد.

الشرق في الغرب رائجة، وسلع الخليل مقصودة، وهي أنفسها، فمن ظفر بها أولاً فقد وفق، فأبو علي القالي البغدادي يعتبر الخليل شيخ شيوخه مثل: أبي بكر بن دريد، وانظر إلى هذه السلسلة، فهؤلاء الثلاثة لغويون وأصحاب معاجم لفظية وبينهم نقاط تقاطع كثيرة خاصة بين الأول (الخليل) والتالي (القالي).

وعلى إثر هذا التأثير الكبير الذي وسم كتاب «البارع» لأبي علي القالي البغدادي حدث جدل كبير بين الباحثين في مجال المعاجم والدارسين والمحققين من أهل الفن والاختصاص، وتصدر القضية هذا الإشكال: هل كتاب «البارع» هو «العين» للخليل؟، وإذا كان هذا غير ذلك، فما مدى تأثير التالي بالأول؟

صحيح أن أبا علي القالي البغدادي كانت دراسته للغة مشرقية، ولا شك أنه اطلع على علم الخليل وكتابه العين والأمر يشمل الطلاب الذين رحلوا إلى المشرق في طلب العلم، اطلع عليه عن طريق شيوخه، فقد تروى عنه اللغة، ذلك أنه سمع من العرب مشافهة.

ثم إن أبا علي القالي البغدادي لما رحل إلى الأندلس، واستقر بقرطبة —دار العلوم— فما لبث الخليفة الحكم المستنصر أن كلفه برئاسة لجنة رباعية تشرف على التحقيق في نسخ كتاب «العين» واستخرج نسخة معتمدة، وقد كان معه في هذه المهمة وراقه محمد بن الحسين الفهري، وابنا سيد تلميذاه البارزان (محمد وأحمد).

هذا الذي تقدم معنا يعتبر من أقوى الشواهد التي تدل على اتصال أبي علي القالي البغدادي بكتاب «العين» للخليل وعلمه شرقاً وغرباً، وهذا الأمر محقق قبل أن يؤلف أبو علي البغدادي كتابه «البارع».¹ وتتسع دائرة المناقشة حول كتاب «العين» بالعيون الأندلسية حينما دخل القاضي البلوطي في أمر تلك اللجنة، وكانت اللجنة في تحقيقها قد حكمت بأن نسخة القاضي البلوطي هي أشد النسخ تصحيحاً وخطأً وتبديلاً، فسأل الحكم اللجنة عن ذلك، فأنشدوه أبياتاً مكسورة، وأسمعوه ألفاظاً مصحفة، ولغات مبدلة فعجب لذلك، وسأل أبا علي فقال له: نحو ذلك. واتصل المجلس بالقاضي فرد بإرسال رقعته إلى الحكم المستنصر وقد كتب عليها:²

جزى الله الخليلَ الخيرَ عَنَّا	بِأَفْضَلِ ما جَزَى، فهو المُجَازِي
وما خطا الخليلُ سوى المغيلي	وعُضْرَوطِينِ في رِضِ الطَّرَازِ
فصار القومُ زُرْبَةً كُلٌّ زارٍ	وسَحَرِيّا، وهزاة كل هَازِي

¹ لقد تقدم معنا أنه ألف كتاب المقصور والممدود، وجاءت فيه عبارة «وقال صاحب كتاب العين».

² انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الود غيري، ص 15، نقلاً عن: إنباء الرواة.

ويواصل نقل الخبر بقوله: فلما دخلنا على المستنصر قال لنا: أما القاضي فقد هجاكم، ... وطلبوا منه باحترام أن يردوا على هذا القاضي خدمة للعلم، وتحقيقاً في الأمر وإن كان الخصم القاضي. فأذن لهم أن يجيبوه، فمد الفهري يده إلى الدواة وكتب أبياتاً يجب فيها منذراً، وأولها:

هلم فقد دعوت إلى البراز وقد ناجزت قرنا ذا نجاز

وفيها يقول:

رَوَيْتَ عَنِ الْخَلِيلِ الْوَهْمَ جَهْرًا	لَجَهْلٍ بِالْكَلَامِ وَالْمَجَازِ
دَعَوْتَ لَهُ بِخَيْرٍ، ثُمَّ أَنْحَسْتَ	يَدَاكَ عَلَى مَفَاخِرِهِ الْعِزَّازِ
تَهْدِمُهَا، وَتَجْعَلُ مَا عَلاَهَا	أَسَافِلَهَا، سَتَجْزِيكَ الْجَوَازِ
جَزَى اللَّهُ الْإِمَامَ الْعَدْلَ عَنَا	جِزَاءَ الْخَيْرِ فَهُوَ لَهُ مَجَازِ
بِهِ وَرَيْتَ رِنَادَ الْعِلْمِ قَدَمًا	وَشَرَفَ طَالِبِيهِ بَاعْتِزَازِ
وَجَلَى عَنِ كِتَابِ الْعَيْنِ دَجْنَا	وَإِظْلَامًا بِنُورِ ذِي امْتِيزِازِ
بَأَسْتَاذِ اللُّغَاتِ أَبِي عَلِي	وَأَحْدَاثِ بِنَاحِيَةِ الطَّرَازِ
بِهِمْ صَحَّ الْكِتَابُ وَصَيَّرُوهُ	مِنَ التَّصْحِيفِ فِي ظِلِّ احْتِرَازِ ¹

وفي هذه المناقشات حول كتاب «العين» ودخول عديد الشخصيات فيها يتبين أن النسخ الآتية إلى الأندلس من كتاب العين كثير منها كلام من أهل التحقيق، وهذا ما أدى بالقالي - والله أعلم - أن يتحفظ عند النقل عن الخليل بعبارته المشهورة في ذلك: «قال صاحب كتاب العين»، حتى ينزه الخليل عن كل ما من شأنه أن يصيبه من أذى، وينقص من قيمته العلمية، وهذا من أدب وفقه أبي علي البغدادي. وقد تبني الزبيدي هذا الموقف، ودافع عنه بكل ما يملك من حجج علمية، ومنطقية عقلية، ولا عجب حينئذ إذا علمت أن أستاذه أبا علي القالي البغدادي وقد أثر عليه في ذلك.

وهذا اعتماداً على نص أورده السيوطي في المزهرة ينقله عن الزبيدي حيث جاء فيه: «وحدثنا إسماعيل بن القاسم البغدادي قال: لما ورد كتاب العين من بلد خراسان في زمان أبي حاتم أنكره أبو حاتم وأصحابه أشد الإنكار، ودفعه بأبلغ الدفع.

وكيف لا ينكره أبو حاتم على أن يكون بريئاً من الخلل، سليماً من الزلل، وقد غير أصحاب الخليل بعد مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون عنه...»

¹ المرجع السابق، ص 15 - 16.

إلى أن يقول: «ومن الدليل على صحة ما ذكرناه، أن جميع ما وقع فيه من معاني النحو هو على مذهب الكوفيين، وبخلاف مذهب البصريين...»¹

ومما زاد حقيقة في حدة المشكلة العلمية وتفاقمها النقولات الكثيرة لمن ينتسبون إلى العلم والتأليف في هذا المجال، وهم ينقلون بغير تمحيص ولا تدقيق فيتوهمون ويوهمون من أراد الوقوف على الحقائق في مثل هذه الأمور.

«ونحن نربأ بالخليل عن نسبة هذا الخلل إليه، أو التعرض للمقاومة له أو الرد عليه، بل نقول: إن الكتاب لا يصح له، ولا يثبت عنه، فقد كان جلة البصريين الذين أخذوا عن أصحابه، وحملوا علمه عن رواته ينكرون هذا الكتاب ويدفعونه، إذ لم يرد إلا عن رجل واحد غير مشهور في أصحابه، وأكبر الظن فيه أن الخليل سبب أصله، ورام تثقيف كلام العرب فيه، ثم هلك عنه قبل كماله، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه، فكان ذلك سبب الخلل الواقع به، والخطأ الموجود فيه، والله أعلم»².

هذا كلام المتقدمين والجدل والمناقشة الحاصلة بينهم حول كتاب العين والنسخ التي وصلت إلى الأندلس منه، ونظرتهم إليها وأحكامهم عليها.

ومن المحدثين هاشم الطعان —محقق كتاب البار— أدلى بدلوه أيضا في هذه القضية بين العين والبارع، ووقف موقفا تبدو فيه المجازفة إلى أبعد الحدود، حيث حكم بأن كتاب البارع إنما هو كتاب العين. إذ يقول معتمدا على كلام ابن سيده في مخصصه: «بعد المقابلة التي أجراها اقتنع بصحة نسبة الكتاب، وسنرى أنه صرح بنسبته للخليل ولم ينسبه إلى الليث كما فعل غيره، ولا تحفظ فسماه صاحب العين³ كما فعل آخرون»⁴.

أخذ القالي هذه النسخة فصنع بها ما صنع ب (فعلت وأفعلت)، أي (وصلها) فقدم لكل مادة لغوية بما ورد عنها في مروياته. وارتأى أن يخالف في ترتيب الحروف بعض الشيء. وأضاف بعض ما ظنه مهما، ونسب الشواهد غير المنسوبة إلى قائلها متى استطاع إلى ذلك سبيلا، وأكمل الشواهد المبتورة، فكان من ذلك كله البارع. فالبارع إذن ليس إلا كتاب العين موصولاً⁵.

¹ المزهر، السيوطي، 83/1 – 84.

² مختصر العين، الزبيدي، ص 8.

³ هذا ثابت عن القالي في المقصور والممدود، وانظر: المقصور والممدود، القالي، تح: أحمد عبد المجيد هريدي، ص 324.

⁴ البارع، القالي، ص 65، مقدمة المحقق.

⁵ المرجع نفسه، ص 65 – 66. مقدمة المحقق.

يقول هاشم الطعان مواصلاً النقل لتبرير حكمه، والدفاع عن موقفه في القضية: ولقد أتيح لي وأنا أحقق النص الذي بين يدي من البارع أن أقارن ما ورد فيه عن الخليل وهو معظم الكتاب بنسختين مخطوطتين من العين، فإذا بالكتابين متطابقين حذوك القذّة بالقذّة –إلا ما أسلفت ذكره مما لا يمس جوهر الفكرة وإلا ما كان من تصحيف أو تحريف من النساخ، أو تقديم وتأخير سببه اختلاف روايات النسخ – وبهذا يكون البارع أقدم نسخة وصلت إلينا من كتاب «العين»¹.

ونحن في الحقيقة نرى المجازفة الكبيرة في البتّ في هذا الأمر وبحكم كهذا، ذلك أنه لم يقل به أحد من المتقدمين، وهم أقرب! ثم إن الرجل عمدته في هذا ما ساقه ابن سيده –صاحب المخصص – وهو متأخر حتى عن طبقات تلاميذ أبي علي القالي البغدادي بزمن معتبر.

وعلى هذا وذاك ألا يكون من استغل فكرة سبق إليها ثم طورها حتى وصل بها إلى الغاية أن يخرج بها مؤلفاً في هذا المجال مبدعاً، وهل بالضرورة أن يأخذ الكتاب الجديد التسمية الأولى؟ لكن ما أراه فيصلاً في هذا الأمر هو أنه ما كان ليخفى هذا عن الزبيدي وغيره من الحذقة، ذلك أنه اشتغل بهذا الكتاب «العين» كثيراً وألف حوله وعليه استدرك واختصر.

¹ المرجع السابق، ص 66. مقدمة المحقق.

المبحث الثاني: الترتيب الخارجي للبار

لقد كتب لمعجم «العين» للخليل حظه من الذيوع والرواج في الساحة اللغوية الأندلسية مطلع القرن الرابع الهجري، واطلع عليه اللغويون فتأثر به من تأثر، ونقل عنه من نقل في تواليهم الكثيرة، فالرجل معروف بحجته في اللغة ولا عجب، فقد سمع وشافه العرب، وأبدع في الرواية والدراية.

ولقد كلف الخليفة الحكم المستنصر أبا علي البغدادي بمشروع التحقيق في نسخ العين المتوفرة وقتذاك مع ثلاثة تلاميذ له بارزين، وأداء هذه المهمة يجعل الرجل على علم بصنيع الخليل أو بالصنعة في كتاب العين، ويبدو أنه قد أعجب بالطريقة التي تم بناؤه بها، فظهرت في بعض تواليه التي تأخرت في الظهور إلى منتصف القرن الرابع الهجري تقريبا، ولقد عاشت الأندلس أهم أحداثها اللغوية حيث ألف معجم «البار» في اللغة ليبشر بافتتاح عصر جديد مليء بالنتاج اللغوي والأدبي بالرسم الأندلسي.

أولا- تعريف الترتيب الخارجي:

1- لغة: يقول ابن فارس -رحمة الله- (-رتب)

«ومن هذا الباب قولهم: أمر ترتب، كأنه تفعل، من رتب إذا دام.

والرتب: الشدة والنصب. قال ذو الرمة:

«مَا فِي عَيْشِهِ رَتْبٌ»

والرتب: ما أشرف من الأرض كالدرج. تقول: رتبة ورتب، كقولك: درجة ودرج. فأما قولهم في الرتب، إنه ما بين السبابة والوسطى، فمسموع، إلا أنه وما أشبهه من محض اللغة»¹.

وواضح من كلام الإمام ابن فارس - وهو الذي عني بالدلالة المركزية (المحورية) للألفاظ العربية - أن لفظة وجذر (رتب) معانيه تدور حول الدوام والثبات والاستمرارية.

وكذا أتى المعنى نحو من هذا في المعجم الوسيط: «رتب - رتوبا: ثبت واستقر في المقام الصعب، ... رتبه: أثبتته وأقره ... والراتب: يقال رزق راتب: ثابت دائم ...»².

2- اصطلاحاً: الترتيب هو الطريقة التي عالج بها المعجميون القدماء تنظيم مادتهم المعجمية.³

وواضح أن كلمة أو مصطلح ترتيب هنا يسمه العموم والإطلاق، وعليه إذا بني الكتاب على أي طريقة فالمصطلح يشملها، ومن الجدير بالذكر هنا أن نسوق رأي أحد البارزين المحدثين في مجال اللغة والمصطلح والمعاجم إذ يرى أن هناك ثمانية أنماط من الترتيبات في المعاجم حيث يقول: «إن استقراءنا

¹ مقاييس اللغة، ابن فارس، 486/2، (رتب) .

² المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ص 326، (رتب) .

³ المتن اللغوي في المعجم العربي، دراسة في كيفية المعالجة، حيدر حيان عدنان، مجلة اللغة العربية وآدابها، ع 6، 2008.

للمنهجيات المختلفة لترتيب المداخل ... دل على وجود ثمانية أنماط رئيسية، لا ثلاثة أو أربعة كما ذهب إليها من سبقنا، وهي: الترتيب العشوائي، الترتيب المبوب، الترتيب الموضوعي، الترتيب الدلالي، الترتيب النحوي، الترتيب الجذري، الترتيب التقليدي، الترتيب الهجائي¹.

أما على المصطلح المركب **الترتيب الخارجي** فهذا يسمى بالترتيب الأكبر، ويتم ذلك باتباع طريقة من طرائق الترتيب القائمة على الحروف الهجائية².

وهذا الموضوع مرتبط بقضية الترتيب الذي دارت معاركه فيما مضى حول الترتيب الصوتي، والألفبائي، وبحسب أواخر الحروف في العربية، وبحسب اللواحق لأسباب معجمية بحثة³.

يقول أحمد مختار عمر: «وهذا النوع من الترتيب يعد شرطاً لوجود المعجم وبدونه يفقد العمل قيمته المرجعية. ولا يوجد معجم عربي أو أجنبي، قدسم أو حديث قد أهمل هذا النوع من الترتيب»⁴.

وإذا، فالترتيب الخارجي دعامة أساسية كي يعتد بالكتاب معجماً. وهو المظهر المميز للمنهج المتبع في المعجم، وعلى أساسه جاءت التصنيفات المتنوعة المتعددة قديماً وحديثاً في مجال الصناعة المعجمية.

فالترتيب الخارجي صورة موضحة للمنهج الذي بني على أساسه معجم ما.

وإذا عرفنا هذا فإنه من لازم القول إن المعاجم تتباين عن بعضها البعض حسب ترتيبها الخارجي المعتمد.

ولقد صنف الدارسون والباحثون المعاجم العربية إلى عدة مدارس حسب المنهج المتبع في بناء المعجم ومعالجة المواد، والترتيب الخارجي هو أوضح صورة تنبئ بالمنهج.

والمدارس المعجمية في التراث اللغوي العربي تصنف على النحو التالي مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليب، ومدرسة الترتيب الألفبائي على أوائل الأصول، ومدرسة الترتيب الألفبائي على أواخر الأصول (التفقية)، والمدرسة الألفبائية التدويرية أو مدرسة الترتيب الألفبائي الخاص.

وبعضهم يضيف مدرسة الغريب المصنف أو أبي عبيد يقصد المدرسة الموضوعية، وبعضهم يضيف المدرسة الحديثة مع التجريد، وغير التجريد، فهذه التصنيفات اجتهادية والمعايير فيها نسبية، فمن الدارسين والمؤلفين من يصنف حسب الكتاب، وبعضهم حسب صاحب أول كتاب وهكذا.

¹ المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، علي القاسمي، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 2002، ص 48.

² أنظر: صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، ص 98.

³ من قضايا المعجم العربي قديماً وحديثاً، محمد رشاد الحمزاوي، ص 158.

⁴ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ثانياً - المدرسة المعجمية التي ينتمي إليها «البار»:

لقد ذكرنا سلفاً عدداً من المدارس المعجمية العربية، وموضوع دراستنا كتاب «البار» الذي ينضوي تحت المدرسة الأولى ذكراً وتاريخاً مدرسة نظام المخارج التقليدية،¹ وبعضهم يقول: الترتيب الصوتي ونظام التقليلات،² وبعضهم يقول: الترتيب المخرجي،³ الترتيب الصوتي،⁴ وبعضهم يقول: مدرسة العين⁵ على أنه أول معجم فيها، وآخر يقول: مدرسة الخليل فينسبها إلى رائدها أو صاحب أول كتاب فيها، وآخر يغير كلمة ترتيب بنظام فيقول: مدرسة النظام الصوتي والتقاليد وغيرها من التسميات.

ومهما يكن من أمر فإنها اختلافات لفظية وتسميات لمسمى واحد، فأبو علي القالي البغدادي رأى أن يؤلف بارعه وبينه على هذا المنهج الذي سلكه الخليل - مبدعه على غير مثال سابق - وبني عليه معجمه كتاب «العين».

وهذا المنهج الذي أتى به الخليل بن أحمد يقوم على ثلاثة أسس رئيسة يجب توفرها في الكتاب حتى يحقق الانتماء لهذه المدرسة مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليد، وهذه الأسس هي: ترتيب الحروف على حسب المخارج الصوتية - والبدء من الأعظم فصاعداً، والتقاليد - والمقصود بها تبادل مواقع حروف الكلمة الواحدة، والأبنية: الهيئات الصرفية التي توجد عليها الكلمة. عدد ونوع الحروف المكونة لها. وقد فصلنا سابقاً في هذه الأسس.

ومن المعاجم العربية اللفظية التي اتبعت هذا المنهج عبر مراحل زمنية متعاقبة ما يلي:

- معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (175 هـ).
- معجم تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (370 هـ).
- معجم البار في اللغة لأبي علي القالي البغدادي (356 هـ).
- معجم المحيط في اللغة للمصاحب بن عباد (385 هـ).
- معجم المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده الأندلسي (458 هـ).
- معجم مختصر العين لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (379 هـ).

¹ انظر: المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 103.

² انظر: المعاجم اللغوية العربية بدياً وتطورها، إميل يعقوب، ص 38.

³ انظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 178.

⁴ انظر: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 124.

⁵ انظر: المعاجم العربية، محمد جابر فياض العلواني، مجلة البحوث الإسلامية، ع 11، ص 239.

ولا يُعتبر في هذا الأمر بأي كتاب أنقص أساساً من الأسس المتفق عليها فمثلاً لا يعتد بكتاب جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي (321 هـ)، ذلك أن الرجل أمسك العصا من وسطها، فورث من الخليل التقاليد والأبنية، وخالف في ترتيب الحروف، فحكّم الترتيب الألفبائي المؤلف مع بعض الاضطراب. كما أنه لا يعتد بكتاب رتب حسب الترتيب الصوتي (المخارج) وهو ليس من معجمات الألفاظ، مثل ما ذكرنا فيما سلف مع كتب بعض الأندلسيين مثل «المقصود والممدود» لأبي علي القالي، وكتاب الأفعال لأبي عثمان سعيد بن محمد المعافري السرقسطي المعروف بابن الحداد (400 هـ) تكملة وإخراجاً لأفعال شيخه الأول ابن القوطية، فإن هذا وذاك ليسا من المعجمات اللفظية العامة فهي خاصة نوعاً ما، فالأخير الأفعال وأبنيتها، والأول حقل المقصور والممدود من الكلمات.

ثالثاً- أسس الترتيب الخارجي للبار:

إن الأسس التي سار عليها أبو علي القالي البغدادي في كتابه «البار» في اللغة هي الأسس نفسها التي ذكرناها سلفاً في الشق النظري -أسس مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليد- لكن أبا علي البغدادي أحدث بعض التغييرات الخاصة به، وتعد فروقا استثنائية بين أصحاب المدرسة الواحدة. فمعلوم أن هذه المدرسة المعجمية الأولى تحكم ثلاثة أسس رئيسية هي المخارج، والتقاليد، والأبنية، ويتفاوت معجميو هذه المدرسة في التقيد التام والصارم بهذه الأسس، فقد يحدث بعض الاضطراب لهذا أو ذاك لكنه ليس ذاك الاضطراب الذي يخرج عن المدرسة.

أما صاحبنا أبو علي القالي البغدادي فإنه لما أراد بناء معجم «البار» رأى فيما يسوغ له الاجتهاد فيه أن يخالف نهج الخليل في بعض النقاط، وسنأتي عليها خلال عرضنا لمنهجه في البار.

1- المخارج: ويقصد بها أنه رتب مواد معجمه بحسب ترتيب الحروف في المخارج الصوتية، والبدء بالأعمق مخرجاً فما دونه إلى جهة الفم.

لكن القالي اعتمد ترتيباً خاصاً به جانب فيه الخليل المنظّر الأول للمدرسة، واقترب فيه من ترتيب سيبويه.

وترتيب القالي للحروف مستنتج استنتاجاً من المواد التي يعالجها في «البار» إذ لا نجد تصريحاً لذلك فخطبة الكتاب مفقودة، وغاية ما يمكن الاستئناس به ترتيبه أيضاً لكتاب المقصور والممدود المطبوع بتحقيق أحمد عبد المجيد هريدي، وقد جاء ترتيب أبي علي للحروف في كتابه البار على النحو التالي:

هـ، ح، ع، خ، غ، ق، ك، ض، ج، ش، ل، ر، ن، ط، د، ت، ص، ز، س، ظ، ذ، ث، ف،
ب، م، و، ا، ي، ء.¹

¹ المعجم العربي، حسين نصار، 315/1.

ورأى عبد القادر عبد الجليل أن تكون بهذه الصورة تحديداً للمخارج المميزة لزمر الحروف على النحو التالي: هـ / ح / ع / خ / غ / ض / ج / ش / ل / ر / ن / ط / د / ت / ص / ز / س / ظ / ذ / ث / ف / ب / م / و / ي / همزة.¹ وهذا الترتيب الذي رآه كل من حسين نصار، وعبد القادر عبد الجليل، وهاشم الطعان² — محقق «البارع» الرائج الآن — فهم يعتمدون على ما أقره "فولتن"، وهو بدوره استخرجه من المخطوطتين (ف) و(ب).

ومعلوم عند الدارسين والباحثين أن الحرفين (ح، خ) لا دليل على وضعهما في ترتيب القالي للحروف. يقول حسين نصار فيما ينقله عن "فولتن": «ولا تبين لنا نسخة المتحف البريطاني ولا نسخة باريس من كتاب القالي الوضع الصحيح للحرفين الساكنين: ح، خ، والوضع الذي نسبناه لهما هنا افتراضي، ومن المحتمل صحته»³. ففولتن لم يبين ما استند إليه في افتراضه هذا، ولكن يرجح حسين نصار أنه استند إلى ترتيب الخليل وسيبويه لوجود بعض الشبه في الأوضاع خاصة مع الأخير منهما.⁴ كما أن القالي لم يصرح بوضع الهمزة، وربما تعسر الاستنتاج لعدم وجودها ضمن مادة لغوية من مواد معجمه، فهذا الفراغ تسبب في شيء من الجدل، لكن الذي يراه حسين نصار يمكن أن يقع إلى حد ما في ذلك إذ يقول: «ووضعت الهمزة مع حروف العلة، لأنه جعل المهموز مع المعتل، ولأننا نجد عنده العنوان التالي: «الهاء واللام والواو والألف والياء في الثلاثي المعتل».

وأرجح أنه يريد بالألف الهمزة لا حرف العلة، لأنه يذكر المهموز تحت العنوان»⁵. يواصل كلامه قال: ولا أدري كيف أخطأ الأستاذ "فولتن" فقال عن الهمزة: «كذلك ليس لدينا أي شاهد مخطوط عن موضع الهمزة»⁶.

هذا، ويجمع الباحثون على أن ترتيب أبي علي القالي يشبه إلى حد كبير ترتيب سيبويه، مع وجود خلافاً طفيفة (يسيرة).

¹ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 134.

² محقق كتاب البار رتب مثل سابقه لكنه أهمل الهمزة أسقطها قصداً لميله لرأي "فولتن" المذكور سلفاً. وانظر: البار، القالي، تح: هاشم الطعان، ص 70. المحقق.

³ المعجم العربي، حسين نصار، ص 315. نقلاً عن المقدمة الإنجليزية للبارع، ص 8.

⁴ انظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ونشير هنا إلى أن أحمد عبد المجيد هريدي —محقق المقصور والممدود— وافق هذا في الهاء، لكنه جعل الخاء بين الغين والقاف. وانظر: المقصور والممدود، القالي، ص 80. مقدمة المحقق.

⁵ المعجم العربي، حسين نصار، 315/1.

⁶ المرجع نفسه، الصفحة نفسها، أما محقق المقصور والممدود فجعل الهمزة أولاً. وانظر: المقصور والممدود، القالي، ص 80. مقدمة المحقق.

ولتتضح الصورة فيما نرمي إليه نعرض الترتيبين معاً:

وقال سيبويه في الكتاب: «فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً، الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والحاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والذال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو».¹

ومطابقة لكلام سيبويه يكون ترتيب الحروف باستعمال رموز الحروف على النحو التالي: ترتيب سيبويه (180 هـ): ء ا ه ح ع خ غ ك ق ض ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و ي.

وترتيب القالي: ه ح ع خ غ ق ك ض ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و ا ي ء. وبالمقارنة بين الترتيبين نرى أن القالي قد ختم الترتيب بحروف العلة مع جمعها، الأمر الذي لم يفعله سيبويه حيث فرقها بين الحروف، كما نلاحظ أن القالي أنهى الحروف بالهمزة في حين صدر بها سيبويه ترتيبه، وآخر الملاحظات أن القالي جعل الضاد بين الكاف والجيم متقدماً، في حين أخره سيبويه قليلاً جاعلاً إياه وسطاً بين القاف والجيم.²

يقول حسين نصار: «والحق أن مخرج الضاد ليس مركزاً في حيز واحد بل ممتد في الفم، حتى سميت طويلة —حرف استطالة— لأن مخرجها من أقصى حافة اللسان إلى أدناها، أي يستغرق أكثر الحافة. فالقالي نظر إلى أقصى مخرج لها، ونظر سيبويه إلى أدناها».³

وقد جعل القالي كل حرف من هذه الحروف كتاباً، مع ترتيب هذه الكتب على ترتيبه السابق للحروف.⁴

وقد ثبت في مقدمة كتاب «المقصود والممدود» تصريح لأبي علي القالي البغدادي بترتيب حروفه علماً أنه بناه على المخارج والتفعيل.

حيث قال: «ورأينا أن نستأنف بأقصى الحروف مخرجا ثم الذي يليه على مدرج المخارج إلى أن تنتهي إلى أدناها وهي الواو.

فأقصاها الهمزة ثم الهاء ثم العين ثم الحاء ثم الغين ثم الخاء ثم الكاف ثم القاف ثم الضاد ثم الجيم ثم الشين ثم الياء ثم اللام ثم الراء ثم النون ثم الطاء ثم الدال ثم التاء ثم الفاء ثم الباء ثم الميم ثم الواو».⁵

¹ انظر: الكتاب، سيبويه، 431/4.

² انظر: المعجم العربي، حسين نصار، 315/1 – 316.

³ المرجع نفسه، ص 316/1.

⁴ نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ المقصود والممدود، القالي، تح: أحمد عبد المجيد هريدي، ص 11، مقدمة القالي.

ولم تذكر الألف، لأنها لا تكون كلمة أولها ألف، من أجل أنه لا يمكن الابتداء بالسكان لاعتياضه على الناطق.¹

ورأى يوسف عيد أن أبا علي القالي لما التزم هذا الترتيب في «المقصود والممدود» فإنه يلزم منه أنه اتبعه في بناء معجم البارع، ومعلوم أن «البارع» تأليفه جاء متأخراً عن المقصود والممدود، ثم إن يوسف عيد قد استصعب تلك المقولة التي هي بخط ولد أبي علي القالي والتي جاء فيها: «فكمل لنفسه إلى شوال سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، كتاب الهمز، وكتاب الهاء، وكتاب العين».²

يقول: وذلك يدل على أن الأحرف الثلاثة الأولى —على الأقل— كانت في البارع مرتبة على طريقة «المقصود والممدود».³

وبهذا الطرح الأخير تتسع دائر الجدل والمناقشة حول ترتيب الحروف عند أبي علي القالي في كتابه «البارع».

والمناقشة: وإن كان المقصود والممدود في التأليف أسبق إلا أنه لا يلزم منه أن يوافقه في ترتيب الحروف في بناء البارع فقد يكون لكل مؤلف منهجية، والطرف الآخر مستنده متين أعني مخطوطي الكتاب نفسه «البارع».

ثم إن مقولة ولده هذه قد تفرد بها القفطي على أهل التراجم، ولم يذكرها أقرب تلامذته منه ومع ذلك على فرضية ثبوتها، ليس بالضرورة أن ما ذكر عنه أولاً يكون أولاً!

وشيء آخر أختتم به هذه المناقشة: في هذا البحث الدائر حول البارع في اللغة لأبي علي القالي البغدادي يكون لازماً علينا أن نتبع الترتيب الواقع في المدونة —البارع المطبوع مدونة الأطروحة— والتي حققها هاشم الطعان والذي صار إلى ترتيب القالي والمستند فيه إلى كلام "فولتن" إزاء المخطوطتين (ف) و(ب)، والترتيب على النحو التالي: ه ح ع خ غ ق ك ض ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و ا ي.⁴

ب- الأبنية:

لقد تابع القالي الخليل في وضع الأبنية إجمالاً، مع بعض الاختلافات، وقد أتت أبواب أبنية بارعه على النحو التالي:⁵

¹ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

² إنباء الرواة، القفطي، 244/1.

³ النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص 144.

⁴ البارع، القالي، ص 70. المحقق.

⁵ المرجع نفسه، ص 71. المحقق.

- الثنائي المضاعف وسماه (الثنائي في الخط والثلاثي في الحقيقة)
- الثلاثي الصحيح.
- الثلاثي المعتل.
- الحواشي والأوشاب.
- الرباعي.
- الخماسي.

ومن الصورة العامة لأبواب أبنيته الستة يبدو التشابه كبيراً بين البارع والعين، لكن الرجل التالي أضفى مسحة على بارعه يتميز بها، ولا يدركها إلا من تتبع دقائق منهجه، وفصل وشرح ما أجمل.

إن أبا علي القالي البغدادي في البناء الأول الموسوم بالثنائي المضاعف وسماه هو الثنائي في الخط والثلاثي في الحقيقة مثل: جَمَّ، جَبَّ، وقد دمج معه الرباعي أو الثنائي المضعف مثل جَلَجَ.¹

ثم الثلاثي الصحيح: ما تركب من ثلاثة أحرف صحيحة غير معتلة وبصفة عامة هذا الباب (البناء) لم يختلف فيه اللغويون كثيراً، سوى ما كان أحد أحرفه همزة، فهذا بعضهم نظر إليه نظرة الصحة والآخر نظرة الاعتلال. ومثال الثلاثي الصحيح: نَعَبَ، نَزَغَ...³ ثم البناء الذي يليه الثلاثي المعتل وهو عند أبي علي القالي يشمل أنواع المعتل مطلقاً ليس مثل ما عند الخليل الذي اقتصر على ما فيه حرف علة واحد. مثل: وخذ - داخ⁴ - خدى - وقى⁵.

والبناء الرابع جعله للحواشي والأوشاب. وقد انفرد به أبو علي من دون المعجميين وهي سمة وسم بها البارع، وضمنه أسماء الأصوات، ومحاكاة الطيور والحيوانات ومثاله: طق حكاية حجر على حجر، فإن ضاعفتها طَقَطَقَ.⁶

والبناء التالي خصصه للرباعي، وبعض الدارسين في مجال المعجمية أوردوا كلاماً أثار جدلاً كبيراً، ذلك أنهم رأوا أن القالي اتبع الخليل في أبنية الرباعي والخماسي، ومصدر هذا الكلام آت من دراسة "فولتن".

¹ المرجع السابق، ص 566.

² المرجع نفسه، ص 336.

³ نفسه، ص 330.

⁴ نفسه، ص 244 - 245.

⁵ نفسه، ص 522.

⁶ نفسه، ص 523.

وقد رد عليه وناقشه في الفكرة حسين نصار حيث قال: «وحسب الأستاذ "فولتن" أن المؤلف وضع الرباعي والخماسي في باب واحد، لأنه لم يعثر في القطع التي أمامه على أبواب خاصة بالخماسي، ولكن هذا الظن في حاجة إلى ما يدعمه، بل أرجح أنه خاطئ، لأن المؤلف صريح في تسمية الرباعي «بالرباعي» فقط، ولأنه لا يذكر في هذه الأبواب ألفاظاً خماسية، وأخيراً، لأن أواخر الأبواب الرباعية الثلاثية التي عثرنا عليها في القطع الموجودة من الكتاب ساقطة، فلا ندري أي باب كان بعدها».¹

والناظر إلى حجج "نصار" بعين أهل النظر والإنصاف يجدها قوية متينة، أو على الأقل في الميزان العقلي والمنطقي أقرب من نظرة "فولتن" التي اتبعه فيها من اتبعه من العرب الدارسين، وسقوط الباب وفقدانه في المخطوطات وفي نقولات تلا مذهبه هو الذي فتح باب الاحتمال الذي أعقبه التخريص والظن. ومن الأمثلة على هذا الباب والبناء نجد قوله في مستهل الباب:

(باب الرباعي). بسم الله الرحمن الرحيم

«الماء والعين في الرباعي»

قال أبو علي، قال أبو زيد: العُماهَج من الألبان الذي قد حقن حتى إذا أخذ اللبن طعماً غير حامض ولم يخالطه ماء ولم يخثر كل الحثارة ...² وهكذا أتم أبو علي القالي البغدادي الشرح، وأتى على مقلوبات الجذر الرباعي هذا ولم يدرج أي لفظ خماسي لا في هذا الجذر ولا في غيره من أبواب الرباعي. بل ذكره للعنوان - كما مر - يوحى باستقلالته دون دمج مع غيره، وأشرنا إلى أن المثال كان في أول ما ذكرنا من الرباعي.

وختم أبو علي الأبنية بالخماسي، هذا قاله أهل الفن والاختصاص وإلا في الواقع لا وجود لما يدل عليه في مخطوطات هذا الكتاب، وإقرار المؤلف بوجوده هذا شيء آخر، قد يستدل له من كتابات أخرى له، أما الموجود فلا يحوي شيئاً من ذلك.

ج- التقاليب: ويقصد بها تغيير مواقع أحرف اللفظ أو ترتيبها حتى يأخذ كل منها مواقع الأحرف المشتركة معه في تكوين اللفظ.³

مثال ذلك من الثلاثي كلمة: بَرَع، تقاليبها أو مقلوباتها الأخرى هي: بعر، عرب، عبر، رعب، ربع.

¹ المعجم العربي، حسين نصار، 316/1.

² البار، القالي، ص 185 - 186.

³ المعاجم العربية، محمد جابر فياض العلواني، مجلة البحوث الإسلامية، ع 11، ص 240.

وليس بالضرورة أن تكون كل المقلوبات الممكنة للجذر الواحد عندها معان ومستعملة عند العرب، فما استعمل منها شُرح وعولج، وما لم يستعمل أهمل، ونص على إهماله، هذا عند سابقه الخليل بن أحمد في كتاب «العين».

أما أبو علي فيبدو أنه سار في طريق أخرى، يثبت ما صح فقط، ويعالج الصيغة الثابتة معجمياً. ولا شك أن التقاليد مبدعها الأول الخليل بن أحمد الفراهيدي، وبها طبع كتابه «العين»، وهي وليدة الفكر العقلي الرياضي عند الرجل، فهو كان يرمي إلى جمع المواد اللغوية دون فوات فيها، فخلّص إلى فكرة التقاليد، وفعلاً هي التي تضمن جمعاً وإحصاءً دقيقاً مستوحى من النظر الرياضي، وفيما بعد عرفت هذه الطريقة بطريقة الجمع أو الإحصاء التام في المعاجم العامة اللفظية الشمولية.

واتبع أثر المبدع أستاذ أبي علي القالي البغدادي أبو بكر بن دريد (321 هـ)، ظهر ذلك في معجمه المثير للجدل «الجمهرة» حيث رتبته خارجياً على الألفباء المألوفة على أوائل الأصول مع تحكيم مبدأ التقاليد والأبنية، وهو الوحيد من ضمن المعاجم العربية اللفظية الذي اتبع هذا المنهج الخاص.

وقد كان القرن الرابع الهجري حافلاً بأحداث معجمية كثيرة، فالتلميذ أبو علي القالي البغدادي كان قد جانب طريقة أستاذه ابن دريد رغم تعلقه الكبير به، وقد حصل منه على نسخة من الجمهرة¹ بخط يده فضلاً عن العلم الذي حصله منه في مجالسه العلمية الراقية وغيرها.

فأبو علي القالي البغدادي — وهو المتأخر عن المبدع بزمان معتبر — قد حن إلى البيت القديم، ورأى في طريقة الخليل أنها الأفضل والأدق فسلكتها، وعليها بنى معجمه البار في اللغة، علماً أنه حاول علاج بعض النقائص في هذه النظرية، والموجود من كتاب البار إذا درسه بارع يدرك ذلك.

وقال بعضهم: كان لأبي علي القالي نسخة من الجمهرة بخط مؤلفها، وكان قد أعطي بها ثلاثمائة مثقال فأبى، فاشتدت به الحاجة، فباعها بأربعين مثقالاً، وكتب عليها هذه الأبيات:

أَكُنْسْتُ بِهَا عِشْرِينَ عَاماً وَبِعْتُهَا	وَقَدْ طَالَ وَجْدِي بَعْدَهَا وَحِينِي
وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنِّي سَأْبِعُهَا	وَلَوْ خَلَدْتَنِي فِي السَّجُونِ دِيُونِي
وَلَكِنْ لَعَجَزَ وَافْتَقَارَ وَصِيْبِي	صَغَارَ عَلَيْهِمْ تَسْتَهْلُ شُؤْنِي
فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سَوَاقِ عِبْرَتِي	مَقَالَةَ مَكْوِي الْفُؤَادِ حَزِينِي
وَقَدْ تَخْرُجُ الْحَاجَاتُ — يَا أُمَ مَالِكِ —	كَرَائِمَ مِنْ رَبِّ بَهْنِ ضَنِيبِي

¹ انظر: المزهر، السيوطي، 95/1.

قال: فأرسلها الذي اشتراها، وأرسل معها أربعين ديناراً أخرى - رحمهم الله - وجدت هذه الحكاية مكتوبة بخط القاضي مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس، على ظهر نسخة من العباب للصغاني، ونقلها من خطه تلميذه أبو حامد محمد بن الضياء الحنفي، ونقلتها من خطه¹.

رابعاً- خصائص ومميزات كتاب «البارع»:

لقد توجت جهود أبي علي القالي البغدادي اللغوية بتأليف غزيرة الفوائد، تعبر عن منتج لها صاحب شخصية علمية، قد أخذت حظها الوافر من العلوم والمعارف المختلفة شرقاً في زمن هو حافل بالشخصيات والكتب العلمية التي يقل تواجدتها في الأزمنة الأخرى، ثم إن من ثمرات جهوده المعجمية المميزة أن ألف كتاب البارع في اللغة، والبارع وصف نقل إلى العلمية على الكتاب، وإن وصفت به صاحبه هو حقيق به أيضاً.

إن هذا العمل المعجمي لأبي علي القالي البغدادي قد شغل الناس لزمن معتبر، فهو أول معجم لفظي أندلسي، جاء على نسق كتاب العين للخليل بن أحمد، ومعلوم أن التالي له حظ أوفر من الوقت ليستدرك فيه النقائص أو ليبدع أيضاً.

ولقد جمعنا بعض ما ميز معجم البارع من استحداثات واصطلاحات، وخصائص عامة طبعته ووضعت في مصاف المعاجم العربية اللفظية الهامة.

نحن لا نسير مع المقولة الأولى التي مفادها: «ما ترك الأول للآخر شيئاً»، بل بقيت أشياء وأشياء، فهذا طريق العلم، وتتطور حلقاته بشكل لا يخفى على ذي بصر وبصيرة، فمعلوم أن أبا علي القالي البغدادي في عمله المعجمي الموسوم بالبارع متبع لكنه أحسن الصنعة فيه، والدليل على ذلك ما وجد مرقوماً في طيات ما وجد من مخطوطتيه (ف) و(ب).

ولقد أفاد أبو علي القالي البغدادي من تجربته في التعامل مع نسخ المؤلفين، كما حصل له مع نسخ العين المختلفة التي توافرت في مكتبة الحكم المستنصر، فهو أثناء التحقيق والمقابلة بين النسخ حتماً سيقف على أمور علمية ومنهجية هو على دراية تامة بها، وإذا كانت هناك هفوات وسقطات فسيتفطن لها، كيف لا وهو العالم اللغوي المعجمي.

هذه المؤهلات العلمية التي تطبع شخصية أبي علي القالي البغدادي، كان لها الأثر الكبير في قدرة الرجل على تأليف معجم بارع أندلسي في نصف القرن الرابع الهجري يفتح به باب معاجم الألفاظ أمام الأندلسيين، ولما كان العمل المعجمي بهذه القيمة وهذه المكانة لحري بنا أن نستخرج ما ميزه عن غيره فيما يلي:

¹ المصدر السابق، الصفحة السابقة.

1- إن أول ما يلفت الانتباه في عمل أبي علي القالي البغدادي المعجمي هو عنوان الكتاب «البار» كما اشتهر، والكتاب البار في اللغة¹ هي تسمية الكتاب، ومصطلح «البار» كما أسلفنا يكون محمولاً على اللغة، فمدلول بار: جميل، وبرعة: فائقة الجمال والمعنى المستخلص: أنه يدور في فلك المغالبة والتفوق أي غلب وتفوق، وفاق من سبقه في استيعاب اللغة، والإحاطة بها.

2- باب الحواشي والأوشاب: هذا الاصطلاح قد انفرد به أبو علي القالي، فلم يعرف عند سابقه، ثم إن اللغويين المعجميين قبله كانوا في ترتيب أبواب أبينتهم يسيرون على وفق ضابط عدد الأحرف ونوعها فيقولون: الثنائي، المعتل، فأتى هو بضابط دلالي يشمل الأصوات وفيه بدوره أبنية مختلفة. يقول أبو علي القالي مبيناً وموضحاً لباب الحواشي والأوشاب:

قال أبو علي: وإنما سميناه أوشاباً لأننا جمعنا فيه الحكايات والزجر والأصوات والمنقوصات، وما اعتل عينه ولامه أو فاؤه ولامه أو فاؤه وعينه أو كان فاؤه ولامه أو فاؤه وعينه أو لاه وعينه بلفظ واحد.² لقد برر أبو علي القالي هذه التسمية للباب إذ قال: جمعنا فيه الحكايات والزجر والأصوات ... هذه الأنواع التي ضمت تحت باب واحد أطلق عليها أوشاباً من منطلق لغوي بحت، فمدلول كلمة أوشاب: مفرداها وشب. جاء في المعجم الوسيط: «الوشب: واحد الأوشاب: الأوباش، والأخلاق من الناس».³ فأبو علي القالي لعله من هذا الباب لما ضم مجموعة متنوعة في بناء واحد أطلقها عليها تسمية الأوشاب.

ثم إنه في بناء الأوشاب هذا قد رتب فيه أبنية على نسق ما قدم في أبنيته العامة، رأى أن من ضمنه الثنائي المخفف - الثلاثي الصحيح - المضاعف الفاء واللام - الثلاثي المعتل - اللفيف - المضاعف الرباعي.⁴

وللتمثيل على أنواع أبنية باب الأوشاب عند أبي علي القالي التي حواها كتاب البار نذكر ما يلي:⁵

- الغين والتاء في الثنائي من الأوشاب: نَغِ نَغِ حكاية لصوت الضحك.
- الغين المكررة والواو في الثلاثي المعتل منه: غوغاء، يذكر ويؤنث، وذكر بعض المعاني السياقية لها.
- الغين والواو والألف في معتل الأوشاب: وغى. يقال: سمعت وغى القوم. أي أصواتهم ...
- الغين والطاء في الرباعي منه: الغططة يحكى به ضرب من الأصوات.

¹ البار، القالي، ص 67. المحقق.

² المرجع نفسه، ص 446.

³ المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ص 1033 (وشب).

⁴ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 136.

⁵ انظر: البار، القالي، 477 - 449.

— الغين والقاف في الرباعي أيضاً: الغرقد بفتح الغين والقاف من شجر الحجاز.

3- بما أن أبا علي القالي البغدادي اتبع النظرية العامة للخليل خاصة منها ما تعلق بالإحصاء التام (التقاليب) فإنه ستعترضه مصطلحات حادثة جراء هذا الإجراء، لكنه قد أفاد ممن سبقه حيث لم يعن بقضية «المهمل»، أما مصطلح «المقلوب»، فهذا لا مناص منه لمن اتبع هذا المنهج، وقد ذكر أبو علي القالي ذلك في معالجة مواد «البارع».

4- تحقيق الأمانة العلمية: من ينظر في «البارع» النظر الدقيق يقف على ظاهرة تقل عند أصحاب المعاجم الأخرى، وهي بارزة عند أبي علي القالي البغدادي في بارعه ألا وهي النقل الكثير وإسناد المقولات لأصحابها فتراه مثلاً يقول: قال الخليل ... قال يعقوب ... قال أبو حاتم ... قال الكلابيون ... قال أبو زيد ... قال أبو عمرو ... قال أبو عبيدة ... قال الفراء ... قال الأصمعي ... قال سيبويه، قال ابن قتيبة ... قال أبو بكر¹ ... قال الأحمر ... قال الكسائي ... قال الرياشي ... قال متفد ... قال أبو عبيد ... قال الرازي ... قال أبو ليبيد ... قال محمد ... قال ثابت ... قال لزاز ... قال أبو الغمر ... حكى ثابت ... قالت غنية ... وهذا تمثيل لا حصر.

وإذاً فالرجل يعنى أيما عناية بالنقل، والحرص على السند مشاهدة منه لضبط أهل الحديث، وقد كان له حظ منه في بداية الطلب ولم يشتبه به، أما هذا النقل الكثير في أمور اللغة فقد يكون سببه الحرص الشديد منه على الضبط في تحمل اللغة وتأديتها، وربما أنه لما فاتته مشاهدة الأعراب والسماع المباشر صب جهده في ضبط الرواية، وشيء آخر قد يستأنس به هنا، وهو حافظة الرجل، فما وصف به من الثقات قلما يحدث عند الأفراد.

5- الدقة في ضبط الألفاظ: اعتمد القالي الدقة في ضبط المدخلات، مخافة اللحن، سالكا طريقتين:

الأولى: الضبط بالشكل: «جدة النهر بكسر الجيم وتشديد الدال.

والثانية: الميزان الصربي: «زج وزججه وزجاج على مثال فعل وفعله بكسر الفاء وفتح العين وفعال بكسر الفاء»².

الضبط بالشكل والنص عليه بالعبارة لم يكن معروفاً قبل بارع أبي علي القالي وما فعله هذا إلا حرصاً منه على السلامة اللغوية، فهؤلاء العلماء القدماء اللغة عندهم من الدين وواجب الحفاظ عليها. ثم إنه بهذا الصنيع يتفادى مشكلاً عويصاً قديماً لطالما تحمل منه الناسخون والوراقون ما تحملوا من التهم والتخطئة بالتصحيف. ولعله — والله أعلم — قد تفتن لهذا الأمر وهو العالم اللغوي الذي حقق في نسخ كتاب

¹ هذه الكنية (أبو بكر) عرف بها أكثر من شيخ له، ويرجح عند الإطلاق أن يكون ابن دريد.

² المدارس المعجمية — دراسة في البنية التركيبية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء، عمان — الأردن، ط1، 1435هـ — 2014م، ص 133 — 134.

«العين»، وربما تأثره بمحمد بن المستنير قطرب (206 هـ) مبدع المثلث في اللغة، ذلك أن الرجل ركز على أمر صوتي في ضبط الأسماء وهو في غاية الأهمية خاصة إذا علمنا أن تغير الصوت من الفتح إلى الكسر أو الضم يؤدي إلى تغير في المعنى.

يقول عبد القادر عبد الجليل: «وهذا -واقعاً- أمر يسجل له فيه السبق في تاريخ صناعة المعجم العربي».¹

6- الاهتمام باللغات: ويقصد باللغات لهجات القبائل العربية.

اهتم بلهجات القبائل مثل: الأزدي، أسدي، وباهلة، وتميم، وجذام، وجعدة، وضبة، وطيء، وعجل، وعذرة، وعقيل، وعكل، وغني، وقشير، وقيس، ونمير، وهذيل، ولكن اهتمامه بقبيلة كلاب كان واسعاً، حيث امتد إلى أكثر من خمسين موضعاً في معجم البار. وفي ذلك يوقفنا على مادة تفيد في دراسة نحو اللهجات، مما يحتمل توجيه النظرية العربية، التي اعتمدت في القرن الثاني للهجرة على مبدأ الفصاحة والتشدد في الأخذ من القبائل، وكذلك المراحل التطورية التي مرت بها نظرية العامل.²

ومما أورده عن الكلابيين قال أبو زيد: قال الكلابيون: البطريق، بكسر الباء على مثال فعيل، من الرجال المختال المزهو الرضي المعجب. وهم البطاريق، والبطارقة، ولا فعل له، ولا يقال ذلك للنساء.³ وقد تجاوز أبو علي القالي البغدادي نظرية الحصر المكاني في قضية الفصاحة، وقد يحسب من المجازفين في هذا خاصة في ذلك الزمن، فلا زال الوقت مبكراً فنحن في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري علماً أن المعيار الزماني للفصاحة لم ينته بعد في البداية ولا في الحاضر.

7- إيراداه للمعرب والدخيل والأعجمي: اهتمامه بما هو معرب من الألفاظ، وما هو دخيل وأعجمي، فهو مثلاً، يحدثنا عن بقايا اللغة الحميرية العبادية في العراق، ومنها كلمة «ششقل»⁴ التي لهج بها صيارفتهم في تغيير الدنانير، وعن ارتباط لغة الروم بلغة الشام.

فكلمة البطريق⁵ تعني القائد في لغة أهل الشام والروم معاً، وما إلى ذلك من أمثلة كثيرة، إذ لا شك أن لغة الروم قد أثرت بشكل واضح في أهل الشام بحكم الارتباط التاريخي.⁶

¹ المرجع السابق، ص 134.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ نفسه، نفسها.

⁴ البار، القالي، ص 534.

⁵ المرجع نفسه، ص 554.

⁶ النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، ص 123. وقد نقل الزبيدي في المستدرک عن القالي في باب المعرب من الكلام الفارسي أن كلا من البطريق والفندق لفظ فارسي الأصل.

فأبو علي القالي البغدادي أورد بعض الألفاظ الأعجمية عموماً عن اللغة العربية، لكنه في إيرادها قد يكون يرمي إلى التنبيه عليها، أو لما استعملها العرب وأكسبها معنى، وتداولوها يرى أنه يلزم ذكرها لا باعتبار الأصل ولكن باعتبار التداول والتواصل. فالرجل ربما كانت عنده نظرة ونظر في توسيع النظرية اللغوية العربية عموماً، ولا يقر الحجر والتضييق، ويتطلع إلى عصر لغوي جديد يشمل المعجمية وغيرها من فنون اللغة العربية.

والذي يتتبع عمل أبي علي القالي البغدادي المعجمي يدرك أن الرجل فعلاً يخطط لأمر ما يتعلق بنظرية اللغة العربية، إذ لا يمكن أن تكون مثل هذه الأمور التي تقدم ذكرها وغيرها آتية اتفاقاً من محض الصدفة لا قصداً.

8- الميل إلى الاستقصاء والاستيعاب: ومن خصائص «البار» ميله إلى الاستقصاء والاستيعاب، وهي من الأشياء التي شهد بها للبارع كل علماء الأندلس وغيرهم ممن رأى الكتاب كاملاً، أو نقل عنه أو سمع به، واعتبروها من مزاياه حين قارنوه بكتاب «العين» قال الزبيدي: «وهو يشتمل على خمسة آلاف ورقة، ولا نعلم أحداً من العلماء المتقدمين والمتأخرين ألف نظيره في الإحاطة والاستيعاب». وكذلك ما قاله المقرئ في النفح، وابن العماد في الشذرات، وحكي ابن خلكان في الوفيات، وما حكى ابن خير الإشيلي في فهرسته كلهم صرح بذلك أو قال نحوه¹.

وقد قال السيوطي في المزهر: «وأصح كتاب وضع في اللغة على الحروف بارع أبي علي البغدادي، وموعب ابن التياي»².

ولقد قارن نصر الهوريني -محقق القاموس المحيط- البار بالقاموس المحيط، فقال يرد على الفيروز آبادي في ادعائه التفرد والاستيعاب والجمع، وأن كتابه خلاصة ألفي كتاب ما نصه: «على أن المصنف لم يستوعب ما في كتاب واحد، وهو كتاب البار لأبي علي القالي. جمع فيه كتب اللغة بأسرها، ورتبه على حروف المعجم»³.

ويمكن الاستئناس بمقولة صاعد البغدادي في الاستدلال على كبر حجمه بمدة تأليفه المعتبرة، ولما قاربت مدة تأليفه ستة عشر عاماً بين النشاط والانقطاع أحياناً فلا عجب «أن يخرج في مثل هذا الحجم الكبير الذي تحدثوا عنه»⁴.

¹ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 37.

² المزهر، السيوطي، 89/1.

³ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص 48. مقدمة المحقق.

⁴ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 38.

وكنا قد أومأنا لشيء من هذا المعنى لما ذكرنا عنوان الكتاب «البارع» الذي هو في اللغة بمعنى من يفوق من سبقه من المؤلفات الأخرى.

9- العناية الخاصة بالألفاظ الفارسية: لقد تعرض أبو علي القالي البغدادي في كتابه «البارع» إلى العرب من الألفاظ الأعجمية عموماً - كما أسلفنا - لكنه خص الفارسي المعرب بمزيد عناية، ذلك أنه - فيما يذكر الود غيري - نشر المعرب الفارسي في ثنايا الكتاب، ووزعها على الأبواب المناسبة لها، عاد في الأخير إلى جمعها في معجم صغير ألحقه بآخر البارع وسماه: «باب ما جاء معرباً من كلام الفرس»، وذلك ما يكشف عنه تلميذه الزبيدي في كتابه «المستدرک في اللغة»، وهو شيء لم يسبق أن تبه عليه أحد من الدارسين. قال الزبيدي: «ولإسماعيل في آخر كتاب البارع باب ترجمه: باب ما جاء معرباً من كلام الفرس، وقد مر من هذا الباب شيء في أضعاف الديوان منه، وأبواب بعدها أنا ذاكرها ها هنا، وهي زائدة على أبواب العين سوى ما وقع في حشو الديوان منه» ثم أخذ في استعراض هذه الكلمات التي رتبها من جديد حسب طريقة العين، بادئاً بما جاء من ذلك على حرف الحاء فالهاء فالخاء فالغين فالقاف فالكاف فالجيم، فالصاد، فالهاء، فالراء، فاللام، الذي توقف الكلام عنده فجاءت دون أن يتم، ودون أن يذكر باقي الحروف الأخرى للنقص الموجود في أصل المخطوط (المستدرک...) ¹.

وقد حوى البارع في ثناياه كلمات فارسية معربة عديدة مثل: الفندق، والزندق، والصولجان، والصهرج، والدفتري، والديياج...

10- احتوى معجم البارع في اللغة على مادة ضخمة من الشواهد، أفادها القالي من مروياته الكثيرة جداً، وفيها نقف على شعر كثير لم يرد في دواوين الشعراء، كما أن له عناية بنسب وعزو الشواهد لأصحابها، وهذا يحسب له في الدقة والإتقان. ²

إن أبا علي القالي البغدادي في كتابه «البارع» جمع الشواهد الكثيرة والمتنوعة بين قرآن، وحديث، وشعر العرب ونثرها قصداً منه في الاحتجاج لأحكامه اللغوية، وتقوية آرائه المعجمية، وهو في هذا على أمر عظيم، يوحي بأن الرجل حقاً استفاد من تجربة غيره في هذا المجال، وبروزه الذي فاق فيه أقرانه في هذا الأمر، إنما وقع في الاستشهاد بالشعر ذلك أن القرآن الكريم متوفر لدى المعجميين سواء، والحديث النبوي قد يقترب منه شيئاً ما، هذا إذا استثنينا الجدل الواقع في الاستشهاد به، أما الشعر فليس الأمر كذلك لأن الرجل كان من أحفظ أهل زمانه، وأتى بكتب ومخطوط شعري لا يوصف. فهو الذي جعله يتفوق على أقرانه في قضية الاستشهاد.

¹ المرجع السابق، ص 36 - 37.

² المدارس المعجمية دراسة في البنية التركيبية، عبد القادر عبد الجليل، ص 133.

11- اعتمد معجم «البار» على مصادر عدة مثل: كتاب النوادر لأبي زيد الأنصاري، وكتابه اللغات والغرائز، وكتاب الخيل، والإبل، وخلق الإنسان، والنبات، للأصمعي. وكتاب كنز الحفاظ، وإصلاح المنطق، لابن السكيت، وكتاب التذكير والتأنيث لأبي حاتم السجستاني.

وكتاب الخيل، ومجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وكتاب أدب الكاتب لابن قتيبة. وكتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام وكذلك كتاب غريب الحديث.¹

لقد أخذ أبو علي القالي البغدادي في كتابه البار عن الكتب اللغوية الهامة من المصادر القديمة، فمؤلفوها هؤلاء هم أئمة اللغة والأدب في القرن الثالث الهجري في المشرق العربي، وهم المنظرون الأول. وأمر طبيعي بحكم طلبه للعلم كان ببغداد أن يأخذ على هؤلاء، الأئمة وإن كان لم يأخذ عنهم مباشرة، فهم شيوخ شيوخه، لكن الملفت للانتباه هو كثرة المصادر التي اعتمد عليها، فهذا يوضحه ويبرره قوة الحافظة عند الرجل، والحرص الشديد على حفظ العلوم.

هذا الكلام الذي قدمنا عن بعض خصائص وميزات «البار» لأبي علي القالي البغدادي يكشف لنا عن حقيقة عمله المعجمي، حيث كان يرمي إلى كتابة -موسوعة- معجم ضخم حيث هيأ أكبر الأسباب لذلك، فأنت عندما تقرأ له في بارعه وتأتيك النقول: قال أبو زيد، وقال أبو عبيد... تتوهم أنك في معاجم موضوعات، وليس الأمر كذلك، صحيح أنه لا فاصل في الدرس اللغوي، فممكن استعمال المادة اللغوية في المجالات المختلفة للمعجمية، إنما يتحكم في الأمر مهارة الصانع المعجمي.

وأبو علي القالي البغدادي قد عاش في زمن هؤلاء المنقول عنهم، وهم أئمتهم وعلماءهم فأغلبهم من الشخصيات البارزة في بناء معجم المعاني (الموضوعات) والرسائل الإفرادية ذات الموضوع الواحد، واستغل القالي مادتها اللغوية المناسبة لبناء معجم ألفاظ أندلسي بارع فكان له ذلك.

¹ المرجع السابق، ص 133.

المبحث الثالث: البار بين التأثير والتأثير

إن أبا علي القالي البغدادي تشبع بثقافة مشرقية طبعت شخصيته العلمية، حيث طلب العلم هناك، وحصل منه شتى صنوفه، لكنه برز بشكل لافت في اللغة وفنونها، ولا أدل على بلوغه الغاية في ذلك من أنواع تواليفه خاصة البار فيها، فقد ضمنه خلاصة ما تحمل من اللغة مطعماً إياه بظواهر أدبية وأخبار، فطار خبره في الآفاق، وصاحبه لم يخالف السنن، حيث إن العالم اللغوي قد تعلم قبل —والعلم بالتعلم— وتأثر ببعض من تتلمذ لهم، أو درس كتبهم، ولم يلحق بهم، أو سمع أخبارهم عن طريق مشايخه وغيرهم. وإذا، فهو يتبوأ ببارعه مكان المركز في قضية التأثير والتأثير، وعادة ما يتأثر اللاحق بالسابق، وعليه فالتأثر في مثل هذه الأمور العلمية واقع لا محالة، وإذا ثبت ذلك مع أبي علي القالي البغدادي في بارعه، فما هي مظاهر تأثره بمن سبق وتأثيره فيمن لحق؟

أولاً- البار وقضية التأثير:

إن من نعمة الله —سبحانه وتعالى— على أبي علي القالي البغدادي أن هياً له أسباب التعلم على ثلة من الأئمة الأعلام البارزين في فنون من العلوم والمعارف الكثيرة، وقلما تتوافر مثل هذه الزمرة في تكوين وتعليم شخص مثل ما تسنى لأبي علي القالي، ثم إن هذا العصر بصفة عامة كان حافلاً بمظاهر تطور العلوم، وفيه خصب لم يعرف من قبل. فسوق اللغة رائجة ورواتها تحملوها بأعلى مقامات التحمل مشافهة عن الأعراب في مواطن الفصاحة البعيدة عن الحضر.

فأبو علي القالي البغدادي وإن كان لم يُشافه الأعراب في البوادي، ولم يثبت له شيء من ذلك، إلا أنه أخذ حظه الوافر من العناية باللغة، والحرص على طلبها بأسباب الحفظ والدقة والضبط أخذاً عن علماء أئمة في ذلك كان قد سطع إشعاع علمهم في دروسه وتواليفه.

وهاته العلوم التي حصلها أبو علي لا تتأتى عفويّاً وإنما ببذل الأسباب. فقد قال الشافعي:¹

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسَبَبٍ سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بَيَّانٍ
ذِكَاؤٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ وَصُحْبَةٌ أَسْتَادٍ وَطُولُ زَمَانٍ

ومعلوم أن أبا علي القالي البغدادي قد تتلمذ على شيوخ كثر في علوم مختلفة، كان لهم الأثر الكبير في صقل الشخصية العلمية الفذة للرجل، وهنا نعرض لأهم ما تأثر به القالي من كتب وعلماء، فالأئمة اللغويون الذين ظهر جلياً تأثر القالي بهم في كتابه البار كانوا من الأوائل الذين ساهموا في بناء المعجم العربي عموماً.

¹ ديوان الشافعي، الشافعي محمد بن إدريس أبو عبد الله، تح: عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر —القاهرة— جمهورية مصر العربية، ط2، 1405 هـ - 1985 م، ص 116.

1- الأئمة الأعلام:

ويقصد بهم العلماء اللغويون الذين لهم قدم راسخة في العلم، وأجمعت الأمة على إمامتهم في اللغة، وشهدت لهم في ذلك علومهم وآثارهم، ونحن نعني في هذا المقام بمن ظهر تأثير أبي علي القالي في بارعه بهم، وهم على النحو التالي:

أ - الخليل بن أحمد الفراهيدي¹: أثر هذه الشخصية بارز على كثير من اللغويين من شرق ومن غرب، خاصة منهم الذين يعنون بالمعاجم وفي منها يؤلفون، فلا تكاد تجد معجماً لا يأخذ عن الخليل، فكل له حظ أكثر منه أو أقل.

أما عن تأثير صاحبنا أبي علي القالي البغدادي بالخليل فنلخصه في محاور يظهر إشعاعها في كتابه البارع على النحو التالي:

المحور الأول: الترتيب الصوتي للحروف (أو ترتيب حروف الهجاء العربية حسب المخارج): معلوم حضارياً أن أول ترتيب عرفه العرب وغيرهم كان فينيقياً (أبجد، هوز ...) ثم ما لبث العرب إلا زمناً حتى عرفوا الأشباه والنظائر على يد نصر بن عاصم الليثي (69هـ) (أ ب ت ث ج ح خ د ذ ...)، وقد خطا بهم الرجل خطوة لم يبرز مظاهر التطور في هذا الأمر، ولا أدل على ذلك من أن ترتيبه هذا مألوف مستعمل إلى الآن.

أما ترتيب حروف الهجاء العربية في ضوء الصناعة المعجمية في القرن الثاني الهجري فقد أخذ منحى آخر مع الخليل بن أحمد الفراهيدي. وقد تجلّى ذلك الأمر عند بناء معجمه «العين»، وقد بدأت معه الدراسة الصوتية تتأسس، ذلك أن الرجل عني بها حتى إنه رتب حروف معجمه بحسب مخارج الحروف على غير مثال سابق، فكان ترتيبه على النحو التالي: ع ح ه خ غ، ق ك، ج ش ض، ص س ز، ط د ت، ظ ذ ث، ر ل ن، ف ب م، وا ي ء. فهذه تسعة وعشرون حرفاً² منها أبنية كلام العرب.³

¹ هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم، أبو عبد الرحمن البصري الفراهيدي، الأزدي، النحوي، اللغوي، الزاهد، كان يمتنع عن قبول عطايا الملوك، فكان قوته من بستان ورثه من أبيه، وكان يحج سنة ويغزو سنة، إلى أن مات، له المصنفات المشهورة، وأشهرها كتاب «العين»، ولم يكمله. قيل كمله النضر بن شميل. وقيل: أراد الليث إتمامه فسمى لسانه الخليل، فإذا قال: «أخبرني الخليل» أراد به الخليل بن أحمد. وإذا قال: قال الخليل فإنه يعني به لسانه. فجاء في الكتاب خلل لذلك. واشتغل به ليلاً ونهاراً، وكانت له حظية، ففارت فأحرقته، فجزع الأمير له وتأسف، فجمع من أمكنه من العلماء، وأملى عليهم النصف الأول من صدره، وأمرهم بإتمام ما بقي، فحصل به الخلل من هذا الوجه والله أعلم. وهو أول من اخترع العروض والقوافي. ومات سنة سبعين ومائة، أو خمس وسبعين. وانظر: البلغة، الفيروز آبادي، ص 133 - 134.

² والخليل بن أحمد أول من جمع حروف المعجم في بيت واحد وهو:

صَفَّ خَلَقَ خَوْدَ كَمَثَلِ الشَّمْسِ إِذْ بَزَعَتْ يحظى الضجيج بها نجلاء معطّار

وانظر: بغية الوعاة، السيوطي، 559/1.

³ العين، الخليل، تح: المخزومي - السامرائي، 58/1.

وإذا، فالرجل له عناية كبيرة بالحروف وأصواتها، وحامل لنظرية صوتية أولى في التراث اللغوي العربي، وتتضح عنايته بالصوت أكثر حينما نطلع على تواليفه الأخرى كما ساقها السيوطي حيث يقول: «وللخليل من التصانيف غير العين: كتاب النعم، الجمل، العروض، الشواهد، النقط والشكل، كتاب فائت العين، كتاب الإيقاع».¹

هذا ما وصل إليه علم بعض المترجمين له، وإلا فعناية الرجل بالصوت والحرف أكثر مما يقال عنه فيه. فنقطة التقاطع أو التأثير التي التقى فيها أبو علي القالي البغدادي بالخليل هي: الترتيب الصوتي المخرجي للحروف الذي طبع معجم «البارع»، والتأثر أو الاتباع واضح أنه كان عن اقتناع وقصد، لأن أبا علي القالي وفي ذلك الزمن المبكر في الصناعة المعجمية، كان قد عرف ترتيباً آخر بالضرورة عن شيخه الأول ابن دريد (321 هـ) الترتيب الألفبائي المألوف (على طريقة نصر بن عاصم الليثي)، وهو الذي بنى عليه معجمه الجمهرة خارجياً.

وعليه يكون أبو علي القالي البغدادي قد أثر ترتيب الخليل الذي لم يره، وإنما سمع به، وحدث عنه، ورأى في الأندلس ما نسب من نسخ كتاب «العين»، فافتنع بأثره في العلم، وسلك منهجه في الترتيب الخارجي «للبارع» لكن على خلاف معه في بعض مواضع الحروف. فجاء ترتيبه للحروف على النحو التالي: هـ ح ع خ غ ق ك ض ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و ي ء.²

وأبو علي القالي البغدادي تأليفه لكتاب «البارع» بهذا الترتيب الصوتي، كانت تجرته الثانية، ذلك أن بعض المحققين -مثل: أحمد عبد المجيد هريدي، وعبد العلي الودغيري³ وغيرهما- قد حكموا بأن أبا علي القالي كانت له سابقة في التأليف على هذه الطريقة وبهذا الترتيب الصوتي المخرجي، وهذه السابقة تتمثل في كتاب «المقصود والممدود» فقد بناه على التفعيل والمخارج⁴، ولا نرى ضرورة هنا في بسط بعض الحجج التي تدعم هذا الحكم، ولكن لا بأس أن نشير إلى شيء هام هنا وهو إذا علمنا أن كتاب «البارع» كان آخر ما ألف أبو علي القالي البغدادي، بل قد مات ولم يتمه، يبطل العجب، وتعرف الحقيقة.

هذا، وقد بدا واضحاً تأثر أبي علي القالي البغدادي بالدرس الصوتي عموماً، وما صنعه الخليل منه على وجه الخصوص، فقد ظهر عند أبي علي القالي في أبنيته في كتاب «البارع» بناء سماء الحواشي والأوشاب

¹ بغية الوعاة، السيوطي، 560/1.

² المعجم العربي، حسين نصار، 315/1.

³ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 25.

⁴ انظر: المقصور والممدود، القالي، ص 6.

وهو محسوب على الأصوات والدلالة كما هو محسوب على الأبنية، ذلك أن صاحب «البار» قد قال عندما ذكر الحواشي والأوشاب: «وقد ضمنت أسماء الأصوات ومحاكاة الطيور والحيوانات».¹ وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن أبا علي القالي البغدادي قد أخذ نظرية الخليل الصوتية، وعمل على التوسع فيها وتطويرها.

وعمل أبي علي القالي البغدادي في الحروف والأصوات وما يتعلق بها في مواطن كثيرة، وقد ظهر الأمر جلياً في أكثر من مؤلف له، ما يوحى بأن الرجل فعلاً قد شغله هذا العلم حتى استفاد وأفاد به كثيراً. وقد ذكر أحمد عبد المجيد هريدي —محقق المقصور والممدود— لما عرض لذكر آثار أبي علي القالي البغدادي، وقد أوماً إلى المكتوب منها وغير المكتوب أي ما جرى على شكل الأمالي في المجالس العلمية قال:

«يذكر في أماليه 186/2 أنه صنع العبارة التي تجمع حروف البدل وهي: «طال يومٌ أبجدته»، وقد ذكر ذلك أيضاً تلميذه الزبيدي في كتابه الاستدراك على أبنية سيويه ص 5، وعنه نقل نشوان بن سعيد الحميري في مقدمة كتابه شمس العلوم ص 14. وذكر أن القالي صنع هذه العبارة».² وقال أبو علي القالي البغدادي فيه أيضاً: «... ورأينا أن تذكر أولاً ما يعرف من المقصور بالقياس، ثم نتبعه ثنية المقصور. وأن نبتدئ من الأمثلة بالثلاثي، لأن عليه جمهور الكلام، وبالمفتوحة الأوائل».³

المحور الثاني: اعتماد الأبنية في تأليف المعجم

من المعلوم أن نظام الأبنية في الصناعة المعجمية كان أول من أتى به الخليل بن أحمد في كتابه العين، فجعلها ستة أبنية هي: الثنائي الصحيح، الثلاثي الصحيح، الثلاثي المعتل، الثلاثي اللفيف، الرباعي الصحيح، الخماسي الصحيح.⁴

فأبو علي القالي البغدادي اقتفى أثره في ذلك، لكن مع بعض التغيير الخاص به، ثم إنه من المعلوم أن العلوم تتطور وهذا أمر واقع. فجاءت أبنيته على النحو التالي: الثنائي المضاعف، الثلاثي الصحيح، الثلاثي المعتل، الحواشي والأوشاب، الرباعي، الخماسي.⁵

فهنا نرى التوافق في الأبنية بينهما إذا ما استثنينا مصطلح الحواشي والأوشاب الذي وضعه أبو علي القالي البغدادي مكان بناء من الأبنية التي إذا ما ذكرت ينصرم الذهن في مدلولها إلى عد الحروف فيقال:

¹ البار، القالي، ص 523.

² المقصور والممدود، القالي، ص 54، مقدمة المحقق.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ المدارس المعجمية، عبد القادر عبد الجليل، ص 116 – 117.

⁵ البار، القالي، ص 70. المحقق.

ثنائي ... كما هو عند المبدع. لكن الرجل لم يتوقف عند هذا الحد، فلما فتح باب الحواشي والأوشاب أجرى عليه تقسيم الأبنية السالف الذكر محاولة منه وقد وفق في بعض من ذلك.

والناظر المتأمل فيما أتى به القالي في «البارع» من الحواشي والأوشاب يجد أنه وضعها في مكان الثلاثي اللفيف عند الخليل، وقد يوافق هذا الأمر عند القالي، لكن القالي وسع نظره إزاء هذا الباب والبناء، لأنه قد حكّم الحقل الدلالي أولاً حقل الأصوات، ومحاكاة أصوات الحيوانات والطيور...

ويحسب لأبي علي القالي أيضاً أنه اعتمد نظام الأبنية في كتابه الأول «المقصور والممدود» قبل أن يدرجه في «البارع» حيث يقول في مقدمة «المقصور والممدود»: «... فوجب أن نصنعه على الأمثلة، وأن نؤلفه على الحروف...»¹

وقد قال أيضاً: «واعلم أن المقصور الذي على ثلاثة أحرف له ثلاثة أمثلة:

فَعَلٌ مثل: قَفَاً وَعَصَاً نظيرهما من الصحيح عَمَلٌ وشبهه.

وَفَعَلٌ مثل: رَضَى وَجَمَى نظيرهما من الصحيح ثَقُلَ وشبهه.

وَفُعِلَ مثل: هُدَى وَلُقَى نظيرهما من الصحيح جُرِدَ وَضُرِدَ.

واعلم أن الألف في المقصور الذي على ثلاثة أحرف بدل وليست كزيادة ألف حُبَلَى². فالرجل واضح أنه شديد التأثر بالخليل وصنعتة في كتاب «العين»، لكن ما يحمد عليه هو أنه لم يكتف بالنقل والاتباع فقط، بل حاول الزيادة، والاستدراك والإفادة ممن سبقه ثم الاستثمار في سبيل دفع عجلة الدرس اللغوي المعجمي العربي إلى الأمام، والتطور أكثر. وقد وفق الرجل في كثير مما رامه، وهو بهذا الصنيع وغيره لا يعدم خيراً.

المحور الثالث: اعتماد التقاليد

والتقاليد أو الاشتقاق الأكبر كما يسميه بعض اللغويين فهو من صنعة وإبداع الخليل بن أحمد الفراهيدي التي ظهرت في معجم العين، والأمر نابع من عقلية رياضية فذة لم يسبق إليها، والرجل أراد أن يحصي ما هو دائر ويمكن أن يدور على ألسنة العرب فتفدقت حيلته إلى التقاليد حتى يستوفي بدقة تامة كل احتمالات الجذور في الكلام العربي، ويطلق عليها البعض طريقة الإحصاء أو الجمع التام في الصناعة المعجمية.

وأبو علي القالي البغدادي تلقفها عن الخليل حيث أعجب بهذا الصنيع وتبناه في جمع ووضع كتابه «البارع»، وهو في هذا الأمر مقلد لا غير، وغاية ما أضافه في هذا المجال هو أن الأخذ بهذا المبدأ ينتج عنه

¹ المقصور والممدود، القالي، ص 6.

² نفسه، ص 16.

توليد كم هائل من الألفاظ، وقد يكون أغلبها غير مستعمل مما اضطرّ المبدع إلى إحداث مصطلح «المهمل» ليتجنب معالجته فيكفيه حكم " مهمل " معالجة. أما التالي (القالي) ولما كان في فسحة من أمره مقارنة بقدوته الخليل فقد اجتزأ عن ذلك كله، فلم يتعرض إليه ما دام مهماً.

أما عما انجر عن مبدأ التقاليد من مصطلحات مثل كلمة مقلوب، فاستعملها أبو علي القالي البغدادي في «البار» بعبارة «ومن مقلوبه غالباً»، وفي بعض الأحيان «مقلوبه»، مثال الأخير جاء في البار لما عالج القالي (الصَّلَهَب)، من الهاء واللام في الرباعي، وكان قد ذكر قبله (البَهْصَل)، ثم قال مقلوبه: قال الأصمعي: الصَّلَهَب من الرجال الطويل...¹

ومثال الأول: لما عالج القالي (الخاء والراء والألف، والواو، والياء في الثلاثي المعتل) وقد استهلّ به خَرَّت الرجل على صاحبه... ثم قال: ومن مقلوبه: قال أبو علي، قال يعقوب: فلام رَحِي اللَّبَّ إذا كان في سعة يصنع ما يشاء...²

وعموماً فأبو علي القالي البغدادي قد أعجب بصنيع الخليل في العمل المعجمي، فتأثر به تأثراً واضحاً لا يدع مجالاً للشك، رغم عدم التلمذ له فبينهما فرق سنين ليس باليسير، هو أكثر من قرن من الزمان بين وفاة الأول وميلاد التالي، إلا أن القالي كما أسلفت قد أخذ هذه الصنعة عن الخليل في بناء معجمه سواء أكان ذلك في الصورة العامة وهدف التأليف على هذا الشكل يعني في معاجم الألفاظ، أو في مبدأ الوضع، حيث وضع القالي معجمه «البار» الوضع الذي ارتضاه الخليل من قبل متمسكاً بالترتيب الصوتي للحروف حسب المخارج، والأبنية، والتقاليد. هذا في العموم وإلا فإن المعجميين العرب في هذا الفن لهم فيه شؤون أخرى، فقد بلغوا فيه الغاية من التميز والتفرد بالصنائع الحسنة حتى كاد يكون كل معجم مدرسة مستقلة.

ب- سيبويه³: سيبويه تلميذ الخليل بن أحمد، ولما درس عليه حصل علم الأصوات والنحو والقراءات، اشتهر بالنحو، وشيخه نحوي أيضاً من أعيان الطبقة الخامسة من النحاة البصريين، بل هو على

¹ البار، القالي، ص 203

² المرجع نفسه، ص 228.

³ هو عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب، أبو بشر، ويقال: أبو الحسن. وقال أحمد بن عبد الرحمان الشيرازي في كتابه الألقاب: إن اسم سيبويه بشر بن سعيد. وهو غريب، والمشهور عمرو. وسيبويه بالفارسية: رائحة التفاح أخذ النحو عن الخليل ولازمه، وعن عيسى بن عمر الثقفي، ويونس، وغيرهم، واللغة عن أبي الخطاب الأخفش... وألف «الكتاب»... وقد طارت شهرته ولقد شرح كتابه أهل المشرق والمغرب، ومن أشهر شروحه، شرح السيرافي، وشرح ابن خروف... وقد رثاه الزمخشري بقوله:

ألا صلى الإله صلاة صدق
على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنه
بنو قلم ولا أبناء منبر

وانظر: البلغة، الفيروز آبادي، ص 221 - 224.

رأسها،¹ لكن شهرته الكبيرة في الصناعة المعجمية والعروض والقوافي غطت على نحوه، وإلا فهو القدوة في فنون من العلوم شتى.

ثم إن سيبويه برز في الصوتيات العلم الذي تلقفه عن الخليل، لكنّ التالي كانت له قدم في هذا المجال، واستطاع أن يكشف عن شخصية علمية قادرة على الإقناع في إصدار أحكامها في علم الصوت. أما عن علاقة أبي علي القالي البغدادي بسيبويه، فتتمثل في قراءته لكتب سيبويه، أو ما نقل إليه من خبره وعلومه عن طريق مشايخه مثل ابن الأنباري، وابن دريد، وإلا فيبينهما قرن من الزمان تقريباً، فقد ثبت أن أبا علي القالي البغدادي قد قرأ على ابن درستويه كتاب سيبويه أجمع، واستفهم جميعه، وناظره فيه، ودقق النظر ... ونصر مذهب سيبويه على من خالفه من البصريين أيضاً، وأقام الحجة له. قال أبو علي إسماعيل بن القاسم: وقرأ معي الكتاب أبو جعفر أحمد بن أبي محمد بن درستويه -تعليماً ورواية- الكتاب أجمع.²

وفي موضع آخر ذكر الزبيدي أنه عمل كتاب سيبويه على عبد الله بن جعفر بن درستويه، وسأله عنه حرفاً حرفاً وعن علله.³

ولما كانت علاقة القالي بعلم سيبويه وكتابته على هذا النحو فلا عجب أن يتأثر به علماً أن الكتاب لسيبويه قد ضمنه صاحبه مباحث في غاية الأهمية مما كتب الأوائل في الصوت والحروف، ليس لعلاقة النحو بالحروف فقط بل إن الرجل خصه بمزيد عناية، والناظر في الكتاب وغيره مما أثر عن الرجل من مؤلفات يدرك حقيقة ما ذكرناه سلفاً.

لقد ذكرنا سابقاً أن أبا علي القالي البغدادي قد رتب حروف معجمه صوتياً، وصحيح أن أصل الترتيب الصوتي بدأ مع الخليل، ولكنّ الرائي إلى ترتيب القالي يقف على حقيقة هي أن ترتيبه أقرب إلى سيبويه منه إلى الخليل، وبالنظر للترتيبين قرب بعضهما تتضح الصورة:

ترتيب أبي علي القالي:

ه ح ع خ غ ق ك ض ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و ا ي ء.⁴

ترتيب سيبويه:

ء ا ه ع ح غ خ ك ق ض ج ش ي ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و.⁵

¹ طبقات النحويين والغويين، الزبيدي، ص 315. فهرس الطبقات - النحويون البصريون.

² المرجع نفسه، ص 121.

³ نفسه، ص 185. فالرجل قد ترجم له مع النحويين البصريين، وكذا اللغويين من أصحاب ابن دريد في الطبقة السابعة.

⁴ المعجم العربي، حسين نصار، 315/1.

⁵ انظر: الكتاب، سيبويه، 431/4.

هذا الترتيب لأبي علي القالي اعتماداً على أقوال الدارسين والمحققين في المجال المعجمي وإلا المصدر الأصلي (كتاب البار) غير مكتمل حتى يؤخذ الترتيب منه.

والذين أومأوا إلى ترتيب القالي الذي ظهر في المقصور والممدود فإنه يزداد به الأمر وضوحاً، وفيه يقترب القالي إلى سيبويه أكثر، ذلك أنه لما أراد معالجة مواد المقصور والممدود كان قد بدأ بما استهل بالهمزة.¹

إن سيبويه لم يكن من أصحاب التأليف في الصناعة المعجمية، حتى يتقاطع معه أبو علي القالي في قضايا كثيرة، لكنه يرد اسمه في الشخصيات التي ارتكز عليها بناء المعجم العربي عموماً. وقد أخذ أبو علي القالي البغدادي بآرائه وأحكامه اللغوية والنحوية، فهو قد انتصر له حتى من البصريين أصحاب المدرسة الواحدة، لكن ما أخذه أبو علي القالي عن سيبويه ظل ماثلاً في كتبه خاصة أحكامه النحوية واللغوية.

ونلفت الانتباه ونحن في قضية تأثر أبي علي القالي البغدادي بالدرس الصوتي عموماً في ذلك العصر إلى أنه قد اطلع على ما ألفه محمد بن المستنير قطرب (206 هـ)، في المثلثات اللغوية، مثلث الكلام. وفيه تأثير الصوت في تغير الدلالة يظهر بشكل واضح، وربما هذا الذي جعل أبا علي القالي البغدادي في معجمه البار يهتم بقضية شائكة قلما تفتن لها المعجميون الذين سبقوه، وإن تفتنوا غالباً يعدموا الحيلة، ألا وهي قضية التحريف واللحن والتصحيف والخطأ عموماً، فالرجل عني بالدقة والضبط في المعالجة حتى غدا الأمر سمة من سماته البارزة التي لم يسبق إليها في الصناعة المعجمية عموماً والبارع على وجه الخصوص.

ج - ابن دُرَيْد (321 هـ):²

لقد ثبت أن أبا علي القالي البغدادي قد تتلمذ على يد أبي بكر بن دريد، بل هو شيخه الأول في اللغة والأخبار، وانظر إلى كلام القفطي عندما ترجم له إذ قال: «... وسمعت الأخبار واللغة من أبي بكر محمد بن دريد الأزدي البصري، وأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري...».³

¹ المقصور والممدود، القالي، ص 11.

² هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن حتم، الأزدي ... مات يوم الأربعاء لاثنتي عشر ليلة بقيت من رمضان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، في اليوم نفسه الذي مات فيه أبو هاشم الجبائي ودفنا جميعاً في مقبرة الخيزران. فقيل حينئذ: مات علم اللغة والكلام.

وابن دريد بصري المولد، ونشأ بعمان وتنقل في جزائر البحر والبصرة وفارس، وطلب الأدب وعلم العربية، كان أبوه من ذوي اليسار، ورد بغداد بعد أن أسن، فأقام بها إلى آخر عمره. روى عن كبار اللغويين من أمثال ابن أخي الأصمعي، وأبي حاتم، والرياشي، وله مؤلفات عديدة أشهرها: الجمهرة والمقصورة، وأخذ عنه خلق كثير، تفرد بكثير من المرويات والأخبار والأشعار، وهو شاعر أصلاً. وقال في حقه أبو الطيب اللغوي في (مراتب النحويين): هو الذي انتهى إليه علم لغة البصريين ... وانظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 2489 - 2490.

³ إنباء الرواة، القفطي، 242/1.

فهو القائل أبو علي القالي نفسه هنا لما سأله تلميذه الزبيدي عن مولده ونسبه، والقفطي إنما ينقل عن الزبيدي فيما أتى به.

وانظر إلى كلامه عن مشايخه في الأخبار واللغة فجعل ابن دريد أولاً وثنى بابن الأنباري، وتلت بنفطويه ثم ساق من بعدهم من حصل له منهم سماعٌ. والترتيب مهم هنا في ذكره لمشايخه، ذلك أنه تعضده أدلة كثيرة، فقد روت كتب الأخبار وتراجم الرجال أن أبا علي القالي البغدادي قد حصل على نسخة من معجم الجمهرة لابن دريد بخط مؤلفها.¹ وعادة لا يخص بهذا الأمر إلا من أقرب قريب من المؤلف والعالم، وقرية العلم مقدمة على كل شيء عند أهل العلم.

إن أبا علي القالي البغدادي كان قد تأثر كثيراً بشيخه ابن دريد، فهو قد تأثر بنوعية الدراسة وطبيعتها في المشرق عموماً، فما قدمنا له مثلاً من اللغة والأخبار والظواهر الأدبية المختلفة، والتي ظهرت عند أبي علي القالي بصورة واضحة في كتابه «الأمالي» وإن كان شيء منها غير قليل قد تكرر في تواليه الآخر أيضاً مثل «البارع». فهو في هذا كله قد تأثر بفكرة الأمالي التي كانت بارزة في ذلك العصر، وكانت تطرح فيها المواضيع المختلفة التي لا تربط بينها وشائج، موضوع في اللغة، والآخر خبر أو قصة أو ...

وفي الصناعة المعجمية كان ابن دريد فاتحاً لها في القرن الرابع الهجري بعد أن أغلق باب التأليف فيها طيلة وقت ليس باليسير منذ موت الخليل (170 أو 175 هـ) -رحم الله الأول والثاني- وهذا الأمر مما يستهوي أبا علي القالي البغدادي، فالرجل تأثر به في طريقة التدريس، والتفسير والشرح، وفرصة التأثر متاحة خاصة إذا علمنا أن أبا علي القالي البغدادي قد قرأ كتاب الجمهرة على ابن دريد شيخه الأول مرات عديدة.

وحتما لغوي مثل القالي ذو حافظه كبيرة عندما يقرأ كتاباً على شيخه مرجح أنه يستفيد منه، ويكون على دراية تامة بصنيع مؤلفه فيه.

لقد مر معنا أن أبا علي القالي كانت له عناية بالمعرب من الكلام الأعجمي عموماً والفارسي منه على وجه الخصوص. ولعله في ذلك تمثل بصنيع شيخه ابن دريد في كتابه الجمهرة في آخره، فإنه ضمنه بعض الأبواب كالملاحقات، ومنها «باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغة». ومما جاء فيه²:

والسبيجة: البقيرة، وأصلها شيء، وهو القميص، وأنشد (رجز): كالحبشي التف أو تسبجا

¹ المزهر، السيوطي، 95/1.

² الجمهرة، ابن دريد، 1322-1323.

والكرد: العنق، وهي كردن بالفارسية. قال الفرزدق (طويل) :

وكنّا إذا القيسي نسب عتوده
ضربناه تحت الأنثيين على الكرد

وبما أن القالي - وهو التلميذ اللاحق - وابن دريد - الشيخ السابق - وما فعله الأول اقتفى أثره فيه التالي، فلا مجال للشك في قضية التأثير وقد تهيأت أسبابها واتضحت مظاهرها، وهو أمر في الحقيقة لا ينقص من قيمة المقلد شيئاً.

ومن كثرة مصاحبته له وقد عرف الأمر بعضهم فحمن أن السبب الرئيس لرحيل أبي علي القالي من بغداد هو موت شيخه الأول ابن دريد (321 هـ) .

ورغم العلاقة المتينة مع الشيخ ابن دريد - والشيخ معجمي - إلا أن أبا علي القالي رغب عن طريقة الشيخ¹ ابن دريد في الترتيب الخارجي وهي الألفباء المألوفة (أ ب ت ث ج ح خ ...) طريقة الأشباه والنظائر لنصر بن عاصم الليثي، وإنه لمن الغريب أن يتخلى القالي عن هذه الطريقة ويتبع طريقة الخليل في الترتيب حسب مخارج الحروف المعقدة وقد صرح شيخه ابن دريد² ومعاصرون له آخرون مثل: ابن ولاد (332 هـ) بأن الترتيب على حروف المعجم أيسر على العامة وأعلق بقلوبهم.

ولعل أبا علي أثر اتباع الخليل لتقدمه وشهرته على اتباع شيخ معاصر له وإن علّت منزلته، في وضع معجم «البارع» وصار إلى طريقة الخليل الصوتية هذا في الترتيب الخارجي، ذلك أن ابن دريد قد وضع «الجمهرة» على الألفباء المألوفة العادية - ترتيب نصر بن عاصم الليثي - (الألفباء المشرقية) (أ ب ت ث ج ح خ د ذ ...) .

وبهذا الوضع للبارع يكون أبو علي القالي قد جانب طريقة ابن دريد في الترتيب، وأما التقاليد فتحسب لمبدعها الأول الخليل لا لابن دريد المقلد، ولم يبق من مظاهر تأثره بشيخه إلا فيما يخص المادة اللغوية.

والدارس في معجم «البارع» لأبي علي القالي البغدادي يدرك قيمة ابن دريد عند القالي في كتابه هذا وغيره مثل، (الأمالي) حيث يجد مادة لغوية معتبرة منقولة عن ابن دريد، وإن كان أبو علي القالي لا يصرح في المرويات عن شيخه بهذا الاسم الذي اشتهر به من بعد ذلك أن العرب تستحب النداء بالكنى، فكان يطلق عليه "أبا بكر" فيقول: أخبرنا أبو بكر، وهذه الكنية تطلق على أكثر من شيخ له مثل أبي بكر بن

¹ التراث المعجمي العربي، (من القرن الثاني حتى القرن الثاني عشر للهجرة)، رمزي منير بعلبكي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2019، ص 193.

² الجمهرة، ابن دريد، ص 40. مقدمة المصنف.

الأنباري، وإن كان بعض المحققين من مثل هاشم الطعان —محقق البار— النسخة المطبوعة الوحيدة الرائجة الآن قد تتبع ذلك فوجد أغلبها مقصوداً به ابن دريد.

مثلاً: قال في البار: الغين واللام والواو والألف والياء في الثلاثي المعتل ثم ذكر ما ذكر في ذلك. وقال: باب منه بالواو.

واستهل بالآية «لَا فِيهَا غَوْلٌ». ثم عالج المادة بمقلوباتها. وفي كلامه نقل عن ابن دريد بقوله: «وقال أبو بكر: الوغل المدعي نسباً غير نسبه».¹

هذا النقل المنسوب إلى هذه الكنية — أبو بكر — الملتبسة، حقق فيها هاشم الطعان وحكم بأن المقصود بها ابن دريد²، وخرج المقولة في الجمهرة: 151/8.

وغريب حقاً، وأمرٌ مثير للانتباه أن يكون شيخه ابن دريد معجماً، ولا يتبعه في عمله المعجمي، وربما هذا يقوي الحادثة التي جرت لابن دريد مع شيخ أبي علي القالي البغدادي ابن عرفة المدعو نفطويه حين حمل عليه في قضية كتاب «الجمهرة»، ونحن رأينا أسس الوضع للمعجم «الجمهرة». عند ابن دريد، تختلف كل الاختلاف عن أسس البار، فقط قضية التقلاب وهي محسومة للخليل مبدعها. فالقالي لم يتبع شيئاً منها إلا النقول والمرويات وقد تكون من أماليه ودروسه بعيداً عن «الجمهرة».

كانت بين ابن دريد ونفطويه منافرة عظيمة، بحيث إن ابن دريد هجاه بقوله³:

لو أنزل الوحي على نفطويه	لكان ذاك الوحي سخطا عليه
وشاعر يدعى بنصف اسمه	مستأهل للصفع في أخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه	وصير الباقي صراخا عليه

فهجا هو ابن دريد بقوله:

ابن دريد بقره	وفيه عي وشرة
ويدعى من حمقه	وضع كتاب الجمهرة
وهو كتاب العين	إلا أنه قد غيرة

ولربما هذا الأمر يدخل في بعض الأسباب التي حالت دون طبع البار بطابع الجمهرة. وإن كنا نستبعد ذلك للمجازفة الكبيرة في مثل هذا الأمر الجلل!

¹ البار، القالي، ص 404.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها، الهامش.

³ المزهر، السيوطي، 93/1 - 94.

هذا الذي مر معنا في قضية تأثر أبي علي القالي بمن قبله في معجمه (البارع)، وخاصة منهم من درسوه أو درسوا شيوخه، وهو قليل من كثير، فالأسماء للأعلام المؤثرة كثيرة جداً، وإنما اخترنا بعضها كأمثلة للتوضيح فقط وإلا فالحصر يعجز عنه أمثالنا.

وشيء آخر فإننا قد ركزنا في دراسة التأثير على أهم السمات البارزة والمظاهر الكبرى في الصناعة المعجمية خاصة منها ما تعلق بالترتيب الخارجي للمعجم «البارع» لأننا نعلم أن القالي صاحب حافظة قل نظيرها عند من ينتسبون إلى العلم، فمنطقي أن يكون قد حصل مادة لغوية ضخمة متنوعة شكلاً ومضموناً ولو نسب كل قول يحفظه إلى قائله لطغت مادة أسماء الأعلام على المادة اللغوية المقصود معالجتها. لكنه يختار ما شاء منها، ويعدل عن كثير منها.

وإن من الشخصيات العلمية التي تأثر بها القالي في المشرق محمد بن المستنير المعروف بقطرب (206 هـ)، فهو لم يحضر له، وإنما سمع بخبره ووصله شيء من علمه، خاصة كتابه المشهور في اللغة مثلث الكلام، فقد طارت شهرة هذا الكتاب في الآفاق شرقاً وغرباً، وأهل الغرب من أندلس وغيرها هم من احتفوا أكثر بهذا النوع من التأليف.

ومما لا شك فيه أن مثلث الكلام لقطرب قد وصل إلى الأندلس عن طريق أبي علي القالي البغدادي، وهذا ما يشبهه المحدث ابن خير الإشبيلي في فهرسته حيث ذكره من جملة ما وصل الأندلس من الكتب والتأليف إذ يقول: كتاب المثلث تأليف أبي علي محمد بن المستنير النحوي المعروف بقطرب مولى سلم بن زيادة، رحمه الله.

ثم ذكر سلسلة الإسناد كاملة حتى وصل إلى أبي علي القالي فقال ...

قالوا: كلهم حدثنا أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي عن أبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري وأبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي، قال أبو بكر بن الأنباري حدثني أبي — رحمه الله — عن محمد بن حكم، عن قطرب، وقال ابن درستويه: حدثني أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، عن علي بن قطرب عن أبيه قطرب مؤلفه.¹

والقالي — رحمه الله — قد نقل عن قطرب في كتابه «البارع»، ومن أمثلة ذلك: وقال قطرب: البُهْرَةُ بضم الباء والزاي النخلة التي تتناولها بيدك وجمعها بهازر.²

قال أبو علي: قال قطرب: الهَوْدَةُ القطاة وجمعها هُوْدُ بضم الهاء وسكون الواو على مثال عود.³

¹ فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 443.

² البارع، القالي، ص 218.

³ المرجع نفسه، ص 157.

فأبو علي القالي لا شك أنه استفاد من طريقة الرجل في ضبط اللفظ قبل المعالجة، فقطرب كان قد أنشأ مثلث الكلام لإدراكه أن تغير الصوت في ضبط الكلمة يصحبه تغير في المعنى، أعني الحركة لا الحرف، وعلى هذا قامت سوق الجناس الناقص في البديع، وإذا عرفت هذا، فلا غرابة أن تكون آليات ضبط الألفاظ بالشكل والنص مستوحاة من مثلث قطرب.

2- الكتب

الكتب والتأليف لا تقل أهمية عن العلماء في بيان التأثير ومظاهره عند أبي علي القالي البغدادي في معجمه «البارع»، فالقالي لما كان في المشرق ببغداد يطلب العلم، كان قد اطلع على كتب كثيرة منها ما ألفها شيوخه كالجهمرة لابن دريد، وفعلت وأفعلت لأبي حاتم، والمقصود والممدود لابن الأنباري، وغيرهم، ومنها ما ألفها غيرهم مثل: الكتاب لسيبويه، والعين للخليل، والغريب المصنف لأبي عبيد وغيرها كتب كثيرة.

والقالي ذو حرص شديد على طلب العلم، وتحصيل آلاته ومنها الكتب، وما ذلك إلا إدراكاً منه بقيمة الكتاب في ذلك الزمن، فلم تُشغله دنيا، ولا أي شيء آخر عن تحصيل العلوم من الشيوخ أو من آثارهم المدونة أو المحفوظة والتي تروى ويأخذها المتأخر عن المتقدم كما هي السنن في طلب العلم والتحمل وأداء اللغة.

وهنا نذكر بعض الكتب بأنواعها المستنسخة أو المروية والتي تأثر بها أبو علي القالي البغدادي أثناء وضعه وبناءه معجم «البارع»، ونوردها على النحو التالي:

أ- كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد¹ (224 هـ):

لقد أسلفنا الذكر حول قراءة القالي لكتاب الغريب المصنف لأبي عبيد على شيوخه أبي بكر ابن الأنباري في سامراء، وقد دامت القراءة أربعة أعوام وأربعة أشهر وسبعة عشر يوماً.² فهذه مدة كافية للغوي مثل القالي كي يأخذ شيئاً من علم الرجل ومادته اللغوية في الغريب المصنف، ومع التباين في الشكل والهدف بين معجم البارع ومعجم الغريب المصنف إلا أن المتأخر في حاجة ماسة للغة المتقدم، ذلك أن أبا عبيد قد رتب مواد اللغوية على حسب الموضوعات والمعاني، والقالي قد رتب حسب المخارج الصوتية، لكن ذلك الاختلاف لم يكن عائقاً في استفادة القالي من أبي عبيد.

¹ هو القاسم بن سلام الأزدي مولاها، أبو عبيد، الإمام في الفنون، أخذ عن الكساني، وعن شجاع بن نصر وعن أبي زيد الأنصاري. وأبي عبيدة والأصمعي، والبيهقي وابن الأعرابي وغيرهم. وسئل عنه الإمام يحيى بن معين، فتبسم وقال: أعني أبي عبيد أسأل؟ أبو عبيد يُسأل عن الناس. جاور بمكة إلى أن توفي سنة أربع وعشرين ومائتين. ومن تصانيفه: الغريب المصنف، وغريب الحديث، وكتاب الأموال، وكتاب الأمثال، وغير ذلك. وانظر: البلغة، الفيروز آبادي، ص 233 - 234.

² انظر: فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 405 - 406.

وما النقولات الكثيرة في معجم «البار» عن أبي عبيد إلا دليل على وقوع التأثير الشديد في بعض الأحيان، ونسوق مثالا من كتاب «البار»:

ذكر المصنف هذه الترجمة: ومن باب الغين والراء أيضا ثم ساق الكلام الخاص به، وانتهى إلى أن قال: ومن الباب أيضا

«... وقال أبو عبيد: المغرل بفتح الباء المفتول المنتفخ وأنشد قول الراجز:

أَحْيَا أَبَاهُ هَاشِمُ بْنُ حَرْمَلَةَ
تَرَى الْمُلُوكَ حَوْلَهُ مَعْرَبَلَةً

يَقْتُلُ ذَا الذَّنْبِ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ

ومن مقلوبه:

أبو عبيد، عن أبي عمرو: البراغيل البلاد التي بين الريف والبر مثل: الأنبار والقادسية ونحوها واحدها برغيل، وهي المزالف واحدها مزلف. وهي المزارع».¹

فهنا أبو عبيد الذي نقل عنه القالي القول ومقولاته في البار على مراتب:

— أن تكون مقولاته خاصة به.

— أن تكون لغيره، فينقلها عنهم مثل: أبي عمرو الشيباني، وأبي عبيدة ...

هذا، ويقول محقق البار — هاشم الطعان — في صفة النقل في البار عن أبي عبيد في الغريب المصنف: إن النصوص المنقولة عن أبي عبيد كثير منها يتطابق مع ما ورد في «الغريب المصنف»². وهذا الأمر إن دل على شيء فإنه يدل على حافظة أبي علي القالي الفريدة، وشدة عناية الرجل بالأمانة العلمية، والدقة والضبط في النقولات وعزوها إلى أصحابها.

إن أبا علي القالي البغدادي أنموذج للشخصية الجريئة والمبتكرة، ففي عصره لا تزال سلع الخليل رائجة في سوق اللغة، وحتما يكون من المغامرة والمجازفة أن تنافس ولست بالعدل. فهو لما اتبع الخليل في الترتيب الخارجي احتفظ لنفسه بشيء يثبت شخصيته العلمية والنقدية، ذلك أنه لما راع الأبنية في بناء معجمه كما رأى أن يدخل عليها بعض الجدة، فأحدث فيها ما لم يكن معهوداً من قبل، أتى بباب الحواشي والأوشاب في مكان أحد الأبنية، الأمر الذي أثار جدلاً كبيراً، وأسأل حبراً كثيراً في أوساط الدارسين والباحثين في المجال المعجمي.

ولما أتاحت لنا الفرصة أدلينا بدلونا في القضية أيضاً، فبالنظر إلى روافد أبي علي القالي العلمية والمعرفية، يحق لنا أن نوضح القضية التي طالما اكتنفها الغموض.

¹ البار، القالي، ص 463 — 464.

² المرجع نفسه، ص 68، مقدمة المحقق.

فأبو علي القالي قد درس وقرأ على شيخه ابن الأنباري الغريب المصنف — كما أسلفنا — فهو قد استمد بعض مادته اللغوية البانية للحواشي والأوشاب من ذاك الكتاب. انطلاقاً من ترجمته أو عنوانه: فأبو علي يطلق عليه: الأوشاب،¹ وتارة الحواشي،² وتارة أخرى يجمع بينهما يقول: الحواشي والأوشاب. وأبو عبيد صاحب الغريب المصنف كان قد تعرض لهذا الأمر في غريبه. حيث يقول³: في «باب الفرق المختلفة من الناس ومن يطرأ عليك» الأصمعي: يقال بها أوزاع من الناس، وأوباش من الناس، وأوشاب من الناس، وهم الضروب المتفرقون...

والأشائب: الأخلاط، والواحدة: أشابة. وهم الطائفة من الناس. قال النابغة:

وثقتُ لَهُ بالنصرِ إذْ قِيلَ قَدْ غَزَتْ
قبائلُ من عَسَّانَ غيرَ أَشَائِبِ

فهذا كلام الأول في معاني الأوشاب وهو مراد التالي القالي في الترجمة المتقدمة.⁴

ثم إن أبا عبيد — رحمه الله — أورد في «الغريب المصنف» باباً سماه (باب الأصوات واختلافها)، فمن العنونة أو الترجمة نجد هذا المعنى يناسب تماماً ما يرمي إليه القالي في الحواشي والأوشاب. إن محقق كتاب «الغريب المصنف» لأبي عبيد — رمضان عبد التواب — قد أثار قضية هامة أثناء تقديمه للكتاب، ألا وهي الغريب المصنف في الخالفين من اللغويين أصحاب المعاجم بنوعيتها الموضوعات والألفاظ، وكان من جملة ما تعرض له: البار في أبي علي القالي (356 هـ).

يقول: «والقالي، وإن كان قد استخدم «الغريب المصنف» في بارعه، فإنه لم يكثر فيه من الأخذ عنه، كما أكثر من الأخذ عن الخليل، وأبي زيد مثلاً. وهو يذكر مع أبي عبيد أحياناً اسم الراوي المذكور في «الغريب المصنف»، وأحياناً يكتفي بذكر أبي عبيد أو راويه، كما توجد مادة «الغريب المصنف» أحياناً في البار تحت كلمة: «وقال غيره».⁵

وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك⁶: «ورمز للغريب المصنف بـ غ م اختصاراً»

غ م 350: «الأموي: ليلة غاضية: شديدة الظلمة، ونار غاضية: عظيمة».

البار 387: «قال أبو عبيد: وقال الأموي: ليلة غاضية: شديدة الظلمة، ونار غاضية: عظيمة».

¹ البار، القالي، ص 446 – 523.

² المرجع نفسه، ص 17.

³ الغريب المصنف، أبو عبيد، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، يور سعيد، الظاهر، جمهورية مصر العربية، ط1، 1989، 368/1 – 369.

⁴ المرجع نفسه، فهرس الموضوعات.

⁵ نفسه، ص 188. مقدمة التحقيق.

⁶ نفسه، ص 188 – 189.

غ م 70: «الأحمر: زَهْنَعْتُ المرأة، وزَنَّتْهَا، إذا زينتها. وأنشد:

بني تميم زَهْنَعُوا فَتَاتِكُمْ
إِنَّ فَتَاةَ الْحَيِّ بِالْتَزَّتِ».

البارع 185: «قال أبو علي: قال الأحمر: زَهْنَعْتُ المرأة، وزَنَّتْهَا — بالتاء — إذا زينتها. قال الشاعر:

بني تميم زَهْنَعُوا فَتَاتِكُمْ
إِنَّ فَتَاةَ الْحَيِّ بِالْتَزَّتِ».

غ م 246: «الأموي: الْوَلْعَةُ: الدلو الصغيرة. وأنشدنا:

شُرُّ الدَّلَاءِ الْوَلْعَةُ الْمَلَا زِمَةً

والبَكَرَاتُ شُرُّهُنَّ الصَّائِمَةِ.

يعني التي لا تدور».

البارع 402 — 403: «وقال غيره (غير اللحياني): الْوَلْعَةُ: الدلو الصغيرة بفتح الواو وسكون اللام

وأنشد:

شُرُّ الدَّلَاءِ الْوَلْعَةُ الْمَلَا زِمَةً

والبَكَرَاتُ شُرُّهُنَّ الصَّائِمَةِ

يعني التي لا تدور».

هذا ما بينه رمضان عبد التواب — محقق الغريب المصنف — من تأثير أبي عبيد على أبي علي القالي البغدادي في البارع، والرجل قد مثل تمثيلاً بيانياً¹ انتهى فيه إلى الغاية، حيث وضع فيه الخصب الذي ألقاه الغريب المصنف على المعاجم العربية موضوعات وألفاظا بصفة عامة.

حيث قال: «وإنما سميناه أوشاباً لأننا جمعنا فيه الحكايات والزجر والأصوات والمنقوصات ...»².

يعني كل ما يتعلق بالصوت وأنواعه كثيرة: أصوات خاصة بالإنسان، الحيوان غير المعقولات، الماء، الرياح... ثم إن هذه الألفاظ المختلفة الدلالة على الأصوات تتشابه كثيرا مع أنواع المعتل، وفيها ما يعثره النقص في الشكل (الصفة) أو العدد، لذلك هو لما عقد الباب مكان البناء أخلط فيه هذه الأنواع المذكورة. أما عن باب الحواشي والأوشاب فأغلب الدارسين يرون أنهما شيء واحد، فيقولون مثلاً: باب الحواشي أو الأوشاب. صحيح أنهما متعلقان، يضمهما حقل دلالي واحد. لكن ما يظهر أن هناك بعض التمايز الذي يمكن أن يلاحظ، وعليه نبين أمرهما تفصيلاً فيما يلي:

الأول: الحواشي، وهو الباب الذي يقابل اللفيف عند الخليل، وقد ضمنه القالي الثنائي الخفيف المكون من حرفين أحدهما معتل،³ والثنائي غير المضعف مما فيه حرف العلة نحو:

¹ انظر: المرجع السابق، ص 213.

² البارع، القالي، ص 446.

³ ينظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 27-28.

«إيه»، و«واه». والثلاثي المعتل مما جاء على حرفين أحدهما معتل، أو ثلاثة منها حرفان معتلان» ومثال الضرب الثاني¹ هي، بي ...

الثاني: الأوشاب، يقول فيه أبو علي القالي: «وإنما سميناه أوشاباً لأننا جمعنا فيه الحكايات والزجر والأصوات والمنقوصات، وما اعتل عينه ولامه أو فاؤه ولامه، أو فاؤه وعينه، أو كان فاؤه ولامه أو فاؤه وعينه أو لامه وعينه بلفظ واحد»².

ومن أمثلة أسماء الأصوات: «تَغِ تَغِ» (حكاية لصوت الضحك)، و«قَقْ قَقْ» (حكاية لصوت الضحك)، و«طَقْ» (حكاية لصوت حجر على حجر)، ومن الأوشاب أيضاً أسماء نحو: الوغى (اختلاط الأصوات في الحرب)، و«الْقَطْقُطَة» (صوت القطاة) .

وكم هو مؤسف أن يصلنا إلا القليل من باب مادة «الأوشاب» الذي تفرد به أبو علي القالي البغدادي في معجمه البار في اللغة، وعليه يعسر تحقق نظرة شاملة إلى استحداثات الرجل في بناء المعجم العربي اللفظي.

وعوداً على كلام أبي عبيد في الغريب المصنف، حيث يقول:

وقال أبو عمرو: الهائعة، والواعية جميعاً: الصوت الشديد. والوعى، والوغى، والوحا والحرّا كلها: الصوت.³

وقد ذكر القالي في البار في باب الغين والواو والألف في معتل الأوشاب مثلاً صوت، الوغى، ونقل عن الأئمة السابقين ومنه قوله: أبو حاتم: الوغى اختلاط الأصوات في الحرب بغين معجمة.⁴ ثم نقل القالي في «الغين والنون والميم في الثلاثي الصحيح».

وقال الكسائي: نغم أنغم وأنغم بكسر الغين وفتحها نغماً. وهو الكلام الخفي.⁵

وأما أبو عبيد فقد ذكر ذلك في باب «أصوات كلام الناس وحركتهم وغير ذلك».

حيث قال:

وقال أبو زيد والكسائي: نَعَمْتُ أَنْعِمُ أَوْ نَعَمُ نَعْمًا، بالكسر والفتح، وهو الكلام الخفي. وسمعتُ منه

نغيةً، وهي الكلام الحسن.⁶

¹ التراث المعجمي العربي، (من القرن الثاني حتى القرن عشر للهجرة)، رمزي منير بعلبكي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2019، ص 193.

² البار، القالي، ص 446.

³ الغريب المصنف، أبو عبيد، ص 305.

⁴ البار، القالي، ص 447.

⁵ المرجع نفسه، ص 339 – 340.

⁶ الغريب المصنف، ص 311.

وهذا قليل من كثير، فالقالي أفاد من أقوال وكتابات هؤلاء الأئمة اللغويين المتقدمين، فهو في باب الحواشي والأوشاب، أخذ الحقل الدلالي الدال على الصوت من معاجم الموضوعات أو المعاني «الغريب المصنف» وغيره، ثم تصرف فيه بمقتضى ما يناسب بناء معجمه المغاير لترتيب وتبويب مثل هذه المعاجم. وعليه نستطيع القول إن القالي أفاد من جهود أبي عبيد، وتأثر به، لكنه عمل على التطوير في عرض حقل الأصوات بطريقة أخرى لمتطلبات أخرى وعصر آخر في الأندلس.

لم يؤثر الاختلاف الشكلي للمعجمين «البارع» و«الغريب المصنف» في وجود نقاط توافق بينهما، وهذا الرجل لا يهمل دوره في الصناعة المعجمية عموماً، ولئن كان الخليل الأول وكتابه «العين» باكورة المعاجم اللفظية فإن أبا عبيد الثاني وكتابه الغريب المصنف باكورة معاجم الموضوعات والمعاني.

وغالباً ما تكون الشخصيات التي تمتاز بصفات الإبداع في العلوم المختلفة محطّ اتباع وتقليد من قبل المتأخرين عنهم، وأنهم يحسنون بهم الظن للسوابق العلمية التي أثرت عنهم، والقالي مع الإمام أبي عبيد لم يجد عن هذه الطريقة: ولقد أفاد منه الشيء الكثير في اللغة عموماً والمعاجم خصوصاً، ولا معبر عن ذلك مثل: «البارع».

ب- كتاب الألفاظ ليعقوب بن السكيت¹:

لقد اطلع أبو علي القالي على كتاب الألفاظ لابن السكيت، وكان قد قرأه على أكثر من شيخ أيام الطلب ببغداد.

وجاء عند ابن خير الإشبيلي ما يدعم هذا، إذ يقول: «قال أبو علي: وقرأته على أبي عمر المطرز، وأخبرني به عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب»². والروايات التي تثبت علمه بهذا الكتاب رواية ودراسة كثيرة عند ابن خير، وقد تأثر به أبو علي القالي كثيراً، ونقل عنه في معجمه «البارع» ما يثبت ذلك. ويعلق محقق البارع -هاشم الطعان- على إكثار أبي علي القالي من النقل عن ابن السكيت حيث قال:

¹ وهو يعقوب بن إسحاق، أبو يوسف، المعروف بابن السكيت، والسكيت لقب أبيه إسحاق. إمام اللغة والنحو والأدب، ومن أهل الدين والخير، لقي فصحاء الأعراب وأخذ عنهم.

قال المرزباني: لاحظ له في علم السنن والدين، كان مودباً لولد المتوكل على الله المعتز بالله. ومن مصنفاته إصلاح المنطق، الألفاظ، الزبرج، المقصور والممدود، البحث، المذكر والمؤنث، الأجناس، الفرق، فعل وأفعّل، السرج واللجام، الأضداد...

وقال أحمد بن يحيى النحوي: أجمع أصحابنا أنه لم يكن بعد ابن الأعرابي أحد أعلم باللغة من ابن السكيت، وكان سبب موته أن المتوكل قال له: من أعز عندك؟ ولداي أم الحسن والحسين؟، فقال: قنبر خير منهما، فأمر الأتراك، فداوسوا بطنه إلى أن مات سنة ثلاثة وأربعين ومائتين. وانظر: البلغة، الفيروز آبادي، ص 318 - 319. وإنباء الرواة، القفطي، 59/4 - 62.

² فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 408.

فنحن نجده قد نقل مئات المرات عنه: وذكر أبي زيد الأنصاري، والأصمعي في كتبهما المختلفة، ثم ذكر ابن السكيت ثالثاً في هذا الترتيب فقال: يعقوب بن السكيت نقل كثيراً عن كتابه الألفاظ، وصرح بعنوانه مرتين كما يطابق ما نقله عنه ما ورد في نسخة باريس...¹

ونورد مثلاً عن نقولات القالي عن ابن السكيت في الألفاظ فيما يلي:
«الغين والراء والميم في الثلاثي الصحيح».

قال يعقوب: «الغمرات ثم ينجلين»، وزعموا أن غلاماً من الأعراب نظر إلى قومه... فأرادهم فجاء سيل فحال بينه وبينهم. ألقى بنفسه في الماء فهو يغط مرة ويرتفع أخرى ويقول: الغمرات ثم ينجلين. وهو مثل معروف للعرب، حتى تخلص ووصل إلى حاجته، ويقال: فلان... غمرات... أي لا يُكع، ولا يهوله شديد.²

وإن المتأمل في معجم «البارع» يرى بأن القالي قد نقل عن ابن السكيت من كتبه العديدة مثل: إصلاح المنطق، المذكر والمؤنث وغيرهما، لكن نحن ما يعيننا هو «الألفاظ»، وقد بينا ما نقله عنه، ولا ينبئك مثل بارع في بارع.

والنقل عن ابن السكيت من الألفاظ في البارع على مراتب:

المرتبة الأولى: أن ينقل أبو علي القالي مباشرة دون واسطة بينه وبين ابن السكيت، مثل: النموذج المتقدم ذكره.

المرتبة الثانية: أن ينقل القالي عن ابن السكيت، وابن السكيت بدوره ينقل عن غيره من الأئمة المتقدمين مثل: أبي عمرو في قوله:

(الغين والراء مع سائر الحروف في الرباعي)

يعقوب، قال أبو عمرو: ويقال اطرغم إذا تكبر. والاطرغمام التكبر وأنشد:

أَوْدَحَ لَمَّا رَأَى الْمَجْدَ حَكَمَ وَكُنْتُ لَا أَنْصِفُهُ إِلَّا اطرغم

الإيداع: الإقرار.³

المرتبة الثالثة: أن ينقل القالي عن ابن السكيت، لكن عن طريق شخص بينهما، مثال: هذا ذكره القالي بعد كلام يعقوب الأخير في: اطرغم.

¹ البارع، القالي، ص 67، المحقق.

² المرجع نفسه، ص 321.

³ نفسه، 462.

قال أبو علي: ومن مقلوبه:

يعقوب: العُرْطُمَايَّ بضم الغين والطاء الفتى الحسن وأنشد:

كُنْتُ أُرِيدُ الْعَرْبَ الصُّمًّا
النَّاشِئُ الْمُؤَثَّقُ الْمُتَلًّا

العُرْطُمَايَّ الْوَأْيَ الطَوَّلًا

قال أبو الحسن: وأصله في الخيل.¹

فأبو الحسن هذا هو الواسطة بين القالي وابن السكيت.

ج- كتاب النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري²:

لقد ألف أبو زيد كتاب النوادر في اللغة، والتأليف في النوادر قد عرف في التراث اللغوي العربي منذ أواسط القرن الثاني الهجري، فقد كانت البداية مع المقرئ أبي عمر بن العلاء (154 هـ) ثم تلاه يونس بن حبيب الضبي، ثم توالى الكتب حتى ألف أبو زيد الأنصاري (215 هـ)،³ وإلى غاية القرن الرابع الهجري حين ضعف التأليف فيها. وقد كان ظهورها مقترنا بحركة التدوين وجمع اللغة، وبالنشاط غير المسبوق في هذا المجال عرفت الرسائل الإفرادية اللبنة الأولى لمعاجم الموضوعات أو المعاني، وحين ازداد نشاط معاجم الألفاظ في أوائل القرن الرابع الهجري تراجعت النوادر.

فأبو علي القالي كان قد تأثر مثل غيره بهذه الشخصية العلمية البارزة لأبي زيد الأنصاري، فما من لغوي إلا تظهر في نتاجه بصمات هذه الشخصية المحورية.

ومحقق كتاب البارع -هاشم الطعان- يجعل أبا زيد الأنصاري أكثر شخصية نقل عنها أبو علي القالي في معجمه «البارع»، وهذا قوله:

فنحن نجد قد نقل مئات المرات عن أبي زيد الأنصاري، يقول: وبعض ما نقله وجدته في نوادر أبي زيد، وصفة اللبن واللّبأ له. كما أنه نص على النقل من كتابيه اللغات والغرائز المفقودين، يقول: وبقيت نقول كثيرة صحت لدي بالمقارنة بالمصادر التي نقلت عن أبي زيد، وبقيت نقول أخرى لم أجد لها تخریجاً.⁴

¹ المرجع السابق، ص 462.

² وأجمع الرواة على أن أبا زيد سعيد بن أوس بن ثابت. قال مروان بن عبد الملك: سمعت أبا داود يقول: أبو زيد الأنصاري كان يرى القدر. قال: سمعت أبا حاتم يقول: كان أبو زيد يتسع في اللغات، وكان يعيب على يونس اتساعه في اللغات، قال أبو حاتم: وكل ما اتسع في اللغات فهو شر. قال أبو علي: وكان أنحى من أبي عبيدة والأصمعي، وأغزر في اللغات منهما، وله كتب كثيرة، ونوادر في اللغة مشهورة.

وألف «النوادر». وروى القراءات عن أبي عمرو بن العلاء. مات سنة خمس عشرة ومائتين وعمره أربعة وتسعون عاماً. وانظر: طبقات الزبيدي، ص 165، والبلغة، الفيروز آبادي، ص 143.

³ النوادر، أبو مسحل الأعرابي، عبد الوهاب بن جريش، تح: عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق - سوريا، (دط)، 1380 هـ - 1961 م، 26/1 - 28.

⁴ البارع، القالي، ص 67، محقق.

فهنا نعرف قيمة أبي زيد الأنصاري العلمية في المجال اللغوي، فالنقول عند أبي علي عنه كثيرة جداً ومختلفة على صيغ عدة. وبعضها لم يصل إليه جهد المحققين أهل هذا التخصص، وهذا يبين أمراً مهماً هو أن في أوساط العلماء الذين أخذ عنهم القالي من يحفظ المرويات اللغوية التي تنتهي إلى أبي زيد الأنصاري، ولكنها غير مدونة في الكتب، فالرجل علمه اللغوي غزير منه ما هو مدون، ومنه ما هو مُتروى وغير مدون، وهذا الأمر لا يعيبه شيئاً إذا صحت الرواية، ونقل الثقات الحفظة.

أما عن صيغ النقل عند القالي في «البار» عن كتاب «النوادر» لأبي زيد الأنصاري فهي كثيرة نذكر منها:

— أن ينقل القالي عن أبي زيد دون واسطة. ومثاله:

«الغين والنون والظاء في الثلاثي الصحيح».

أبو زيد: تقول: غنظني الرجلُ يُغنظني غَنَظاً بفتح النون في الماضي وكسرهما في المستقبل وسكونها في المصدر، أعسرك وشق عليك ولم ينظرك ولزمك.¹

— أن ينقل القالي عن أبي زيد وهو بدوره ينسب إلى الكلابين ومثاله: قال أبو زيد قال الكلابيون: ومن الرجال المبلغ بكسر الميم وسكون اللام، وهو الأحق الذي لا يبالي ما قال ولا ما قيل له.²

والدارس في كتاب النوادر لأبي زيد الأنصاري يرى مادة لغوية، يعجز عنها الوصف، فالمصادر اللغوية القديمة تنهل مما أودع الرجل في كتابه، وثبت أخبار ما يروى عنه، ورأينا ما فعل القالي في معجم البار، وهذا في الحقيقة قليل من كثير.

إن معجم «البار» في اللغة هو المعجم اللفظي الأول الذي سنّ صاحبه الاتباع في هذا المجال، فسلك به نهج الخليل في ترتيب موادّه اللغوية، لكن ما يثير الانتباه في شخصية أبي علي القالي هو أن دراسته الشرقية طبعته بخصائص حتى صار بها اللغوي الأديب، فموضوع بارعه اللغة، لكن الرجل بين الحين والآخر تغلبه الصنعة الأدبية، أو أنه أراد أن يُطعم المؤلّف، ويُضفي عليه مسحة جمالية، كان قد اكتسبها مشرقياً في أمالي شيخه ابن دريد، وغيره من شيوخ عصره، فقد كانت بغداد وقتذاك تعجّ بمن هذا دأبهم، ويُحسنون الأمر ويتقنونه.

ولا غرابة أن يسير القالي على الدرب في هذا الشأن، فقد كان له نصيب منه لما تصدر للتدريس في قرطبة، ومزج حينئذ اللغة بالأدب شفوياً فيما عُرف بالأمالي، وهي قديمة الصنعة في المشرق، أما أهل الأندلس، لما حضروا لدروس الرجل أُعْجِبُوا به وبها إلى حدّ الافتتان.

¹ المرجع السابق، ص 334.

² المرجع نفسه، ص 278.

وقد ضمن القالي معجمه البارع بعض الأخبار والأدبيات التي ينقلها عن بعض علماء المشرق.

«باب الهاء والراء والياء والواو في الثلاثي المعتل».

قال أبو علي، قال أبو عبيدة: جاءت الخيل رهوا أي ساكنة. ويقال: اره على نفسك أي ارفق بها. والرهو الكثيرة الحركة، ضد.¹

وقال ابن الأعرابي وغيره: نَزَلَ المخبل السعدي وهو في بعض أسفاره على ابنة الزبرقان ابن بدر وقد كان يُهاجي أباه، فعرفته ولم يعرفها، فأتته بغسول فغسل رأسه، وأحسن قراه وزودته عند الرحلة. فقال لها: مَنْ أنتِ؟ فقالت: وَمَا تريدُ إلى اسمي؟ قال: أريدُ أن أمدحك، فما رأيتُ امرأة من العرب أكرم منك. قالت: اسمي رهو. قال: تالله ما رأيتُ امرأة شريفة سميت بهذا الاسم غيرك. قالت: أنت سميتني به. قال: وكيف ذلك؟ قالت: أنا خليدة بنت الزبرقان. وقد كان هجاها في شعره فسمّاها رهوا وذلك بقوله:

فأنكحتم رهو كأن عجانها مشق إهاب أوسع السلخ ناجله

فجعل في نفسه ألا يهجوها، ولا يهجو أباه أبدأً، وأنشأ يقول:

لَقَدْ زَلَّ رَأْيِي فِي خَلِيدَةَ زَلَّةً
وَأَشْهَدُ الْمُسْتَعْفِرَ اللَّهَ، أَنِّي
سَأَعْتِبُ قَوْمِي بَعْدَهَا فَأَتُوبُ
كَذَبْتُ عَلَيْهَا، وَالْهَجَاءُ كَذُوبُ

إن أبا علي القالي البغدادي يضيق بحث على حصر مواضع تأثره بمن سبقه في المجال العلمي اللغوي، ذلك أن الرجل روافده العلمية والمعرفية أكثر من أن يحصيها محص أو أن يقف وراءها واقف، فالعلماء الذين التقى بهم ودرس عليهم قليل العلم وكثيرة ربما لم توثق المصادر من ذلك إلا القليل، والمرويات التي يحفظها الرجل وينقلها بالأسانيد المتصلة سَلَّ عنها ابن خير، وكذا الكتب التي حملها من بغداد صوب الأندلس شيء نادراً ما يقع.

ومن كانت هذه حاله مع العلماء وآثارهم المختلفة، فلا عجب أن يُطبع كتابه البارع بكثرة النقول، وربما كانت له غاية أخرى من ذلك، لأن كثرة الطرق للمروي قد يوجد فيها ما يعضد بعضه بعضاً فيقوى فيؤخذ به ولا يرد، والرجل قد طلب الحديث في أيامه الأول، وكان له حظ منه وبالتالي أن يكون فعله هذا قصداً احتمال وارد.

ومهما يكن من أمر فإن الرجل قد ألف في الأندلس هذا الكتاب «البارع» في معاجم الألفاظ على نهج الخليل وكتاب العين، مطعماً إياه بثروة لغوية هائلة يتميز صاحبها بالنظرة الشمولية الطاردة للعصبية، وما حواه الكتاب «البارع» يدل على ذلك دلالة واضحة، ويعطي مظهراً على الانفتاحية حيث حكم فيه الروح العلمية، فهو يبحث عن ضالته اللغوية بروح تذوب فيها كل أشكال التمايز والنفور، فجاءت مادته

¹ البارع، القالي، ص 115. نقلاً عن التهذيب واللسان (رها)، عن ابن الأعرابي.

اللغوية مزيج لغة بصرية نحوية بغدادية أندلسية ... عربية، وبهذا الصنيع في «البارع» وغيره فإن أبا علي القالي البغدادي كان يُبنى بافتتاح عصر جديد في الدرس اللغوي العربي خلف أعباء الماضي ورائه، ودفن كل ما من شأنه يكون عائقاً يحول بين دارس اللغة وحصول مأموله. وهذا الفكر الذي أتى به كان له صدى حقيقي في الأندلس وغيرها من بلاد العرب عبر المراحل الزمانية المتعاقبة، وقد كان نقطة تحول أبطلت جرائه نظريات، وأطلق العنان لنظرات منعكسة عن تغييرات كبيرة في المجتمع العربي بصفة عامة. إن التصدر للتأليف في معاجم الألفاظ في القرن الرابع الهجري ليس بالأمر السهل، لكن الله - سبحانه وتعالى - هياً الأسباب المختلفة لذلك، وقدر أن تكون باكورة معاجم الألفاظ الأندلسية على يد أبي علي القالي البغدادي وهو حقيق بها.

إن أبا علي القالي البغدادي يكشف عن شخصية ذات أوصاف عديدة، فهو لم يتعصب لشيخ أو لعالم دون آخر، إذا أنت قرأت في كتاب «البارع» أو «الأمالي» أو غيره من مؤلفاته، فإنك تتصور أنك تسمع لعدة أشخاص لا لشخص واحد، وهذا ما يدل على ذوبان ذاتيته في الدرس اللغوي العربي الذي بنته أياد عديدة، وهو مع ذلك له شخصيته العلمية النقدية التي يبرزها في الأماكن المناسبة، فيبدي آراءه مؤسساً لها، ولا يتعالى بها على أحكام من سبق وهو محق.

ثانياً - البارع وقضية التأثير:

إن أبا علي القالي البغدادي قد اجتهد في تحصيل اللغة وفنونها، ولما رأى من نفسه القدرة على التدريس تصدر للأمر بقرطبة بعد تهيئة من ذوي السلطة الناصر والمنتصر، ثم إن هذه الجهود العلمية الكبيرة كانت بحاجة إلى أن تحفظ حتى ينتفع بها الجيل بعد الجيل، وهي تعكس ثقافة رجل وفد من المشرق ليس له نية إلا العلم، فكان له حظه مما نوى مسبقاً، أما حفظ علومه في التواليف فقد بدأ عنده متأخراً، لكنه أجاد وأبدع فيما كتب، حتى إن طلابه - وهم كثر - ولَّعوا بالرجل وطريقته في التعليم، وافتتنوا بما صنف وألف.

وإذا كانت حال القالي هذه فلا غرابة إذاً أن يتأثر به من تأثر، ممن سمع منه ولدروسه حضر، أو لم يلحق به لكنه سمع بالخبر، فهذا رجل بارع ألف بارعاً وغيره مما سطر، ومن كان هذا شأنه فقد أحسن الأثر. وهنا نعرض بعض ما ألف في الأندلس، واتضح فيه تأثير بارع القالي ابتداءً من منتصف القرن الرابع الهجري:

1- جوامع كتاب البارع:

فكتاب «جوامع كتاب البارع» منسوب إلى محمد بن الحسين الفهري -تلميذ القالي المقرب منه، فهو وراثة ومستملية- والفهري هذا له علاقة بالبارع ومؤلفه، فهو من تولى مع الجياني تهذيب ما لم يهذب من نسخ البارع للقالي بأمر من المستنصر، فله سابقة علم بهذا المؤلف، ويكون له رد جميل شيخه في هذا الأمر.

وقد نسب الكتاب إلى الفهري بعض أهل التراجم، ومنهم المراكشي في الذيل حيث صرح بأنه وقف عليه، ونقل منه في ترجمته لمؤلفه.¹ وهذا نص عبارته:

«ذكر ذلك محمد بن الحسين الفهري المذكور في كتابه الذي سماه جوامع كتاب البارع وقفت على ذلك الكتاب المذكور بخط كاتبه للحكم...»².

ويقول مؤكداً الخبر مرة أخرى: «وقد قرأت بخط أبي علي الغساني على ظهر كتابي من «الإصلاح» بخط الغساني أيضاً ما نصه: «ذكر أبو عبد الله محمد بن الحسين الفهري وراق أبي علي البغدادي في مقدمة كتاب البارع من تأليفه: قال لنا أبو علي إسماعيل بن القاسم غير مرة: قال لنا أبو بكر بن دريد، وابن الأنباري...»³.

ويرى عبد العلي الودغيري أنه إذا صح كل ما قاله المراكشي، فسيكون معناه أن الفهري وضع أولاً كتاباً خاصاً به سماه «جوامع كتاب البارع»، ولا يعرف فحواه، سوى أن يكون تكملة أو حواشي على كتاب القالي، ثم وضع للبارع ثانياً -بعد أن نقحه وهذبه مع زميله الجياني- مقدمة نقل منها الغساني ما رواه القالي عن شيخه: ابن دريد، وابن الأنباري. ولم يصل إلينا على كل حال شيء من هذا أو ذاك.

هذا إن لم تكن العبارة الواردة في نص المراكشي وهي قوله: «في مقدمة البارع من تأليفه» مصحفة وأن أصلها هو: مقدمة جوامع البارع من تأليفه فلا يكون للفهري بناءً عليه إلا عمل واحد.⁴

ومهما يكن من أمر فإن الفهري وراق أبي علي البغدادي - له عناية كبيرة بأعمال شيخه سواء من ناحية ما أوجبه عليه تعليم شيخه له، أو من ناحية الحكم المستنصر، لأنه أمره بتهذيب وتنقيح نسخ «البارع» وإخراجه، وقد تم له ذلك بمعية الجياني.

¹ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 46.

² الذيل والتكملة، 175/6، نقلا عن: المعجم العربي بالأندلس، ص 46.

³ المرجع نفسه، 192/4.

⁴ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 46 - 47.

والفهرري له سابقة في أعمال من هذا القبيل حيث كان أحد الأربعة في اللجنة التي ترأسها شيخه القالي، والتي كلفت بالتحقيق في نسخ كتاب العين المتوفرة في مكتبة الخليفة الناصر وابنه المستنصر، وقد تم الأمر.

بعد مناقشة كبيرة مع القاضي البلوطي، والذي كانت له نسخة من العين يزعم أنها قوبلت على نسخة ابن ولاد بمصر، حيث رفضت اللجنة نسخة القاضي، على خلفية الأخطاء المتنوعة والكثيرة فيها، ورأوا أنه من ظلم الرجل أن ينسب له هذا العمل، وهو منه بريء براءة الذئب من دم يوسف عليه الصلاة والسلام، ذلك الأمر الذي لم يعجب القاضي، لكن اللجنة في الأخير انتصرت وأيدتها الخليفة وقبل بقرارها.

2- المستدرك في اللغة¹:

هذا الكتاب يعرف بتسمية أخرى هي «المستدرك من الزيادة في كتاب البار على كتاب العين» للزبيدي (379هـ) - من أشهر تلاميذ القالي وأغزرهم تأليفاً - ولعلها أكثر رواجاً في التوثيق العلمي، وفيها مزية إيضاح المقصود من الملفوظ، فهذا المؤلف يحسب على دراسة الكتابين «العين» و«البار» وإن كان للأول أقرب، لكن القالي يعتبر نائباً عن الخليل في الأندلس في الترويج للمنهج والمادة أيضاً.

ولا نستطيع المجازفة فنركب موجة من رأى بأن البار ما هو إلا العين، بعد أن وقفنا على حقائق تثبت أن كتاب البار ثابت لأبي علي القالي مسير في المنهج للعين، مختلف عنه في المادة وطريقة العرض، بل استدرك عليه، وفاقه كمّا، واختلف عليه كيفاً إلى حد الاستقلالية عند أهل الفن.

ويثبت خبر هذا الكتاب المحدث ابن خير الإشبيلي في الفهرسة حيث يقرر وقد عنون له بالآتي: كتاب المستدرك من الزيادة في كتاب البار لأبي علي البغدادي على كتاب العين للخليل بن أحمد. تأليف أبي بكر الزبيدي.

ثم ذكر إسناده المتصل بمؤلفه إذ قال: حدثني به الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد النفري، رحمه الله، عن خاله الأديب أبي محمد غانم بن وليد المخزومي، عن أبي بكر عبادة بن ماء السماء، عن أبي بكر الزبيدي مؤلفه، رحمه الله.²

يقول عبد العلي الودغيري: «المستدرك في اللغة» أمر بجمعه وتأليفه الحكم المستنصر - أمير المؤمنين - (...). عبده محمد بن حسن الزبيدي - رحمه الله - فاستخرجه من كتاب أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي الموسوم بالبار. وضمّن هذا الكتاب الزيادة التي في كتابه مما لم يقع في كتاب العين خاصة.

¹ هذه تسميته المختصرة، والكاملة «المستدرك من الزيادة في كتاب البار على كتاب العين»، منه مخطوطة ناقصة بمكتبة جامع القرويين بفاس في 203 صفحة برقم: 64. وانظر: معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، دار العرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط2، 1993 م، ص 209.

² فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير، ص 431.

ووعده الزبيدي في صدر هذا الكتاب أن يحسن الاختصار، فلم يف بما وعد، بل كرر وطول حتى صار هذا الكتاب أكبر من كتاب الخليل، فدعت الضرورة إلى إعادة اختصاره ثانية وتجريد ألفاظه الزائدة (...). الكتاب. وليوقف على ما أغفله الخليل بغاية الإيجاز وليخف نسخه وحمله على الباحث عنه إن شاء الله.¹

فالزبيدي في استدراكه نقل ما أثبتته أبو علي القالي استعمالاً، وكان الخليل قد أهمله ونقل الود غيري قول الزبيدي في ذلك إذ قال: إنه التزم الزيادة التي استدركها إسماعيل من مستعمل كلام العرب على كتاب العين.² ونقل على ذلك مثلاً يبين خطأ الإهمال قال: «قال محمد أهمل هذا الخليل وذكره إسماعيل، فقال: فكع مثل عنك».³

ومهما يكن من أمر فإن الزبيدي له عناية كبيرة بمؤلف الخليل أو القالي⁴ معاجم المدرسة الواحدة، وقد كتبها بتكليف المستنصر وبغير تكليف بحكم التلمذ على القالي، والشخصية العلمية التي تخدم جهود المبدع والمتبع سواء.

3- استدراك على كتاب البارع لابن سراج:⁵

هذا الرجل توج نشاطه اللغوي بمؤلفات عديدة كان على رأسها «استدراك على كتاب البارع»، وقد نقل أهل الأخبار والتراجم خبره وعمله اللغوي، فهذا ابن بسام يقول: «وأحيا كثيراً من الدواوين الشهيرة الخطيرة التي أحالها الرواة الذين لم تكتمل لهم الأداة، ولا استجمعت لديهم تلك المعارف والآلات، واستدرك فيها أشياء من سقط واضعها، ووهم مؤلفها، ككتاب البارع لأبي علي القالي البغدادي».⁶ وعليه يقول الودغيري: فإذا لم يكن ما صنعه ابن سراج كتاباً مستقلاً - فالنص لا يحدد ذلك - فهو على الأقل كان في شكل حاشية من الحواشي، وتعليقاً من التعليقات التي قد تظل مكتوبة على طرد الأصل وهوامشه.⁷

¹ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 52.

² المستدرك، ص 35، نقلاً عن: المعجم العربي بالأندلس، ص 53.

³ المرجع نفسه، ص 14، المعجم العربي بالأندلس، ص 53.

⁴ يقول رمزي منبر بعلبكي عن المستدرك في اللغة: رتب الزبيدي على ترتيب الخليل منبهاً فيه على أخطاء الخليل وأبي علي، ومنها إهمال بعض ما استعملته العرب، وأخطاء في الترتيب والتنظيم، والتصحيح. انظر: التراث المعجمي العربي رمزي منبر بعلبكي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، (دط)، إلكتروني، 2019، ص 198.

⁵ هو عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج أبو مروان النحوي إمام أهل قرطبة، قال في الرحانة: «برع في علم اللسان، وارتقى ذروته، واعتلى درجته، عكف على كتاب سيبويه ثمانية عشر عاماً، لا يعرف سواه، ثم درس الجمهرة فاستظهرها، واستدرك الأوهام على المؤلفين، وطال عمره مع البحث والتنقيب، وكان يقول طريحين في كل يوم سبعين ورقة. مات يوم عرفة سنة تسع وثمانين وأربعمائة». وانظر: بغية الوعاة، السيوطي، 110/1.

⁶ المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 47. نقلاً عن: الذخيرة، 307/2.

⁷ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

لقد برزت مظاهر تأثير البار في اللغة لأبي علي القالي البغدادي فيما أعقبه من كتب اللغة في الأندلس خاصة منها ما صُنّف في فن المعاجم، ذلك أن الرجل -صاحب البار- ذو شخصية علمية مؤثرة، وقد مرت معنا بعض النماذج الدالة على ذلك ابتداءً من التلاميذ، ومنهم أبو بكر الزبيدي في المستدرک وغيره، فكتاب البار للقالي تأثيره في لغة تلك البلاد (الأندلس) كان واسعاً، قد شمل أعيان المنطقة من أهل اللغة ثم تعدّاهم إلى غيرهم، لكن هذا التأثير قد يكون واضح المعالم عند بعض اللغويين، وفي المصنفات، وقد يكون خفياً يستنبطه ويتفطن له الحذقة، وربما كان بينَ بيّن.

وأبو علي القالي البغدادي يشق طريقه في التعليم والتأليف في الأندلس، ناقلاً ثقافة شرق من علوم ومعارف، لاحت ظلّاتها على هذه البلاد منذ بداية القرن الرابع الهجري، وقبل مجيء القالي، لكن ما إن جاء الرجل حتى فعّل ظاهرة التأديب التي كانت سائدة قبله، ثم إنه وسع من عملية التعليم، حيث استقر بقرطبة مدرساً، ووفد عليه الطلاب وغيرهم من العامة، وقد كثروا عليه، فهم يرون فيه القدوة.

هذا الأمر هو الذي دفع الحركة العلمية اللغوية والأدبية في الأندلس إلى نشاط في مختلف المستويات غير مسبوق، كما أن القالي كان ذا خلق وسمت ملك به قلوب فئات هذا المجتمع الجديد المختلط، وسمته وخلقه كان السبب الأكبر في قبول دعوته، فحظي باحترام وتقدير العلماء والأمراء ثم من بعدهم عامة الناس، وهذه العلاقة التي بناها الرجل، وهياً لها المولى -سبحانه وتعالى- أسباباً حتما ستعطي ثمارها يوماً من الدهر آتٍ.

فلا غرابة إذا فيمن كانت حاله هذه، وعلاقته بمستمعيه من الطلاب وغيرهم موطدة، ومبنية على أسس علمية بالدرجة الأولى أن يكون له هذا الصدى بين أبناء الأندلس، وتظل بصماته باقية يتناقلها الجيل بعد الجيل، فيرثون الرجل في علمه وأدبه وخلقه، ثم تظهر المظاهر الكبرى لجهود هذا الرجل في ثنايا كتبهم المختلفة، وتوالي فهم المتعددة حتى إنه ليمتزج الغرب بالشرق ثقافياً وفكرياً لعقود وعقود من الزمن.

4- المُحكّم والمحيط الأعظم لابن سيده¹ (458 هـ) :

هذا المعجم الكبير الذي ألفه ابن سيده -رحمه الله- لم يكن صاحبه متأثراً فيه بالقالي تأثراً مباشراً مثل ما أوضحنا الأمر مع المؤلفات السابقة، لكن ذلك لا يعني انبثات الصلة بين الرجلين ومؤلفيهما

¹ قال السيوطي: هو علي بن أحمد بن سيده اللغوي النحوي الأندلسي أبو الحسن الضرير وقيل: اسم أبيه محمد، وقيل: إسماعيل. كان حافظاً لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها، متوفراً على علوم الحكمة، روى عن أبيه وصاعد ابن الحسن البغدادي. قال أبو عمر الطلمنكي: دخلت مرسية فتشبت بي أهلها ليسمعوا عليّ «غريب المصنف»، فقلت لهم: انظروا من يقرأ لكم، فأثروا برجل أعمى يُعرف بابن سيده، فقرأه علي من أوله إلى آخره من حفظه، فعجبت منه. صنف المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، شرح إصلاح المنطق، شرح الحماسة، شرح كتاب الأخفش، وغير ذلك. مات سنة ثمان وخمسين وأربع مائة عن نحو ستين سنة» وانظر: بغية الوعاة، السيوطي، 143/2. وقال الفيروز آبادي: «... كان ناظماً ناثراً قليل النظر...» وانظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، الفيروز آبادي، ص 203.

"البارع" و"المحكم"، لأن الظرف اللغوي الذي مر على الأندلس والمغرب آنذاك ظهرت آثاره مع لغويين كثر، ومؤلفات عديدة، هي أكثر من أن يعدها عاد أو أن يقف وراءها واقف.

والأثر الذي نتحدث عنه بقي مستمراً لسنين طويلة حتى أصبح الأمر ثقافة لغوية راسخة، ومنهجاً في التأليف اللغوي يجري مجرى الأعراف الاجتماعية، ومن ثمة نجد مبرراً لعمل ابن سيده (458 هـ) المعجمي والمتمثل في كتابه "المحكم والمحيط الأعظم" والذي بدا فيه التأثير واضحاً بالبارع والعين والمدرسة الصوتية عموماً في المعاجم العربية اللفظية.

لقد سلك ابن سيده منهج القالي في بارعه والخليل في عينه من قبل، وبني معجم ألفاظ ضخمة يعكس مدى تأثير الرجل بمن سبقه في هذا المجال لاسيما أصحاب مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليب، فالرجل من أعيان القرن الخامس الهجري يعدّ متأخراً بزمان معتبر عن الرجل الأول والرائد في المدرسة وهو الخليل بن أحمد (175هـ)، وكذا عن الرجل الأول للمدرسة في الأندلس وهو القالي أبو علي (356 هـ)، ولقد أفاد ابن سيده من صنييعهما وأكثر من ذلك ثم أخرج عمله المعجمي ذاك في كتاب موسوم بالمحكم والمحيط الأعظم.

ويقول حسين نصار في هذا الكتاب: «ورام ابن سيده جمع ما تشنت من اللغة في المعاجم والكتب اللغوية الكبيرة والصغيرة في معجم واحد يغني عنها، والتدقيق في تفسيرها، وتصحيح ما فيها من آراء نحوية وصرفية سقيمة».¹

هذا، وإن أخفق كثير من أصحاب هذه المدرسة -وعلى رأسهم المبدع الخليل بن أحمد- في ضبط حروف العلة والتمييز بينها إلا أن ابن سيده يُعتبر الوحيد الذي أحكم هذا الأمر من المعجميين أصحاب المدرسة الواحدة، إذ يقول حسين نصار في ذلك: «وخلط الخليل والقالي والصاحب حروف العلة بعضها ببعض وأضافوا إليها الهمزة ولم يميزوا بينها.. ووصل التمييز إلى كماله في المحكم الذي اتبع النهج الذي ابتكره أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي (المتوفى في 379 هـ / 989 م) في مختصره لكتاب العين من قبل ...»². ولقد تأثر ابن سيده بأبي علي القالي، فأفاد الأخير من الأول رغم أن ابن سيده لم يُشر إلى ذلك، فهو لم يصرح بأن كتاب البارع للقالي ضمن مصادره التي استقى منها مادة معجمه، فقد أخذ عنه أكثر ما فيه من الصيغ والمعاني، ولكنه حذف من مقتبساته الشواهد والصيغ والمعاني المتكررة، ونسبة الأقوال إلى أصحابها، والمتراذفات.³

¹ المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، ص 32. المقدمة.

² المرجع نفسه، ص 33. المقدمة.

³ انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الود غيري، ص 56. نقلا عن المعجم العربي، حسين نصار، 386/1.

وجملة القول: إن "المحكم والمحيط الأعظم" لابن سيده كان قد خُتِمت به معاجم مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليب في حدود القرن الخامس الهجري، وقد أبعد به صاحبه زمانا كما أبعد به مكانا في الأندلس.

ويذكر حسين نصار ما اعتمد عليه ابن سيده في بناء محكمه فقال: «واعتمد في مواده على الخليل وابن دريد والقالي وبعض أصحاب الرسائل الأخرى...»¹

«وإذن فما قدمه ابن سيده لحركة المعاجم هو محاولة تنظيم داخل المواد، وتهذيب ترتيب الخليل باتباع مختصر كتابه للزبيدي، واعتماده على بارع القالي الذي فُقد ولم يره كثير من المشاركة، واعتماده على علمي الصرف والنحو في كثير من أحكامه»².

إن الإقرار بتأثر ابن سيده في عمله المعجمي بمختصر العين للزبيدي هو عين الإقرار بتأثره ببارع القالي، ذلك أن الزبيدي تلميذ القالي، وقد عمل على تهذيب العين، وأفاد من البارع كثيرا في ذلك.

¹ المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، 391/1.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الرابع

معالجة المادة المعجمية في "البارع في اللغة"

المبحث الأول: المادة المعجمية في البارع ترتيبا ودلالة

المبحث الثاني: الاستشهاد وأنواعه في البارع

المبحث الثالث: نقد وتقييم للبارع

لقد صدق من قال إن المعاجم العربية تحتل مكان المركز في الصناعة المعجمية، ولم تبلع أمة من الأمم مبلغها في ذلك من حيث التنوع والتفنن، حتى إنه ليكاد أن يكون كل معجم من معاجمها مدرسة لوحده، وهذا فيه إشارة إلى التمكن والإتقان في هذه الصناعة من جهة، ومن جهة أخرى فيه إيماء إلى تطور النظرية المعجمية من معجمي لآخر، وإن كانوا أصحاب مدرسة واحدة، فالتمايز موجود، وقد يقل بينهم ويكثر، فهو يعكس النضج الفكري والفني في هذا المجال.

ومن المعلوم أن الترتيب الخارجي هو المظهر العام الذي يطبع معاجم المدرسة الواحدة، ويمثل الأساس الأول الذي عليه معتمد المعجم، والأول فيه مبدع ومبتكر، ومن أتى بعده، وانتهج منهجه إنما هو مقلد متبع، ولا يخرج أبو علي القالي البغدادي في معجمه البارع عن حكم هذا الذي وصفنا مع سابقه الخليل وصنعتة في معجم العين.

لا شك أن القالي أعجب بعمل الخليل المعجمي، وارتضى لمعجمه ترتيبه الخارجي الذي حكم فيه مخارج الحروف، لكن التالي لم يعد فكرة في الأمر، حيث عمل على إحداث بعض التغيير فيه، ومن يتبع معجم البارع للقالي يوصله ذلك إلى حقيقة هي أنه من الذين يحاولون التجديد، ولا يؤمنون بالاتباع الجامد، بل إنهم يرفضون ذلك، ويدعون إلى إعمال الفكر في مثل هذه القضايا العلمية، وأمر الإبداع متاح.

هذه السمة التي أتى بها أبو علي القالي البغدادي إلى الأندلس، جعلته يصنع معجماً أندلسياً أولاً، ويقدم على أعمال علمية لغوية وأدبية لمهي صعبة عن عدم مقدرة، وعاجز فكر، فبارعه الذي برع فيه تأليفاً يعبر عما يتمتع به الرجل من علم، وفكر سديد، فهو وإن اتبع في الترتيب الخارجي إلا أنه شق طريقه الخاص به في الترتيب الداخلي للبارع، وضمنه تجديداً ظل يعبر عن نزعة فكرية جديدة، لأهل الأندلس وغيرهم في أحوج ما يكونون لها، وبقي البارع مظهرها العام.

المبحث الأول: المادة المعجمية في البارع ترتيباً ودلالة:

أولاً: الترتيب الداخلي في البارع:

وإذا كان الترتيب الخارجي يوصف بالأكبر فإن هذا هو الترتيب الأصغر. "the microstructure". يقول أحمد مختار عمر: الترتيب الداخلي للمداخل، وهو عادة ما يسمى بالترتيب الأصغر، ويعني به ترتيب المعلومات في المداخل.¹

وقال حيدر عدنان نحو من ذلك في الآتي: «يسمى بالأصغر، فيتم باتباع ترتيب خاص للمعلومات في المدخل الواحد».²

وهذا الترتيب الداخلي لسنا مجازفين إن قلنا إن المعاجم العربية القديمة قد أهملته، أو إن أردت التخفيف بالحكم فقل إنه لم يلق حظه من العناية مثل كثير من القضايا المعجمية التي أجادوا فيها.

وهذا أحمد فارس الشدياق يتحدث عن الترتيب الداخلي للمعجمات العربية واصفاً الخلل العام في ذلك. حيث يقول: «إن من أعظم الخلل، وأشهر الزلل، في كتب اللغة جميعاً قديمها وحديثها³ ومطولها ومختصرها ومتونها وشروحها وتعليقاتها وحواشيها خلط الأفعال الثلاثية بالأفعال الرباعية والخماسية والسداسية وخلط مشتقاتها، وربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي أو رأيت أحد معاني الفعل في أول المادة، وباقي معانيه في آخرها».⁴

ولما رأى الرجل الأمر على هذا النحو وهاله قال: «ولهذا أنصح مطالعي كتب اللغة أن لا يقتصروا على فهم اللفظ في موضع واحد، بل لابد لهم أن يطالعوا المادة من أولها إلى آخرها».⁵

ثم يعقب بذكر النتائج السلبية جراء هذا القصور المعجمي قائلاً: «لا جرم أن هذا التخليط والتشويش في ذكر الألفاظ ليذهب بصير المطالع، ويجرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائراً بائراً».⁶

والأصل أن تكون هناك منهجية معينة يتقيد بها المعجمي في بناء معجمه، والتركيز على الترتيب الداخلي، خاصة وقد علمنا ما يترتب على سوء وضعه من نتائج قد تذهب الغاية من تأليف المعجم.

¹ صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، ص 91.

² المتن اللغوي في المعجم العربي، دراسة في كيفية المعالجة، حيدر عدنان، مجلة اللغة العربية، ع: 6، 2008، جامعة الكوفة - العراق.

www. Alukah. net

³ حديثها يقصد بها زمانه هو، وقد مات في: 1887/9/20 م، وإلا فقد أقر بعض اللغويين بجدية المحاولة المعجمية في المعجم العربي الأساسي، وقد

ألف بعده. وانظر: صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، ص 91.

⁴ الجاسوس على القاموس، أحمد فارس الشدياق، دار صادر، بيروت - لبنان، (دط)، 1299 هـ، ص 10.

⁵ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ نفسه، نفسها.

ويقول حيدر عدنان معرباً عن تقصير المعجميين العرب الأول في العناية بالترتيب الداخلي: «أما الترتيب الداخلي فهو أقل حظاً وانتشاراً عند القدماء خصوصاً «العين» للخليل، والقالي في «البارع»، وابن دريد في الجمهرة إذ يلاحظ عندهم خلط الأسماء بالأفعال، والمجرد بالمزيد، ولعل عذرهم في ذلك أن اللغة العربية لغة اشتقاقية وهذا ما دفعهم إلى جعل أصل المادة اللغوية أساساً عن الكلمات التي تشتق من ذلك الأصل».¹

ومما سبق يتبين أن التنافس بين المعجميين العرب القدامى كان منصبا على الترتيب الخارجي، الأمر الذي يدل على أن النظرة المعجمية لازالت وقتذاك تحتاج إلى دعائم ترتقي بها إلى نظرية معجمية. وإن المتتبع والدارس للمعاجم العربية القديمة يقف على مظاهر الخلل والاضطراب في الترتيب الداخلي، ونحاول هنا ذكر بعضها:

— الاضطراب في وضع المداخل وطبيعتها.

— الخلط في عرض المواد بين الأفعال والأسماء.

— الخلط في عرض المشتقات، وغيرها.

وهذا مثال — أعني قليلاً من كثير — على الخلل الحاصل في الترتيب الداخلي للمعاجم العربية القديمة، ولم يسلم منها معجم إلا ما ورد استثناءً عن محكم ابن سيده، ثم من بعده القاموس المحيط للفيروز آبادي نسبياً.

وهذا أمر لا ينقضي منه عجب، ذلك أن هذه الأمة التي اعتنت بلغتها وحفظها، وجاهدت وكابدت الصعاب من أجلها، تقول معاجمها إلى هذه الحالة من الترتيب الداخلي، فأين جهود الصرفيين والنحويين واللغويين عموماً؟! وإذا لم تستثمر هنا، فأين؟! والمؤسف أن الاضطراب والخلل موجودان بين أصحاب المدرسة الواحدة، بل عند المعجمي الواحد في الكتاب الواحد.

1- المدخل:

ويقصد به الوحدات اللغوية التي ستوضع تحتها بقية الوحدات المعجمية الأخرى مرتبة ترتيباً معيناً، وهو ما يدخل به المعجمي في شرح مادة لغوية.

وترتيب المادة المعجمية تحت المدخل الذي يمثل الكلمة الرئيسية المستهل بها يختلف من معجم إلى آخر، كما أن المداخل لها علاقة بالترتيب الخارجي للمعجم، فمثلاً معجم البارع لأبي علي القالي البغدادي، قد رتبته خارجياً حسب مخارج الحروف فهو يحكمه في وضع مداخل المواد فحسب. ومعلوم أن معاجم

¹ المتن اللغوي في المعجم العربي، دراسة في كيفية المعالجة، حيدر عدنان، مجلة اللغة العربية، ع: 6، 2008. www.alukah.net

النظام الصوتي والتقاليب بعد أن تكمل معالجة مادة ما تلجأ إلى معالجة المقلوبات الأخرى الخاصة بها والتي تشترك معها في الحروف، ولم يجد القالي عن هذا الأمر في معجمه «البارع».

إن القالي قد عرف باتباع ترتيب صوتي للحروف خاص به، كان قد ألف فيه قبل «البارع» كتاباً سماه المقصور والممدود¹، لكن هذا الأخير لم يكن بشهرة البارع، ولا محسوباً على معاجم الألفاظ العامة الجنسة، لكن لا يخفى على أحد أن معجم «البارع» لم يصلنا منه إلا القليل. وفي هذا القليل الموجود والمطبوع بتحقيق هاشم الطعان استهل بما يلي:

الفصل الثالث كتاب البارع

[الهاء والعين والياء والواو والألف في الثلاثي المعتل]²

قال الخليل: الهاء سوى الحرص. هاء يهاع هيعة وهاعاً...³

إذا، وفقاً لترتيبه الصوتي جاءت حروف هذه المادة المعجمية (هعي) أما المدخل فهو يتمثل في الكلمة الأولى التي استهل بها بعد النقل عن الخليل وهي (هاع) .

فكان هذا استهلال أبي علي القالي في معالجة أول مادة معجمية فيما وجد من معجم البارع، ولاحظنا بدءه بالاسم، وانظر كيف وردت معرفة بـ ال. لكن السؤال المطروح هنا: هل يستمر القالي على البداية في المداخل بالاسم أم لا؟.

مما لا شك فيه أن أبا علي القالي البغدادي ألف كتاب «البارع» في اللغة، وهو محسوب على المعاجم اللفظية القديمة، وهذه المعاجم لا تسير وفق منهجية معينة في انتظام ورتابة مداخلها، فبعض المعجميين منهم مع كونه بصرياً أو كوفياً⁴ وقد يكون متعصباً، لكنه في معالجة مواده المعجمية لا تجده يحافظ على طبيعة مداخلته، فربما استهل المعالجة بالاسم مدخلاً، لكنه سرعان ما يضطرب في طريقته فيدخل بالفعل أو العكس، ولما كانت الحال السائدة هذه، فما كان القالي ليحدث فيها شيئاً مخالفاً في «البارع»، بل إنه ساير المعجمات السابقة في ذلك، واعتراه ما اعتراها من خلل واضطراب في الترتيب الداخلي عموماً، وفي المحافظة على طبيعة المداخل خصوصاً، فظهرت بشكل متنوع لا يوحى بأن الرجل كان يقصده، وإنما يكتب كيفما اتفق له الأمر.

وهنا نعرض نماذج تبين هذا التنوع في المداخل الذي أحدثه القالي في البارع، ونورده على النحو التالي:

¹ المقصور والممدود، القالي، ص 11، مقدمة المصنف.

² هذه العنونة والرموز للحروف وضعها المحقق. طبقاً لمنهج المعجم. وانظر: البارع، القالي، ص 81.

³ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ معلوم أن البصريين يحكمون المصدر أصلاً للمشتقات، والكوفيين يحكمون الفعل، لكن في العمل المعجمي وفي طبيعة المداخل هذا يخلط، والآخر يضطرب في عمله، أما القالي فقد يكون له مسوغ، ذلك أنه بصري كوفي بغدادي ...

أ- مدخل الاسم: ومنه المعرفة نحو: الهُوْذَةُ، وقد نقل عن قطرب قوله: الهُوْذَةُ القطاة، وجمعها هُوْذ بضم الهاء وسكون الواو على مثال عوذ.¹

ومنه النكرة نحو: صَهْوَةٌ، ونقل عن الأصمعي: صَهْوَةٌ كل شيء أعلاه بفتح الصاد وسكون الهاء، وهو من الفرس موضع اللبد.²

ب- مدخل المصدر: نحو: رَهَوًّا، ونقل عن أبي عبيدة قوله: جاءت الخيل رهوًّا أي ساكنة...³

- مصدر المرة نحو: تغبة، وقد نقل عن أبي زيد قوله: يُقال ما في الرجل تَغْبَةٌ بفتح التاء وسكون الغين على مثال تمرة. وهو العيب الذي ترد منه شهادته. ويقال تغب الرجل يتغب بكسر الغين في الماضي وفتحها في المستقبل إذا صار فيه العيب.⁴

- مصدر لا فعل له نحو: تطواد، ونقل عن يعقوب قوله: التطواد بفتح التاء التطواف.⁵

- اسم المصدر نحو: بيتوتة، وقد قال أبو علي: البيوتة دخول الليل. وليس من النوم في شيء. ويقال ماله بيت ليلة وبيتة ليلة يعني القوت.⁶

- اسم التفضيل نحو: أهوك. وقد نقل عن أبي زيد الذي ينقل عن الكلايين قولهم: ومن الرجال الأهوك على مثال أحق. وهو الذي فيه حمق وفيه بقية...⁷

ومنه اسم الفاعل نحو: المتغطرس، حيث نقل عن أبي عمرو وقوله: المتغطرس: الظالم⁸. وأنشد لأبي مسور الفقعسي:

سَرَيْنَا وَفِينَا صَارِمٌ مُتَغَطَّرِسٌ سَرَنْدَى خَشُوفٌ فِي الدُّجَى مُؤَلَّفُ الْفَقْرِ

ومنه اسم المفعول نحو: المغلهج، ونقل عن ابن الأعرابي قوله: المغلهج الذي ليس خالص النسب.⁹

¹ البارع، القالي، ص 157.

² المصدر نفسه، ص 145.

³ نفسه، ص 115.

⁴ نفسه، ص 356.

⁵ نفسه، ص 673.

⁶ نفسه، ص 704. وهذا اسم مصدر أو مصدر عند بعضهم، وزنه فيعلولة عند البصريين، ومثله ساد سيدودة، وكان كينونة، وحاد حيدودة، وطار طيرورة وغيرها. وقال سيبويه: ألا ترى أنك تقول جمل منقاد وأقود، فأصلهما فيعلولة. وليس في غير المعتل (الأجوف)، فيعلول مصدرًا. وانظر: الكتاب، سيبويه، 4/ 365.

⁷ البارع، القالي، ص 87.

⁸ المصدر نفسه، ص 463.

⁹ نفسه، ص 185.

ومنه صيغة المبالغة مثل: غذية، وقد نقل عن يعقوب قوله: يقال حلوا في غذية وعبابة، هذا من نعيمها ورقتها واعتمامها.¹

ومنه مصدر صناعي نحو: شغزية، وقد نقل عن الخليل قوله: الشغزية اعتقال المصارع رجله برجل آخر وإلقاؤه إياه شزراً... وتقول: تشغزت الريح إذا التوت في هبوبها.²
وهذه جملة من الأسماء الأخرى التي تختلف في بناها الصرفية، ومعانيها، كان قد دخل بها القالي في معالجة مواده المعجمية في البارع ومنها:

- العَلَم: ومنه العربي، الدال على الموضع نحو: غطفان، حيث نقل عن الخليل قوله: عطفان حي من قيس عيلان...³

ومنه الدال على الأشخاص نحو: الزبرقان، وقد نقل عن الخليل قوله: الزَّبْرَقَان على مثال فعللان بكسر الراء والزاي وسكون الباء اسم رجل.⁴

ومنه الأعجمي، الدال على المخلوقات مثل: جَهَنَّم، ونقل عن أبي حاتم قوله: جَهَنَّم مؤنثة كقولهم سقر، ولظى، والجحيم...⁵

- المعرب نحو: الصَّوْلُجَان، وقد نقل عن الأصمعي قوله: صَوْلَجَان بفتح اللام والصاد، وأصله فارسي معرب، ولا تكسر اللام ويقال: صَوْلَجَانَة وصوجانة.⁶

- صيغ الجمع: ومنها منتهى الجمع نحو الثفاريق، حيث نقل عن أبي حاتم الذي نقل بدوره عن الطائفي قوله: الثفاريق العناقيد الخالية من الحب، والثفاريق أيضا أقماع حب العنب.
ثم عزز بنقل قول يعقوب وفيه: يقال ما أعطاه ثفروقا. وما بقي من ذلك الشيء ثفروق. وأصل الثفروق قمع التمرة البسرة.⁷

- ومنه جمع الجمع نحو: سادات، قال أبو علي: والسادات على مثال العادات جماع السادة، والسيد الذي يسود بفعاله وبيته. وامرأة سيدة من نساء سيدات.⁸

¹ المصدر السابق، ص 371.

² المصدر نفسه، ص 455.

³ نفسه، ص 341.

⁴ نفسه، ص 553.

⁵ نفسه، ص 194.

⁶ نفسه، ص 636.

⁷ نفسه، ص 553.

⁸ نفسه، ص 697. وجمع الجمع هذا جاء على صيغة جمع المؤنث السالم في اصطلاح النحويين.

- جمع التكسير نحو: أغسان، وقد نقل عن أبي زيد الذي نقل بدوره عن الكلايين قولهم يقال بقيت في الشيخ أغسان من الشباب. والأغسان البقايا من كل شيء¹... ثم استشهد بقول عدي بن زيد العبادي:

وَقَدْ أَرَانِي عَلَى حَالٍ أُسْرُ بِهَا كَأَنَّمَا أَجْتَلِي فِي الصُّبْحِ دِينَارًا
بأحور العين مريبوب له غسن مُقَلَّدٌ مِنْ جَنَاحِ الدَّرِّ تَقْصَارًا

- الاسم المنسوب نحو: غُدَاقِي، وقد نقل عن اللحياني قوله: أَسْوَدُ غُدَاقِيٍّ بضم الغين. ثم عقب أبو علي بقوله: نسبه إلى الغداف لشدة سواده.²

- المثنى نحو: الأهيين، نقل أبو علي عن يعقوب قوله: يقال لمن أخصب وأثرى وقع في الأهيين بالعين المعجمة أي الطعام والشراب. ثم أردف بقول الخليل: الأهيع أرغد العيش وأخصبه.³ قال رؤبة:

عَنْكُمُ وَأَيْدِيكُمْ طَوْلُ الْمَبْلَغِ يَغْمِسْنَ مَنْ عَمَسْنَهُ فِي الْأَهْيَغِ

- الأفعال: لقد اختار أبو علي القالي لمداخله أنواعاً من الأفعال نبينها على النحو التالي:

• الفعل الثلاثي المجرد نحو: هاج، وقد نقل عن أبي زيد قوله: يقال عند غضب الرجل قد هاج هائج حين يشتد غضبه.⁴

• المزيد بحرف نحو: أَفْهَى، ونقل عن أبي زيد قوله: تقول أقهى الرجل إقهاء على مثال أفعال إذا قل طعمه فهو مقه، وقد أقهى عن الطعام إذا قدره، فتركه وهو يشتهي الطعام.⁵

ومنه ضاهى، وقد نقل عن أبي زيد قوله: يقال ضاهيت الرجل مضاهاة إذا عارضته معارضة.⁶

• المزيد بحرفين نحو: اغتلم، وقد نقل عن أبي زيد قوله: يقال اغتلم الرجل اغتلاماً على مثال افتعل افتعالاً، ولا يقال غلم، ويقال رجل مُغْتَلَمٌ وامرأة مغتلمة. وأعقب بقول أبي عبيدة الذي ينقله عن أبي حاتم: إذا اغتلم الفحل من الإبل قيل اغتلم اغتلاماً وغلمة وهو مغتلم⁷ وأنشد أبو عبيدة:

كَالْفَحْلِ هَبَّ أَيْمًا هُبَاب مُغْتَلِمًا قَدْ هَاجَ لِلضَّرَابِ

¹ المرجع السابق، ص 331 - 332.

² المرجع نفسه، ص 349.

³ نفسه، ص 83. وقول الخليل فيه بيان للكلمة أنها مثنى لا ملحق بالمثنى.

⁴ نفسه، ص 90.

⁵ نفسه، ص 83 - 84.

⁶ نفسه، ص 88.

⁷ نفسه، ص 276.

- المزيد بثلاثة أحرف نحو: اطرغم، حيث نقل عن يعقوب الذي نقل عن أبي عمرو وقوله: ويقال اطرغم إذا تكبر¹، والاطرغمام التكبر، وأنشد:

أودح لما أن رأى المُجدَّ حَكَمَ
وكنْتَ لا أنصفُه إلَّا اطرغمَ

الإيداح الإقرار.

- ثم إنه من العادة أن تستهل المعالجة بالفعل الماضي إذا اختار الفعل مدخلاً، لكن أبا علي دخل بمضارع، حيث نقل عن الأصمعي: ويقال للرجل إذا تكلم بالكلام كأنه يعضُّه مضغاً: ظل يُضغَضُ كَلاماً لا أدري ما هو².

- هذا، ومن ناحية أخرى في الأفعال نجد أبا علي القالي يجعل الفعل المبني للمجهول مدخلاً فيما يلي:
- الفعل غُمِي، حيث ينقل عن الأصمعي قوله: غُمِي على المريض إذا غلب على عقله، على مثال فَعَلَ بضم الفاء وكسر العين. ثم أعقب بنقل عن يعقوب: وقد أُغْمِي على المريض. ثم أبو زيد: إغماء فهو مَغْمِي عليه. وقد غُمِي عليه فهو مَغْمِي...³

- ومنه ما نقله عن أبي حاتم الذي ينقل عن الأصمعي قوله: تقول العرب زُهِى علينا فلا نُبضم الزاي وكسر الهاء. فهو يُزْهِى بضم الياء وفتح الهاء، وهو مَزْهُو بفتح الميم وسكون الزاي وضم الهاء وتشديد الواو. ولا يُقَال: زَهَا يَزْهُو ولا زَاه. وتقول أنت تُزْهِى بضم التاء كما تقول: أنت بُجْن وتُزْكَم⁴.
- وقد يجعل اسم الفعل مدخلاً نحو هات، حيث نقل عن أبي حاتم قوله: هاتوا شهودكم. ولغة أخرى هاؤم. والعامية يقولون هاتم شهودكم وهذه أفحش الخطأ. ويقال هاء اقرأ وللمرأة هاء اقرأي... وللمرأتين هائيا، وللرجال هاؤوا...⁵

- التراكيب: إن أبا علي القالي واصل التنوع في مداخله بين الأسماء والأفعال وأسماء الأفعال حتى انتهى إلى بعض التراكيب والأساليب، ومنها صيغة التعجب "ما أفعل" حيث نقل عن أبي زيد قوله: يقال: ما أغيظك لي، وأغيظك علي. وتقول غظته أغيظه غَيْظاً⁶.

وأنشد للأسود بن يعفر وهو جاهلي:

¹ المرجع السابق، ص 462.

² المرجع نفسه، ص 452.

³ نفسه، ص 441.

⁴ نفسه، ص 141. وهذا الفعل والذي قبله هما من ضروب الأفعال التي استعملتها العرب مبنية للمجهول لا للمعلوم.

⁵ نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ نفسه، ص 428، وهناك صيغة أخرى: ما أغيظك! العرب تقول ما أبغضك لي!، ولا يقال ما أبغضك لي، ولا ما أبغضني لك... نقله القالي عن أبي حاتم. وانظر: المصدر نفسه، ص 262.

قُلُوبًا وَأَكْبَادًا لَهُمْ وَرِئِينَا

فَعُظُنَاهُمْ حَتَّى أَتَى الْغَيْظُ مِنْهُمْ

قوله: رئين جمع رئة مهموز. وراث.

هذا ملمح عن تنوع «البارع» في مداخله المعجمية، وهو يدل على عفوية في الاستهلال، فمن الأسماء إلى الأفعال، ومنها إلى أسماء الأفعال وهكذا، وهو أمر طبيعي في ذلك الزمن والحال التي ألف فيها الكتاب، أما عن الزمن فإن من سبقه في المجال المعجمي لم تظهر عنده طريقة معينة في ذلك، وعمل بها برتابة وانتظام حتى تتبع، وأخص بالذكر هنا كتاب «العين» للخليل، وأما عن حال تأليف «البارع» فقد كان معجماً ضخماً، ولم يتسنّ لصاحبه تنقيحه ومراجعته، ولعلّ ما بين أيدينا من الكتاب يعطي صورة معبرة عن المعجم برمته، وهذا فيما يتعلق في ترتيب البارع داخليا على وجه الخصوص.

2- ترتيب المشتقات في البارع:

إن ترتيب المشتقات تحت المدخل والمادة الواحدة في الصناعة المعجمية، يقصد به ترتيب كل ما اشتق من تلك المادة، وذلك الجذر الرئيسي من الحروف، لا المشتقات التي هي في اصطلاح النحاة الضيق الذي يحصرها في عدد محدد، وإذا، فإن الأصل في المعاجم اللفظية أن تسير وفق طريقة ممنهجة في الترتيب الداخلي، يقول أحمد عبد الغفور عطار: «تتخذ المعاجم العربية منذ بداية تأليفها أصل الكلمة أساساً تورد تحته كافة أنواع المشتقات فمثلاً: أعرب، واستعرب، وعربي، وعروب، وعربة ترد تحت مادة (ع ر ب) ...¹ وإن هذه المعاجم اللفظية تختلف في ترتيب المشتقات فلكل طريقته الخاصة، ومنهجه الذي عادة ما يتقيد به.

لكن المعاجم العربية اللفظية — من باكورتها «العين» للخليل ابتداءً — بمختلف أنواعها ومناهجها خاصة منها القديمة، لا تتضح فيها الصورة التي تنبئ على التقيد بمنهج في ترتيب المشتقات تحت الجذر الرئيس للكلمات.

ونظرة عامة إلى ما ألف في هذا المجال توحى بصعوبة هذا الأمر، وأنه أرق المعجميين القدماء فلم يوفقوا في إيجاد حل للمعضلة، ذلك أن النتائج السلبية المترتبة عن العفوية في الترتيب تظهر بصورة واضحة في المعاجم الضخمة المطولة الشبه موسوعية، فمثلاً في اللسان أو التاج يعسر على الباحث أن ينقب على معنى مشتق يبحث عنه أن تلزمه بقراءة المادة اللغوية الخاصة بذلك الجذر كلها، ولأنه سيصاب بخيبة أمل تنبيه عن بلوغ غايته في ذلك الأمر.

¹ المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، محمد أحمد أبو الفرج، دار النهضة العربية، ط1، 1966، ص 40.

وعليه فإننا نستطيع القول بأن العمل المعجمي القديم يفتقد في قضية ترتيب مشتقات المادة الواحدة إلى نظرية لغوية معجمية مكتملة ينضبط بها هذا الأمر، وتقود المعاجم اللفظية إلى صورة واضحة من الترتيب، والأمر ممكن في هذا الزمان خاصة في ظل وجود المجامع والتنظيمات اللغوية الدولية، أن تلملم المناهج المختلفة تحت نظرية واحدة موحدة يسير عليها المعجمي من شرق ومن غرب. وإذا كانت الحال السائدة في وضع المشتقات هي العفوية في الترتيب فما هو حظ القالي منها في بارعه؟.

3- تحليل ومناقشة مادة في البارع:

أ- النموذج:

وهذا نموذج من معالجة مادة معجمية في «البارع» حتى نعلق ونناقش عمل القالي المعجمي فيها وتطبيقاته في ترتيب المشتقات. قال أبو علي¹:

الغين والزاي والميم في الثلاثي الصحيح

أبو زيد: يقال غمرت ظهر الناقة أغمره غَمَزاً بفتح الميم في الماضي وكسرهما في المستقبل وسكونها في المصدر. وذلك وضعك يدك على ظهرها لتتظر أبحاً نُقِي أم لا. وناقاة غَمُوز بفتح الغين على مثال فَعُول في نُوق غُمَز بضم الغين وسكون الميم على مثال فُعَل. ويُقال: أَغَمَزَ فَيْك فلان إغمازاً على مثال أَفْعَل إذا استضعفك، وقال رجل من بني سعد في ذلك:

وَمَنْ يُطْعِ النَّسَاءَ يُلَاقِ مِنْهَا إِذَا أَعْمَزَنَ فِيهِ الْأَقْوَرِينَ

وهي الشدائد لا واحد لها. تقول إذا وجدته ضعيفاً.

وقال يعقوب في كتاب الألفاظ: الأقورين الدواهي².

قال أبو زيد: ويقال. ما في فلان غَمِيزَة ولا غَمِيز بفتح الغين على مثال فَعِيلَة وفعل أي ليس فيه ما يُعْمَزُ فَيُعَابُ به، وقال حسان بن ثابت — رضي الله عنه³ —:

وَمَا وَجَدَ الْأَعْدَاءُ فِي غَمِيزَةٍ وَلَا طَافَ لِي مِنْهُمْ بِوَحْشِي صَائِدُ

وقال الراجز:

وَلَا تَرَكِبْنِي وَارْكَبِي الْحَزِيرَا لَمْ تَجِدِي فِي جَانِبِي غَمِيرَا

¹ البارع، القالي، ص 363 - 364. مادة (غ م ز) .

² الألفاظ، ص 431.

³ ديوانه، ص 27.

وقال يعقوب: يقال عَمَزَنِي بطني وملكني.¹

وقال أبو عبيد عن أبي زيد: أَعَمَزَ إذا هو استضعف. وقد مضى عن أبي زيد.

وقال الخليل: العَمَزُ الإشارة بالجفن والحاجب. والغمز العصر باليد. والغمازة الجارية الحسنة الغمز للأعضاء. والغمزة ضعفة في العمل. وجهلة في العقل. تقول سمعت منه كلمة فاعتمزتها في عقله.

والمغامز المغايب. وتقول ما في هذا الأمر مَعْمَزُ أي مَطْمَع قال الأخطل²:

أَكَلْتُ الدَّجَاجَ فَأَقْنَيْتُهَا فَهَلْ فِي الْحَنَائِصِ مِنْ مَعْمَزٍ

أي مطمع. والعَمَزُ في الدابة من قبل الرجل والفعل يَغْمَزُ.³

ب- التحليل والمناقشة:

وهذه إحدى الصور التي توضح إيراد مشتقات مادة (غ م ز) في «البارع» لأبي علي القالي البغدادي من بناء الثلاثي الصحيح:

لقد استهل القالي المعالجة بالفعل الماضي مدخلاً ليعقبه بالمضارع أو الآتي ويختم الثلاثية بالمصدر. حيث يقول: «عَمَزْتُ ظَهَرَ الناقةِ أَعْمَزُهُ عَمَزاً». قد سار اللغويون وفق هذه الثلاثية التصريفية «فَعَلَ يفعل فعلاً» كقانون ماض مضارع مصدر. ثم إنه نص على ضبطها شكلاً كما أوردتها.

وقد أتى بالمشتقات الآخر بعد ذلك ليأتي بـ عَمُوز في قوله: «وناقة عَمُوزٌ بفتح الغين على مثال فَعُول». وهي غموز على وزن فَعُول صيغة مبالغة قياسية، ثم أتى بـ عُمَز في قوله: «نُوقٌ عُمَزٌ بضم الغين وسكون الميم على مثال فُعَل».

وهذه الكلمة عُمَز على وزن فُعَل فهي تدل على جمع كثرة.

لقد عاد إلى الفعل الماضي لكن المزيد منه بحرف إذ قال: «أَعَمَزَ فَيْكَ فُلَانٌ إِغْمَازاً على مثال أَفْعَل...» وإذا فـ أَعَمَزَ على وزن أَفْعَل الذي قياس مصدره على وزن إِفْعَال يقول ابن مالك -رحمه الله- في الخلاصة:⁴

وَرَكَّهُ تَرْكِياً وَأَجْمَلاً إِجْمَالٌ مِّنْ تَجْمُلاً تَجْمُلاً

القيد في أَجْمَلِ إِجْمَالٍ. أَفْعَلُ إِفْعَالٍ.

¹ الألفاظ، ص 118.

² ديوانه، ص 388.

³ العين، 202 ب.

⁴ ألفية ابن مالك في النحو والتصريف، ابن مالك ص 125.

وليحتج لكلامه ساق شاهداً شعرياً جاء فيه الفعل أَعْمَزَ مسنداً لنون النسوة حيث قال الشاعر – وهو رجل من بني سعد-:

وَمَنْ يُطْعِ النَّسَاءَ يُلاقِ مِنْهَا إِذَا أَعْمَزَ فِيهِ الْأَقْوَرِينَا

والشاهد: أَعْمَزَ.

ثم رجع ثانية إلى الأسماء المشتقات إذ قال: «ما في فلان غَمِيزَةٌ وَلَا غَمِيزَ بفتح الغين على مثال فعيلة وفعل»، وهذه صيغة مبالغة قياسية، لكنه قدم صيغة فَعُولَ فيها على فعيل، لعله يقصد الأكثر وُرُوداً في الفصح، والله أعلم.

وقد قال في تفسير كلامه الأخير: أي: ليس فيه ما يُعْمَزُ فيُعَاب به، و«يُعْمَزُ» هذا فعل مضارع مبني للمجهول فقد جاء مؤخرًا عما بُني للمعلوم. ثم استشهد لما ساقه من هذه المشتقات الأخيرة إذ أتى بيت لحسان بن ثابت -رضي الله عنه- يقول فيه:

وَمَا وَجَدَ الْأَعْدَاءُ فِي غَمِيزَةٍ وَلَا طَافَ لِي مِنْهُمْ بِوَحْشِي صَائِدٌ

وقول الراجز:

لا تركبني واركبي الحزينا لم تجدي في جانبي غَمِيزا

ثم إنه عاد إلى الثلاثي المجرد حين ساق قول يعقوب: «يقال غمزني بطني وملكني» غَمَزَ (فعل ثلاثي مجرد ماض على وزن فَعَلَ) وهو الذي استهل به المعالجة سابقا.

ومنه انتقل إلى المزيد بحرف -ثانية- أَعْمَزَ على وزن أَفْعَلَ حين نقل عن أبي عبيد قوله: «أغمز إذا هو استضعف». والغريب في الأمر أن القالي قصد أمر التكرار ودليل ذلك قوله لما أتى بـ أَعْمَزَ ومدلولها قال: وقد مضى عن أبي زيد يعني قوله هذا المتقدم.

ونرى الشيء نفسه أيضا فبعد الفعل عاد -ثانية- إلى مصدر الفعل الثلاثي المجرد المتعدي، وذلك في قوله الذي نقله عن الخليل: «الْعَمَزُ الإشارةُ بالجفن والحاجب». غَمَزَ على وزن فَعَلَ وهو مصدر مقيس في الثلاثي المتعدي.

يقول ابن مالك في الخلاصة: ¹

فَعْلٌ قِياسُ مَصْدَرِ المَعْدَى مِنْ ذِي ثَلَاثَةٍ كَرَدَّ رَدًّا

ثم يواصل النقل عن الخليل إذ يقول: «الغَمَازَةُ الجارية الحسنة الغمزِ للأعضاء» وَغَمَازَةٌ على وزن فَعَالَةٍ، وعليه فقد عاد الرجل إلى صيغ المبالغة القياسية، لكن هذه المرة مع صيغة لم يذكرها من قبل وهي فَعَالَةٌ (غَمَازَةٌ) وهنا الدلالة انصهرت إلى الحسن لا إلى الكثرة، وهذا تفسير الخليل ووافقه القالي.

¹ المرجع السابق، ص 123.

ثم عَوَدَ آخر إلى صيغة المبالغة القياسية «فَعِيلَة» فقال في نقله عن الخليل: «والغميزة ضعفة في العمل وجهلة في العقل». ولعل تكرارها -والله أعلم- لأجل الدلالة المغايرة للأولى، وإن كان لا مبرر للبعد بين الصيغتين فالقرب أولى في المعنى، وأحسن في الصنعة.

لقد عاد من جديد للأفعال، وأتى بالفعل المزيد بحرفين في نقله عن الخليل الذي يمثل فيه للمقولة السالفة حيث قال: «سمعت منه كلمة فاغتمزتها في عقله».

فالفعل «اغتمز» هذا فعل ثلاثي مزيد بحرفين أو خماسي باعتبار الجمع بين الحروف أصليها وزائدها، فقد أتى به مؤخرًا عن المزيد بحرف أو الرباعي «أغمز» المتقدم، وهذا فيه شيء من الترتيب، لكنه أعقبه باسم فيما ينقله عن الخليل وهو في قوله: «المغامِزُ المعايِبُ» فكلمة المغامِز هذه اسم فاعل على وزن مُفَاعِل، وهو مشتق من الفعل الثلاثي المزيد بحرف أو الرباعي على وزن «فَاعِل» أي: غَامَزَ يُغَامِزُ مُغَامِزٌ. وفي هذا يقول ابن مالك -رحمه الله- في الخلاصة:¹

وَزَنَةُ الْمُضَارِعِ اسْمٌ فَاعِلٌ من غير ذي الثلاث ك (المُواصلِ)
مع كَسَرٍ مَتَلَوُ الْأَخِيرِ مُطْلَقًا وَضَمِّ مِيمٍ قَدْ سُبِقَ

ثم من اسم الفاعل انتقل إلى المشتق الآخر وهو المصدر الميمي في قوله الذي ينقله عن الخليل حيث قال: «وتقول ما في هذا الأمر مَغْمَزَ أي: مَطْمَع».

فكلمة مَغْمَزَ إنما مصدر ميمي مشتق من الفعل الثلاثي المجرد «غَمَزَ» فتقول: فَعَلَ مَفْعَلٌ. وقد جاء في الطرة على لامية الأفعال والمحمرة:

مِنْ ذِي الثَّلَاثَةِ - لَا (يَفْعِلُ) - لَهُ أَثَرٌ ب (مَفْعَلٍ) لِمَصْدَرٍ أَوْ مَا فِيهِ قَدْ عَمِلًا
ثم استشهد لذلك بقول الأخطل:²

أَكَلْتُ الدَّجَاجَ فَأَفْنَيْتُهَا فَهَلْ فِي الْحَنَائِصِ مِنْ مَغْمَزٍ

ثم واصل نقله عن الخليل حيث شرح معنى «مَغْمَزَ» في البيت. إذ قال: مَغْمَزَ أي مَطْمَع وقد عاد للأمر الذي ألفه حيث رجع إلى مصدر الثلاثي المجرد المتعدي من «غَمَزَ» فقال: فيما ينقله عن الخليل: «والغَمُزُ في الدابة من قبل الرجل والفعل يَغْمُزُ». ولعله -والله أعلم- أراد أن يبين مدلول الكلمة في هذا السياق المغاير للسياقات السابقة التي مضت معه.

¹ المرجع السابق، ص 127.

² الطرة على لامية الأفعال والمحمرة، الحسن بن زين القناني الشنقيطي، تح: سالم بن بوجمعة موريدا دار الفضيلة، الجزائر، ط2، 1438 هـ - 2017م، ص 85.

هذا، وقد ختم القالي معالجة مادته اللغوية المعجمية بفعل مضارع من الثلاثي المجرد حيث قال في نقله السابق عن الخليل: «والفعل يَغْمُزُ»، والناظر إلى القالي في معالجته لهذه المادة (غ م ز) يرى أنه استهل بفعل ماضٍ مجرد ثلاثي مدخلاً، وختم بمضارع آتٍ له، لكنه أخلط في الأمر حيث ذكر المضارع المبني للمعلوم أولاً في «أَغْمَزُهُ» عقب المدخل مباشرة ثم أتى بالمضارع المبني للمجهول فيما نقله عن أبي زيد لما قال: «ليس فيه ما يُغْمَزُ فيعاب به». ثم إنه عاد إلى المضارع المبني للمعلوم ليختم به في قوله: «والفعل يَغْمُزُ».

وإن دل هذا على الخلط والخلل والاضطراب في ورود الأفعال وعلاقتها بالدلالة والزمن، فإن هذا الأمر يزداد سوءاً لما يأتي على الأسماء المشتقة فيأخذ مثلاً صيغة المبالغة، وينتقل عنها للفعل أو لمشتق آخر ثم يعود للمبالغة من جديد ليثبت الاضطراب الحاصل في المعالجة.

وإذا أحسنّا بالقالي الظن في هذا لقلنا بأنه في معالجة المواد لغوياً هو رجّاح إلى الفعل لاعتبار أهميته في الاشتقاق والصرف، كما قال ابن مالك¹:

وبعدُ فالفعلُ مَنْ يُحْكِمُ تَصَرُّفُهُ
يُحْزُ مِنْ اللُّغَةِ الْأَبْوَابِ وَالسُّبُلَا

ومثل هذا وأكثر قد حصل مع الأفعال مجردها ومزیدها على السواء من المجرد إلى المزيد، ومن المزيد إلى المزيد عنه، ثم عوّذ على المجرد، وقد يُشغَل بين هذا وذاك ببعض التفسيرات والشروحات مما يطول به الأمر.

ومهما يكن من أمر فإن القالي في الصناعة المعجمية وخصوصاً في معظلة الترتيب الداخلي لمعجمات الألفاظ لم يكن بدعاً من القوم، فهذا نهج سابقه ونخص بالذكر كتاب «العين» للخليل وغيره ممن هو على نهج آخر ألفبائي مثل معجم «الجمهرة» لشيخه الأول ابن دريد (321 هـ).

وحتى لا نغمت القالي حقه في الصناعة المعجمية، فلقد رأينا بعض الظواهر المعجمية في «البارع» التي تنبئ ببراعته في ذلك الأمر، ورسوخ قدمه فيه، وأنه قد أحسن إلى ما انتهى إليه، ولعل التوفيق بين القضايا اللغوية العديدة المضمنة في المعاجم اللفظية يعسر فيها تحقيق نظام معين ورتابة في الأمر، النقولات من جهة، والدلالات السياقية التي لا حصر لها من جهة أخرى، فبعضها تولده يكون أنيا حال المعالجة.

ثم إنه في مثل هذه الأمور العظيمة التي تتعلق ببناء معجم الألفاظ العربي بما فيه الترتيب الداخلي الذي يتعلق بمشتقات الجذر اللغوي الواحد، ليس من السهل التوفيق فيها بين الشكل والمضمون، فتسلسل الصيغ المشتقة قد تعبت به الدلالة التي تفرض الصيغة في مكان وموضع معين، واعتبار اختلاف الدلالة

¹ الطرة على لامية الأفعال والمهمّة، الحسن بن زين القناني الشنقيطي، ص12.

باختلاف السياق لا بد أن يحسب له حسابه في القضايا اللغوية المعجمية، ولا يدري المعجمي مع هذا التعقيد الشديد من أين يؤتى في النقد.

4- البارع بين التجديد والتقليد في الترتيب الداخلي:

إن أبا علي القالي البغدادي في عمله المعجمي الذي يمثله «البارع» يُعتبر مقلداً متبعاً للتحليل سابقه، فقد سار على طريقته في الترتيب الخارجي وما يتعلق به من قضايا أخرى خارجة عنه لكن يشملها العمل المعجمي العام، وأما الترتيب الداخلي فعادة ما يكون لكل معجمي طريقته، وقد يتوافق مع هذا أو ذاك حيناً وأحياناً كثيرة ما يفترقان، وهذا الأمر يشمل المعاجم العربية اللفظية القديمة المختلفة في مناهجها وغير المختلفة أي أصحاب المدرسة الواحدة، بل إن الأمر يتعدى ذلك ليصل إلى ذروته فيظهر عند المعجمي الواحد بين معجمه الأول والثاني.

وإذا لم تكن هناك نظرية عربية معجمية تضبط الترتيب الداخلي من حيث المداخل، وتسلسل المشتقات وما يتعلق بها فلا يُلام من حاول واجتهد ولم يوفق، علماً أنه لن يعدم خيراً في ذلك فإن لم يحصل له الكثير فالقليل، ولا يخرج القالي في معجمه البارع عن جملة المعجمين الذين هذه صفتهم مع معاجمهم في قضية لمي أصعب قضايا بناء المعجم العربي اللفظي الشامل، ألا وهي الترتيب الداخلي. ورغم صعوبتها فإننا نحاول دراسة قضايا الترتيب الداخلي في معجم «البارع»، ومحاولة تقصي الأثر الذي كان فيه مقلداً متبعاً، والأمر الذي أبدعه وأجده، فأظهر فيه جدّة.

وأول ما نبدأ به الكلام عن الترتيب الداخلي لمعجم «البارع» نتكلم عمّا يُعرف في اصطلاح المعجمين بالمدخل، فالمعاجم العربية اللفظية القديمة لا تعرف استقراراً ونظاماً في طبيعة ونوع المداخل، بل إن بعض المعجمين قد يكون في مذهبه النحوي متعصباً يظهر تعصبه بشكل واضح، لكنه لما يأتي لبناء المعجم، وعوضاً أن يستثمر مثلاً تعصبه في جعل الفعل أو المصدر أصلاً للمشتقات في النظرية المعجمية وبخاصة في المداخل لتداخل القضيتين فلا نجد فعل من ذلك شيئاً، بل قد يضطرب الأمر عند اضطراباً شديداً، فتارة يدخل بالاسم أياً كان نوعه، وتارة بالفعل وعادة ما يكون الماضي، وتارة أخرى يأتي باسم فعل، وهكذا.

أما أبو علي القالي في معجمه «البارع» فلم يأتِ بجديد مما كان عليه سلفه، فلقد اضطربت مداخله أكثر من غيره، فالنظرة العامة للمعجمين السابقين «العين»، و«الجمهرة» توحى بأنهما أحسن حالاً من «البارع» من نواح عدة:

أولها: أن أبا علي القالي في معالجة مواده وفي أول الباب كثيرة هي المواضع التي يستهلها بعبارة «قال أبو علي¹...»، وقد ينقل عن غيره، فيقول: قال أبو علي قال فلان²...، وقد يزيد في الإسناد ثالثاً³، حتى جعلها أشبه ما تكون بسلسلة السند في الحديث النبوي الشريف، وهذا الطول في الإسناد قد يؤخر على طالب المعنى المعجمي حاجته، فله انعكاس بيّن ولا يتمرأى فيه أثنان.

ثانيها: التقديم الطويل بين يدي المدخل، فرمما أتى بسطر أو يزيد على ذلك، حتى إن الباحث ليعود إلى ترجمة الباب بعد أن يشك في واقعية المدخل المعجمي، ومدى مطابقتها للترجمة الأولى، فهذا الأمر لا تجده غالباً في المعجمين السابقين⁴ «العين» و«الجمهرة»، فهما غالباً ما يدخلان بالكلمة الرئيسية، والمدخل المراد.

ثالثها: التقديم الطويل أو القصير⁵ عن كلمة المدخل الرئيسية، مما يفوت الفرصة على طالب المعجم في البحث عن غايته من معاني الألفاظ.

رابعها: التذبذب الكبير في تداول الصيغ المعجمية على المدخل.

ولا يخفى على أحد أن التراث اللغوي العربي عموماً يعاني من مشكلة في المصطلح أو لنقل أزمة مصطلحية، هذا الأمر انسحب على الصناعة المعجمية أيضاً فهي أحد فروع علم اللغة، ولم تسلم هي الأخيرة من النقد في ذلك.

فمعجم «البارع» كان القالي قد سائر فيه الخليل فيما يتعلق بالنظام الصوتي والتقاليب والأبنية، فهو يستعمل مصطلحاته أحياناً، وينفرد عنه أحياناً أخرى ليثبت شخصيته العلمية المعجمية، فمثلاً من المظاهر الكبرى في نظرية الخليل المعجمية نظام التقاليب وما يتعلق به من مصطلحات، فالقالي اقتفى الأثر في ذلك، وهو في غنى عنها لكنه لم يكلف نفسه كما فعل الخليل حشو المعجم بزخم هائل من المواد اللغوية المهملة نتيجة التقاليب والإحصاء التام.

هذه التقاليب فرضت مصطلحات من مثل مهمل ومستعمل، فالخليل يذكره وينص عليه، لكن القالي تفادى ذكر هذا "المهمل" واستغنى عنه ما دام مهماً والاقتصاد في اللغة أمر محمود خاصة في المعاجم الشاملة فهو غاية يُسعى إليها.

¹ انظر: البارع، القالي، ص 219.

² المصدر نفسه، ص 405.

³ نفسه، ص 422.

⁴ انظر: العين، 85/3. (حجف)، والجمهرة، 951/1. (عول).

⁵ البارع، القالي، ص 452.

والخليل في معجمه العين قسمه إلى كتب بعدد حروف الهجاء، ثم الكتب قسمها إلى أبواب، فيطلق مثلاً في أول كتاب له وأول مادة «باب العين والطاء والذال معهما ع ط د يستعمل فقط»¹. أما القالي فيدخل دون ذكر الباب يقول مثلاً: «الهاء والجيم والواو في الثلاثي المعتل»² يعني أسقط مصطلح (باب) وربما يرى أنه معروف عند أهل الصنعة فاستغنى عنه، ثم إنه ذكر المادة المصاحبة لنوع البناء. وأيضاً استغنى عن ذكر مصطلح مستعمل، فهو ما استعمل يشرحه، ومالا يستعمل لا يذكره أصلاً. والذي أبدع التقاليد -الاشتقاق الأكبر- الخليل، فهو عادة ما ينص عن الجذور المستعملة في عنوان الباب، ويقصيه في المعالجة تسلسل الصيغ، لكن القالي لم يعمل عمله، فكانت طريقته أن ما استعمل فيه صيغة واحدة لا يذكر فيه كلمة مقلوب فهو لا يحتاج إلى ذلك. أما ما استعملت فيه صيغ عديدة مما ينجر عن التقاليد لحروف للمادة فإنه يذكره قبل بدء المعالجة، ومصطلحاته في ذلك، مقلوبة، ومن مقلوبه... كما أن الخليل في مواضع دون أخرى يذكر المستعمل والمهمل في أول الباب فمثلاً يقول: «باب العين والذال والنون معهما ع د ن، ع ن د، د ن ع مستعملات د ع ن، ن ع د، ن د ع مهملات»³. أما القالي فلا يذكر لا هذا ولا ذاك اقتصاداً في اللغة. وقد رأينا قبل في الباب الذي ذكر، وهذه الطريقة أقرب ما يكون أنه أخذها عن شيخه الأول ابن دريد في الجمهرة، وحذا حذوه في ذلك فإنه لا يترجم هكذا ومثل لشيء من أبوابه فيما يلي:

يقول: «باب الثاء والجيم وما بعدهما من الحروف في الثلاثي الصحيح»

ثم يبدأ بأول جذر في ترتيبه (ألفباء) وهو «ث ج ح»⁴

ولا نعي بذلك المطابقة الكلية في الشكل بين القالي وشيخه ابن دريد في الجمهرة في الأبواب وما يتعلق بها، إنما نقصد هذا الجانب في ذكر المهمل والمستعمل والنص عليهما في أول الباب، وإلا فإن ابن دريد ينص في بعض الأحيان على ما كان مهماً. فقد قال في هذا الباب في الجذر الثاني ث ج خ⁵ حكم بأنه مهمل، ومضى إلى الذي بعده.

ثم إن أبا علي القالي في معجمه البارع كان قد فاق أقرانه فضلاً عما سبقه في قضية التوثيق وهو أمر علمي هام، ولا نعي بذلك أن الذين سبقوه لا يوثقون، لكن هذا له عناية أكثر، فهو يوثق قول اللغوي الذي ينقل عنه فما بالك بنص متين، كشعر وغيره، فينسب المقولات والأشعار وغيرها لأصحابها.

¹ العين، الخليل، 5/2.

² البارع، القالي، ص 90.

³ العين، 42/2.

⁴ الجمهرة، ابن دريد، 414/2.

⁵ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

كما أنه في بداية نوع من أنواع الأبنية التي يسير عليها ينص على ذلك فيقول مثلاً: «أول المعتل»¹ ثم تحته «الغين والقاف والياء والألف والواو في الثلاثي المعتل» ففي ذلك زيادة توضيح وقد يقول أول الرباعي وهكذا.

كتاب «البارع» حافل بذكر اللغويين السابقين ممن درس عنهم القالي وممن لم يدرس ولم يحضر لحياتهم لكنه سمع بخبرهم وزوي له عنهم، ومن ضمن أسماء اللغويين التي يحفل بها المعجم شخصية المصنف نفسه فيذكر «قال أبو علي»² يقصد نفسه القالي البغدادي.

كما يظهر عند القالي في البارع عبارة «ومن الباب أيضاً»³ وهي عبارة يذكرها عند خلطه بعض الأبواب مع بعض فمثلاً: قال ومن باب الغين والقاف في الرباعي وأتى بـ الغرقد ومقلوبه الدغرة ثم قال ومن الباب أيضاً وأتى بـ «دغفق» التي هي بعيدة عن هذا .

وتظهر الجدة بشكل بارز لا مشاحة فيه في كتاب «البارع» للقالي حينما أورد باب الحواشي والأوشاب على غير مثال سابق في الصناعة المعجمية لا عند الخليل ولا شيخه الأول ابن دريد، ولا هو عند غيرهما.

وهنا الرجل -والله أعلم- في صناعته هذه وله فضل السبق أراد أن يجمع بين الألفاظ والمعاني، وذلك عندما يحكم الحقول الدلالية التي ذكرها في الحواشي والأوشاب مثلاً حقل الأصوات والزجر والمنقوصات. ولم تصنف رسائل إفرادية في هذا ومثله من قبل.

لكن ما تميز به الرجل في بناء بارعه على الأبنية عادة ما يكون البناء قائماً على عدّ الحروف وموصوفاً بنوعها صحةً واعتلالاً، لكن لما قال الأوشاب ذهب إلى الحقل الدلالي. وقد حاول إحداث أبنية خاصة بالحواشي والأوشاب تقابل ما جرى عليه في معجمه مع غيرها ثنائي، ثلاثي...

وعموماً أراد أبو علي القالي في هذه الجزئية أن يمزج ما أمكن من المنهجين الألفاظ والمعاني في بوتقة «البارع»، وختاماً نقول:

الإبداع أمر محمود ومطلوب في العلوم اللغوية، فليس فيها ما هو توقيف، فالفكرة تبدأ صغيرة ثم تتطور، وقد يكتب لصاحبها الأول إكمالها ونضجها، وقد يمهد الطريق لغيره حتى يصلوا بها إلى الغاية.

¹ البارع، القالي، ص 383.

² المصدر نفسه، ص 448.

³ نفسه، ص 449.

ثانيا: التحليل الدلالي في البارع

إن المعاجم العربية اللفظية القديمة كانت تفتقر إلى نظرية شاملة تتضح فيها محاور التحليل الدلالي، حتى يأتي عمل المعجمي ذا صبغة علمية ممنهجة أكثر، ولا يترك الأمر للارتجالية، أو التطبيقات الفردية التي تصيب غايتها أحيانا، وأحيانا أخرى تجانبها، وتدارك الأمر يمكن خاصة إذا استثمرت التجارب السابقة العديدة انطلاقا من باكورة المعاجم العربية «العين» للخليل بن أحمد وما أتى بعده في المعاجم اللفظية.

والناظر إلى المعاجم العربية اللفظية القديمة يدرك مسارعة أصحابها إلى التطبيق في المجال المعجمي قبل التنظير الذي هو بمثابة التخطيط، فهو أحد أهم أسباب نجاح العمل، وهو أمر غاية في الأهمية، وإهماله في الصناعة المعجمية ينجّر عنه ما ينجّر من الخلل والاضطراب، ذلك أن يرسم خطة غايته فيسير وفقها غالبا ما يوفق في تحصيل مطلوبه موفرا الجهد والوقت، وأهل العلم يقولون شرط النهايات تصحيح البدايات.

والتحليل الدلالي في المعاجم العربية اللفظية تدور رحاه حول ثنائية اللفظ والمعنى، ولسنا بهذا مهملين السياق فهو يأتي في مرحلة ثانية، ومعلوم أن الغاية التي يصبو إليها المعجمي في هذا النوع من المعاجم هي أن يضع المعنى المناسب للفظ المراد تفسيره وشرحه، وأن يوفر الجهد والوقت على الباحث عن معاني الكلمات، وهذا أمر ليس باليسير، فهو يتطلب الإحاطة بقدر كبير من ألفاظ اللغة العربية، وهنا تكمن أهمية حفظ الرسائل الإفرادية ذات الموضوع والحقل الدلالي الواحد التي ألفت في المراحل الأولى من التأليف المعجمي وجمع اللغة، ثم العلم بالاستعمالات المختلفة للألفاظ المتعددة، وهنا تكمن أهمية العلم بالسياقات وأنواعها.

وإذا كانت حال المعجمات العربية اللفظية القديمة في قضية التحليل الدلالي وشرح وتفسير المعنى تعاني تشتتا كبيرا، حيث يعسر استغلال ما ورد فيها في كثير من الأحيان، فتفتوت الغاية والمطلوب بين الباحث والمعجمي، فما حيلة وصنعة أبي علي القالي البغدادي في معجمه البارع لإدراك شروح المعاني؟.

سنتولى الإجابة عن السؤال من خلال العناصر التالية:

- أولا: العناصر الفاعلة في التحليل الدلالي.

- ثانيا: التعريف القاموسي.

- ثالثا: آليات ووسائل تفسير المعنى.

1- العناصر الفاعلة في التحليل الدلالي:

لقد أسلفنا الذكر حول أهمية اللغة والمعنى والسياق في حصول المعجمي على غايته من شرح وتفسير الألفاظ في معجمه، وهنا نتعرض لهذه المصطلحات بشيء من الشرح والتوضيح:

أ- اللفظ: قال الخليل: «اللفظ الكلام ما يُلفَظُ بشيءٍ إلا حُفِظَ عليه. واللفظ أن ترمي بشيء كان في فيك. والفعل لَفَظَ يَلْفِظُ لَفْظًا»¹.

وجاء في معجم التعريفات للشريف الجرجاني: «اللفظ: ما يتلفظ به الإنسان أو في حكمه مهملاً كان أو مستعملاً»².

وعند النحاة: «هو صوت خارج من الفم مشتمل على بعض حروف الهجاء التي أولها الألف وآخرها الياء»³.

وعند اللسانيين إنما هو الدال (الصورة الصوتية) . وهو الجانب التعبيري في العلامة أو الرمز⁴. فاللفظ له معانٍ متقاربة عند أصحاب الفنون المختلفة، وعند المعجميين الكلمة أو ما في حكمها. هذا، ويعتبر المعجم العربي كتاب يضم بين دفتيه ألفاظ اللغة العربية، وبعض المعجميين أطلقوا على كتبهم تسمية الألفاظ، منهم ابن السكيت والهمداني وكلاهما معجم معانٍ أو موضوعات، لكنهما لا يخرجان عن كونهما يضمّان ألفاظ اللغة.

وقد أطلق على كتب كثيرة من مثل «العين»، و«البارع»، و«الصحاح»، و«أساس البلاغة» معجم ألفاظ - اصطلاح المعجميين - ذلك أنها تضم ألفاظ اللغة العربية من جهة، ومن جهة أخرى فإن موضوعها الأساسي هو الألفاظ وترتيبها ثم شرح وتفسير معانيها.

ب- المعنى:

فالمعنى قرين اللفظ في الذكر، ولطالما شكلا معا قضية واحدة هي أهم قضايا اللغة قديما وحديثا. والمعنى يمثل تلك الفسيفساء التي يصعب حصرها وحدّها، وهنا نعرض اجتهادات أهل اللغة في ذلك:

قال الخليل: «ومعنى كل شيء: محنته وحاله الذي يصير إليه أمره»⁵. وقال ابن فارس: «(عن) العين والنون أصلان أحدهما يدل على ظهور الشيء وإعراضه والآخر يدل على الحبس.

فالأول قول العرب: عنَّ لنا كذا يعنُّ عنُونًا، إذا ظهر أمامك. قال:

¹ العين، الخليل، 161/8. (لفظ) .

² التعريفات، الشريف الجرجاني، تج: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، (دط)، (دت)، ص 161.

³ الثمرات الجلية في شرح نظم الأجرومية لعبيد ربه محمد ابن آبه الشنقيطي، محمد رفيق الونشريسي، تقلّم: عبد الرحمان كوني، دار الميراث النبوي، الصنوبر البحري، المحمدية - الجزائر، ط1، 1434هـ - 2013م، ص22.

⁴ علم اللغة نشأته وتطوره، محمود جاد الرب، دار المعارف - كرنيش النيل - القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 1985، ص100.

⁵ العين، الخليل، 253/2.

عَذَارَى دُورٍ فِي مَلَأٍ مُذَلِّلٍ

فَعَنَ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ

ما عنَّ لك منها إذا نظرت إليها...

قال ومن الباب: عنوان الكتاب؛ لأنه أبرز ما فيه وأظهره. يقال عَنَنْتُ الكتابَ أَعْنَتْهُ عَنَّا، وَعَنَوْنَتْهُ، وَعَنَنْتُهُ أَعْنَتْهُ تَعْنِيًا...¹.

وقال الشريف الجرجاني: «المعنى ما يقصد بشيء»².

وقال: «المعاني هي الصور الذهنية من حيث أنه وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل، فمن حيث أنها تُقصد باللفظ سميت معنى، ومن حيث إنها تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوماً، ومن حيث إنه مقول في جواب ما هو سميت ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج سميت حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار سميت هوية»³.

ويوافق مصطلح المدلول أو يقترب منه في الدراسات اللسانية الحديثة، ونقصد كلامهم عن أحد مكوي العلامة اللغوية، فيقولون عنه: جانب داخلي أو معنوي، وهو التصور الذهني عند المتكلم والسامع.⁴ أما عند علماء الدلالة فقد تشعب الأمر إلى حد يصعب فيه حصره فكل يرى من زاويته الفكرية ويحدد تعريفاً له.

ويرى بعضهم أن تعريف المعنى هو العلاقة المتبادلة بين الاسم والإدراك.⁵

وإذا فقد انتهينا إلى ما أسلفت الذكر فيه من الصعوبة في تحديد تعريف للمعنى في ظل العلوم الكثيرة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً باللغة ولا تنفك عنها، فالنحاة لهم تفريعات كثيرة في المعنى، وأهل الدلالة كذلك وغيرهم.

لكن ما يهمنا في إثارة هذا الموضوع هو المعنى المعجمي، وعليه نعرض ما يقصد بهذا المصطلح فيما يلي: والمقصود بالمعنى المعجمي "Lexical meaning" هو الدلالة التي يقدمها المعجم للألفاظ التي يتناولها. وهذا المعنى يشار إليه بأنه قاصر في حقيقته عن المعنى الاجتماعي والدلالي الذي يعنى بتتبع الجملة أو قل: الحدث الكلامي، وما يحيط به من مجريات.⁶

¹ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، 1322.

² التعريفات، الشريف الجرجاني، ص 185.

³ المرجع نفسه، ص 164-165.

⁴ علم اللغة نشأته وتطوره، محمود جاد الرب، ص 100.

⁵ علم الدلالة، محمد غفران زين العالم، سور أبايا، جامعة سونن أمبيل الإسلامية الحكومية، سنة 1997، ص 11-13.

⁶ مجلة الشمال للعلوم الإنسانية، جامعة الحدود الشمالية، مجلد (4)، عدد (1)، 1440هـ-2019م، ص 5.

ويقول أحد المحدثين أيضاً: «إنه المعنى أو الدلالة التي يقدمها المعجم أو القاموس "Dictionary" لمفردات اللغة»¹.

وإذا- فقد رأينا جانباً من انفتاح مدلول كلمة معنى والتي مازالت الجهود تبذل سعيًا في تبين الغموض الذي يكتنفها، وأما المصطلح المركب المعنى المعجمي فنستطيع القول بأنه أحد أنواع المعنى بصفة عامة.

ج- السياق: يعتبر السياق أحد الدعائم الهامة في شرح وتفسير المعنى ذلك أن الكلام إنما يعبر عنه بسياقه الذي يرد فيه، وربما احتيج إلى النظر في سباقه ولحاظه أحياناً.

تعرضت المصادر اللغوية العربية لهاته الكلمة، وأضحت معانيها اللغوية :

قال ابن فارس -رحمه الله-: «السين والواو القاف أصل واحد، وهو حدو الشيء يقال: ساقه يسوقه سَوْقًا. والسَّيِّقَةُ ما استيق من الدواب. ويقال سَقْتُ إلى امرأتي صداقها، وأسَقْتُه، والسُّوق مستَقَّة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق. والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، إنما سميت بذلك؛ لأن الماشي ينساق إليها. ويقال امرأة سواق، ورجل أسوق إذا كان عظيم الساق. والمصدر السَّوْق...»².

وقال الزمخشري: «ساق النعم فانساق... وتساوقت الإبل: تتابع. وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث. وهذا الكلام مساقاة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سَوْقِهِ: على سرده...»³.

هذا عند اللغويين وإن كان الزمخشري والمعجم الوسيط يسوغ أن يكون تعريفهما ضمن التعريف الاصطلاحي للسياق.

والمعنى المركزي لهذه الكلمة يدور حول التابع والتسلسل. هذا، وقد عرّفه معجم اللسانيات الحديثة بأنه يعني مصطلح السياق التركيب أو السياق الذي ترد فيه الكلمة، ويسهم في تحديد المعنى المتصور لها.⁴

ويرى الباحثون أن السياقات أنواع عديدة وأهمها:⁵

السياق اللغوي	Linguistic context
السياق العاطفي	Emotional context
سياق الموقف	Situational context

¹ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

² معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 117/3. مادة (س وق).

³ أساس البلاغة، إبراهيم أنيس وآخرون، 464. (س وق).

⁴ معجم اللسانيات الحديثة، سامي عياد حنا وآخرون، ص28.

⁵ علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مكتبة لسان العرب، عالم الكتاب، القاهرة، ط5، ص 69.

Cultural context

- السياق الثقافي

هذه رؤية أحمد مختار عمر ولكل لغوي اجتهاداته.

وإذا فالمعاجم العربية اللفظية في شرح المعنى كان لزاما عليها الأخذ بعين الاعتبار ما أسلفناه في العناصر الفاعلة في شرح وتفسير المعنى.

2- التعريف القاموسي المعجمي:

لقد أيقن المعجميون أن من أهم غايات وأهداف المعجمية دراسة الوحدات اللغوية دراسة معجمية، تبين وتشرح فيه عن طريق المعالجة مفردات اللغة، وقد ظهرت جرّاء هذا التفكير نظريات واصطلاحات عديدة أثبتت فعاليتها في علم المعجّمة، ومن هذه المصطلحات المعجمية التي تقوم على شرح وتفسير المعاني "التعريف"، وواضح من سياق الكلام أننا نقصد التعريف المعجمي، وهو من الأمور المهمة والفاعلة في التحليل الدلالي للوحدات المعجمية عموماً.

والتعريف مصطلح علمي تتجاذبه كل الفنون العلمية، لكن ما يخص دراستنا هذه إنما هو "التعريف" المصطلح المعجمي، وعليه يمكن أن نسوق بعض التعاريف للتعريف المعجمي أو القاموسي فيما يلي:

فالتعريف القاموسي هو شكل، ووظيفة، ومعنى، تميز مجتمعة مفردة عن أخرى، أي هو عملية تعريف مفردة باتخاذها موضوعاً لنص متمم لها يوضح معناها¹.

ويرى بعضهم أنه: تحليل دلالي للكلمة المدخل يتكون من عدد من الشروح تقدّم على أنها مرادف للوحدة المعجمية المعرفة. وقد بُني على مفهوم التضامن².

ويرى الحبيب النصاروي أن التعريف التقليدي مثل الذي نبّده في قواميس اللغة يصلح من ناحية مدونة، ومن ناحية ثانية هدفاً لأبحاث الدلاليين في المعجم، بما أن القاموس ذاكرة الجماعة اللغوية وقاعدتها الدلالية المعجمية. وهدفه وصف وحدات اللغة محاولاً ربطها بمراجعها³.

وإذا، فهو يكشف عن نص تحليلي تقع مراجعته في علاقة تعريف نسقية مع مرجع الموضوع أو الكلمة المدخل. لكن هذه البنية البسيطة في ظاهرها ليست كذلك في مستوى التطبيق⁴.

والناظر المتأمل في التعريفات المعجمية السالفة الذكر وغيرها يدرك أنه عملية شديدة التعقيد والتعقيد، لخضوعه لكثير من العوامل المنهجية والنظرية، وعلى رأسها تحليل وتفسير المعنى في المعالجة

¹ انظر: التعريف القاموسي بنيته الشكلية وعلاقاته الدلالية، الحبيب النصاروي، مركز النشر الجامعي، تونس، ط2، 2016، ص 37. نقلاً عن:

Rey-Deboure: La linguistique du signe, PP: 44-45.

Mounin, Dictionnaire de La linguistique; p97.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها - نقلاً عن:

Dubois/guespin/ Marcellesi: JB/ Mével. Dictionnaire de La linguistique, 132.

³ نفسه، الصفحة نفسها.

Greimas: sémiotique, p 85

⁴ نفسه، الصفحة نفسها. نقلاً عن:

المعجمية، لاتصال الأخير بعوامل داخلية في اللغة وأخرى خارجة عنها، كما أن الإجراء العملي له يبرز اختلاف المعجميين والباحثين في طرق معالجته منذ القدم.

فاختلاف التعاريف للتعريف المعجمي أو القاموسي هذا إنما نشأ لهذه العوامل والاعتبارات السالفة الذكر، وكذلك اختلاف روافد الباحثين والدارسين العلمية والمعرفية، ودورها في توجيه تفكيرهم حين دراسة ومعالجة مثل هذه القضايا المرتبطة بالدرس اللغوي المعجمي.

فزاويا التفكير المختلفة عند الدارسين والباحثين هي التي أوصلت إلى تعدد الرؤى إزاء التعريف المعجمي أو القاموسي.

ويرى محمد رشاد الحمزاوي أن التعريف المعجمي على أنواع أربع:

أ- التعريف الاسمي: ومنهجه تعريف المدخل باسم مفرد أو بجمله تبدأ باسم: لأن حالة الاسمية تستعمل غالباً في التعريف. فقلّ أن يستعمل الفعل لتعريف المداخل، وإن كانت الأسماء المعرفة جملاً، قد حولت إلى جملة اسمية¹. وهذا مثال يوضح التعريف الاسمي الوارد بصفة عامة في المعاجم العربية: البَحْبَجِي: الواسِعُ النفقة، والواسِعُ في المنزل².

ب- التعريف المنطقي: وهو تعريف خارج عن اللغة يعتمد المنطق. فهو يصنف الكلمات بحسب المحسوس، أو بنص يصف مضمونها، من دون أن يعرفها لغوياً³. يقول: من ذلك: «التوت: جنس شجرة من الفصيلة القراصية يزرع لثمره، يأكله الإنسان أو لورقه يربى عليه دود القز وأنواعه كثيرة»⁴.

ويبين الحبيب النصاروي ماهيته فيقول: هو يذكر خصائص الشيء أو الموجود الذهني في المعجم كتحديد الهرمية المقولية: الجنس والنوع، والخصائص العامة: الشكل والأبعاد والحجم والمقدار... والظروف الخيطة: الزمان والمكان، ثم الوظيفة، لتمييزه عن بقية الأنواع الداخلة تحت جنسه. أي هو تحديد لماهية المسمى. لذلك لا يعدّ تعريفاً للفظ. بل تحديداً للمفهوم الذي يرتبط به المسمى⁵.

وهذا الأمر قد استدعاه سبب علمي منهجي؛ ذلك أن المداخل المعجمية تختلف عن بعضها البعض إلى أنواع عديدة، فمثلاً حقل المصطلحات هذا له معاملة خاصة في معالجة المادة المعجمية، وهو يفرض منهجية معينة لذلك انساق المعجميون خاصة المحدثين منهم نحو إبراز هذه المنهجية العلمية الخاصة بالمصطلحات في معالجتها كمدخل.

¹ من قضايا المعجم العربي قديماً وحديثاً، محمد رشاد الحمزاوي، ص 165.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلاً عن: المعجم الوسيط، ص 39.

³ نفسه، ص 166.

⁴ نفسه، الصفحة نفسها، نقلاً عن المعجم الوسيط: 90/1.

⁵ التعريف القاموسي، الحبيب النصاروي، ص 110.

ج- التعريف بالشواهد: وفي هذه الحقيقة يعتبر مكملاً للتعريفين السابقين لا نوعاً مستقلاً، إلا فيما ينقل عن تطور بعض الدراسات المعجمية عند الغربيين المعاصرين خاصة الألمان، فيستشهدون بالصورة بلا يجعلونها هي المتن لأهميتها تعليمياً وتربوياً.

وقد دعا بعض المعجمين إلى الاكتفاء به دون غيره للسبب السالف الذكر، وأنه يحل محل التعريف فيغني عنه، لكن الملاحظ أنه لا يحيط بجميع الاستعمالات. وهو يضع مشاكل عدة منها: عدد الشواهد، وطولها وقصرها ونوع اللغة التي يعتمد (شعر أو نثر).¹

د- التعريف البنيوي: وهذا التعريف لا يمكن تصوره إلا باعتبار ما يسمى بالحقل المعجمي والحقل الدلالي. والأول يعني مجموع الكلمات التي توفرها اللغة أو تنشئها للتعبير عن مختلف عناصر تقنية من التقنيات أو شيء من الأشياء - فيمكن لنا أن نتحدث عن حقل السيارة المعجمي، وعن حقل الطيران، والجبر، والمودة...

أما الحقل الدلالي أو السيمي، فهو يعني مجموع استعمالات كلمة واحدة للتعبير عن معان تستخرج باستقراء ما يحيط بتلك الكلمة من سياقات. إن الحقلين متكاملان يطابقان تماماً مبدأي الجمع والوضع الذين تحدث عنهما ابن منظور في لسان العرب. إنهما يعتبران منهجين أساسيين في وضع المعاجم.² وقد عاب ابن منظور على أصحاب المعاجم القديمة تخليهم عن هذين المبدئين، وأكثر عيوب ما ألفه القدامى في المجال المعجمي له علاقة بهذين الأساسيين.

هذا وإن بعض الباحثين بحصر أمر أنواع التعريف في نوعين كبيرين يتفرع عنهما ما دونهما، أو هما يحويانه فيسقط ذكرًا لتفريعه لذلك، أما النوعان فهما: التعريف اللغوي، والتعريف المنطقي. وهو رأي وجيه؛ ذلك أن كثرة السبر والتفريع والتقسيم قد ترمي بالقضية إلى شتات. والدرس المعجمي في غنى عن ذلك وغيره.

والرأي المتعمّن في درس التعريف المعجمي أو القاموسي وأنواعه يدرك تماماً أن هذه الرّؤى إنما هي صادرة عن وعي تام بالدرس المعجمي العربي قديمه وحديثه، إلا أن ما ذكر في أنواع التعريف يكون إلى المعاجم اللفظية الحديثة أقرب؛ لأن هؤلاء المتأخرين قد نضجت أفكارهم في هذا المجال، وسنحت لهم الفرص الكبيرة للإفادة من عمل المتقدمين والمتأخرين. والتأثر ببعض العلوم المستحدثة، والدراسات الأجنبية في الصناعة المعجمية.

¹ انظر: من قضايا المعجم العربي قديماً وحديثاً، محمد رشاد الحمزاوي، ص 167.

² انظر: لسان العرب، ابن منظور، ص 07.

كل هذه العوامل جعلت من المحدثين يفيدون مما سبق ويتطلعون لما يأتي وآت، وترجموا ذلك في معاجمهم التي تعجّ بأنواع المواد والمداخل المعجمية اللغوية والاصطلاحية، وخصصوا لكل نوع مدخل معالجة تناسبه، ولا تخرج عن إطار المعالجة المعجمية.

3- آليات ووسائل تفسير المعنى في «البارع»:

معلوم أن معجم «البارع» لأبي علي القالي البغدادي محسوب على المعاجم العربية اللفظية القديمة، وتلك المعاجم لم تتضح فيها الصورة المكتملة للترتيب الداخلي كما هي مشاهدة في معاجم العصر الحديث، بل لست مجازفاً إن قلت تحكمها العفوية، أو هي أقرب ما يكون منها، لكن هذا الأمر لا يمنع، ولا يكون حاجزاً أمام دراستها، والكشف عن بعض إجراءاتها العملية في الترتيب الداخلي عموماً، وتحليلها الدلالي خصوصاً.

وكنا قد رأينا بعض الظواهر التي تميز بها البارع في الترتيب الداخلي، خاصة منها ما يظهر الجانب الشكلي في بناء المعاجم، من مواد ومداخل وأنواعها العديدة، والطريقة التي وضعها بها. أما الآن فنعرض لأمر مهم جداً، وتظهر فيه قدرات المعجمي في استعمال ما يسعفه، ويلبي حاجاته من مفردات اللغة التي تكفل له تحليله الدلالي المناسب لمداخله المعجمية، وهذا الأمر يتطلب آليات ووسائل حتى يفسر ويشرح بها المعنى، والأمر المهم هو ما حظ القالي من ذلك في بارعه؟ فالقالي في معجمه البارع لم يك بدعا من الناس الذين تقدموه في هذا المجال، فلقد استعان بوسائل أبرز بها تفسيره وشرحه للمعنى المعجمي ونعرضها فيما يلي:

أ- **تفسير بالمغايرة:** يقول محمد أحمد أبو الفرج: والتفسير بالمغايرة فيه أنواع: مغايرة تامة (في المعنى وأصل الكلمة)، ومغايرة ناقصة (في المعنى أو الصيغة أو فيهما دون الأصل)، ومغايرة بالجواز (بين الحقيقة من جهة، والجواز من جهة أخرى)¹. ولقد استعمل القالي في بارعه هذا النوع من التفسير، ونبينه على النحو التالي:

أ-1- **المغايرة التامة:** الأصل فيه أنه يكون بالفاظ ثلاثة هي: نقيض، وضد، وخلاف، وقد يأتي بعارة «الذي لا» ونحوها.²

أما ما جاء في البارع على المغايرة التامة فنورد بعضه على النحو التالي:

¹ المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، محمد أحمد أبو الفرج، ص 102.

² انظر: المرجع نفسه، ص 103.

أ-1-أ- ما جاء على صيغة خلاف:

- نقل القالي عن الخليل قوله: «النهي خلاف الأمر»¹.

أ-1-ب- ما جاء على صيغة نقيض:

- نقل عن الخليل قوله: «البغض نقيض الحب»².

أ-1-ج- ما جاء في صيغة ضد:

- نقل عن أبي بكر بن دريد قوله: «البغض ضد الحب»³.

فالقالي وإن كان ينقل عن غيره إلا أن هذا الأمر قد أقره أولاً عن غيره في معجمه «البارع»، وثانياً أن المنقول عنهم رجال هم بُناة المعجم العربي عموماً.

ومن الملاحظات على تفسير المغايرة التامة بهذه الصيغ الثلاثة في معجم البارع ما يلي:

- قد يجمع في معالجة المادة الواحدة بين الصيغتين فمثلاً: قال: «البغض نقيض الحب»، وقد نقله عن الخليل. وقال: «البغض ضد الحب»، وقد نقله عن ابن دريد. وكلا المقولتين قد تقدم ذكرهما.

أ-1-د- وقد جاءت في معجم «البارع» صيغ أخرى تحسب على المغايرة التامة لكن تخالف الأولى لفظاً، وقوة في المعنى، وهي كثيرة يضيق المقام بذكرها، لكننا نذكر بعضها منها:

- استعمال لفظ "غير". وقد نقل عن الخليل قوله: «وهو محبوب غير مبغض»⁴.

- استعمال لفظ الذي لا... أو ما في معناه، وقد وردت ما يقارب عشرين مرة.

- نقل عن أبي زيد قوله: «العماهج من الألبان الذي قد حقن حتى إذا أخذ اللبن طعماً غير حامض ولم يخالطه ماء ولم يختثر كل الخثارة...»⁵.

مما لا شك فيه أن هذه الصيغ تتفاوت في درجة الوضوح والبيان والتفسير، وأبو علي القالي من خلال استعماله لها يسعى إلى الإيضاح والبيان لكن ما يلفت الانتباه أن بعض الصيغ قد يأتي بها المعجمي اضطراراً. ولا تعاب حينئذ، أما التي أتت اختياراً فالأولى العدول عنها والإتيان بما يوضح ويفسر أكثر.

¹ البارع، القالي، ص 126.

² المصدر نفسه: ص 269.

³ نفسه، ص 260.

⁴ نفسه، ص 263.

⁵ نفسه، ص 176.

أ-2- المغايرة الناقصة:

- وأما ما جاء في «البارع» على المغايرة الناقصة فهو أنواع أيضا ونوردها على النحو التالي:
- النوع الأول: المغايرة للصيغة فقط: وقد وقع هذا الأمر في البارع لما قال: «استنجلت الأرض وبها منجال أي خرج منها الماء»¹.
 - النوع الثاني: المغايرة للمعنى فقط: وهذا النوع عرف عند أهل اللغة والدلالة بالمشارك اللفظي، وقد ظهر عند القالي في معجمه «البارع» حين نقل عن الكسائي قوله: «قال: والزهو الكذب. والزهو الاستخفاف. قال الشاعر:

نرى القلات زهاها قال قالي

وقال غيره: زهو النحل ما احمر من ثمرتها واصفر...»².

- فهنا كلمة الزهو حملت عدة معان، وهذا الاشتراك وهو ما اصطلح عليه دلاليا مشترك لفظي؛ فهو لفظ واحد يحمل عدة معان. أما معجميا وفي المعالجة يسمى المغايرة الناقصة وهي في المعنى فقط.
- النوع الثالث: المغايرة في الصيغة والمعنى نجدها في البارع لما نقل عن أبي زيد قوله: «قالوا الفَلَنَقَس على فَعْنَلَّ العربي بن العريين لأمتين فجذتاه من قبل أبيه وأمه أمتان، قال الراجز:

العَبْدُ والهَجِيْءُ والفَلَنَقَسُ ثَلَاثَةٌ فَأَيُّهُمْ تَلَمَّسُ³

- ## أ-3- المغايرة بالمجاز: وهذا النوع من المغايرة يعتمد على تبين الحقيقة من المجاز في استعمالات المادة المعجمية، «وأساس البلاغة» للزمخشري هو ما اشتهر بهذا الأمر وعُني به عن قصد حتى انفرد بذلك⁴ لكن قد يوجد الأمر في المعاجم الأخرى دون عناية ومنهج. وهذا ما سنراه مع القالي في معجمه البارع حيث أشار إلى المجاز أثناء معالجة مادته المعجمية، ونورد بعضا منها فيما يلي:

- قال: «والغموض بضم الغين وسكون الميم النوم... ثم ساق هذه العبارة: "وقد يكون التغميض من غير النوم" فهو يومئ إلى المجاز هنا. فقال: يقال منه: اغمض لي في البياعة، وهي كناية وضّحها ملمّحا لا مصرحا في قوله: زدني لمكان رداءته أو حطّ من ثمنه»⁵.

¹ المصدر السابق، ص 625.

² المصدر نفسه، ص 149.

³ نفسه، ص 538.

⁴ انظر: المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، محمد أحمد أبو الفرج، ص 105-106.

⁵ البارع، القالي، ص 269.

وقد أورد القالي في البارع ما يبين التفريق في الاستعمال للألفاظ بين تراكيب الحقيقة وتراكيب المجاز، إذ نقل عن يعقوب قوله: «يقال للعب الشاة المرغ بفتح الميم. وقد يقال المرغ في الإنسان عارية»¹. ويعني به لفظاً مستعاراً (مجازاً) وإلا حقيقة هو خاص بالحيوان وما أشبهه. ولعل - والله أعلم - إيراد العرب لتراكيب فيه «أحق يسيل مرغه وهو لعبه، وأحق ما يجأى مرغه أي لا يحبس لعبه»². من ذلك القبيل.

ب- تفسير بالترجمة³: يقول محمد أحمد أبو الفرج: التفسير بالترجمة هو أنواع ثلاثة: أولها ما يأتي في صورة كلمة بكلمة، وثانيها كلمة بأكثر من كلمة، وثالثها كلمة بكلمة من لغة أخرى⁴.

ب-1- تفسير بكلمة واحدة:

ونعني به أن توضع في تعريف وتفسير الكلمة كلمة أخرى من حيث اللفظ والكمية، وقد ظهر هذا الأمر عند القالي في «البارع». بل إنه شاع وانتشر، وهذه بعض الأمثلة منه:
- نقل القالي عن قطرب قوله: «لهوذة القطاة...»⁵.

ب-2- تفسير الكلمة بأكثر من كلمة:

يقول محمد أحمد أبو الفرج: «وهذا أيضاً من باب الحديث في المعجم ذي اللغة الواحدة. فيجمع المادة من لغة ثم يفسرها باللغة ذاتها، ولكن لا يكون هذا بكلمة مفردة إنما يكون بعبارة أطول»⁶. وقد وقع هذا الأمر عند القالي في معجمه «البارع» في مواضع كثيرة، ونورد مثالا على ذلك فيما يلي:
- ونقل أبو علي عن الأصمعي قوله: «التَهْوُس بفتح التاء والهاء، وضم الواو وشدها، المشي الثقيل في الأرض...»⁷.

¹ المصدر السابق، 323.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ يقول أحمد أبو الفرج: «ولسنا نعني هنا بلفظ الترجمة النقل من لغة إلى أخرى دائماً، فهذا لا ينطبق إلا على الجزء الثالث من هذا النوع من التفسير وهو كلمة بكلمة من لغة أخرى»، ومن معاني الترجمة العنوان، وربما حملت هذا العنوان مراعاة للجزء الثالث منها. وانظر: المعاجم اللغوية، أحمد محمد أبو الفرج، ص 107.

⁴ المرجع نفسه، ص 102.

⁵ البارع، القالي، ص 157.

⁶ المعاجم اللغوية، محمد أحمد أبو الفرج، ص 107.

⁷ البارع، القالي، ص 156.

ومنه شيء كثير يعج به بارع القالي، لكن ما ألفت الانتباه، ونحن نستقصي هذا الأمر هو الظاهرة العكسية لهذا الأمر أو القلب ومثاله أن يكون المعرّف أطول من التعريف والتفسير، مثل ما هو في البارع حيث جاء فيه ما نصه «فيما ينقله القالي عن أبي زيد يقال للرجل أنت في الضلال بن السبهل، وجئت بالضلال بن السبهل، وهو الباطل بفتح السين والباء وسكون الهاء»¹.

ب-3- تفسير بالترجمة إلى كلمة من لغة أخرى:

رغم أن المعاجم التي نتحدث عنها أحادية اللغة، بمعنى أنها تعالج ألفاظ اللغة الواحدة، ولغة الألفاظ هي لغة الشرح والتفسير، لكن ذلك لم يمنع أن تورّد هذه المعاجم ألفاظاً من لغات أخرى لتشرح ألفاظ العربية، أو لتذكر أصلها، ويبدو أن ذلك واضح لما هو معروف من اتصال العربية على طول تاريخها بلغات أخرى فتأثرت بها، وأخذت أحياناً من كلماتها²، وهذا الأمر سار جار حتى في عصرنا هذا.

ثم إن طبيعة اللغات البشرية لها دور في ذلك خاصة ما استعمل لزمان غير قريب منا وقد تواضعوا على معناه ودلالته، فليس من العلمية في شيء أن تلغي ما تعارفوا عليه وعلى وضعه من لغة أخرى خاصة إن لم يكن له بديل يضاهيه وضعاً واستعمالاً. وهذه - كما أسلفت - من طبيعة اللغات مع مستعمليها، هذه تأخذ من تلك، وتلك تأخذ من هذه، فلا حصانة كليّة.

ولا شك أن القالي في بارعه قد أبرز هذه الظاهرة، بل قال بعضهم إنه قد عُني بالمعرّب خاصة منه الفارسي، ونورد بعض الأمثلة حتى يتضح الأمر على النحو التالي:

- نقل القالي عن الخليل قوله: «دهليز معرّب معروف وهو فارسي معرّب»³.
- والأعجمي الذي نقصده هنا عموم، فيشمل الفارسي، والنبطي، والرومي، والسورياني... أي كلام غير عربي، وقد خص الفارسي منه في مواضع عديدة لأسباب منها:
- المجاورة: فالفرس يقطنون أقاليم متاخمة لشبه الجزيرة العربية والشام...
- انتشار الإسلام في البلاد الفارسية، فقويت الروابط بحكم الدين الإسلامي الواحد.
- نبوغ علماء من فارس في علوم شتى كالعلوم والحديث وغيرهما من العلوم.
- خطوط الاتصال المفعلة عن طريق التجارة والرحلات وغيرها.
- رحلات أهل فارس صوب البلاد العربية، والحج أكبر مظهر للالتقاء وتبادل الثقافات والمعلومات.
- التفوق الحضاري الفارسي بفرض لغة الغلبة والأمر الواقع.

¹ المصدر السابق، ص 205.

² انظر: المعاجم اللغوية، محمد أحمد أبو الفرج، ص 108.

³ البارع، القالي، ص 208.

هذا، وإن البارع قد حفل بالمعرب الفارسي في ثناياه، ثم إن أبا علي القالي البغدادي لما رأى أن هذه المواد الفارسية قد كثرت في المعجم خصص لها كتاباً حواها في آخر المعجم «البارع»¹ - كما أسلفت ذكره - وهذا قد صرح به أبو بكر الزبيدي أحد تلاميذه البارزين، لما أراد تأليف كتابه «المستدرک في اللغة»، فهو قد كشف عن عمل القالي المتمثل في تأليف كتاب حوى الكلام الفارسي في البارع وألحقه به في آخره. يقول الزبيدي: «ولإسماعيل في آخر كتاب البارع باب ترجمه باب ما جاء معرباً من كلام الفرس، ...»².

ج- التفسير بالمصاحبة (التلازم) :

التلازم له صور كثيرة في الاستعمالات اللغوية تحدث على المستويات الفونولوجية والمورفولوجية والنحوية والدلالية، غير أن التلازم الذي نقصده هنا على المستوى الدلالي، وذلك حينما تتلازم كلمة معينة مع كلمة أخرى، أو استعمال وحدتين معجميتين ترتبط إحداها بالأخرى³. ومثال ذلك كلمة بَرَكَ من البروك، وهو لصيق بالبعير، فلا ينسب لغيره من ذي عقل إلا عن طريق المجاز وتعدي الحقيقة، يقول النبي ﷺ: «إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير...»⁴. الحديث، وانظر للتشبيه الذي ذكره ﷺ وألصق فيه الوصف بالبعير مصاحبة وتلازماً.

وهذا الأمر جذوره ضاربة في القدم حقا في التراث اللغوي العربي، فهذا الجاحظ يقول: «وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجموع إلا في موقع العقاب أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد في القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين. ألا ترى أنه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج... والرغبة والرغبة والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس»⁵.

¹ انظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، ص 36.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلاً عن: مخطوط المستدرک في اللغة: ص 201، نسخة القرويين رقم 64.

³ مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 151.

⁴ سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث تحقيق وضبط وتخريج: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، (دط)، 1430هـ - 2009م، 131/2، والحديث صحيح، أورده أبو داود في سننه برقم: 840.

⁵ البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، 20/1.

ويعقب أحمد أبو الفرج على كلام الجاحظ الذي نقله: «وهذا النص للجاحظ يدل على حسن لغوي بالغ الدقة، فإذا نظرنا في الألفاظ القرآنية التي ذكرها وجدنا أن ملاحظاته كلها دقيقة صحيحة»¹. وشيء قريب من هذا الذي أتى به الجاحظ البياني أتى به بياني آخر هو الجرجاني عبد القاهر لما تعرض للآية: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي﴾². تحدث في ظل تأسيس نظرية لنظم عن مناسبة هذه الألفاظ لبعضها البعض، ومناسبة كلمات أرض لوصف البلع، وسماء لوصف الإقلاع³ وغيرها. أما عن واقع تفسير المصاحبة أو التلازم في معجم «البارع» فنورد منه بعض الأمثلة موزعة على نوعين:

النوع الأول: وهو ما يكون من مصاحبة التضاد أو قريباً منه (المغايرة) ومنه:

- قد ظهر عند القالي في البارع لما عالج مادة (مات) وقد استشهد لها بقول الشاعر وفيه:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

وقال أبو الحسن وقال غير أبي العباس: الحيوان كل شيء الموت والموتان.

يقال: من أحيأ مواتا فهو له. وقال الله عز وجل ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾⁴. وقال الخليل: الموت خلق من خلق الله، كما قال جل ثناؤه ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾⁵. وتقول مات فلان وهو يموت موتاً، وأماته الله، والله تبارك وتعالى مميت الأحياء ومحْيي الموتى والأموات.

...والميتة في البحر والبر ما لم تدرك ذكاته... وموتان الأرض التي لم تحي بعد⁶. وانظر للمصاحبة والتلازم الظاهر في التفسير والمعالجة خاصة ما كان في نصوص الاستشهاد حيث جاءت ثنائية (الموت والحياة) المبنية على التضاد في الشعر (ميت الأحياء)، ثم القرآن (الميتة أحييناها)، ثم الحديث (من أحيأ مواتا فهو له) هذا طرف من حديث وإن لم يصرح به. ثم كلام اللغويين المعبرين ممن شافهوا الأعراب مثل الخليل حيث قال: والله تبارك وتعالى مميت الأحياء ومحْيي الموتى والأموات.

ثم إن النص المعجمي الذي عالج فيه البارع لفظ (مات) جاءت فيه ثنائية أخرى عرفها اللغوي بالمصاحبة والتلازم أيضاً، وبنيت العلاقة فيها على التغاير، وذلك في قوله: «والميتة في البحر والبر» «البر

¹ المرجع السابق، ص 112.

² هود: الآية 44.

³ دلائل الإعجاز، الجرجاني عبد القاهر، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني، القاهرة، (دط)، (دت)، ص 43.

⁴ يس: الآية 33.

⁵ الملك: الآية 2.

⁶ البارع، القالي، ص 704-707.

والبحر» غالبا ما يقتصران وذكر أحدهما يستدعي الآخر ودونك النصوص المتينة التي تحتج بها العرب في كلامها.

النوع الثاني: وهو ما يكون من مصاحبة الاستعمال المتعدد ومعانيه ودلالاته. ومنه:

- الوغل من الرجال المقصّر تقصيرا في الأمور.

والوغل من الرجال الساقط.

والوغل الضعيف.

والوغل المدعي نسبا غير نسبه.

والوغل السيء الغذاء¹.

إن أبا علي القالي في معجمه البارع، وقد ضمّنه هذا النمط من تفسير وشرح المعنى في معالجة المواد المعجمية لم يكن إلا متبعًا، بل إن الذين ينقل عنهم- والبارع مستودع نقولات- هم بناء المعجم العربي، وعُرف هذا الأمر عند أول المعجميين الخليل بن أحمد في معجمه «العين»، وظهر الأمر نفسه عند من أتى بعده ابن دريد في الجمهرة، وهو شيخ القالي، وهكذا التسلسل في الأمر حتى وصل إلى البارع.

د- تفسير بالسياق:

ونقصد بالسياق هنا ما يصاحب اللفظ مما يساعد على توضيح المعنى، وقد يكون التوضيح بما ترد فيه اللفظة من الاستعمال، وقد يكون ما يصاحب اللفظ من غير الكلام مفسرا للكلام؛ وقد تكون العلاقة بين هذا الكلام وبين شيء آخر كلاما كان أو غير كلام، داعيا إلى استعمال اللفظ بالطريقة التي يستعمل بها في اللغة².

والمنظرون في هذا المجال من أصحاب علم المعاجم وعلم الدلالة لهم في ذلك اجتهادات في توضيح أنواع السياقات المختلفة، وقد تختلف رؤاهم في بعض الأنواع والتفريعات عنها.

د-1- السياق اللغوي:

معلوم أن الكلمة لديها معنى معجمي، وقد يكون ثابتا مركزيا، تدور حوله معان أخرى تتولد عن طريق السياقات المختلفة التي ترد فيها هذه الكلمة. وكذا دواعي الاستعمالات المتعددة لللفظة الواحدة. وقد ظهر هذا النوع من التفسير والشرح عند القالي في البارع، واستند في ذلك على الشواهد المختلفة، ونستظهر مثالا فيما يلي:

¹ البارع، القالي، ص 405.

² المعاجم اللغوية، محمد أحمد أبو الفرج، ص 116.

- قال أبو علي فيما ينقله عن الخليل:

قال والهيد بفتح الهاء وسكون الياء الحركة. تقول هدته أهيده هيدا كأنك تحركه ثم تصلحه تقول من هذه يا رجل أي أزاله من موضعه، ومنه قولك: هدت الرجل أهيده هيداً وهاداً إذا زجرته، وأنشد:

حَتَّى اسْتَقَامَتْ لَهُ الْآفَاقُ طَائِعَةً فَمَا يُقَالُ لَهُ هِيدٌ وَلَا هَادٍ

والهيد من قولك هادني هيداً أي كريني. قال الشاعر:

أَلَمَّا عَلَيْهَا فَانْعِيَانِي وَأَنْظُرًا أُنْصِبُهَا ذِكْرِي أَمْ لَا يَهِيدُهَا

والهيد في الحداء قال الكمية:

مُعَاتِبَةٌ لَهْرٌ حَلَا وَحُوبَا وَجَلَّ غِنَائِهِنَّ هَيَا وَهَيْدٍ

لأن الحادي إذا أراد الحداء، قال هيد هيد ثم زجل بصوته.

وبعد الفرع هيد هيد يزجي بذلك ويحث الهوادة...¹.

فالقالي كان قد أحسن الصنعة في معجمه «البارع»، وقد تبع آثار من سبقه في عديد قضايا الترتيب الداخلي المختلفة، ومنها شرح وتفسير المعنى المعجمي».

د-2- السياق الاجتماعي:

والمقصود به هنا اتصال الكلام بالمجتمع، فالكلام إنما يعكس صورة ومظهر المجتمع الذي يتكلم لغة ما، فهذه الظروف التي يحياها، ويعيش فيها ترتبط بما يتكلمه، فالإنسان غير مفصول عن العالم الذي يعيش فيه، وإن أهم وسيلة نقل صور المجتمعات البائدة هي اللغة.

وظهر التفسير بالسياق الاجتماعي في البارع، ومنه ما نقله القالي فيما يلي: قال يعقوب: «الشبرق بكسر الشين وفتح الراء هو الخلة، وهو ينبت بأعلى نجد، وأكثره بالحجاز وهو يرتفع من الأرض ذراعاً، وله ورقة غبراء، إذا يبست انحنت، وهو صالح للإبل إذا كان رطباً نعم المرتع للإبل والعنز. ولا ينفع الضأن شيء من الشبرق إلا أن تكون حواء السحاء قبل أن يخرج شوكتها. وييس الشبرق قليل الخير وإن رعته الإبل.

وقال الخليل: شبرق نبات غضّ. والشبرقة تنثيف الشيء البازي وهو نهسه وثوب مشبرق أفسد نسجا وسخافة. وتقول: صار الثوب شباريق أي قطعاً. وقال ذو الرمة في نسج العنكبوت:

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه على عصويها سايرٍ مشبرق

ويقال ثوب شبارق أيضاً وأنشد:

وَأَصْبَحَ سِرْبَالُ الشَّبَابِ شَبَارِقًا

¹ البارع، القالي، ص 140-141.

والدابة تشبّرق في عدوها. وهو شدة تباعد قوائمها. قال الراجز: من جذبه، شبّراق شد ذي معق»¹. ومن خلال المعالجة المعجمية لهذه المادة عن القالي في البارع نقف على استخدامه للتفسير بالسياق الاجتماعي في تتبع معاني الألفاظ، ونجزم أن يكون الأمر قد حدث قصدا لا اتفاقا، فلا يعقل أن يغيب عن معجمي بارز في حدود القرن الرابع الهجري هذا الأمر.

فالقالي عندما أورد معنى النبت للشبّرق دخل في تفاصيل كثيرة لكنها متعلقة بهذا المعنى، قد يراها من لا يعرف خصائص المجتمع الذي تكلم هذه اللغة سليقة ضربا من التكلف، وخروجا عن المادة اللغوية المقصودة، وتبعد بالغاية المنشودة، لكن الرجل لم يكن بهذا الفكر، ولم يقدّر له وزنا ولا اعتبارا؛ ذلك أنه يعلم أن السياق الاجتماعي هو الذي فرض المادة الخاصة به. وكل ما أورده في هذه المادة وعالجتها، فإنه لا يخرج عن كونه استغل فكرة الشرح والتفسير بالسياق الاجتماعي لا غير.

وأنواع السياقات المفسر بها المعنى في المعاجم العربية القديمة عموما، ومعجم البارع على وجه الخصوص متعددة، لكن يمكن أن تتمحور حول نوعين أساسيين هما: السياق اللغوي والسياق الاجتماعي، فما أشار إليه البعض من اللغويين من السياق الثقافي يمكن أن ينضوي تحت السياق الاجتماعي وكذا سياق الموقف أو الحال أيضا قد يشمل اللغوي العام.

ولكن هذا الأمر لا يمنع أن نلمح بعض الإشارات في معجم «البارع» من هذا النوع أو ذاك من السياقات الفرعية، ونرصدها فيما يلي:

ونستهل بالسياق الثقافي والذي يقول فيه أحمد مختار عمر: «وأما السياق الثقافي فيقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة...»².

وأما واقع الأمر في معجم «البارع» للقالي فيتجلى في كونه ينتمي إلى المسلمين دينيا، وأنه قد عاش ردحا غير قليل من الزمن بين ظهري العرب، خاصة مكوثه ربع قرن تقريبا ببغداد، وخالط من يتحكمون بزمام اللغة العربية آنذاك، ومن توفر له هذا كله فلا عجب أن يتطبع بطباعهم، وأن يتطلع إلى أحوالهم وظروفهم التي يحيونها؛ فهو أصبح منهم وينتمي إليهم.

والحاصل أن الرجل تشبع بثقافة عربية مشرقية، وقد ظهر إشعاعها في معجمه البارع، ولو نظرنا إلى جزء مهم مثل ما يتعلق بالثقافة الإسلامية، قد يوضح تفسير المعنى بالسياق الثقافي عند البارع. فالمسلمون لهم عبادات وأحكام ومصطلحات معروفة عندهم بموجب تعاليم دينهم، وهم فيها سواء عوامهم

¹ البارع، القالي، ص 531.

² علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 71.

وخواصهم، هذه العبادات والأحكام والمصطلحات، وما يتعلق بالدين الإسلامي الخفيف عموماً إنما يعبر عنها بالفاظ تدور في الحقل الدلالي الواحد (الدين الإسلامي).

ولما كان الأمر كذلك بمعنى أن الرجل ألف معجمه «البارع» أحادي اللغة خاصاً بالعرب ذوي الديانة الإسلامية، فالخصائص المشتركة بين المنشئ والمتلقي لها دور مهم في تفعيل هذا النوع من السياقات، والذي من شأنه أن يضمن الاقتصاد في اللغة من ناحية، ومن ناحية أخرى كشف الغموض الذي يكتنف الألفاظ باستعمال السياق الثقافي الديني، ومن ثمة يحصل التنوع في وسائل تفسير وشرح المعنى في المعجم العربي.

وأما تطبيقات السياق الثقافي عند القالي في معجمه «البارع» فنورد بعضاً منه على النحو التالي:

- جاء في «البارع» قوله: «والهيد في الحداء. قال الكميت:

مُعَاتِيَةٌ هُنَّ حَالًا وَحُوبًا
وَجُلٌّ غِنَائِهِنَّ هَيَا وَهَيْدٍ

لأن الحادي إذا أراد الحداء. قال: هيد هيد. ثم زجل بصوته»¹.

التحليل:

إن القالي لما ذكر لفظ «الحداء» لم يكن محتاجاً لشرحه وتعريفه وتفسيره - وإن كان في الشاهد الشعري الذي ساقه فيه ما يوضح ذلك - فهو قد عوّل على ثقافة العربي عموماً في ذلك، فالأمر بات معلوماً من اللغة بالضرورة، فوسيلة الأسفار الشائعة عندهم الإبل، والحادي معها ضروري؛ فهو يحقق مصلحة عامة؛ يغني للإبل لتزيد في السير، ويروح عن نفسه وعمن معه من الراحلين لتخفيف عناء السفر، والحمل بالكلام معلوم في رفع المشقة والتعب عند طول السفر.

وانظر إلى صنيعه كيف اتخذ من السياق الثقافي الاجتماعي وسيلة لتفسير وشرح المعاني بأوجز العبارات، وقليل الألفاظ.

وجاء في البارع ما نصه: «... قال الأصمعي: وفي الصلاة وتعالى جدك، وفي القرآن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾»²

كما لا يفوتنا أن ننبه على شيء من السياق العاطفي الذي يقول فيه أحمد مختار عمر: «وأما السياق العاطفي فيحدد درجة القوة والضعف في الانفعال، مما يقتضي تأكيداً أو مبالغة أو اعتدالاً... قال: كلمة يكره في العربية غير ييغض رغم اشتراكهما في أصل المعنى»³.

¹ البارع، القالي، ص 141.

² الجن: الآية 3.

³ علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 70-71.

وهذه إشارة من «البارع» تبرر التفسير بالسياق العاطفي، فقد نقل القالي عن الخليل قوله: «التعب الودع وهو الهلاك»¹.

فمعلوم أنه ضمن الحقل الدلالي لكلمة الموت الهلاك، والردى وغيرها من المرادفات ذات المعنى الواحد أو أصل المعنى، لكن ما الذي يعدل بالمعجمي وغيره عن استعمال كلمة الموت، المنيّة، الوفاة، إلى الهلاك؟ ولو أن هناك لفظاً أقوى عاطفة من الهلاك للجأ إليه، فما الذي يجبره على هذا الأمر؟ إنه السياق العاطفي، تقول مات فلان، ولكن من تتمنى له الموت تقول في خبره هلك فلان.

هـ- معالجة التراكيب اللغوية:

الأصل في الكلام العربي الإفراد، لكن نجد في اللغة ما ركب من مفردين أو أكثر، وهذا التركيب قد يكون إسنادياً أو غير إسنادي كالإضافي والمزجي وغيرهما. ولقد تعرض أصحاب المعاجم العربية لهذا الأمر أثناء معالجة المواد اللغوية، وما القالي إلا واحد من جمع عالج التراكيب المتنوعة في المعاجم.

هـ-1- شرح تركيب بتركيب:

- قوله: «قال الخليل: وتقول لا غرو في معنى لا عجب. وقال أبو بكر: يقال: لا غرو أي لا عجب»².

- وقوله: «أبو زيد: يقال ما أحسن ودس الأرض! بفتح الواو والدا، أي ما أحسن استواء نباتها»³.

هـ-2- تراكيب مبنية على الإنباع:

- قوله: «ويقال جاء من الناس الهوش والبوش بفتح الهاء، يعني الكثرة»⁴.

- قوله: «ورجل هين لين، وفي لغة تخفف هين لين، وقال الشاعر:

هَيْنُونَ لَيْنُونَ فِي مَجَالِسِهِمْ
مِنْ خَيْرٍ مَاتَى أَتَاهُمُ الْأَدَبُ»⁵

- قوله: «وقال الأحمر: طعام سيغ ليغ، وهو الذي يسوغ في الحلق. ويقال: لغت الشيء أليغه ليغا مثل لصته أليصه ليصا إذا راودته عنه»⁶.

فمن خلال شرح اللفظ الثاني من التركيب تدرك بأن علاقة معناه بالأول بعيدة، وإنما هي التبعية اللفظية التي تحقق الجرس الصوتي أكثر من التأكيد المعنوي.

¹ البارع، القالي، ص 356.

² المصدر نفسه، ص 407.

³ نفسه، ص 703.

⁴ نفسه، ص 101.

⁵ نفسه، ص 128.

⁶ نفسه، ص 405.

هـ-3- تراكيب خادمة للتوكيد:

- قوله: «ويقال رغما دغما شَنَغَما، هذا كله توكيد للرغم»¹. وهذا كما يقول النحاة: «جاء القوم أجمعون أكتعون أبصعون».

هـ-4- تراكيب متعددة لمعنى واحد:

- قوله: «باقتهم البائقة، وفقرتهم الفارقة، وصلّتهم الصالة، بمعنى واحد»².

وقال: «باقتهم البائقة، وهي تبوقهم بؤوقا أي نزلت بهم نازلة»³.

- قوله: «ويقال هذا رجل ناهيك من رجل، وجازيك من رجل، وهمتك من رجل وكافيك من رجل وحسبك من رجل، وكله واحد. ويقال هذا رجل شرعك من رجل، وه مثل الكافي والجازي والناهي»⁴.

- قوله: «قال أبو علي، قال يعقوب: البُلْهَق بالضّمّ والبُلْهَق بكسر الباء واللام وسكون الهاء الكثيرة الكلام التي ليس لها صَيُور أي رأي يرجع إليه. يقال: رجل ليس له صيور، وليس له زُور وليس له محجر، وليس له جول عقل أي ليس له محصول...»⁵.

- قوله: «وَادَمَغ الرجل طعامه وشرابه آدماعا على افتعل افتعالا، وازدرده ازدرادا، واسترطه استراطا وابتلعه ابتلاعا، وكله واحد وذلك بعد المضغ»⁶.

والقالي في معالجاته للتراكيب ينبه على بعض التراكيب الخاطئة، ويصوّب. في مثل قوله: «قال أبو علي، قال أبو حاتم: العرب تقول ما أبغضك إليّ، ولا يقال أبغضك لي ولا ما أبغضني لك، ويقال بغض فلان إذا صار بغیضا. ويقال: أبغض به وأحب به أي ما أبغضه وما أحبه»⁷.

¹ المصدر السابق، ص 324-325.

² المصدر نفسه، ص 510.

³ نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ نفسه، ص 125.

⁵ نفسه، ص 190.

⁶ نفسه، ص 355.

⁷ نفسه، ص 262.

المبحث الثاني: الاستشهاد وأنواعه في البارع

إن المعجمي أثناء معالجة المواد المعجمية لأحوج ما يكون إلى ما يدعم كلامه على معاني المفردات، فهو يعتمد التماس الأقوال المتينة من منظوم ومنثور، كانت قد جرت الأعراف اللغوية بين متكلمي اللغة العربية من قدم بحجّيتها، فهي تمثل الدعامة الضرورية التي لا غنى لمعجمي عنها، فاللغويون المعجميون يدركون تماما القيمة العلمية لهذا الأمر، لذا حرصوا على تعزيز أحكامهم اللغوية في المعالجة المعجمية بما يطعمون به نصوصهم مما يحتجّ به، وقد يعاب بالمقابل على المعجمي خلوّ مواده مما يستشهد به تقوية لكلامه عن المعاني التي رمى إليها، بل عدّوا ندرة الاستشهاد في المعجم من عيوبه.

وإذا، فإنّ الاستئناس بما يقوي الكلام ويشقّعه عند المعجميين أصبح منهجا وطريقة اتبعها الأولون، واقتفى أثرهم في ذلك المتأخرون ممن أتوا بعدهم وألفوا في المجال المعجمي واستحسنوا الصنعة في ذلك الأمر. أمّا ما يمثل مادة الاستشهاد عند اللغويين العرب فزخم لغوي هائل قلّما تجد نظيره عند أمم قد غبرت، وعفا عنها الزمن، وهذه الثروة اللغوية الخادمة للكلام العربي متباينة في شكلها بين منظوم ومنثور فضلا عن كلام الله جلّ وعلا "القرآن الكريم"، والمعجمي لا يجد بدءاً من الاحتجاج لكلامه خاصة إذا رمى إلى معنى بعيد غريب. والقانون العلمي في ذلك صارم فلا اعتبار لكلام غريب غير مشقّع بما يتقوى به من النصوص المتينة شعرها ونثرها.

ولقد ظهرت أنواع الاستشهاد المختلفة في المعاجم العربية القديمة بنوعيتها المعاني والألفاظ على حدّ سواء، وكما أسلفت الذكر فالأمر دخل الأعراف اللغوية التي درج عليها أهل المعاجم وإنه ليعاب على من قصر في الأمر.

ومعجم البارع لأبي علي القالي قد أخذ حظه الوافر من ذلك، فتنوع احتجاجه بين القرآن والقراءات والحديث النبوي الشريف من جهة، ومن جهة أخرى كلام العرب الفصحاء الذي يظهر في الشعر والكلام المنثور الذي تقوم به الحجة كالأمثال والحكم والخطب وغيرها.

أولاً- القرآن الكريم:

قبل الكلام عن استشهاد القالي في البارع بالقرآن الكريم حرّى بنا أن نقف عند تعريف القرآن في اللغة والاصطلاح.

قال الخليل-رحمه الله-: «وقرأت القرآن على ظهر قلب أو نظرت فيه، هكذا يقال ولا يقال قرأت إلا ما نظرت فيه من شعر أو حديث.

وقرأ فلان قراءة حسنة، فالقرآن مقروء، وأنا قارئ.

ورجل قارئ عابد ناسك، وفعله التَّقَرِّي والقراءة¹».

وقال ابن فارس - رحمه الله -: (قري) .

«وإذا همز هذا الباب كان هو والأول سواء. يقولون: ما قرأت هذه الناقة، كأنه يقول ما حملت قطّ.

قال:

ذِرَاعِي عَيْطَلٍ أَوْ أَدْمَاءَ بَكْرٍ هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا

قالوا: ومنه القرآن، كأنه سُمِّيَ بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك².

وقال الجوهري: « (قرأ): وقرأت الشيء قرأنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض، ومنه قولهم: ما

قرأت هذه الناقة سلاقط، وما قرأت جنينا، أي لم تضم رحمها على ولد.

وقرأت الكتاب قراءة وقرأنا، ومنه سمي القرآن. وقال أبو عبيدة: سمي القرآن لأنه يجمع السور

فيضمها. وقوله تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ» أي جمعه وقراءته «فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» أي قراءته. قال

ابن عباس: فإذا بيناه لك بالقراءة فاعمل بما بيناه لك. وفلان قرأ عليك السلام، وأقرأك السلام، بمعنى وأقرأه

القرآن فهو مقرئ، وجمع القارئ قرأة، مثل: كافر كفره.

والقراء الرجل المتنسك، وقد تقرأ، أي تنسك. والجمع القُرَّاءون. قال الفراء: أنشدني أبو صدفه

الدُميري:

بَيِّضَاءَ تَصْطَاذُ الْغَوِيِّ وَتَسْتَبِي بِالْحُسْنِ قَلْبَ الْمُسْلِمِ الْقُرَّاءِ

وقد يكون القراء جمعا لقارئ³.

ولقد تعرض جمع من العلماء المتقدمين والتأخرين إلى تعريف القرآن اصطلاحاً، لعنا نقف عند

بعضهم، ونكشف عما أوردوه في هذا الأمر.

قال ابن جرير الطبري المفسر الكبير (253 هـ):

وحدثني محمد بن منصور الأملي، حدثنا الحكم بن محمد الأملي أبو مروان: «القرآن كلام الله منه

بدأ وإليه يعود»⁴.

وقال الزركشي (794 هـ): «فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز»⁵.

¹ العين، الخليل، 205/5.

² المقاييس، ابن فارس، 79/5.

³ الصحاح، الجوهري، ص 65.

⁴ صريح السنة، الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، تج: بدر بن يوسف المعتوق، مراجعة: بدر بن عبد الله البدر، مكتبة أهل الأثر، الكويت، ط2، محرم 1426 هـ - كانون الثاني 2005 م، ص 26.

⁵ البرهان في علوم القرآن، الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، (دط)، (دت)، 318/1.

وهنا نعرض لتعريفين من تعريفات المحدثين للقرآن الكريم:

وينقل القطان عن العلماء تعريفا للقرآن هو: «كلام الله المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته»¹.

وقال محمد معبد: «هو كلام الله تعالى المعجز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، المنقول إلينا بالتواتر المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة والمختتم بسورة الناس، والمتحدى بأقصر سورة منه»².

أما عن الشاهد القرآني في معجم البارع للقيالي فقد ظهر بشكل بارز، ورغم أن الموجود من المعجم ومادته لا يمثل إلا الجزء اليسير إلا أن الشواهد القرآنية تسعة عشر ومائة (119) إحصاءً، وهذا مما يدل على عناية القالي في البارع بشواهد القرآن الكريم في تقوية ما يرمي إليه من معان في معالجة مواده المعجمية. وأهل المعاجم القديمة عموماً - والقالي منهم - عند إيرادهم للشاهد من القرآن الكريم لهم فيه أحوال نوضحها فيما يلي:

أولها: أنهم قد يوردون الشاهد القرآني للاحتجاج بلفظه.

ثانيها: أنهم قد يستأنسون بالشاهد القرآني للمشابهة الحاصلة فيما يرمون إليه من معان ولا مسعف لهم إلا ذاك.

ثالثها: أنهم يأتون بالشاهد القرآني ولا يكتفون به، بل يتطرقون إلى القراءات الأخرى في الشاهد الواحد.

رابعها: يوردون الشواهد القرآنية مشققة بتفسيرها، لكن هذا التفسير يعتبر تفسيراً لغوياً.

والقيالي في معجمه البارع لم يخرج عن هذه الأحوال في استشهاده بالقرآن الكريم، فمن الأول نجد قوله: «ولا يقال جُدَّد بضم الجيم وفتح الدال الأولى إلا للخطوط والواحدة جُدَّة بضم الجيم وفتح الدال وشدها مع هاء التأنيث. وفي القرآن: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ﴾³ بضم الجيم وفتح الدال الأولى»⁴.

ومن الثاني قوله: «والجد العظمة. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّهُ نَعْلَى جَدْرَبْنَا﴾⁵ أي عظمة ربنا»⁶ ومن الثالث قوله: «قال أبو علي، قال الأصمعي: يقال وَهَنَ يَهِنُ بفتح الواو والهاء، في الماضي وكسرها في المستقبل. وبعضهم يقول: وَهِنَ يَهِنُ على مثال وِرم يَرم. ومن الأعراب من يقرأ (فما وهنوا) بكسر الهمزة،

¹ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، 1995، ص16.

² نفعات من علوم القرآن، محمد أحمد معبد، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ط1، 1406هـ - 1986م، ص13.

³ فاطر: الآية 27.

⁴ البارع، القالي، ص572.

⁵ الجن: الآية 03.

⁶ المصدر نفسه، ص575.

وأكثرهم يقرأ (وهنوا) بفتح الهاء. قال أبو حاتم: وحدثنا أبو زيد أن فَعْنَباً أبا السموأل العدوي قرأ ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾¹. والواهن الضعيف في قوته الذي لا بطش عنده»².

فأبو علي القالي هنا كان يكفيه شاهدا قرآنيا واحدا لقراءة واحدة، لكنه أثر الإتيان بالقراءة الأخرى، أي قراءة «وهنوا» بكسر الهاء ليضمها للقراءة الشائعة - كما ذكر - في الاستشهاد.

ومن الرابع قوله: «الانضمام والاستواء كما يتسق القمر إذا تم واستوى واستوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت. والراعي يسقها أي يجمعها، وقول الله تبارك وتعالى ﴿وَاللَّيْلَ وَمَا وَسَقَ﴾³ وما جمع. ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ﴾⁴ إذا تم وامتلأ»⁵.

والقالي في معجمه البارع حينما يتعرض لتفسير الشاهد القرآني، فإنه لا يعدو أن يكون تفسيراً لغوياً، والغالب عليه في ذلك أنه يقتصر على كلمة واحدة في ذلك الشاهد فيفسرها على مثل طريقة معاجم الغربيين، وليس ببعيد أن يكون قد أفاد تلك الطريقة من كتب الغريب المتخصصة.

وقد ظهر هذا الأمر في مواضع عديدة من البارع ومنها:

- قوله: قال الله عز وجل: ﴿وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّاجَمًّا﴾⁶ أي كثيراً. واضح هنا أنه يقصد بـ«كثيراً» شرح وتفسير «جمًّا»، فهي التي تبدو غريبة⁷.

- قوله: وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾⁸. أي الباطل.

ما يُثَمَّن في عمل أبي علي القالي المعجمي في البارع، هو عنايته بالشواهد التي تعتبر روافد تعزز وتقوي ما يرمي إليه من معان، وهذا دأب المعجمي المجيد في فنّه، فالشاهد ضالته وحسن الاستئناس به في المواضع المناسبة لذلك إنما هو ينبئ عن صنعة الصانع، ومهارة المعجمي، فالقالي أجاد حينما جعل البارع حافلاً بالشاهد القرآني، فهو عنده يأتي في المرتبة الثانية من حيث العدد.

¹ آل عمران، الآية 146. قراءة الفتح، أما الكسر فشاذة معزوة لأبي السموأل. وانظر: البارع، القالي، ص 123. الهامة.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ الانشقاق: الآية 17.

⁴ الانشقاق: الآية 18.

⁵ البارع، القالي، ص 493.

⁶ الفجر: الآية 20.

⁷ البارع، القالي، ص 598.

⁸ الفرقان: الآية 72.

ثانياً- القراءات القرآنية:

يرى الكثير أن القراءات القرآنية هي القرآن الكريم، وهذا صحيح من الناحية التعبدية الخالصة، أما من جهة الدراسة والبحث والتحقيق فشيء آخر؛ لأن أهل الفن والاصطلاح يفصلون بينهما، فهم يعتبرون علم القراءات علماً مستقلاً عن علوم القرآن، وله آلياته في الدراسة واصطلاحاته ومفاهيمه الخاصة به.

1- تعريف القراءات القرآنية:

أ- لغة: في اللغة: قراءات جمع لقراءة، قرأ يقرأ قراءةً والجمع قراءات.

قال الفيروز آبادي: «وقريت الصحيفة فهي مقرية: لغة في قرأتها. وقال القرؤ: القصد، والتتبع، كالاقتراء والاستقراء»¹.

ب- اصطلاحاً: يقول الزرقاني معرفاً القراءة: «مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم، مع اتفاق الروايات والطرق عنه سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها»².

قال السيوطي عند كلامه على تقسيم الإسناد إلى عال ونازل ما نصه: «ومما يشبه هذا التقسيم الذي لأهل الحديث تقسيم القراء أحوال الإسناد إلى قراءة، ورواية، وطريق ووجه. فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم؛ واتفقت عليه الروايات والطرق عنده فهو قراءة. وإن كان للراوي عنه، فرواية، أو لمن بعده فنازلاً فطريق. أولاً على هذه الصفة مما هو راجح إلى تخير القارئ فيه فوجه»³.

ويقول إمام القراء ابن الجزري في هذا الشأن: «القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة... والمقرئ: العالم بما رواها مشافهة، فلو حفظ التيسير - مثلاً - لس له أن يُقرئ بما فيه إن لم يشافهه من شؤفه به مسلسلاً؛ لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسمع والمشافهة. والقارئ المبتدئ من شرع في الأفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات. والمنتهى من نقل القراءات أكثرها وأشهرها»⁴.

وجدير بالذكر هنا توضيح الفرق بين القرآن والقراءات؛ ذلك أن الكثير يخلط بين المصطلحات المتقاربة اللفظ. يقول الزركشي في البرهان: «القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز. والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابه الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما»⁵.

¹ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص1330.

² مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، تحقيق وعناية: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، (دط)، (دت)، 336/1.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلاً عن: الإتيقان، السيوطي، 234/1.

⁴ منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ابن الجزري، مكتبة القدسي، القاهرة، (دط)، 1350هـ، ص3.

⁵ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 318/1.

2- شروط قبول القراءة: وضع أهل العلم شروطاً لقبول القراءة والاعتداد بها في العمل التعبدية والاحتجاج بها.

فهذا إمام القراء ابن الجزري (833هـ) يقرر: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها، ولا يحل إنكارها...»¹.

وقد نظم تلك الشروط اختصاراً علم القراء ابن الجزري في موضع آخر، حيث قال²:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ	وَكَانَ لِلرَّسْمِ احْتِمَالًا يَحْتَوِي
وَصَحَّ إِسْنَادُهُ هُوَ الْقُرْآنُ	فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْأَرْكَانُ
وَحَيْثُمَا يَخْتَلِ زَكْنٌ أَثَبَتْ	شُدُودُهُ لَوْ أَنَّهُ فِي السَّبْعَةِ

ويتلخص ذلك الأمر في ضابط العربية (ولو وجهها من الوجوه النحوية)، وضابط الرسم (أي أن يوافق رسم أحد المصاحف العثمانية)، وضابط السند (المتواتر الصحيح).

3- أعداد القراءات:

اشتهرت عبارات وجرت على الألسن ألفاظ مختلفة مبينة لعدد القراءات القرآنية، فقد سُمع: القراءات السبع، والقراءات العشر، والقراءات الأربع عشرة.

ولا يختلف اثنان في كون المصطلح الأكثر شيوعاً ورواجاً هو القراءات السبع.

يقول الزرقاني موضحاً هذا الأمر (أي القراءات السبع): وهي القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة المعروفين، وهم: نافع، وعاصم، وحمة، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمر بن علاء، وعلي الكسائي.

أما عن القراءات العشر فما تقدم ذكره من السبعة، وزيادة قراءات هؤلاء الثلاثة: أبي جعفر، ويعقوب، وخلف.

وأما عن القراءات الأربع عشرة فزيادة أربعة على قراءات هؤلاء العشرة المتقدمة، وهي قراءة الحسن البصري، وابن محيص، ويحيى الزبدي، والشنبوذي³، وفي الكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وفي الشام على قراءة ابن عامر، وفي مكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع⁴.

¹ المرجع السابق، 9/1.

² طبعة لنشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تح: محمد تميم الزعبي، مكتبة الهدى، المدينة المنورة، ط2، 1414هـ - 1994م، ص22.

³ مناهل العرفان، الزرقاني، 399/1 - 340.

⁴ المرجع نفسه، 399/1.

هذا وتجمع المصادر المعتبرة في هذا العلم على أن القراءات السبع لم تلق حظها من التدوين حتى نهاية القرن الثالث، إذ نهض ببغداد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى ابن عباس، فجمع قراءات هؤلاء الأئمة السبعة غير أنه أثبت الكسائي، وحذف يعقوب.

ومهما يكن من أمر فإن اللغوي في فسحة من أمره في الاحتجاج بالقراءة على إثبات لفظ أو اشتقاقه، أو استقصاء معاني بعض الألفاظ، فهناك فرق في الحكم بين إثبات القراءة للتعبّد العملي، وإثباتها للإفادة اللغوية العلمية.

أما عن الواقع العملي للاستشهاد بالقراءات في المعجم «البارع» فإن القالي لم يدّخر جهداً في الاحتجاج بها، وإن كان حفوله بهذا النوع من الاستشهاد أقل من سابقه القرآن الكريم، إلا أن الرجل لم بعدم حظاً في ذلك.

والقالي قد يورد القراءة، وربما نص على صاحبها حيناً وترك ذلك أحياناً، ثم إنه قد يجمع القراءات المتعددة في موضع واحد، وقد يعدل عن ذلك، وقد يحكم بضعفها أو شذوذها أو تركها، وقد يكتفي بذكرها.

وما عمله ذلك إلا أن يكون من جملة المقرّين بجواز الإستشهاد بالقراءات القرآنية، وبما تثبت به الحجة في اللغة. أما التمييز بينها فقد يرجع لقوة السند الخاص بكل قراءة.

وإذا، ورغم المواضع القليلة التي استشهد فيها القالي بالقراءات القرآنية، إلا أنها تختلف في أحوال إيرادها عن بعضها البعض، وهذا من صنعة الرجل، وجملة ما استشهد به القالي في البارع من القراءات عشرة شواهد، نكشف عن بعضها فيما يلي:

فمن النوع الأول والذي نص فيه على صاحب القراءة نجد:

- قوله: قال أبو حاتم: حدثنا يعقوب القاري، سمعت بكر بن حبيب السهمي من باهلة، وكان فصيحا يقرأ: ﴿وَالْعَوَافِيهِ﴾¹ بالضم².

- فهنا ما يهمنا هو إقرار يعقوب ونقله، وهو صاحب قراءة لذلك في النقل قيده بهذا الوصف فقال: يعقوب القارئ لثلاً يلتبس مع من ينقل عنهم كثيراً في اللغة مثل يعقوب³ ابن السكيت.

- قوله: وقرأت القراء. ﴿مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾⁴ (فواق) بفتح الفاء وضمها.

فقوله: قرأت القراء. «ال» هنا للعهد العلمي كما هي عند البعض، يعني القراء المعروفين المشهورين.

¹ فصلت: الآية 26.

² البارع، القالي، ص 400.

³ المصدر نفسه، ص 501.

⁴ ص: الآية 15.

ومن النوع الثاني الذي يترك فيه التصريح بصاحب القراءة نجد:

- قوله: «وقال أبو حاتم: يقال فلان لا يَهْدِي الطريق بفتح الهاء والياء ويَهْدِي بفتح الياء وكسر الهاء في معنى يهتدي فأدغم التاء في الدال بعد أن ألقى حركة التاء على الهاء ففتحها أو طرح حركة التاء وكسر الهاء للاتقاء الساكنين وذلك رديء. ومثله في القرآن ﴿وَهُمْ يَخْصِمُونَ﴾ و﴿يَخْصِمُونَ﴾¹ بكسر الخاء أيضا يراد يختصمون»².

- ومن النوع الثالث الذي يورد فيه القراءات المتعددة في موضع واحد دون عزو واضح نجد:

- قوله: قال، وحدثنا أبو زيد قال: سمعنا من قيس من قرأ من الأعراب: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾³ والمصحف على السين، وكذلك السين والطاء مثل: الصراط والسرط⁴ قد قرئنا جميعا، وبسط الثوب والشيء أو بصطه»⁵.

- ومن النوع الرابع، والذي يعقب فيه بحكم بعد ذكر قراءة نجد:

- قوله: «وكان رؤية يقرأ: (فَأَمَّا الرَّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً)»⁶ بضم الميم على فُعال. وهو أعرابي تكلم بلغته ولا يُقرأ بها؛ لأنه يزيد لامًا وزعموا أنه لم يكن أجفأت القدر بزيدها. قال أبو حاتم: أجفأت القدر معروف إلا أنه لم يكن من لغة رؤية»⁷.

قد عَقَّبَ بحكم: «ولا يُقرأ بها»؛ ذلك أنه قد يصح الكلام لغة ولا يتعين قراءة، ولو أنه أتى من فصيح، فمن شروط قبول القراءة صحة السند، وموافقة المصحف العثماني، ووجه من وجوه النحو.

ومنه أيضا قوله: «وفي القرآن الكريم: ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾»⁸ ويجوز ﴿وَالْعَوَا فِيهِ﴾ بضم الغين⁹ فقوله «ويجوز» هذا حكم بين فيه أنَّ (الْعَوَا) بضم الغين هذا يجوز في اللغة العربية، ويتعين قراءة أيضا، والدليل أنه

¹ يس: الآية 49.

² البارع، القالي، ص 134.

³ المدثر: الآية 42.

⁴ قال ابن خالوية: في معرض إعرابه وتفسيره لأَم القرآن: «وفي السراط أربع لغات: السراط بالسين وهو الأصل، وبالصاد لحيء الطاء بعدها، والزاي الخالصة، وبالشام الصاد للزاي، كل ذلك قد قرئ به». وانظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خالوية، دار مكتبة الهلال، بيروت، (دط)، 1985، ص 28.

⁵ البارع، القالي، ص 358.

⁶ الرعد: الآية 17. والمصحف على الهمزة «جُفَاءً».

⁷ البارع، القالي، ص 644. قال في الهامش: في الكشف ومختصر في شواذ القرآن. قال أبو حاتم: ولا يقرأ بقراءة رؤية؛ لأنه كان يأكل الفأر (حَكَمَ) حوارم المروءة في هذه المسألة).

⁸ فصلت: الآية 26.

⁹ البارع، القالي، ص 400.

أسند الكلام إلى يعقوب القارئ بإقراره لذلك لما سمع بكر بن حبيب السهمي من باهلة، وكان فصيحاً يقرأ بها.

إن أبا علي القالي في معجمه البارع الذي أورد فيه شواهد القراءات القرآنية المحدودة، كان في عرضها إذا صرح فإنه يسند الأمر ليعقوب¹ القارئ - أحد القراء العشرة المعروفين - أو يسنده بصفة عامة للقراء فيقول: «وقرأت القراء» كما تقدم بيانه... وقوله: «ولذلك يقرأ بعضهم: ﴿وَالرَّجَزَ فَاهْجُرْ﴾»² وقراءة أخرى ﴿وَالرَّجَزَ فَاهْجُرْ﴾ واحد»³، أي واحد في المعنى رغم تغيير حركة الراء. فكلمة بعضهم تدل على بعض القراء المعروفين وقد يؤول إلى القراءات ولا يصح بذلك كما في قوله: «وهيت لك وهيت لك معناه أقبل...»⁴.

فالرجل على أمر عظيم كهذا، وإن كانت مادته فيه قليلة إلا أنه طعم نصوص معجمه البارع، بهذا اللون من ألوان الاستشهاد، وقد عرض استشهادات بما أملت عليه ثقافته في ذلك.

ثالثاً - الحديث النبوي الشريف:

لا يخفى على دارس اللغة قضية الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف عند اللغويين والنحاة، فبعضهم أقصاه، وبعضهم استشهاد به في قضايا دون أخرى، وتأخر، وآخرون استشهادوا به مطلقاً، فالجدل كبير في واحدة من أهم قضايا الاستشهاد، ولسنا فسحة من امرنا في هذا المقام وإلا بسطنا فيها الكلام.

¹ هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي بالولاء، البصري المقرئ المشهور، وهو أحد القراء العشرة، وهو المقرئ الثامن، وله في القراءات رواية مشهورة منقولة عنه. وهو من أهل بيت العلم بالقراءات والعربية وكلام العرب والرواية الكثيرة للحروف والفقه. وكان من أقرأ القراء. وأخذ عن عامة حروف القرآن مسنداً وغير مسند من قراء الحرمين والعراقيين وأهل الشام وغيرهم، وأخذ هو القراءة عرضاً عن سلام بن سليمان الطويل، ومهدي بن ميمون وأبي الأشهب العطاردي وغيرهم. وروى عن حمزة حروفاً. وسمع الحروف من أبي الحسن الكسائي، وسمع من جده زيد بن عبد الله وشهبة. وأما إسناده في القراءة فيلحق رسول الله ﷺ. وله كتاب سماه «الجامع» جمع فيه عامة اختلاف وجوه القراءات، ونسب كل حرف إلى من قرأ به، وتوفي - رحمه الله - في ذي الحجة، وقيل في جمادي الأولى، سنة خمس ومائتين، وهو الأصح. وعاش هو وأبوه إسحاق وجده زيد، كل واحد منهم ثمانية وثمانين سنة رحمهم الله أجمعين. وانظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، 6/ 390-391.

² المدثر: الآية 74.

³ البارع، القالي، ص 659.

⁴ المصدر نفسه، ص 132. فإن هذا اللفظ معروف في سورة يوسف: الآية 23. قال تعالى «وقالت هَيْتَ لَكَ»، وهي قراءة أهل العراق (هَيْتَ لَكَ) بفتح الهاء والتاء أي هلمّ وتعال وأقبل إلى ما أدعوك إليه... وقرأ أهل المدينة والشام (هَيْتَ لَكَ) وهي لغة.

وانظر: حجة القراءات، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، دار ابن الجوزي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط 1، 1435هـ - 2014م، ص 162.

1- تعريف الحديث النبوي الشريف:

أ- لغة:

قال ابن فارس: « (حدث) الحاء والداً والشاء أصل واحد، وهو كون الشيء لم يكن، يقال: حدث أمر بعد أن لم يكن، والرجل الحدث: الطري السن. والحديث من هذا؛ لأنه كلام يحدث منه الشيء بعد الشيء، ورجل حدث: حسن الحديث، ورجل حدث نساء إذا كان يتحدث إليهنّ، ويقال هذه حديثي حسنة. كخَطَّي يَراد به الحديث¹».

وقال الفيروز آبادي: «...والحديث: الجديد، والخبر...»².

ب- اصطلاحاً:

يقول ابن عثيمين-رحمه الله-: «الحديث ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو وصف»³.

ونقل القفيلي عن الحافظ ابن حجر قوله: علم الحديث ينقسم إلى قسمين:⁴
الأول: علم خاص بالرواية، وهو علم يشتمل على نقل أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وروايتها، وضبطها، وتحرير ألفاظها.

الثاني: علم خاص بالدراية، وهو معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى معرفة حال الراوي والمروي.
ويقول محمود عكاشة: «الحديث كلام رسول الله ﷺ المنسوب إليه لفظاً ومعنى أو معنى فقط وهو بلفظ الراوي، وهو في اصطلاح المحدثين: قول أو فعل أو تقرير نسب إلى النبي ﷺ، فالحديث الشريف قد يكون قولاً قاله ﷺ، ويروى عنه، وقد يكون قول الصحابي حدث بما رآه من فعل النبي ﷺ، أو أقره النبي ﷺ، على فعل، أو صدق قوله»⁵.

ولا شك أن فيما تقدم تعتبر السنة القولية في المقام الأول؛ لأن اللغوي على درب النحوي يسير أو يقاربه، فيهمّ لفظ النبي ﷺ بالدرجة الأولى ثم ما نسب إليه من معان بألفاظ آخرين.

¹ معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 32/1.

² القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص 194.

³ مصطلح الحديث، ابن عثيمين، دار الإمام مالك، الجزائر، ط1، 1423هـ - 2003م، ص 7.

⁴ النكت على مقدمة ابن الصلاح، الحافظ ابن حجر العسقلاني، 225/1، نقلاً عن: الثمرات الجنية بشرح المنظومة البيقونية، أحمد بن علي بن المشي

القفيلي، دار عمر بن الخطاب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 1426هـ - 2005م، ص 15.

⁵ علم اللغة، محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، (دب)، (دط)، 1428هـ - 2007م، ص 128.

هذا ومعلوم أن النبي ﷺ أفصح العرب، فقد اصطفاه المولى عزّ وجلّ من خير العرب نسبا وأكرمهم حسبا، وكانت قبيلته بنو هاشم إحدى قبائل قريش، وقريش أفصح قبائل العرب، وأعذبها منطلقا، وأصفها لفظا، وهي واسطة قبائل العرب¹.

ولا يعرف في تاريخ العربية الطويل ناطق بها أفصح من محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي ﷺ، على كثرة بلغاء العرب، وخطبائها المصاقع، وشعرائها المفلقين، وهي أمة القول والبيان، لاسيما في عهدها الأول، وقد أوتي عليه الصلاة والسلام من جوامع الكلم، وعلم ألسن العرب مالا يجاريه فيه أحد سبقه، أو جاء بعده².

وعموما يصدق عليه قول الجرجاني عبد القاهر في الدلائل: «ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة، ويأتيك منه ما يملأ العين ضربة، حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل، وموضعه من الحذق، وتشهد له بفضل المثنة وطول الباع»³.

والنقاد وعلماء الحديث يقررون أن فخامة المعنى وإشراق الديباجة وفصاحة اللفظ من أمارات صحة الحديث؛ لأن الركيك لا يكون من كلامه ﷺ⁴.

لذا جعلوا من علامات الحديث الضعيف أو الموضوع: أن يكون ركيك الألفاظ والمعاني⁵. والمقرر عند علماء مصطلح الحديث أن الحديث ينقسم إلى قسمين: صحيح، وضعيف. يقول البيهقي في ذلك⁶:

أَوْهَما الصَّحِيحُ وَهُوَ مَا اتَّصَلَ	إِسْنَادُهُ وَلَمْ يَشُدَّ أَوْ يُعْلَلْ
يُرويه عدل ضابط عن مثله	معتمد في ضبطه ونقله
والحسن المعروف طرقا وغدت	رجاله لا كالصحيح اشتهرت
وكل ما عن رتبة الحسن قصّر	فهو الضعيف وهو أقسام كثير

ويعرف الشريف الجرجاني الحديث الصحيح بقوله: «ما سلم لفظه من ركافة، ومعناه من مخالفة آية، أو خبر متواتر، أو إجماع، وكان رواية عدل، وفي مقابله السقيم»⁷.

¹ انظر: معالم البيان في الحديث النبوي، عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، مكتبة دار المنهاج، الرياض-المملكة العربية السعودية، ط1، 1435هـ، ص15.

² المرجع نفسه، ص13.

³ دلائل الإعجاز، عبد القادر الجرجاني، ص88.

⁴ معالم البيان في الحديث النبوي، عبد المحسن العسكر، ص15.

⁵ المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلا عن: مقدمة ابن الصلاح، ص279.

⁶ المنظومة البيقونية، البيهقي طه بن محمد الشافعي، دار المغني، المملكة العربية السعودية، ط2، 1427هـ -2007م، ص7-8.

⁷ معجم التعريفات، الجرجاني علي بن محمد السيد الشريف، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (دط)، (دت)، ص47.

ومن طريق المخالفة يكون الضعيف ما كان فيه ركافة لفظ أو مخالفة معناه لمعنى آية، أو غير متواتر، أو إجماع، أو رواية غير العدل لسبب من الأسباب.

أما عن الواقع العملي للاستشهاد بالحديث النبوي عند القالي، فقد ظهر الشاهد الحديثي بارزا في معجم «البارع»، وبلغ به صاحبه خمسة وتسعين (95) شاهدا حديثيا، وقد عرفنا سابقا أن الرجل تأثر بالخليل في العمل المعجمي لذلك فلا غرابة أن يحذو حذوه في الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف. فالقالي له أحوال في إيراد الشاهد الحديثي، فهو وإن كانت بداية تعلمه في علم الحديث إلا أنه لم يعن به عناية بالغة خاصة من حيث التخريج والترتبة ومن الصحة والضعف.

هذا، وقد ساق الرجل شواهد الحديثية بطرق متعددة؛ فتارة يسند للنبي ﷺ مباشرة، وتارة أخرى يأتي بعبارة «وفي الحديث»، وأخرى يذكر الصحابي أو على الأقل الراوي الأخير، وربما أتى بلفظ الحديث ولم يصرح به أنه حديث، كما أنه قد يشير إليه ولا يأتي بنصه. ومن النوع الأول الذي يسند الأمر فيه للنبي ﷺ نجد:

- قوله: «وقال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يدخل الجنة بعمله ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»¹ ذكر الشاهد عند معالجة (غمدة)².

ومن النوع الثاني الذي يقدمه بعبارة «وفي الحديث» نجد:

- قوله: وفي الحديث: «إذا صلى أحدكم فليزِم جبهته وأنفه التراب حتى يخرج منه الرِّغم»³. وهذا من الأحاديث التي شرحها بقوله: معناه حتى يخضع ويذل ويخرج منه كبر الشيطان»⁴.

- وقوله أيضا: وفي الحديث: «إن الحمى أغبطت عن النبي ﷺ عند وفاته»⁵. قال: وفي حديث آخر: «أصابته حتى مُعْطِه»⁶ بالميم أي دائمة، قلب الباء ميما⁷.

ومن النوع الثالث الذي يذكر فيه الراوي عن النبي ﷺ نجد:

¹ بهذا اللفظ لا يُعرف هذا الحديث، وإنما من الأحاديث الثابتة بهذا المعنى: «لن يُدخلَ أحدًا عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة...» الحديث، رواه البخاري عن أبي هريرة برقم 5673. كتاب المرضى. وانظر: صحيح البخاري، البخاري، تخرّيج: عز الدين ضلي وآخرون، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت - لبنان، (دط)، 1433هـ - 2012م، 440/2.

² البارع، القالي، ص 355.

³ النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تح: محمود محمد الطناحي - طاهر أحمد الزاوي، المكتبة الإسلامية، (دب)، ط1، 1383هـ - 1963م، 239/2.

⁴ البارع، القالي، ص 325.

⁵ ذكره في البخاري بلفظ: «أنه أغبطت عليه الحمى»، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 341/3.

⁶ المصدر نفسه، 387/3.

⁷ البارع، القالي، ص 342.

قوله: جاء في الحديث عن ابن عمر: «أنه نظر إلى غراميل الرجال في الحمام فقال: أخرجوني»¹ وكانوا مختنين غير شك².

وقوله أيضاً: وجاء عن حذيفة أنه قال: «يوشك بنو قنطوري أن يخرجوا أهل العراق عن عراقهم. كأني بهم خنس الأنواق خزر العيون عراض الوجوه، وقد شدوا خيلهم بنخل الفرات»³. وعقب القالي: ويقال - والله أعلم - إن قنطوري جارية لإبراهيم عليه السلام، ولدت له أولادا نسلهم الترك والصين⁴.

ومن النوع الرابع الذي يأتي فيه بلفظ الحديث ولا يصح به نجد: قوله: وقال في الذبح بحجر: «إِنْ لَمْ تَفْدَعْ الحلقوم فَكُلْ»⁵ ذكر ذلك عند معالجته ل (فدغ)⁶.

ومن النوع الخامس الذي يشير فيه للحديث ولا يأتي بنصه نجد: قوله: «فذبذبه: فرجه، وقبفه: بطنه، ولقلقه: لسانه، وحكى الخليل نحو هذا عن النبي ﷺ» قال هذا لما عالج (لقلق). .

والقالي مع الشاهد الحديثي في معجم البارع له أكثر من هذه الأحوال التي ذكرناها، لعلنا نتعرض لبعض المتفرقات منها فيما يلي:

- فقد يذكر بصيغة تمريض حديثاً ولا يشير إلى ذلك مثل قوله: «ويقال: من أحيا مواتاً فهو له»⁷. ذكر ذلك لما عالج (موت)⁸.

لما عالج القالي مادة (دجل)، أورد الآتي: «والدجال المسيح الكذاب. وإنما دجله سحره وكذبه؛ لأنه يدجل الحق بالباطل.

وقال: إنه رجل من اليهود يخرج في آخر هذه الأمة جاء بذلك الحديث عن النبي ﷺ»⁹. هنا في هذا المقام يحسن ذكر نص الحديث، والأمر هام يمسّ المعتقد.

¹ المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، تح: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1421هـ - 2000م، 92/6.

² البارع، القالي، ص 458.

³ النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 113/4.

⁴ البارع، القالي، ص 546.

⁵ النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 420/3.

⁶ البارع، القالي، ص 351.

⁷ ترجم البخاري بابا من أبواب كتاب الحث والزراعة في صحيحه بهذا اللفظ: (من أحيا مواتاً فهو له)، ولكن لفظه في الحديث هكذا: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له» روي ذلك عمر - رضي الله عنه - وانظر: صحيح البخاري، البخاري، 655/1.

⁸ البارع، القالي، ص 705.

⁹ المصدر نفسه، ص 686.

وقد قدم للشاهد الحديثي بهذا اللفظ في موضع: «وفي الصلاة: وتعالى جدك»¹. ذكر ذلك لما تعرض لشرح وتفسير معنى الجد.

فهو اجتزأ بذكر الصلاة عن الإشارة إلى أنه حديث عن النبي ﷺ، ذلك أنه من المعلوم من الدين بالضرورة أن الصلاة الأقوال التي فيها إنما هي نصوص الوحيين القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، وهو مع القرآن الكريم وقد تقدم الشاهد القرآني كان حريصا على التنبيه بقوله: قال الله عز وجل... أما الحديث فهو الذي عرف عليه فيه التذبذب في النص عليه والإشارة إليه.

ولما كان الأمر كذلك حتما تنصرم الأذهان عند قوله: وفي الصلاة لقول الرسول ﷺ، وهذا الذي ذكره إنما هو جزء من دعاء الاستفتاح الذي نصه الكامل: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»².

ثم إن الرجل قد يشرح الحديث أعني بذلك أنه غالبا إذا شرح يكتفي بكشف الغريب منه، وقد يعدل عن ذلك فيسوق الشاهد الحديثي لإثبات اللفظ فقط، أو لإبراز بعض المعاني الغريبة والتي يشبه استعمالها بما ورد في الحديث النبوي.

- ومن الظواهر المتعلقة بالشاهد الحديثي في البارع ما يبرزه قوله الآتي: «قال الخليل: وروى بعضهم الجد بكسر الجيم في الحديث وفسره الاجتهاد وليس ذلك بشيء؛ لأن الله قد أمر الناس بالعمل بطاعته فكيف يأمرهم ثم لا ينفعهم بذلك»³.

فهنا لم يذكر القالي ولا المنقول عنه أي الخليل نص الحديث؛ لأن مثل هذه الأمور تتأثر معانيها بالسياق والسباق واللاحق أيضا، وإن كان قد يقصد بلفظه الحديث أن «أل» الداخل على كلمة الحديث عهدية، فعده بذكرها المتقدم قريب، ولكن القالي لماذا ذكر جزءا من حديث الاستفتاح كان قد نقله عن الأصمعي، فلا يكون له توجيهها إلا العهد العلمي بمعنى أن حديث الاستفتاح يعلمه كل مصل فاستغنى بالإشارة عن العبارة بذكره.

- والقالي في إيراده للشاهد الحديثي قد يأتي بنصه كاملا، وقد يكتفي بالشاهد الذي تقوم به الحاجة فقط مثل قوله: في الحديث: «لا تنجروا»⁴. فهو لما كان يعالج «شجر» توقف عندها.

¹ المصدر السابق، ص 753.

² الحديث صحيح وقد تقدم، وانظر: صفة صلاة النبي ﷺ، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، (دط)، (دت)، ص 93.

³ البارع، القالي، ص 575.

⁴ المصدر نفسه، ص 667.

والحديث في أصله مكتملا بجملتين كما أورده ابن الأثير حيث قال: «في ثجر» وفي حديث الأثج: «لا تَتَجَرُوا، ولا تَبْسُرُوا» الثجير/ ما عصر من العنب، فجرت سلافته وبقيت عصارته، وقيل الثجير: ثقل البُسْر يخلط بالتمر فيُنْتَبَدُ، فنهاهم عن انتباده¹.

وإذا كان الحديث قصيرا مكونا من جملتين فعليتين إلا أنه اقتصر على الجملة الأولى والتي هي محل الشاهد، مراعاة للاختصار.

- وجملته القول: إن القالي لذو شجاعة علمية وأدبية؛ ذلك أنه وفي ذاك الزمن المبكر جدًّا، استطاع أن يركب موجة لهي من الخطورة بمكان في استشهاده بهذا الكم الهائل من الأحاديث النبوية، حتى لا يدع للشك والعفوية مجالًا، وإنما يبرز تنبيهه فعلا للقضية، قضية الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف واقعا عمليا يترجمه معجم «البارع».

رابعاً- الشعر:

احتفى اللغويون العرب بالشعراء احتفاء لا نظير له؛ ذلك أن غايتهم في الاحتجاج لمسائلهم وأحكامهم متحققة فيه، فضلا عن كونه يمثلا مظهرا أدبيا جماليا في هذه اللغة الشريفة، ولما كان الشعر بهذه الأهمية عند اللغويين خصّوه بزيادة بحث وتعمق، وإبراز لقضاياه المختلفة خاصة منها ما تعلق بالاستشهاد، ويتداول أهل اللغة من قدم مصطلح " الشاهد " الذي أصبح لصيقا بالشعر دون غيره، أو على الأقل الموصوف الأول والأولى به من أنواع الاستشهاد الأخرى، وكأني به وصف غلب غلبة الأسماء للشعر، ولا أدلّ على ذلك من واقع عملي تتضح معالمه في كتب الشواهد، فهي لا تحوي غير الشعر، ولا تهتم بما سواه.

1- تعريف الشعر:

أ- لغة: قال الفيروز آبادي: «شعر به كنصر وكرم، شعرا وشعرة مثلثة، وشعري وشعري وشعورا وشعورة، ومشعورا، ومشعورة، ومشعوراء: عليم به، وفطن له، وعقله. وليت شعري فلانا، وله وعنه ما صنع، أي: ليتني شعرت، وأشعره الأمر وبه أعلمه. والشعر: غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية. وإن كان كل علم شعرا، ج أشعار...»².

¹ النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 1/207-208.

² القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص 440-441.

ب- اصطلاحاً: قال الشريف الجرجاني:

الشعر: «كلام مقفى موزون على سبيل القصد، والقيد الأخير يخرج به نحو قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾^١ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ^٢». ^١ فإنه كلام مقفى موزون، لكن ليس بشعر؛ لأن الإتيان به موزوناً ليس عن سبيل القصد^٢.

ويعرف أيضاً بأنه الكلام الموزون المقفى الذي يصور العاطفة والعقل^٣. ويشرح الزركشي ويفصل في ما أجمل من التعاريف حيث يقول^٤:

فالكلام: جنس يدخل فيه كل كلام، من الشعر وغيره.
والوزن: يخرج ما ليس موزن من الكلام على بحر الشعر الخليلية.
والمقفى: هو انتظام الشعر في قافية واحدة من أول القصيدة إلى آخرها.
فمثلاً:

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ
وَإِنِّي إِلَى قَوْمِ سِوَاكُمْ لَأُمِيلُ

ف (أُمِيلُ) (0//0/) هذه قافية الشنفرى في لامية العرب.

والمقصود: يخرج به غير المقصود من الكلام الموزون كموافقة بعض الآيات لبعض الأوزان العروضية مثل: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مَا تُحِبُّونَ﴾ فهذا كلام موزون مقفى لكن ليس بشعر لعدم القصد إلى الشعر فيه على اصطلاح الشعراء.

وتقييد الشعر بأنه يصور العاطفة يخرج به النظم الذي لا يصور العاطفة، وإنما يكون مقصوراً على نظم مسائل العلم^٥.

ويعتبر الشعر مصدراً هاماً من مصادر اللغة، كما يعدّ نصاً أساسياً في الاستشهاد فهو ديوان العرب الذي سجلت فيه مآثرهم ووقائعهم، ووصفوا به أحوالهم، وعبروا به عن مشاعرهم في زمن لم يعرفوا فيه بعد الكتابة والتدوين، فهم يعتمدون على المشافهة، والحفظ في الصدور، والأمر الذي ساعد على غزارة النتاج

^١ الشرح: الآية 3-4.

^٢ معجم التعريفات، الشريف الجرجاني، تح: محمد صديق المنشاوي، ص 109.

^٣ أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 10، 1994، ص 298.

^٤ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 2/242.

^٥ الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم، الشهري عبد الرحمان بن معاضة، مكتبة دار المنهاج، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط 1، ذو القعدة 1431هـ، ص 21.

الشعري يكمن في أن العربيّ مرهف الحس سريع التأثر، بيئته فسيحة الأرجاء، ثم إن لصفاء الأذهان دورا كبيرا في التعبير عما يجيش في النفس، وتصوير ذلك في معان وأخيلة بديعة.

لم يكن للعرب ما يرقّون به عن أنفسهم غير الشعر، فالقبائل تفتخر بشعرائها؛ ذلك لأن الشاعر لسان حال القبيلة، ولا تختلف نصرتها باللسان عن نصرتها بالسيف، خاصة وهم في زمن تروج فيه سوق العصبية، بل ذهب بعضهم بأن اللسان أشد وقعا وأبلغ أثرا، وانظر إلى قول الحكيم في ذلك:

جراحاتُ السّنَانِ لها التَّأَمُّ ولا يَلْتَأَمُ ما جَرَحَ اللِّسَانُ¹

وقد ذكرت المصادر ما كان من شأن بني تغلب من أنهم كانوا شديدي الولع برائعة شاعرهم عمرو بن كلثوم التي أدرجت فيما بعد ضمن المعلقات، فكانوا جميعا يحفظونها ويتغنون بها جيلا بعد آخر يستوي في هذا صغارهم وكبارهم².

وقد سجل أحد شعراء بكر بن وائل هذه الظاهرة وهو بصدد هجاء بني تغلب حين قال:

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبَ عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبدا مُذْ كان أولهم بالرجال لشعرٍ غيرِ مسؤولٍ³

فالقبيلة يمثلها الشاعر أولا والراوي ثانيا، فقد كان لكل قبيلة راويها الخاص، وهو تقليد ظل مستمرا حتى عصر صدر الإسلام، عصر الفرزدق وجريز، والراوي قد يكون مقتصرًا على الرواية فقط، وقد يرقى إلى الشاعرية فيتهيا له الأمران معا⁴.

وانعقدت كثير من المناظرات والمساجلات الشعرية بين شعراء ورواة القبائل العربية المختلفة، وهذا التركيز على المادة الشعرية قرضا ورواية ودراية كان أحد الأسباب التي جعلت من الشعر أهم حلقات الاستشهاد عند اللغويين.

2- الاستشهاد بالشعر عند اللغويين:

لقد كان للدافع الديني الأثر الكبير في تمسك اللغويين بالشعر؛ ذلك أن فهم الكتاب والسنة منوط بالاطلاع الكبير على اللغة العربية، ومعرفة أسرارها وخباياها، فكانوا إذا أشكل عليهم لفظ لجأوا إلى الشعر لفك غموضه. فقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف

¹ المحاسن والأضداد، الجاحظ، عناية وتصحيح، محمد أمين الخانجي المكتبي، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1324هـ، ص 16. ورواه هكذا (جراحات الطعان)، ولم ينسبه.

² انظر: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، عز الدين إسماعيل، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، (دط)، (دت)، ص 59.

³ الأغاني، 54/11، نقلا عن: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، عز الدين إسماعيل، ص 59.

⁴ انظر: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، عز الدين إسماعيل، ص 60.

من القرآن الذي أنزله الله رجعنا إلى الشعر فالتمسنا ذلك منه، وقال إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي¹.

واللغويون يعتمدون على الشعر اعتمادا مبالغا فيه، فثبت استشهداهم بأبيات مجهولة، يقول أحمد مختار عمر: «وقد كان اللغويون يستشهدون بالشعر المجهول قائله إن صدر عن ثقة يعتمد عليه، ولذا اعتبرت الأبيات التي وردت في كتاب سيبويه أصح شواهد اعتمد عليها خلف بعد سلف مع أن فيها أبياتا عديدة جهل قائلوها. وإنما امتنع سيبويه عن تسمية الشعراء؛ لأنه كره أن يذكر الشاعر، وبعض الشعر يروى لشاعرين، وبعضه مجهول لا يعرف قائله؛ لأنه قديم العهد به. وأما الأبيات المنسوبة في الكتاب إلى قائلها، فالنسبة حادثة بعده، اعتنى بنسبتها الجرمي. قال الجرمي: نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتا، فأما الألف فعرفت أسماء قائلها فأثبتها، وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائلها»².

وفيما ساقه أحمد مختار عمر بيان لأهمية الشعر عند اللغويين الأول، وهو قد أخذ سيبويه مثالا وهو نحوي ومعلوم أن النحوي موضوعه اللفظ في التركيب، فاهتمام النحوي بالضبط والتوثيق أكثر من غيره في الاستشهاد، وواقع اللغويين يظهر ذلك، وقد يقتصر بعضهم على الشاهد الشعري فقط، وربما كان غير معزز ومجهول القائل.

والباحث في كتب الأولين من اللغويين يدرك أن الشعر عندهم في أعلى مقامات الاستشهاد، لا تفضيلا له على القرآن والحديث وإنما في الاستعمال والتداول، وهو كاشف لما استغلق معناه من الألفاظ فيهما.

هذا، وقد قسم العلماء المحققون الشعراء الذين يحتج بشعرهم إلى طبقات نوردها على النحو التالي:

الطبقة الأولى: الشعراء الجاهليون؛ وهم الذين نظموا قبل الإسلام، وشهد لهم النقاد والعلماء المحققون بجودة شعرهم، وأشعارهم تقوم بها الحجة. من مثل شعر الصعاليك: الشنفرى، وتأبط شرًا، وعمرو بن براق وغيرهم، وشعراء المعلقات الأول امرئ القيس، وطرفة بن العبد، والنابعة الذبياني، وغيرهم خلق كثير، فهؤلاء يحتج بشعرهم إجماعا³.

الطبقة الثانية: الشعراء المخضرمون: وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، من مثل حسان بن ثابت الأنصاري، وليبد بن ربيعة العامري- صاحب المعلقة- وكعب بن زهير، وزيد الخيل، والخنساء وغيرهم، وهذه الطبقة يحتج بشعر شعرائها جميعا إجماعا أيضا⁴.

¹ مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ص 28.

² البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 43.

³ انظر: علم اللغة، محمود عكاشة، ص 146.

⁴ المرجع نفسه، ص 146-147.

الطبقة الثالثة: الشعراء الإسلاميون: وهم شعراء صدر الإسلام كجرير، والفرزدق، والراعي النميري، والأخطل، وقيس الرقيات، وكثير، وجميل، والكميت، وذو الرمة، وغيرهم ممن قالوا الشعر في الإسلام (صدر الإسلام)، وآخرهم ابن هرمة. فقد قال الأصمعي: «ختم الشعر بابن هرمة»¹.

وهؤلاء المذكورون وغيرهم من هذه الطبقة فالصحيح جواز الاستشهاد بشعرها، لكن بعض علماء العربية مثل أبي عمرو بن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحاق، والحسن البصري، وعبد الله بن شبرمة لحنوا الفرزدق، والكميت، وذو الرمة، وغيرهم، وضعفوا بعض شعرهم، وقد كان الأصمعي ينكر أبرق الرجل وأرعد. فلما احتج عليه بيت الكميت:

أَبْرِقْ وَأَرْعِدْ يَأْزِبُ
مُدُّ فَمَا وَعِيدُكَ لِي بِضَائِرٍ²

لما احتج عليه بيت الكميت هذا قال: ليس بيت الكميت -بحجة- إنما هو مولد³.

وقال الأصمعي: «جلست إلى أبي عمر بن العلاء ثماني حجج، فما سمعته يحتج ببيت إسلامي»⁴. ومهما يكن من أمر فإن جواز الاحتجاج بشعر هذه الطبقة هو الذي عليه جمهور اللغويين، لكن ذلك الأمر لا يرقى بهم إلى مصاف من قبلهم نتيجة الأمر الواقع بهم.

الطبقة الرابعة: وهم المحدثون أو المولدون، وهي من بعد طبقة صدر الإسلام حتى زمن بشار، وأبي نواس، وهم من عاشوا في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وهؤلاء كثر منهم أبو العتاهية، وبشار، وأبو نواس، والبحتري، وأبو تمام، وغيرهم، وهؤلاء لا تؤخذ عنهم اللغة، ولا يحتج بشعرهم؛ لأنهم تربوا في الحاضرة، وتعلموا الشعر وخالطوا الأعاجم⁵.

إن العلماء المحققين من اللغويين العرب في تحريمهم للصواب وإثباته للشعر المحتج به، وضعوا شروطاً في الرواة تضاهي شروط المحدثين في رواية الحديث، ذلك أن من الرواة من ليس لديه ورع في انتحال أو اختلاف في نسبة البيت لصاحبه، وهناك من قد يتعمد الأمر، لذا كان لزاماً عليهم التدقيق في الأمر والتمحيص.

¹ البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 46. نقلاً عن: الاقتراح، ص 21، والعمدة، ص 56.

² ديوان الكميت بن زيد الأسدي، تح: محمد نبيل طريفي، دار صادر، ط 1، 2000م، ص 132.

³ البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 47. نقلاً عن: ديوان الأدب، 316/2.

⁴ المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلاً عن: العمدة، ص 57.

⁵ انظر: علم اللغة، محمود عكاشة، ص 147.

يقول أحمد مختار عمر:

حَذِرْ أُمُورًا لَا تُخَافُ وَآمِنْ
مَا لَيْسَ مَنَاجِيَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ¹

فهذا البيت مصنوع، ومع ذلك رواه سيبويه في الكتاب، ذكر أبو يحيى اللاهثي أن سيبويه سأله: هل تُعدي العرب فعلاً؟ قال: فوضعت له هذا البيت. وممن قال بوضعه كذلك الصفدي في نفوذ السهم². ومهما بلغ اللغوي الناقد في العلم منزلة فقد يخفى عليه ما يدسه بعض الرواة، فقد يختلف في روايته من طبقة إلى أخرى من الرابعة إلى الثالثة مثلاً، والأدهى من ذلك ما هو مصنوع موضوع مختلق، لذا حق للعلماء أن يضعوا الشروط الصارمة، والتعامل بحزم في إثبات شعر الشاعر الذي يحتج به، عسى أن يقللوا من فساد تصعب وتعسر مكافحته، فقد يؤتى في هذا الأمر من حيث تدري ولا تدري.

3- الشاهد الشعري في كتاب البارع:

أما عن واقع الاستشهاد بالشعر عند أبي علي القالي في معجمه البارع، فالرجل أخذ حظه الوافر من ذلك، وبلغ بشواهد الشعرية ستة وخمسين ومائتين وألفاً ليكون بذلك صورة الشاهد الكبير الكثير في «البارع».

وأسباب طغيان الشاهد الشعري عنده في البارع كثيرة منها:

- أن الرجل من كبار لغويي القرن الرابع الهجري، وهو لا يعدم بذلك سنة في الاحتفاء بالشاهد الشعري عموماً.
- تعلمه المشرقي، وقربه من بيئة كثير من الشعراء.
- الحافظة الكبيرة التي يتميز بها الرجل، وقد فاق بها كثيراً من أقرانه.
- مزامنته لمن أخذ عن الرواة العرب الكبار، أي ممن أخذ عن الأصمعي وأبي حاتم وغيرهما، فالأصمعي كان قد حفظ أربعة عشر ألف أرجوزة كما قال عن نفسه.
- الكتب الكثيرة المتخصصة في الأشعار وغيرها من التي أتى بها من الأندلس غير الذي ضاع منها في الرحلة خاصة في القيروان.
- الكتب الكثيرة التي حفظها، وقد نقلها من حفظه.
- دور مشايخه الذين تعلم على أيديهم، وقد صقلوا شخصية الرجل علمياً ولغوياً بالتوجيه والنصح والإرشاد، ومن أبرزهم ابن دريد، وابن الأنباري.

¹ الكتاب، سيبويه، 113/1.

² البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 48.

- العربي بطبعه ميل للشعر لتوفره على غايات عدة جبلت النفوس على طلبها، يقول الحكيم:

والشَّعْرُ ديوانُ العَرَبِ وَكَمْ أُنَالَ مِنْ أَرَبٍ
روايةُ الأشْعَارِ تَكْسُو الأَدِيبَ العَارِي
وترفَعُ الوَضِيعَا وَتُكْرِمُ الشَّفِيعَا¹

وهذا قليل من كثير اتصف به القالي وبلغ به المراتب العلية في المجال اللغوي عموماً، والمعجمي منه على وجه الخصوص.

والرائي في معجم البارع تتضح له من الشكل صورة القالي الداخلية، وتعلقه الشديد وولوعه بالشعر العربي، فكتابه لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته الكثيرة من مشاهد شعرية، الأمر الذي يترجم الشاعرية عند الرجل، وإن لم يكن شاعراً، وهو بذلك لم يخرج عن طريقة اللغويين ممن تقدموه، فحاجتهم للشاهد الشعري ماسة، فإثبات لفظ أم عدم ذلك موقف عندهم بالدرجة الأولى على ما ثبت عند الشعراء الذين يقع بشعرهم الاحتجاج في كلام العرب.

والطبقتان الأخيرتان هما الغالبتان على استشهاد القالي بالشعر في البارع.

أ- الشاهد الشعري من حيث الشكل:

إن مما يطبع الشواهد الشعرية في التراث اللغوي العربي تنوعها الشديد، فهي تورد أشعاراً عمودية على ما أسس له الخليل في العروض، وقد تسمى باسمه في بعض الأحيان فيقال الشعر الخليلي، أو القصيدة الخليلية، ومنها ما يأتي مجزءاً أو مشطوراً أو منهوكاً ناقصاً، ومنها ما يكون على شكل أراجيز أشبه ما يكون بنظام السطر، وقد تطول وقد تقصر حسب الغاية والحاجة، ولشدة ولوعهم وتعلقهم بالشعر في الاحتجاج تراهم قد يوردون لفظاً واحداً محل الشاهد من بيت قد غيبوه كلياً.

وستتناول الأبيات الشعرية من حيث الشكل في نوعين هما الشعر العمودي والأراجيز، وتفصيل ذلك مايلي:

- الشعر العمودي: وقد استشهد به القالي، وحفل به البارع في مواضع كثيرة منه، وهذه بعض

الأمثلة:

نقل القالي عن أبي عبيدة قوله: الهوشة الفتنة والهيج والاختلاط. يقال هوشَ القوم إذا اختلطوا. وكل شيء خلطته فقد هوشته²، قال ذو الرمة وذكر الديار:

¹ ديوان ابن معصوم المدني، ابن معصوم، ص 502/1-503، مطابق للأصل، www.shamela.ws

² البارع، القالي، ص 102.

بها نَائِحَاتُ الصَّيْفِ شَرْقِيَّةٌ كَدْرًا

تَعَفَّتْ لِيَهْتَانَ الدِّيَارَ وَهَوَّشَتْ

ونقل عن الخليل: ذو هاش: موضع¹، قال زهير:

عَفَّتْهَا الرِّيحُ بَعْدَكَ وَالسَّمَاءُ

فَدُو هَاشٍ فَمَيِّتٌ عُرَيَّتَانِ

ونقل عن الخليل في موضع آخر: الشوه بفتح الشين والواو مصدر الأشوه، والشوهاء والأشوه، هما القبيحا الوجه والخلقه،² قال الحطيئة:

فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهِهِ وَفُتِّحَ حَامِلُهُ

أَرَى لَكَ وَجْهًا شَوْءَ اللَّهِ خُلِقَهُ

فهذه ثلاثة أمثلة من الشعر العمودي، وتعمدنا جعلها ثلاثة حتى تناسب عدد الطبقات التي يحتاج بشعر شعرائها، فكان زهير من الطبقة الأولى التي يمثلها الشعراء الجاهليون ومنهم أصحاب المعلقات وهو أحدهم، وقد ركب بالبيت بحر الوافر، لتتبعه بالحطيئة وهو شاعر مخضرم من الطبقة الثانية وجاء بيته على البحر الطويل، ثم استشهد بشعر ذي الرمة، وهو من الطبقة الثالثة - شعراء صدر الإسلام - وبني بيته على البحر الطويل أيضا.

وقد استشهد القالي في هذا النوع بما هو مشطور، ومنه:

ما نقله عن أبي زيد: ويقال في مثل للعرب (هنا وهنا من جمال وعوعة) وهو رجل من بني قيس بن

حنظلة وهو قولك: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ حَلَلٌ»³

وهو من مشطور الرمل.

ومن هذا الباب ولكن من بحر المتقارب نجد:

قوله: وقال آخر: مُوشَى أَكَارِعُهُ عَلَّهَبَا

ذكر ذلك لما عالج (علهب)⁴.

بل وصل الأمر بالاستشهاد في الشعر الذي يعتريه النقص شكلا إلى أبعد حدّ حين يحتاج بإثبات كلمة أو كلمتين حتى إنك لا تستطيع أن تثبته شعرا مصنفا على بحر من البحور للغموض الذي يحيط به.

ومنه قوله: «والنجل رميك بالشيء كقول البصري:

ولا تنجلوا.....»⁵.

ومن مشطور البسيط في شواهد البارع الشعرية نجد:

¹ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

² المصدر نفسه، ص 99.

³ نفسه، ص 175.

⁴ نفسه، ص 187.

⁵ نفسه، ص 624.

«قال: والغَدْمُ بفتح الغين والذال نبت هو الجنبه مما كان أخضر، قال القطان:
في عَثَثَ يَنْبُتُ الحوذان والغَدْمَا»¹

- الأراجيز: وقد حوى معجم البارع كمًا هائلًا من مختلف أنواع الأراجيز، والأراجيز بعضهم ينقص من قيمتها الشعرية لا من حيث الاستشهاد فإن ذلك أمر مقطوع به، ومتفق عليه في العرف اللغوي، فهم نظروا نظرة انتقاص لأجل قربها من الأسجاع.

أما عن القالي فقد نوع فيها إلى حد بلغ فيه الغاية، ومن استشهاده بالأراجيز المفردة أي ما يقابل البيت الواحد في الشعر العمودي السالف الذكر؛ ذلك أن الأراجيز تعتمد نظام السطر شكلا المشابه لسطر البيت في الشعر العمودي.

وقد نقل القالي عن العجاج قوله:

«من عَرَصَات الدار أمسى قَوْبا»

قال: أي مقوِّبة².

ومنه أيضا: ما نقله عن الخليل في معالجة «وَقَب» واستشهد له بقوله:

قال الراجز: «وَفِي وَقَبٍ خَوْصَاءٍ كَوَقَبِ المُدْهَن»³.

ومن الرجز الذي يطول نجد:

قوله: هيقة وهيق، وقال ابن علقمة التيمي:

قَدْ أَنْكَرْتُ عَصْمَاءَ شَيْبَ لَمَّتِي

وَأُمَّ جَهْمٍ جَلَحًا فِي جَنْهَتِي

وَهَظْلَانَا لَمْ يَكُنْ مِنْ مِشِيَّتِي

كَهَظْلَانِ الْمَبِقِ خَلْفَ الْهَيْقَةِ

فَلَا قَصَّرْتُ مِنْ خَطَايِ خُطُوتِي

وَلَا وَجَعْتُ مِنْ نِسَائِي رُكْبَتِي⁴

ومن الأراجيز المثلثة نجد: ما نقله عن الخليل في قول القلاخ بن حزن المنقري:

أنا القلاخُ جئتُ أبغي مِقْسَمَا أقسمتُ لا أسأَمُ حتى يسأَمَا

¹ المصدر السابق، ص 375.

² المصدر نفسه، ص 508.

³ نفسه، ص 509.

⁴ نفسه، ص 86.

ويدرهم كبرا أو هرما¹

ومن استشهاده بالأراجيز التي تشبه البيت العادي في شكلها نجد: قوله فيما نقل عن الخليل في معالجة «الدمقس». قال العجاج:

خُودًا تَحَالُ رِبَطُهَا الْمُدمَقْسَا أَلْبَسَ دَعَصًا بَيْنَ ظَهْرِي أَوْعَسَا²

ومنه أيضا: ينقل عن الأصمعي، قال: وأنشدني أبو مهدي:

قَصَاقِصُ قَصَقَصَةٍ مُصَدَّرٍ لَهُ صِلَا وَعَضَلُ مُنْقَرٍ³

ولمّا مرّ معنا من قريب نماذج من الشواهد الشعرية المنسوبة والمعزّوة إلى أصحابها، عدلنا عن ذكرها هنا مراعاة للاختصار، وتجنباً للتكرار.

ب- الشاهد الشعري من حيث النسبة والعزو:

❖ الأشعار:

الأصل في الأشعار المستشهد بها أن تكون منسوبة لأصحابها، لكن قد يعسر ذلك الأمر، ويلتمس اللغوي استشفاعا برواية الثقة، وقد يتعذر الأمر ولا مسعف له فيحتج بما هو مجهول القائل. ومن الألفاظ والعبارات التي يقدم بها القالي لاستشهاداته هذه: قال الشاعر، قال الآخر، وقال غيره... ولفظ أنشد الذي يعود على أحد الرواة.

وهنا نسوق بعض الأمثلة الواقعية في معجم البارع على النحو التالي:

- قوله: قال الشاعر⁴:

وَإِنَّ قَرَىٰ عَدْنَانَ قِرْفٌ وَعَلَهُزُّ
فَأَقْبَحُ بِهَذَا وَيَحُ نَقْسِكَ مِنْ فِعْلٍ

وقال آخر⁵:

عِيشَهَا الْعَلْهَزُ الْمَطِيبُ بِالْقَـ
تَّ وَتَحَالُ أَنْ تَصِيبَ الْكُرَاعَا

يَابِسًا لَوْ ضَرَبَتْهُ بِقَدُومِ
لَمْ يَضِرَّهُ فَتَبَتَّلِعُهُ ابْتِلَاعَا

¹ المصدر السابق، ص 220.

² المصدر نفسه، ص 561.

³ نفسه، ص 562.

⁴ نفسه، ص 184.

⁵ نفسه، الصفحة نفسها.

ومنه أيضا قوله:

قال بعض الأعراب للنبي ﷺ، وذكر أزمة¹:

أتيناك والعذراء تُدمى لِثائِها
وألقى بكفّيه الغلام استِكانةً
ولا شيء ممّا يأكلُ الناسُ عندنا
وليس لنا إلا إليك فِرائِنا
وقد شَغَلت أُمّ الصبيّ عنِ الطفلِ
من جوع ضعفا لا يُمَرّ ولا يُحلي
سوى العلهز العامي والعبهر الفسلُ
وأين يفر الناس إلا إلى الرسلِ

ومنه أيضا، قوله:

الخليل: البغت بفتح الباء، وسكون الغين البغته. تقول باغته يباغته أي: يفاجئته، وأنشد²:
ولكنَّهُم باتوا ولم أخشَ بَغْتَةً
وأفطع شيءٍ حين يَفْجُؤُك البغتُ

ومنه قوله: والقفيّ لغة في القفا بعضهم يقولون: هذه قفي ورجي وعصي.

وقال الراجز:

يا ابن الزبير طالَ ما عَصِيكا وطالَ ما عَنِيتَنَا إِلِيكا

لنضربن بسيفنا قفيكا

يريد عصيت فأبدل التاء كافا³.

ومنه قوله: وقال أبو زيد: القامة البكرة نفسها. وجماعها القيم بكسر القاف وفتح الياء. وأنشد قول

الراجز:

ياربّ يومٍ حرُّهُ مِثْلُ الضَرَمِ مُلْتَبَسُ الْأَوْرَادِ صَرَّافُ الْقِيَمِ

دافعتُ عن شربها فلم تَضُمَّ مُحْتَبِجا مِنَ السُّقَاةِ وَالْدَعَمِ

صَرَّاف، يريد: صريف البكرة⁴.

ومنه قوله: قال يعقوب: يقال أتونا بطعام طيس أي كثير، ويقال: ماء طيس أي كثير، ويقال ماء

طيس وطيّسل إذا كان كثيرا، ويقال حنطة طيس أي كثيرة. قال الراجز:

¹ المصدر السابق، ص 187. وهذا نقل اللغوي وإلا أعقدي لا يصحّ إلا أن يوجه كلامه على أن يطلب من الرسول ﷺ، أن يدعو الله لهم. فالفرار إلى

الله وحده!

² المصدر نفسه، ص 356.

³ نفسه، ص 504.

⁴ نفسه، ص 514.

لَمَّا رَأَوْنَا وَالصَّلِيبَ طَالِعًا وَمَارِ سِرْجَيْسَ وَمَوْتًا نَاقِعًا
وَحِنْطَةً طَيْسًا وَكَرَمًا يَانِعًا خَلَّوْا لَنَا رَاذَانَ وَالْمَزَارِعَا
كَأَنَّهُمْ كَانُوا غُرَابًا وَاقِعًا¹

ومنه قوله: وأنشد أبو عبيدة قول الراجز:

مُتَّبِعُ عَزْدَةَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ
إِذْ بَعْدَ النَّاسِ مِنَ الْمَوَاسِمِ
فِي قَلْبِهِمْ مِنْ أَعْظَمِ الْقَلَاهِمِ

ذكر ذلك لما عالج (قلهم)².

هذه بعض النماذج المجهولة (غير المنسوبة) التي استشهد بها القالي في البارع، وهي على سبيل التمثيل لا الحصر؛ ذلك أن المعجم يعجّ بهذا النوع من الشواهد.

❖ الأراجيز:

فالأراجيز لما اعتبرت ضمن الشواهد الشعرية ولها حكمها، وإن الأصل في الاستشهاد بها أن تكون معزوة لأصحابها، لكن اللغويين قد اضطروا في كثير من الأحيان إلى الاتكال على ثقة الراوي ومن نقلوا عنه، والقالي في معجمه البارع كان قد نسب بعض الأراجيز لأصحابها وعدل عن ذلك في مواضع عدة، وقد بينا في النماذج السابقة ما كان منها منسوباً معزواً، ولم يبق إلا غير المنسوب، فنورد أمثلة منه حواها «البارع».

ومن العبارات الدالة على عدم نسبة الأراجيز عند القالي في البارع قوله الذي يصدر به الاستشهاد بالرجز ويتقدمه، وهو بألفاظ وعبارات مثل: وقال الآخر، وقال الراجز، وأنشد لَمَّا ينقل عن اللغويين الآخرين... قالت، وهنا نسوق بعض الأمثلة الواردة في البارع على النحو التالي:

- قوله: قال الراجز:

قَامَتْ تُرَائِيكَ قَوْمًا عَبَّهَرَ
مِنْهَا وَوَجْهًا وَاضِحًا وَبَشْرًا
لَوْ يُدْرِجُ الذَّرُّ عَلَيْهِ أَثْرًا

قال ذلك لما عالج (عبره)³.

¹ المصدر السابق، ص 677.

² المصدر نفسه، ص 200.

³ نفسه، ص 187.

- وقوله: قال أبو علي، قال أبو زيد: عبهلت الإبل أهملتها والجميع العباهل وأنشد:

عَبَاهِلٌ عَبَّهْلُهَا الْوُرَادُ¹

فأبو زيد لمّا أنشد قد يكون الشاهد له، وقد يكون لغيره، والراجح أنه لغيره.

- وقوله: والاسم الجباب على السباب. وهو غلبتك إياه في كل وجه من حسب أو جمال أو غير

ذلك. وقالت:

أنا ابنُ البَكْرِى جَارِكْتُهُ أَمْشِي رُوَيْدًا وَاجِبَكْتُهُ

كَالْبَكْرِى الْأَدْمَاءُ تَعْلُو كَنْتُهُ²

قال ذلك لما عاجل (الجب) .

هذا، وقد أورد القالي في البارع شواهد شعرية وأراجيز في ظاهرها أنّها معزّوة منسوبة، ولكن يطبعها

النقص، فصاحبها لا يتعين إلّا انتماءه، ومثال ذلك ما ذكره في قوله: قال يعقوب: الغريزة الطبيعة، وقال

أعرابي من قيس: «لا عيش إلا غرز الرجال»³

ومن الباب قوله: وأنشد لرجل من بني فزارة:

لَهَزَمَ خَدَّيْ بِهِ مَلَهَزَمُهُ

أَمَّا تَرَى شَيْئًا عَلَانِي أَعْتَمُهُ

عمامة نفع الغواني تحرمُهُ

وعمم الرأس بها معممهُ

ذي غسنت قد دعاني أحزمُهُ

فربّ فينان طويل لممه

فبات مشدودا على كظمُهُ

على حلال عجز مخدّمهُ

ذكر ذلك لما عاجل (غسن)⁴.

هذا الذي تقدم في الأراجيز، وأما الأشعار فنجد فيها الآتي:

قوله: ويقال: غمز فيك فلان إغمازا على مثال أفعل إذا استضعفك، وقال رجل من بني سعد في

ذلك:

إِذَا أَعْمَزَنَ فِيهِ الْأَقْوَرِينَا

ومن يُطْعِ النساءِ يَلَاقِ مِنْهَا

وهي الشدائد لا واحد لها. تقول إذا وجدته ضعيفا⁵.

ومن الباب قواه: وغاليت السلعة وغاليت بها. قال رجل من قيس:

¹ المصدر السابق، ص 188.

² المصدر نفسه، ص 593.

³ نفسه، ص 295.

⁴ نفسه، ص 331.

⁵ نفسه، ص 365.

نُعَالِي اللَّحْمَ لِلأُضْيَافِ نِيًّا وَنُرْخِصُهُ إِذَا نَضِجَ الْقُدُورُ¹

وقد يستشهد بما هو محتمل النسبة بين الراويين في مثل قوله:

قال: وقال لنا أبو الحسن بن كيسان سمعت بندارا والمبرد يقولان: القفندر القبيح طويلا كان أو قصيرا. وكل قبيح من كل شيء قفندر: وأنشد أحدهما:

وما ألومُ البيضَ ألاَّ تَسْخَرَا لَمَّا رَأَيْنِ الشَّمَطَ الْقَفْنَدَرَا
فجعله وصفا للشمط².

وصفوة القول:

إن القالي سار على درب سابقه في العمل المعجمي؛ إذ عالج مواد المعجمية مستشفعا لها بما يدعمها، ويقوي ويعزز أحكامه اللغوية التي يرمي إليها، ومثل هذه الأمور العظيمة يعتري صاحبها النقص في بعض الجوانب، وإن كان الرجل من أعيان القرن الرابع الهجري، يرجح أن يكون قد أفاد من تجارب غيره في هذا المجال.

ومهما يكن من أمر فإن البارع يترجم العناية البالغة من القالي بالشاهد الشعري خاصة؛ ذلك أن مادته فيه جاءت غزيرة، بالإضافة إلى التنوع فيها من جميع النواحي، فمنها ما جاء على شعر عمودي خليلي، ومنها ما جاء على شكل أراجيز.

ثم إنه قد استشهد بأشعار مختلف الشعراء الذين يتوزعون على جميع الطبقات التي يقع بأشعارها الاحتجاج، فاستشهد بشعر طرفة، وزهير، وعنترة، ولبيد، وحسان بن ثابت، والفرزدق وجرير، وذو الرمة، وغيرهم من الذين برزوا في قرض الشعر، وخلق كثير من أصحاب الأراجيز المختلفة طولا وقصرا وإتماما ونقصا، ومنهم من ذكر ومنهم من أهمل، ومن أبرز الرجّاز الذين أكثر من الاستشهاد بأراجيزهم نجد العجاج، وابته رؤية.

وكثرة الاستشهاد بالشعر والأراجيز عند القالي إضافة إلى كونها عمدة كل لغوي في الاحتجاج لما يأتي به من ألفاظ ومعان، هو النفس الأدبي عنده الذي يتضح بين الفينة والأخرى في هذا المعجم وغيره، فهو نموذج للغوي الأديب.

¹ المصدر السابق، ص 392.

² المصدر نفسه، ص 555.

خامسا- النشر:

لا شك أن الشواهد النثرية أضعف مقاما من أنواع الشواهد السابقة، لكن اللغوي - وهو في هذا الأمر العظيم- يحتاج إلى الشاهد أيا كان نوعه؛ ذلك أنه قد يعالج ألفاظا ومعاني إذا كانت عارية من الشواهد، فكلامه فيها يضعف ولا تظهر فيه أي ميزة عن غيره من الكلام، وهذا في الحقيقة فيه منقصة للغوي والمعجمي على وجه الخصوص، ولما كانت الحاجة ماسة للشاهد كان مما حفلت به المعاجم الشواهد النثرية، وهي تضم أنواعا عدة مثل: الأمثال والحكم، الخطب والرسائل...

1- تعريف النشر:

أ- لغة: قال الفيروز آبادي: «نثر الشيء ينثره وينثره نثرا ونثارا: رماه متفرقا. كنثره فانتثر وتنتثر، وتناثر. والنثارة بالضم، والنثر بالتحريك: ما تناثر منه، أو الأولى تخص ما ينتثر من المائدة فيؤكل للشواب... والنثران كريهقان وككتف ومبتر، الكثير الكلام، ونثر الكلام والولد أكثره»¹.

وقال الراغب الأصفهاني: «نثر - نثر الشيء نشره وتفرقه، يقال: نشرته فانتثر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكُوكُوبُ أُنْثَرَتْ﴾² ... والاستنثار جعل الماء في النثرة»³.

والنثر ضد النظم، فكلام العرب ينقسم شكلا إلى قسمين: منظوم (الشعر)، ومنثور.

ب- اصطلاحا:

«ما جمع من رسائلهم وخطبهم في كتاب»⁴.

2- أنواع الشواهد النثرية في البارع:

وتشمل الشواهد النثرية عموما نوعين من المادة اللغوية:

أحدهما: ما جاء في شكل خطبة أو وصية أو مثل أو حكمة أو نادرة. وهذا يُعدّ من آداب العرب الهامة، وبأخذ في الاستشهاد به مكانة الشعر وشروطه.

وآخرهما: ما نقل عن بعض الأعراب، ومن يستشهد بكلامهم في حديثهم العادي. دون أن يتحقق له من الذبوع والتأنق مثل ما تحقق للأول⁵.

¹ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص 503.

² الانفطار: الآية 02.

³ المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، ط1، 2012م، ص 534.

⁴ فصول في أصول لعلم اللغة العربية، عبد الرحمان بن عون كوني، دار الميراث النبوي، المحمدية، الجزائر، (دط)، 1440هـ - 2018م، ص 147.

⁵ البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 50.

لقد حفل بارع القالي بأنواع مختلفة من الشواهد النثرية، وقد تفاوتت في الظهور مترجما بذلك سعة اطلاع الرجل، وثقافته الواسعة بمختلف فنون اللغة وآدابها، لكن دراستنا هذه ستكون مركزة بالدرجة الأولى على الأمثال العربية الجارية، لبروز هذا اللون الأدبي بكثرة وكذا الأحاجي والألغاز.

أ- الأمثال:

فالمثل في اللغة: الشيء يضرب للشيء فيجعل مثله¹.

وجاء عند بعضهم: والمثل محركة: الحجة والحديث، وقد مثل به تمثيلا وامثله وتمثله... وتمثل بالشيء: ضربه مثلاً... ج أمثلة ومُثِّل².

أما في الاصطلاح فالأمثال هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ وحلى المعاني التي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها كل زمان وعلى كل لسان. فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها حتى قيل: أسير من المثل³...

وقال بعضهم: المثل جملة مقطوعة في غاية من الإيجاز تنقل عمّا وردت فيه إلى ما يشابهه بدون التغيير، وهو متصل بواقع أو حادث⁴.

وما تمتاز به الأمثال العربية السائرة هو جودة السبك، والإيجاز، وإصابة المعنى، والدلالة المتعدية للواقعة الأولى لما يشابهها.

هذا، وإن الأمثال تختص دون غيرها من الألوان الأدبية النثرية بما يصطلح عنه بالمورد والمضرب. فالمورد هو ارتباط المثل بقصة أو حادث يبرر سبب الورد، ويكشف عنه. والمضرب إنما هو الحالة الآتية المشابهة لحالة المورد.

وعود إلى أمثال القالي في معجم البارع، حيث بلغ بها ثلاثة وسبعين مثلاً عربياً سائراً جارياً. وهو في بناء البارع والاستشهاد له بالأمثال ساقها مجملة دون تفصيل، ولعل ما يشفع له في ذلك أنه يؤلف معجم ألفاظ عاماً، وإلا فالرجل كانت له سابقة في هذا المجال وأثبت فيها حسن الصنعة، حيث ألف كتاباً خاصاً بالأمثال العربية قبل تأليف البارع، وجعل عنوانه «أفعل من كذا» ليدل على القالب الذي بنيت عليه أمثاله في هذا الكتاب. وهو حقلها الذي يضمها جميعاً.

لكن ما نقصده نحن هنا شيء آخر، هو أن ينبّه على ظروف المثل، أو أن يميز بين ما هو جاهلي، وما هو متأخر عنه حتى زمنه هو. والأهم من ذلك كله بين عربية وعجمية أو مولده...

¹ العين، الخليل، 228/8.

² القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص 1068.

³ العقد الفريد، ابن عبد ربه، تح: عبد المجيد الرحيني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1404هـ - 1983م، 3/3.

⁴ تاريخ الأدب لعربي - العصر الجاهلي، واضح رشيد الندوي، مؤسسة النشر والصحافة - الهند، ط2، 1431هـ - 2010م، ص 03.

هذا، وقد وردت أمثال «البارع» مجردة من موردها وقصصها إلا ما كان في بعض المواضع فإنه قد يصرح بالمورد.

أمّا المضرب فأكثر ذكرًا له من المورد، فقد يقول: ولهم في ذلك مثل، ويضرب لكذا وكذا ومهما يكن من أمر فإن القالي المعجمي له غاية في الذكر والحذف لما يتعلق بالمثل، فرما استشهد للفظ فقط إثباتا، وقد يستشهد للفظ وما يصحبه من معنى استعمالا، وهكذا...

وهنا نسوق بعض النماذج من الأمثلة والمثل الواردة في «البارع» متبوعة بشيء من التحليل والمناقشة على النحو التالي:

النوع الأول: وهو يتضمن ما صرح بأنه مثل للعرب، وأتى بعناصره الفنية كاملة أو أغلبها، ومنه: قال يعقوب: «الغمرات ثم ينجلين». وزعموا أن غلاما من الأعراب نظر إلى قومه... فأرادهم فجاء سيل فحال بينه وبينهم ألقى بنفسه في الماء، فهو يغط مرة ويرتفع أخرى، ويقول: الغمرات ثم ينجلين - وهو مثل معروف للعرب - حتى تخلص، ووصل إلى حاجته. ويقال فلا.. غمرات.. أي لا يُكع ولا يهوله شديد¹.
فالقالي قد نص على أنه مثل، وذكر قصته ومورده، ثم بين مضربه لمن لا يكع، ولا يهوله شديد، أي من يدخل الحن وينجو منها.

النوع الثاني: وهو يتضمن ما ذكر فيه المثل ومضربه فقط: ومنه قوله: ويقال: «لا يجتمع سيفان في غمد» يضرب هذا لكل من أراد أن يجمع بين شيئين لا يتفقان².
ومنه أيضا: قال أبو زيد: ويقال: ذليل عاذ بقرملة، وهي شجيرة صغيرة³، يضرب لمن عاذ بأذل منه أو مثله⁴.

ومنه أيضا: قوله: ومثل لهم: «يا شاة أين تذهبين؟ قالت: أُجُرُّ مع المجوزين». يضرب هذا مثلا عند الرجل يأتي القوم فينطلق معهم وهو لا يدري ما هم فيه، يفعل مثل فعلهم وهو لا يدري ذلك قبل أن يرى القوم⁵.

النوع الثالث: وهو ما يتضمن المثل المحول عن بيت شعري أو رجز، أو ما هو مستل من بيت لا بيتا كاملا، ومنه قوله: وتقول العرب في مثل⁶:

¹ البارع، القالي، ص 321.

² المصدر نفسه، ص 354.

³ التعوذ لا يكون إلا بالله سبحانه وتعالى وإلا فهو شرك سواء أكان ببشر أو ملك أو شجر أو حجر... وقال تعالى: «قل أعوذ برب الناس». الناس: الآية 01. لكن قد أشرنا سالفًا أن بعض الأمثال إنما هي جاهلية وقد كانت متداولة قبل الإسلام.

⁴ البارع، القالي، ص 541.

⁵ المصدر نفسه، ص 580.

⁶ نفسه، ص 507.

يا عجباً لهذه الخليفة هل تذهبن القوباء الريقة

ومن هذا النوع، لكن لم ينصّ فيه، ولم يصرح يأتيه مثل ما جاء في قوله: وقال الأموي: الهيس بفتح الهاء، وسكون الياء هو السير أي ضرب كان، وأنشد¹:

إحدى لياليك فهيسي هيسي لا تنعمي الليلة بالتعرّيس

فالقالي لم ينبه عليه بشيء، لكن جاء في مجمع الأمثال للميداني بعد أن ساق البيت: يضرب للرجل يأتي الأمر يحتاج فيه إلى الجد والاجتهاد².

النوع الرابع: ما تضمنّ التصريح بأنه مثل للعرب جار، ومنه قوله: ومن أمثالهم: «عسى الغويّر أبؤساً» وإلا بؤس جمع بأس. للرجل يأتيه الشر من مأمنه³.

وفي هذا يقول الطغرائي في لامية العجم⁴:

أعدى عدوك أدنى من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخل

ومنه قوله الذي ينقله عن الأصمعي في الاستشهاد لـ «بغيا»، قال: قال الجعدي:

بالأرض استأهم عجزاً وأنفهم عند الكواكب بغياً يالداً عجباً

أراد المثل المضروب: «أنف في السماء واست في الماء»⁵.

ولم يعقب القالي بشيء من الشرح أو المضرب أو المورد وغيرهما.

وقال العسكري فيه: يضرب مثلاً للمتكبر الصغير الشأن⁶.

النوع الخامس: وهو ما تضمن الأمثال التي لم يصرح بها، وقد يكتفي بتقديمها بعبارة: ويقال: أو

تقول: أو غيرها. وهي عبارة حمالة أوجه، ومنه قوله: ويقال: أنك لمسير حسواً في ارتقاء. إذا أظهر لك غير ما أخفى⁷.

¹ المصدر السابق، ص 156.

² مجمع الأمثال، الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للأستانة الرضوية المقدسة، (دط)، آذر، 1344هـ، 33/1.

³ البارع، القالي، ص 412.

⁴ نشر العلم في شرح لامية العجم، بحرق محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي، دار المنهاج - جدة، ط1، 1433هـ-2012م، ص 197.

⁵ البارع، القالي، ص 437.

⁶ جبهة الأمثال، العسكري أبو هلال، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، دار الفكر، ط2، 1408هـ-1988م، ص 432.

⁷ البارع، القالي، ص 414.

ومنه أيضا قوله: «ويقال: أصلح غيث ما أفسد برد. يضرب للرجل يكون فاسدا، ثم يصلح بعد ذلك»¹.

ومنه أيضا قوله: «قال أبو علي: قال أبو زيد: يقال (إن الموصين بنو سهوان) . بفتح السين وسكون الهاء على مثال فعالان. يقول: إن الذين توصونهم بنو من يسهو عن الحاجة»². ويقول الميداني فيه: «هذا مثل تحبب في تفسيره كثير من الناس... وذكر الأقوال المختلفة ثم صوب بقوله: والأصوب في معناه أن يقال: إن الذين يوصون بالشيء يستولي عليهم السهو، حتى كأنه موكل بهم. ويضرب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به»³.

النوع السادس: وهو ما تضمن الأمثال المبنية على صيغة أفعل أو أفعل من كذا، وجعلناه نوعا تماشيا مع صنيعة السابق للبارع، حيث ألف كتابا في الأمثال عنوانه «أفعل من كذا». ومنه قوله: الخليل: دغة اسم رجل أحمق فذهبت مثالا. قولهم: «أحمق من دغة»⁴. أما المفضل الضبي فأورد هذا المثل في قوله: «أحمق من دغة».

وقد نقل عن كثير ما رمى إليه من أن دغة بنت مغنج العجلية، ويقال مغنج ومعنج بالعين، وبلغ من حمقها أنها كانت حاملا فضرها الطلق فظنت أن بطنها قد غمزها فذهبت تطلب الغائط، لما تهيأت لذلك ولدت، فلما وضعته صاح فقامت مذعورة، فجاءت إلى أمها فقالت: يا أمي هل يفتح الجحر فاه: ففطنت أمها فقالت: نعم، ويدعو أباه: وسألته عن الموضوع فأخبرتها به، فانطلقت فوجدت ولدها⁵.

كما أن القالي لما أورد الأمثال في البارع استشهادا لم يواظب على شرحها، فيشرح في مواضع، ويعدل عن ذلك في أخرى، ومن الأمثال التي شرحها نجد: قوله: ويقال في مثل ذلك: «لا آتيك سحيس عجيس» قال: ومعناها الدهر⁶.

ومنه أيضا: ويقال في المثل: «بعد الهياط والمياط» أي بعد الإقبال والإدبار⁷.

ومن الأمثال التي ساقها دون شرح نجد: قوله: ويقال: «لا أفعله ما غرد ركب»⁸.

¹ المصدر السابق، ص 432.

² المصدر نفسه، ص 154.

³ مجمع الأمثال، الميداني، 11/1-12.

⁴ البارع، القالي، ص 428.

⁵ الفاخر في الأمثال، المفضل بن سلمة بن عاصم الصبي، عناية: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 2011، ص 72.

⁶ البارع، القالي، ص 585.

⁷ المصدر نفسه، ص 132.

⁸ نفسه، ص 285.

ومنه قوله: «أنف في السماء واست في الماء»¹ المتقدم ذكره وغيرها.

والرجل وإن كان معجمه البارع ليس معقودا للأمثال العربية الجارية، إلا أنه كتاب يضم مواد لغوية قيمته في تقديمها مشروحة، ووظيفته كشف الغموض.

لقد جاءت أمثال القالي في البارع متنوعة، وأضفت عليه مسحة أدبية جمالية تترجم ثقافة عربية مشرقية سادت لعصور وعصور، كتب لها أن تبرز في أرض الأندلس والمغرب.

لا شك في الخصب المتعلق بمادة الأمثال العربية الجارية؛ ذلك أنها مع كونها لونا أدبيا خاصا تداوله العرب الأول من قدم فإنها أفادت من مصادر لغوية لاحقة من مثل القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر، ومنثور كلام العرب بشتى أنواعه، الخطبة والرسالة والحكمة وغيرها.

فالمثل قد يكون له تركيبه اللغوي المستقل، وقد يأتي في معنى آية أو حديث أو بيت شعر أو رجز مكتمل وغير مكتمل، وربما أتى في كلام بليغ من بلغاء العرب الذين عرفوا بالحكمة والخطابة وغيرها.

والأمثال العربية الجارية في الألوان الأدبية التي تعتبر انعكاسا للحياة الاجتماعية لهذه الأمة، فما كان مضمنا مبطنا من أوصاف وطبائع قد عفا عنها الزمن لقرون وقرون عبرت بهاته الأمة نراه يطفو على سطح الحياة اللغوية الأدبية، ومظهرها الأمثال الجارية.

والقالي الذي ضمّن معجمه «البارع» ألوانا من الأمثال العربية السائرة، فلا يخفى أنه من أعيان القرن الرابع الهجري، وقد عاش في بيئة راج فيها مثل هذا العمل، بل إنه قد أخذ وروى كتباً ألفت في ذلك الزمن وقبله في الأمثال العربية مثل أمثال أبي عبيد، الأصمعي، الأنباري.

فهذا الرافد العلمي الكبير لم يكن ليهمل في صنيع القالي المعجمي المسمى البارع، فقد حفل به، لكن القالي في إيراد الأمثال السائرة في البارع استشهادا كان قد نص وعرف ببعض الأمثال التي وصلت إلى الثلاثين مثلاً²، وذكر أكثر من ذلك العدد بكثير دون إشارة ولا تنبيه إلى ذلك، وذكر لهذا الكم فيه ما كان اتفاقاً، وفيه ما كان قصداً، فالمقصود منها لم يعرفه، ويناقشه؛ لأنه عوّل على شهرته في ذلك، فالمثل سائر في لغتهم التواصلية ودخل حدود العرف اللغوي، وأما ما كان وروده منها اتفاقاً، فهذا راجع للخصوصية المتعلقة بهذا اللون، فكلامهم أغلبه متين ومحمل بالمعاني البعيدة لذا أصبح يعسر في كثير من الأحيان التفريق بين ما هو مثل وحكمة وبين ما هو من المقولات المتينة المحملة للمعاني الكريمة، ثم إنه لو

¹ المصدر السابق، ص 437.

² ثلاثون مثلاً صرح بها القالي، وثلاثة وسبعون العدد الكلي للأمثال البارع بمقابلة كلامه على كتب أربعة من كتب الأمثال (الأصمعي، أبو عبيدة، ابن الأنباري، المفضل الضبي) وكلهم سابقه وأخذ عن كتبه.

اعتنى بكل ذلك لرما حاد عن غايته في تأليف هذا المعجم؛ لأنه حينئذ سيضطر لذكر خصائص فنية ومورد وضرب، وعليه فإن صورة المعجم اللغوي العام تذوب وتظهر بدلها صورة كتاب الأمثال وشرحها.

وهذه بعض الأمثال التي حواها البارع، ولم يصرح بها القالي، ولم ينص على انتمائها إلى هذا اللون اللغوي الأدبي، والذي يمثل أحد أنواع استشهاده في هذا المعجم ومنها:

– من أمثال القالي الواردة في كتاب الأمثال لأبي عبيد:

قال أبو علي: قال بعضهم: الهون بضم الهاء الهوان... ومن منشور كلامهم «أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما»¹.

جاء عن أبي عبيد في المثل: (508) أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون عدوك يوما ما، وبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما².

ومنه: نقل أبو علي عن أبي زيد: «عارك بجذ أودع»³.

قال أبو عبيد في المثل: (556) «عارك بجذ أو دع». يقول: إن الغلبة إنما هي بالجد، فمن لم يكن له ذلك في شيء فليدعه⁴.

– من أمثال القالي الواردة في كتاب الأمثال للأصمعي:

وقالوا: «أحمق يسيل مرغه» وهو لعبه وأحمق ما يجأى مرغه، أي لا يجبس لعبه⁵.

قال الأصمعي: قولهم: «أحمق يسيل مرغه»⁶.

ومنه أيضا: قال أبو علي، قال أبو زيد: يقال للرجل: «أنت في الضلال بن السبيل»، وجئت بالضلال بن السبيل، وهو الباطل، بفتح السين والباء وسكون الهاء⁷.

قال الأصمعي: قولهم: «جاء بالضلال بن السبيل». وقال: جاء الرجل يمشي سهلاً، إذا جاء وذهب في غير شيء⁸.

من أمثال القالي والواردة في كتاب الفاخر في الأمثال للمفضل الضبي:

¹ المصدر السابق، ص 127.

² كتاب الأمثال، أبو عبيد القاسم بن سلام، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1400هـ-1980م، ص 478..

³ البارع، القالي، ص 573.

⁴ كتاب الأمثال، أبو عبيد، ص 193.

⁵ البارع، القالي، 323.

⁶ كتاب الأمثال للأصمعي، تح: ناصر توفيق الجباعي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، (دط)، 2010، ص 36.

⁷ البارع، القالي، ص 205.

⁸ كتاب الأمثال للأصمعي، تح: ناصر توفيق الجباعي، ص 72.

قال أبو علي، قال الأصمعي: يقال أرغم الله أنفه على مثال أفعل بفتح الهمزة أي ألزقه بالتراب¹.
قال المفضل الضبي في المثال (7) قولهم: «أرغم الله أنفه».
قال الأصمعي: الرّغم: كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه ويذله.
وقال أبو عمرو وابن الأعرابي: أرغم الله أنفه: أي عقّره بالرّغام، وهو تراب يختلط فيه رمل دقيق،
فمعنى أرغم الله أنفه: أي أهانه. ومنه حديث عائشة في المرأة تتوضأ وعليها خضابها، فقالت: «اسلّتيه وارغميه»² أي: أهينه وارمي به عنك في الرغام³...
ومنه أيضاً: قال أبو علي: ... ويقال: «ماله ثاغية ولا راغية». ويقال أتيتته فما أثغى ولا أرغى، أي ما أعطاني إبلا ولا غنما⁴.

وقال المفضل في المثل: (35) قولهم: «ماله ثاغية ولا راغية».

فالثاغية: النعجة، والثغاء صوته.

والراغية: الناقة، والرغاء: صوته⁵.

من أمثال القالي التي حواها كتاب الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري: نقل أبو علي عن الخليل: الشجن الهمّ الحزن. تقول أشجنني هذا الأمر فشجنّ وأنا شجن شجوناً. والحمامة تشجن شجوناً إذا ناحت وتحزنت. وتقول: أردت أرضاً كانت لي شجنناً لا وطناً. وروي عن بعضهم: «الحديث ذو شجون». ذو فنون وأغراض⁶.

قال أبو بكر بن الأنباري في المثل: (339) - وقولهم: «الحديث ذو شجون» قال أبو بكر: معناه: الحديث ذو فنون وتمسك وتشبّك من بعضه ببعض. يقال: شجر متشجن إذا التف بعضه ببعض، حكاه أبو عبيد⁷...

¹ البارع، القالي، ص 324.

² الحديث: جاء بلفظ: "اسلّتيه ورغما"، وفي تحريجه حكم بأن إسناده جيد، وانظر: مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، الدارمي الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بمرام، تح: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421هـ-2000م، 715/1.

قال ابن الجوزي: قالت عائشة لامرأة: «اسلّتيه وارغميه» يعني الخضاب أرادت: أهينه وارمي به في التراب. وانظر: غريب الحديث، ابن الجوزي، توثيق وتعليق وتخريج الأحاديث: عبد المعطي أمين قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، (دط)، 1425هـ-2004م، 404/1.

³ الفاخر في الأمثال، المفضل بن سلمة بن عاصم الضبي، عناية وتحشية: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2011، ص 48.

⁴ البارع، القالي، ص 414.

⁵ الفاخر في الأمثال، الضبي، ص 63.

⁶ البارع، القالي، ص 614.

⁷ الزاهر في معاني كلمات الناس، ابن الأنباري أبو بكر محمد بن القاسم، إهداء سيف بن أحمد العزيز، دار البشائر، دمشق، ط3، 1424هـ/2004م، ص523.

ب- الأحاجي والألغاز:

ومنه قوله: «وتسمى الدراهم قرقوفا، وقال الساجع: أبيضُ قُرْقُوفٌ، لَا شَعْرَ وَلَا صُوفَ، بِكُلِّ بَلَدٍ يَطُوفُ»¹. وقد شرّحه بقوله: «الدرهم الأبيض»².

ومنه أيضا: قوله: «قال أبو حاتم: والأعراب يقولون في أحجية لهم: مَا أَسْوَدُ ظَهْرًا أَيْبُضُ بَطْنًا يَمْشِي الْقِمَطْرِي. القاف مكسور والميم مفتوحة والطاء ساكنة على مثل فعليّ يعنون به القنفذ»³.
أما الأنواع النثرية الأخرى فلم ترد في بارع القالي لا تصريحاً ولا تلميحاً، وظروف التأليف وغايته تتحكم في هذا الأمر.

❖ استشهاد القالي في البارع موضحاً بالنسبة المئوية:

– **الشاهد القرآني:** وقد ضمنه القالي مائة وتسعة عشر شاهداً حيث بلغت نسبة الشاهد القرآني من مجموع الاستشهادات 7.66%.

– **شاهد القراءات:** وقد حوى البارع عشرة شواهد، وبلغت نسبة الاستشهاد بالقراءات القرآنية فيه 0.64%.

– **الشاهد الحديثي:** وقد حوى البارع خمسة وتسعين حديثاً وأثراً، وبلغت نسبة الاستشهاد به 6.11%.

– **الشاهد الشعري:** وقد عَجَّ البارع بالشاهد الشعري على حساب الأنواع الأخرى حتى بلغت نسبة الاستشهاد به 80.87%.

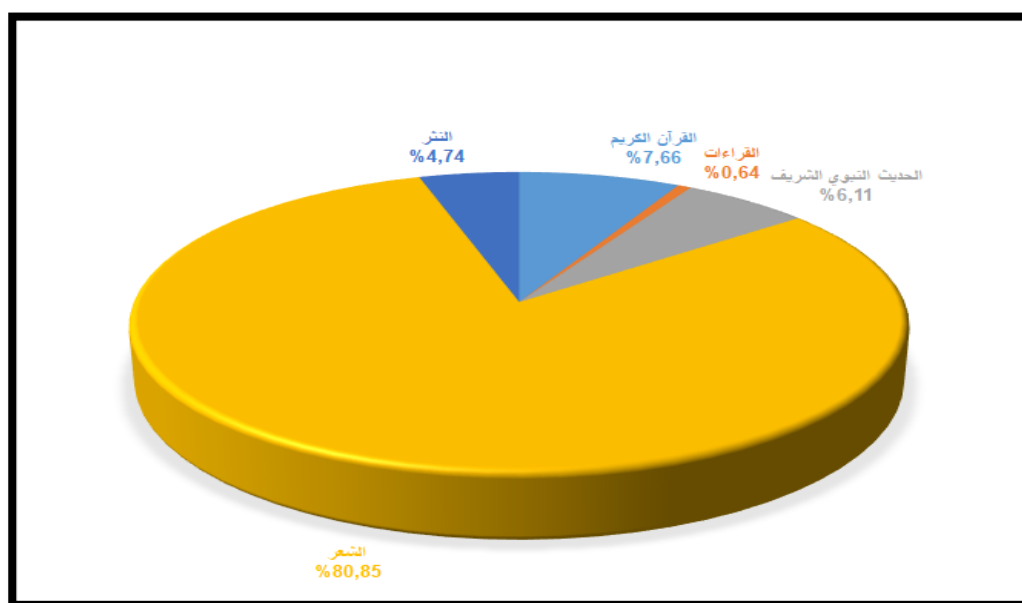
– **الشاهد النثري (الأمثال):** وقد حوى البارع ثلاثة وسبعين مثلاً عربياً جارياً، وبلغت نسبة الاستشهاد به 4.74%.

¹ المصدر السابق، ص 544.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ نفسه، ص 546.

والتمثيل الآتي يوضح توزيع نسبة الاستشهاد في البارع.



التعليق على التمثيل البياني حول نسب الاستشهاد في بارع القالي:

يلاحظ طغيان نسبة الاستشهاد بالشعر في بارع القالي على حساب أنواع الاستشهاد الأخرى، وفي الحقيقة هذا دأب اللغويين عموماً، والقالي لغوي معجمي ذا حافظة كبيرة، وما حفظه من عيون الشعر العربي أيام الطلب في المشرق لا يعلمه إلا الله من كثرته، ثم إن الرجل يدرك تماماً القيمة العلمية في الاحتجاج بالشعر لذا أثره على غيره وظهر عنده بشكل بارز.

هذا، وقد تقاربت نسبة الشاهد القرآني مع نسبة الشاهد الحديثي في البارع حيث بلغتا توالياً: 7.66% و 6.11%، فالقرآن الكريم معلوم أنه أعلى مقامات الفصاحة والبيان لذا لا يتصور أن يهمله لغوي أو معجمي في إثبات أحكامه اللغوية أو الاستثناس به لإثبات معنى من المعاني المقصودة في المعاجم على غرار البارع، أما الحديث النبوي الشريف فلا يقل أهمية عن سابقة بالنسبة للقالي في البارع، ذلك أن الرجل كانت له فرصة في تعلم علم الحديث في بداية طلبه للعلم وقد استغلها أحسن استغلال، ومن ثمة انعكس أثر تعلمه للحديث على ما سطره في كتبه اللاحقة وعلى رأسها البارع.

ويأتي بعد هذه الأنواع من الشواهد البارزة في البارع الشاهد النثري، وإن اقتصر فيه المؤلف على نوع واحد بارز تقريباً، ألا وهو الأمثال العربية الجارية، وقد مثلت نسبة 4.74% فهي أكثر الألوان الأدبية تداولاً، واستحضاراً عند اللغويين والمعجمين وغيرهم، وليختم الأمر بشاهد القراءات القرآنية، والذي مثل نسبة ضئيلة قدرت بـ 0.64%، وهذا راجع للاختلاف الحاصل حول الاستشهاد بها وتحقيق ضوابط ذلك الأمر من جهة، ومن جهة أخرى أنه لا يستشهد بها إلا من كان ذا حظ من علم القراءات وتحصيله ليس بالهين في ذلك الزمن.

المبحث الثالث: نقد وتقييم للبارع:

لا شك في حسن صناعة القالي في معجمه البارع الذي سار به وبناه على منهج المعجميين الذين سبقوه في معاجم الألفاظ، لكن هذا الأمر لا يمنع من وصفه، ووضعه في ميزان التقييم، حتى يدرك الدارس في المعاجم الملحوظات المسجلة له وعليه. خدمة للدرس اللغوي العربي عموماً، والمعجمي منه على وجه الخصوص.

فالبارع معجم من معاجم القرن الرابع الهجري، والمدة الزمنية بين صاحبه القالي وبين المبدع الخليل بن أحمد معتبرة، وفي الزمن فسحة لإحداث بعض التغييرات والتجديد في الصناعة المعجمية.

أولاً- مساهمة البارع في إثراء العربية:

ففي المعالجة المعجمية وفي التحليل الدلالي للمواد اللغوية المشروحة الخاصة بصناعة القالي في معجم البارع يمكن أن نطرق أبواب القضايا التالية:

1- التغليب:

لقد اعتنى القالي في البارع بظاهرة لغوية بارزة، وهي قضية التغليب ويقصد بالتغليب: ترجيح أحد المعلومين على الآخر، وإطلاقه عليهما، وقيدوا إطلاقه عليهما للاحتراز من المشكلة¹.

وجاء في المعجم الوسيط: «غلب - التغليب: إثارة أحد اللفظين على الآخر في الأحكام العربية إذا كان بين مدلوليهما غلقة أو اختلاط، كما في الأبوين: الأب والأم، والمشرقين: الشرق والغرب، والعمرين: أبي بكر وعمر»².

أما عن واقع الظاهرة اللغوية (التغليب) في البارع فنجد في قوله: «أغار فلان أهله إذا تزوج عليها. ويقال لفم الإنسان وفرجه الغاران»³.

الشاهد في كلمة «الغاران». ولا يتوهم متوهم أنها مثني غار وهذا سائق في العربية نافية قضية التغليب. فقوله مردود بتصريح الرجل أن «الغاران» يقصد بهما الفم والفرج، وجمع بينهما للمشابهة.

فالغار عند القالي في قوله السابق، واحده ليس من جنس لفظه إنما من المعنى فنقول: الفم أو الفرج. ويظهر الفرق بين «الغاران» التي واحدها غار، و«الغاران» التي واحدهما الفم أو الفرج وجمعا تغليبا للمشابهة مع الغار في الدلالة والنحو والإعراب: فالأولى تعرب إعراب المثني، والمثني اصطلاحاً عليها، أما

¹ معجم التعريفات، الشريف الجرجاني، ص 56.

² المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ص 658.

³ البارع، لقالي، ص 409.

الثانية فتعرب أيضا إعراب المثنى ويصطلح عليها نحويا «ملحق بالمثنى» وهذا فيه بيان علاقة الإعراب بالمعنى.

- ومنه أيضا قوله: «والجديدان الليل والنهار»¹. وأطلق عليهما هذا اللفظ تغليبا لصفة التجدد الواقعة بهما.

- ومنه قوله: «يقال ما عنده طعام ولا شراب إلا الأسودان وهما الماء والتمر العتيق»². وجمعا تغليبا لصفة السواد.

وفي الحديث الذي ترويه عائشة - أم المؤمنين رضي الله عنها لما قالت لعروة رضي الله عنه «ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: ما كان يُعيشُكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء»³. الحديث.

- ومنه أيضا ما نقله عن الخليل في قوله: وكان القلمس الكناني في نساة الشهور على معدّ، كان يقف في الجاهلية عند جمرة العقبة فيقول: اللهم إني ناسئ، الشهور، وواضعها مواضعها، وإني لا أعاب لا أجا، اللهم إني حللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر، وكذلك في الرجبين يعني شعبان ورجبا...⁴

- والشاهد في دعائه هذا يكمن في قوله: «الصفرين» و«الرجبين» فالصفرين يقصد بهما: محرم وصفر، والرجبين يقصد بهما: رجب وشعبان، وجمعا تغليبا للبساطة والخفة والسهولة في كلمتي صفر، ورجب على حساب محرم، وشعبان. وخفة الكلمتين الأوليين مقارنة بالأخيرتين لا تخفى.

- ومنه ما نقله أبو علي عن أبي زيد: الهردبة المنتفخ الجوف المرعوب الذي لا فؤاد له، وأنشد:

كُنْتُ لهُم فِي الْحَدَثَانِ نَابَا أَرْقَى الْعِدَا وَضَيْعَمًا وَثَابَا
وَلَمْ أَكُنْ هِرْدَبَةً وَجَابَا حَوْلَ الْبُيُوتِ أَضْرَبُ الْكِالَابَا⁵

والشاهد في قول الراجز «الحدثان».

جاء في المعجم الوسيط: «الحدثان: الليل والنهار، وحدثان الأمر: أوله وابتدأؤه»⁶.

ومهما يكن من أمر فالسياق له الدور الكبير في التحديد الدلالي والمعنى المقصود، لكن التغليب واقع بهذا اللفظ على أي احتمال.

¹ المصدر السابق، ص 576.

² المصدر نفسه، ص 699-700.

³ صحيح البخاري، البخاري، 571/2. والحديث برقم: 6459 من كتاب الرقاق.

⁴ البارع، القالي، ص 540.

⁵ المصدر نفسه، ص 212. وتحقيقا للأمر فإن الحدثان جات عل لغة من يلزم المثنى والملحق به الألف.

⁶ المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ص 160.

- ومنه قوله: قال أبوبكر: الخراتان نجمان من نجوم السماء من منازل القمر¹. فبعضهم يرى أنهما نجمان، كل واحد منهما خراة، وقال ابن سيده: ولا يعرف الخاراتان إلا مثنى²... وفي كلام ابن سيده يتضح التغليب.

- ومنه أيضا قوله لما عاج (غَلا) وقد استشهد بقول الراجز:
«فهي أمام الفرقدين تغتلي»³

قال الفيروز آبادي: هما نجمان، وإن كان قد صرح بأنها قد وردت في الشعر مثناة وموحدة⁴.
لكن المقصود هنا التغليب، والله أعلم.

- ومنه قوله عن أبي زيد: وتقول لا أفعل ذلك ما اختلف الأجَدان، وهما: الليل والنهار⁵.

2- الوصف الغالب غلبة الأسماء:

لقد ضمّن القالي معجمه البارع نماذج من هذه الظاهرة اللغوية في طيات الكتاب. وقبل التطرق لهذه النماذج الواقعية في عمله المعجمي الرائد نعرّف بالظاهرة حيث جاء في المعجم الوسيط ما يلي:
«(الغلبة): العلم بالغلبة، ما كان تعيين مدلوله يغلبه الاستعمال لا بالوضع، مثل: الكتاب عند أهل الشريعة: القرآن، وعند أهل العربية: لكتاب سيويه»⁶. أما عن واقع القضية اللغوية في بارع القالي فنأتي على نماذج منه ما يلي:

- لقد نقل القالي عن الخليل قوله: «الغاق والغاق وهما من طير الماء، ويقال: غاق للغراب يسمى بصوته، قال الراجز:

وَقَدْ أَرَى وَجَبَتِي مِنْ طَاقٍ وَلَمَتِّي مِثْلَ جَنَاحِ غَاقٍ⁷

فالشاهد في كلمة "غاق"، وهي صوت الغراب، وهي بمثابة الوصف له فغلب غلبة الأسماء أصبح يفهم بلفظه «الغراب».

¹ البارع، القالي، ص 233.

² انظر لسان العرب، ابن منظور، 6/162.

³ البارع، القالي، ص 393.

⁴ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص 330.

⁵ البارع، القالي، ص 572.

⁶ المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ص 658.

⁷ البارع، القالي، ص 383.

- ومنه أيضا: قوله: قال محمد، قال أبوبكر: غلواء اسم فرس من خيل العرب معروفة¹. فكلمة: غلواء في اللغة أصلها يدور حول معنى الحماسة والحمية والاندفاع، لكن نقلت من الوصفية إلى العلمية حيث أطلقت على فرس معينة عربية.

- ومنه أيضا قوله لما عالج (جدل) حيث غلبت هذه الصفة غلبة الأسماء على الصقر، قال أبو علي: «فإذا جعلته نعتا قلت: صقر أجدل وصقور جُدُل، وإذا تركته اسما للصقر قلت: هذا الأجدل، وهذه الأجادل؛ لأن الأسماء على أفعل يجمع على أفاعل. والنعت إذا كان على أفعل يجمع على فُعَل»².

- ومنه أيضا قوله: قال أبو حاتم: الوغى اختلاط الأصوات في الحرب بغين معجمة. ويقولون شهدنا الوغى أي الحرب.

- قال أبو علي: وكثر ذلك في كلامهم حتى سمو الحرب الوغى³. يعني انتقلت من الوصفية إلى الإسمية، وهذا قليل من كثير يعج به البارع.

3- الأضداد:

ويقصد بمصطلح «الضدّ» عند اللغويين في قولهم هذه كلمة ضد أو من الأضداد. أي أنه يصح استعماله لمعنى معيّن وما يضاده أيضا.

يقول الشريف الجرجاني: «الضدان صفتان وجوديتان يتعاقبان في موضع واحد يستحيل اجتماعهما كالسود والبياض...»⁴.

وهذا الذي أومأ إليه الجرجاني إنما هو في عرف المناطق.

أما أهل اللغة فيقول الفيروز آبادي -رحمه الله-: «الضِدُّ بالكسر والضديد: المثل، والمخالف، ضدّ»⁵. وجاء في المعجم الوسيط: «الضدُّ: المخالف والمنافي، والمثل والنظير والكفاء، (ج) أضداد، ويقال: هذا اللفظ من الأضداد؛ من المفردات الدالة على معنيين متباينين. كالجؤن للأسود والأبيض»⁶.

أما عن واقع الظاهرة اللغوية في بارع القالي فنسوق نماذج منها ما يلي:

- لما عالج القالي (رهو) نقل عن ابن الأعرابي ثم أعقبه بكلامه: «وقال غيره: الرهوة الارتفاع والانحدار. ضدّ قال أبو العباس النميري:

¹ المصدر السابق، ص 394.

² المصدر نفسه، ص 633.

³ نفسه، ص 448.

⁴ معجم التعريفات، الشريف الجرجاني، ص 117.

⁵ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص 319.

⁶ المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ص 536.

«دليت رجلي في رهوة»

فهذا انحدار، وقال عمر بن كلثوم:

«نصبنا مثل رهوة ذات حدّ»

فهذا ارتفاع¹.

- ومنه أيضا قوله: «والغابر الماضي والغابر الباقي. كأنه عندهم من الأضداد. وفسر أبو عبيدة قوله تعالى: ﴿لَا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾² في الباقي، ويقال غبر الدهر غُبُورَه أي مضى مضيه»³.

- هذا الذي تقدم فيه المثال على تصريح القالي بلسان قاله إنه من الأضداد، لكنه أتى بالأضداد في مواضع أخرى من الكتاب ولم يصرح بل لَمَّح، وإدراج ما قاله في الأضداد يبينه السياق.

- ومنه قوله: «وقال الخليل: الهربوع القملة الضخمة، ويقال بل هي الصغيرة، وأنشد بيت الفرزدق المقدم:

يَهْزُ الْمُرَانِعَ عَقْدُهُ عِنْدَ الْحِصَى
بِأَذَلِّ حَيْثُ يَكُونُ مَنْ يَتَذَلَّلُ⁴

- ومنه أيضا قوله: «وقال الخليل: جلّ الله تبارك وتعالى. وهو الجليل ذو الجلال والإكرام. وتقول: جل فلان في عيني أي عظم. وأجللته أي رأيته جليلا نبيلًا. وأجللته أي عظمت. وكل شيء يدق فجلاله خلاف دقاقه. وجلّ كل شيء أعظمه. ويقال: ماله دِقٌّ ولا جلّ⁵.

والعبارة الأخيرة «ماله دِقٌّ ولا جلّ» جرى بلفظها أو ما يقاربه مثل من الأمثال العربية حيث جاء في جمهرة الأمثال للعسكري وقبله في الفاخر في الأمثال للمفضّل الضبي ما نصه: «ما له دقيقة ولا جليلة»⁶، ثم شرحها بأن الدقيقة تعني الشاة (النعجة)، والجليلة تعني الناقة.

وفي هذا السياق أعني عبارة المثل السائر لا يمكن إطلاق مصطلح ضدّ على «جلّ»؛ لأن ذلك يذهب بالمقصد، ويؤدي إلى فساد المعنى، فإطلاق المثل مقصود به الجمع بين الكلمة وضدها على طباق الإيجاب في عبارة واحدة.

¹ البارع، القالي، ص 116.

² الشعراء، الآية 171، والصفات، الآية 135.

³ البارع، القالي، ص 312.

⁴ المصدر نفسه، ص 181.

⁵ نفسه، ص 565.

⁶ الفاخر في الأمثال، الضبي، ص 63. وجمهرة الأمثال، العسكري، 267/2.

4- المذكر والمؤنث:

لقد شغلت قضية التذكير والتأنيث في الأسماء العربية اللغويين العرب من قدم حتى إن مصنفاتهم في ذلك تعددت وتنوعت بين الحصر في حقل دلالي واحد كالتذكير مثلاً، أو التأنيث، أو الجمع بينهما من مؤلف واحد، وحال هذه المؤلفات بين مطول ومختصر.

والعلم بتذكير الكلمة أو تأنيثها له أهمية بالغة قد تحفى على كثير من الناس، يقول ابن الأنباري-رحمه الله: «اعلم أن من تمام معرفة النحو والإعراب معرفة المذكر والمؤنث: من ذكّر مؤنثاً، أو أنث مذكراً كان العيب ملازماً له كلزومه من نصب مرفوعاً، أو خفض منصوباً، أو نصب مخفوضاً»¹. وقد جاء في المعجم الوسيط: «الذَّكْرُ خلاف الأنثى... والذكورة خلاف الأنوثة»². وجاء فيه: «الأنثى خلاف الذكر من كل شيء...»³.

وقد وقعوا في هذين الشرحين فيما يعدّ من معيب أهل المعاجم، إذ وقعوا في التدوير مثل: «الحب نقيض البغض، والبغض نقيض الحب»، لكن مثل هذه الأمور فيها استثناس واستصحاب لما هو معلوم من اللغة بالضرورة، فلا يخفى على عاقل معناه.

أما عن واقع القضية في معجم البارع للقالبي، فهو فيه لا يمثل مطولا ولا مختصراً وإنما مُقِلّ في ذلك، ونثره في طيات الكتاب نثراً كيفما اتفق، ولم يعقد له باباً معيناً خاصاً.

ومما نبه عليه بأنه خاص بالمذكر نجد قوله: «وقال يعقوب: النَّقْب بفتح النون وسكون القاف الطريق إلى الجبل، ومثله الثنية والعقوب، وهو مذكّر»⁴. والشاهد من كلامه في: «العقوب» وهو مذكّر.

ومنه أيضاً قوله: «قال أبو عبيد: العَرَن بفتح الغين والراء على مثال فَعَلَ مفتوح الفاء والعين هو ذكر العقاب»⁵.

أما التنبيه على ما هو مؤنث من الألفاظ عنده فنجد في البارع بكثرة، ومنه قوله: «قال أبو عمرو: الشهيرة الكبيرة، وأنشد:

لَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ وَالْمَنَاكِرَا
وَكثْرَةَ السُّؤَالِ وَالْمَعَاذِرَا
جَمَعْتُ مِنْهَا عُشْبًا شَهَابِرَا

¹ المذكر والمؤنث، ابن الأنباري، 5/1، المقدمة.

² المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ص 313.

³ المرجع نفسه، ص 29.

⁴ البارع، القالبي، ص 488.

⁵ المصدر نفسه، ص 281-282.

وقال الخليل: الشهيرة العجوز، أم الرجل فلا.

قال أبو عبيد (ة) يقال شهرية للكبيرة أيضا وأنشد:

أُمُّ الْخُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرِيَّةٌ
تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بِعَظْمِ الرَّقَبَةِ¹

- ومنه قوله: «وقال أبو حاتم الغول مؤنثة بضم الغين، وهي ساحرة الجن، وهي التي تغول وتلّون. قال كعب بن زهير يذكر امرأة تلّون في موتها.

فما تدوم على شيء تكون به
وتأكيد لتأنيثها فقد ذكرها ابن الحاجب فيما يؤنث بقوله³:

والغول، والفردوس، والفلك التي في البحر تجري وهي في القرآن

- ومنه أيضا قوله: «قال أبو حاتم الرجل من كل شيء مؤنثة، وثلاث أرجل ولا جمع لها إلا الأرجل، وكذلك رجل من جراد أي قطعة، يقال رأيت رجلا من جراد، ورجل من البحر، ومن كل شيء»⁴.

وقال ابن الحاجب مقررًا تأنيثها:

والرجل منها، والسرّاويل التي في الرجل كانت زينة العريان⁵

قال في الحاشية: ودليل تأنيثها قول كثير:

وكنث كذي رجلين رجلٌ صحيحةٌ
ورجل رمى فيها الزّمانُ فسُتّت

ويقال: أنته بأولاد على رجل واحدة وساق واحدة، إذا كانوا يشبه بعضهم بعضًا وتصغر على رُجيلة⁶.

ثم إنه عرّج على نوع ثالث يتوسط بين التذكير والتأنيث، ويشمل ما يذكر ويؤنث، من الأسماء، ومنه قوله: «ويقال للذكر والأنثى هملاج - وقد هملاج يهملج هملجة. وأمر ومهملج مذلل منقاد»⁷.

¹ المصدر السابق، ص 197.

² المصدر نفسه، ص 398.

³ القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة السماعية، ابن الحاجب، تحقيق وشرح: طارق نجم عبد الله، مكتبة المنار، الزرقاء- الأردن، ط1، 1405هـ-1985م، ص 83.

⁴ البارع، القالي، ص 621.

⁵ القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة السماعية، ابن الحاجب، ص 107.

⁶ المرجع نفسه، الصفحة نفسها. الحاشية.

⁷ البارع، القالي، ص 195.

- ومنه أيضا قوله: «وقال أبو زيد: قيس يقولون: غَوَى السخلة إذا ماتت أمه وساءت حاله وهزل واضطرب. ويقال للذكر والأنثى سخلة»¹.

- ومنه أيضا قوله: «أبو زيد، قال الكلايون: هذه غوغاء كثيرة، والواحدة غوغاء أيضا. وقال أبو حاتم: الغوغاء يُذَكَّر ويؤنث فمن أنث قال هي غوغاء بمنزلة رضراض وفضفاض»². وخصّ الإشارة للتأنيث؛ لأنّ المذكر أصل والمؤنث فرع عليه.

- ومنه أيضا قوله: «والناتق من النساء الولود، والناتق من الماشية البطين، على مثال فاعل - الذكر والأنثى فيه سواء».

قال الفرّاء: «ويقال امرأة ناتق: إذا كثر ولدها، ومتناق...»³.

- وهذا شيء قريب من الباب السابق، والمانع من إدراجه معه هو أنه يذكّر ويؤنث باختلاف لا اتفاق مثل الذي سبق. أي أن بعض الكلمات يرى بعض اللغويين أنها مذكر، ويرى آخرون أنها مؤنث. ومنه قوله:

وقال الخليل: المنجنيق ليس من محض العربية. واختلفوا فقالوا: جنّقوا المجانيق.

ويقال مجنّقوا المجانيق. والمنجنوق لغة فيه، ويؤنث ويذكر، وتأنّيتها⁴ أكثر.

قال الشاعر: «بالمنجنوقات وبالأمائم».

قال ابن الأنباري: «المنجنيق مؤنثة. يقال هي المنجنيق»⁵.

وقال الفرّاء: بعض العرب يسمي المنجنيق المنجنوق. قال حكي لي، ولم أسمعهم منهم، كما قيل في المنجنين، المنجنون، وحدثني أبي قال: حدثنا أحمد بن عبيد قال: أخبرنا ابن الأعرابي أنه يقال: منجنيق، ومنجنوق. قال وأنشدنا:

يأحاجبُ اجْتَنِبَ الشَّامَ إِنَّ بَهَا	حُمَى دِعَافَا وَحَصَبَاتٍ وَطَاعُونَا
والمنجنوق التي يرمي بمقدفها	وفتيّة يدعون الليث مؤهونَا ⁶
وحكم الفرّاء بتأنّيتها (المنجنيق) ⁷ .	

¹ المصدر السابق، ص 444.

² المصدر نفسه، ص 447.

³ المذكر والمؤنث، الفرّاء أبو زكرياء يحيى بن زياد، تج: رمضان عبد التواب، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط2، 1989، ص 105.

⁴ البارع، القالي، ص 539-530.

⁵ المذكر والمؤنث، ابن الأنباري، 566/1.

⁶ المصدر نفسه، 568-567 / 1.

⁷ انظر: نفسه، 567 / 1، الحاشية.

وعند أبي حاتم المنجنيق مؤنثة، ويقال لها المنجنيق والمنجنوق¹.

وقال ابن الحاجب يقرر ما يؤنث من الأسماء:

والقوسُ ثم المنجنيقُ، وأرنُبُ والحُمُرُ ثم البئرُ والفَخِذَانِ²

والفيصل في القضية أن المنجنيق تذكر وتؤنث، وتأنثها أكثر في كلام العرب.

5- المعرّب والمولد والعامي والدخيل:

لقد نبّه القالي في معجمه البارع على الكلام غير العربي بمختلف أنواعه، وقد خصّ المعرّب الفارسي منه بمزيد عناية، وفيما يلي نوضح تلك التنبيهات والعناية على النحو التالي:

أ- **المعرّب:** جاء في المعجم الوسيط: «وأعرّب الاسم الأعجمي: نطق به على منهاج العرب»³. ويقول محمد الأنطاكي: «المعرّب هو ما نطق به الجاهليون ومن يحتج بلغتهم من الكلام الأعجمي»⁴.

أما واقع المعرّب في بارع القالي فتعرض لشيء منه على النحو التالي:

- **المعرّب الفارسي:** وهو أكثر أنواع المعرب التي حواها البارع، بل خصّ فيه بمزيد عناية، وهذا بعض ما أورده القالي فيه:

- قوله: «وقال الخليل: دهليز معرب معروف، وهو فارسي معرّب»⁵.

إذا كان هنزمن ورحت مخشما»⁶.

- وقوله أيضاً: «قال محمد، وقال أبو عبيدة: البالغاء عند العرب الأكارع، وهي بالفارسية بايها»⁷.

- المعرّب غير الفارسي:

- ومنه قوله: «وقال الخليل: الازدهار الاحتفاظ، ليست بعربية محضة إنما هي حبشية أو سريانية عربت»⁸.

- ومنه أيضاً قوله: «قال الخليل: الهَيُولُ الهباء المنبعث بالعبراني، ويقال بالرومية، وهو الذي تراه في ضوء الشمس في البيت»⁹.

¹ انظر: المصدر السابق، الصفحة نفسها، الحاشية.

² القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة السماعية، ابن الحاجب، ص 90.

³ المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ص 591.

⁴ دراسات في علم اللغة، محمد الأنطاكي، دار الشرق العربي، بيروت، ط4، (دت)، ص 349.

⁵ البارع، القالي، ص 208.

⁶ المصدر نفسه، ص 222.

⁷ نفسه، ص 275.

⁸ نفسه، ص 218.

⁹ نفسه، ص 107.

ب- المُولَّد:

جاء في المعجم الوسيط: «المُولَّد: المحدث من كل شيء، ومنه المُولَّدون من الشعراء، سمّوا بذلك لحدوثهم، ومن الرجال: العربي غير المحض، ومن ولد عند العرب ونشأ مع أولادهم وتأدب بأدابهم، ومن الكلام: (كل لفظ كان عربي الأصل ثم تغير في الاستعمال، واللفظ العربي الذي يستعمله الناس بعد عصر الرواية. ويقال كتاب مُولَّد: مفتعل»¹.

وقال الأنطكي معرّفًا المُولَّد بقوله: «وهو ما عرّبه المُولَّدون الذين لا يحتج بألفاظهم، والمولدون هم الأجيال الأولى التي ولدت في صدر الإسلام»².

وجاء في الحاشية: «هذا، وللمولّد معنى أعمّ ممّا ذكرنا، فهم يعنون به كلما أحدثه المُولَّدون في اللغة مما لم يعرفه العرب، سواء في الاشتقاق والتعريب والمجاز»³.

أمّا عن واقع ورود الألفاظ المُولَّدة في بارع القالي، فوجودها قليل مقارنة بالمعرّب مهما كان نوعه، وفيما يلي نعرض مثالاً لذلك:

- قوله: «قال الخليل: الهمّلع الرجل المتخطف الذي يوقع وطأه توقيعاً شديداً من حقّة وطئه، قال الشاعر:

رَأَيْتُ الهمّلعَ ذا اللَّعَوَتَيْنِ ليسَ بِآبٍ ولا ضَهَيْدٍ
وضَهَيْد كلمة مَوْلَّدة؛ لأنها على فَعِيل، وليس فَعِيل من بناء كلام العرب»⁴.

ج- المحدث والعامي:

يقول الأنطكي في ذلك: «محدث أو عامي: المحدثون من عاشوا بعد المولدين إلى أيامنا هذه. ويسمى الكلام الذي عرّبه هؤلاء بالمحدثي تمييزاً له من المولّد. ونسميه نحن اليوم عامياً...»⁵.

ولا شك في صعوبة التفريق بين ما هو محدث عامي وما هو مَوْلَّد ويرجع ذلك لأسباب منها:

- عدم الاتفاق على سنة معينة ينتهي فيها عصر المولدين ويبدأ عصر المحدثين.

- صعوبة معرفة الوقت الذي ظهرت فيه الكلمات المولدة أو المحدثّة.

¹ المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ص 1056.

² دراسات في فقه اللغة، محمد الأنطكي، ص 350.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها، الحاشية.

⁴ البارع، القالي، ص 183.

⁵ دراسات في فقه اللغة، محمد الأنطكي، ص 351.

وهذا الأمر لا ينفي العلم ببعض الكلمات من حيث هي محدثة أو مولدة يقينا نظرا لقرائن محدّدة. أما عن واقع الظاهرة في بارع القالي فشأنه فيها شأن الكلمات الأعجمية عموما من حيث التنبيه؛ ذلك أنه لا يدخل في الفصاح من الكلام.

ومما ورد في البارع منه نذكر النماذج التالية:

- قوله: «ويُقَال هو خير من فلان. والعامّة تقول أخير منه بفتح الخاء وسكون الياء. وهو خطأ إنما هو خير من فلان. ولكن بعض العرب يقول أخير منه فيسكن الخاء ويفتح الياء»¹.
 - وقوله: «وقال يعقوب هو القرقس الذي تقول له العامّة الجرجس»².
 - وقوله: «والعامّة يقولون: فلان لا يخنق على جرّته. بفتح الجيم، والصواب على جرّته»³.
- إن مما يلفت الانتباه حقا أن أبا علي في إيرادهِ للأقوال يسير وفق منهج واحد، حيث يصرّح بمقدمة وتقول العامّة أو العامّة تقول... لكن قد يصوّب ويحكم ناقدًا قول العامّة - وهو الغالب - وقد يعدل عن ذلك، ويكتفي بمجرد الذكر والنسبة إلى العامّة وهو قليل.

د- الدخيل:

- جاء في المعجم الوسيط: «الدخيل: من دخل في قوم وانتسب إليهم وليس منهم، والضيف لدخوله على المضيف، وكل كلمة أدخلت في كلام العرب وليست منه...»⁴.
- ويرى محمد الأنطاكي أن الدخيل الأصل فيه ألا يستقلّ بقسم على حدة وإنما هو شامل للأنواع التي ذكرت سابقا، بل إنه يمتاز عليها بصفة الاحتواء والشمولية هذه⁵.
- أما عن واقع الأمر في بارع القالي، فلقد ضم البارع بعض الكلمات وإن - كانت قليلة جدا - أطلق عليها هذا اللفظ والحكم تصرّحا، ومما ذكره بصفة الدّخيل ما يلي:
- قوله: «والغبراء والغبراء نبت تأكله الغنم، وأمّا هذا التمر الذي يسمّى الغبراء فدخيل في كلامهم»⁶.

¹ البارع، القالي، ص 224-225.

² المصدر نفسه، ص 551.

³ نفسه، ص 569.

⁴ المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ص 275.

⁵ انظر: دراسات في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، ص 349.

⁶ البارع، القالي، ص 312.

- وقوله: «والنافقاء موضع يرققه اليربوع من جحره فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق منها. وبعض يسمي النافقاء النُّفقة. وقد أنفقتا اليربوع إذا لم نرفق به حتى انتفق فذهب، والنَيْفَق دَخِيل»¹.

6- اللغات: لقد عني أبو علي في البارع باللغات عناية بالغة، لذلك عَجَّ بها كتابه، ومن قبائل العرب التي أثبتت لغاتها: قبائل الحجاز وتميم وبني كلاب وغيرهم. وهذان مثالان عن ذلك:

أ- الحجازية:

- قوله: «وتقول غيض ماء البحر فهو مغيض. مفعول به. وتقول غِضْتَهُ أي فجرته إلى مغيض وانغاض الماء حجازية»².

- قوله: «قال أبو زيد: والواغل الذي يأتي الطعام الذي لا يدعى إليه... وفي كلام أهل الحجاز البرقي»³.

- قوله: «قال الخليل: الحصّ بكسر الجيم، معروف... ولغة أهل الحجاز في الحصّ القص»⁴.

ب- التميمية:

- قوله: «وقال يعقوب، قال أبو عبيدة: بنو تميم من أهل نجد يقولون نَهي بكسر النون للغدير وغيرهم يقولون نَهي بفتح النون»⁵.

- قوله: «وقالت تميم: أمددت الدواة إمدادا على مثال أفعلت، والاسم: المداد. وتقول: تكلم فلان بكلام فأمدّه رجل من القول إمدادا على مثال أفعل»⁶.

- قوله: «ويقال وقع في المال المؤتان بضم الميم والواو ساكنة في لغة تميم معناها وقع فيها الموت»⁷.

وجملة القول:

¹ المصدر السابق، ص 482.

² المصدر نفسه، ص 385.

³ نفسه، ص 403.

⁴ نفسه، ص 580.

⁵ نفسه، ص 124.

⁶ نفسه، ص 694.

⁷ نفسه، ص 705.

إن أبا علي قد عُني في معجمه «البارع» بلغات القبائل العربية عناية بالغة، والناظر فيما حواه المعجم يقف على أمور نلخصها فيما يلي:

- إيراد اللغات من غير تصريح ونسبة ظاهرة يعج بها معجم البارع، وتمثل الجزء الأكبر من اللغات، بل إن ورودها يفوق اللغات المنسوبة إلى قبائلها مجتمعة¹.

- حفوله الكبير بلغات الكلابيين والحجازيين والتميميين، فهذه الثلاث تمثل الجزء الأكبر من اللغات المصرح بها والمنسوبة.

- ورود لغات قبائل العرب الأخرى قليل، وفي هذا القليل يقع التفاوت وقيس، وطيء، وغنية بدرجة أكبر من غيرهم.

- ورود لغات تنسب إلى عموم في الأصل مثل: لغة أهل الطائف وأهل اليمن، وأهل الشام وغيرها.

- ورود بعض اللغات في المعجم كله مرة أو مرتين فقط، فعلى الأولى نجد بني عقيل، والأزد، وأهل العراق، وأهل الجزيرة، وأعراب العالية، وعلى الثانية نجد أهل مصر، وأهل عمان، وأهل الشام، وبني أسد، وحمير.

إن الباحث والدارس في المعاجم العربية لا يخفى عليه عناية أبي علي القالي في معجمه البارع باللغات، فهو قد أكثر من اللغات المشهورة عند العرب، لكنه لم يتوقف عند ذلك بل تعداها إلى غير المشهورة من الفروع وغيرها، أما اللغات المشهورة، فهو قد تلقفها عن مشايخه الذين درسوه في المشرق فأقر ذلك في بارعه، وأما ورود غير المشهور منها فسيبه أن الرجل عنده رؤية انفتاحية ولا يقصد بها مخالفة ضابط من ضوابط الفصاحة وإنما يرى الاستئناس بما هو مغمور من فروع القبائل العربية ليس فيه ضير - أما إهماله للغة قريش رغم شهرتها فلا ندري موقفه منها: ذلك أنه لم يصرح بشيء يخص هذا الأمر إلا أن يكون قد أخذ ببعض أحكام اللغويين من مثل السيوطي وغيره إزاءها وهذا مستبعد جدا.

¹ فالمقصود باللغات غير المصرح بها هو أنه يذكر كلاما لقبيلة أخرى غير التي ذكرها في كلامه الذي بدأ به، ولا يصح أنه لغة أخرى، وفي بعض الأحيان يقول عن كلمة وفيها لغات، أو ست لغات... دون تحديد القبيلة أو صاحب اللغة مثل قوله: «والوجاء بكسر الواو والتجاه بضم التاء لغتان»، وقوله: «وقال الأصمعي: شعر رجل بفتح الراء وكسر الجيم، ورجل بفتح الراء والجيم، ورجل بفتح الراء وسكون الجيم ثلاث لغات». وانظر: نفسه، ص 94، 622 على التوالي.

ثم إنه قد يورد اللغات دون تصريح للفظ لغة أصلا مثل قوله: «قال أبو بكر: ويقال وتحت الكتاب وأتخته. ذكر عن يونس وأبي مالك أنهما سمعاه». وانظر: نفسه، ص 230.

7- المجاز:

معلوم أنه لا يوجد في المعاجم العربية القديمة من اعتنى العناية البالغة بالمجاز مثل عمل الزمخشري في أساس البلاغة، لكن هذا الأمر لا يمنع من وجود تجارب سابقة في هذا المجال وإن كانت لا تضاهي عمله ولا شيئاً منه، ولعل القالي يدخل ضمن هؤلاء الذين سبق وأن أشاروا إلى المجاز في معاجمهم، ففي دراسة البارع قد وقفنا على بعض من المجازات.

فالمجاز ما جاوز وتعدّى عن محله الموضوع له إلى غيره لمناسبة بينهما، إمّا من حيث الصورة، أو من حيث المعنى اللازم المشهور، أو من حيث القرب والمجاورة كاسم الأسد للرجل الشجاع، وكألفاظ يكتن بها الحديث¹. وهو أنواع منوّعة.

أما عن وجوده في بارع القالي فنورد بعضه على النحو التالي:

- قوله: «قال أبو علي، قال أبو زيد: يقال ما ذقت غماضاً أي ما ذقت نوماً»². وهذا من قبيل الاستعارة.

- قوله: «وإذا قال الرجل لامرأته حبلك على غاربك: فهي تطليقة»³. فقوله: «حبلك على غاربك» هذا مثل بني على الكناية، وقوة العرف اللغوي في مثل هذه التراكيب نافذة وحاكمة.

- قوله: «وقال أبوزيد: يقال فلان يضرب الغائط ويتغوط، وهذا كناية عن الخراءة»⁴.

- قوله: «وأنشد أبو زيد:

وصاحبٍ نَبَّهْتُ لِنَهْضَا
إذا الْكَرَى فِي عَيْنِهِ تَمَضُّضًا⁵»

وعجز البيت من قبيل الاستعارة المكنية.

8- قضايا لغوية متعددة:

أ- **الجموع التي لا واحد لها:** والأصل في الجمع أن يكون له مفرد، وإنما الجمع والجموع فرع عنه، لكن في هذه اللغة الشريفة توجد جموع لا واحد لها من لفظها وإنما من جنسها ومعناها. وفيما يلي نعرض بعض نماذج البارع على النحو التالي:

¹ معجم التعريفات، الشريف الجرجاني، ص 170.

² البارع، القالي، ص 268.

³ المصدر نفسه، ص 308.

⁴ نفسه، ص 423.

⁵ نفسه، ص 299.

- قوله: «وقال ابن الأعرابي: التَّهَاء بضم النون ممدود قيل: لا واحد لها»¹.

- قوله: «قال أبو حاتم: الغنم مؤنثة لا واحد لها من لفظها، والتصغير غنيمة، والجميع أغنام»².

ب- الأسماء المتعددة للشيء الواحد:

- قوله: «قال أبو علي، قال أبو حاتم: جهنم مؤنثة، ولها أسماء أيضا مؤنثة كقولهم: سقر، ولظى، والجحيم...»³.

ج- الإبدال والقلب:

- قوله: «قال محمد، قال أبوبكر: الضغد مثل الرغد وهو عصير الحلق، ضغدة ورغدة»⁴.

- قوله: «وقال أبو الحسن: والنزغ الكلام الذي يغري بين الناس. ويقال نغز بمعنى نزغ. ويقال: أخرجوا النغاز من بينكم والنزاع»⁵.

د- المترادف من (فعل وأفعل) :

ظاهرة الترادف موجودة في اللغة لكن بين صيغتي (فعل وأفعل) أيوجد استثناء؛ لأنها في الغالب تكون على تعاكس.

وظهر المترادف فيها في البارع في قوله: «أبو حاتم، قال الطائفي: إذا كبر حب العنقود شيئا قلت قد غصن وقد أغصن»⁶.

هـ- ما جاء على المشى وضعاً:

ومنه قوله: «وقال أبو حاتم، قال بعض أصحابنا: الأصدغان عرقان تحت الصدغين.

وقال الأصمعي: هما يضربان من كل واحد في الدنيا أبداً ولا واحد لهما يعرف كما قالوا المذروان لناحتي الرأس ولا يفرد أحدهما، ولا يقال مذكرى، ولو كان يفرد أحدهما لقلبوا الواو فقالوا مذريان كما يقال مذريان في تثنية المذكرى الذي يذرى به الطعام»⁷.

¹ المصدر السابق ، ص125.

² المصدر نفسه، ص340.

³ نفسه، ص 194.

⁴ نفسه، ص 257.

⁵ نفسه، ص 331.

⁶ نفسه، ص 329.

⁷ نفسه، ص 346.

و- المقصور والممدود:

يخلط بعض اللغويين في هذا الباب، والتمييز بين الأسماء المقصورة والممدودة وليس الفصل في القضية عموماً بالأمر السهل، فيحتاج اللغوي فيه إلى سعة اطلاع واعتماد على شواهد من كلام العرب. فالقالي أدلى بدلوه في هذا الباب¹ وهذه القضية، فقد حوى البارع أمثلة ونماذج متعددة. نورد بعضها فيما يلي:

- قوله: «قال أبو زيد: وتقول أخذت الغنم بدرهم درهم، وشاة أُلْغِيَتْ فهي لَعَى، مقصور إذا لم تعدّ فيما يباع...»².

- قوله: «ويقال: غريت تغرى غرى مقصور. وقالوا: غروته أغرّوه بالغرى مقصور وممدود. وغرّيته تغرية...»

و قال ابن قتيبة: غرا السرج إذا فتح أوله قصر، وإذا كسر مدّ³.

- قوله: «قال الأصمعي: ويقال رُغوة اللبن بالضمّ والجميع الرُغى مقصور يضم الراء وفتح الغين لرغوة اللبن وغيره...»

وقال الخليل: البعير والناقة يرغوان رغوا ورغاء. والضبع تَرْعُو⁴.

9- ذكر مواد من كتب مفقودة:

لقد حفظت لنا كتب القالي بعض ما تضمنته كتب مفقودة من مادة لغوية هامة يعسر على اللغوي تحصيلها من غير هذا الباب؛ ذلك أن القالي تتلمذ لبعض الأئمة اللغويين، وروى بعض كتب من تقدمه نقلاً عن شيوخه ومن فوقهم حتى انتهت السلسلة الإسنادية إليه، وأول هذه الكتب كتب أبي زيد الأنصاري اللغوي الكبير أشهر من نار على علم في المجال اللغوي صاحب كتاب النوادر، ولا نقصده في هذا الموضع؛ لأنه كتاب مطبوع ليس مفقوداً، وإنما نقصد كتاب الغرائز واللغات، وغيرهما لغيره.

ومنها قوله: «وقال في الغرائز: البّجال من الرجال الذي قد جمع سنّاً وجمالاً ونبلاً، ويقال للشباب بجال وأنشد:

لَنْ يَعدَمَ المِطْيَى مِنّا مُسْفِراً شَيْخًا بِجالاً وغلماً حَزُورًا

¹ قبل أن يدرج هذا الباب (المقصور والممدود في طبقات البارع) كان قد ألف كتاباً خاصاً بعنوان المقصور والممدود.

² المصدر السابق، ص 400.

³ المصدر نفسه، ص 406.

⁴ نفسه، ص 414.

البحال الذي بجلّه أصحابه ويحتاجون إلى رأيه. والأبجل عرق في باطن مفصل الساق في المأبض، والأبجل في اليد إلى جانب الأكحل. ويقال هو النسا في الساق. والأبجل في اليد. والأبهر في الظهر، والأخدع في العنق.

وقال أبو خراش الهذلي ييكي إخوته:

رُزِيَتْ بني لُبْنى فلما رُزيتهم صَبَرْتُ ولم أَقْطَعْ عَلَيْهِمْ أَبَا جَلِي

قال: وبجل بفتح الباء والجيم. بمعنى حسب، قال الشاعر:

ألا إِنِّي سُقِيْتُ أَسْوَدَ حَالِكًا
والأَسْوَدُ الحَالِكُ هو الماء»¹.

- ومنها قوله: «وقال في كتاب اللغات: قد غَوِيَ الجدي بفتح الغين وكسر الواو، غَوِيَ بفتح الغين مقصور، وذلك إذا منعوه الرضاع حتى يضر به الجوع»².

وهذا الذي ذكرنا إنما هو قليل من كثير سواء في عدد اللغويين المروي عنهم بعض الكتب والتي حفظها القالي وتحملها أو الكتب المنقولة ولا دليل يثبت نسبتها للغوي معين، خاصة وأن الفترة التي سبقت القالي (القرن الثاني الهجري) ألقت فيها كتب كثيرة بعنوان واحد للغويين كثير.

10- التمييز بين المنقول عنهم عند الالتباس:

ويقصد به أن أبا علي القالي عند نقله عن الأئمة اللغويين ولما تشابه الأسماء يحتاط لذلك بإحداث قيود من وصف وغيره من شأنها أن يقع بها التمايز.

أما واقع الظاهرة في بارع القالي فنمثل لها على النحو التالي:

قوله: «وقال أبو حاتم، حدثنا يعقوب القارئ، قال: سمعت بكر بن حبيب السهمي من باهلة يقرأ (فيهنّ خيرّات حسان) بشدّ الياء...»

وقال يعقوب: الحَيَّر بفتح الحاء وسكون الياء ضدّ الشَّر. والحَيَّر بكسر الحاء الكرم. يقال: هو ذو خير أي كريم»³.

فميز الرجل هنا بين اليعقوبين فميز الأول بقيد الصفة فقال يعقوب القارئ لينصرم الذهن إلى يعقوب القارئ صاحب قراءة، التاسع من القراء العشرة المشهورين، وهو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي توفي سنة (205هـ) وعمره: 88 سنة.

¹ المصدر السابق، ص 649.

² المصدر نفسه، ص 444.

³ نفسه، ص 226.

أما يعقوب الثاني الذي نقل عنه فهو أيضا اللغوي المشهور من كبار أئمة اللغة المشهور بـ ابن السكيت صاحب كتاب الألفاظ، وإصلاح المنطق وغيرهما، فهو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت الدروقي الأهوازي البغدادي النحوي توفي عام (224هـ) .

فالقالي لما عرض لكلام عن القرآن والقراءات فهنا حتما يكون يعقوب القارئ، لكنه لم يكشف باستصحاب الحال الذي يعرف به المتخصص في علم القراءات وضبطها، فذهب يصرح ويوضح حتى لا يدع للاتباس في الأمر أي مدخل.

ومن هذا الباب نرى الرجل حريصا على التمييز بين الشعراء الذين يستشهد بأقوالهم وكلامهم بالقرائن المتعددة للهوية.

ومنه قوله: «قال أعشى همدان:

شَتِيْمُ الْمُحَيَّا ذُو شَتِي إِذَا غَدَا
تَبْهَنْسَ يَمْشِي مِشِيَةَ الْمُرْدَدِّ»¹

فالقالي عمد إلى نسبة الشاعر إلى همدان؛ لأن هذا الأمر وهذه اللفظة المضافة (همدان) من شأنها أن تحدد هوية هذا الشاعر خاصة إذا علمنا أن هذا الوصف المنقول إلى العلمية لفظ (أعشى) يحمله أكثر من شاعر ورجل لذا كان لزاما عليه ومن حسن الصنيع أن يحدد هويته بالقرائن اللغوية ما أمكن.

بعد الكلام المنقول المتقدم يواصل القالي نقله عن الخليل بقوله: «وقال: وهنزن بكسر الهاء إعراب هنجمن. فارسية معربة قال الأعشى:

إذا كان هنزن ورحت مخشما»².

فهنا أنشد للأعشى بهذا اللفظ والضبط فقوله: قال الأعشى: إنما يقصد به الأعشى الكبير صاحب المعلقة، ولا يتوهم متوهم أن (أل) الداخلة على اللفظ للعهد الذهبي كونه تقدم ذكره قريبا، وإنما هي للعهد العلمي، والإطلاق هكذا (الأعشى) دون قيد فإن الذهن أصلا ينصرف إلى المشهور ممن حمل هذا الوصف ولا شهرة أكثر من شهرة الأعشى الكبير - أعشى قيس - ميمون بن قيس - ويكنى بـ أبي بصير تفاؤلا. صاحب المعلقة التي مطلعها³:

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنْ الرِّكْبَ مُرْتَحِلُ
وَهْلَ تَطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرُّجُلُ
غَرَاءُ فَرَعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا
تَمْشِي الْهَوِينَا كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَجِلُ

¹ المصدر السابق، ص 222.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ المعلقات العشر وأخبار شعرائها، أحمد الأمين الشنقيطي، تح: محمود محمد ساكر، دار النصر للطباعة والنشر، (دط)، (دت)، ص 145.

وبينهما أعاش كثر منهم: أعشى باهلة، عامر بن الحارث بن رباح¹، وأعشى بكر بن وائل، وأعشى بني ثعلبة ربيعة بن يحيى، وأعشى بني ربيعة عبد الله بن فارحة، وأعشى بني سليم.

11- التنبيه على الكلام الموقوف على الشخص:

فالقالي عند معالجة «جث» نقل ما يلي: «وقال أبوبكر- يعني ابن دريد- المجثة بكسر الميم والمجثات حديدة يقلع بها الغسيل والغسيلة جثثة وأنشد قول الراجز:

أَفْسَمْتُ لَا يَذْهَبُ عَنِّي بَعْلُهَا أَوْ يَسْتَوِي جِثَّتُهَا وَجَعْلُهَا

والجعل ما نالته اليد.

قال: والجث ما ارتفع من الأرض حتى يكون له شخص مثل الأكمية الصغيرة ونحوها، وأنشد:

فَأَوْفَى عَلَى جُثِّ وَاللَّيْلُ طُرَّةٌ عَلَى الْأَفْقِ لَمْ يَهْتِكْ جَوَانِبُهَا فَجْرٌ

قال: وأحسب جثة الرجل من هذا اشتقاقها. وقال قوم من أهل اللغة: لا يسمّى حثّة إلا أن يكون قاعدًا أو نائمًا، فأما القائم فلا يقال جثته، إنما يقال قمته.

وزعموا أن أبا الخطاب الأخفش كان يقول: لا أقول جثة الرجل إلا لشخصه على سرج أو رحل. ويكون معتمًا. ولم يسمع من غيره².

فالقالي جعل الكلام موقوفًا على الأخفش أبي الخطاب حتى يكون مقيدًا لما نقل ثم أكمل نظرية الاحتياط والتحفّظ التي سار عليها فيما ينقل وختم قوله بحكم هو، ولم يسمع من غيره.

12- التنبيه على المولدين من الشعراء:

قلّمًا تجد لغويًا معجميًا ينبّه على المولدين من الشعراء، وأكثر الذين يعنون بذلك النحاة؛ لأن ذلك أمر هام في التنظير والتفعيد والشاهد حجة، فهم يحصون ويدققون في الأمر، وفي حقيقة الأمر أن اللغة بصفة عامة تخدمها هذه القضية وهي تبين من يحتجّ بقوله ممن لا تقوم بقوله حجة؛ ذلك أن هذه اللغة الشريفة شارحة للشرع في الدين الإسلامي، ومن هنا كان على كبار أئمة اللغة التحفظ في النقل.

ومنه قوله: «قال أبو حاتم، قال أبو زيد: وكتب رجل من (من أهل رامهرمز) إلى الخليل بن أحمد يسأله عن قولهم: ما أوقفك ومن أوقفك؟ قال فكتب إليه قائلًا هما واحد ثم لقيني الخلل فسألني فقلت: إنما يقال ما أوقفك ومن أوقفك بغير ألف.

¹ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجهمي، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّة، (دط)، (دت)، ص 210.

² البارع، القالي، ص 587.

الأصمعي: الطرماح لا يوثق به في هذا لأنه مولّد.

فَطَرَنْتُ لِلْهَوَى ثُمَّ أَوْقَفْتُ رِضًا بِالثُّقَى وَذُو الْبِرِّ رَاضِي¹

فالقالي نقل حكم الأصمعي النقدي إزاء الطرماح الذي أراد الاستشهاد بشعره في مثل هذا الأمر، فلم يتوان في إخراجهم من دائرة الاحتجاج وحصره في دائرة المولدين لئلا يغترّ مغترّ بقوله هذا المتقدم.

13- التنبيه على تلازم الألفاظ والأوصاف الخاصة:

ويقصد بهذا أن اللغة العربية تحوي ظواهر عديدة ومنها تلازم الألفاظ، أي أن هذه اللفظة ترد في الفصيح مقترنة بهذه على الحقيقة لا غير، وإن شئت قل وصفا لازما، فعلى سبيل المثال عندنا لفظ «بَرَكَ» هذا في الفصيح عن العرب إنما هو ملازم للبعير، ويرد معه حقيقة، ولا يمنع أن يوصف به غيره على المجاز، وقد أورد القالي في البارع شيئا من هذا، ومنه:

قوله: «وقال الخليل: الأسد يتبهنس في مشيه أي يتبختر نعت للأسد خاصة. قال أعشى همدان:

شَتِيمُ الْمُحْيَا ذُو شَيْءٍ إِذَا عَدَا تَبْهَنْسَ يَمْشِي مِشْيَةَ الْمُتَرَدِّدِ²

أما إذا ألصق هذا الوصف بغير الأسد فهو على سبيل الإعارة كما أورد القالي قبل هذا الكلام كلاما قال فيه:

«ويقال: مرّ الرجل يتبهنس إذا مرّ يَحْتَال، وقال أبو زيد في الأسد»³.

14- الشرح عن طريق السؤال والجواب:

فالقالي في معجمه البارع وأثناء المعالجة والشرح للمواد اللغوية تفنن في طرق العرض المختلفة، ومنها عرض الشروح بطريقة السؤال والجواب، وهذا الأمر يشير إلى حقيقة هي تواضع أهل اللغة في طلبها من أهلها، ونورد مثالا على هذه الطريقة التي أوردتها القالي في البارع فيما يلي:

قوله: «الأصمعي: يقال دَغِصَ الرجل يدغص دَغِصًا بفتح الدال وكسر الغين في الماضي وفتح الغين في المستقبل والمصدر، إذا امتلأ بطنه من الطعام. وقيل لأبي العتاف الغنوي؛ ما الحَبْط؟ فقال: أن تأكل حتى تدغص. قيل: وكيف تدغص؟ قال: حتى لا تجد أمّا. قيل: وما الأمت؟ قال البقية في الجراب تبقى بعد ما تملأه»⁴.

¹ المصدر السابق، ص 499.

² المصدر نفسه، ص 222.

³ نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ نفسه، ص 347.

وهذا المثال من البارع إضافة لطريقة السؤال والجواب في الشرح والتفسير نرى التسلسل في طلب المعرفة بالشيء، فكلما يحيله إلى شيء وقد استغلق عليه معناه سأل مرة أخرى وهكذا حتى انتهى إلى ما يريد من المعرفة واتضح الشرح.

15- التقريب في الشرح والتفسير:

ويقصد به ألا يفصح المعجمي عن الحقيقة مباشرة وتحديد كنه الشيء المراد تعريفه وشرحه، فيلجأ إلى وسائل أخرى قد تقرب المعنى إن لم تصبه، وذلك باستعمال ألفاظ منها: مثل، مثال، شبه، شبيه وغيرها. وهذا نموذج يوضح هذه الظاهرة في بارع القالي نورد على النحو التالي:

- قوله: «قال أبو علي، قال أبو زيد، قال الكلابيون: ومن الرجال الأهوج وهو الذي فيه حمق، وفيه بقية مثل الأهوك والاسم الهوج»¹.

فهو هنا استعمل المشابهة من ناحيتين في اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون والأهوج مطابق للأهوك في البنية الصرفية، أما في المعنى كما صرح هو الذي فيه حمق.

- قوله: «قال أبو زيد: والزرنقان شبه الساريتين على رأى الركبة من مدر وحجارة»². لزال في الحقل الدلالي للمشابهة، لكنه استعمل لفظ شبه هنا.

- قوله: «والوجهة القبلة وشبهها...»³.

- قوله: «...والجشر يكون في سواحل البحر وقراراته من الحصى والأصداف وأشباه ذلك»⁴.

- قوله: «قال أبو زيد: ويقال ركب فلان الجرحة بفتح الجيم والراء على مثال درجة، وهي الأرض إذا ركبها منطلقا»⁵.

وهو يريد بالمشابهة هنا الوزن من الناحية الصرفية وأيضا الصوتية ويظهر ذلك في ضبطه أولا لما قال بفتح الجيم والراء ثم عقد المشابهة بدرجة.

- قوله: «وقال يعقوب: يقال ماء سحس بفتح السين وسكون الجيم. وسحس بكسر الجيم وسحيس على مثال فعيل إذا كان كدرا متغيرا»⁶.

باستعمال لفظ مثال وصل إلى الوزن الصرفي «فعيل».

¹ المصدر السابق، ص 95.

² المصدر نفسه، ص 545.

³ نفسه، ص 94.

⁴ نفسه، ص 603.

⁵ نفسه، ص 570.

⁶ نفسه، ص 584.

16- وسائل الاختصار:

معلوم أن تأليف معجم ألفاظ عام ليس بالأمر الهين، وقد تواجه صاحبه صعوبات مختلفة بعضها يتعلق بالجمع والآخر يتعلّق بالوضع، ثم إنه في كل هذا حريص ألا يكون في معجمه حشو فهو في غنى عن ذلك، بل إنه يبتكر طرقاً لمراعاة الاختصار وتجنب التكرار.

وقد كان لأبي علي القالي حظه من ذلك كشف عنه معجم البارع، وهذا شيء منه:

- قوله: «وقال أبو حاتم: لك مكيال جمام بالضم على مثال فُعال وجَمام المكيال بكسر الجيم على مثال فِعال.

وقال أبو عبيدة مثله، وزاد أبو عبيدة: جَمامه بفتح الجيم»¹.

فقوله: «وقال أبو عبيدة مثله» كلمة مثله أغنت عن إعادة كلام أبي حاتم المتقدم كلّهُ؛ لأنه يحيل إليه مشابهة، بل مطابقة.

- قوله: «الخليل: الدِمَقس بكسر الدال وفتح الميم، الابرسيم بكس الهمزة وسكون الياء وفتح السين والراء...»².

فالقالي هنا مراعاة للاختصار حذف العامل في أول نقله إذ الأصل: قال الخليل فحذف العامل الفعل قال.

- قوله لما عاج «عنجه»: «وقال رؤبة. وقد مضى قوله»³.

وكان قد تقدم قول رؤبة من قريب والذي قال فيه:

أَدْرَكْتُهَا قَدَّامَ كُلِّ مَذْرَةٍ

بالدفع عَن رَدِّ كُلِّ عَنَجَةٍ»⁴

وفي الاستشهاد للفظه المعالجة «عنجه» واضحة بينة الاختصار لديه لكن الإحالة تكون محمودة وإيجابية إذا كانت إلى قريب هنا تتحقق قيمة الاختصار وتجنب التكرار، أما البعيدة فلا، لما فيها من عيب. وقد برزت ظاهرة الاختصار أيضاً فيما يسوقه من استشهاد يدعم به أحكامه ومادته اللغوية؛ فهو يورد ما تقوم به الحاجة من الشاهد - أيا كان نوعه - من غير إخلال بالمعنى.

¹ المصدر السابق، ص 598.

² المصدر نفسه، ص 561.

³ نفسه، ص 180.

⁴ نفسه، ص 179.

وهذه أمثلة موزعة على أنواع شواهد الممكنة في البارع:

أ- الشاهد القرآني:

ومنه قوله: لما عالج (خير): «وقول اختر بني فلان رجلا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾¹...»².

فالقالي شاهده يتمحور حول الفعل «اختار»، لكنه في الاستشهاد لم يأت بباقي الكلام المكمل للآية، بل اقتصر على ما تقوم به حاجته، فهو أتى بكلام ذي فائدة وجملة تامة المعنى.

ب- الشاهد الحديثي:

ومنه قوله لما عالج «جدّ»: «وفي الصلاة: (وتعالى جدّك)³»⁴.

فقوله وفي الصلاة يقصد الحديث، ليس معنى ذلك أن الحديث مرادف للصلاة لغة كالدعاء، وإنما هذه دلالة مفهوم؛ ذلك أن الصلاة كلها وحي فالكلام فيها لا يخرج عن قول الله جلّ وعلا (القرآن الكريم) أو قول المصطفى ﷺ، وهو الحديث، فهذه الجملة «تعالى جدّك» معروفة عند المسلمين إنما هي جزء من حديث الاستفتاح وقد تقدمت الإشارة إليه، وهو «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إله غيرك»، فجملة الشاهد كلام تام المعنى، وبه حصل المقصود.

ج- الشاهد الشعري:

ومنه قوله لما عالج «نمرق»: «وقال الخليل: النمرق الوسادة وربما قالوا نمرقة، وأما قول رؤية: «أعدّ أخطالا له ونمرقه»⁵

فالقالي هنا اجتزأ واقتصر في الشاهد عن شطر البيت، وبه تقوم الحجة على الصحيح في الاستشهاد. إن ما سودته أقلام البحث في مزايا البارع لأبي علي القالي في علم اللغة والمعاجم لشيء قليل من كثير؛ ذلك أن ما أفاد به الرجل في هذا المجال أكثر من أن يقف وراءه واقف، أو أن يحصيه محص، وصنيع الرجل لا ينقضي منه عجب لكثرتة وتنوعه، وربما توجّج بحثنا هذا بإبراز شيء يسير من ذلك، ولعل أهم ما يستوقف الباحث في عمل القالي المعجمي في البارع إبداعه في الضبط والشكل لتمايز الألفاظ، فيعتبر القالي أول من عني من المعجميين القدامى بضبط الكلمات بالشكل والنص على ذلك احتياطا منه وتحفظا مما يعتري الألفاظ بعد تدوينها من تصحيف، وقراءة خاطئة قد تنحرف بالمعنى المقصود من وضع الكلمات.

¹ الأعراف: الآية 155.

² البارع، القالي، ص 226.

³ جزء من حديث الاستفتاح، وانظر: تلخيص صفة صلاة النبي ﷺ، الألباني، ص 14.

⁴ البارع، القالي، ص 573.

⁵ المصدر نفسه، ص 544.

فالرجل الذي تفتن لهذه الحيلة في ضبط الألفاظ شكلا ونصا عليها حتما يكون له شأن كبير في هذا المجال، وقد تحقق ذلك، وما وجد من أجزاء لمعجمه «البارع» إلا صورة لحسن الصنيع والإبداع.

17 - نقود البارع:

لقد ضمّن أبو علي القالي معجمه البارع نقودا كثيرة مختلفة، وما ذلك إلا لسعة نظره اللغوية، وبروزه في هذا المجال تبلور فيما حمله البارع من نقود وغيرها.

هذا، والنقود المختلفة التي تضمنها البارع بعضها من نقود القالي الخاصة، وأغلبها ينقله عن غيره من أئمة اللغة والثقات البارزين، وهذا شيء من نقوده نوردته على النحو التالي:

أ- التنبيه على الفصيح والجيد في اللغة:

- ومنه قوله: «قال أبو علي، قال أبو حاتم، قال الأصمعي: اللغة الفصيحة عند العرب، الدّجاج والدّجاج بفتح الدال وكسرهما، وكذلك واحدها.

قال: ويقال رجل مدجج.

وحكى أبو عبيدة: مدجج بالفتح»¹.

- ومنه قوله: «وكان ابن الأعرابي يقول: الجلد بكسر الجيم والجلد بفتح الجيم واللام واحد مثل شبه وشبهه. وليس هذا بمعروف»².

- ومنه قوله: «وقال الخليل: الوهّج بفتح الواو والهاء حر النار أو الشمس من بعيد، يقال وهّجت توهّج بكسر الهاء في الماضي وفتحها في المستقبل، وهي وهجة، والعالي من كلامهم توهّجت...»³.

فقوله الأخير: «والعالي من كلامهم توهّجت» فيه بيان للغة الجيدة والفصيحة. ويقال تراب مهيل على مثال مفعول وفي القرآن «كثيلا مهيلا»⁴ وأصله مهيوّلا.

- ومنه قوله: «وعلى لغة العرب يقولون ثوب مخيط ومخيوط، وبرّ مكيل ومكيول، وشيء مبيع ومبيوع وأجوده مهيل ومكيل ومخيوط ومبيوع...»⁵.

والعبارة الأخيرة «وأجوده...» متضمنة بيان الجيد من اللغة.

¹ المصدر السابق، ص 578.

² المصدر نفسه، ص 627.

³ نفسه، ص 96-97.

⁴ المزمّل: الآية 19.

⁵ البارع، القالي، ص 106-107.

- ومنه قوله: «وقال الراجز، أنشده أبو زيد:

وَيَهَا فِدَاءُ لَكَ يَا فُضَالَةَ
اجره الرمح ولا تَهَالَةَ

بفتح اللام، أراد النون الخفيفة فحذفها ومثله:

مِنْ أَيِّ يَوْمِي الْمَوْتِ أَفْرُ
أَيُّومٍ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمٍ قَدِرِ

بفتح راء يقدر فأما النون الخفيفة فحذفها وبقي ما قبلها مفتوحًا. أجزه كسر الراء لالتقاء الساكنين ولو فتح لكان أجود¹.

فهو قد بين الجيد والأجود في ضبط هذه اللفظة أنه بفتح الراء في «أجزه».

- ومنه قوله: «وقال أبو الحسن: غمى مصدر يجوز في التثنية أن يقال رجالان غمى كما يقال في الجمع، ومن ثناه أخرجه وجمعه إغماء حينئذ. وغمي عليه لغة ضعيفة. وأفصح منها أغمي عليه فهو مغمى عليه بالتخفيف مثل معطى²».

فالحكم النقدي يظهر في قوله: «وأفصح منها...» فهو ذكر لغة ضعيفة وبين الفصح والجيد في هذه اللفظة بيانا شافيا.

ب- التنبيه على القليل من اللغات:

- ومنه قوله: «قال أبو حاتم، قال الأصمعي: يقال دار جديد على مثال فعيل بفتح الفاء ولا يقال جديدة، وكذلك ملحفة جديد بغير هاء، ويقال قصصة جديد، قال أبو ذؤيب:

فما أن هما في صحيفة بارقية
جديد أُرِقَّتْ بالقُدم وبالصقل

قلت للأصمعي: فقد قال مزاحم العقيلي، أنشدني أبو عبيدة:

تَرَاهَا عَلَى طُولِ الْقَوَاءِ جَدِيدَةً
وعهد المغاني بالحلول قدم

فقال: إنما هو:

تَرَاهَا عَلَى طُولِ الْقَوَاءِ جَدِيدًا

مزاحف جعل نصف البيت فعولن كما قال الآخر:

لَقَدْ سَاءَ بَنِي سَعْدٍ وَصَاحِبٌ سَعْدٍ
وما طَلَبَانِي قَبْلَهَا بَغْرَامَةٌ

¹ المصدر السابق، ص 171.

² المصدر نفسه، ص 442.

وقد قال سيوييه يقال في لغة قليلة جديدة.

وقال في بعض الأبواب: هو مثل جديدة في القلّة¹.

فهذا وارد في الفصح من اللغة العربية أن يكون الوصف مذكرا مخالفا لصاحبه المؤنث، تقول هذه ناقة ضامر، بغير هاء.

وانظر للرجل لَمَّا أراد ترسيخ الأمر باستغلال هذا الوصف بالذات فجرى جريان المثل في اللغة والآدب حيث قال: هو مثل جديدة في القلّة، لينبه على اللغة القليلة التي ورد بها هذا اللفظ.

- ومنه قوله: «...وغمي عليه لغة ضعيفة. وأفصح منها أغمي عليه...»².

ج- استعمال لغة التضعيف:

لقد سار اللغويون على نهج أهل الحديث في سوق وإيراد التضعيف من اللغات في ما لا يتأكد منه أو ما يشوبه الذي يضعفه بصيغة التمريض والتضعيف، ويقصد بها البناء للمجهول، أي بناء فعل القول الذي سيق به الخبر إلى المفعول لا إلى الفاعل.

ومنه قوله: «ويُقَال - والله أعلم - أن قنطوري جارية لإبراهيم ﷺ ولدت له أولادا نسلهم الترك والصين»³.

فالقالي لَمَّا ساق الخبر قد احتاط لنفسه بعبارة «الله أعلم» الواقعة في الاعتراض؛ ذلك أن الأمر متعلق بالدين ليس اللغة فقط على ذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والأمر في الدين يختلف عن اللغة ذلك أن اللغة فيها فسحة. أما الدين فلا يورد الإنسان فيه ولا يخبر فيه إلا بما تيقن.

فهو ضَعَفَ ببناء «يقول» للمجهول «يُقَال» لَمَّا لم يتوفر له دليل يصدّق الخبر، وتقوم به الحجة في صحة الخبر.

د- الترجيح عند تعدد الأقوال:

لأبي علي القالي الأهلية في الترجيح والنظر عند تعدد الأقوال في القضية الواحدة، وهذا ما ترجمه في معجمه البارع.

ومنه قوله: «قال أبو علي، قال أبو زيد: يقال زج فلان فلانا زجة إذا دفعه في عنقه.

والزجج في الإبل هو روح في رجلين وتجنيب. وهو مدحة.

قال أبو علي: أنا أشك في الزجج وأظنه الرمح»⁴.

¹ المصدر السابق، ص 572.

² المصدر نفسه، ص 442.

³ نفسه، ص 646.

⁴ نفسه، ص 581.

فحكم أبو علي القالي في القضية مرجحاً لكن بقوله «وأظنه» وهذا الفعل عند النحاة واللغويين يضمّه حقل دلالي يدعى الظن والرجحان ومعه زعم، حسب، خال...
هذا، وإن الفعل ظن قد يرد في سياقات يحمل معنى العلم واليقين ونرى أنه من هذا الباب أي من باب علم في السياق الذي أورده أبو علي القالي هنا خاصة مع وجود الفعل شكّ معه في سياق واحد.

- ومنه قوله: «وقال غيره: العزاهيل جماعة الإبل المهملة، واحداً عزهول. وقد قال بعضهم: لا أعرف واحداً وإنما أعرف منها الجميع، قال الشماخ:

حتى استغاث بإحدى فوقه حُبُكْ تَدْعُو هَدَيْلاً به العَصْف العَزَاهِيلُ

وقال الخليل: الحبك طريق واحداً حبكة...

- والقول الآخر أشبه بالصواب¹.

ولولا النقص والبتر لكانت القضية والحكم بالترجيح أوضح، وإن كان من العبارة الأخيرة يتضح أن أبا علي القالي رجح بين قولين أحدهما ظاهر والآخر غير ظاهر، وحكم له مرجحاً بقوله المتقدم: «والقول الآخر أشبه بالصواب».

هـ- التصويب:

- ومنه قوله: «قال أبو علي، قال أبو حاتم، قال الأصمعي: تقول العرب زُهي علينا فلان بضم الزاي وكسر الهاء، فهو يُزهي بضمّ الياء وفتح الهاء، وهم مزهوّ بفتح الميم وسكون الزاي وضم الهاء وتشديد الواو ولا يقال زها يزهو ولا زاه، وتقول: أنت تُزهي بضم التاء كما تقول أنت تُجَنّ وتُزَكَم...»².
ففي قوله العام: «يقال... ولا يقال...» فيه إقرار للصواب وتصويب للخطأ، والتنبيه عليه حتى يحذر منه.

أما قوله الأخير تُزهي قياساً على تُجَنّ وتُزَكَم، فيريد بناء الفعل في مثل هذا للمفعول؛ لأن الدلالة وواقع لغتنا يفرضان ذلك.

- ومنه قوله: «قال - يعني الأصمعي آخر مذكور منسوب له القول - : ولا أعرف زها النخل، على مثال فَعَلَ إنما هو أزهي على مثال أفعل وهو مزهٍ على مثال مفعّل.

قال: ولا يقال أنت أزهي من فلان، ولا أنت أجَنّ من فلان، كما لا يقال أنت أَرَكَم من فلان، ولا أنت أضرب من فلان إذا كان المخاطب مضروباً إلا أن يكون ضارباً. قال أبو حاتم، فقلت للأصمعي: فهل يقال أنت أزهي من غراب؟ قال: لا، ولكن يقال زهو الغراب كأنك قلت زهيت زهو الغراب. قلت

¹ المصدر السابق، ص 185.

² المصدر نفسه، ص 147.

فهل يقال من الحمى ما أحمه وما أوعكه؟ والوعك الحمى. قال: لا ولا يقال ما أزهاك وما أجنك ولا ما أركمك ولا ما أحمك ولا ما أولعك، ولكن يقال ما أشدّ ولوعك بفتح الواو وإيلاعلك بكسر الهمزة، ولا يقال ما عناني بأمرك، وما أشغلني عنك كلّ قياس واحد؛ لأنّك تقول عُنييت بالأمر وشُغلت به، وهو مفعول به»¹.

والتصويب واضح في قوله هذا نسق على ما تقدم، لكن لفت الانتباه إلى قضية لغوية أخرى، وهي الوصول إلى المفاضلة ليس دوماً باشتقاق اسم تفضيل من أي فعل، وإنّما مما يسوغ ذلك؛ لأن أهل اللغة والنحو اشتروا شروطاً في صياغة اسم التفضيل فإذا اختل منها شرط لم يسغ ذلك، وإنّما يتوصل إلى المفاضلة بطريقة أخرى، وهي باتخاذ اسم تفضيل عام مثل: أشدّ، أقلّ، أكثر... مع مصدر الفعل المذكور مثل ما أبرز في قوله: ما أشدّ ولوعك، وردّ تركيب ما أولعك.

- ومنه قوله: «وقال أبو حاتم: بعض العامة تقول لا واله فيحذف الألف التي قبل الهاء في اللفظ ولا بدّ من ذلك وإنّما لفظة لا والله وإن لم تكتب في الخطّ، ألف كما كتبوا الرحمن بغير الألف ولم يحذفوها من اللفظ، واسم الله عز وجلّ ينبغي أن يجلّ فيتكلم به بأصوب الصواب، وقد وضع لهم من لا جزّي خيراً بيت رجز على الحذف فقال:

قد جاء سيلٌ جاء من أمرٍ إله

يجرّد حرّذ الجنّة المغلّه»²

فقد حكم بتخطئة من حذف ألف «الله» التي قبل الهاء في اسم الجلالة، وزاوج في الحكم على ذلك بين اللغة والدين (المعتقد). وانظر لحكمه في حق المولى عز وجلّ حيث قال «ينبغي أن يجلّ فيتكلم به بأصوب الصواب».

واتضح غيرته اللغوية وديانته عندما دعا على من أسس لهم لغة الحذف من الشعراء الرّجّاز، ولسان حاله يبين له أن الله أعظم ما فاهت به الأفواه، جلّ في علاه، وعظّم في عالي سماه.

- ومنه قوله: «وكذلك هيه في ... وها هو ذا وهام أولاء ولا يجوز أن تقول ها هم هؤلاء؛ لأنّ الهاء لا تعاد مرتين وكذلك جاءت للتنبيه في صدر قولك ها هنا فلو جاء في شعر ها ثم وها هنا اضطرار جاز ولم يتكلم به، وأمّا ياءها الرجل فكذلك ها صلة في التامة وبيان ذلك قولهم ياء يتها المرأة فلو لم تكن الهاء صلة ما حسّن أن يجيء قبلها تاء التأنيث. ومنهم من يرفع، ويقول ياء يه الرجل وياء يته المرأة وهما

¹ المصدر السابق، ص 148.

² المصدر نفسه، ص 173.

أقبح القولين»¹. فأحكامه النقدية تتضح في قوله: «ولا يجوز...» فتوى لغوية، وكذلك في قوله: «فلو جاء في شعرها ثم وها هنا اضطراب جاز ولم يتكلم به» نفى وقوعه في كلام العرب، مع صحة الكلام إذا وقع في الشعر، والقول الأخير الذي ختم به، وهو هما أقبح القولين في قولهم «يا ياء يه الرجل ويا يئه المرأة».

- ومنه قوله: «تخطى فلان الناس غير مهموزة وتخطيتهم تخطيا ولا يجوز تخطأت مهموزة»².

هذه الفتوى اللغوية يظهر فيها التصويب في عدم الإقرار بالمهموز من "تخطى" والإقرار بغيره.

- ومنه قوله: «وقال الأصمعي: غمار الناس خطأ وليس من كلام العرب، قال بهذا قول الأصمعي، وغيره يقول هما لغتان. والخاء والغين من موضع واحد.

وقال الكسائي: دخلت غمار الناس وغمار الناس بالفتح والضم. ودخل في غمرة الناس»³.

فهو هنا قد راجع الأصمعي في حكمه بأن عبارة "غمار الناس" ليس من كلام العرب، وأتى له بما يشبه ويصوب قوله بما عند أئمة اللغة من مثل الكسائي الذي صرح بذلك وأن فيها لغتين لغة الضم والفتح.

- ومنه قوله: «وقال أبو النجم أيضا:

ودع فواها هُنَّ من مُودَعٍ

قال أبو حاتم: فواها هُنَّ من مُودَعٍ. بكسر الدال صواب أيضا»⁴.

فأبو حاتم في حكمه النقدي هذا فتح باب الاحتمال:

الأول: أن يكون قصده بإيراد الرجز محتوما بـ مُودَعٍ بكسر الدال، صحت الرواية بهذا الضبط،

ونستبعده.

الثاني: أن يكون قصده بإيراد الرجز محتوما بمودَعٍ بكسر الدال أي على صيغة اسم الفاعل بدل اسم المفعول في التصويب اللغوي أي أنه يصح، وصواب لغة أن يكون اسم الفاعل من هذا اللفظ.

- ومنه قوله: «الأصمعي: المَعْرَة بفتح الميم والغين طين أحمر يصبغ به. ويقال فرس أمغر بين

المغرة أي ليس بناصع الحمرة. ويقال نسر مَعْر بفتح الغين وكسر الميم وتشديدهما إذا صار لونه لون المغرة.

ولا يقال المَعْر بسكون الغين. وأهل العراق يقولون المغيرة والمغيزى وهو الصواب؛ لأن المغيرة الخيل التي تغير

يسمى بها الرجل»⁵.

¹ المصدر السابق، ص 174.

² المصدر نفسه، ص 241.

³ نفسه، ص 322.

⁴ نفسه، ص 171.

⁵ نفسه، ص 326-327.

فحكمه الأول كان في التصويب اللغوي عند قوله: «ولا يقال المَعْر بسكون الغين» فهذا لا يقره، وهو خطأ عنده ليس بلغة.

والثاني: لمّا ذكر تصغير مغرة عند أهل العراق أورد ما يصغرونها به لفظين هما مُغَيَّرَةٌ ومُغَيَّرِي فَأَتَى بعبارة وهو الصواب ليدل على تصويب اللفظة الأخيرة، أي أنه في التصغير يصوب أن تكون مُغَيَّرِي.

- ومنه قوله: «الخليل: العَيْنُفُ غَيْلَمُ الماء في منبع الآبار والعيون وبحر ذو غينف، وقال الراجز:

نَعْرِفُ مِنْ ذِي غَيْنُفٍ وَنُوزِي

قال أبو علي: الرواية الصحيحة: نعرف من ذي غيف ونوزي»¹.

فحكمه النقدي متمثل في تصويب وتصحيح الرواية، والفرق بين الرواية المرجوحة عنده والراجحة هو أن الأولى وردت فيها اللفظة ذات الصلة بالمادة المعالجة «غينف» مزيدة النون، والرواية الصحيحة حكم فيه بحذف هذه النون فقال: «غيف».

- ومنه قوله: «الأصمعي: يقال أجد مَعْسًا في بطني بفتح الميم وسكون الغين. ولا يقال مَعْسًا بفتح الغين.

قال أبو حاتم، فقلت: أفيقال مَعْسًا بالصاد؟ فقال: لم أسمع إلا أن يكون مثل البزاق والبصاق والبساق ومثل الصراط والسرط، ويقال أيضا زعموا، زراط.

قال أبو حاتم: وليس بمعروف ولكن لصق ولزق ولسق.

قال الأصمعي: وأمّا ما سمعت فقول رؤية:

طَعَنَ الطَّيِّبُ الطَّعْنَةَ الْمُعُوسًا

وقال الخليل: المعس بسكون الغين لغة في المغص، وهو وجع وتقطيع يأخذ في البطن»².

هذه الفقرة تضمنت أحكاما عدة:

منها: التصويب اللغوي والمتمثل في ضبط لفظ مغس حيث أقر «مَعْسًا» بفتح الميم وسكون الغين، والتنبيه على خطأ من قال «مَعْسًا» بفتح الغين ومنها: إقرار الأصمعي لأبي حاتم بعدم سماعه لمَعْص فبالصاد في سؤال له.

واستثنى في حكمه أن يكون مثل البزاق والبصاق والبساق، وكذا الصراط والسرط...

ومنها: إقرار أبي حاتم وحكمه بأن ذلك ليس بمعروف، وحقق الاستثناء في لصق ولزق ولسق.

¹ المصدر السابق، ص 336.

² المصدر نفسه، ص 368-369.

ومنها: إقرار الخليل بوجود لغتين في لفض المغس بالسين والصاد، وهذا وارد كثيرا في اللغة إبدال حرف الصغير بخاصة مع بقاء المعنى على حاله ثابتا. ويدخل في باب ما اختلف لفظه واتفق معناه.

- ومنه قوله: «قال أبو علي، قال الأصمعي: يقال غاض الماء وغضته وعابت السفينة وعبتها أنا. ولا أعرف أغاض فلان الماء... ولكن العرب تتسع في بعض الكلام قالوا أخسأت الكلاب فحسأت وجبرت العظم فجبر...»

قال أبو حاتم: الذي يعرف وغضته أنا، ولا أعرف في هذا المعنى أغاضه إنما يقال غاضه، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَوَغِضَ الْمَاءُ﴾¹ ولم يقل أغيض².
فالحكم هنا واضح بإقرار فَعَلَ ورفض أفعَل من الفعل غاض وكفى بكلام الله استشهدا في هذه القضية اللغوية.

- ومنه قوله: «الدهكلة الرمي بالشيء جملة. ويروى لغطا»³. فالحكم النقدي في عبارته الأخيرة «ويروى لغطا» أي خطأ ليس بلغة.

- ومنه قوله: «قال الأصمعي: والعوام تقول غَثِثُ. والفعل غَثَيْتَ نفسي وهو خطأ»⁴.
فحكمه على قول العامة بالخطأ، وأنه لا يعتد به لغة، ولا يلتفت للاستعمال فإن دائرة الاستعمال اللغوي تفوق وتتعدى ما هو فصيح بكثير، إنما الأمر محكوم بضوابط علمية لغوية.

- ومنه قوله: «قال - يعني الأصمعي -: ومن قال يغو بفتح الواو فقد أخطأ، لا يقال غوى يغوي ولكن يقال غويت السخلة تغوي غوى شديدا إذا أكثر من شرب اللبن حتى تتخم. ويقال: (لا يلبث الغوي الصرمة) يضرب للذي يفسد ماله»⁵. فالحكم النقدي متضمن بيان الخطأ في قول (غوى يغوي) عنده، والتصويب في «غويت السخلة تغوي غوى شديدا».

- ومنه قوله: «وقال الأصمعي: يقال نُقِسَ بكسر النون، وأنْقَسَ بفتح الهمزة في الجمع. قال: ولم يصحّ عندي أنْقاس بكسر الهمزة»⁶.

فالحكم خاص عنده يتوقف عليه فقط، فقد صرح بأنه لا يصح المزيد من نُقِسَ على «أنْقاس».

¹ هود: الآية 44.

² البارع، القالي، ص 384.

³ المصدر نفسه، ص 387.

⁴ نفسه، ص 428.

⁵ نفسه، ص 444.

⁶ نفسه، ص 475.

- ومنه قوله: «ومن قال الجالّة. قال: قد جَلّوا يَجْلَوْنَ جَلْوًا. ومن ذلك قيل استعمل فلان الجالّة، ولو قلت الجالية كان صواباً»¹.

وإذا، فقد وضّح الصواب في لفظة الجالية مع إقراره أيضا بلفظة الجالّة، ويبقى الحكم موقوفاً على صاحبه. فاللغوي له اجتهاده الخاص به وقد يصيب وقد يخطئ.

- ومنه قوله: «قال أبو زيد: ويقال ركب فلان الجرحة بفتح الجيم والراء على مثال درجة، وهي الأرض إذا ركبها منطلقاً.

قال أبو حاتم، قال الأصمعي: صحّف أبو زيد. إنما هي الجرحة بالخاء والجيم. قال أبو حاتم: والصواب ما قال أبو زيد»².

فقول الأصمعي: «صحّف أبو زيد» هذا نقد وتصويب ثم أشار إلى ما هو صحيح فيها وقد تقدم. ثم قول أبي حاتم: «والصواب ما قال أبو زيد» هذه الموافقة إنما هي حكم نقدي يبين صحّة ما ذهب إليه أبو زيد في كلامه المتقدم.

و- ذكر الشاذ:

ومنه قوله: «وقال الخليل: الزهمقة الزهومة السيئة تجدها من اللحم الغث. وقال النضر بن شميل: الزهمقة خبث الريح. يقال إنّه لزهق الريح (أي خبيثها) منتنها، والقاف زائدة كما زيدت في لعنسل فقيل عنسلق، وهذا شاذ؛ لأن القاف ليست من الحروف الزائدة»³. فحكمه على هذا الأمر بأنه شاذ مبرّر بقوله ليس في الحروف الزوائد القاف، ونحن نعرف أن الحروف القريبة في المخرج الصوتي ربما عوّض بعضها بعضاً، مثل (الطاء والتاء والذال) أو (الصاد والزاي مع السين)، لكن القاف هذا غير وارد.

- ومنه قوله: «قال أبو الحسن: حكى في المستقبل ييشغ، وهي لغة في ما كان على هذا الوزن من الأفعال نحو وجل يوجل. وبعض العرب يقول ييجل وليست في كل العرب. ويقال أيضاً إنما هي في الياء وحدها يغيرون الواو إلى الياء مع الياء. فأما مع التاء والنون والألف فلا يقال إلا في لغة شاذة فقد جاء بهذا على أقبح الشذوذ، وإنما حقه أن يكون وثغت توّغ. قال الله عز وجل ﴿لَا تَوَجَّلْ﴾»⁴⁵.

¹ المصدر السابق، ص 564.

² المصدر نفسه، ص 570.

³ نفسه، ص 191.

⁴ الحجر: الآية 53.

⁵ البارع، القالي، ص 431-432.

فالحكم أوضح فيه التنبيه على أنّ هذا التصريف في الأفعال بهذا الشكل لا يكون إلا في لغة شاذة، بل غلظ للحكم لما وصفه بأقبح الشذوذ.

- ومنه قوله: «وجاءت خمس كلمات شواذ منها: صلصال، وقصقاص، وخلخال، وزلزال، وقلقال. والزلزال أعمّها؛ لأن مصدر الرباعي يحتمل أن يبنى كلّ على فعال وليس بمطرد. وكل نعت رباعي فإن الشعراء يبنونه على قصاقص كقوله في بيت مصور بأنواع التصاوير،

فيه العواة مُصَوَّرُونَ
والفيل مُرْتَكِب الرِّدَا
فَحَاجِلٌ مِنْهُ وَرَاقِصٌ
فِ عَلَيْهِ وَالْأُسْدُ الْقَصَاقِصُ¹

فحكم على هاته الكلمات الخمسة المذكورة سابقا بشذوذها مركزا على كلمة زلزال فيهنّ. ثم إنه بين على قاعدة في النعت الرباعي على لغة الشعراء، ولغة الشعراء يتحاكم إليها على أن الشعر أعلى مقامات الاحتجاج في الكلام العربي.

ز- استعمال ألفاظ التحفظ والاحتياط:

- ومنه قوله: «وقال الأصمعي: الغلب بفتح الغين واللام غلظ العنق، وأنشد: ما زِلْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ أَلْوِي صُلْبِي والرَّأْسُ حَتَّى صِرْتُ مِثْلَ الْأَغْلَبِ قال: وإذا غلظ العنق حتى كأن فيه ميلا فذلك الغلب بفتح الغين واللام. يقال رجل أغلب وامرأة غلباء. ولا أدري لعلّ الغلب غلظ وحده أو معه ذا. قال أبو حاتم: ثم شك في الميل...»².

فقد جاء الحكم تتقدمه عبارة: «لا أدري، لعلّ...» وهذه العبارات والألفاظ يفهم منها عدم التيقن بل الشك وعدم الرجحان كما صرح بعد ذلك أبو حاتم.

واللغوي عندما يلجأ لمثل هذه الأمور فإنه يحتاط لئلا يحكم حكماً يقع به في الزلل.

- ومنه قوله: «قال محمد، قال أبو بكر: الزغر فعل ممت، وهو اغتصابك الشيء، يقال زغرتة أزغره زغراً، وتزغر: اسم رجل أحسبه أبا قوم من العرب»³.

- فهو لما أراد أن يحكم بأن «زغر» وضع للعلمية على رجل هو أبو قوم من العرب، لكنه غير متيقن من ذلك احتاط لحكمه فقال «أحسبه» ومعلوم أن هذا اللفظ دال على الظنّ والرجحان.

¹ المصدر السابق، ص 562-563.

² المصدر نفسه، ص 273.

³ نفسه، ص 298.

- ومنه قوله: «والغريب الأسود وأحسب اشتقاقه من الغراب إن شاء الله»¹.
فقط احتاط في حكمه وتحفظ أيضا بلفظ «أحسبه...».

ح- نقود مختلفة:

- قوله: «والعلَّهز: القرد الضخم». وقال غيره: المعلَّهز والمعلَّهز الحسن الغذاء.
قال أبو علي: وهذا تفسير سوء»².

والذي حمل القالي على هذا الحكم في النقد «تفسير سوء» للتناقض الحاصل بينه وبين النقولات والتفسيرات الماثورة عن علماء اللغة وأئمتها في هذا الباب، فهو قد نقل عن الخليل - وهو الذي أسس لحكمه اللاحق - قوله: والعلَّهز، بكسر العين والهاء وسكون اللام، أن يعالج الوبر بدماء الحَلَم (كأن يدق الصوف مع القردان فيؤكل). كانت الجاهلية تفعل ذلك في الجذب قال الشاعر:

وإن قرى عدنانٍ قِرْفٍ وَعَلَّهَزٍ فَأَقْبَحُ بِهَذَا وَيَحُ نَفْسِكَ مَنْ فَعَلَ

وقال آخر:

عَيْشُهَا الْعَلَّهَزُ الْمَطِيبُ بِالْقَدِّ يَابَسًا لَوْ ضَرَبْتُهُ بِقَدِّ دَوْمٍ
وَالْجَعْلَهَزُ الْقَرَادُ الضَّخْمُ»³.

ولمَّا يروي القالي هذه المادة في شرح «العلَّهز» عن الخليل إمام اللغة والنحو ما يكون له أن يترك حكمه لحكم شدَّ به صاحبه. وخالف ما عليه سلفه وتفرَّد به.

- قوله: «قال أبو علي، قال أبو حاتم: الهُدَى مذكر في جميع اللغات إلَّا أنهم ذكروا أن بعض بني أسد تؤنث الهُدَى فتقول هُدَى حسنة ولا أحق ذلك»⁴.

فقوله: «لا أحق ذلك» فيه نقد للغة بعض بني أسد التي تؤنث لفظ الهُدَى، فهو لم يقر ذلك بل رده.

¹ المصدر السابق، ص 307.

² المصدر نفسه، ص 184.

³ نفسه، ص 183-184.

⁴ نفسه، ص 133.

- قوله: «ومن قال فَعِيل فقد أخطأ؛ لأنه ليس في كلام العرب فَعِيل إِلَّا وصدده مكسور نحو جِذِمَ وعَثِيرَ وبلد مِهْيَع أي واسع كالطريق. قال أبو ذؤيب:
- فاختشهنَّ من السواء وماؤهُ
بشر وعانده طريق مِهْيَعُ
- ويجمع مهايح بلا همز»¹.
- فالقالي وأثناء معالجة «هيع» قعد في اللغة قاعدة بحكمه أنه ليس في كلام العرب «مهيع» أي ما هو على وزن «فَعِيل» إلا وهو مكسور الفاء (فِيْعَل) ؛ وساق له أمثلة من كلام العرب، وقد تقدّم.
- ومنه قوله: «والعامة يقولون هاتم شهوركُم، وهذه أفحش الخطأ»². فحكمه على قول العامة يظهر في قوله: «وهذه أفحش الخطأ»، وهذا تشنيع منه لقول العامة هذا، ولا ينبغي أن يُحتج بلغتهم التواصلية والتي كثيرا ما تجانب الفصيح من اللغات.
- ومنه قوله: «قال أبو علي، قال الخليل: تقول العُجْهوم طائر من طير الماء كأن منقاره جَلَم الخياط.
- قال أبو علي: ولا أدري ما صحته»³.
- فالقالي هنا تبرز شخصيته العلمية اللغوية، وأنه لا عصبية لديه لا لقول الخليل على مكانته، ولا لقول لغوي آخر، فهو عندما لم يثبت عنده القول، ولم يتوفّر دليل قاطع على صحة الكلام، احتاط لنفسه في حكمه هذا، وقال «ولا أدري ما صحته» فهو يخبر عن نفسه في هذا الأمر.
- ومنه قوله: «والفعل خار يخور، وخور يَخُور بكسر الواو في الماضي وفتحها في المستقبل كل صواب»⁴.
- هنا حكمه النقدي في قوله: «كلّ صواب» التنبيه على ما هو صواب في ضبط الأفعال في تصريفاتها من الماضي إلى المستقبل.
- ومنه قوله: «قال أبو علي، قال الأصمعي: يقال: نَحَا فلان علينا بفتح النون من النخوة ينخو وهو ناخ.
- ثم قال مرة أخرى: انتخى من النخوة. ولم أسمع نَخَا»⁵.

¹ المصدر السابق، 82.

² المصدر نفسه، ص 141.

³ نفسه، ص 176.

⁴ نفسه، ص 232.

⁵ نفسه، ص 233.

فنقده متمثل في قوله: «ولم أسمع نحا». فهو يخبر عن نفسه فلم يقرّ هذا، أي أقر الفعل المزيد وعدل عن المجرد مع أنه وارد في اللغة، وهو لصيق بالإبل في الوصف.

- ومنه قوله: «قال محمد، قال أبو بكر، قال أبو مالك: أهل اليمن يسمون الحبّة التي تسمى الكرويا الغضس وليس يثبت»¹.

فحكمه يقول «وليس يثبت» الأمر فيه محتمل أن يكون الضمير عائد على الراوي، وصحة الرواية أصلا. وهذا مستبعد، وإما أن يكون القصد أن هذا الأمر غير متحقق في الواقع اللغوي على الأقل عنده هو.

- ومنه قوله: «قال أبو علي، قال الخليل: تقول اضمغ شدقه... قال: والإضمغ بكسر الهمزة أن يكثر بصاق شدقه، قال الشاعر:

واضمغ شِدْقُهُ يَبْكِي عَلَيْهَا
يَسِيلُ عَلَى عَوَارِضِهِ الْبُصَاقَا

وقال أبو علي: لست من هذا الحرف على ثقة. فإني لم أجده إلا في كتاب العين² فنقده يظهر في العبارة الأخيرة «لست من هذا الحرف...».

ويظهر في هذا الأمر تحلي القالي بالروح العلمية التي كثيرا ما فقدت خاصة في باب النقد، وهذه نقاط تشهد بأهليته وتأدبه مع من ينتقد.

الأولى: أنه تحدث في الحكم النقدي بضمير المتكلم أي يتحدث عن نفسه فقال: لست «أنا» على ثقة.

الثانية: تصريحه بالسبب وهو تفرّد كتاب العين بهذا الأمر.

الثالثة: نسب الأمر - أي التفرد - إلى كتاب العين لا إلى الخليل، ومعلوم الفرق بين النسبة للكتاب وللكتاب خاصة في قضية كتاب «العين».

- ومنه قوله: «قال ثابت: ويقال للأنف مرغم بفتح الغين ومرغم بكسر الغين والجميع مراغم، ويقال أرغم الله مرغمه، أي: ألزقه بالرغام وهو التراب». قال أبو نصر: وليس بالدقيق»³.

فحكم أبو نصر على كلام ثابت المتقدم وضبطه لكلمة «مرغم» فتحا وكسرا للغين بأنه ليس بالدقيق عنده.

¹ المصدر السابق، ص 258.

² المصدر نفسه، ص 290.

³ نفسه، ص 325.

وإذا، كانت هذه إضاءات على ما تضمنه البارع لأبي علي القالي من نقود بأنواعها المختلفة: الذاتية والغيرية التي نقلها عن أئمة اللغة المعترين، وهذا الأمر يوحى بظهور الروح النقدية عند اللغويين العرب في زمن مبكر جداً، ونحن على أعتاب القرن الرابع الهجري، ومعلوم اتفاقاً استمرار زمن الاحتجاج في البوادي بالشروط المعروفة.

هذا النفس النقدي إنما يعكس حرص علماء اللغة على اللغة العربية وحفظها من أن يقتحم حماها ما يفسدها، فلم يدخر عالم منهم جهداً يذود به على لغة القرآن الكريم العربية.

أما ما تم استقصاؤه من الظواهر النقدية الواردة في البارع، والتي سجلت في هذا البحث فلا ندعي فيها إحصاء تاماً وإنما هو جهد المقل لكن وإن لم يلم بالموضوع فإنه يكون قد فتح الباب أمام دراسات أخرى قد تستثمر مادة البارع للقالي من هذه المنطلقات المعروضة في بحث علمي لغوي واف كاف.

ثانياً- المآخذ والملحوظات على البارع:

يقولون لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة، ومن هذا الباب فإن العمل الإنساني مهما كان فإنه يعتريه النقصان والخلل، وهذا الأمر عندما يسجل في خانة المآخذ فإنه يخدم المادة علمياً، وبه يقوم العمل، ولا ينقص من قيمه اللغوي شيئاً، بل يرفع من قيمته؛ ذلك أنه كان سبباً في إثارة هذا الموضوع أصلاً، وفتح باب المناقشة فيه.

والقالي في تجربته الكبيرة في الصناعة المعجمية والمتمثلة في تأليف معجم البارع، كان قد سار على نهج من سبقه من الأئمة مثل الخليل، واتبع في كثير من القضايا اللغوية المختلفة من سلفه، كما أنه قد أبدع أشياء وتفرد بها في هذا المجال، وقد لقيت استحساناً من البارزين والباحثين في الصناعة المعجمية.

لكنه ومهما يكن من أمر فإنه إنسان غير معصوم، والإنسان معرض للتقصير والتفريط والنسيان، وهذا أمر كفيل بتبرير تسجيل بعض الملحوظات والمآخذ على عمله العلمي الممنهج والمتمثل في معجم "البارع".

1- المداخل: فالمدخل والاستهلال عند معالجة المادة يعاني اضطراباً شديداً في المعاجم العربية القديمة، وعدم ثبات على خطة مدروسة، فالقالي وغيره من أصحاب المعاجم العربية اللفظية القديمة، يتخذون تارة الاسم مدخلاً، وتارة أخرى الفعل، ومعلوم أن للاسم أنواعاً كثيرة وللفعل شيئاً من ذلك، وهنا تظهر صورة الاضطراب في مداخل المعجم.

ولو أن الرجل توقف عند تثبيت المداخل بين المصدر الاسم والفعل لالتمسنا له وضعية انفتاح وتوفيق بين المذهبين النحويين البصري والكوفي، والأمر ليس ببعيد عن هذا الرجل سيما وأنه يتحلى بمثل هذه الصفات في مساره العلمي.

وهذا شيء من اضطرابه في المداخل، حيث يقول في معالجة أول مادة في كتابه «الهاء والعين والياء والواو والألف في الثلاثي المعتل» «قال الخليل: الهاء سوء الحرص¹».

وهذا يدل على أنه استهل بالمصدر «الهاء» بدليل الصيغة الصرفية والتفسير.

وفي معالجة مادة «الهاء والقاف والياء والواو والألف في الثلاثي المعتل» قال: تقول: «قد أقهى الرجل إقهاء...²». وهنا قد دخل بالفعل الماضي «أقهى» وإن تقدمه حرف «قد».

وفي معالجة مادة «الهاء والجيم والياء والواو في الثلاثي المعتل» قال أبو علي، قال أبو حاتم: «المتوهج من كذا...³» الآن يظهر الاضطراب فهذه حالة ثالثة استهل فيها باسم الفاعل المتوهج وهو أحد الأسماء المشتقة.

وإذا، فقد استهل بالمصدر «الهاء» ثم بالفعل الماضي «أقهى» ثم باسم الفاعل «المتوهج» ليثبت الاضطراب وأن لا نظرية وقانونا يحكم العمل.

2- قضايا تتعلق بالشرح والتفسير:

أ- التفسير والشرح بما هو غامض أو أشد غموضاً من المشروح:

وهذه ظاهرة بارزة عند أصحاب المعاجم القديمة عموماً أما عن واقع القضية في البارع فنجد أنه ينقل عن الخليل: «القرقوس بفتح القاف والراء وضم القاف على مثال فعلول القف الصلب⁴»، فالقف الصلب غير معروف ولا بد له من بحث أيضاً.

ومنه أيضاً قوله: «قال أبو علي، قال أبو حاتم: الدُّغمة بضم الدال وسكون الغين لون الديزج. والعرب تقول فيه: ادغام الفرس ادغيماما على افعال بتشديد اللام افعيلاً⁵».

فلون الديزج غير معروف، ويعسر على طالب البارع معرفة بعض ما فسر به صاحبه، لكن هذه الظاهرة لها أسبابها:

- منها بُعد لغة المؤلف القالي عن الباحث طالب البارع من حيث اعتماد الفصحى، والتواصل، والعرف اللغوي، والعلم بالكلام الأعجمي الفارسي وغيرها.

¹ البارع، القالي، ص 81.

² المصدر نفسه، ص 83.

³ نفسه، ص 96.

⁴ نفسه، ص 551.

⁵ نفسه، ص 352.

- ومنها أن المعجمي قد يتخلى عن الغرض الأساسي الذي هو شرح اللفظ لسبب من الأسباب ويعتني فقط بالصيغة الصرفية والوزن، وهذه الأمور وإن بعدت عن الأمر الدلالي إلا أنها تقرب للذهن شيئاً عن اللفظ.

والمثال السابق يعبر عن هاته الحالة.

ب- التفسير والشرح بكلمة معروف:

معلوم أن القالي لم يأت بهذه الكلمة وهذا المصطلح "معروف" في الشرح من عند نفسه وإنما هي طريقة من سبقه في هذا المجال، لكن يلجأون إلى ذلك عند اعتقادهم أن هذا اللفظ معناه معلوم عند العام والخاص وكل الناس.

- ومنها قوله: « والجردقة معروفة، وهي فارسية معربة، ولا يقال جردقة قال أبو النجم: كان بصيرا بالريغيف الجردق »¹.

فقوله: معروفة هذا توجيهه، ربما تكون معروفة في بيئته هو في ذاك الزمن وإلا مع الإقرار أنها فارسية كاف لدفعه لشرحها. وأما الشاهد الذي ساقه فقد وضع لنا شيئاً، وهو أن «الجردق» وصف للريغيف لكن الوصف غير واضح المعنى.

- ومنها قوله: «والتجفاف معروف والجميع التجافيف، والتجفاف بنصب التاء يكون مصدرا بدل التجفيف، وتقول جففت التجفاف تجفافاً، أي تجفيفاً. والجفف القاع المستدير الواسع»².

فكلمة التجفاف التي حكم بأنها معروفة فحكمه غير كاف؛ لأن المعجم من وظائفه التعليمية أنه يشرح الكلمة بما يوصل المعنى الحقيقي لها من غير غموض ولا احتمال.

- ومنها قوله: «والدَّبة التي يجعل فيها البزر وما أشبهه معروفة»³.

فقوله الدَّبة معروفة على العكس تماماً هي غير معروفة، وكلمة البزر الذي أتى بها أيضاً غير واضحة ولا معروفة، وإنما هو التقصير في الشرح.

ومهما يكن من أمر فإننا لا ننكر وضع مصطلحات من شأنها أن توضح معاني المفردات عند المعجميين، ولكن أشرنا إلى شيء هام بخصوص استعمال هذا المصطلح "معروف" فقد يكون الأمر مبرراً مثل قوله في الغراب: «الغراب الطائر المعروف»، وكذا «السواد معروف من الألوان» لكن «الجردقة» مثلاً

¹ المصدر السابق، ص 529.

² المصدر نفسه، ص 591.

³ نفسه، ص 686.

و«الدَّبة» غير معروفة والإقرار بمعروف في الاستعمال مطلقاً يتطلب التساوي في درجة المعرفة والعلم بمعنى اللفظ بين المرسل والمتلقي المعجمي وطالب المعجم.

3- الإغراق في العلوم الأخرى:

في الحقيقة لم يكن القالي أول من وقع في هذا التوسع، فقد سبقه في هذا الأمر معجميون كثرون، وأعمالهم دلائل على ذلك. وهنا نعرض ما ذهب إليه القالي في ذكر ما يتعلق بالعلوم الأخرى غير الصناعة المعجمية، ونجمله فيما يلي:

أ- الطب والأمراض وما يتعلق بها:

وقد استعمل القالي في البارع بعض المصطلحات الطبيّة وأغرق في ذلك حين يذكر الوصفة كاملة، أو معالجة الأمراض.

- ومنه قوله: «المبيد حبّ الحنظل، يدقّ الحنظل ثم يستخرج حبّه ثم يصبّ عليه الماء فيساط حين يستخرجوا مرارته، ويجدد له الماء أياماً قبل الطبخ ثم تنصب له القدر فيوقد تحته، فإن رفع عنه المسواط تعلق فأشّر أشراً وإن ألزمه المسواط حتى يغلي فخلطه لم يأشّر¹» فهذا نصّ الوصفة كاملاً مما يعدّ خروجاً عن المادة اللغوية.

- وقوله: «قال- يعني أبا زيد- والهُدْبِد داء يأخذ الإنسان في عينيه فلا يبصر بالليل... إذا غار... إلى اللبن سنة أوستتين ودواؤها زيادة الكبد يكحل بها²».

- وقوله: «قال الكلايون: والإجرار بكسر الهمزة شق لسان الفصيل لئلا يرضع. ويقال: استجرّ الفصيل عن الرضاع لقرح يأخذه فيه، ويدعى ذلك القرّح قرحة الفصيل وقد يأخذ في جميع الجسد...³». هنا انجرّ في معالجة "الإجرار" إلى الشرح والتوسع فيه لما وصفه وأغرق في ذلك، كان يكتفي بالإشارة إليه بما توجهه المادة اللغوية للمعجم، ويترك التفصيل والوصف الدقيق لمجال التخصص.

- وقوله لما عالج قنبرة: «والقنبر نبات يسمّيه أهل العراق البقر يمشي كدواء المشي⁴».

ب- النبات وما يتعلق به:

لقد رمت بالقالي معالجة المواد اللغوية إلى كل ما له صلة باللغة من قريب أو بعيد، وهذا شيء من إغراقه في النبات والأشجار وما يتعلق بها.

¹ المصدر السابق، ص 130.

² المصدر نفسه، ص 223.

³ نفسه، ص 568.

⁴ نفسه، ص 560.

قوله: «وقال يعقوب: الشَّبرق بكسر الشين وفتح الراء وهو الخُلَّة، وهو ينبت بأعلى نجد وأكثره بالحجاز، وهو يرتفع من الأرض ذراعاً وله وريقة غبراء إذا يبست انحنت، وهو صالح للإبل إذا كان رطباً نعم المرتع للإبل والعنتر، ولا ينفع الضأن شيء من الشرس إلا أن تكون حواء السحاء قبل أن يخرج شوكرها، ويبس الشبرق قليل الخير وإن رعته الإبل¹».

ومنه قوله: «قال يعقوب، قالت غنية: الصمغ ما ينضجه الشجر وورق العضاه، وقال أبو صاعد: الصمغ يكون في السَّمُر والعُرْفُط والسَّلَم والطلح وصمغ السَّلَم والسمر والعرفط هَشٌّ. وقال الخليل: الصمغ بفتح الصاد وسكون الميم لثاة تسيل من الشجر فإذا جمدت فهي الصمغة والجميع اللثا والجميع الصمغ²».

ج- الأخبار والآداب:

لا يخفى على دارس شخصيّة القالي الأدبيّة وإن كان يؤلّف في مجال لغوي إلا أن المسحة الأدبية الإخبارية ظلّت بارزة في مختلف كتبه اللغوية ومنها البارع في اللغة وهذا شيء منها:

قوله لما أراد معالجة قنف: «وكان لهمام بن مرّة ثلاث بنات فألى لا يزوجهنّ أبداً، فلمّا طال بهن قالت إحداهن بيتاً من الشعر تريه كأثما لا تعلم أنّه يسمع، فقالت:

أَهْمَامُ بْنُ مِرَّةٍ إِنَّ هَمِّي لَفِي اللَّائِي تَكُونُ مَعَ الرِّجَالِ

فقال همّام: وما يكون مع الرجال؟ فقالت التي عليها: ما صنعت شيئاً. ثم قالت:

أَهْمَامُ بْنُ مِرَّةٍ إِنَّ هَمِّي لَفِي قَنَفَاءٍ مُشْرِفَةِ الْقَدَالِ

فقال همّام: ما قنفاء؟ أتريدين معزاً؟ قالت الصغرى: ما صنعتما شيئاً. ولكني أقول:

أَهْمَامُ بْنُ مِرَّةٍ إِنَّ هَمِّي لَفِي عَرْدٍ أَسْدُ بِهِ مِبَالِي

فقال: أخزأكّن الله فزوجهنّ³».

معلوم أن ما يبرّر الإتيان بهذا الخبر إنما هو الشاهد في قولها: قنفاء لكن، كان يمكن أن يتوقف على ما تقوم به حاجة اللغوي، فالإقتصاد في اللغة مطلوب في مثل هذه التواليف (المعاجم اللفظية) ؛ لأنّ الأخبار الطويلة لها كتبها الخاصة، فهو نفسه قد أجاد لما ضمّنها كتابه «الأمالي».

أما الإغراق في كل ما من شأنه يكون بعيداً عن المادة اللغوية فهو مما يعيب العمل المعجمي.

¹ المصدر السابق، ص 530-531.

² المصدر نفسه، ص 362.

³ نفسه، ص 486.

4- قضايا تتعلق بالشواهد:

يلجأ المعجمي واللغوي عموماً إلى الاستئناس بالشواهد الشعرية والنثرية المختلفة سعياً منه لتقوية ما يرمي إليه من أحكام لغوية، ويقوم الشاهد مقام الدليل والحجة في ذلك، لكن ما يلفت الانتباه أن بعض اللغويين - ودراستنا تحدد القالي - في سوق استشهاداتهم نرى أنه يعتريها الخلل والضعف في بعض الأحيان، وهذا الأمر حاولنا تلخيصه في المحاور التالية:

أ- النقص في الشاهد:

ونقصد به أن يأتي بالشاهد أياً كان نوعه، لكنّه يخلّ به كثيراً، حتى إنّه ليخرجه عن كونه شاهداً في الشكل، ومنها:

- قوله: «وقال ابن الأعرابي: الهيد بفتح الهاء وسكون الياء الفزع وقد هادني الشيء يهيدني هيداً. قال الراجز: ولا يَهيك¹» .

فالباحث يرى أنّه أتى بجملة فعلية كلمتين من الشاهد، وهذا النقصان يعيب الاستشهاد.

- قوله: « والهؤد التوبة: وقول الله عز وجل هدنا²، أي تُبْنَا إليك³ » فاقصر على كلمة واحدة من الآية ومن السورة، وهوما يُعاب: ذلك أنّ الكلمة وإن كانت جملة إلا أنّها يغيب معها المفهوم العام نتيجة البتر والاجتزاء.

- وقوله: « والنجل رميك بالشيء كقول البصري: لا تنجلوا...⁴ » .

فالجملة الفعلية لا تنجلوا غير كافية لإيضاح المقصد، فالشاهد له بنيته التركيبية التامة، والخلل فيها يعود على المحتجّ بالعيب.

- وقوله: «قال حسان بن رياح الجعدي لأُم الورد العجلانية:

ويحك أم الورد

..... المعلم

إذا أتاك والدجى مُدْهَمٌ

كأنّه ليث هزبر ضيَعُم⁵» .

¹ المصدر السابق، ص 139.

² الأعراف: الآية: 156.

³ البارع، القالي، ص 140.

⁴ المصدر نفسه، ص 624.

⁵ نفسه، ص 200.

ب- الرواية عن المجاهيل:

والمقصود أن يستشهد المعجمي بشعر لا يُعرف قائله - وهو خاص بالشعر من الشواهد- ذلك أن جهالة الشعر يقوي احتمال أن يكون خارجا عن دائرة الفصاحة زمانا أو مكانا أوهما معًا، أو أن يكون مولدًا أو ممن لا يحتج بشعرهم تحت أي سبب من الأسباب وهذه بعض الأمثلة التي وردت في البارع:

- قوله: «وقالت القائلة: ألهى خليلي عن فراشي مسجده¹».

فقوله القائلة هذا اسم فاعل للمؤنثة وصف لمن قالت هذا القول، أمّا تحديد اسمها ونسبتها فهذا مجهول.

- قوله: «وقال آخر:

فإنَّكَ لَا تُبَالِي بَعْدَ حَوْلٍ	أَظَنِّي كَانَ أُمُّكَ أَمْ جِمَارُ
وَبَدَلْتَ الْأَسَافِلَ بِالْأَعَالِي	وَصَاحَ اللَّؤْمُ فَاخْتَلَطَ النَجَّارُ
وَصَارَ الْعَبْدُ مِثْلَ أَبِي قُبَيْسٍ	وَسَبَقَ مَعَ الْمُعْلَهَجَةِ الْعِشَارُ ²

فقوله "آخر" لا يحدّد شخصا فقط، فيه بيان أنّه غير القائل الذي تقدمه وهذا غير كاف فيكون صاحب الشعر مجهولاً.

- قوله: «قال الراجز:

لَمَّا رَأَوْنَا وَالصَّليْبَ طَالِعًا	وَمَارِ سِرْجِيْسَ وَمَوْتَ نَاقِمَا
وَحِنْطَةَ طَيْسًا وَكَرْمًا يَانِعًا	خَلُّوا لَنَا رَاذَانَ وَالْمُزَارِعَا
كَأَنَّهُمْ كَانُوا غَرَابَا وَقَعًا ³ ».	

فقوله: «الراجز» هذا وصف عام يطلق على كل من يرحز ولا يحدّد شخصا معيناً لذا فهو لفظ يوصف به مجهول.

وشيء قريب من هذا وهو الإنشاد عند اللغويين المتقدمين المنقول عنهم.

- ومنه قوله: «قال أبو علي، قال أبو عبيدة: الجميش متاع المرأة وأنشد:

قَدْ عَلِمْتَ ذَاتُ جُمَيْشٍ أُبْرِدُهُ	أَحْمَى مِنَ التَّنُّورِ أَحْمَى مَوْقِدُهُ
---	---

وأنشدنا أبو زيد:

جارية ذات جميش نهد⁴.

¹ المصدر السابق، ص 114.

² المصدر نفسه، ص 186.

³ نفسه، ص 677.

⁴ نفسه، ص 619.

فلفظ أنشدنا منسوب إلى اللغوي الثقة لكنّه مخفوف بالجهالة، فلا يُعرف قائل هذا الشاهد: هل هو اللغوي نفسه؟ أم أنّه ناقل؟ وهو الأرجح، وإن كان ثقة إلاّ أن الأمور العلميّة لا بد فيها من الضبط والدقة، ولا يخرج الباحث فيها عن هذه الضوابط العلمية المعروفة فلا معول على قوة اللغوي ورسوخه، ولا ثقته، ولا محاباة في هذا.

ج- شرح غريب الشاهد:

ويقصد بذلك أنّ المعجميّ حينما يستشهد للفظ أو لمعنى فإنّه قد يكون هذا الشاهد - مهما كان نوعه - مضمّن غريباً، فيلجأ المعجمي إلى شرح غريب الشاهد مما يخرجّه عن مقصوده الأساسي الذي شرح ألفاظ اللغة في المعجم المرتبة ترتيباً معيناً، أمّا هذا العمل فله كتبه الخاصة التي تعنى بالشواهد مثلاً: شرح وإعراب شواهد كذا وكذا...

وهنا نسوق أمثلة عن هذه الظاهرة في بارع القالي:

- قوله: وقال أبو عبيدة: الغنظ بفتح الغين وسكون النون أن يشرف الرجل على الموت ثم يفلت، وأنشد:

ولقد لقيتُ فَوَارِسًا مِنْ رَهْطِنَا غَنَظُوكَ غَنَظَ جِرَادَةِ الْعِيَارِ

وقال غيره: العيار أعرابي صاد جرّاداً وكان جائعاً فأتى بهنّ إلى رماد فدهسن فيه، وأقبل يخرجهنّ واحدة واحدة يأكلهنّ أحياء ولا يشعر بذلك من شدة الجوع، فأخرج جرادة منهنّ فطارت، فقال: «والله إن كنت لأنضجنهن فضرب ذلك مثلاً لكل من أفلت من كرب¹» .

ومادته الغنظ لكنّه خرج عن مساره وشرح الكلمة الغريبة في الشاهد الشعري "العيار" بما يعبده عن غايته الأساسية، ويطيل عليه وعلى الباحث.

والأبعد منه أن يستشهد لكلمة بعيدة عن المادة المعالجة مثل ما فعل في استشهاده لكلمة الكتّب الواردة في مقولة مثبتة في شرح «الجفل»، ثم أبعد أكثر لما شرح الشاهد، وهذا قوله: «قال أبو علي قال يعقوب، قال الأصمعي: ومنه انجفل، ومنه قول العرب في ما يحكى على ألسن البهائم، قال: قالت الضائنة: أولد رخالا، وأجرّ جفالا، وأحلب كتباً ثقالا، ولم تر مثلي مالا».

قوله: جفالا، تقول أجرّ بمرّة، وذلك أن الضائنة إذا جُرّت فليس يسقط إلى الأرض من صوفها شيء حتى تجرّ كلّها، والكتب جمع كتبة وهي قدر حلبة وكل ما انصبّ في شيء فقد انكتب فيه، ومنه سمّي الكتيب من الرمل؛ لأنّه انصبّ في مكان فاجتمع فيه، قال الرازي:

¹ المصدر السابق، ص 334.

بَرَّحَ بِالْعَيْنَيْنِ خَطَّابُ الْكُتُبِ يَقُولُ إِلَيَّ خَاطِبُ وَقَدْ كَذَبَ
وَإِنَّمَا يَخْطُبُ عَسًا مَنْ حَلَبَ

يعني الرجل يأتي بعلة الخطبة، وإنما يريد القرى، قال: ¹«.

توقف من غير موقف مناسب فقد جمع فيه عدة معايب منها: جهالة الراجز.

ومنها: استشهاد لكلمة في الشرح بعيدا عن المادة المعالجة.

ومنها: شرح الشاهد وغريبه مما يبعده أكثر وبطيل في الأمر.

د- الإحالات الكثيرة:

لقد أحسن القالي الصنعة في البارع، لكن قد يُدخل على مَنْ أحسن القصد من حيث لا يدري، فهو لجأ إلى الإحالات الكثيرة عند الاستشهاد لمواده في المعالجة مراعاة للاختصار وتجنباً للتكرار، لكنه وبصنيعه هذا وقع في الخلل الكثير.

ومنه قوله: « قال أبو زيد: يقال منه رأس أغثم، وأنشد لرؤبة بيتيه ² » .

ولا يوجد لرؤبة بيتين فيما تقدم من قريب بل المذكور الرجز، قال رؤبة:

« إن لاح شيب الشمط المشع ³ »

وهذا مستبعد للمفارقة في اللفظ، وهو رجز ولا يطلق عليه بيت أصلاً وآخر ما ذكر من الأبيات:

بيت لحسان، وبيت لابن مقبل « فالأول:

فَولِهَا المَلَامَةُ أَن لُمْنَا إِذَا مَا كَانَ مَعْتُ أَوْ لِحَاءُ

والثاني:

خَوْدُ كَأَنَّ فِرَاشَهَا مُغْنَتْ بِهِ أَضْغَاثُ رِيحَانٍ غَدَاةً شَمَائِل ⁴ »

وإن لم يكونا مقصده وأخطأ في الإحالة، ولا أظن ذلك، فلم يبق إلا أن يكون قد أحال إلى بعيد أو متوهماً.

- ومنه قوله: «وقال بعضهم: الهدى جمع الهدى مخفف وأنشد لزهير:

فَإِنْ تَكُنِ النِّسَاءُ مُحَبَّاتٍ فَإِنَّ لِكُلِّ مُحْصَنَةٍ هِدَاءً ⁵ »

¹ المصدر السابق، ص 645-646.

² المصدر نفسه، ص 377.

³ نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ نفسه، ص 376.

⁵ نفسه، ص 137.

لكن المشكلة هي: أن زهيراً هو المذكور هنا، فحتماً ينصرم الذهن إلى زهير بن أبي سلمى المزني صاحب المعلقة، لكن الشعراء أكثر من واحد يحمل اسم زهير ممن ذكرهم هو في البارع وإن تفاوتوا في الشهرة.

- ومنه قوله: «والدجال المسيح الكذاب، وإنما دجله سحره وكذبه؛ لأنه يدجل الحق بالباطل. وقال إنه رجل من اليهود يخرج في آخر هذه الأمة جاء بذلك الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم¹».

فهو أحال وأشار إلى الحديث ولكنه لم يذكره ومعلوم أنّ في ذكره تقوية للكلام، وحجة وبرهان. ومنه قوله: « وقال أبو عبيد، قال الأصمعي، قال أبو أيوب الأشهب عن الحسن قال: إذا أفلت الشاب من ثلاث أفلت من شرّ الشباب إذا أفلت من شرّ ذنبه وقبّبه ولقلقه، فذبذبه فرجه، وقبّبه بطنه، ولقلقه لسانه، وحكى الخليل نحو هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم² » .

فنعت حكاية الخليل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصرح بالحديث.

هـ- استشهاد بكلام هو قرآن ولا يصرح به:

هذا الأمر يسجل في الملاحظات على البارع خاصة وأن الأمر متعلق بالقرآن الكريم كلام الله فحريّ بالمسلم ثم المعجمي أن ينسب ذلك ولا يهمله، ففرق بين كلام الله وكلام البشر. فالقالي عندما عالج "وجه" نقل عن الكلابيين قولهم: « أينما يوجهه لا يأت بخير، أدغموا الهاء الساكنة في الآخرة³ ».

وقد جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁴ فهذه آية من آيات سورة النحل، أما قول الكلابيين في لغتهم أنّهم يدغمون الهاء الأولى في الآخرة، فهذا وارد في كتاب الله عز وجل في الآية المذكورة سابقاً، فالاحتجاج بالقرآن أقوى ويخدم القضية اللغوية أكثر من غيره من الأقوال والاستشهادات الأخرى.

¹ المصدر السابق، ص 636.

² المصدر نفسه، ص 535.

³ نفسه، ص 92.

⁴ النحل: الآية 76.

5- ملحوظات عامة:

- قد يحيل القالي في البارع أثناء معالجة المواد اللغوية إلى كتاب عالم ولا يحدده مثل قوله: « وفي كتاب أبي عبيدة: ارمغل الغين معجّمة من فوق¹ ».
- فذكر كتاب أبي عبيدة هكذا لا تحديد فيه، ولا وضوح، فأبو عبيدة هو معمر بن المثنى أحد كبار اللغويين عاش في القرن الثاني الهجري توفي (210 هـ) اشتهر بكتاب مجاز القرآن.
- لكن في نقل أبي علي القالي هنا لا يدلّ أي دليل على ذلك، فالرجل عنده أكثر من كتاب فلديه - فضلا عن مجاز القرآن - إعراب القرآن، الأمثال، في غريب الحديث، ما تلحن فيه العامة، نقائض جرير والفرزدق، أيام العرب، الخيل وغيرها من الكتب.
- فمن تمام التوثيق العلمي أن يحدّد اسم وعنوان الكتاب، وإن كان مرويًا غير مكتوب في ذلك الزمن زمن القالي؛ لأنّ التعمية هكذا لا تسعف الباحث ولا المحقّق.
- إيراده لأقوال العامّة، وهو كثير عنده في البارع، وهذه خصوصيّة فإذا كان من الإيجابي التنبيه على قول العامة فإن الأصل عدم ذكره حتّى لا يضطرّ إلى ما يصوّب به ويصحح.
- ومنه قوله: « قال أبو حاتم: العامة يقولون الشجر بكسر الشين وهو لغة² ». .
- وقوله أيضا: « ... والعامة تقول: أخير منه بفتح الخاء وسكون الياء، وهو خطأ³ ».
- ولو كان القالي في عصور اللسانيات لاستساغوا عمله هذا والذي يظهر فيه ضغط اللغة التواصلية، فلمّا كانت ظاهرة واقعة ومنتشرة لربما رأوا إيرادها، والتصويب عند وجود الخطأ أفضل من العدول عن ذلك، لكن هذا الأمر فيما بعد أصبحت له معاجمه المستقلة، ومنها معجم تلميذه الزبيدي لحن العوام.
- رغم أنّ أبا علي القالي أول من عرف بالضبط في الشكل والنص بالعبارة من أصحاب المعاجم اللفظية القديمة، لكن قد يخلّ بهذا الأمر في بعض الأحيان ومن المواضع التي وقع فيها الخلل نجد:
- قوله: « وقال الخليل: الدرهم والدرهم لغتان...⁴ » هذا كلامه ونهاية ضبطه فلا ترى فيه ضبطا لا في الشكل ولا بالنص عليه كما عهد عنده.

¹ البارع، القالي، ص 61.

² المصدر نفسه، ص 61.

³ نفسه، ص 606.

⁴ نفسه، ص 220.

ويمكن الاستئناس هنا بقول أبي زيد المتقدم عن قول الخليل حيث قال: « وقالوا لا نترك درهم الرجل بفتح الدال والهاء وسكون الراء¹ » مع أنه تحفظ على ذلك عند الاشتقاق حيث قال: « لكنك تقول مدرهم على مثال مدحرج لا فعل له عندنا² » .

وهذا غاية ما يمكن حمله قول الخليل المتقدم عليه أي درهم بكسر الدال لغة، ولغة أخرى درهم بفتح الدال. وهنا تكمن الآثار السلبية لعدم الضبط حيث يبقى الأمر محتمل ولا فصل فيه.

- الخلط بين المصطلحات النحوية والصرفية ظاهر في البارع أمر لا ينقضي منه عجب، فالرجل لغوي كيف يسقط في مثل هذه الأمور، ولا نرى حجة في أنّ علم المصطلح لم يؤسس بعد، ذلك أن اللغويين القدامى يتصفون بالموسوعية في علومهم ولديهم الأهلية كي يميزوا بين حدود العلوم والمصطلحات. ومنه قوله: « وقال الأصمعي: جاءَ جَاءَ مجزومان، وجاءَ جَاءَ³ ».

فقوله (جاءَ جَاءَ) مجزومان يقصد ساكنين، فالسكون هو المصطلح الصرفي البنائي المناسب، لا مجزوم؛ لأنّه مصطلح إعرابي يتعلّق بالمعربات.

ومنه قوله: « وقال الأصمعي من أسماء الصبا هير وهير بحر الهاء وسكون الياء وجر الهاء وشد الياء وكسرها⁴ » فهو يقصد بالجر الهاء الحرف الأول وهو ليس بمحل الإعراب ومصطلح الجر مصطلح إعرابي. وما يكمن حمله عليه والذي تقدمه هو المعنى اللغوي لهذه المصطلحات. ومنه قوله: « وكان الأصمعي أنشدنا:

حَتَّى إِذَا مَا الْآلُ غَاضَ بِهَرِّهِ

بالنصب⁵ ».

- اتخاذ الشاهد الحديثي سببا للخروج عن المادة اللغوية والمعالجة المقصودة إلى التأسيس للقاعدة النحوية، وذلك في قوله: «... وتقول أنت بالمختار وأنت بالخيار سواء.

وتقول اختر بني فلان لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾⁶، وفي الحديث: إنه بعث مصدقا فانتهى إلى رجل له إبل، فجعل يطلب في إبله.

¹ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

² المصدر نفسه، نفسها.

³ نفسه، ص 91.

⁴ نفسه، ص 122.

⁵ نفسه، ص 384.

⁶ الأعراف: الآية 155.

فقال له: ما تنظر؟ قال: بنت مخاض أو بنت لبون. فقال: إني لأكره أن أعطي الله من مالي ما لا ظهر فيركب ولا لبن فيحلب، ولكن اخترها ناقة¹ أي اختر منها².

فهو يعالج اختار لكتنه خرج إلى ما يتعلق به في المجال النحوي إلى قضية عرفت فيما بعد النصب على نزع الخافض اختار قومه أي اختار من قومه فالحافض أو الجار من لما نزع نصب المعمول قوم لقوة الفعل. ثم إنه أخذ منحني آخر إذ أضحى يستشهد لهذه القضية النحوية بما توفّر من شاهد قرآني وحديثي كما تقدم.

- حدوث اللبس في أسماء من ينقل عنهم بعض مواد اللغوية، وأكثر من يقع اللبس في النقل عنهم هما ابن دريد وابن الأنباري؛ ذلك أنهما يحملان الكنية نفسها هي أبوبكر، وكلاهما لغوي بارز ما يأتي به هذا محتمل جدًا أن يأتي به ذاك وينسب إليه. وهذا التشابه وقع كما أسلفنا لاعتبارات منها أن كليهما يعتبر شيخا للقيالي، ومنها أنهما عاشا زمانا واحدا فابن دريد توفي عام 321هـ، وابن الأنباري توفي عام 304هـ أي من أعيان القرن الثالث الهجري، وإن كان في هذا كله ترجح كفة ابن دريد على ابن الأنباري شيئا قليلا لاعتبارات:

- منها أن ابن دريد لغوي معجمي ويُعتبر شيخ القالي الأول حيث كان لصيقا به مدة بقائه في بغداد أيام الطلب، وقالوا قد حزن حزنا شديدا لفقده بالموت.
- ومنها تأثير التخصص المعجمي؛ ذلك أن القالي وإن خالف منهج شيخه ابن دريد في وضع البارع إلا أنه اتفق معه في المادة في كثير من الأحيان.
- ومنها مدة الطلب عند ابن دريد تفوق بمراحل مدة طلبه عند ابن الأنباري.
- ومنها الزيادة على كنية "أبي بكر" في بعض الأحيان بقيد فاصل هو ذكره للاسم تصريحاً فيقول مثلاً: «وقال أبوبكر بن دريد:...»³.

- نسبة الشاعر لقبيلته غير كاف في التعريف، وقد ينجرّ على ذلك لبس، فعلى سبيل المثال قوله لما شرح وفسّر الجَمّ: «وقال يعقوب: الجَمّ بفتح الجيم وشدّ الميم، الكثير يقال عدد جم ومال جمّ، ويقال

¹ الاختيار: أخذ ما هو خير، وهو يتعدّى إلى أحد مفعوليه بوساطة من، ثم يحذف ويوصل الفعل كقوله تعالى: واختار موسى قومه أراد فاختار منها ناقة أي من الإبل... وانظر: الفائق في غريب الحديث، الزحشرى، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (د د)، (د ب)، ط2، (د ت)، 403/1.

² البارع، القالي، ص 226.

³ انظر: المصدر نفسه، ص 585-588.

استق من جمّ بئرك ومن جمّة بئرك بفتح الجيم وشد الميم، أي كثرة مائها، قال الله عزّ وجلّ: وتحبّون المال حبّا جمّا¹ أي كثيرا، وقال الهذلي:

شربتُ بجمّةٍ وصدّرتُ عنه
وأبَيضَ صَارِمٍ ذِكْرُ آبَاطِي
أي تحت ابطي².

الشاهد في قوله: وقال الهذليّ، فهذه النسبة إلى هُذيل القبيلة إنّما هي نسبة عامة لا تحدّد ولا تعيّن شخصا، ومعلوم أنّ الأشخاص من الهذليين وغيرهم من الشعراء لهم زمانهم الذي عاشوا فيه وهو متعلق ضرورة بقضية الاحتجاج.

ففي الهامش المحقق أشار إلى أنه في ديوان الهذليين للمتخل³؛ أمّا الإطلاق الأول الذي صدر عن القالي في المتن فرمّا حمله بعضهم على أنّه لأبي ذؤيب؛ لأنّه يعتبر أشهر الهذليين الذين يحتجّ بشعرهم وهو في طبقة متقدمة أيضا.

إنّ الملحوظات على المعاجم اللفظية القديمة كثيرة جدّا، والتشابه بينها واقع في أغلب قضاياها، وما سَطّر من معائب تبرز الخلل في بارع القالي هو شيء قليل من كثير؛ ذلك أنّ التجارب الأولى في كل العلوم لا بدّ أن يظهر عليها النقص والضعف والاضطراب في المنهج وغيره، فهذا الأمر يترجم حال الإنسان عموماً.

أما عمل أبي علي القالي في معجمه البارع فإنّ ما يحمّد عليه الرجل الإبداع فهو يتطلّب إمكانات لغوية مؤهلة، وشجاعة علميّة فالإقبال على تأليف معجم ألفاظ عام لمغامرة مخوفة بعوائق كثيرة قلّ من يوفّق في ذلك، وإذا، فليس من السهل على لغوي وغيره تأليف معجم ألفاظ كامل في لغة العرب التي تحوي ثروة هائلة يصعب التحكم فيها في بناء معجم شامل.

والمقصود من ذكر السلبات والمعائب التي ظهرت في معجم البارع، إنّما هو تصحيح ما ورد من خطأ، والتنبيه عليه حتى يحذر، فتصويب وتصحيح الأخطاء منهج علمي عرفه اللغويون العرب وعملوا به من قديم، وما يزيد البحث إلّا مكانة ورفعة وتحقيقا.

¹ الفجر: الآية 20.

² البارع، القالي، ص 598-599.

³ انظر: المصدر نفسه، ص 598. الهامش.

الخاتمة

في ميدان البحث اللغوي لا نستطيع أن نقول مع القائلين "ما ترك الأول للآخر شيئاً، بل لقد بقيت أشياء وأشياء، وهذا طريق العلم، الإبداع متاح فيه لكل من قدم أسباب النجاح".

وآخر العمل في هذا البحث تلخيص أهم نتائجه، ومنها ما تعلّق بالمعاجم عموماً، ومنها ما ارتبط بالبارع في اللغة وصاحبه أبي علي القالي، ونورد ذلك في النقاط التالية:

- علم المعاجم يعدّ فرعاً عن الدراسات اللغوية منذ القدم، وارتباطه بالدّرس اللغوي واضح بين في عديد القضايا بدءاً بقضيّة الكتابة والتدوين.

- علم المعاجم مثل غيره من العلوم اللغوية الأخرى كالنحو والصّرف وغيرهما، فقد ارتبط ظهوره عند العرب بالعامل الديني بالدرجة الأولى (الحفاظ على القرآن والسنة).

- قيّدت رواية اللغة بضوابط ومعايير تجعل المقبول منها محصوراً زمنياً ومكانياً: أمّا شرط الزّمان فحدّد بقرن ونصف في الحضر، والبادية إلى نهاية القرن الرابع الهجري، وأمّا المكان فمحصور في قریش، وقيس، وتميم، وأسد وهذيل، وبعض كنانة، وبعض طيء.

- جمع اللغة مرّ بثلاث مراحل: الأولى عنوانها ترتيب السّماع، أي ترتّب الكلمات فيها كيفما اتّفق، والثانية بدا فيها التطوّر، وأدخل في الجمع معيار هام ينبئ عن منهج، ألا وهو التّرتيب الموضوعي، أو الجمع حسب الحقل الدّلالي، وقد ظهرت فيه الرّسائل الإفرادية مثل: اللّبن، والمطر لأبي زيد (215هـ)، وأسماء الوحوش للأصمعي (216هـ)، والثالثة هي مرحلة النّضح حيث تمّ فيها وضع معجم بأسس علميّة ومنهج واضح يختلف تماماً عن التّأليف الذي سبقه، ويمرّز ذلك في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ).

- جمع اللغة عند المعجميين العرب من شرق وغرب كان بطريقتين:

● الأولى: الإحصاء التّام للمهمّل والمستعمل والنّصّ على الأمر كفيل بالتّوضيح والبيان، وهذا الأمر وقع بالاضطرار لاعتماد أساس التّقاليب في الوضع، ومثال ذلك الخليل بن أحمد في كتابه "العين".

● والثانية الإحصاء النّاقص بغية الاقتصار على مستعمل اللغة فحسب، وقد ظهرت هذه الطّريقة عند المعجميين الذين تأخّروا عن الخليل ومن بينهم ابن دريد (321هـ) في كتابه الجمهرة، وتّضحّت الطّريقة أكثر عند أصحاب القرن الرابع الهجري وعلى رأسهم الجوهري (393هـ) في كتابه الصّحاح، وهؤلاء انطلاقاً من العناوين ودلالاتها يتبيّن قصدهم الاقتصار على الصّحيح والمستعمل من اللغة.

- مصادر المادة المعجمية على نوعين:
- الأول: السماع والمشافهة عن العرب، وممن اعتمد على هذا المصدر نجد الجوهري في معجمه الصحاح، والأزهري (370هـ) في معجمه تهذيب اللغة.
- الثاني: الرواية النقلية، وهذا ما يلاحظ عند أغلب المعاجم اللغوية؛ فاللاحق يروي عن السابق، ويظهر ذلك عند ابن دريد في الجمهرة، وأول من اعتمد الرواية عن السابقتين كلياً هو القالي (356هـ) في معجمه البارع في اللغة، وكذلك فعل ابن منظور في لسان العرب وغيرهما.
- المعاجم العربية من حيث الموضوع نوعان: معاجم ألفاظ ومعاجم معان، فالأخيرة سارت على نسق واحد تقريباً وأولها الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ)، والأولى تعددت وتنوعت حتى كاد يكون كل واحد منها مدرسة لوحده.
- بداية التأليف والعمل المعجمي العلمي المنهج عند العرب كان على يد الخليل بن أحمد (175هـ)، وهذا ما يثبت أسبقية معاجم الألفاظ على معاجم المعاني.
- تتوزع معاجم الألفاظ على أربع مدارس هي: مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليد، والثانية مدرسة الترتيب الألفبائي على أواخر الأصول (التقفية)، والثالثة مدرسة الترتيب الألفبائي التدويرية، والرابعة مدرسة الترتيب الألفبائي على أوائل الأصول.
- بداية التأليف المعجمي العربي في المغرب والأندلس كانت على يد أبي علي القالي (356هـ)، حيث استهل الصناعة المعجمية الأندلسية بمعجم "البارع في اللغة".
- ظهرت معاجم أخرى أندلسية بعد بارع القالي، وإن كان أغلبها اتخذ من المدرسة الصوتية منهجاً على غرار الزبيدي (379هـ) في معجمه "مختصر العين"، وكذا ابن سيده (458هـ) في معجمه "المحكم والمحيط الأعظم".
- نشأت معاجم الأندلسيين والمغاربة متأثرة بالمعاجم المشرقية، والأثر الأكبر بروزاً في هذا كله عمل الخليل بن أحمد في معجمه "العين".
- أبو علي القالي (356هـ) إمام من أئمة اللغة الكبار في المشرق قبل المغرب والأندلس، فقد ساهمت في تكوين هذه الشخصية العلمية عوامل عديدة لعل أبرزها تعلّمه الأول على كبار أئمة اللغة المعترين من مثل أبي بكر بن دريد (321هـ)، وأبي بكر بن الأنباري (271هـ) وغيرهما.
- أبو علي القالي الرائد والإمام المتبع في الأندلس، فقد رسم الرجل منهجاً خلفه في التأليف اللغوي، ومما أبدعه الرجل كتاب المقصور والممدود، وكتاب البارع وغيرهما.

- القالي شخصية علمية متكاملة له حظٌّ من شتى علوم اللغة وفنونها من نحو ومفردات ومعاجم وغيرها.
- يعتبر القالي صاحب الدور الكبير في بعث الحركة اللغوية والأدبية بالأندلس، فهو قد سنّ الدروس المباشرة لعامة الناس وخاصتهم قبل الإبداع في التأليف عموماً.
- كتاب البارع في اللغة أشهر من نار على علم في الدرس اللغوي العربي في المشرق والمغرب والأندلس.
- البارع اقتفى صاحبه في وضعه نهج الخليل في التمسك بأسس المدرسة الصوتية والتقاليد، هذا وإن وجد بعض الخلافات بينهما خاصة في قضية ترتيب الحروف (الترتيب الخارجي) فهذا محمول على اجتهاد كلٍّ منهما في تحديد مخرج الصوت، فالقضية ليس فيها إجماع في دقائق الأمور لكنهما بصفة عامة يتفقان في تحكيم الصوت في ترتيب الحروف.
- القالي في كتابه البارع أظهر الإبداع والجدة، فهو أول من ضبط الألفاظ بالنص عليها، ولا يكتفي بشكلها مخافة التصحيف والخطأ، وهو الذي أتى بمصطلح الحواشي والأوشاب ضمن أبواب معجمه البارع.
- حقيقة هي قضية تأثر أبي علي القالي بالخليل بن أحمد وإن لم يلتق الرجلان للزمن المعبر بينهما، والتأثر واضح من خلال طريقة وضع كتاب البارع، ففي المغرب وصل كتاب العين إلى الأندلس لردح غير قليل من الزمن قبل القالي، وقد أخذ قلوب أهل اللغة هناك، وفي المشرق ذاك موقع الاحتفاء بكتاب العين، وقد درس القالي على يد من له علم بعلم الخليل وزيادة.
- أمّا تأثير كتاب البارع فهو أمر متحقق بدءاً بكتاب جوامع كتاب البارع المنسوب إلى الفهري تلميذ القالي وورّاقه، وكذا المستدرك في اللغة للزبيدي وهو تلميذ القالي أيضاً، وكذلك استدراك على كتاب البارع لابن سراج، والاستدراك وإن كان ظاهره أنّه يكمل عمل المستدرك عليه أو أنّه يدفع أوهامه لإثبات خلافه إلا أنّ من هذا شأنه يعتبر بالضرورة متأثر؛ لأنّه لولا تأثره لما كتب في هذا الأمر.
- يعاني معجم البارع في اللغة من معضلة في الترتيب الداخلي، وهذا الأمر في الحقيقة ليس خاصة به وإنما يشمل المعاجم العربية القديمة كلّها على تفاوت فيما بينها، ومظاهر الخلل والاضطراب تكمن في:
 - الاضطراب في وضع المداخل وطبيعتها.
 - الخلط في عرض المواد بين الأفعال والأسماء.
 - الخلط في عرض المشتقات وغيرها.

- يلاحظ عدم وجود نظرية معجمية عربية تضبط الترتيب الداخلي من حيث المداخل، وتسلسل المشتقات وما يتعلق بها.
 - العناصر الفاعلة في التحليل الدلالي للبارع عند معالجة المادة المعجمية هي اللفظ والمعنى والسياق.
 - كل أنواع التعريفات المعجمية من لغوية ومنطقية كانت قد برز عند أبي علي القالي في كتابه البارع في اللغة.
 - كثير من نظريات علم اللغة الحديث ظهرت في معجم البارع لكن بطرق غير مباشرة خاصة ما يتعلق منها بعلم الدلالة، فقد ظهرت بشكل واضح في آليات ووسائل تفسير المعنى في البارع. وقد أورد القالي التفسير بالمغايرة، والتفسير بالترجمة، والتفسير بالمصاحبة، والتفسير بالسباق وأمثله على ذلك كثيرة جدًا.
 - لم يهمل القالي في معجمه البارع قضية الاستشهاد، بل له عنايه بذلك، حيث حفل البارع بمختلف أنواع الاستشهاد المعروفة عند اللغويين عموماً، فقد تنوعت بين القرآن الكريم، والقراءات القرآنية، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب من شعر ونثر، ولكل نوع منها أمثله العديدة.
 - القالي في معجمه البارع يبدو أنّ موقفه الجواز إزاء الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف، لكنّه في استشهاده به يلاحظ عليه الاختصار فقد يكتفي بلفظ وفي الحديث، أو ذكر الراوي الأخير فقط، وقد يعدل عن ذلك كلّ فيرفع الأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة.
 - الشاهد الشعري في البارع له الحظ الوافر من بين أنواع الاستشهاد الأخرى، حيث بلغ عدد الشواهد الشعرية ألفاً ومائتين وستة وخمسين شاهداً.
 - تنوعت الشواهد الشعرية عند القالي في البارع من حيث الشكل بين العمودي، وما هو تحت حقل الأراجيز، وفي كلّ نوع منها بين معزّو وغير منسوب.
 - الاستشهاد بالنثر واقع بكثرة في البارع، لكنّه يأتي بعد الشعر من حيث الكم.
- هذا ما جادت به القرائح إزاء تراث لغوي لأمة اعتزت بلغتها، وحاول معجميوها حفظ هذه اللغة فكانت إحدى وسائلهم الهامة في ذلك المعاجم اللغوية بنوعها الألفاظ والمعاني.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

أولاً- الكتب:

1. استدراك الغلط الواقع في كتاب العين، الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن، تح: عبد العلي الود غيري، صلاح مهدي الفرطوسي، مجمع اللغة العربية دمشق، (دط)، 2003.
2. أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط10، 1994.
3. إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خالوية، دار مكتبة الهلال، بيروت، (دط)، 1985.
4. الأعلام، الزركلي، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، أيار- مايو 2002، ج1.
5. أعمال الأعلام، لسان الدين بن الخطيب، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1424 هـ - 2003 م، ج2.
6. الأغاني، الأصفهاني، أبو الفرج، تح: إحسان عباس وآخرون، د صادر، بيروت - لبنان، ط3، 1429 هـ - 2008 م، ج2.
7. أفعل من كذا، القالي، تح: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، عين الكرش، دمشق - سوريا، ط1، 1421 هـ - 2000 م.
8. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق وتعليق: ناصر بن عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض، (دط)، (دت)، ج1.
9. اقتضاء العلم والعمل، الخطيب البغدادي تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط5، 1404 هـ - 1984 م.
10. الأمالي، القالي، إسماعيل بن القاسم أبو علي، تح: صلاح بن فتحي هلل وسيد بن عباس الحلیمي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- لبنان، ط1، 1422 هـ - 2001 م.
11. الأمالي، القالي، الهيئة المصرية للكتاب، جمهورية مصر العربية، (دط)، 1976 م، ج2.
12. الأمثال للأصمعي، تح: ناصر توفيق الجباعي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، (دط)، 2010.
13. الأمثال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تح: عبد المجيد قطماش، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1400 هـ - 1980 م.

14. الأمثال، الأصمعي، تح: ناصر توفيق الجباعي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، بيروت، (د.ط)، 2010.
15. إنباه الرواة على أنباء النحاة، القفطي، الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1406هـ - 1986م، ج3.
16. البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، دار عالم الكتب، القاهرة. مصر، ط1، 1997هـ.
17. البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت لبنان، (د.ط)، 1412هـ-1991م، ج11.
18. البرهان في علوم القرآن، الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، (دط)، (دت)، ج1.
19. بغية المتلمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، الضبي، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1410هـ - 1989م، ج1.
20. البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تح: محمد المصري، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1421هـ - 2000م.
21. البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ج1.
22. تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، واضح رشيد الندوي، مؤسسة النشر والصحافة - الهند، ط2، 1431هـ-2010م.
23. تاريخ الخلفاء، السيوطي، دار الفكر، بيروت - لبنان، (د.ط)، 1424هـ - 2004م.
24. تاريخ المعجم العربي بين النشأة والتطور، ابن حويلي الأخضر سيدني، دار هومة، عين مليلة - الجزائر، (دط)، 2001.
25. تاريخ بن خلدون، عبد الرحمان بن خلدون، تح: خليل شحادة وسهيل زكاز، دار الفكر، بيروت - لبنان، (دط)، 1421هـ-2000م، ج4.
26. تاريخ دولة الأندلس، إيناس حسني البهيجي، مركز الكتاب الأكاديمي، ط1، 2017.
27. تاريخ علماء الأندلس، ابن القرضي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1429هـ-2008م، ج2.
28. التراث المعجمي العربي، (من القرن الثاني حتى القرن الثاني عشر للهجرة)، رمزي منير بعلبكي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2019.
29. التعريف القاموسي بنيته الشكلية وعلاقاته الدلالية، الحبيب النصراوي، مركز النشر الجامعي، تونس، ط2، 2016.

30. التعريفات، الشريف الجرجاني، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، (دط)، (دت) .
31. التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2011، ج2.
32. الجاسوس على القاموس، أحمد فارس الشدياق، دار صادر، بيروت - لبنان، (دط)، 1299 هـ.
33. جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، الحميدي، تح: بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1429 هـ - 2008 م.
34. جمهرة الأمثال، العسكري أبو هلال، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، دار الجليل، بيروت، دار الفكر، ط2، 1408 هـ - 1988 م.
35. حاشية ابن حمدون على شرح المكودي، ابن الحاج، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط2، 1421 هـ - 2001 م، ج1.
36. حجة القراءات، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، دار ابن الجوزي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 1435 هـ - 2014 م.
37. الحركة اللغوية في الأندلس، ألبيير حبيب مطلق، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت - لبنان، (دط)، 1967.
38. الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، دار مكتبة الحياة، (دط)، (دت)، ج3.
39. الخليل بن أحمد الفراهيدي العالم العبقرى، محمد بن صالح ناصر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1426 هـ - 2005 م.
40. دراسات في علم اللغة، محمد الأنطاكي، دار الشرق العربي، بيروت، ط4، (دت) .
41. دلائل الإعجاز، الجرجاني عبد القاهر، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني، القاهرة، (دط)، (دت) .
42. دول الإسلام، الذهبي، تح: حسن إسماعيل مروة، تقديم: محمود الأرناؤوط، دار صاد، بيروت - لبنان، ط1، 1999 م.
43. دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول، محمد عبد الله غنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مصر، ط4، 1417 هـ - 1997 م، ج1.
44. الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب، ابن فرحون المالكي، تح: محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة - جمهورية مصر العربية، (دط)، (دت)، ج2.

45. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام أبو الحسن علي بن بسام الشنتزني، تح: إحسان عباس، دار الثقافة بيروت - لبنان، (دط)، 1417 هـ - 1997 م، مج4، ج1.
46. ذيل الأمالي والنوادر، القالي، الهيئة المصرية للكتاب، جمهورية مصر العربية، (دط)، 1976 م، ج3.
47. الذيل والتكملة، المراكشي، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي، تح: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012، ج4.
48. رثاء الأندلس، أبو البقاء الرندي، جمع: أبو عبد الله عيسى بن محمد بن إبراهيم الشامي، كنوز الأندلس، (دط)، (دت).
49. رسائل ونصوص في اللغة والأدب والتاريخ، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1، 1408 هـ - 1988 م.
50. رواية اللغة، عبد الحميد الشلقاني، دار المعارف بمصر، كورنيش النيل، القاهرة . مصر، (دط)، (دت) .
51. الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم، الشهري عبد الرحمان بن معاضة، مكتبة دار المنهاج، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، ذو القعدة 1431 هـ.
52. شذرات الذهب في أخبار من الذهب، ابن العباد الحنبلي، دار ابن كثير، دمشق - سوريا، ط1، 1406 هـ - 1987 م، ج4.
53. شرح مثلثات قطرب، إبراهيم مقلاتي، دار الخلدونية، الجزائر، (دط)، 1434 هـ - 2013 م.
54. الصلة، ابن بشكوال، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة - دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط1، 1410 هـ - 1989 م، مجلد 11، ج2.
55. ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي: بيروت - لبنان، (دط)، (دت)، ج2.
56. طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، 1984 م.
57. طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجهمي، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّة، (دط)، (دت) .
58. الطرة على لامية الأفعال والمحمة، الحسن بن زين القناني الشنقيطي، تح: سالم بن بوجعة موريدا، دار الفضيلة، الجزائر، ط2، 1438 هـ - 2017 م.
59. طيبة النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تح: محمد تميم الزعبي، مكتبة الهدى، المدينة المنورة، ط2، 1414 هـ - 1994 م.

60. ظهر الإسلام، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، (د ط)، 2013م، ج 1.
61. العقد الفريد، ابن عبد ربه، تح: عبد المجيد الرحيني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 1، 1404هـ - 1983م، ج 3.
62. علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مكتبة لسان العرب، عالم الكتاب، القاهرة، ط 5.
63. علم الدلالة، محمد غفران زين العالم، سور أبايا، جامعة سونن أمبيل الإسلامية الحكومية، سنة 1997.
64. علم اللغة نشأته وتطوره، محمود جاد الرب، دار المعارف - كرنيش النيل - القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط 1، 1985.
65. علم اللغة، محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، (دب)، (دط)، 1428هـ - 2007م.
66. الفاخر في الأمثال، المفضل بن سلمة بن عاصم الضبي، عناية وتحشية: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط 1، 2011.
67. فتح الرحيم الرحمان شرح لامية ابن الوردي، السيد الشريف مسعود بن حسن بن أبي بكر القناوي الشافعي، دار الفكر، بيروت - لبنان، (دط)، (دت) .
68. الفصوص في الملح والنوادر والعلوم والآداب، صاعد بن الحسن الربيعي البغدادي، تح: محمد السيد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (دط)، (دت)، ج 2.
69. فصول في أصول لعلم اللغة العربية، عبد الرحمان بن عون كوني، دار الميراث النبوي، المحمدية، الجزائر، (دط)، 1440هـ - 2018م.
70. فهرسة ابن خير، ابن خير، تح: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 2009.
71. الفهرست، ابن النديم، تح: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، (دط)، 1430هـ - 2009م، ج 1.
72. في أصول النحو، سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي، بيروت، (دط)، 1407هـ - 1987م.
73. القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة السماعية، ابن الحاجب، تحقيق وشرح: طارق نجم عبد الله، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، ط 1، 1405هـ - 1985م.
74. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله كاتب جلي، تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (دط)، 2017م، ج 1.
75. كشف الظنون، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (دط)، (دت)، ج 1.

76. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، 1995.
77. المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين يوسف دويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، ط1، 1414هـ - 1994م.
78. مجمع الأمثال، الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للأستانة الرضوية المقدسة، (دط)، آذار، 1344هـ، ج1.
79. المحاسن والأضداد، الجاحظ، عناية وتصحيح، محمد أمين الخانجي المكتبي، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1324هـ.
80. المدارس المعجمية - دراسة في البنية التركيبية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء، عمان - الأردن، ط1، 1435هـ - 2014م.
81. المدارس المعجمية دراسة في البنية التركيبية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء، عمان، الأردن، ط1، 1420هـ - 1999م.
82. المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط7، (دت) .
83. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي عبد الرحمان جلال الدين، تح: أحمد جاد المولى بله وآخرون، دار التراث. القاهرة مصر، ط3، (دت) ج1.
84. المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، عز الدين إسماعيل، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، (دط)، (دت) .
85. مصادر التراث العربية في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، عمر الدقاق، بيروت . لبنان، ط3، 1972.
86. المعاجم العربية دراسة تحليلية، عبد السميع محمد أحمد، دار الفكر العربي، ط2، 1974م.
87. المعاجم العربية موضوعات وألفاظا، فوزي يوسف الهابط، الولاء للطبع والتوزيع، ط1، 1413هـ - 1993م.
88. المعاجم العربية، مدارسها ومناهجها، عبد الحميد محمد أبو السكين، الفاروق الحرفية للطباعة والنشر، ط2، 1402هـ - 1993م.
89. معاجم الغريين في العربية، هيثم زينهم مرسى، تقديم: خالد فهمي، دار النشر للجامعات، مصر، ط1، 2017.
90. المعاجم اللغوية العربية بداءتها وتطورها، إميل يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت . لبنان، (دط)، (دت) .

91. المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، محمد أحمد أبو الفرج، دار النهضة العربية، ط1، 1966، ص 40.
92. معالم البيان في الحديث النبوي، عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، مكتبة دار المنهاج، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، 1435هـ.
93. المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري، مكتبة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، 1404هـ - 1984م.
94. المعجم العربي نشأته وتطوره، حسن نصار، مكتبة دار مصر، مصر، (دط)، (دت)، ج1.
95. معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، دار العرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط2، 1993م.
96. المعجمات العربية، محمد علي عبد الكريم الرديني، دار الهدى، عين مليلة - الجزائر، ط2، 2006.
97. المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، علي القاسمي، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 2002.
98. المعلقات العشر وأخبار شعرائها، أحمد الأمين الشنقيطي، تح: محمود محمد ساكر، دار النصر للطباعة والنشر، (دط)، (دت) .
99. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف بن جديع، مؤسسة الريان، مركز البحوث الإسلامية ليدز - بريطانيا، ط1، 1422هـ - 2001م.
100. مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط3، 1404هـ - 1984.
101. مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، ط1، 1997.
102. المقصور والممدود، أبو علي القالي، تح: أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط1، 1419هـ - 1999م.
103. مناهج معجمات المعاني إلى نهاية القرن السادس الهجري، أحمد فرج الربيعي، تح: عبده الراجحي، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر، (دط)، (دت) .
104. مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، تحقيق وعناية: فواز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، (دط)، (دت)، ج1.
105. منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ابن الجزري، مكتبة القدسي، القاهرة، (دط)، 1350هـ.
106. منظومة أبي إسحاق الإلبيري، الإلبيري، أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي الغرناطي، أكمال بوكاستور، مقاديشو - الصومال، ط1، 1435هـ - 2014م.

107. النحو والنحاة المدارس والخصائص، خضر موسى محمد محمود، عالم الكتب بيروت - لبنان، ط1، 1423هـ-2003م.
108. نشأة المعاجم العربية وتطورها (معاجم المعاني - معاجم الألفاظ)، ديزيرة سقال، دار الصداقة العربية، بيروت - لبنان، ط1، 1995.
109. النشاط المعجمي في الأندلس، يوسف عيد، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط1، 1412هـ-1992م.
110. نشر العلم في شرح لامية العجم، بحرق محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي، دار المنهاج - جدة، ط1، 1433هـ-2012م.
111. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد محمد المقرئ التلمساني، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان، (دط)، (دت)، ج1.
112. نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد معبد، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ط1، 1406هـ - 1986م.
113. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، مؤسسة التاريخ العربي، ط وكالة المعارف الجلييلة، اسطنبول - تركيا، (دط)، 1951، ج1.
114. ووفيات الأعيان، ابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (دط)، 1398هـ - 1978م.

ثانياً- كتب الحديث

115. الثمرات الجنية بشرح المنظومة البيقونية، أحمد بن علي بن المثنى القفيلي، دار عمر بن الخطاب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 1426هـ - 2005م.
116. الدلائل، قاسم بن ثابت، تح: محمد بن عبد الله القناص، مكتبة العبكان، الرياض، ط1، 1422هـ - 2001م، ج1.
117. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث تحقيق وضبط وتخریج: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، (دط)، 1430هـ-2009م، 131/2، والحديث صحيح، أورده أبو داود في سننه، ج2.
118. صحيح البخاري، البخاري، تخریج: عز الدين ضلي وآخرون، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت-لبنان، (دط)، 1433هـ - 2012م، ج2.
119. صريح السنة، الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، تح: بدر بن يوسف المعتوق، مراجعة: بدر بن عبد الله البدر، مكتبة أهل الأثر، الكويت، ط2، محرم 1426هـ - كانون الثاني 2005م.

120. صفة صلاة النبي ﷺ، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، (دط)، (دت) .
121. مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، الدارمي الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمان بن الفضل بن بهرام، تح: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421هـ - 2000م، ج1.
122. مصطلح الحديث، ابن عثيمين، دار الإمام مالك، الجزائر، ط1، 1423هـ - 2003م.
123. المنظومة البيقونية، البيقوني طه بن محمد الشافعي، دار المغني، المملكة العربية السعودية، ط2، 1427هـ - 2007م.

ثالثاً- كتب الغريب

124. غريب الحديث، ابن الجوزي، توثيق وتعليق وتخريج الأحاديث: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (دط)، 1425هـ - 2004م، ج1.
125. الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (د د)، (د ب)، ط2، (د ت)، ج1.
126. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، ط1، 2012م.
127. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تح: محمود محمد الطناحي - طاهر أحمد الزاوي، المكتبة الإسلامية، (دب)، ط1، 1383هـ - 1963م، ج2.

رابعاً- المعاجم والقواميس

128. أساس البلاغة، الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط1، 1419هـ - 1998م، مج1.
129. الأفعال، السرقسطي، تح: حسين محمد محمد شرف ومحمد مهدي علام، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (دط)، 1395هـ - 1975م.
130. البارع في اللغة، القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم، تح: هاشم الطعان، مكتبة النهضة . بغداد، دار الحضارة العربية. بيروت، ط1، 1975.
131. التفتية في اللغة، البندنجي، اليمان بن أبي اليمان، تح، خليل ابراهيم العطية، مطبعة العاني، بغداد، العراق، (دط)، 1976.
132. تهذيب اللغة، الأزهرى، تح: عبد السلام هارون ومحمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (دط)، (دت)، ج1.

133. الجامع في اللغة - قطعة من معجم مفقود، القزاز أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني، تح: أنور صباح محمد، معهد المخطوطات العربية، 21 ش المدينة المنورة - المهندسين - القاهرة - جمهورية مصر العربية، ط1 (نشرة أولى)، 1441هـ - 2019م.
134. جمهرة اللغة، ابن دريد، تح: رمز منير بعلبكي، دار العلم للملايين: بيروت. لبنان، ط1، 1987، ج1.
135. الزاهر في معاني كلام الناس، ابن الأنباري، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط1، 1412 هـ - 1992 م، ج1.
136. الزاهر في معاني كلمات الناس، ابن الأنباري أبو بكر محمد بن القاسم، إهداء سيف بن أحمد العزيز، دار البشائر، دمشق، ط3، 1424هـ/2004م.
137. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، مكتبة المعارف، بيروت - لبنان، ط1، 1414هـ - 1993م.
138. الصراح، تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري إسماعيل بن حماد أبو نصر، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط2، 1399هـ - 1979م، ج1.
139. الغريب المصنف، أبو عبيد القاسم بن سلام، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، يور سعيد، الظاهر، جمهورية مصر العربية، ط1، 1989، ج1.
140. الغريب المصنف، أبو عبيد القاسم بن سلام، تح: محمد المختار العبيدي، دار سحنون للنشر والتوزيع - المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، ط2، 1416هـ - 1996، ج1.
141. فائت الفصيح، أبو عمر الزاهد، تح: عبد العزيز مطر، مطبعة جامعة عين شمس، (دط)، 1976م.
142. فعلت وأفعلت، الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل، تح: ماجد حسن الذهبي، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق - سوريا، (دط)، (دت).
143. فقه اللغة وسر العربية، الثعالبي الإمام منصور بن عبد المالك، دار ابن الجوزي، القاهرة: جمهورية مصر العربية، ط1، 1436هـ - 2015م.
144. لحن العوام، الزبيدي أبو بكر محمد بن حسن بن مدحج، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1420هـ - 2000م.
145. لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف. كورنيش النيل. القاهرة، مصر، دط، دت، ج1.
146. المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1421 هـ - 2000م.

147. محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان، (دط)، 1987م.
148. مختصر العين، الزبيدي، تح: علال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي، المكتبة المغربية، (دط)، (دت) .
149. المذكر والمؤنث، ابن الأنباري، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، (دد)، القاهرة جمهورية مصر العربية، (دط)، 1401هـ - 1981 م، ج 1.
150. المذكر والمؤنث، الفراء أبو زكرياء يحيى بن زياد، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط 2، 1989.
151. المصباح المنير، الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان، (دط)، 1987م.
152. المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (دد)، ط 1، 1421هـ - 2000م.
153. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار التحرير للطبع والنشر، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، (دط)، 1989م.
154. المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط 4، 1425 هـ - 2004م.
155. المنجد في اللغة والأدب والعلوم، لويس المعلوف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت - لبنان، ط 17، (دت) .
156. النوادر في اللغة، أبو زيد الأنصاري، تح: محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، بيروت - لبنان، ط 1، 1401هـ - 1981م.
157. النوادر، أبو مسحل الأعرابي، عبد الوهاب بن جريش، تح: عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق - سوريا، (دط)، 1380 هـ - 1961 م، ج 1.

خامسا- الدواوين

158. ديوان ابن معصوم المدني، ابن معصوم، ص 502/1-503، مطابق للأصل، www.shamela.ws
159. ديوان الشافعي، الشافعي محمد بن إدريس أبو عبد الله، تح: عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر - القاهرة - جمهورية مصر العربية، ط 2، 1405 هـ - 1985 م.
160. ديوان الكميت بن زيد الأسدي، تح: محمد نبيل طريقي، دار صادر، ط 1، 2000م.

سادسا- الرسائل والاطروحات:

161. الحركة اللغوية في الأندلس، ألبر حبيب مطلق، رسالة أكاديمية- أستاذ في الآداب، الجامعة الأمريكية- بيروت لبنان، أيار 1965.
162. الدراسات اللغوية في العراق، عبد الجبار جعفر القزاز، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، شوال 1399هـ- أيلول 1979م.
163. معالجة المادة المعجمية في القاموس المحيط للفيروزآبادي، العربي طريل، بحث ماجستير، علوم اللسان العربي، غير منشورة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2012/ 2013.

سابعا- المجالات والدوريات:

164. المتن اللغوي في المعجم العربي، دراسة في كيفية المعالجة، حيدر عدنان، مجلة اللغة العربية، ع: 6، 2008، جامعة الكوفة- العراق.
165. مجلة الشمال للعلوم الإنسانية، جامعة الحدود الشمالية، مجلد (4)، عدد (1)، 1440هـ- 2019م.
166. المعاجم العربية، محمد جابر فياض العلواني، مجلة البحوث الإسلامية، ع 11.
167. المقصور والممدود لأبي علي القالي، أحمد عبد المجيد هريدي، مجلة معهد المخطوطات العربية، (دع)، (ذوالحجة 1394 هـ - نوفمبر 1974 م)، مج 20، ج 02.

ثامنا- المواقع الإلكترونية:

168. معالجة المادة المعجمية في المعاجم اللفظية القديمة، محمد بن سعيد الثبتي، المكتبة الشاملة الحديثة:
<https://al-maktaba.org/book/1190/4194#>

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتويات
	الإهداء
	شكر وعرفان
أ - ي	مقدمة
	الفصل الأول
	التأليف المعجمي بين المشرق والمغرب حتى عصر القالي
13	المبحث الأول: بدايات التأليف المعجمي العربي
13	أولاً- جمع المادة المعجمية (المعايير والآليات)
21	ثانياً- تدوين المادة المعجمية
28	المبحث الثاني: التأليف المعجمي في المشرق
28	أولاً- معاجم الألفاظ
64	ثانياً- معاجم المعاني
72	المبحث الثالث: التأليف المعجمي في المغرب والأندلس
72	أولاً: الواقع اللغوي الأندلسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري
78	ثانياً- معاجم الألفاظ
85	ثالثاً- معاجم المعاني في المغرب والأندلس
95	المبحث الرابع: ملامح التأثير والتأثير بين المشرق والمغرب والأندلس
95	أولاً- أسباب التأثير والتأثير
102	ثانياً- مظاهر التأثير والتأثير بين المشرق والمغرب في المجال المعجمي
	الفصل الثاني
	أبو علي القالي وجهوده اللغوية
124	المبحث الأول: ترجمة لأبي علي القالي
124	أولاً- المولد والنشأة
125	ثانياً- رحلاته وحياته العلمية
136	ثالثاً- ظروف وفاته

139	المبحث الثاني: أبو علي والتأليف اللغوي
140	أولاً- الكتب المشرقية التي أتى بها القالي
151	ثانياً- الكتب التي ألفها القالي في الأندلس
166	المبحث الثالث: دور أبي علي القالي البغدادي في بعث الحركة اللغوية والأدبية بالأندلس
167	أولاً- جهود أبي علي القالي اللغوية
174	ثانياً- جهود أبي علي القالي البغدادي الأدبية في الأندلس
184	ثالثاً- الأسباب المساعدة لأبي علي البغدادي في إحداث حركة علمية لغوية بالأندلس
191	رابعاً- نتائج الحركة العلمية بالأندلس في عهد أبي علي القالي البغدادي
الفصل الثالث منهج أبي علي القالي في كتابه البارع في اللغة	
197	المبحث الأول: التعريف بكتاب البارع لأبي علي القالي
197	أولاً- سبب التسمية والهدف من التأليف
199	ثانياً- بين البارعين أو البارعات
205	ثالثاً- سبب التأليف وزمنه
206	رابعاً- وصف الكتاب ومخطوطاته
210	خامساً- كلام العلماء على كتاب البارع
212	سادساً- تكملة كتاب البارع
213	سابعاً- مناقشة بين كتاب «العين» وكتاب «البارع»
218	المبحث الثاني: الترتيب الخارجي للبارع
218	أولاً- تعريف الترتيب الخارجي
220	ثانياً- المدرسة المعجمية التي ينتمي إليها «البارع»
221	ثالثاً- أسس الترتيب الخارجي للبارع
228	رابعاً- خصائص ومميزات كتاب «البارع»
235	المبحث الثالث: البارع بين التأثير والتأثير
235	أولاً- البارع وقضية التأثير
257	ثانياً- البارع وقضية التأثير

الفصل الرابع	
معالجة المادة المعجمية في "البارع في اللغة"	
266	المبحث الأول: المادة المعجمية في البارع ترتيبا ودلالة
266	أولا- الترتيب الداخلي للبارع
283	ثانيا- التحليل الدلالي في البارع
303	المبحث الثاني: الاستشهاد وأنواعه في البارع
303	أولا- القرآن الكريم
307	ثانيا- القراءات القرآنية
311	ثالثا- الحديث النبوي الشريف
317	رابعا- الشعر
331	خامسا- النثر
341	المبحث الثالث: نقد وتقييم للبارع
341	أولا- مساهمة البارع في إثراء العربية
377	ثانيا- المآخذ والملاحظات على البارع
392	الخاتمة
397	قائمة المصادر والمراجع
410	فهرس المحتويات
	الملخص

الملخص

الملخص:

إن أهل اللغة العربية الأول بذلوا جهودا وجهودا في سبيل حفظ اللغة العربية، وصيانتها من كل ما يشوبها، وقد توجت الجهودات بمظهر يليق بالأعمال اللغوية الكبيرة، ألا وهو المعاجم العربية بنوعيتها الألفاظ والمعاني.

فمعاجم الألفاظ في التراث اللغوي العربي كان مبدعها الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ)، وهو الذي شق طريقه في هذا المجال مجال الصناعة المعجمية، راسما لغيره منهجا علميا دقيقا يسرون عليه في غاياتهم المعجمية.

وإذا كان الخليل رائد المدرسة المعجمية الصوتية - مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليب - في المشرق فإن المغرب قد حفل بما يساير قرينه تقريبا والمتمثل في جهود أبي علي القالي والتي ظهرت بشكل بارز في المغرب العربي والأندلس بخاصة.

القالي بمعجمه البارع في اللغة رسم منهجا جديدا في الصناعة المعجمية، ذلك أن الرجل متشبع بثقافتين أو يزيد، وهذه الروافد هي التي كانت سببا في صنع الشخصية العلمية المعجمية. البارع في اللغة لأبي علي القالي في المغرب العربي والأندلس يمثل نقطة تحول في الدراسات اللغوية العربية عموما والمعجمية منها على وجه الخصوص.

البارع في اللغة يمثل الانطلاقة الحقيقية للتأليف في المعاجم العربية لغرب البلاد، فكانت عديد المؤلفات اللغوية في المغرب العربي والأندلس تبعا له. ويتوقف في ذلك على صاحب المؤلف أكثر من ذلك أو أقل.

لقد اعتنى اللغويون بصنيع القالي المعجمي وإبداعه في "البارع في اللغة"، حيث كان أول من وفق لضبط الكلمات بالشكل والنص على ذلك تجنباً للتصحيف وآثاره.

ظهر تأثير المعجمين بعمل المعجمي الكبير أبي علي القالي في كتابه البارع في اللغة حيث أفاد منه البعض في طريقة ترتيب المفردات والألفاظ الصوتية، وآخرون أفادوا من المادة اللغوية عموما، والمعاني التي رسمها الرجل.

الكلمات المفتاحية: البارع، القالي، المعجم، الصناعة المعجمية، التقاليب، الترتيب الصوتي.

Abstract:

The first people of the Arabic language made efforts and efforts in order to preserve the Arabic language and preserve it from all that tainted it.

The dictionaries of words in the Arabic linguistic heritage were its creator, Al-Khalil bin Ahmad Al-Farahidi (175 AH) , who made his way in this field in the field of lexical industry, drawing for others an accurate scientific method that they follow in their lexical goals.

And if Al-Khalil was the pioneer of the vocal lexical school - the school of phonetic arrangement and permutations - in the Levant, then the Maghreb was celebrated with what almost goes along with his peer, represented in the efforts of Abi Ali Al-Qali, which appeared prominently in the Maghreb and Andalusia in particular.

Al-Qali, with his skilled lexicon, drew a new approach to the lexical industry, because man is saturated with two or more cultures, and it is these tributaries that were the reason for creating the scientific lexical personality.

The skill in language by Abi Ali Al-Qali in the Maghreb and Andalusia represents a turning point in Arabic linguistic studies in general and lexical studies in particular.

The skilled in the language represents the real breakthrough for writing in the Arabic dictionaries of the west of the country, so many linguistic works in the Maghreb and Andalusia were according to it. It depends more or less on the author of the author.

Linguists took care of Al-Qali's lexical craftsmanship and creativity in "Al-Baree' fi al-Lughah", as he was the first to adjust words in form and text in order to avoid correction and its effects.

The influence of the lexicographers appeared on the work of the great lexicographer Abi Ali Al-Qali in his book "The Adept in the Language."

Keywords: the master, the voice, the lexicon, the lexical industry, the permutations, the phonetic arrangement.

جملہ